الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة غرداية

مجلة الواحات للبحوث والدراسات

تصدر عن جامعة غرداية - الجزائر

المجلد:06 العدد:01، جوان 2013

ردمد: 1112-7163

مجلة الواحات للبحوث والدراسات
المجلد: 06 العدد: 01، جوان 2013
ELWAHAT

ISSN: 1112-7163

République Algérienne Démocratique et Populaire

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique

Université de Ghardaïa

Revue « ELWAHAT » pour les Recherches et les Etudes

Editée par l'Université de Ghardaïa - Algérie

Volume 06 N° 01, Juin 2013

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 140 - 148
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

أثر عدم الاستقرار السياسي على مؤشرات أداء الاقتصاد الكلي
- الاقتصاد المصري نموذجا -

عبد الرحمان بن سانية

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة :

عرفت مجموعة من الدول العربية في شمال إفريقيا والشرق الأوسط في أواخر عام 2010 ومطلع 2011 موجة عارمة من الثورات والاحتجاجات ضد الأنظمة السياسية القائمة باتت تعرف باسم "ثورات الربيع العربي" التي كان محركها الرئيسي انتشار الفساد والركود الاقتصاديّ وسوء الأحوال المَعيشية، إضافة إلى التضييق السياسيّ وسوء الأوضاع عموماً في البلاد العربية.[1] ولقد كانت مصر إحدى هذه الدول، حيث عرفت حالة من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي انطلقت مع ما بات يعرف بثورة 25 يناير 2011 ولازالت مستمرة إلى الآن.وحسب تقرير صندوق النقد الدولي حول آفاق الاقتصاد العالمي فإن الآفاق المستقبلية لاقتصاديات الربيع العربي في المدى القصير تبدو غير واضحة ويطبعها الغموض وعدم اليقين، والسبب يرجع أساسا إلى عدم الاستقرار السياسي والأمني، ويتوقع التقرير أن تتراجع معدلات النمو مستقبلا بصفة محسوسة في هذه الاقتصاديات، وأن التعافي من الاضطرابات الاجتماعية سيكون بطيئا، وبالتالي سيصاحبه تعافٍ بطيء في إيرادات السياحة وتحويلات المغتربين.[2] وبعيداً عن البحث في الأسباب الكامنة وراء هذه الحالة، فإن هذه الورقة تهدف إلى بحث الطبيعة التبادلية للعلاقة بين الاستقرار السياسي والأداء الاقتصادي الكلي من خلال نقيض مفهوم الاستقرار، أي من خلال كيفية تأثير عدم الاستقرار السياسي على أداء الاقتصاد الكلي (الاقتصاد المصري كحالة)، وكيف يعمل بالمقابل ضعف الأداء على إنشاء حالة عدم استقرار، وذلك في سبيل الإجابة على الإشكالية التالية:

كيف أثرت حالة عدم الاستقرار السياسي التي شهدتها مصر في الفترة الأخيرة على أداء اقتصادها الكلي، وكيف ساهم ضعف الأداء الاقتصادي بالمقابل في زعزعة الاستقرار السياسي بهذا البلد؟

1- مفهوم الاستقرار السياسي

يعّرف ريتشارد هيجتون الاستقرار السياسي بأنه:

«قدرة النظام السياسي على التكيف من خلال التعامل مع الأزمات بشكل ناجح وإدارة الصراعات داخل المجتمع بطريقة تمكنه من السيطرة عليها والتحكم فيها وذلك باستخدام أسلوب كفؤ للإقناع مستندًا إلى الشرعية السياسية»[3]

2- العوامل المؤثرة على الاستقرار السياسي

يمكن تصنيف العوامل المؤثرة على الاستقرار السياسي إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية:[4]

2-1 العوامل الداخلية: ويمكن تصنيفها إلى:

عوامل سياسية:

-القيادة السياسية ونظام انتقال السلطة.
-الأحزاب السياسية.
-المؤسسية السياسية: مدى تكيف وتجانس تنظيمات النظام السياسي وإجراءاته.
-الفساد السياسي: أي استعمال المنصب السياسي لمنفعة ذاتية تتعارض مع المنفعة العامة.

عوامل اقتصادية:

-الأزمات والمشكلات الاقتصادية وعلى رأسها البطالة.
-التركيب العمري للسكان (صراع الأجيال :شباب/كبار حول الأوضاع القائمة).
-الحرمان والفقر.

عوامل ثقافية: وترتبط بالأقليات كقوى اجتماعية قائمة على أساس ديني أو لغوي أو اجتماعي أو جغرافي بصفة مستمرة.

2-2 العوامل الخارجية : ترتبط بالبيئة الإقليمية أو الدولية وأهمها:

الدول الكبرى: وذلك من خلال تدخلها المباشر أو غير المباشر في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، وتغذيتها للصراعات الداخلية فيها، أو بالعكس حمايتها للقيادات الحاكمة بحثا عن تكريس التبعية الاقتصادية والسياسية.

الشركات متعددة الجنسيات: وهي تمثل مصدرًا مهما للمعلومة عن الأوضاع الداخلية للبلدان، ولها تأثيرها على الحياة السياسية للبلد وفق ما يخدم مصالحها، وقد يصل الأمر إلى حد إسقاط النظام (كما هو الحال في دور شركة ITT في الإطاحة بالحكومة في الشيلي).

3- مؤشرات قياس الاستقرار السياسي

تستعمل مؤشرات عديدة لقياس الاستقرار السياسي، وهي تختلف من باحث لآخر، مع الاتفاق على مجموعة مشتركة من المؤشرات كالعنف، والاستقرار الحكومي، والمظاهرات والاضطرابات...الخ. وفي دراسة حديثة للباحثين Anthony Annett et Kaufmanet تَم قيَاس الاستقرار السياسي من خلال مؤشرات حول إدارة الحكم،بقيم تتراوح بين (-2.5) و (+2.5) حيث تشير القيم العليا إلى مستوى استقرار أفضل.

استخدامAnnett تسعة مؤشرات هي:[5]

-الحوادث الإبادية التي تتضمن ضحايا عموميين، أو خلطت ضحايا عموميين وسياسيين.
-حدوث حرب أهلية.
-عدد الاغتيالات لكل ألف من السكان.
-عدد المرات الإجبارية لتغيير النخبة الحكومية العليا.
-عدد المرات غير الشرعية لتغيير النخبة الحكومية العليا، أو أي محاولة في هذا الاتجاه، أو أي تمرد مسلح ناجح للاستقلال عن الحكومة المركزية.
-المظاهرات أو الاشتباكات العنيفة التي تضم أكثر من 100 مواطن.
-عدد الأزمات الحكومية الرئيسية.
-عدد مرات قدوم رئيس وزاري جديد أو مناصب وزارية جديدة خلال سنة.
-عدد التعديلات الأساسية في التركيب الدستوري.

أما Kaufman فيقيس دليل الاستقرار السياسي من خلال:

-عدد مظاهرات الاحتجاج السياسي.
-عدد الاضطرابات السياسية.
-عدد الهجومات المسلحة.
-عدد مرات الموت من العنف.

4- الاستقرار السياسي وأداء الاقتصاد الكلي:

(طبيعة علاقة التأثير)

رغم تعدد واختلاف وجهات الأبحاث التي درست العلاقة بين استقرار النظام السياسي والتنمية، وهل أن طبيعة النظام هي التي تؤثر على الأداء الاقتصادي أم العكس؟ وهل للاستقرار السياسي تأثير على الأداء الاقتصادي أم العكس أن هذا الأخير هو من يحدد درجة الاستقرار السياسي؟ أم هل أن الثلاثية: طبيعة النظام، الاستقرار والنمو تتفاعل ويدعم بعضها بعضا؟ فإن نتائج هذه البحوث أكدت في معظمها العلاقة المتينة بين الاستقرار السياسي و رتم النمو الاقتصادي، كما نجد ذلك في دراسة Deniz Akagul التي درست حالة تركيا في الفترة من 1950 إلى 2002، وخلصت إلى أن الحكومات الوطنية المستقلة يجب أن تكون قادرة على خلق بيئة مستقرة للمؤسسات، تضمن على الأقل عدم حدوث حروب أهلية، أو عصيان مدني، أو اجتياح من الخارج.[6] إن تاريخ البلدان النامية غني بالأمثلة الدالة على أن الصراعات الداخلية والحروب من أهم أسباب التخلف، حيث تؤدي إلى تعطيل الموارد، انخفاض مستوى المعيشة، هجرة الكفاءات، هروب رؤوس الأموال والارتماء في أحضان التبعية الاقتصادية والسياسية للدول المتقدمة.[7] وفي نهاية سنوات 1990، حوالي ثلث 42 دولة من إفريقيا جنوب الصحراء عرفت نزاعات حدودية أو

ثورات مدنية مكلفة جدًا على الحياة البشرية ومدمرة للبنى التحتية والمؤسسات،[8] وعدم الاستقرار الطويل الذي عرفته الصين (اضطرابات داخلية وعدوان خارجي) كان السبب الرئيسي في تأخر نهضتها الاقتصادية، ونفس الشيء يقال عن عدم تطور الاقتصاد الفيتنامي سنوات الخمسينيات والستينيات، واقتصاد كمبوديا سنوات السبعينيات والثمانينيات، والقائمة طويلة تشمل بلدان أخرى كبوليفيا، باكستان، غانا، اثيوبيا، سلفادور، الصومال، رواندا، وليبيا واليمن وتونس في الآونة الأخيرة (فيما عرف بالربيع العربي).وإذا أخذنا جمهورية الكونغو كمثال، فإن عدم الاستقرار الاقتصادي والسياسي الذي عرفته، متمثلا في معدل تضخم بلغ 2800%سنويا للفترة 1990-2002 !! وحرب أهلية ونزاعات حدودية..كان لها الأثر السلبي على التنمية بهذا البلد، حيث أن معدل النمو الاقتصادي به يعتبر من الأكثر كارثية عالميًا (-7.2% سنويا أي بانهيار للدخل المتوسط بـ60% في 12 سنة)، وانخفض أمل الحياة من 52 إلى 45 سنة، وانتقلت وفيات الأطفال من 128 إلى 139%!.[9]

ويبّين الشكل الموالي أن الدخل الفردي في ست دول نامية عرف انخفاضا معتبرًا يقدر بـ28%في المتوسط بسبب حروب أهلية.

شكل رقم 1: انخفاض الدخل في مجموعة الدول النامية تبعا لحدوث حروب أهلية

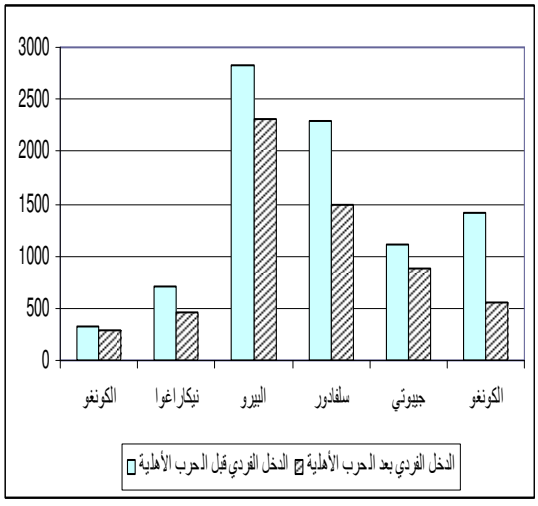

المصدر: من إعداد الباحث استنادا إلى معطيات في:

- Dwight H. Perkins et autres, économie du développement, 3eme ed., de boeck, Paris, 2008, p: 104.

من جهة أخرى، فإنه تنبغي الإشارة إلى أن العلاقة بين الاستقرار السياسي وأداء الاقتصاد الكلي هي علاقة تبادلية، فكما أن عدم الاستقرار س يعتبر سببا من أسباب تخلف التنمية فإنه في الوقت ذاته يعتبر نتيجة للإخفاق في تحقيق تنمية ناجحة وعادلة تلبي تطلعات الفرد في الدول النامية.

وإذا أخذنا الدول العربية كمثال، فإن النمو الاقتصادي في مختلف هذه الدول اتسم بالركود شبه الكامل على مدى عقدين ونصف منذ 1980، حيث لم يتجاوز نمو نصيب الفرد الحقيقي من الناتج المحلي الاجمالي في البلاد العربية 0.5 % سنويا طوال نفس الفترة، كما أن معدل البطالة فيها كان من أعلى المعدلات في العالم ، حيث تراوح بين 14% و20 % من القوى العاملة العربية ، كما تعتبر الدول العربية بالنسبة للفقر ضمن المناطق الاكثر فقرا في العالم ، حيث تشير بيانات البنك الدولي إلى أن 20.37 % من المواطنين العرب يعيشون دون خط الفقر (أي ما يعدل أو يفوق65 مليون عربي)، إضافة الى أن نسبة الفقر المدقع لكل الدول العربية قد بلغت بين العامين 2000 و 2005 نحو 18.3% ، وهي أعلى من النسبة التي سجلت في تسعينيات القرن الماضي حيث بلغت نحو 17.6 %

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الأداء الاقتصادي بهذه الدول تميز بتغيرات فجائية وعشوائية متقلبة تبعا للظروف ، كانت عاجزة عن توسيع الخيارات المتاحة للأجيال المتعاقبة ولم تتمكن من تحقيق تنمية مستدامة، وهذا رغم ما من إنجازات محدودة في قطاعات البنى التحتية. ولهذا يُقدر التقرير الاقتصادي العربي الموحد أن أكثر من نصف سكان الدول العربية لم يصله الكهرباء بعد، خاصة في الارياف والمناطق النائية، وانه لا يزال نحو ربع سكان هذه الدول محروماً من مياه الشرب الآمنة ، ونحو ثلثهم لا تتوفر لهم شبكات مرافق الصـــــــــــــــرف الصحي المناسب.[10]

ومن ذلك نخلص إلى أن العلاقة بين الاستقرار السياسي والأداء الاقتصادي ذات معنى في اتجاهها من الثاني للأول، ذلك أن تحقيق معدلات جيدة للأداء الاقتصادي في جملة من المؤشرات الاقتصادية الكلية يعتبر أمرا غير كاف إذا ترافق ذلك بضعف الفعالية في تحقيق التوزيع العادل للمكاسب الاقتصادية بين أفراد المجتمع، وبالتالي فإن ضعف الأداء الاقتصادي في هذا الجانب وما يتبعه من انتشار للفقر والبطالة سيغذي نزعة عدم الاستقرار السياسي والاضطرابات الاجتماعية بشكل يعصف بالمكاسب المحققة من جهة، ويصعب عملية استمرار التنمية من جهة أخرى.

5- نظرة على الاقتصاد المصري قبل أحداث عدم

الاستقرار

حسب تقرير للمركز المصري للدراسات الاقتصادية فإن الاقتصاد المصري كان يحقق مستويات نمو قبل الأزمة المالية العالمية تتجاوز 4% إن دراسة الآثار المختلفة لعدم الاستقرار السياسي الذي عرفته مصر في ظل ما سمي بثورات الربيع العربي على أدائها منذ عام 2004 وبلغت الذروة عام 2007-2008 بتخطي نسبة نمو سنوي تقدر بـ 7%، ورغم تأثير الأزمة المالية على الاقتصاد المصري إلا أن هذه النسبة لم تنخفض إلا بشكل قليل تحت مستوى 5% لتعاود الارتفاع منذ عام 2010. وقد شهد النصف الأول من هذه السنة استقرارا نسبيا في معدل التضخم الكلي، كما أن الاستهلاك شكل المحرك الرئيسي لنمو الاقتصاد بنسبة تتجاوز في الغالب 75%، مدعوما بالاستثمار والصادرات، كما حقق الاقتصاد ارتفاعا في نسبة الإيرادات من العملة الأجنبية. إلا أن هذه

	جويلية-سبتمبر	اكتوبر - ديسمبر	جانفي-مارس	افريل-جوان
2010-2011	5.5	5.7	3.8-	0.3
2011-2012	0.3	0.4	5.2	3.3

المؤشرات الإيجابية، وحسب ذات التقرير، ترافقت مع عدم كفاية التعليم، والجمود الهيكلي في سوق العمل، مما أدى إلى تباطؤ نمو التشغيل، فارتفعت معدلات البطالة، وساءت الأحوال الاجتماعية للسكان، وارتفعت معدلات عدم المساواة في الدخل، ومعدلات الفقر، وذلك بسبب غياب إطار للعمل التنظيمي والافتقار إلى مؤسسات سليمة مما أدى إلى زيادة الفساد وحال دون وصول المكاسب الاقتصادية إلى القاعدة العريضة من الشعب.[11]

6- أثر عدم الاستقرار السياسي على أداء الاقتصاد المصري

إن دراسة الآثار المختلفة لعدم الاستقرار السياسي الذي عرفته مصر في ظل ما سمي بثورات الربيع العربي على أدائها الاقتصادي أمر تصعب الإحاطة بكل جوانبه بشكل دقيق، ذلك أن أحداث عدم الاستقرار لازالت متواصلة وما زالت تتفاقم وتتمدد (*) ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بمداها وحدودها ومتى ستنتهي، ومن ثم فإن ما يمكن تقديمه هو الوقوف على بعض مداخل تأثيرات عدم الاستقرار على اقتصاد مصر ومحاولة استشراف الدروس الاقتصادية المستفادة في ضوء ما هو متوفر من معلومات.

6-1 الآثار على معدلات النمو الاقتصادي

إن الخسائر الفادحة التي منيت بها اقتصادات الدول التي شهدت أحداث ما سمي بالربيع العربي دفعت بالعديد من المؤسسات الدولية إلى توقع حدوث تراجع كبير في معدلات النمو الاقتصادي لهذه الدول، حيث حذر تقرير لمعهد التمويل الدولي من أن كلا من مصر واليمن وسورية وتونس والبحرين قد تشهد هزة اقتصادية عنيفة تتجسد في تراجع إجمالي الناتج المحلي لعام 2011 بنحو 2.3%، وأشار التقرير إلى أن مصر ستكون المسبب الأساسي في هذا التراجع، حيث إن اقتصادها الذي يمثل نحو 218 مليار دولار سيتعرض لتراجع في الناتج المحلي الإجمالي بنحو 2.5%، أما تونس فسيتراجع الناتج المحلي الإجمالي لها بنحو 1.5%. وبالفعل فقد جاءت نتائج الربعين الأول والثاني من عام 2011 لتؤكد هذه التحذيرات، حيث تراجع معدل النمو في مصر خلال الربع الثالث من السنة المالية (جانفي - مارس) 2011ليصبح معدل نمو سالبا لأول مرة منذ عشر سنوات.[12]

جدول رقم 01 : تطور معدلات النمو الحقيقية للناتج المحلي الإجمالي المصري

(بتكلفة عوامل الإنتاج) %

المصدر: بناء على إحصائيات البنك المركزي المصري

فيلاحظ أن بداية أحداث عدم الاستقرار (ثورة 25 يناير 2011) ترافقت مع تحقيق معدل نمو سالب للاقتصاد المصري قدر بـ (-3.8)، ليواصل الاقتصاد المصري تحقيق معدلات أضعف بكثير خلال الربعين الأول والثاني من سنة 2011-2012 مقارنة بما يقابلهما من السنة المالية 2010-2011، ثم حقق تحسنا خلال الربعين الثالث والرابع من السنة الأخيرة (بسبب تحسن طفيف لمساهمة بعض القطاعات المرتبطة بالطلب المحلي كقطاع الصناعة التحويلية الذي ارتفعت مساهمته من -0.15 إلى 0.11%) سمح برفع معدل النمو الإجمالي السنوي لهذه السنة إلى2.2%بتحسن طفيف عن معدل نمو السنة السابقة (1.9%)، ليبقى بعيدا عن معدل النمو المحققة سابقا (5.1% سنة 2009-2010).

إن تراجع أداء الاقتصاد الكلي المصري يرجع سببه إلى تراجع مساهمة جملة من القطاعات الحيوية الارتكازية المرتبطة أساسا بطلب السوق الخارجي مثل قطاع قناة السويس وقطاع السياحة اللذين تراجع نموهما خلال الفترة الممتدة من أفريل-جوان 2011 إلى أفريل-جوان 2012 كالتالي:[13]

من 12.7% إلى 2.5% بالنسبة لنمو قطاع قناة السويس، وهو ما قهقر نسبة مساهمة هذا القطاع في

معدل النمو الإجمالي للاقتصاد من 0.38% إلى 0.08%خلال نفس الفترة.

من 19.5% إلى 15.4% بالنسبة لقطاع السياحة، فتراجعت بذلك مساهمة هذا القطاع في معدل النمو الإجمالي للاقتصاد من 0.76% إلى 0.48%خلال الفترة المذكورة.

2-6 الآثار على معدل التضخم

عرفت مصر ارتفاعا قياسيا في أسعار السلع والخدمات، خاصة أسعار السلع الغذائية وأسعار خدمات النقل، مما أدى إلى بلوغ معدل التضخم مستويات مخيفة، وكان تقرير معهد التمويل الدولي السابق الذكر قد توقع أن تشهد دول الربيع العربي ارتفاعاً في الأسعار بصفة عامة يصل إلى نحو 5.7% خلال عام 2011، مما يؤدي إلى بلوغ معدل التضخم في مصر مستوى 11.5 %.

ولم يبتعد الواقع كثيرا عن تلك التوقعات إذ وحسب إحصائيات البنك المركزي المصري فإنه منذ اندلاع الثورة في 25 يناير 2011 وحتى النصف الأول من عام 2011 فإن معدل التضخم في الاقتصاد المصري اقترب في الغالب أو تجاوز مستوى 9% ، ولم ينزل تحت مستوى 7% على مدى سنة ونصف (حتى جوان 2012)، ليعرف بعدها انخفاضا إلى حدود 4.44% في نهاية 2012 (انظر الجدول رقم 02)، ثم يعاود الارتفاع إلى 5.23 في جانفي2013 و 7.68 في فيفري 2013.

جدول رقم 02: **معدلات التضخم في الاقتصاد المصري خلال 2011-2012**

	جانفي	فيفري	مارس	أفريل	ماي	جوان	جويلية	أوت	سبتمبر	اكتوبر	نوفمبر	ديسمبر
2011	9,741	9,506	8,537	8,764	8,814	8,937	8,708	6,976	7,948	7,598	7,038	7,069
2012	6,865	7,296	8,676	8,364	7,220	7,035	6,337	5,336	3,836	4,641	4,200	4,437

المصدر: إحصائيات البنك المركزي المصري

3-6 الآثار على سوق العمل :

تشير إحصائيات الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء بمصر إلى أن معدل البطالة قفز مع بداية الأحداث في جانفي2011 إلى 11.9% بزيادة ثلاث نقاط مئوية كاملة عن نهاية سنة 2010 حيث كان معدل البطالة مستقرا عند 8.9%. أما في نهاية سنة 2012 فقد ارتفع معدل البطالة إلى 13%.[14]

وتبعا لنفس الإحصائيات فإن معدلات نمو التشغيل منذ بداية الثورة في مصر وإلى غاية الربع الثالث من السنة المالية 2011-2012 قد كانت سالبة في حدود -2%.[15]

4-6 الآثار على الميزانية والاستثمار

تشير بيانات الميزانية المصرية لسنة 2012 أن بند الاستثمارات الخاصة بمشاريع البنية التحتية سجل انخفاضا قدره 4 مليار جنيه مصري بمعدل انخفاض قدره 9.9% عن سنة 2011 وذلك تبعا لتوقف تنفيذ بعض المشاريع الاستثمارية بسبب حالة عدم الاستقرار التي تعرفها الدولة.

كما عرفت نفقات الدولة –مقارنة بسنة 2011- زيادة كبيرة قدرت بـ 30.5 % من الناتج المحلي الإجمالي أو ما يعادل 69.1 مليار جنيه مصري، كما استمرت الزيادة في الفوائد المدفوعة على الدين المحلي والخارجي بمعدل 22.8% وهو ما يستنفذ 34.4%من إجمالي الإيرادات.

إن هذه الوضعية نجم عنها عجز كلي لميزانية الدولة قدر بـ 166.7 مليار جنيه مصري، أو ما يعادل 10.8% من الناتج المحلي الإجمالي، وهي أعلى يبلغها هذا العجز طيلة الخمس سنوات السابقة كما يوضحه الشكل التالي:

شكل رقم 02: تطور العجز الكلي لميزانية الدولة المصرية كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي

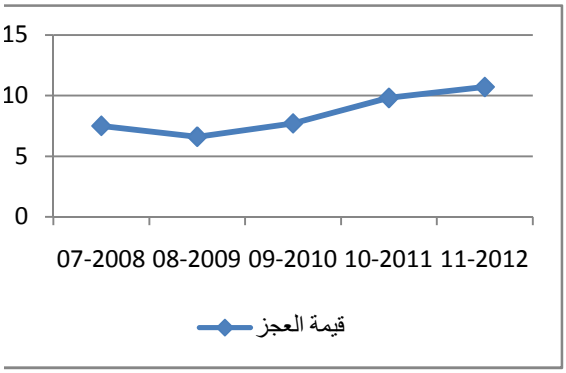

المصدر: البنك المركزي المصري، المجلة الاقتصادية ، المجلد 52، العدد 4، 2011-2012، ص: 68.

5-6 الآثار على أسواق المال :

لقد كانت بورصة مصر أولى الأسواق تأثراً بأحداث عدم الاستقرار، حيث تكبدت خسائر فادحة، واضطرت إلى الإغلاق لفترة معتبرة، وتشير الإحصائيات إلى أن البورصة المصرية حققت خسائر بلغت نحو 7.5%، وعرفت أسواق الأسهم تذبذبات متواصلة ناجمة عن تراجع ثقة المستثمرين المحليين والأجانب، وسعيهم كلما ساءت الأحوال الأمنية إلى البيع الجماعي والخروج من السوق تفادياً لمزيد من الخسائر، وعززت التذبذبات في أسواق الأسهم في هذه الدول الافتقار إلى سيولة جديدة في هذه الأسواق.وتشير الأرقام إلى تحول الاستثمارات في محفظة الأوراق المالية في مصر خلال الفترة جوان2010 - جويلية 2011 إلى صافي تدفق للخارج بلغ نحو 2.6 مليار دولار مقابل نحو 7.9 مليار دولار تدفق للداخل خلال الفترة من جوان2009 إلى جويلية 2010.[16]

وبالنسبة لأداء البورصة المصرية فقد تراجعت كافة مؤشراتها السعرية خلال 2011-2012 نتيجة لحالة الترقب من طرف المتعاملين في هذه السوق لما ستسفر عنه الأوضاع السياسية والاقتصادية، وقد انخفض مؤشرها الرئيسي EGX 30 بمعدل 12.4% ، وتراجع مؤشر EGX20capped بمعدل 7.4 %، وهي نفس الحال بالنسبة لمؤشري الأسعار EGX70 و EGX100 اللذين انخفضا بمعدل 33% و 25%على الترتيب، كما انخفض المؤشر العام لسوق المال بمعدل 28.9%.

6-6 الآثار على تدفقات الاستثمار الأجنبي المباشر وتنافسية الاقتصاد:

أدت أحداث عدم الاستقرار السياسي التي تطبع مناخ الاستثمار المصري ، وبصفة طبيعية، إلى انتشار حالة من التخوف في أوساط المستثمرين الأجانب ترجمت في تحويل استثماراتهم إلى وجهات استثمارية أكثر أمناً واستقراراً، مؤدية إلى هروب كبير لرؤوس الأموال، وتراجع حصة مصر من الاستثمار الأجنبي المباشر .

وحسب تقديرات البنك المركزي المصري، فإن الاستثمار الأجنبي الداخل للاقتصاد المصري بنوعيه (الاستثمار المباشر واستثمارات المحفظة) انخفض خلال السنة المالية 2011-2012 بنحو 2.6 مليار دولار محققا صافي تدفق للخارج قدر بـ 2.9 مليار دولار (مقابل 362.3 مليون دولار للسنة السابقة) ويرجع ذلك بصفة أساسية إلى زيادة صافي التدفق للخارج من استثمارات محفظة الأوراق المالية والذي بلغ 5 مليار دولار، مع تراجع صافي الاستثمار الأجنبي المباشر بنحو 110.4مليون دولار.[17]

من جهة أخرى فقد أدت الأحداث أيضا إلى تراجع التصنيف السيادي للاقتصاد المصري، حيث قامت عدة مؤسسات للتصنيف الائتماني بخفض ترتيب مصر مثل:[18]

مؤسسة موديز: Ba1 → Ba2

مؤسسة ستاندرد آند بورز: BBB-/A- → BB+/B

مؤسسة فيتش: من مستقر إلى سلبي

وتراجعت تنافسية هذا الاقتصاد عام 2011 بنحو 13 مرتبة للوراء، ليحتل الترتيب 94 عالمياً مقابل الترتيب 81 في العام السابق، وهو ما عمق تراجع ثقة المستثمرين ببيئة الاستثمار المصرية، وأدى إلى الحد من فرص وصولها إلى أسواق التمويل الدولية، بسبب رفع تكلفة حصولها على القروض تبعا لرفع تكلفة تأمين ديونها السيادية بسبب أحداث عدم الاستقرار.

7-6 الآثار على السيولة و أسعار الصرف والاحتياطي من العملة الصعبة:

لقد كان من آثار تراجع تدفقات الاستثمار الأجنبي المباشر إلى الاقتصاد المصري وما رافقها من هروب لرؤوس الأموال إلى الخارج ارتفاع حدة الضغوط على أسعار الصرف. فقد تراجعت قيمة الجنيه أمام العملات الرئيسة بشكل واضح بلغت نسبته نحو 2.8 % أمام الدولار الأمريكي، ونحو 13.4 % أمام اليورو الأوروبي ، وذلك خلال الفترة من 5 ديسمبر 2010 إلى 2جوان2011، وهو ما اضطر البنك المركزي المصري للتدخل في سوق الصرف من خلال استخدام جزء من احتياطي النقد الأجنبي فأدى ذلك إلى تراجع هذا الاحتياطي من نحو 36 مليار دولار في ديسمبر 2010م إلى نحو 25.01 مليار دولار في أوت2011، وذلك للسيطرة على تراجع قيمة الجنيه، ومواجهة نقص النقد الأجنبي في الأسواق بعد تراجع حصيلة مصر منها في ظل تراجع تحويلات المصريين في الخارج، وتراجع السياحة بشكل كبير.[19].

وأشار تقرير البنك المركزي المصري لسنة 2011-2012 إلى أن صافي الاحتياطات الدولية لدى هذا البنك قد تراجع بمعدل 41.5% خلال 2011-2012منتقلا من26.6 مليار دولار في جوان 2011 إلى 15.5 مليار دولار نهاية جوان 2012، أي تراجع بقيمة إجمالية تقدر بـ 11.1 مليار دولار خلال سنة واحدة، هذا بعد أن بلغ مستوى يقارب 36 مليار دولار سنة 2010.[20]

وفي ذات الإطار، وتبعا لانكماش السيولة بسبب أحداث عدم الاستقرار التي عرفتها مصر، قرر البنك المركزي بتاريخي 20 مارس ثم 22 ماي من سنة

2012 تخفيض نسبة الاحتياطي النقدي من 14% إلى 12% ثم إلى 10% سعيا منه إلى توفير سيولة إضافية للجهاز المصرفي وذلك بهدف تيسير الأوضاع الائتمانية في السوق، كما نشط عمليات السوق المفتوحة إذ بلغ متوسط عمليات إعادة الشراء التي قام بها البنك المركزي خلال شهر جوان 2012 حوالي 33.1 مليار جنيه مصري مقابل 8.2 مليار جنيه مصري في جوان عام 2011،[21] وهو ما يعني تضاعف حجم هذه العمليات بأكثر من أربع مرات خلال سنة واحدة.

8-6 الآثار على المديونية :

بلغ رصيد الدين العام المصري المحلي نهاية جوان 2012 مقدار 1238.1 مليار جنيه مصري أي ما يعادل 80.3% من الناتج المحلي الإجمالي بسعر السوق![22]

أما مؤشرات الدين الخارجي فتُظهر مشكلة ارتفاع خدمات الديون كنسبة من الصادرات، حيث بلغت 6.1%عام 2012. وارتفعت نسبة رصيد الدين الخارجي قصير الأجل إلى صافي الاحتياطات الدولية لتصل إلى 18.7% نهاية جوان من نفس السنة (مقابل 10.4% نهاية جوان 2011) وعو ما يعني نسبة زيادة تقارب 80% خلال سنة واحدة !ويرجع ذلك أساسا إلى تراجع صافي الاحتياطات الدولية بنسبة 41.5%من جهة، وارتفاع نسبة الدين الخارجي قصير الأجل إلى إجمالي الدين الخارجي إلى 8.4%، من جهة أخرى.[23]

9-6 الآثار على ميزان المدفوعات والتجارة الخارجية :

أسفرت تعاملات الاقتصاد المصري منذ بدء ثورة يناير 2011 عن تفاقم العجز الكلي لميزان المدفوعات ليصل إلى 11.3 مليار دولار خلال 2011-2012 وهو ما انعكس على تناقص صافي الاحتياطات الدولية للبنك المركزي. إن هذا العجز يرجع أساسا إلى:[24]

ارتفاع عجز الميزان التجاري بمعدل 17% أو ما يعادل 31.7 مليار دولار (أو ما يعادل 12.3%من الناتج المحلي الإجمالي) بسبب ارتفاع الواردات السلعية بـ 8.5%.

تراجع فائض ميزان الخدمات بمعدل 31.9% نتيجة ارتفاع النفقات الخدمية بمعدل 10.8% في ظل انخفاض الإيرادات الخدمية بمعدل 4.6%.

تراجع الإيرادات السياحية بمعدل 11% التي تأثرت سلبا بالأحداث الجارية.

ويبين الميزان الرأسمالي أن صافي التدفقات للخارج بلغ 1.4 مليار دولار خلال 2011-2012 بسبب:[25]

تضاعف صافي التدفق للخارج لاستثمارات المحفظة، وقد جاء ذلك نتيجة لبيع الأجانب ما في حوزتهم من أوراق بسبب أوضاع عدم الاستقرار التي تعرفها البلاد.

انخفاض حصة مصر من الاستثمار الأجنبي المباشر .

بسبب أن الاستثمارات في قطاع البترول سجلت تدفقا للخارج بلغ 1.8 مليار دولار (مقابل 191.3 مليون دولار عام 2010-2011)، وكذا ارتفاع حصيلة بيع شركات وأصول إنتاجية لغير مقيمين لتبلغ1.7 مليار دولار (مقابل 19.2 مليون دولار للعام السابق).

تراجع الأصول الأجنبية للبنوك المصرية وارتفاع الالتزامات الأجنبية على البنك المركزي.

إذن إجمالا فإن الاضطرابات التي عرفتها مصر في السنتين الأخيرتين أثرت بالسلب على الطلب المحلي (انخفاض الاستهلاك كمحرك رئيسي للنمو الاقتصادي المصري)، ونجم عنها توقف المشاريع الاستثمارية، وتراجع معدل النمو، وضعف في أداء البورصة التي منيت بخسائر كبيرة مع هبوط مؤشراتها الرئيسية، كما فرضت المخاوف بشأن عدم العدالة انتهاج سياسة مالية توسعية (ارتفاع الإنفاق على الأجور والمرتبات والتحويلات...) للتخفيف من آثار الاضطرابات فأدى ذلك إلى اتساع حجم العجز الكلي لميزانية الدولة بسبب زيادة النفقات التي قابلها تقلص في الإيرادات (هبوط في حجم الصادرات، تراجع الإيرادات السياحية...) كما تراجعت الإيرادات من العملة الصعبة وتحويلات المغتربين، والاستثمارات الأجنبية بنوعيها، وزاد العجز في ميزان المدفوعات مع ارتفاع في حجم الدين العام.

الخاتمـــــــة

بحث هذا البحث طبيعة العلاقة بين عدم الاستقرار السياسي والأداء الاقتصادي الكلي في الاقتصاد المصري من خلال جملة من المؤشرات الراهنة

لأداء هذا الاقتصاد في ظل الاضطرابات التي يشهدها الواقع المصري منذ 25 يناير 2011 وإلى الآن.

وتؤكد النتائج قوة العلاقة التبادلية بين المتغيرين، حيث أن أحداث عدم الاستقرار التي تشهدها مصر كانت لها نتائج سلبية كبيرة على العديد من جوانب أداء هذا الاقتصاد، كان أبرزها تعطل حركة الاستثمار، وتواصل العجز الكلي في الميزانية وفي ميزان

المدفوعات، وتراجع الاستثمار الأجنبي المباشر وكذا الاحتياطات الدولية، وأيضا تراجع الإيرادات السياحية نتيجة لتأثر السياحة سلبا بالأحداث الجارية، وانخفاض مؤشرات البورصة، وارتفاع معدلات البطالة.

من جهة أخرى فإن العلاقة بين متغيري هذه الدراسة هي ذات معنى دلالي أيضا في الاتجاه المعاكس، حيث أن الاضطرابات السياسية التي عرفتها مصر في ثورة 25 يناير 2011 قد ترافقت بانتشار للفقر والفساد وارتفاع لمعدلات البطالة بين فئات المجتمع، رغم تسجيل الاقتصاد لمعدلات نمو مرتفعة في الفترة السابقة لأحداث عدم الاستقرار، وهو ما يؤدي إلى استنتاج يتلخص في أن ضعف الأداء الاقتصادي في تحقيق عدالة توزيع مكاسب النجاح الاقتصادي يعتبر مغذيا كامنا لحالات عدم استقرار سياسي واجتماعي يعصف بالمكاسب المحققة ويرفع تكاليف استئناف حركة التنمية من جديد، كما هو الحال في الواقع الراهن للاقتصاد المصري، حيث لازالت الأوضاع بعد عامين من الثورة تزداد تأزما، إلى درجة وصف فيها الاقتصادي Jan Rielander (من منظمة OCDE) الاقتصاد المصري بأنه أشبه ما يكون بقارب دون محرك يواصل السباق رغم كل العقبات ولكن حركته تتباطأ كل يوم بشكل أكبر من اليوم السابق.

الهـــوامـــــــش:

1- موسوعة ويكيبيديا، ثورات الربيع العربي، الموقع: http://ar.wikipedia.org/wiki/ (20/03/2013)

2- صندوق النقد الدولي، آفاق الاقتصاد العالمي: تباطؤ في النمو وتصاعد في المخاطر، سبتمبر 2011، ص ص: 96-97.
3-هيجتون ريتشارد، نظرية التنمية السياسية، ت:حمدي عبدالحميد، المركز العلمي للدراسات السياسية، عمان،2001، ص:225.
4-المرجع السابق، ص ص:27-36.
5-رنا حسني أبو الهنا، أثر الاستقرار السياسي على التنمية الاقتصادية (الأردن وماليزيا) دراسة مقارنة خلال الفترة من 1999-2006، رسالة ماجستير، معهد بيت الحكمة بجامعة آل البيت، الأردن، (غ م)، 2008،ص ص: 25،24.
6- Deniz AKAGUL, Démocratie, stabilité politique et développement : Analyse du cas turc. Site :http ://www.ceri-sciencespo.com/archive/nov05/artda.pdf.(12/09/2011)
7- عبد الحسين ودّاي العطية، مرجع سابق، ص:207.
8- Dwight H. Perkins et autres, économie du développement, 3eme ed., de boeck, Paris, 2008, p :103.
9- IBID, p :102.
10- سميح مسعود، التنمية العربية في ظل الربيع العربي، الحوار المتمدن-العدد: 3687 - الموقع: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=301897 (15-03-2013)
11- المركز المصري للدراسات الاقتصادية، تقرير حول: الاقتصاد المصري: التحديات الحالية والرؤية المستقبلية، ص ص: 3-19 وص: 37. محمل من الموقع: /www.eces.org.eg
(*) تشير تقديرات السلطات المصرية للخسائر الاقتصادية للأحداث إلى مبلغ 4.5 مليار يورو ما بين 2010 و 2011، وما لا يقل عن 7.5 يورو ما بين 2011-2012 ، وحسب بعض الخبراء فإن الحكومة المصرية بحاجة إلى ما لا يقل عن 15 مليار دولار (خارج النظام المصرفي المحلي) لمواجهة تحديات 2012-2013. انظر:
berne, sur : en Egypte'l de économie'l ,révolution la après ans RFI , Deux http://www.rfi.fr/moyen-orient/20130125-deux-ans-apres-revolution-economie-egypte-berne (17/03/2013)
12- تقرير مجلس الغرف السعودية حول اقتصاديات دول الثورات العربية منشور في مجلة "الاقتصادية" في عددها رقم 6571 بتاريخ 08 أكتوبر 2011 على الموقع: http://www.aleqt.com/2011/10/08/article_587337.save (20/03/2013)
13- انظر جدول تفصيلي بمعدلات نمو القطاعات وكذا مساهمتها في معدل النمو الإجمالي في:
المجلة الاقتصادية الصادرة عن البنك المركزي المصري، المجلد 52، العدد 4، 2011-2012، ص: <.
14- انظر موقع الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء بمصر على الرابط:
http://website.informer.com/visit?domain=capmas.gov.eg
15- انظر الشكل في الصفحة 11 من المجلة الاقتصادية، مرجع سابق.
16- تقرير مجلس الغرف السعودية، سبقت الإشارة إليه، ص: 6.
17- المجلة الاقتصادية، مرجع سابق، ص: 93.
18- المركز المصري للدراسات الاقتصادية، الاقتصاد المصري: التحديات الحالية والرؤية المستقبلية، على الموقع: /ww.eces.org.eg
19- تقرير مجلس الغرف السعودية، سبقت الإشارة إليه، ص: 7.
20- البنك المركزي المصري، التقرير السنوي 2011-2012، ص: 33.
21- البنك المركزي المصري، التقرير السنوي 2011-2012، ص: 12.
22- البنك المركزي، التقرير السنوي 2011-2012، ص: 34.
23- المجلة الاقتصادية، مرجع سابق، ص: 103.
24- البنك المركزي، التقرير السنوي 2011-2012، ص: 75.
25- المرجع السابق، ص ص: 80-81.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 280 - 285
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

هدي النبي عليه السلام في استكشاف أنماط الذكاء لدى المتلقي وتوجيهها.

(دراسة مقارنة مع نظرية الذكاء المتعدد لهوارد جاردنر)

قاسم حاج امحمد

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمـــــــــــة:

تمثّل السيرة النبوية التجسيد العملي الحيّ لقيم القرآن الكريم على أرض الواقع، والضابط الواضح لكيفية تعامل البشر معه، والأمة الإسلامية اليوم بحاجة ماسّة إلى مرجعية صحيحة تجسد مبادئ وقيم الإسلام، وتساير الواقع بمتغيراته ومتطلباته، وكل ذلك متضمن في سيرة رسول الله عليه السلام قولا وسلوكا، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:21).

ولا يقتصر التّأسي والإفادة من سيرة رسول الله عليه السلام في الشؤون الدينية فقط كما هو معلوم، بل نجد فيها الكثير من المواقف والنصوص المتعلقة بأسس التربية وأساليبها، وطرق تعليم النّاس ورعايتهم نفسيا واجتماعيا.

والبحث الذي بين أيدينا محاولة لإجراء مقاربة ومقارنة في هذا المجال بين ما ورد في السّنّة النبوية وما تحدثت عنه إحدى أبرز النظريات التربوية المعاصرة، والتي تعرف بنظرية الذكاء المتعدد، لصاحبها هوارد جاردنر، هذه النظرية التي لاقت رواجا كبيرا، وأصبحت معتمدة في عدد معتبر من المؤسسات التربوية في العالم الغربي والعربي والإسلامي على حد سواء، إذ تعدّ ثورة على النمط القديم في التقويم الدراسي ورعاية الناشئة، المعتمد على اعتبار القدرات الذهنية فقط على حساب قدرات أخرى لا تقل عنها أهمية.

فأصبح للنجاح والتفوق -وفق النظرية الجديدة- أبعادا أخرى أكبر وأوسع، وذلك ما استهوى الكثير من المشتغلين بالتربية والتعليم فتبنوا النظرية وطبقوها عمليا.

فإلى أي مدى تضمّنت السنة النبوية -من خلال توجيهات النبي وأحاديثه- ما جاءت به تلك النظرية من مفاهيم وأنواع للذكاء، والتي نسلم إلى حدّ كبير بصوابها وصحتها، وما أوجه الشبه والاختلاف بينهما؟، وهل ثمة أبعاد أخرى تربوية وردت في السّنّة وغفلت عنها النظرية بخصوص الذكاء الإنساني بمختلف صوره وأنواعه؟ وطرق تنميته وتوجيهه؟.

فالهدف بيان سبق السنة النبوية في الطرح الجديد الذي أتت به النظرية، وما تميزت به عنها، وإبراز جانب هام في السنة النبوية متعلق بتطوير الذات وتقديرها.

وقد راعيت في الاستدلال بالنصوص صحة الحديث ما أمكن، وتركت عددا كبيرا منها مما يمكن الاستدلال به، لكن تركته لضعفه.

ولم أجد -في حدود اطلاعي- عملا مقارنا بين السنة النبوية وهذه النظرية كما سأورده الآن، لكن توجد بحوث درست الموضوع بشكل جزئي في بعض أنماط الذكاء، ودون اعتماد منهج مقارن بهذه النظرية خصوصا، أبرزها دراسات الدكتور علي إبراهيم سعود عجين، منها بحثه: الذكاء العاطفي الذاتي وتطبيقاته في السنة النبوية، وبحثه أيضا: رعاية

الموهوبين في السنة النبوية.

وقد تناولت الموضوع من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: مفهوم نظرية الذكاء المتعدد.

المطلب الثاني: مظاهر الذكاء والعبقرية عند النبي ، وهديه في استكشافها وتوجيهها.

المطلب الثالث: أوجه الاتفاق والاختلاف بين السنة النبوية ونظرية الذّكاء المتعدد.

نتائج البحث وتوصياته.

المطلب الأول: مفهوم نظرية الذّكاء المتعدّد.

ظهرت هذه النظرية سنة 1983 على يد العالم الأمريكي الدّكتور هوارد جاردنر (Howard Gardner)، وفحوى هذه النّظرية أنّ لكلّ إنسان قدرات متعدّدة، وأنّ الذكاء ليس نوعا واحدا وإنما أنواع مختلفة، مما يتوجّب على الممارس للعملية التربوية تنويع أساليبه في التدريس والتعليم من أجل اكتشافها وتنميتها لاسيما في فئة الأطفال.

وقد حاول بنظريته هذه تصحيح الممارسة التربوية والتعليمية التي كانت سائدة قبل ظهورها، والتي كانت تستخدم أسلوباً واحداً في التعليم، لاعتقادها بوجود صنف واحد من الذكاء لدى كلّ المتعلّمين، الشيء الذي يفوت على أغلبهم فرص التعلم الفعّال، وفق طريقتهم وأسلوبهم الخاص في التعلم.

وقد أوصل جاردنر تلك الأنواع إلى عشرة، وهي: الذكاء اللغوي، الذكاء الرياضي، الذكاء المكاني، الذكاء الحركي، الذكاء الإيقاعي، الذكاء الاجتماعي، الذكاء الذاتي، الذكاء الطبيعي، الذكاء الروحي الوجداني، الذكاء الأخلاقي.

وتقوم النظرية على مجموعة من مبادئ عامة هي:

-الذّكاء متعدّد وليس مفرد.

-يمتلك كل إنسان أنواع الذكاءات كلّها.

-كلّ إنسان لديه مركّب من ذكاءات ديناميكية.

-يستحقّ كلّ فرد الفرصة التي تمكّنه من التعرف على ذكاءاته المتعددة وتطوير أكبر قدر من قدراته.

- تختلف الذكاءات في تطوّرها بين الأفراد.

- يمكن استخدام نوع من هذه الذّكاءات لتعزيز نوع آخر من الذكاء.

- قلّما ينظر إلى الذّكاء بشكل مجرّد، أي هو نتاج تفاعل بين عدّة عوامل نفسية وبيئية واجتماعية...إلخ.

النوع الأول: من الذكاء هو الذكاء اللغوي Verbal/Linguistic intelligence: ومعناه القدرة على استخدام اللغة أفضل استخدام سواء مكتوبة أو منطوقة بشكل يؤثر في الآخرين.

النوع الثاني: الذكاء المنطقي الرياضي Logical/Mathematical intelligence: وهو القدرة على تنظيم العلاقات واستخدام الأرقام والرموز المجردة بمهارة إضافة لقوة الاستنتاج والتصنيف.

النوع الثالث: الذكاء الجسمي الحركي Bodily/Kinesthetic intelligence: وهو القدرة على استخدام الجسم بمهارة للتعبير عن النفس والتواصل والإنتاج.

النوع الرابع: الذكاء المكاني البصري Visual/Spatial intelligence: أي القدرة على التخيل والتفكير بصريا في الأشياء.

النوع الخامس: الذكاء الإيقاعي Musical/Rhythmi intelligence: وهو القدرة على تشخيص النغمات الموسيقية والإحساس بالمقامات الموسيقية وجرس الأصوات وإيقاعها.

النوع السادس: الذكاء الاجتماعي Interpersonal **intelligence**: وهو قدرة الفرد على فهم وإدراك وملاحظة وتحديد رغبات ومشاعر الآخرين والتواصل والتعاون معهم.

النوع السابع: الذكاء الذاتي Intrapersonal intelligence: وهو القدرة على فهم الفرد لذاته وانفعالاته وأهدافه ونواياه.

النوع الثامن: الذكاء الطبيعي Naturalist intelligence: وهو قدرة الفرد على التمييز بين الأشياء الطبيعية، جمادات ونباتات وحيوانات، وتصنيفها وفهم ملامحها وخصائصها.

النوع التاسع: الذكاء الروحي الوجداني Spiritual/Existential intelligence: هو قدرة الإنسان على معرفة الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالوجود الإنساني والمعنى العميق للحياة الشخصية والعامة، كأهمية قيمة الحياة ومعنى الموت والمصير النهائي للعالم المادي والروحي، كما يتحدد في السعي إلى معرفة المعنى والقيمة الحقيقية للحياة والكون.

النوع العاشر: الذكاء الأخلاقي Moral intelligence: هو قدرة الإنسان على الالتزام بما يؤمن به من فضائل وأخلاق وقيم اجتماعية ودينية، ويتمثل في ضبط النفس والاحترام والعطف

والتسامح والإنصاف، المسؤولية، التعاون، المواطنة، الإيثار، التعاطف، العدالة...إلخ.[1]

والملاحظ هنا أن النظرية قد توسعت جدا في مفهوم الذكاء، إذ يمكن أن يطلق على الموهبة، والهواية، والمهارة، والميول، والرغبات، والمشاعر النبيلة...إلخ.

المطلب الثاني: مظاهر الذكاء والعبقرية عند النبي ﷺ، وهديه في استكشافها وتوجيهها.

لم يرد في السّنّة النّبوية ذكر للفظ الذّكاء أو تحديد معنى له كما هو معروف في نظرية جاردنر أو غيرها، ولكن نجد في نصوص السنة ما يمكن إسقاطه على المفاهيم المذكورة عن الذكاء بأنواعه المختلفة، إذ كان النبي عليه السلام يحرص على تقصّي وملاحظة التميز والتفوق والموهبة في الصحابة، ويوجههم لتنميتها لمصلحة أنفسهم، ونفع غيرهم بها.

وسأعرض هنا نماذج من ذكائه وعبقريته ، وهديه في ملاحظة كلّ نوع من أنواع الذكاءات المذكورة، وكيف كان يحرص على إبرازها وتثمينها.

أوّلاً: الذّكاء اللّغوي.

يتمتّع المتّصف بالذّكاء اللّغوي بخصائص عدّة منها: التّفوّق في الكتابة، القدرة على تأليف الحكايات والسّرد القصصي، التّمتّع بذاكرة جيّدة للأسماء والأماكن والتّواريخ، الشّغف بالقراءة والمناظرات اللّغوية، التمتع بموهبة الخطابة، وسعة الرّصيد اللغوي، القدرة على التوظيف الدّقيق للكلمات.

ويعدّ هذا النوع من الذكاء بالغ الأهمية في تحقيق الفرد لحضوره الشخصي والتأثير في الآخرين، ونجد في السّنّة النبوية إشارة إلى هذا الأمر في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر ﷺ أنّه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله: «إنّ من البيان لسحرا أو إن بعض البيان لسحرا».[2]

فربط الرسول بين البيان والسّحر إشارة إلى ما يتركه الكلام البليغ في النفس من أثر وتحّول مثلما يفعله السحر ببعض النفوس.

وقد بلغ رسول الله الغاية بين العرب في الفصاحة والبيان، وقال عن نفسه: «أوتيت جوامع الكلم».[3]

وقد حرص النبي على استغلال هذه الموهبة التي كان يلاحظها في بعض الصحابة في وقت الحاجة، لاسيما الشعر، وهو بريد العرب الأول ووسيلتهم المثلى في تبليغ رسائلهم، نجد ذلك مثلا في حثّه لحسّان بن ثابت للتصدّي بلسانه وشعره للكفار رغم أنّ النبي ليس ممن يقرض الشعر أو يقوله، ورغم أن الشعر قد ذُمّ في مواضع من القرآن، ومع ذلك كان النّبي يوجّه حسّانا لاستخدام موهبته في خدمة الإسلام إذ كان يقول له: «اهْجُهُمْ، أَوْ هَاجِهِمْ، وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَك».[4]

ومن شأن مثل هذا التوجيه أن يجعل الشاعر يجتهد في نظم الشعر بأقصى ما لديه من قدرة، وهو يرى نفسه مأجورا في ذلك.

وقد أشاد النبي بلبيد بن ربيعة لا لشيء، إلا لأنّه نظما بيتا من الشعر، عدّه أصدق ما قيل من شعر، حيث قال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل».[5]

كما كان عليه السلام يحتفي بالشعر ويتفاعل معه ويحب سماعه، من ذلك الخبر الذي يفيد أن النابغة الجعدي أنشد بين يدي رسول الله قصيدته التي جاء فيها قوله:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى

ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا

وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فغضب النبي ﷺ، وقال: إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَى؟ قَالَ: فَقُلْتُ: إِلَى الْجَنَّةِ. قَالَ: نَعَمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».[6]

فقضت له دعوة النبي بالجنة، وسبب ذلك شعره، وكأن النبي فهم من كلمة "المظهر" نزعة من الشاعر نحو الفخر بالحسب والنسب، فلما بين له مراده حمده عليه ودعا له، وهذه صورة رائعة من صور التوجيه النبوي لرسالة الشعراء.

كما يظهر استثمار النبي لهذا الجانب في اختياره لسفراءه إلى الملوك والأمراء في بداية الدعوة، إذ كان يتخير الأفصح والأقدر على تبليغ الرسالة.

كما يظهر اهتمام النبي بهذا الجانب في مسامراته مع الأصحاب بالألغاز والأحاجي، التي تحتاج إلى شيء من الذكاء لحلّها، من ذلك مثلا ما رواه عبد الله بن عمر قال: «بَيْنا نحنُ عند النبي جُلوس، إذْ أُتِيَ بِجُمّارِ نَخْلَة، فقال وهو يأكُلُه: إنَّ من الشَّجَرِ شَجَرةَ خضراءُ، بَرَكَتُها كبَرَكَةِ المسلم، لا يَسْقُطُ وَرَقُها، ولا يَتَحاتُّ، وتُؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ

بإِذْنِ رَبِّها، وإنها مِثْلُ المُسْلِمِ، فحدِّثوني ما هي؟ قالَ عبد الله: فوقَعَ الناسُ في شَجَرِ البَوادي، فقال القوم: هي شَجَرةُ كذا، هي شجرةُ كذا، ووَقَع في نَفْسي أنَّها النَّخلة، فجَعَلْتُ أُريدُ أن أقولَها، فإذا أسنانُ القوم، فأهابُ أن أتكلَّم وأنا غلامٌ شابّ، ثم التَفَتُّ فإذا أنا عاشِرُ عَشْرٍ أنا أَحدَثُهم أصغَرُ القوم، ورأيتُ أبا بكر وعمر لاً يَتكلَّمان، فسَكَتُّ. فلما لم يتكلَّما، قالوا: حدِّثنا ما هِيَ يا رسولَ الله؟، فقال رسول الله: هي النَّخلة. فلما قُمنا قُلتُ لعمر أبي: واللهِ يا أبَتاهُ، لقد كان وَقَع في نفسي أنها النخلة، فقال: ما منَعَك أن تقولَها؟ قلتُ: لم أرَكم تتكلَّمون، لم أرَكَ ولا أبا بكر تكلَّمتُما، وأنا غلامٌ شابّ، فاستَحيَيْتُ، فكَرِهتُ أن أتكلَّم أو أقولَ شيئاً، فسكتُّ. قال عمر: لأن تكون قُلتَها أحبُّ إليَّ من أن يكونَ لي كذا وكذا».[7]

وعَنْ أَنَسِ بن مالك: «أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي إِلَى رَسُولِ اللهِ الْهَدِيَّةَ مِنَ الْبَادِيَةِ، فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ النَّبِيُّ: إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ. وَكَانَ النَّبِيُّ يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلاً دَمِيمًا، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَلاَ يُبْصِرُهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: أَرْسِلْنِي مَنْ هَذَا، فَالْتَفَتَ فَعَرَفَ النَّبِيَّ ، فَجَعَلَ لاَ يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ، حِينَ عَرَفَهُ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ يَقُولُ: مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذًا وَاللَّهِ تَجِدُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ: لَكِنْ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ. أَوْ قَالَ : لَكِنْ عِنْدَ اللهِ أَنْتَ غَالٍ».[8]

وقد استخدم النبي عليه السلام القصّة -وهي من صور الذكاء اللغوي- كأسلوب تربوي في توجيهاته لمختلف فئات الناس، لاسيما الأطفال منهم، لما للقصة من أثر بليغ في تبسيط المفاهيم وترسيخ الأفكار، أكثر من الكلمات والمعاني النظرية المجردة.

وغالبا ما تأتي القصة في التعبير النّبوي في مشهد مقتضب دون تطويل، كما في هذا الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ، قَالَ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ، رَبَطَتْهَا فَلاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلاَ هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ».[9]

فالطفل عند سماع هذا الحديث تتحرك مخيلته لتصوّر تلك المرأة السيئة وقد أقفلت الباب على قط جائع في غرفة مظلمة وهو يصيح ويستغيث حتى الموت، فترسخ في ذهنه قيمة الإحسان والرفق بالحيوان ونبذ التعدي والظلم، وهذا أبلغ بالنسبة للطفل من أن يرد الحديث بهذه اللفظ مثلا: من قتل نفسا ظلما ولو حيوانا دخل النار.

كما كانت لرسول الله مهارة اختيار الوقت والأسلوب واللّهجة المناسبة أثناء توجهه بالحديث إلى طفل صغير، ولو كانت المعاني التي يريد بثها عميقة وهامة.

فنجد مثال ذلك في حواره مع عبد الله بن عباس وقد استغل فرصة ركوبه معه الفرس، ليعلمه أصول العقيدة الصحيحة بما لا مزيد عليه، وكل ذلك في نص أدبي موجز العبارة سهل الأسلوب، يقول عبد الله بن عباس: «كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ».[10]

ونجده مرة أخرى يعلّم صبيا آداب الأكل لمّا رآه لا يحسن التصرف، وكان يأكل معه في نفس الصحن، فعن عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ قال: «كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللهِ ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: يَا غُلاَمُ سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ».[11]

فالشاهد في هذا النص: قيمة التواضع للأطفال ومشاركتهم واقعهم ويومياتهم، والتوجيه بالحسنى دون تعنيف أو توبيخ، واستعمال العبارة القصيرة السهلة الفهم، وكل ذلك يثمر امتثالا سريعا من الطفل المتلقي، ونجد ذلك في قول الراوي: "فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ".

وقد استعاض النبي بتلك المميزات من الفصاحة وحسن البيان وحسن التبليغ عن الكتابة، إذ لم يكن عليه السلام يحسنها، كما هو معروف.

ثانيا: الذكاء المنطقي.

يُظهر المتّصف بهذا النوع من الذكاء ميلا وقدرة على إجراء العمليات الحسابية والمنطقية والتفكير الناقد، وموهبة في الألعاب التي تحتاج للتفكير كالشطرنج والألغاز المنطقية، كما يظهر شعورا بالحاجة لقياس الأشياء، وتصنيفها، ووزنها، وتحليلها، والتفكير في المفاهيم المجردة بلا كلمات أو صور، وموهبة في حلّ المشكلات، وقدرة في التعامل مع الرّسوم البيانية.

ويمكن ملاحظة هذا الذكاء لدى العلماء والعاملين

في المصارف والمهتمين بالرياضيات والمبرمجين والمحامين والمحاسبين والفلاسفة.

ولا نجد في السّنّة النبوية بالضرورة ما يطابق كلّ هذه الجوانب والخصائص الدالة على هذا النوع من الذكاء، واهتمام النبي به، إذ يتعلق معظمها بفنون وعلوم حادثة لم تكن شائعة في بيئة النبي ﷺ والصحابة، والذي نجده في السّنّة النبوية استخدام المنطق في توضيح المفاهيم وتصحيح الأخطاء، وكان يحثّ الصحابة في بعض المواقف الشائكة على التفكير المنطقي والنظر العقلي لحلها ذاتيا، وهذا تصرف حكيم من النبي يجعل السائل يقتنع بالحل الذي توصل إليه بنفسه، وقد كان يظهر أمامه لغزا محيرا.

نجد ذلك في موقفين اثنين، الأول ما رواه أبو هريرة: «أنّ أعرابيا أتى رسول الله ، فقال: إن امرأتي ولدت غلاما أسود وإني أنكرته، فقال له رسول الله ﷺ: هل لك من إبل؟، قال: نعم، قال: فما ألوانها؟، قال: حمر، قال: هل فيها من أورق؟، قال: إن فيها لورقا، قال: فأنى ترى ذلك جاءها، قال: يا رسول الله، عرق نزعها، قال: ولعل هذا عرق نزعه».[12]

نلحظ هنا استخدام النبي قواعد المنطق لإزالة الشبهة التي راودت الرجل حول زوجته، لما جعله يعود إلى التجربة التي يراها يوميا لينظر ويتأمل ويقيس الأشياء بأشباهها، فيصل إلى الحكم الصحيح، وأن ما يحدث في عالم الحيوان، وهو يراه أمرا طبيعيا، يمكن أن يقع للبشر أيضا.

والموقف الثاني ما رواه أبو أمامة: «أنّ فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في الزّنا، فأقبل القوم فزجروه، وقالوا: مه، مه. فقال له النبي: ادنه، أي اقترب مني، فدنا منه قريبا، قال: أتحبه لأمك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابنتك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال: أفتحبه لأختك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أتحبه لعمتك؟، قال: لا والله،

جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أتحبه لخالتك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال الراوي: فوضع النبي يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهّر قلبه، وحصّن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء».[13]

فلم يستعمل النبي مع ذلك الشاب أسلوب الوعظ، والعاطفة، والوعد والوعيد، بل استحث تفكيره ونظره العقلي ليعرف أن ما يفكر فيه خطأ محض، وتلك مسحة من الذكاء في عقل ذلك الشاب غابت عنه في لحظة شهوة، فاستنهضها النبي ﷺ بأسلوبه الحكيم ليعالج بها الموقف.

ومن مظاهر هذا النوع من الذكاء عند النبي ما رواه علي كرم الله وجهه قال: «لما سار رسول الله إلى بدر وجدنا عندها رجلين، رجلا من قريش، ومولى لعقبة بن أبي معيط. فأما القرشي فأفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم (كم عدد الجيش القادم نحو بدر؟)، فيقول: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا إلى النبي فقال له: كم القوم؟ فيقول: هم كثير عددهم، شديد بأسهم، فجهد النبي أن يخبره كم هم فأبى، ثم أن النبي سأله: كم ينحرون من الجزر؟، فقال: عشرا لكل يوم، فقال: القوم ألف، كل جزور لمئة وتبعها».[14]

الهوامش:

1- أنظر تفاصيل هذه الأنواع في كتابه: أطر العقل ونظريات الذكاء المتعددة (Frames of mind) ، وكتابه: الذكاء المتعدد في القرن الحادي والعشرين. حيث ذكر في الكتاب الأول ثمانية أنواع، وأضاف نوعين آخرين في كتابه الثاني، وهما: الذكاء الروحي العاطفي، والذكاء الأخلاقي.

2- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم 4851.

3- مسند أحمد، رقم 7397. وإسناده حسن.

4- صحيح البخاري، كِتَاب بَدْءِ الْخَلْقِ، باب أجب عني اللهم أيده بروح القدس، رقم 3041.

5- صحيح البخاري، كِتَاب الرِّقَاقِ، باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك ، رقم 6124.
6- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، رقم 307، 78/4. من حديث نابغة بن جعدة. وإسناده حسن.
7- صحيح البخاري، كِتَاب الْعِلْمِ، باب إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، رقم 61.
8- مسند أحمد، رقم 12648: 161/3.
9- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم 3140.
10- سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب 59، رقم 2516. وقال: حسن صحيح.
11- صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم 5061.
12- صحيح البخاري،كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، باب سُورَةُ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، رقم 6371.
13- مسند أحمد، رقم 21708، وإسناده صحيح.
14 - مسند أحمد، رقم 948: 117/1. وإسناده صحيح.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 152 - 161
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

أهمية الحوافز في تحقيق إدارة الجودة الشاملة في المؤسسة الإنتاجية

دراسة حالة: المؤسسة الاقتصادية العمومية الجزائرية لصناعة الأنابيب ALFAPIPE بغرداية

أحمد علماوي

كلية العلوم الاقتصادية التسيير والعلوم التجارية جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة:

لقد اهتمت معظم المؤسسات الناجحة بالعمل على معرفة السلعة أو الخدمة التي يريدها الزبائن، وكذا مواصفاتها ودرجة الاعتمادية المرغوبة، وطريقة التسليم، والسعر المناسب... الخ، وبالتالي فالمؤسسات الآن ومع اشتداد المنافسة بحاجة إلى الارتقاء والتفكير في تحديث الأساليب الإدارية ولعل أحد الاتجاهات الحديثة التي لاقت قبولا عام في معظم دول العالم هو مصطلح إدارة الجودة الشاملة، فترى المؤسسات الأمريكية تسعى إلى تحقيق ذلك المفهوم ويعني إرضاء زبائنها وإبهارهم، بينما المؤسسات اليابانية فهي تسعى إلي إسعاد زبائنها وتقديم ما يتوقعونه. وكذلك بالنسبة للمؤسسات الجزائرية ولوجود العديد من المؤشرات الموضوعية تحتم عليها التوجه نحو المفهوم الجديد في ظل العولمة وذلك بتبني مفهوم إدارة الجودة الشاملة في ظل التحديات الراهنة، وعليه فإن المؤسسات الناجحة تهدف باستمرار إلى تشجيع المنافسة بين العاملين وتمييز الأفراد ذوي الأداء المتميز وحفز ذوي الأداء المتوسط إلى التقدم وإبراز هوية المنظمة في الأداء المتميز واستمرار التميز وتطوير الأداء وهذه الأهداف من خلال تحفيز فعال تحقق من خلاله إدارة الجودة الشاملة.وذلك لأن التأثير على اتجاهات الأفراد في التنظيم وإثارة دوافعهم وتوجيه سلوكهم في الاتجاه المطلوب يعتبر التحدي الأساسي نحو بناء الأفراد في المنظمات الحديثة، ومن هذا المنطلق فإن تحفيز الفرد العامل سيؤدي إلى مساهمة فعلية لأداء عمله عن رغبة وقدرة وبالتالي المساهمة في تحقيق إدارة الجودة الشاملة في المؤسسة.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة من خلال ضرورة تبني المؤسسات الانتاجية الجزائرية أساليب حديثة تتماشى مع تغيرات المحيط الاقتصادي، وباعتبار أن إدارة الجودة الشاملة من الأساليب الحديثة وابراز أهمية التحفيز في تطبيق إدارة الجودة الشاملة في المؤسسة الإنتاجية،

أهداف الدراسة:

- يكمن هدف الدراسة في محاولة إبراز فعالية التحفيز في تحقيق إدارة الجودة الشاملة في المؤسسة الإنتاجية
- التعرف على الإطار المفاهيمي لإدارة الجودة الشاملة باعتبارها من الأساليب الإدارية الحديثة.
- التعرف على ماهية الحوافز في المؤسسة

- معرفة واقع تطبيق أساليب التحفيز وتفعيل إدارة الجودة الشاملة المؤسسة الجزائرية.

المنهج المتبع:

لقد تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي في الدراسة بالإضافة إلى استعمال منهج دراسة الحالة في الدراسة الميدانية للمؤسسة العمومية الاقتصادية الجزائرية لصناعة الأنابيب ALFAPIPE بغرداية، وقد تم تقسيم البحث إلى ثلاث محاور رئيسية:

1

-ماهية إدارة الجودة الشاملة.

2-أهمية التحفيز في تحقيق إدارة الجودة الشاملة.

3-دراسة حالة :المؤسسة الاقتصادية العمومية الجزائرية لصناعة الأنابيب ALFAPIPE

I - ماهية إدارة الجودة الشاملة:

يعد مفهوم إدارة الجودة الشاملة من مفاهيم الإدارة الحديثة التي تقوم على مجموعة المبادئ والأفكار التي يمكن لأي مؤسسة أن تطبقها من أجل تحقيق أحسن أداء ممكن، وتحسين الإنتاجية وزيادة الإرباح وتحسين سمعتها في السوق المحلي والخارجي في ظل الارتفاع الكبير في عدد المؤسسات على اختلاف مجالاتها ونشاطاتها[1].

I–1- مفهوم إدارة الجودة الشاملة:

على الرغم من تعدد تعاريف مصطلح إدارة الجودة الشاملة وذلك نتيجة الاستخدام والتطبيق المستمر، إلا أن هناك قاسما مشتركا يجمع بينهما هو تحري حاجات ورغبات وتوقعات الأفراد والتوافق معها من خلال الجهود والتطوير المستمر على مستوى المؤسسة ككل.

-ويعرف "هتش" Hutchins إدارة الجودة الشاملة أنها مدخل الإدارة المنظمة الذي يرتكز على الجودة ويبنى على مشاركة جميع العاملين بالمنظمة ويستهدف النجاح طويل المدى من خلال رضا العميل وتحقيق منافع للعاملين بالمنظمة والمجتمع ككل[2].

-يعرف "جوران J.Juran" إدارة الجودة الشاملة بأنها: عملية إدارية تقوم بها المنظمة بشكل تعاوني لانجاز الأعمال من خلال الاستفادة من القدرات الخاصة بكل من الإدارة والعاملين لتحسين الجودة وزيادة الإنتاجية بشكل مستمر عن طريق فرق العمل وبالاسترشاد بالمعلومات الدقيقة للتخلص من كل أعمال الهدر في المنظمة[3]

-وتناول" مارشال ساشيكين وكينث جيد كيزر" إدارة الجودة الشاملة أنها فلسفة المؤسسة لكل فرد فيها. كما تعمل على تحقيق رضا دائم للعميل من خلال دمج الأدوات والتقنيات والتدريب.ويشمل ذلك تحسنا مستمرا في العمليات داخل المؤسسة مما يؤدي إلى منتجات وخدمات عالية الجودة[4].

وبالتالي يمكن النظر إلى إدارة الجودة الشاملة على أنها ثورة ثقافية وذلك بسبب الطريقة التي تفكر وتعمل فيها الإدارة فيما يتعلق بالعمل على تحسين الجودة باستمرار والتركيز على عمل الفريق وتشجيع مشاركة الفرد بوضع الأهداف وباتخاذ القرارات.

ويمكن تعريف إدارة الجودة الشاملة على أساس الكلمات التي تتكون منها وهي كالآتي:

-**إدارة:** تخطيط وتنظيم وتوجيه ومراقبة كافة النشاطات المتعلقة بتطبيق الجودة كما يتضمن ذلك دعم نشاطات الجودة وتوفير المواد اللازمة[5]

-**الجودة:** تعني الوفاء بمتطلبات المستفيد وتوقعاته.

-**الشاملة:** تتضمن تطبيق مبدأ البحث عن الجودة في أي مظهر من مظاهر العمل بدأ من التعرف على احتياجات المستفيد وانتهاء بتقييم ما إذا كان المستفيد راضياً عن الخدمات أو المنتجات المقدمة له[6].

I- 2- مبادئ إدارة الجودة الشاملة:

تبلورت العديد من المبادئ الأساسية التي يرتكز عليها مفهوم إدارة الجودة الشاملة وكانت هذه المبادئ خلاصة إسهامات العديد من الرواد الأوائل لإدارة الجودة الشاملة، وتعتبر هذه المبادئ بمثابة السمات والخصائص الإيجابية التي تسمح لأية مؤسسة بالتطبيق الفعال لإدارة الجودة الشاملة، ويطلق عليها المبادئ الستة لإدارة الجودة الشاملة وهي:

1- **التركيز على المستهلك (العميل):**

إن كلمة مستهلك اتسع مفهومها فلم تعد تعني من يدفع ثمن السلعة أو الخدمة بل أصبح يقصد بها كل شخص يقدم له عمل في منظومة المؤسسة، وبالتالي فإنه في ظل فلسفة إدارة الجودة الشاملة أصبح مفهوم المستهلك يضم نوعين هما المستهلك الداخلي والخارجي ويقصد بالمستهلك الداخلي أية وحدة من وحدات التنظيم داخل المؤسسة سواء كان قسما أو إدارة أو فردا فكل إدارة أو قسم ينظر إليه على أنه مورد وفي نفس الوقت عميل[7]

وذلك أن القسم الذي يؤدي مهمة ما هو مستهلك للقسم الذي قبله وهو أيضا مورد للقسم الذي يليه ويتضح ذلك من الشكل:

في الشكل أدناه يتضح أن أي شخص أو"وحدة تنظيمية" تقوم بأداء مهمة له فهو مستهلك ، وبالمثل أيٌ شخص في المؤسسة يؤدي مهمة لغيره فهو مورد وغيره مستهلك. وبذلك فإن كلمة المستهلك هنا اتسع مفهومها من معناه الدارج، فالمستهلك يكون داخليا "داخل المؤسسة" وقد يكون خارجيا "خارج المؤسسة" وإدارة الجودة الشاملة تهدف إلى الأداء الصحيح الذي يخدم المستهلك بنوعيه الداخلي والخارجي، وعلى ذلك فإن تحمل مسؤولية الجودة من أيٌ فرد في التنظيم هو من أساسيات مدخل إدارة الجودة الشاملة[8]

الشكل يوضح نظرة المؤسسة للمستهلك (العميل)

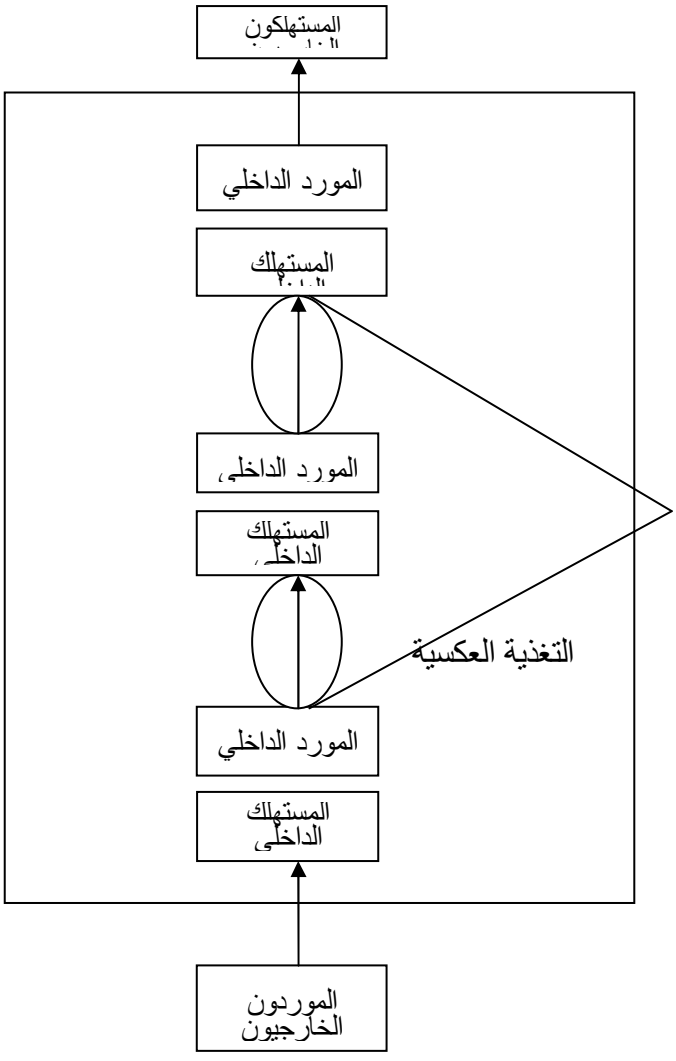

المصدر: عبد الرحمان توفيق، **منهج الجودة الشاملة: إدارة الجودة الشاملة،** مركز الخبرات المهنية للإدارة، مصر، ط3، 2004، ص:17

2- **التركيز على العمليات والنتائج معا:** العميل هو الذي يعتبر المستخدم للسلع المنتجة أو الخدمات المقدمة هو الحاكم الوحيد على جودة تلك العمليات ، من خلال إنتقاذه للمنتج الذي لا يتناسب مع طلبه أو يتعدى احتياجاته أو توقعاته المالية، جميع تلك النواقص نعتبرها نتائج غير مرضية وبها نحصل على مؤشر يسمى مؤشر عدم الجودة في عمليات ذلك المنتج، كما تعتبر النتائج المعيبة مؤشر لعدم الجودة في العمليات ذاتها، ومن ثم يجب إيجاد حلول مستمرة للمشاكل التي تتعرض سبيل تحسين الجودة للمنتجات والخدمات، وهذا بدوره يؤكد على ضرورة أن يكون للعمليات نصيب كبير[9] من التركيز والاهتمام وأن لا يكون التركيز فقط على النتائج المحققة، ولهذا فإن هذا المدخل يهتم تماما بأسلوب العمل وكيفية الأداء واستمرارية وتطوير تحسين هذا الأداء، وليس فقط بتنمية الأداء[10]

3- **الوقاية من الأخطاء قبل الوقوع فيها:** وذلك بتوفير معايير لقياس جودة السلعة المنتجة أو الخدمات المقدمة من أجل تفادي الأخطاء والعيوب التي قد تظهر في المنتجات والخدمات، ولضمان مطابقة هذا الأخير بالمواصفات المعيارية وذلك ما يساعد على تخفيض التكاليف وزيادة الإنتاجية.

4- **شحن تعبئة خبرات القوى العاملة:** تقوم المفاهيم الإدارية التقليدية على افتراض أن الأفراد العاملين لا عقول لهم ولا يهمهم سوى الحصول على الأجر، ولكن في ظل إدارة الجودة الشاملة يعتبر التعويض المالي أحد الطرق التي يتم بها تعويض العاملين عن جهودهم، ولقد أوضحت الدراسات أن الأفراد يتم تعيينهم واستمرارهم في المؤسسة لعدة أسباب ولا يمثل الأجر سوى سبب واحد منها. فالأفراد يحبون أن يشعروا بالثناء والامتنان مقابل جهودهم، وهذا ما يؤيده مدخل إدارة الجودة الشاملة والذي يحرص على إشعارهم به، ومن ناحية أخرى فإن العاملين لديهم معلومات هائلة وفرصا واسعة يمكن من خلالها وبحسن استخدامها تطوير العمل وزيادة الأرباح وتخفيض التكاليف وإشعارهم بأنهم جزء من أعضاء الفريق الفائز[11].

5- **اتخاذ القرارات المرتكزة على حقائق:** من خلال هذا المبدأ يجب أن تتبنى المؤسسة مفهوم التطوير والتحسين الذي يشترك فيه الجميع باختلاف مستوياتهم، بالإضافة إلى اشتراك المستفيدين من خدماتها من خلال التفهم الكامل

للعمل ومشكلاته، الأمر الذي يتطلب الاعتماد على جهاز كفء لنظم المعلومات بالمؤسسة[12].

6- **التغذية العكسية:** إن هذا المبدأ يسمح للمبادئ الخمسة أن تحقق النتائج المطلوبة منها. وفي هذا المجال تلعب الاتصالات الدور الرئيسي لأي منتج، ومن ثم فإن النجاح في الحصول على التغذية العكسية والأمنية والتي تتحقق في الوقت الملائم، تعتبر من العوامل الأساسية التي تسهم في زيادة فرص النجاح والإبداع[13].

- ويزيد البعض مجموعة من المبادئ والتي قد تكون ضمن المبادئ السابقة إلا أنها أكثر وضوحاً وتتمثل فيما يلي:

7- التركيز على إدارة الموارد البشرية؛
8- التحسين المستمر؛
9- التزام الإدارة العليا؛
10- العلاقة بالموردين؛
11- المشاركة والتحفيز؛
12- المناخ التنظيمي؛
13- توكيد الجودة؛
14- إدارة الجودة إستراتيجيا.

I- 3- أهداف إدارة الجودة الشاملة:

إن الهدف من تطبيق إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات هو:

1- خفض التكاليف: إن الجودة تتطلب عمل الأشياء الصحيحة بالطريقة الصحيحة من أول مرة وهذا يعني تقليل الأشياء التالفة أو إعادة إنجازها وبالتالي تقليل التكاليف؛

2- تقليل الوقت اللازم لإنجاز المهمات للعميل : فالإجراءات التي وضعت من قبل المؤسسة لإنجاز الخدمات للعميل قد ركزت على تحقيق الأهداف ومراقبتها وبالتالي جاءت هذه الإجراءات طويلة وجامدة في كثير من الأحيان مما أثر تأثيراً سلبياً على العميل؛

3- تحقيق الجودة: وذلك بتطوير المنتجات والخدمات حسب رغبة العملاء، إن عدم الاهتمام بالجودة يؤدي لزيادة الوقت لأداء وإنجاز المهام وزيادة أعمال المراقبة وبالتالي زيادة شكوى المستفيدين من هذه الخدمات؛

4- خلق بيئة تدعم وتحافظ على التطوير المستمر؛

5- إشراك جميع العاملين في التطوير؛

6- متابعة وتطوير أدوات قياس أداء العمليات؛

7- ثقافة تركز بقوة على العملاء[14]؛

8- تقديم السلع والخدمات للمستفيدين بما يحقق احتياجاتهم، ويتفق مع توقعاتهم؛

9- مواكبة حركة التحسين والتطوير في أساليب تقديم المنتجات والخدمات والارتفاع إلى المستويات العالمية المتعارف عليها؛

10- تطوير كافة مستويات المؤسسة وعملياتها ومنتجاتها، وإدماج فكرة التطوير في صلب فلسفة الإدارة؛

11- تأكيد المركز التنافسي للمؤسسة، وبناء وتنمية وتفعيل قدراتها التنافسية في مواجهة تطورات السوق ومحاولات المنافسين[15].

II- أهمية التحفيز في تحقيق إدارة الجودة الشاملة

نظرا لأهمية الحوافز ودورها كأحد العوامل المؤثرة في سلوك الفرد ودفعه نحو تحقيق أهداف المنظمة، فقد تزايد الاهتمام بها من قبل الباحثين وعلماء الإدارة ورجال علم النفس الصناعي بإجراء الدراسات والتجارب التي أسفرت على أنه لا يمكن حث الفرد على العمل بكفاءة ما لم يكن هناك حافز أو دافع على ذلك، فجعل الأفراد يعملون عن رغبة وحماس هي مشكلة كبيرة تعالج من خلال مدخل التحفيز والدافعية.

II-1 مفهوم التحفيز: يوجد تباين بين العلماء والباحثين في تحديد مفهوم الحوافز فمنهم من يعرفها بأنها الأجر الذي يحصل عليه العامل مقابل ما ينجزه من أعمال ومنهم من إعتبرها الشيء الذي يشبع حاجة من حاجات الإنسان، كما عرفت بأنها مجموعة العوامل التي تهيؤها المنظمات للعاملين لإشباع دوافعهم.

1-تعريف التحفيز: فقد عرفت الحوافز بأنها: مؤثرات خارجية تحفز الفرد وتشجعه على القيام بأداء أفضل وبعبارة أخرى فإن الحافز تتعامل مع المؤثرات الأخرى وكيف يمكن أن توجه هذه المؤثرات سلوك الفرد[16]

- وتعرف الحوافز بأنها مجموعة العوامل والمؤثرات الخارجية التي تثير الفرد وتدفعه لأداء الأعمال الموكلة إليه على خير عن طريق إشباع حاجاته *و رغباته* المادية والمعنوية، إذا أنها مثيرات تعمل على دفع الفرد العامل لأداء عمله بما يضمن تحريك القدرات الإنسانية وتحويلها إلى أسلوب إنتاجي موجه[17].

- و يرى حسين محمد عبد الغني أن الحافز: مثير خارجي يعمل على خلق أو تحريك الدافع (مثير داخلي)

ويوجه الفرد إيجابيا نحو الحصول على الحافز بما يؤدي لإشباع الفرد لسلوك معين يتفق مع الأداء الذي تتطلبه الإدارة[18].

2-تعريف الدافع: لابد عند تطرقنا للتعريف التحفيز علينا أن نعرف الدافع

فيعرف الدافع بأنه: مجموعة العوامل الداخلية النشطة والقوة الموجهة لتصرفات الإنسان، أو أنه شعور داخلي يحرك سلوك الفرد بهدف تقليل التوتر الناتج عن نقص في إشباع حاجة أو حاجات معينة[19]

ويعرف الدافع أيضا بأنه :حالة داخلية أو استعداد داخلي فطري أو مكتسب شعوري أو لا شعوري، عضوي أو اجتماعي أو نفسي يثير السلوك ذهنيا أو حركيا ويوصله أو يسهم في توجيهه إلى غاية شعورية أو لا شعورية، والدافع الفطري يمتاز بأنه عام ومشترك بين جميع الأفراد، أما الدوافع المكتسبة فهي مثل العواطف والميول والاتجاهات والحاجات المكتسبة ومنها أيضا الدوافع الاجتماعية، مثل الدافع نحو القبول الاجتماعي والدافع نحو السيطرة والدافع نحو الخضوع وهي بذلك تختلف من مجتمع لآخر.

وفي حالة وجود دافع غير مشبع فأن الكائن الحي ظل في حالة عدم توازن وتوتر حتى يتم إشباع هذا الدافع فتنخفض بذلك قوته.

وعرف الدافع أيضا: هو أن عامل داخلي في الإنسان يوجهه إلى تصرف معين، والاستمرار في هذا العمل مدة تقصر أو تطول حتى يشبع هذا الدافع.

أو هو عبارة عن شعور أو إحساس داخلي يحرك سلوك الفرد، وذلك بهدف تقليل التوتر الناتج عن النقص في إشباع حاجة معينة[20].

تقود التعريفات أعلاه إلى الاستنتاج بأن هناك فرق بين الدافع والحافز، حيث أن الدافع عامل داخلي منشط لسلوك عمل مقترن بأداء أفضل، لهذا فإن عملية الدافعية هي العملية التي يتم من خلالها تحريك العامل المنشط وتوجيه باتجاه سلوك الأداء الأفضل، كما عملية الدفع تعقب عملية التحفيز وذلك لكون الحافز مؤثر خارجي يعتمد تأثيره على مدى إدراك الفرد لإيجابيته وسلبيته، فقد يكون الحافز مثيرا لحالة التنشيط باتجاه السلوك الأفضل، أو قد يكون مثيرا لعوامل داخلية تنتج عنها حالة الإحباط الإنساني التي يمكن أن تقود إلى سلوك غير مرغوب وأداء أقل.[21]

II-2 أنواع الحوافز:

ويمكن تصنيف الحوافز من حيث طبيعتها إلى نوعين:

II-2-1 الحوافز المادية: وتتمثل في الزيادات السنوية والمكافآت التشجيعية، وأشكال المشاركة في الأرباح والمزايا العينية، والتي تدفع إلى العاملين على أساس إنتاجياتهم، وهي مهمة في إشباع الحاجات (الفزيولوجية)[22]؛ إذا فهذا النوع من الحوافز يأخذ صورا كثيرة ابتداء من المكافآت المالية والمشاركة في الأرباح، إلى مختلف أنواع الاستفادة من العطل المدفوعة الأجر.

وإذا كان الربح كمحرك أساسي للمؤسسة فإن هذا المحرك قد عمل في دول عديدة على انتشاره ليشمل حتى العمال، ولا يبقى حكرا على أصحاب المؤسسة ومالكيها. وهو ما أصبح يطلق عليه ربح العمال أو المشاركة في الأرباح...الخ.

وهذا تسمح به التقنيات المتطورة في التكاليف مثل الموازنات التقديرية، وما تستعمل فيه من تحديد للفروقات ومراقبة المردودية وكفاءة المصالح والعمال في المؤسسة.

كما أن هناك أنواع أخرى من المحفزات ذات الجانب المالي مثل مساهمة الأفراد في رأس المال للمؤسسة وما يصل بها من تحسن في التسيير بالمشاركة، وهذا له أثر على مردودية المؤسسة، رغم محدوديته وهذه الأنواع وغيرها، قد طبقت منذ عقود مضت في مجتمعات مثل فرنسا وبلجيكا وغيرهما[23].

II-2-2 الحوافز المعنوية: هي كل المحفزات ذات الجانب المعنوي، انطلاقا من الترقية والمساهمة في التسيير أو اتخاذ القرارات بواسطة طرق مختلفة، منها المشاركة في الحوار في إعداد الخطط والبرامج، وهي أكثر الطرق التي تتجه إليها المؤسسات منذ وقت، لضمان انضمام العمال إلى الأهداف العامة للمؤسسة.

ومن بين الحوافز المعنوية الهامة، التي ترافقها عادة حوافز مادية، نجد عملية الترقية في المناصب، والتي تمثل انتقال موظف أو عامل من منصبه الحالي إلى منصب أعلى من حيث الصلاحيات والمسؤوليات (حافز معنوي)، أو الحقوق والواجبات (حافز مادي عادة)

وهناك العديد من التقسيمات للحوافز، ومنها ما يوزع فيها صاحبها الحوافز إلى: ايجابية وسلبية، مادية ومعنوية، فردية وجماعية[24].

II-3 عوامل نجاح التحفيز:

من أجل أن يؤدي نظام الحوافز والمكافآت دوره بشكل فعال ينبغي أن يؤخذ بعين الإعتبار المساقات الآتية:

– أن ينظر المدراء إلى الجوانب الإيجابية وإبرازها بدلا من التركيز على الجوانب السلبية؛
– منح التقدير والمكافآت بشكل علني أمام جميع العاملين لتعظيم أثرها؛
– يجب إشراك الموظفين في وضع نظام الحوافز والمكافآت وسبل تنفيذه؛
– أن يعي المدراء أهمية الوقت الملائم لمنح المكافآت والاعتراف بالإنجاز؛
– تقدم المكافآت بعد تحقيق الإنجاز مباشرة ودون تأخير حتى لا تفقد تأثيرها؛
– الموضوعية في منح المكافآت بالتجرد من العوامل المؤثرة حفظا لمبدأ النزاهة وعدم التحيز والتعصب، لأن عدم الموضوعية يُعرض العملية إلى التشويه والهدم ويخلق انطباعات سلبية لدى العاملين؛
– يشمل التحفيز كل العاملين في المؤسسة من أعلى السلم إلى نهايته ويأتي من مصادر مختلفة من المشرفين والإداريين في مختلف المستويات؛
– ولـ "هالسي" تعبير جميل ومعبر بهذا الخصوص، حيث يقول: " امتدح معاونك عندما يستحق المديح، عبر عن استئناسك بكلمة مديح تتفوه بها من وقت لآخر إذا استحق معاونك ذلك، ولكن حذار من أن تسرف فيه لأنك إذا امتدحته على كل صغير يحسن أداءها فإن مديحك يفقد قيمته، فلا تثني عليه إلا إذا كان يستحق فعلا"؛

والشيء الآخر المهم ينبغي أن لا تنظر الإدارة إلى مكافأة أو الحوافز على أنها منة تمن بها على العاملين، والتلويح بإمكانية حجبها متى تشاء، لأن مثل هذا التصرف يدل على منتهى الغباء لأنه يحمل في طياته إذلال الآخرين، وكأنهم يستجدون صدقة لا حقا مشروعا منصوصا عليه[25].

II-4 أهداف التحفيز كآلية لتحقيق إدارة الجودة الشاملة:

لعل الشيء المهم من تقسيمات الحوافز وترتيبها، هو البحث عن أحسنها ملاءمة واستجابة لطبيعة الأفراد في المؤسسة، واستعمالها في الوقت المناسب. كما تجدر الاشارة هنا إلى الفهم الجيد والكافي لمختلف هذه المحفزات وكيفية تطبيقها، والأهداف المرجوة منها. فالحوافز الجماعية مثلا تعمل على تحقيق عدة أهداف منها:

-الارتباط والانسجام والتوافق الجماعي؛
-الملاءمة مع ظروف العمل؛
-تنمية الشعور بالمشاركة؛
-الشعور بالتضامن والتكافل الجماعي.

كما أن الترقية مفيدة كحافز في المؤسسة تستوجب مبررات أو أسباب منها:

-مكافأة الفرد على القيام بواجباته، وتحمل المسؤولية بكفاءة وانضباط طوال العمل ، تشجيع المجدين والممتازين على مضاعفة جهودهم، واستمرارهم في خدمة المؤسسة، وإخلاصهم الشخصي، وغيرتهم على مصلحة العمل.
-تحقيق مصلحة العمل: حيث تتطلب المناصب الأعلى كفاءة أعلى، وانضباطا أكثر في مجال الحضور، وطاقات أكبر في الابتكار والإتقان
-اتاحة الفرصة للترقية لجميع العمال، أو لجميع من تتوفر فيهم شروط محددة للمناصب المفتوحة، للرفع من المعنويات لدى العمال وتحسين النشاط.

والحوافز بمختلف أنواعها تهدف من وراء استعمالها إلى ربط حاجات المؤسسة بحاجات الفرد وربط حاجات الفرد بحاجات المؤسسة[26].

إذاً، فتتضمن إدارة الجودة الشاملة مجموعة من آليات التحفيز كالمشاركة وحرية التعبير وإبداء الرأي وتفويض السلطة الكافية لتنفيذ الأفكار والمقترحات فضلا عن الأمن الوظيفي والاعترافات بإنجاز العاملين، مما يزيد من الرضا الوظيفي والانتماء والولاء للعاملين للمنظمة.[27]

III دراسة حالة: المؤسسة الاقتصادية العمومية الجزائرية لصناعة الأنابيب ALFAPIPE

تمثل صناعة الحديد والصلب الركيزة الأساسية لتطوير وتحديث الاقتصاد الوطني، لما توفره من منتجات مصنعة أو شبه مصنعة، تستعمل في مختلف القطاعات الاقتصادية كالزراعة، النقل، البناء، وفي الصناعات الأخرى كالصناعات الميكانيكية والبترولية، زيادة على تثمين الثروات الطبيعية وتوفير فرص للعمل، ومن أهم مؤسسات هذه الصناعة نجد المؤسسة العمومية الاقتصادية"الجزائرية لصناعة الأنابيب" **ALFAPIPE** والتي حصلت على شهادة الجودة المتمثلة في **ISO 9001** وشهادة جودة المنتجات البترولية **API 5L**

III- 1 التعريف بالمؤسسة:

تم إنشاء وحدة الأنابيب الحلزونية بغرداية TUSGH سنة 1974 برأس مال قدره (7.000.000.000 دج) وقد قامت الشركة الألمانية HOCH بانجاز هذا المشروع (بكافة هياكله) بالمنطقة الصناعية بونورة والتي تبعد 10 كلم على وسط الولاية وتتربع على مساحة 230000 م^2

وانطلق النشاط الفعلي بالمؤسسة سنة 1977 حيث قامت الشركة الألمانية HOCH بمساعدة المؤسسة محل الدراسة لمدة 10 سنوات ومرت الشركة بعدة تغيرات إلى حد الآن أهمها:

▪ في 05 نوفمبر 1983 تمت إعادة هيكلة الوحدة وذلك طبقاً للقرار الصادر في الجريدة الرسمية رقم 46 يوم 1983/11/13؛

▪ في سنة 1986 تم إنشاء ورشة التغليف بالزفت لتوسيع النشاط؛

▪ في سنة 1989: تم تقسيمها إلى وحدتين هما: وحدة الأنابيب والخدمات القاعدية "TSI"، ووحدة الخدمات المختلفة " IPD ".

▪ وفي سنة 1991 تم ضم الوحدتين السابقتين بعد فشل تسيير ووحدة الخدمات المختلفة "IPD" بسبب الخطأ في الدراسة التقنية لورشة التغليف الداخلي بالإسمنت للأنابيب الناقلة للمياه حيث أعيدت الوحدة إلى حالتها السابقة وأصبحت تسمى الأنابيب الحلزونية (TUBE SPIRL) "TSP"؛

▪ في سنة 1992: إنشاء ورشة جديدة للتغليف الخارجي للأنابيب بمادة البوليثيلان POLLYTHYLENE، وذلك من أجل التطوير والتحسين في جودة المنتجات لملاءمتها للمقاييس الدولية؛

▪ في سنة15/10/ 2000 وبعد إعادة الهيكلة أصبحت الوحدة تحمل اسم مؤسسة الأنابيب الناقلة للغاز مستقلة ماليا وإداريا تابعة لمجمع الأنابيب GROUP ANABIB؛

▪ في 2006/07/01 تم دمج مؤسسة PIPE GAZ بغرداية مع مؤسسة الأنابيب بعنابة ALFATUS وأصبحتا وحدتين ضمن مؤسسة **الجزائرية لصناعة الأنابيب** ALFAPIPE، وهذه اختصار لـ ALGERIENNE DE FABRICATION DE PIPE حيث المؤسسة أصبحت تابعة للمديرية العامة بحيدرة بالجزائر العاصمة.

وحاليا يقدر رأس مال المؤسسة بـ (2.500.000.000.000 دج)

III-2 نشاط المؤسسة:

يتمثل النشاط الأساسي للمؤسسة في إنتاج الأنابيب المصنوعة من الصلب لغرض نقل البترول، الغاز الطبيعي، والماء وكل الموانع الواقعة تحت ضغط عالي مثل الزيت،وتبلغ الطاقة الإنتاجية للمؤسسة في الحالة العادية 100000 طن سنويا حيث تستطيع المؤسسة إنتاج أنابيب يتراوح قطرها ما بين 406 ملم و1625.6 ملم أي" 16 و" 64 (بوصة Pouce[28]) وهو أعلى قطر والذي يميز المؤسسة وسمك الفولاذ مابين 7.52ملم و15.88ملم وكتلة المتر للأنبوب مابين 73.78كلغ و630.41 كلغ ويتراوح طول الأنابيب الذي تنتجها مابين 7م و13م

III-3 أساليب التحفيز المتبعة في المؤسسة:

إن المؤسسة تتبع عدة أساليب تحفيزية أثناء القيام بالعملية الإنتاجية داخل المؤسسة مما يساعد على تطبيق إدارة الجودة الشاملة ونشر ثقافتها في المؤسسة ونظرا لأن للتحفيز له دور فعال في غرس ثقافة الجودة فإن المؤسسة اتبعت عدة أساليب تحفيزية وهي كما يلي:

1- الترقية:

✓ **الترقية في نفس المنصب**

إذا كان لمنصب العمل عدة مستويات تأهيلية، يتم التقدم من مستوى إلى آخر إذا أثبت الهرم السلمي أن هناك اكتساب في التحكم الواسع في المنصب مما يؤدي إلى تحسين الأداء.

✓ **الترقية في حالة شغور منصب ذو تصنيف أعلى:**

تحصل هذه الترقية إلا في حالة ضرورة إشغال منصب عمل شاغر أو شغور المنصب مسجل في النظام الرسمي للهيكل وبقاءه ضروري للسير الحسن لهذا الهيكل.

2- العلاوات: تنقسم إلى:

✓ **علاوة المردود الفردي**

(PRI) Prime De Rondement Individuel:
تهدف هذه العلاوة إلى تدعيم المردود الفردي للشخص، تقيم وتدفع شهريا، وتحسب على أساس مقاييس كحجم العمل ونوعيته، والالتزام والانضباط وتصل نسبة هذه العلاوات إلى 20% من الأجر القاعدي

-حجم العمل Volume De Travail: يتم تنقيطه من طرف المسؤول المباشرة وهي على 7/ أي 7%

-نوعية العمل Qualité De Travail: حسب جودة العمل ونوعيته وهي على 7/ أي 7%

-الالتزام والسيرة Assiduité: في حالة غياب بعذر أو بدون عذر تنزع نقطة على كل غياب وإذا وصلت 4 غيابات لا تمنح له العلاوة في هذا الجانب لأن التنقيط على 3/ أي 3%.

-الانضباط Discipline: ينتزع التنقيط في حالة الخطأ وأيضا في حالة غياب بدون عذر وأن التنقيط يكون على 3/ أي 3%.

-مجموع التنقيط: هو على 20/ وتعني 20% أي وصل أحدهم 20/20 تمنح له علاوة 20% × الأجر القاعدي وإذا وصل أحد آخر مثلا 16/20 أي تمنح له علاوة 16%× الأجر القاعدي.

ويتم التوقيع عليها من طرف المسؤول المباشر ورئيس المصلحة

✓ **علاوة المردود الجماعي**

(P.R.C) Prime De Rondement Collective :

تهدف علاوة المردود الجماعي إلى تثبيت الانتاجية، تسدد شهريا حسب معايير ومقاييس تحدد سنويا بقرار داخلي للمؤسسة بعد استشارة لجنة المشاركة .

✓ **علاواة تشجيعية Prime D Encouragement:** تمنح هذه العلاوة في حالة ما إذا كان هناك عجز في الميزانية (علاوات تشجيع).

✓ **علاواة المردودية السنوية**

Prime De Rondement Annuel (PRA) : تمنح هذه العلاوة عندما تكون فائض في الميزانية.

إضافة إلى الحوافز السابقة تقوم المؤسسة بتكريم عمالها الذين بلغو مدة معينة من الأقدمية حيث تقوم بتقديم:

☒ الميدالية الذهبية لـ 30 سنة خبرة يمنح عليها 30000 دج

☒ الميدالية الفضية لـ 20 سنة خبرة يمنح عليها 20000 دج

☒ الميدالية البرونزيةلـ 10 سنوات خبرة يمنح عليها 10000دج

III-4 دوافع وأهداف المؤسسة من تطبيق نظام إدارة الجودة

لقد كان وراء تطبيق المؤسسة لمواصفات ISO 9001 مجموعة من الدوافع بالإضافة إلى مجموعة من الأهداف تسعى إلى تحقيقها.

III-4 -1 دوافع تطبيق نظام إدارة الجودة:

إن الظروف الحالية للسوق التي تستدعي من المؤسسة ضرورة التعامل مع متغيراتها نتجت عنها عدة دوافع كانت بمثابة المحرك الرئيسي لتطبيق نظام الجودة الذي يتوافق مع ISO9001 ويمكن ذكرها في العناصر التالية:

- يعتبر الحصول على الشهادة العالمية للجودة الشرط الرئيسي الذي أملته شركة سوناطراك على المؤسسة باعتبارها المتعامل الرئيسي معها وقد حددت فترة 2002 كأقصى حد للحصول على هذه الشهادة؛
- متطلبات الشراكة مع الشركات الأجنبية حيث عملت مؤسسة بشراكة غير معلنة وليس لديها طابع قانوني وتتمثل هذه الشراكة في إطار التعاون تسمى هذه الشراكة Great مع:

✓ شركة PRIMARY الاسبانية بنسبة 20%

✓ شركة BANDER الألمانية بنسبة 20%

✓ شركة ALFATUS الجزائرية (عنابة) بنسبة 30%.(سابقا)

- طموح المؤسسة في كسب ثقة عملائها؛
- تدعيم سمعة المؤسسة وكسب عملاء جدد سواء على المستوى المحلي أو الخارجي؛
- الحصول على ميزة تنافسية؛

الرغبة في الحصول على مشروع عين صالح ISG وهذا المشرع التابع لشركة Bechtel، والذي فعلا تحصلت على إمتياز الحصول على صفقة بـ 115000 متر منه.

III-4 -2 أهداف المؤسسة من تطبيق نظام إدارة الجودة:

إن تطبيق المؤسسة لنظام الجودة الذي يتوافق ISO 9001 Q1 وAPI 5L كان نتيجة للرغبة في تحقيق مجموعة من الأهداف.

- نشر الثقافة الجودة بين أفراد المؤسسة؛
- التجنيد الجماعي للموارد البشرية في تطبيق نظام الجودة في المؤسسة؛
- القيام بعمليات المراجعة الخارجية التي تقوم بعملية تقييم النظام والموارد وبالتالي تؤدي إلى تقليل الهدر في الموارد وكذا تنظيم العمل؛
- تسهيل حركة العمال لتلقي البرامج التدريبية اللازمة في الهيئات الدولية؛
- توزيع مسؤولية الجودة على جميع أفراد المؤسسة وعدم اقتصارها على مصلحة واحدة.

III-5 أهمية التحفيز في تحقيق إدارة الجودة في المؤسسة

قمنا باختبار عينة للبحث من دراسة تمت سابقا على مؤسسة العمومية الاقتصادية الجزائرية لصناعة الأنابيب ALFA PIPE بغرداية، والتي كانت تظم 30 عبارة وكانت من بينهم العبارة الموجودة في الجدول أدناه وقد تم توزيع 105 استبيان وتم استرجاع 101 استبيان وقد ألغينا 5 استبيانات منهم لعدم توافقهم مع معايير الدراسة فأصبح 96 استبيان أي ما نسبته 91.4% من مجموع الاستبيانات الموزعة، وشملت الدراسة مختلف المستويات الإدارية، وتم استعمال في هذه الدراسة مقياس ليكرت الخماسي، إذ أن مدى الموافقة هو $\frac{1-5}{5} = \frac{4}{5} =$ **0.80**، وعليه فإن مجالات الموافقات كانت على النحو التالي:

ما بين [1، 1.80[فتمثل غير موافق تماما، وما بين [1.80، 2.60[فتمثل غير موافق، وما بين [2.60،3.40 [فتمثل محايد وما بين[3.40 ،4.20 [فتمثل موافق، وما بين [4.20 ،5[فتمثل موافق تماما.

المصدر: من إعداد الباحث

يشير الجدول ادناه إلى أن العوائد والمكافآت والترقيات تدفع العامل إلى تحسين جودة الأداء والإنتاج، ولذلك كانت أغلبية الإجابات ما بين موافق تماما وموافق، فعدد العمال الذين أجابوا بموافق تماما 40 عامل ما نسبته 41.7% وعدد العمال الذين أجابوا بموافق 43 عامل بنسبة 44.8% أما العمال الذين أجابوا بمحايد فعددهم 8 عامل ما نسبته 8.3% والعمال الذين أجابوا بغير موافق وغير موافق تماما هم على التوالي عاملين بنسبة 2.1% و3 عمال بنسبة 3.1% وكان المتوسط الحسابي 4.2 والانحراف المعياري 0.913 والذي يدل على عدم تشتت الإجابات وتمركزها.

ونلاحظ من الشرح السابق أن المتوسط الحسابي وقع في مجال موافق تماما ورغم وجود بعض الإجابات في مجالات أخرى، مما يعني أن العوائد والمكافآت والترقيات تدفع بالعمال إلى تحسين الجودة في الأداء والإنتاج، وبذلك على المؤسسة إضافة أساليب أخرى في التحفيز زيادة على الأساليب التي رأيناه سابقا لأن التحفيز له دور إيجابي في تحقيق الجودة في المؤسسة.

الجدول يبين أهمية التحفيز في تحقيق الجودة

العبارة	تكرار ونسبة الموافقة					المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
	موافق تماما	موافق	محايد	غير موافق	غير موافق تماما		
العوائد والمكافآت والترقيات تدفعك إلى تحسين الجودة في الأداء والإنتاج	40 41.7	43 44.8	8 8.3	2 2.1	3 3.1	4.2	0.913

خاتمة

إن التحفيز يعمل على مشاركة العامل في تسيير المؤسسة وتحقيق أهدافها من خلال مشاركته في اتخاذ القرارات و بعث روح التعاون والعمل كفريق واحد وهذا مما يدخل ضمن أهداف و عناصر إدارة الجودة الشاملة, كما أن أغلب الرواد إدارة الجودة الشاملة أشاروا في المبادئ التي وضعوها إلى ابراز أهمية التحفيز في التحسين والمشاركة الفعالة للفرد في انجاح إدارة الجودة الشاملة, وعند دراستنا للمؤسسة الانتاجية الجزائرية لصناعة الأنابيب ALFAPIPE وجدنا أن العوائد و المكافآت و الترقيات تلعب دور مهم و أهمية كبيرة في تحقيق إدارة الجودة الشاملة في المؤسسة و ذلك لأن العوائد و المكافآت و الترقيات تحفز و تدفع بالعمال إلى تحقيق الجودة في العمل المطلوب منهم.وعليه فإن التحفيز يلعب دور مهم في ضمان المشاركة الفعالة للأفراد في تطبيق إدارة الجودة الشاملة في المؤسسة

الهوامـــــش:

1 مأمون الدرادكة، طارق الشبلي، الجودة في المنظمات الحديثة. دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان ، ط1، 2002، ص:15
2 صالح ناصر عليمات، ادارة الجودة الشاملة في المؤسسات التربوية التطبيق ومقترحات التطوير، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان الأردن، ط1، 2004، ص ص:18-19
3 مدحت أبو النصر، أساسيات إدارة الجودة الشاملة، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2008، ص ص: 64-65
4 مهدي صالح السامرائي، إدارة الجودة الشاملة في القطاعين الإنتاجي والخدمي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2007، ص ص:34-35
5 محفوظ أحمد جودة، إدارة الجودة الشاملة مفاهيم وتطبيقات، دار وائل للنشر، عمان الأردن، ط2، 2006، ص ص:22-23
6 www.manhal.net/articles.php?action=show&id 22:45 15/07/2009

7 جميل حميد الأثوري، جميل عبد المجيد المقطري، دراسة مستوى تطبيق أساسيات الجودة الشاملة في الشركات اليمنية المطبقة لنظام ISO 9001، المؤتمر الدولي الثالث حول الجودة والتميز في قطاع الأعمال يومي 7-8 ماي 2007، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، ص:4.

8 عبد الرحمان توفيق، منهج الجودة الشاملة: إدارة الجودة الشاملة، مركز الخبرات المهنية للإدارة، مصر، ط3، 2004، ص ص: 17-16

9 جميل حميد الأثوري، جميل عبد المجيد المقطري، مرجع سبق ذكره ،ص:4

10نفس المرجع، ص:4

11 عبد الرحمان توفيق، منهج الجودة الشاملة : إدارة الجودة الشاملة، مرجع سبق ذكره، ص:18

12 محمد عبد الفتاح محمد، إدارة الجودة الشاملة بمنظمات الرعاية الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2008، ص178

13 عبد الرحمان توفيق، منهج الجودة الشاملة: إدارة الجودة الشاملة، مرجع سبق ذكره، ص:19

14 http://www.mmsec.com/m3-files/JWDA1.htm 17:20 28/07/2009

15 احمد بن عيشاوي، إدارة الجودة الشاملة مدخل لتطوير أداء المنظمات الإدارية، المؤتمر العلمي الدولي حول الأداء المتميز للمنظمات والحكومات 08-09 مارس 2005 كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، ص:515

16 هبال عبد العالي، دور التحفيز في تحقيق إدارة الجودة الشاملة مع دراسة ميدانية في مؤسسة الحليب الحضنة، المسيلة، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، فرع علم التنظيم السياسي والإداري، جامعة الجزائر،2008/2007، غير منشورة، ص ص: 3-4

17 خالد عبد الرحيم مطر الهيثي، إدارة الموارد البشرية مدخل استراتيجي، دار وائل للنشر والتوزيع عمار الأردن، ط2، 2005، ص: 255.

18 هبال عبد العالي، مرجع سبق ذكره، ص: 4

19 خالد عبد الرحيم مطر الهيثي، مرجع يبق ذكره، ص: 255

20 مهدي السامرائي، مرجع سبق ذكره، ص ص: 280-281

21 خالد عبد الرحيم مطر الهيثي، مرجع سبق ذكره ص: 122

22 محفوظ أحمد جودة، مرجع سبق ذكره، ص ص: 133-134

23 ناصر دادي عدون، إدارة الموارد البشرية والسلوك التنظيمي: دراسة نظرية وتطبيقية، دار المحمدية، الجزائر، 2003، ص:77

24 ناصر دادي عدون، مرجع سبق ذكره، ص ص: 77-78

25 مهدي السامرائي، مرجع سبق ذكره،ص ص: 288-289

26 ناصر دادي عدون، مرجع سبق ذكره، ص ص: 78-79

27 هبال عبد العالي، مرجع سبق ذكره، ص: 122

28 ملاحظة: بوصة أو Pouce هي وحدة قياس و1 بوصة أو Pouce=25.4ملم

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 165 - 174
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

إشكالية الحب والجمال في الفكر الإسلامي _ ابن حزم نموذجا_ والأسلوبية وعلم النص

سعد عبد السلام

معهد الفلسفة جامعة الجزائر

ملخص البحث:

اهتم جل مفكري الإسلام بموضوع النفس و الروح, لكن الذي يَهمُّنا هنا هو تتبع آراء علم بارز من علمائنا الأجلاء, ألاَ وهو ابن حزم, الذيً طُمِست أفكاره وحُجِبت آراؤه, وسبب ذلك أن معظم الدارسين عالج نتاج ابن حزم على أنه فقيه وأديب، ولكن القليلين منهم هم الذين يدركون أنه عالم من الطراز الأول, و فيلسوف من الطبقة الأولى.[1] والفكرة التي كانت شائعة ولا يزال جزءٌ قائم منها اليوم، ودرج عليها الناس، هي النظر إلى ابن حزم على أنه فقيه ظاهري، يُعْنَى بالتمسك بالدلالة الحرفية للنص والتشبث بظاهره, رافضاً الإستدلال وجميع ضروب القياس العقلي[2] بَلْهَ أن يتناول المسائل الفلسفية, مع أن الأمر بخلاف ذلك. فهو الذي قاد المشروع الفكري الأندلسي، وكان منهجه النقدي تمهيداً لظهور المدرسة الفلسفية بالمغرب الإسلامي ومقدّمة لها, وإن ظاهريته كانت وراء ثورة من أكبر الثورات الفلسفية التي عرفها تاريخ الفلسفة في الإسلام.[3] و من ثمة كان من الضروري الحفْرُ في فكر ابن حزم للتعريف ببعض آرائه الفلسفية. ولذا كان هذا الموضوع الهادف إلى إبراز رؤية ابن حزم الفلسفية لمسألة الحب والجمال.

تقديم :

يعتبر ابن حزم[4] هو علي بن أحمد، المُكنَّى بأبي محمد والمشهور بابن حزم, المولود بقرطبة الأندلسية سنة:(384هـ/994م)والمتوفى سنة:(456هـ/1064م). وقد اشتهرت الأندلس بطبيعتها الفاتنة الخلابة ولأجل ذلك أُطلق عليها إسم –الفردوس المفقود– ولذلك لا نعجب أنْ يكْلَف أبو محمد بها كلفاً شديدا إلى درجة الإفتتان بجمالها ومباهجها, والأندلس آنذاك « مرتع الجمال العجيب في طبيعته وأهله. جمالٌ خاصّ أثّر في رجالها, فلطّف طباعهم وطباع الأندلس بهذا الطابع الرقيق الجذاب الذي تفردت به، وابن حزم منذ نعومة أظفاره, صافي الذهن مرهف الحس, رقيق مشوب بالعاطفة، يزين ذلك كله تهذيب أرستقراطي متوازن.»[5] هذا إضافة إلى البيئة النسوية، التي نشأ أبو محمد في كنفها ، فعملت على إرهاف حسّه وإشعال وجدانه, فكان من ذلك أن تفتّحت حواسّه ونفسُه على أفانين الحب والجمال، فليس بدعا بعد ذلك أن نراه مهتما بالكتابة في ماهية الحب، وبيان حقيقة الجمال.

أولا: كتاب "طوق الحمامة" تصوير للحب والجمال.

« إنّ من يقرأ كتاب ابن حزم "طوق الحمامة" يجد أن الحب قد شغل ابن حزم في حياته كلها كما شغله الفقه والحديث والتفسير والكلام. ويتأكد أن الحب لم يشغل ابن حزم وحده، إنما يبدو أنه كان يشغل الناس جميعا في إسبانيا المسلمة آنذاك.»[6]

ولعل تسميته لرسالته تلك بـ"طوق الحمامة" له دلالات عديدة، وإلا لماذا اختار هذا الاسم؟.[7] وإن الدارس لهذا الكتاب ليلمح ذلك بوضوح في ثناياه, حيث الائتلاف والتوافق بين الجانبين المتداخلين والمتكاملين في الآن ذاته : الحب والجمال.« فطوق الحمامة كناية عن استلهام الجمال الذي هو مثار الحب... وكأنّي بابن حزم يقول: هذا كتاب يتحدث عن العلاقة السرية بين

الجمال والحب.»[8] أليس أبو محمد - ابن حزم- هو القائل:

وذي عذل فيمن سباني حُسْنه

يطيل ملامي في الهوى ويقول:

أمِنْ أجل وجهٍ لاحَ لم تر غيره

ولم تدر كيف الجسم: أنت عليل؟؟

فقلت له : أسرفت في اللوم فاتّئد

فعندي ردّ لو أشاء طويــل

ألم تر أنني ظاهري وأننــي

على ما أرى حتى يقوم دليل.[9]

فلم يشأ ابن حزم أن يدع ظاهريته حتى في الحب والجمال.[10]

وإن كان فيلسوفنا يعترف بأنّ الحب هو شغل المرأة الشاغل، فليس بدعا أن نراه مهتماً بدراسة أحوال العاشقين وأخبار المحبين، والحرص على فهم دوافع الناس الشعورية واللاشعورية.[11]

ولعلنا نطرح هنا بعض التساؤلات الضرورية: من أين استمد أبو محمد نظريته في الحب والجمال؟ وكيف استطاع التوفيق بين اتجاهه السلفي الظاهري المتوقّف على النصوص؟ وبين دراسته للحب والجمال المبنية على الاستبطان الذاتي والتأمل العقلي الفلسفي؟ أليس شيئا عجيبا أنْ يقوم ابن حزم وهو المُتّهم بالجمود على النصّ بالكتابة في فلسفة الحب والغرام والجمال؟؟.

إن ما أثار دهشة واستغراب الباحثين هو كتابة الفقهاء في الحب، بل إن الأمر العجيب هو أن يكون الحب ودراسته, السمة العامة لمجموعة من الفقهاء الظاهرية والحنابلة, الذين عنوا عناية كبيرة بالحب البشري ودرسوه دراسة موسّعة، رغم هجومهم العنيف على الحب الإلهي.

وإنها لظاهرة فريدة جديرة بالتسجيل, لأن هؤلاء الفقهاء الذين عُرِف عنهم الوقوف مع ظاهر النص الديني واتُّهِموا من قبل خصومهم بالجمود والتحجّر, إنطلقوا في هذا الميدان الإنساني وأشبعوه بحْثاً, وكتبوا فيه الكتب الكثيرة.[12] ولا عجب في ذلك، فالإسلام قد اهتم بالحب وتكلّم فيه، بل إنّ ذِكْر"الحب" في القرآن ورد ثلاثا وتسعين مرة لتوضيح أشكاله وأبعاده. ولذا لا يمكن قبولُ رأيِ من زعمَ أنّ الإسلام يخلو من نظرية في الحب.[13] ومن ثمَّة اهتم مفكرو الإسلام به, وكانوا على وعي تامّ وفهم عميق بمسألة الحب، سواء كانوا أدباء أو فقهاء أو فلاسفة أو غيرهم, وأكثروا فيه التآليف، وصنّفوا فيه النظريات.[14] سواء كان ذلك في محبة الله عباده, أو محبّة العباد لله, أو محبّة الناس لبعضهم البعض. ومن ذلك قول الله تعالى:(فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوَنَهُ)[15] غير أنّ كتابة ابن حزم في الحبّ، تميّزت بكونها كتابةَ الفيلسوف وعالِم النفس الذي يؤثر الإستقصاء والبحث، ويعتمد الملاحظة والإستقراء, ويستنبط الأحكام والقواعد العلمية أكثر من الأدبية.[16] ولذا اعتُبِر كتابه:"طوق الحمامة" من نفائس أمهات كتب التراث الإسلامي وذخائره البديعة في علم النفس, ومصدراً هاما في موضوع الحب, ولأجل ذلك ترجم إلى عدة لغات عالمية.[17]« وقد يعجب القارئ حين يرانا ندخل ابن حزم في عداد علماء النفس، ولكنه لو قرأ بعين الإعتبار رسالة ابن حزم في"الألفة والإلاّف" لماَ تردّدَ في إدراج تلك الرسالة ضمن علم النفس.»[18] حيث أنه يسبر فيها أغوار النفس الإنسانية, ويفكّ أسرار الحب ومعانيه, وما ذلك إلا لأنه« قد نهل من عالم الحب وعَلَّ، وشرب كأسه حتى الثمالة, وبَلاَ من أحواله وأعراضه, وأحزانه ومفارحه شيئا كثيرا، حتى لقد تفرّد في المشرق والمغرب بالإيغال فيه والغوص على أسراره وأكاد أقول إنه إمام مجتهد في الحب، كما هو إمام مجتهد في الدين.»[19] فقد اجتهد أبو محمد في التعريف بالحب، وبيان عوارضه وأسبابه وأوصافه وأنواعه ومظاهره, فظهر بمظهر الخبير العارف, والمحلل السيكولوجي لنزعات وخلجات وأسرار النفس، مصوّراً لنا حبه الشخصي، وبعضا من التجارب التي مرّ بها, واصفا تلك الحدة الرومنطقية التي علِقت به، منذ أن تهاوى أمام ناظريْه بعض من يحبّهم كوالده ومدينته, وزوجته "نعم".[20] ذلك الوصف الذي ذكره المستشرق " دوزي - **Dozzy**

« إن وصْفَ ابن حزم لحبّه في ترجمته لنفسه، يكشف لنا في نفسانية هذا البطل عن إحساس رقيق، خال من النزعات الجسمانية، و يمكننا أن نعتبره أنموذجا استثنائيا للحب الروحاني العفيف على غرار علماء النفس الألمان, الذين ينزعون في حبّهم منزعاً أفلاطونيا.»[21]

ثانيا: الحب : مفهومه وكيفية وقوعه .

ذهب ابن حزم إلى أن الناس اختلفوا في تحديد وضبط ماهية الحب « وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا, والذي أذهبُ إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ماحكاه محمد بن داود عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أُكَرٌ مقسومة، لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها.»[22] مستدلا على ذلك بقوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)[23] وهذا الاتصال يقوم على التجانس القائم بين هذه النفوس والأرواح فيكون بينها الإئتلاف والتحابب, وحيث يكون الإتفاق والتشاكل والميل بين النفوس ينتج عنه الحب. وهذا التعريف الذي ذكره أبو محمد مردّه إلى إيمانه بأن الله خلق الأنفس أو الأرواح فيكون بين بعضها بالطبيعة تشاكلٌ واتّفاق وانجذاب، وكلما كثر التجانس بينها تأكدت المودة وزاد الحب.« ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة, طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد...فانظر هذا ترَهُ عيانا.»[24] ومما يؤكد ذلك في نظر أبي محمد هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَة مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفْ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفْ)[25] ولعل هذا التعريف الذي اعتمده أبو محمد، من القول باتصال أجزاء النفوس المعشوقة، واشتياق هذه الأجزاء إلى بعضها، أو إلى نصفها الآخر، فإذا عثر عليه تمت له المحبة والسعادة, نجده جليّا عند أفلاطون، حيث يؤكد على أن النفوس جواهر بسيطة تسكن عالم الأفلاك، وأن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الإتصال و الإنفصال, حيث أن الشكل دائما يستدعي شكله والمثيل إلى مثيله يقترب. إن هذه الفقرة تؤكد في نظر بعض الباحثين على أفلاطونية ابن حزم في الحب[26] بل إنه يُظهر مدى التأثر الواضح بأفلاطون في كتابه:"المأدبة" حيث يشتاق كل نصف إلى نصفه الآخر.[27] وهذا التعبير الذي يستخدمه أبو محمد:« وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والإنفصال, والشكل دائبًا– إنما– يستدعي شكله، والمِثْل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد, والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد...كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها.»[28] مأخوذ عن أفلاطون، إما بطريق مباشر بالإطلاع على كتب أفلاطون المترجمة، خاصة "المأدبة" أو بطريق غير مباشر، حيث نقله عن بعض المتأثرين بالفكر الأفلاطوني.[29]

ولهذا عُدّ ابن حزم في عداد أتباع الأفلاطونية في الإسلام، لأنه يستشهد بإحدى الفقرات التي أخذها محمد بن داود الظاهري(ت.297هـ-909م) في كتابه:"الزهرة" وقد أخذها هذا بدوره عن أساطير أفلاطون في حديثه الشهير عن الإيروس في محاوره:"المأدبة" حيث كان اعتقاد بعض أهل الفلسفة أن الله قد أعطى لكل من العقول التي خلقها شكلا كرويا ثم جعله قسمين، ووضع كلاّ منهما في جسد.[30] في حين مال آخرون إلى أنه تأثر في ذلك بالفقيه الأديب: أبو إسحاق الحصري القيرواني (ت.413 هـ) صاحب كتاب:"المصون في سر الهوى المكنون".[31]

ومهما يكن الأمر، فسيّان تأثر أبو محمد بهذا أو بذاك أولم يتأثر بهما، فإنه أبدع في بيان فلسفة الحب المتأصل عن تآلف الأرواح, محتجّا بالحديث النبوي الشريف، مؤكدا على أن التعارف قديم, وأن التوافق أو التنافر بين النفوس أزلي سابق، حيث يشعر به الأفراد اتجاه غيرهم ولو بدون سبب واضح ملموس، فقد تحبّ شخصا لغير سبب وتستثقل آخر وتنفر منه ولو لم تره, أو لم تتعامل معه, وما ذاك إلا لأن الأرواح تلاقت في الملكوت الأعلى من قبل فيحدث لها في هذا العالم الإنجذاب إلى قرنائها، أي إذا لقي الروح قسيمه أو شقيقه أحبّه, لاتفاق القسمين وازدواج الجزأين، فيكون بذلك الإلتحام والتجانس، مستدلا بالآية السابقة الذكر. ويدلنا ذلك أيضا على أن الحب لن يوجد بين طرفين في هذا العالم، إلا إذا كان قد وجد في السابق، أي قبل حلول النفس في الجسد، ولن يكون بينهما انجذاب وتحابب واشتهاء للملاقاة إلا إذا كان من قبل كذلك.

« ولكن نفس الذي لا يحب من يحبه، مكتنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلمْ تحسّ بالجزء الذي كان متصلا بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلّصت لاستويا في الاتصال والمحبة...كالنار في الحجر لا تبرز على قوة النار في الاتصال إلا بعد القدح...وإلا فهي كامنة في حجرها...»[32]

والمراد بذلك أنه لكي تُفهم مسألة الحب، يجب أن نكون على معرفة ووعي بماهية النفس التي خلقها الله عزوجل، وقبل أن تَحُلَّ بهذا الجسد، فالتعارف والتآلف أو التنافر والتباعد، كان موجوداً في العالم العلوي، وهو يتحقق الآن أيضا, فكلّ نصف يتوق إلى النصف الآخر الذي انفصل عنه, فإذا التقيَا تعانقا كأنما يطلبان الإتحاد، فإذا كان النصفان الملتقيان ذكرا وأنثى، نتج عن تلاقيهما التناسل فوجدا الإكتفاء في الإتصال، وإذا حدث التجانب بين ذكر وآخر مثله نشأت بينهما عاطفة قوية تمثلت في الصحبة والصداقة، لأن روح لكل منهما تتوق للأخرى توقاناً لا تستطيع أن تُفصح عنه. وعلى هذا فليس الحب سوى محاولة لاستعادة الوحدة القديمة المتجددة.[33] ولأجل ذلك عبّر ابن حزم عن الغموض الذي يكتنف ماهية الحب بقوله:« الحب – أعزك الله-...دقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة.»[34] ومهما يكن الأمر, ولو افترضنا جدلاً تأثُّر ابن حزم بالفلسفات القديمة، فإنه قد جاء بتحليل نفسي وخلقي للحب...وهو في ذلك يستضيء بمثالية أفلاطون ولكن شيئا مُهِمّاً يفرّق بينهما، هو أن ابن حزم لم يطلّ على الحب من خلال تأملاته كما صنع أفلاطون، وإنما نظر إليه من خلال

تجاربه ومشاهداته وصوره.»[35]

وأما عن كيفية وقوع الحب, فيقول:« وإني لأخبرُ عنّي أني ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية ...وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها...»[36] إن هذا الحب الذي يتحدث عنه إنما يكون بانجذاب نفس المحب إلى المحبوب، كجاذبية الأرض للأجسام، أو المغنطيس للحديد، ويشرح ذلك بأن خيال المحب يُسْقطُ على من يحبّ مِن صور الإستحسان والكمال, ما يجعل شخصية المحبوب كاملة تامّة الحسن.« وأما العلة التي توقِع الحب أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنة، فالظاهر أنّ النفس تولع بكل شيء حسن, وتميل إلى التصاوير المتقنة، فهي إذا رأت بعضها تثبّتت فيه, فان ميّزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحّت المحبة الحقيقية...وإن للصور لتوصيلا عجيبا بين أجزاء النفوس النائية.»[37] فالحب إذن هو تقارب بين الأنفس، ناتج عن سعي الشبيه وراء شبيهه، لمَا يرى فيه من حسن وجمال، أو لما يصبغه عليه من صور الكمال. وهذا التحليل الذي يعطيه لنا ابن حزم، يذكرنا بشكل واضح بمحاورة أفلاطون: لوفيدر

-LE PHEDRE- وفيها أن النفس جميلة تشتاق بشغف إلى كل ما هو جميل، وتميل نحو الأشكال الكاملة فيقع الحب بمعناه الحقيقي. وإنه لمهمٌّ هنا أن نبرز هذا التحليل عند ابن حزم, وهو الظاهري النزعة المتمسك بحرفية النصوص.[38]

أليس هو القائل:

أمن عالم الأملاك أنت أم إنسي

أبِن لي فقد أزرى بتمييزي العيّ

أرى هيئة إنسية غير أنه

إذا أُعمل التفكير فالجرم علوي

تبارك من سوّى مذاهب خلقه

على أنك النور الأنيق الطبيعي

ولاشك عندي أنك الروح ساقه

إلينا مثال في النفوس اتصالي.[39]

وهو عندما يتحدث عن الحب والمحبوب، والإنجذاب القائم بينهما على أساس الإستحسان, فإنما يتلاقى في ذلك مع الكاتب الفرنسي: ستندال– **STANDDAL**-, كما يتلاقيان في فكرة "التبلور" أي تبلور الحب لدى الرجل والمرأة.[40] فالحب يقع إما بالوصف دون المعاينة.« وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب...فإن للحكايات ونعْت المحاسن ورصْف الأخبار تأثيراً في النفس ظاهراً، وأن تسمع نغمتها من وراء جدار فيكون سببا للحب واشتغال البال وهذا كله قد وقع لغير ما واحد.»[41] ولكن أبا محمد لا يحبذ هذه الكيفية، لأن الحب سينهار لكونه مبنياً على غير أساس غير متين، بل إن التوهم الخادع هنا يصّور المحبوب في أكمل صورة حتى إذا تمت المعاينة يبطل الأمر بالكلية غالبا، وإن كان يتأكد أحيانا قليلة جداً.[42] وإمّا أنه يقع بنظر الشخص لمن يحبه عند رؤيته، فتستحسن النفس صورة المعشوق الذي يشاكلها.« وكثيراً مايكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة، وهو أن يعشق المرء صورة...»[43] فالتعلق بالآخر هنا سببه النظر وفي ذلك يقول أبو محمد:

« عيني جنت في فؤادي لوعة الفكر

فأرسل الدمع مقتصا من البصر.»[44]

وهو ما أشار إليه أيضا بعض القدامى.[45] فالصورة الحسنة كما يرى أبو محمد هي أول مراحل الحب، لأن النفس حسنة تعجب بكل ما هو حسن وجميل، وكذلك الحب عند أفلاطون, ولعل الفلسفة الأفلاطونية تتجلى في تعبير ابن حزم في هذه المسألة.[46] كما أن هذه الإشارة من ابن حزم جعلت المستشرق دوزي-**DoZZY**- يؤكد على أن نفسية ابن حزم من خلال "طوق الحمامة" تشير إلى تعّففه وأنّ ذلك راجع في نظر دوزي[47] إلى عرق ابن حزم الاسباني وجذور الديانة المسيحية المتجذرة فيه, الكامنة في أعماق نفسه على الرغم من إسلامه، وكأنّ الإسلام لا يدعو إلى الحسن والجمال والعفة.

ثالثا: أسباب الحب وعلاماته.

« شاء الله لابن حزم أن يكمُل بالحب حيث نقص كثيرون ... ولقد أحب ابن حزم ولا مناص والحب السامي اضطراري لا اختياري، يبعثه الجمال في القلب الكامل والنفس الزكية.»[48] وقد أشار أبو محمد إلى وقوعه في الحب قائلا:« وعني أخبرك أني أجببت في صباي جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر...وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت.»[49] فالحسن والجمال سواء كان ماديا أو معنويا[50] من أبرز الأسباب الداعية للتقارب, وتعلق النفوس بعضها ببعض.« ولكن الحسن ليس علة دائمة أو سببا أصليا للحب، لأنك قد تجد من يستحسن الأنقص والأدنى والأقبح، ولو كان علة الحُسْن الصورة الجسدية, لوجب ألا يُستحسن الأنقصُ في الصورة, ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه...فعلِمنا أنه شيء في ذات النفس.»[51] ومراده بذات النفس، أن النفوس مجبولة ومفطورة على الحب، بل على حبّ أشخاص أو أشياء بعينها دون غيرها.« واعلم -أعزك الله– أن للحب حكما على النفوس ماضيا وسلطانا قاضيا، وأمراً

لا يخالف, وحداً لايعصى وطاعة لا تصرف، ونفاذاً لا يُردّ.»[52] فليس بإرادة المحب ولا باختياره أن يحب، بل هو أمر خارج عن الإرادة والمشيئة ولا حيلة له, وما ذاك إلا لأنَّ الحب مسألة ميتافيزيقية يعيشها المرء على جبلته, ولهذا« ينظر ابن حزم إلى هذا الأمر على أنه شكل من الجَبر يتحقق في وقوع الحب لا في استمراره.»[53] فالصفات الطبيعية التي يتفق فيها الطرفان المتحابان، هي سبب حدوث وتأكد الحب عند أبي محمد مستدلا على ذلك بما ورد من أحاديث نبوية, وما رُوي عن بقراط وأفلاطون وغيرهما.[54] ولذا فإن:« استحسان الحسَن وتمكُّن الحب فطبعٌ لا يؤمر به ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مُقلِّبها...وأما المحبة فخلقة, وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة.»[55]

كما أفاض أبو محمد في الحديث عن علامات الحب الكثيرة، ككثرة البكاء والغيرة وسوء الظن والإصفرار والكتمان, وتتبّع أخبار المحبذين لبعضهم، أو الاضطراب الذي يبدو على المحب ونحوها من العلامات التي تكون قبل وأثناء استعار الحب وتأجج حريقه، وتوقد شعلته واستطارة لهبه.[56] بل إنها قد توصِل صاحبه إلى المرض والوسوسة، وحتى الموت أحياناً.[57] ولهذا نراه يصوّر لنا الحب في بدايته ونهايته, كأنما يعايشه في واقعه.« وانظر إلى تصويره آخرةَ الحب مع غرور المرء بأوّله :

كمغترّ بضحضاح قريب

فزَلّ فغاب في عمر المدود.

تجد أنه تصوير أوضح من المحسوس، ومجاز أصدق من الحقيقة، مع تلخيص بليغ لتاريخ الحب من جميع نواحيه, وما أدركتُ قطّ فهْماً أعمق في بيان مزالق الحب من هذا.»[58]

ومع أن« المحبة كلها جنس واحد، ورسمُها أنها الرغبة في المحبوب وكراهة مُنافرته, والرغبة في المقارضة منه بالمحبة.»[59] إلا أنها أنواع وأشكال مختلفة ومتنوعة, تختلف باختلاف الأغراض والأطماع، وبذلك تتعدد وجوه المحبة مثل المحبة لله عزوجل وفيه, ومحبة الرجل لأبنائه وقرابته وأصدقائه وامرأته, ومحبة الألفة والبر والتصاحب.[60]

ويمكننا أن نشير هنا إلى أن ابن حزم ممّن يؤمن بالمطاولة في الحب، أي أنه لا يقع دفعة واحدة ومن أول وهلة.« و إني لأطيل العجب مِن كل مَن يدّعي أنه يحب من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدّقه ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة... وما لصق بأحشائي حبٌّ قطّ إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهراً وأخذي معه في كل جد وهزل.»[61] وهذه الفكرة تذكرنا بآراء أفلاطون, من أن الحب والجمال والفضيلة لا تتقوى إلا بالممارسة الدائبة والدائمة والطويلة.[62]

رابعا : إيجابيات الحب وربطه بالاستقرار النفسي .

« فكم من بخيل جاد، وقطوبٍ تطلّقْ، وجبانٍ تشجّعْ، وغليظ الطبع تظرف، وجاهل تأدب... وذي سنّ تفتىّ، وناسك تفتك.»[63] هكذا ينطوي الحب عند أبي محمد على قيم إيجابية عديدة خاصة فيما يتعلق بالأخلاق، حيث أن المحبة تولّد الوفاء والصبر والكرم، وتفجر طاقة الإنسان فتحرك فاعليته للإبداع، وترفع من قيمته الإنسانية، وتطور جانبه الروحي، وتبدّل السلوكيات والسجايا الشائنة إلى أفعال حسنة خيرة، فيصير الجبان شجاعاً والبخيل كريماً والجاهل متأدباً. « ومن عجيب ما يقع في الحب أن يكون المرء شرس الخلق صعب الشكيمة جموح القيادة... فما هو إلا أن يتنسّم نسيم الحب، ويتورط غمره، ويعوم في بحره، فتعود الشراسة لينا، والصعوبة سهالة... فترى المحب حينئذ يكتم حزنه ويكظم أسفه.»[64] ولهذا فإن أفضل نتيجة يراها أبو محمد مناسبة للحب هي الزواج, فالحب عنده وسيلة للزواج والسعادة، بل وهي غاية أيضا، ولهذا لم يستطع ابن حزم إخراج الحب عن إطاره الديني.[65]

والواقع أن الحب عنده عمل تربوي أخلاقي، وليس أمرًا هزلاً قبيحا.« الحب –أعزك الله – أوله هزل وآخره جِدّ, دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة وليس بمنكَر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة إذ القلوب بيد اللهَ عز وجل، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثيرٌ.»[66] وهو ينكر على الذين يكتمون الحب تصاونا ويدّعون أنه غير جائز في الشريعة، وما ذاك إلا لأن الحب عنده اضطراري لا اختياري. راداً على مَنِ اتّهمه مِن خصومه بالإنمياع، لكتابته في هذا الموضوع ، فردّ عليهم قائلا:

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى

وسيان عندي فيك لاحٍ وساكتُ

يقولون : جانبت التصاون جملة

وأنت عليـم بالشريعة قانت

فقلت لهم : هذا الرياء بعينــه

صراحا وربي للمرائين ماقت

متى جاء تحريم الهوى عن محمد

وهل منْعه في محكم الذكر ثابت

وهل يلزم الإنسان إلا اختياره

وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت.»[67]

إضافة إلى إشارته إلى بعض الظواهر النفسية كفكرة التثبيت (**FIXATION**) والتي هي عبارة عن ارتباط المرء في صباه بشخص, أو بشيء أو بفكرة ما ارتباطا وثيقا، ولا يزول عنه هذا الإرتباط حتى بعد انتقاله من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج الجسمي والبلوغ العاطفي النفسي، وهو مأكده حديثاً علماء التحليل النفسي.[68] يقول أبو محمد:« و عنّي أخبرك أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر...وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت.»[69]

إذْ أثبت أن كثيرًا من صور الحب تخفي وراءها كراهية في اللاشعور, وهو ما يصطلح عليه عند مدرسة التحليل النفسي بـ:"رد الفعل العكسي"

(**REACTION FORMATION**).[70]

خامسا: الآراء الجمالية في فكر ابن حزم :

يعتبر الوعي الجمالي من أبرز أشكال الوعي الإنساني, وتبرز أهميته في إثراء الجانب المعرفي من جهة، وبيان ماهية الكينونة الإنسانية من جهة أخرى، وهو في هذا شبيه بالوعي الفلسفي، حيث الولعُ بتفكيك بنية الوجود لاستخلاص الحقيقة الكامنة فيه، ومن ثمة كانت القيم الفلسفية الثلاثة: الخير, الحق, الجمال. وقد اهتم الإسلام بهذا الموضوع وبضرورة لفْت انتباه الناس إلى مختلف المظاهر الجمالية الموجودة في الكون. قال تعالى:(وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفْءٌ ومنافعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)[71] كما نجد ألفاظ الجمال ومرادفاته كالبهجة والحسن والزينة وغيرها، مبثوثة في السور القرآنية والأحاديث النبوية. ولا ننسى أن أبا محمد عاش في بيئة أندلسية منفتحة على الحب والجمال, وإشراف أرقى النساء في مجتمعه جمالا وعلما ومعرفةً على تربيته وتنشئته, فكان لهذا الإشراف أثر كبير على الرؤية الجمالية عند ابن حزم.[72] وليس مستغربا من« إمام كابن حزم أن يملكه الجمال ويأسره، فما كان رجال الشريعة يوماً من الدهر غُلْف القلوب، ولا عُمْي العيون ولا متبلّدي الإحساس، بل إن ثقافتهم بطبيعتها تهديهم إلى معجزات الله في الجمال، وتحدوهم على تقديرها والتمتع بنعمها وشكر المبدع في صنعها.»[73] ولذا يعتبر الجمال عند ابن حزم صفة من صفات النفس الإنسانية، حيث أنها تميل إلى الحسْن« فالظاهر أن النفس تولع بكل شيء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة.»[74] وهذا الحسن الذي يتحدث عنه أبو محمد يتجلى في صور مادية و معنوية, جسمية و نفسية.« فالحسْن هو شيء ليس له في اللغة إسم يعبَّر به عنه غيره، ولكنه محسوس في النفوس باتفاق... وهو بُرد مكسوّ على الوجه، وإشراق يستميل القلوب نحوه فتجتمع الآراء على استحسانه.»[75] ولذا يمكن أن يكون« كتابُه:"طوق الحمامة" نظرية في الجمال... والمتعة الجمالية عند ابن حزم ليست شيئا مشتركاً بين الناس جميعاً، بل هي خبرة ذاتية وتجربة نفسية خاصة لا يمكن تفسيرها إلا بذاتها.»[76] صحيح أنّ أبا محمد لم يكتب بصورة مباشرة عن الجمال وفلسفته, ولا ألّف عن النظريات الجمالية التي عُرفت قبله، لكنه مع ذلك انتبه إلى تأثير الجمال في النفس الإنسانية:« الحلاوة دقة المحاسن، ولطف الحركات وخفة الإشارات وقبول النفس لأغراض الصورة...و رُب جميل الصفات على إنفراد كل صفة منها، بارد الطلعة غير مليح ولا حسن ولا رائع ولا حلو.»[77] فهو هنا يتحدث عن الجمال المعنوي وكيف يثير الإعجاب في النفس, بصفاته المتميزة التي تجل عن الوصف, بل إن هذا التذوق الجمالي لتلك اللطافة والخفة مما يدركه الوجدان, وهذا بدون شك تحليل نفسي من ابن حزم لمسألة الجمال. وهو بذلك يقترب إلى المدرسة النفسية منه إلى التصوف, ويمكننا أن نستشف من ذلك كله، أنَّ الجمال عنده نسبي يختلف من نفس لأخرى، ولذا ينبغي البحث عن الجمال في النفس البشرية التي هي أساس التفاوت في الذوق الجمالي, بل هي المصدر الرئيس في إصدار الأحكام الجمالية، ولنقرأ هذه الأبيات التي هي من لطيف دعابته :

« وذي عذلٍ فيمن سباني حُسنه
يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمِنْ أجل وجه لاحَ لم تر غيره
ولم تدر كيف الجسم ؟ أنت عليل
فقلت له : أسرفت في اللوم فاتّئد
فعندي رد لو أشاء طويـل
ألم تر أنني ظاهري وأننـي
على ما أرى حتى يقوم دليل.

فلم يشأ ابن حزم أن يدع ظاهريته حتى في الحب والجمال.»[78]

فالحكم الجمالي عنده هو تلك القصْدِيّة, التي تضفيها الذات المدركة الواعية على الموضوع المدرك، حيث يتم استحضار الحكم الجمالي لتتجلى حقيقته في الربط بينهما.« ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجبَ ألا يُستحسَن الأنقص في الصورة...فعلمنا أنه شيء في ذات النفس.»[79] فلا

قيمة للحب في بعده الذوقي الجمالي الناتج عن تلك الجاذبية الحيوية, التي أسمى تعبُّناتها الشوق الجنسي، والعشق المتجلي في الجانب الذي تمارسه الأعضاء, وإنما هو بما تَشبَّع به النفس من حيوية، وبما تضفيه من فاعلية وجدانية على هذه المحبة.« النفس تولع بكل شيء حسن...فإن ميّزت وراءها شيئا من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية، وإن لم تميز وراءها شيئا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة وذلك هوالشهوة.»[80]

ولذا« فإن للجمال عند ابن حزم دورا كبيراً في ميلاد الحب وتقوية أواصره ، كما أن له أثراً كبيراً في نشوء الإعجاب لدى المحب, وهنا يتلاقى المفكر "ستندال" مع ابن حزم الذي سبقه بنحو ثمانية قرون في التأكيد على أهمية الدور الذي يلعبه الجمال في ميلاد الحب.»[81] بل إن الجمال هو مقياس الحكم على الأشياء.« ومن التذوق الجمالي تنشأ الأفكار وتتباين الثقافات التي تطبع كل حضارة في الحضارات بطابع متميز.»[82] و مع ذلك فابن حزم يرى أن الناس جميعاً، وكل الأمم وسائر الحضارات يمكنها أن تتفق في الاستحسان والتعبير عن الجميل، بل وفي طلبه أيضا.« تطلّبتُ غرضا يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه، فلم أجده إلا واحداً وهو طرد الهمّ...»[83] فالجمال ينبغي فهمه على هذا النحو، بصفته نعتاً أو صفة يضفيها الإنسان على الأشياء، إذا أدرك فيها بذوقه وحسه الجمالي واستحسانه لها, ما فيها من قيمة حسنة أو ما يعود عليه منها من قطوف جمالية. ومما أدركه أبو محمد أيضا، ذلك الجمال المتجلي في الطبيعة، ومن خلال التأمل العقلي يصدر حكمه قائلا: « وتأملت كل مادون السماء وطالت فيه فكرتي، فوجدت كل شيء فيه من حي وغير حي، من طبعه إنْ قوي أنْ يخلع على غيره من الأنواع هيْأته, ويُلبسه صفاته... ترى ذلك في تركيب الشجر، وفي تغذي النبات والشجر بالماء ورطوبة الأرض ... فسبحان مخترع ذلك ومدبره العزيز الحكيم الذي لا تتناهى مقدوراته.»[84] فهنا إشارة إلى صور الطبيعة الجميلة كدليل على وجود الله.[85] وقبله قرر أرسطو أن الجمال الذي تزخر به الطبيعة في شتى المستويات، لا يمكن أن يكون ناشئاً عن الصدفة أو الضرورة إذ لابد أن يكون ناشئا عن عقل، وهذا العقل المسئول عن جمال الطبيعة هو مايسميه الناس:"الله", ولهذا يعزو جمال الطبيعة للإله بارع الصنعة وكل شيء طبيعي، هو شيء جميل عنده.[86] وبهذا يتبين لنا أن إدراك الجمال وتذوُّقه أمر متأصل في طبيعة الناس، وانطلاقا من لفْتِ الإسلام نظَرَ أتباعه إلى التأمل في مظاهر الجمال الكونية والطبيعة، كان لكل ذلك أثره على ما يبدو في رؤية أبي محمد للحب والجمال.

خاتمة :

نستشف مما سبق أنّ ابن حزم قد أثرى بكتابته هذه, ما ورد عن الحب والجمال عند مفكري الإسلام, ومساهمتُه تمثّلت في استعراضه لمفهوم الحب وبيان ماهيته وعلله وأشكاله، ودرجاته وعلاماته ومسائل أخرى. ممّا يشكل ظواهر هامة في عالم الحب, ليقدم بذلك نظرية متكاملة مازجا فيها بين الفلسفة ونصوص القرآن والحديث, والمأثور عن علماء الإسلام, مزجا معتمدا على الإستقراء من جهة, وعلى تجاربه الخاصة من جهة أخرى. ولذلك استحق لقب:" فيلسوف الحب عند المسلمين."[87] كما أنه لم يقف عند حدود النظرة المثالية الأفلاطونية, ولم يغرق في فلسفة الحب التجريدية، إنما اعتمد على الواقع والتجربة، وما شاهده واستقرأه من ظواهر سلوكية. ومع أن كثيرين كتبوا قبله في الحب, كالجاحظ وإخوان الصفا وابن المقفع وغيرهم, إلا أنه قد فاق من سبقه بدقة منهجه, وتسلسل أفكاره وبُعْدِ غوصه، وترابط بحثه.« حتى أننا نلتقي في تضاعيف دراسته للحب, بالكثير من الملاحظات النفسية الدقيقة والآراء الفلسفية العميقة, متّبعاً في هذه الدراسة منهجَيْ الإستبطان والإستقراء, فجاءت رسالته حافلة بالملاحظات النفسية الدقيقة, والخبرات الحية والأمثلة التاريخية الصادقة، وهذا ما جعل منها دراسة فذّة.»[88] والحقُّ أن أبا محمد حين تحدّث عن الحب والجمال, ربطهما ربطا وثيقا بالأخلاق والدين, داعيا إلى العفة, متوِّجاً رسالته الجميلة في الحب بنصائح أخلاقية. فهذا المفكر الأندلسي العظيم كان من أعلم الناس بما في الحب والجمال من خير، وخصوصاً في الفضائل, وليس بدعاً أن نجد ابن حزم يربطهما بالدين.[89]

الهوامش:

1)- عمر فروخ: " بحوث ومقارنات في تاريخ العلم وتاريخ الفلسفة في الإسلام" دار الطليعة، بيروت، 1986م (ص.42).
2)- سالم يفوت:"ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس"المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب,ط.1986م(ص.6- 7).
3)- نفسه (ص.13).
4)- تنظر بعض مصادر ترجمته:الزر كلي:"الأعلام"(254/4). عمر فروخ:"ابن حزم الكبير". هنري كوربان:"تاريخ الفلسفة الإسلامية"(ص.336), جورج طرابيشي:"معجم الفلاسفة"(ص.19) كما ينظر سائر كتب التاريخ في حوادث وفيات سنة:456 هـ.
"ENCYCLOPEDIA OF ISLAM" LEIDEN, NEW YORK, 1987- vol. 111 (p.384)

5)- سعيد الأفغاني :"ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة "المطبعة الهاشمية ,دمشق,ط.1940م (ص.96).
6)- طه حسين :" ألوان" دار المعارف ، القاهرة ، د.ت.ط.(ص.14).
7)-« يعد "طوق الحمامة "من أسعد كتب التراث العربي حيث اعتنى به الدارسون والمحققون،فهناك عشرات الطبعات ، وعشرات الدراسات بأقلام كبار المستشرقين، حتى قيل:إن دراسة هذا الكتاب وتحقيقه أصبحت رياضة فكرية لكل باحث.» محمد الشويعر مقال: "بين الحصري وابن حزم فيما ذكراه عن الحب وفلسفته"مجلة:"الفيصل"ثقافية شهرية سعودية،السنة:1 ،1978م ،العدد :10، (ص.16)
8)- إحسان عباس : مقدمة " رسائل ابن حزم ".المؤسسة العربية للدراسات والنشر,بيروت,ط2, 1987م. (37/1).
9)- ابن حزم : " ديوان الإمام ابن حزم الظاهري "جمع و تعليق: صبحي رشاد, دار الصحابة للتراث بطنطا القاهرة (ص.97) .
10)- سعيد الأفغاني :"ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة "(ص.92)،.
11)-زكريا إبراهيم :"ابن حزم المفكر الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي"الدار المصرية للتأليف,القاهرة,د.ت.ط.(ص .31).
12)-علي سامي النشار:"الأصول الأفلاطونية – المأدبة في الحب الأفلاطوني–" دار الكتب ،القاهرة،ط.1970 م(ص.337– 341).
13)- سهير فضل الله أبو وافية:" الفلسفة الإنسانية في الإسلام " مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة،ط.2006،1م ،(ص.148 – 150) .
14)-كالجاحظ في:"العشق والنساء " وإخوان الصفا،في:" رسائلهم"(231/3) وابن القيم في:"روضة المحبين"
15)- سورة المائدة [الآية . 54].
16)- عبد الكريم خليفة :"ابن حزم الأندلسي." دار العربية للنشر , بيروت, د.ت.ط.(ص.196)
17)-عن ترجمات"طوق الحمامة"إلى الإنجليزية والروسية وغيرهما من اللغات ينظر:إحسان عباس،مقدمة"رسائل ابن حزم"(20/1).
18)- زكريا إبراهيم : " ابن حزم المفكر الظاهري ..." (ص .232) مرجع سابق.
19)- سعيد الأفغاني :"ابن حزم ورسالته في المفاضلة ... "(ص.73) مرجع سابق.
20)-إحسان عباس :مقدمة"رسائل ابن حزم"(75/1-76) و محمد أبو زهرة, مقال:"الفقيه الذي عالج الحب في رسالته الشهيرة:طوق الحمامة" مجلة:"العربي "الكويتية، العدد:57 ،أوت :1963 م ،(ص.28).
21)- عبد العزيز بن عبد الله:"الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب " دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1983 م ، (ص.179).
22)-ابن حزم :" الرسائل "(93/1 -94).
23)- سورة الأعراف [الآية 189].
24)-ابن حزم :"رسالة طوق الحمامة " ضمن " الرسائل " (96/1-97). مصدر سابق.
25)- حديث صحيح, رواه البخاري في: "صحيحه" برقم (3336) و مسلم في:"صحيحه" برقم (2638).
26)-ناجي التكريتي: " الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام " (ص.385 – 386) . مرجع سابق.
27)-أفلاطون: "المأدبة " ترجمة : وليم الميري ، مكتبة الدراسات الفلسفية ، القاهرة ، 1970 ، (ص.43-46) .
28)-ابن حزم : " رسالة طوق الحمامة " ضمن " الرسائل "(94/1) " مصدر سابق.
29)-إحسان عباس من مقدمته لـ:"رسائل ابن حزم "(28/1-32) مصدر سابق.
30)-زكريا إبراهيم:"مشكلة الحب" دار الآداب،بيروت،(ص.161–185-234)وهنري كوربان:"تاريخ الفلسفة الإسلامية"(ص.337).
31)-ينظر: محمد بن سعيد الشويعر ، مقال :" بين الحصري وابن حزم " مجلة " العربي " (ص.17) وما بعدها ، مرجع سابق .
32)- ابن حزم : " الرسائل " (96/1-97) مصدر سابق.
33)- إحسان عباس من مقدمته لـ"رسائل ابن حزم " (29/1). مصدر سابق.
34)- ابن حزم : " رسالة طوق الحمامة " ضمن " الرسائل "(90/1)
35)-عبد الكريم خليفة :"ابن حزم الأندلسي... "(ص.221). مرجع سابق.
36)- ابن حزم : " الرسائل "(249/1). مصدر سابق.
37)- نفسه. (98/1-99).
38)- هنري كوربان " تاريخ الفلسفة الإسلامية "ترجمة :نصير مروة و حسن قبيسي,دار عويدات ،بيروت (ص. 338)
39)-ابن حزم :"رسالة طوق الحمامة " ضمن " الرسائل"(100/1). مصدر سابق.
40.-(1942. ANDRE MAUROISMM"CINQ VISAGES DE LA L' AMOUR" DIDIER, NEW YORK
CH/ .III (P.98–99).
41)-ابن حزم : " الرسائل " (117/1) .
42)-نفسه.(117/1- 118).
43)-نفسه.(120/1).
44)-نفسه.(122/1).
45)-أكد على ذلك الجاحظ في:"رسائله"تحقيق:عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي القاهرة،ط1979،1،(167/2)و ابن القيم في:"روضة

المحبين" دار الكتب العلمية ، بيروت، ط. 1983 م(ص.68)
46)- ناجي التكريتي " الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام " دار الأندلس,بيروت,ط.1982م(ص.386–387)
47)-(P .232).. TOME : 2"DOZZY (R) : " HISTOIRE DES MUSULMANTS D'Espagne
48)- سعيد الأفغاني:"ابن حزم ورسالته في المفاضلة..... "(ص.96-98). مرجع سابق.
49)- ابن حزم: " رسالة طوق الحمامة " ضمن " الرسائل " (130/1). مصدر سابق.
50)-نفسه.(249/1)"وأما العلة التي توقع الحب أبدا الصورة الحسنة. فالظاهر أن النفس تولع بكل شيء حسن ." "الرسائل"(98/1).
51)- نفسه.(95-94/1) وأيضا(129/1).
52)- ابن حزم:" الرسائل" (129/1).
53)- حامد الدباس : " فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم " (ص .181) . مرجع سابق.
54)- نفسه (126-125-98-97/1).
55)- نفسه.(145-144/1) .
56)- نفسه (103/1- حتى 114).
57)-ابن حزم:"رسالة طوق الحمامة"ضمن"الرسائل"(134/1)وما بعدها.كما ينظر،لإحسان عباس:مقال:"دراسة في الحب عند ابن حزم"مجلة:" شؤون عربية " تونس العدد :03 مايو،1981م(ص.134-162)،و لسالم يفوت:مقال :"الأسس الميتافيزيقية لنظرية الحب لدى ابن حزم " مجلة " تكاملية المعرفة " صادرة عن جمعية الفلسفة المغربية ،عدد(7و8) سنة 1982-1983 م ،(ص.12- 32).
58)- سعيد الأفغاني:" ابن حزم ورسالته في المفاضلة..." (ص.78).
59)-ابن حزم: " الرسائل"(369/1).
60)-نفسه.(372-369-96-95/1) وقد عقد طه حسين أوجه مقارنة بين ماذكره ابن حزم والأديب الفرنسي ستندال حول ماهية وأنواع الحب مؤكداً تشابههما : ينظر كتابه: "ألوان"(ص.61-108-110).
61)- نفسه (125/1).
62)- ناجي التكريتي :" الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية..." (ص.388).
63)- ابن حزم:" الرسائل" (105/1).
64)- ابن حزم: "الرسائل" (153/1-154) وأيضا (205/1-230-244-295)
65)- حامد الدباس: "فلسفة الحب والأخلاق..." (ص.176-177).
66)- ابن حزم: "الرسائل" (90/1)
67)- ابن حزم "الرسائل" (145/1)
68)-زكرياإبراهيم:"ابن حزم الأندلسي المفكر..."(ص.245)وفاروق سعد،في مقدمة:"طوق الحمامة" دار الحياة، بيروت، (ص.39).
69)-ابن حزم :"الرسائل "(130/1).
70)-نور الدين جياني،مقال:"إسهامات العلماء المسلمين في علم النفس" مجلة:"المعارف"جزائرية،العدد:1،مايو:1993 م (ص.13).
71)- سورة الحج [الآيتان 5-6]
72)-Roger Arnaldez: " grammaire et théologie chez ibn hazm de cordoue " j.vrin Paris.1956-(P17-19)
73)- سعيد الأفغاني: "ابن حزم ورسالته في المفاضلة..." (ص.97).
74)- ابن حزم: "رسالة طوق الحمامة" ضمن" الرسائل" (98/1).
75)- ابن حزم: "رسالة في مداواة النفوس" ضمن "الرسائل" (375/1).
76)- صلاح الدين بسيوني رسلان:"القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية "دار الثقافة للنشر،القاهرة،ط.1990م(ص.179-180).
77)- ابن حزم: "الرسائل"(375/1) .
78) – سعيد الأفغاني: "ابن حزم ورسالته في المفاضلة..." (ص. 92).
79)- ابن حزم: "رسالة طوق الحمامة" ضمن "الرسائل" (95-94/1).
80)- نفسه. (99-98/1).
81)- صلاح الدين بسيوني رسلان: "القيم في الاسلام..."(ص.179).
82)- مالك بن نبي: "مشكلة الثقافة" دار الفكر، دمشق، 1984م، (ص.82).
83)- ابن حزم: "الرسائل" (336/1).
84)- نفسه (384/1)

85)- ابن حزم: "الفصل" (1/30-31)
86)- صلاح الدين بسيوني رسلان: "القيم في الإسلام..." (ص.165-168).
87)- ينظر: زكريا إبراهيم:"ابن حزم..."(ص.232-234) و سهير فضل الله أبو وافية:"الفلسفة الإنسانية في الإسلام"(ص.174-183) و عبد الكريم خليفة:"ابن حزم ..."(ص.199)
88)- زكريا إبراهيم :"ابن حزم المفكر الموسوعي ..."(ص.232-257)
89)-نفسه. (ص.266-267) .

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 110 - 116
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

التصنيف الطبقي بين الأبيتوس والرأسمال: قراءة في سوسيولوجية بيار بورديو

عمر داود

قسم العلوم الاجتماعية جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمـــــــة:

لقد أسهمت الأعمال السوسيولوجية لبيار بورديو Pierre Bourdieu في إغناء هذا الحقل المعرفي، وإعطائه ولادةً جديدةً شقّت طريقها نحو التحرّر من أطر النظريات الكلاسيكيّة ومناهجها، إلاّ أنَّ الدارس لفكر بورديو تواجهه معاناة التقاطعات المعقدّة التي تميّز مختلف إسهاماتها السوسيولوجيّة مع السياسة، والإبستيمولوجية، والإثنوغرافيا...، إضافة للغة التي يكتب بها نصوصه، وأسلوب معالجة أفكاره، ما يجعل أعماله عصيّة على القراءة والاستيعاب.

وقد ارتكز بورديو في عرض إنتاجه الفكري على تقديم منظور إبستيمولوجي لمعالجة الإشكالية القائمة بين ثنائية الموضوعي والذاتي ضمن مساعيه الرامية إلى الإدراك الأفضل للعالم الاجتماعي، واستطاع بذلك ابتكار جهازه المفاهيمي اللافت الذي ساعده في تطويع تخصصه لمعرفة واقعه الاجتماعي وتحليليه، وتفسيره، فأدخل إلى الحقل السوسيولوجي مفاهيم عديدة، مثل: الرموز، والفضاءات، والحقول، والرأسمال الثقافي، ويبقى مفهوم الأبيتوس من أكثر مفاهيم بورديو تعقيدًا وغموضًا.

وبالرغم من اعتقاد بورديو بوجود تمايزات طبقية في جميع الحقول، غير أنّه يختلف تمامًا مع التصورات الماركسية لمفهوم الطبقة، إذ لم يتوقف عن نقده لها فحسب، بل حاول رفع الستار عن عوائقها، بالبحث عن إجابات سوسيولوجية جديدة لهذه التصنيفات.

ولا يمكن في هذه الورقات البحثية المتعددة استحضار كل ما أنتجه هذا المفكر من مفاهيم، إلاّ أننا سنحاول الاقتراب من مفهوم الطبقات الاجتماعية بشكل عام، ومعايير تصنيفاتها لدى بعض السوسيولوجيين، قبل الولوج في تصور بورديو لها، والذي يفرض علينا الإلمام بمفهومي الأبيتوس Habitus والرأسمال الثقافي Capital Culturel، المشكّلان لنواة نظريته، ومن هنا نطرح مجموعة من التساؤلات: ما هو مفهوم الأبيتوس؟ وماذا يعني مفهوم الرأسمال؟ ما مدى ارتباط هذين المفهومين بالتصنيف الطبقي بين الفاعلين الاجتماعيين؟ وكيف يتداخل المفهومان في خلق حركية وديناميةٍ داخل الحقول المغلقة؟ وهل يساهمان في إعادة إنتاج الشرعية والحظوظ والتعسفات نفسها؟

1 - مفهوم الطبقات الاجتماعية:

الطبقة هي مجموعة من الأفراد الذين «يُميزهم وضعهم في نظام الإنتاج الاجتماعي المحدد تاريخيًا، وعلاقتهم بوسائل الإنتاج ودورهم في التنظيم الاجتماعي، وبالتالي الطرق التي يحصلون بواسطتها على نصيبهم من الثروة الاجتماعية ومقدار الثروة التي يملكونها»[1].

كثيرًا ما يستعمل السوسيولوجيون مفهوم الطبقة للتأكيد على وجود فوارق اقتصادية واجتماعية وثقافية، وعدم المساواة بين الأفراد، وهذه التقسيمات الطبقية هي نتاج مُمارسات وتفاعلات الأفراد فيما بينهم، لذلك يصعب التحديد والتصنيف الطبقي لأي بناءٍ اجتماعيٍ، نظرًا لتداخل عوامل عديدة في ذلك.

غير أنَّ الطبقات الاجتماعية هي حقائق اجتماعية قائمة في كل مجتمع بالرغم من إنكار بعض النظريات لذلك، فقد تطرق لها العديد من السوسيولوجيين منهم غوستاف شوملر Gustave Chemller الذي يعتقد أنَّ تقسيم المجتمع إلى عدد معين من الجماعات المغلقة إلى

حدٍ ما تضم الأفراد والأسر التي لها ظروف متشابهة، لا بحسب روابط القرابة والإقامة، إنما وفق المهنة ونوع العمل والثقافة، والشعور بالانتساب لنفس الفئة، وإقامة علاقات اجتماعية فيما بينها م، والسعي لتحقيق مصالح مشتركة[2].

أمّا ماكس فيبر Max Weber، فقد مَيَّز بين الطبقة ومجموعة المكانة، إذ عرّف الطبقة على أنّها «مجموعة من الأفراد الذين يشغلون نفس الوضعية، أي نفس السوق، وبالتالي لهم نفس الحظوظ في سوق الحاجيات والعمل، ونفس التجارب الفردية وظروف العيش»[3]، بينما يُعرف مجموعة المكانة بتلك الفئة «التي تُعرف بوضعيتهم في سُلم الهيبة والشرف، فكل ملامح أو طرق التعبير التي تُنتَج من النظام الرمزي»[4].

2- معايير التصنيف الطبقي:

يضع العديد من السوسيولوجيين الوظيفيين علاقة بين الفئات السوسيو- مهنية والانتماء الطبقي، إذ يعتبرون أنّ هذه الفئات هي إحدى أهم مؤشرات الانتماء الطبقي إلى جانب الأصل الاجتماعي؛ لذلك يشير أنتوني غدنز Anthony Giddens إلى أنَّ المدرسة السوسيولوجية الوظيفية تعتمد على ثلاث معايير لتصنيف الانتماء الطبقي هي: الدُخل والمستوى المهني والتحصيل العلمي[5]، فيتم بذلك تقسيم الهرم الاجتماعي إلى طبقات متفاوتة هي:

- **الطبقة العليا:** وهي الطبقة القادرة على الهَيمنَة على الطبقات الأخرى، بحكم سلطتها ونفوذها وثروتها، فالملكية وأسلوب الحياة من أهم مُميِّزات هذه الطبقة.
- **الطبقة الوسطى**: التي تتمتع بقسط مناسبٍ من الدُخل والتعليم، فهي تضم الموظفين والعمّال ورؤساء العمل، وتتميَّز هذه الطبقة باحترام العمل وتحمل المسؤولية.
- **الطبقة الدنيا:** يتميّز المنتسبون إلى هذه الطبقة بممارستهم للأعمال والمهن ذات الدُخل المحدود، والتي لا تحتاج إلى تأهيل.

لذلك فإنَّ التصنيف الطبقي للأفراد مبنيٌ على مكانتهم في السلم الاجتماعي، والذي يخضع لمقاييس اجتماعية واقتصادية متعددة، فقد ذكر وارنر Warner في هذا الصدد خصائص اجتماعية واقتصادية تتضمن عدة مؤشرات لقياس المكانة الاجتماعية للفرد والتي تحدد الانتماء الطبقي له، وهذه الخصائص هي:

- **الوظيفة:** التي يشغلها الفرد، وقد أعطاها وزنًا يساوي أربع(04) نقاط.
- **مصدر الدُخل**: وجعله يعدل وزن ثلاث (03) نقاط.
- **نوع المسكن**: وأمده بوزن يعادل وزن مصدر الدُخل أي ثلاث (03) نقاط.
- **منطقة السكن:** وأعطاها وزنًا يساوي النقطتين (02)[6].

وعليه يمكن توضيح الخصائص الاجتماعية والاقتصادية ومؤشراتها التي حددها وارنر في الجدول التالي:

الجدول رقم(01): يبين الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للتصنيف الطبقي بالمؤشرات التي حددها وارنرWarner [7]

	الوظيفة =04 نقاط	مصدر الدُخل=03 نقاط	نوع المسكن =03 نقاط	منطقة السكن= نقطتان
01	أصحاب المهن العالية	ثروة موروثة	منازل فخمة	أحياء سكنية راقية
02	مدراء الأعمال	ثروة مُكتسبة	منازل جديدة	أحياء سكنية حسنة
03	موظفون كبار	أرباح ورسوم عالية	منازل مناسبة	مناطق سكنية متوسطة
04	عمال مؤهلون	رواتب جيدة	مساكن مناسبة	أماكن سكنية مزدحمة
05	مالكو الأعمال الصغيرة	رواتب ثابتة	مساكن مقبولة	دون المستوى العام
06	عمال شبه مؤهلين	معونات خاصة	مساكن فقيرة	مناطق سكنية فقيرة
07	عمال غير مؤهلين	معونات حكومية	مساكن جد فقيرة	تجمعات الفقراء

على ضوء الأوزان المعطاة في الجدول أعلاه، يمكن الكشف عن المعايير التي تسمح بقياس وتصنيف الانتماء الطبقي للأفراد في وضع اجتماعي معين.

3- الأبيتوس Habitus:

تتميز نظرية الرأسمال الثقافي، أو بالأحرى الفلسفة البنائية التكوينية لبورديو بابتداعها لمفهوم الأبيتوس، الذي يتشكّل عبر ما يتراكم في الزمن لدى الأفراد من وعي أو من غير وعي، لإدراك واقعهم والتعامل مع ظروف تواجدهم وفق ما تقتضيه مواقعهم الاجتماعية المختلفة[8]، وقد اختلف المترجمون في نقل هذا المفهوم؛ فنجد البعض وظّف كلمة "الطابع"، والبعض الآخر استعمل عبارة "بنية الاستعدادات المكتسبة"، ولفظ "السمة" أيضًا...الخ، لهذا تم تفضيل الاحتفاظ بنفس الكلمة الفرنسية، مع تحويرها الحرفي إلى اللغة العربية "الأبيتوس"، وقد استنجد بورديو بهذا المفهوم لأول مرة في تحقيقاته الأولى في الجزائر، ثم طوّره في عمله حول إعادة الإنتاج، إلاّ أنه لم يخترع هذا المفهوم اللاتيني من العدم، بل قد استعاره من الفلسفة[9]، إذ تعني لفظة Habitus لغةً «المظهر الخارجي للجسم أو الوجه»[10]. كما تعني أيضًا شكل الهيئة الجسدية، ونوعية اللباس...[11].

بينما يشير هذا المفهوم سوسيولوجيًا إلى «المجموعة المتناسقة من الاستعدادات الذاتية التي من شأنها، أن تُكَّون التماثلات التي تُولِد عادات معينة، فيصبح الفرد مُجَّهزًا مع تراكم التجارب بمجموعة من العادات والاستعدادات والمؤهلات الناتجة عن تاريخ تنشئته، لتتحول بعد ذلك إلى نمط استيعاب، أي إلى مجموعة من الطموحات والسلوكات والأحاسيس والطرق التي يشرع ويباشر بها الفرد تجاربه اللاحقة»[12]، ويعرّفه عبد العزيز خواجة بـ«نسق التنظيمات أو الترتيبات المرتبطة بمسار اجتماعي معين»[13]، فالأبيتوس إذن هو بمثابة المحرك الأساسي لكل سلوكات الأفراد وتصرفاتهم المختلفة.

ويحتل هذا المفهوم في نظرية "الرأسمال الثقافي" لبورديو، مكانة ذات أهمية بالغة، فهو بمثابة المفهوم المركزي الذي حاول بواسطته تفسير الأبعاد

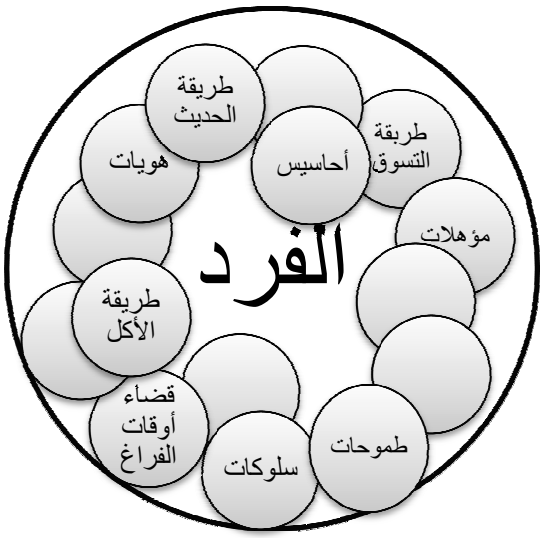

والوضعيات الاجتماعية التي يمارسها الفاعلون الاجتماعيون في فضائهم الاجتماعي، وقد عرَّفه بورديو على أنّه «نسقٌ من الإجراءات المستمرة، ومن المعارف المكتسبة، التي يتحصل عليها الفرد، وقد يرثها من أسرته من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، لتشكل بعد ذلك بُنية من الاستعدادات المكتسبة التي تعطي للفرد نسقا قيميا معينا من الأفكار والتصورات التي من خلالها يبني مشروعه الاجتماعي»[14]، ويشير في موضع آخر إلى أنّ هذا النسق من التصورات والاستعدادات والمؤهلات التي يكتسبها الفرد تظهر أساسًا في سلوكاته وممارساته فتُحدد القدرة والسرعة في التدخل والانسجام وهذا على حسب المكانة التي يشغلها هذا الفرد في فضائه الاجتماعي[15]، محاولاً إيجاد وسط اجتماعي "مريح" في لحظة محددة وموقع خاص يتلاءم مع استعداداته المكتسبة، وهذا يعني أنّ الأبيتوس هو ذلك التهيؤ العام الذي يُولّد التصورات الخاصة القابلة للتطبيق في ميادين مختلفة من الفكر والعمل[16].

الشكل رقم (02): يوضح استبطان الفرد للأبيتوس

ويميز بورديو بين نوعين من الأبيتوس هما:

- **الأبيتوس الأولي:** وهي الاستعدادات المكتسبة ضمن المؤسسة الأسرية، ويتميز هذا الأبيتوس بتأثيره على الفرد، فتجعله فاعلاً اجتماعيًاAgent social كما يتصف برسوخه واستمراريته وصعوبة استبدال بعضًا منه.

• **<u>الأبيتوس الثانوي:</u>** وهي الاستعدادات التي تُكتسب في المؤسسة التعليمية، ومن المفروض أن تكون وظيفة هذه الأخيرة هي مواصلة ترسيخ الأبيتوس الأولي وإضافة استعدادات مكتسبة حديثًا في إطار المهنة أو الوظيفة...

وعليه يمكن القول أنّ الفرد وبفضل "أبيتوسه" son Habitus يحاول دومًا أن يتأقلم ويتكيّف بطريقة أوتوماتيكية مع الوضعيات الجديدة والمغايرة وغير المتوقعة التي يواجهها، وقد تكون هذه الوضعيات خفيةً وغير معلن عنها، وتشكل طبقة هذا الفرد نسقًا من الاستعدادات الخاصة بها، فتنتقل من بُنية إلى أخرى؛

وإن كان الأفراد يعيشون في وضعيات متجانسة داخل حقولهم، فمرد ذلك هو امتلاكهم لنسق من الاستعدادات المشتركة، التي تُعتبر من المحددات التي تعطي للفرد أصالته، وتميزه عن غيره، وبذلك فإنّ الأبيتوس يترجم أساليب الحياة، ونوعية الأحكام السياسية، والأخلاقية، والجمالية، فهو ليس مجمل المعايير فحسب، بل وسيلة أيضًا لخلق الأفعال والمواقف، وتطوير الاستراتيجيات[17]، فالفرد يتصرف وفق ما يمليه عليه الحقل الاجتماعي الذي ينتمي إليه وبحسب الرأسمال الثقافي المملوك.

وهو ما يعني أن الأبيتوس كمفهوم يعني أن الفرد يستبطن كل ما ينتمي إلى مجتمعه حيث يتم تحويل ما هو خارجي وجعله داخليًا عن طريق عملية الاستبطان، فتترسخ لدى الفرد كل البنيات الاجتماعية من عادات، وتقاليد، وقيم...، فيتحول الفرد من فاعل إلى مجرد "وكيل" يحمل ويدافع عن قيم حقله ومجتمعه، لذلك يمكن اعتبار الأبيتوس بمثابة الموجه لسلوك الفرد الذي يعتمد على مرجعية معينة تقع في بنيته الذهنية، فهو أصل الإدراكات وعمليات التقويم، ومجموع القواعد المولدة للممارسات، فيتوسط بذلك الأبيتوس العلاقات الموضوعية والسلوكات الفردية، وهو في الآن ذاته ناتجٌ عن استبطان الشروط الموضوعية مثلما هو الشرط اللازم للممارسات الفردية، لأنه يضفي الشرعية على التراتبات الطبقية المختلفة وعلى التمايز دون حدوث أي صدام ظاهري بين الطبقات والحقول.

واعتمادًا على مفهوم الأبيتوس يمكن تعيين مظاهر التمايز الاجتماعي للأفراد من خلال سلوكهم اليومي في الشارع والمدرسة والبيت وأماكن العمل...، وعن طريقة المشي والجلوس والنوم والأكل والحديث...، وفي القيم و"الإتيكيت" والأخلاق...، ونوعية المسكن والمركب...، وأماكن السفر وقضاء أوقات الفراغ والتسوّق والدراسة ونوع الهوايات وممارساتها...الخ.

وما سبق ذكره لا يعني ستاتيكية "الأبيتوسات" Les Habitus؛ أو كما يقول بورديو أبيتوس الأفراد غير محكوم بالقدر المحتوم عليهم[18]، فهو قابل للتعديل والتصحيح بعد كل ممارسة وتجربة[19]، فيجعل بذلك الفرد "أبيتوسه" يتماشى ومحيطه السوسيو ثقافي، وقد يصل الأمر إلى إنتاج بُنية جديدة لنسق الاستعدادات تختلف تمامًا عن التي ورثها واكتسبها من أسرته، «مثل الأب الذي ينحدر من عائلة ريفية ويُجبر على أن يكون عاملاً أو موظفًا [في منطقة حضرية] عن طريق الهجرة الريفية»[20].

شكل رقم(03): يبيّن علاقة الرأسمال بالحقل والأبيتوس حسب بيار بورديو[21].

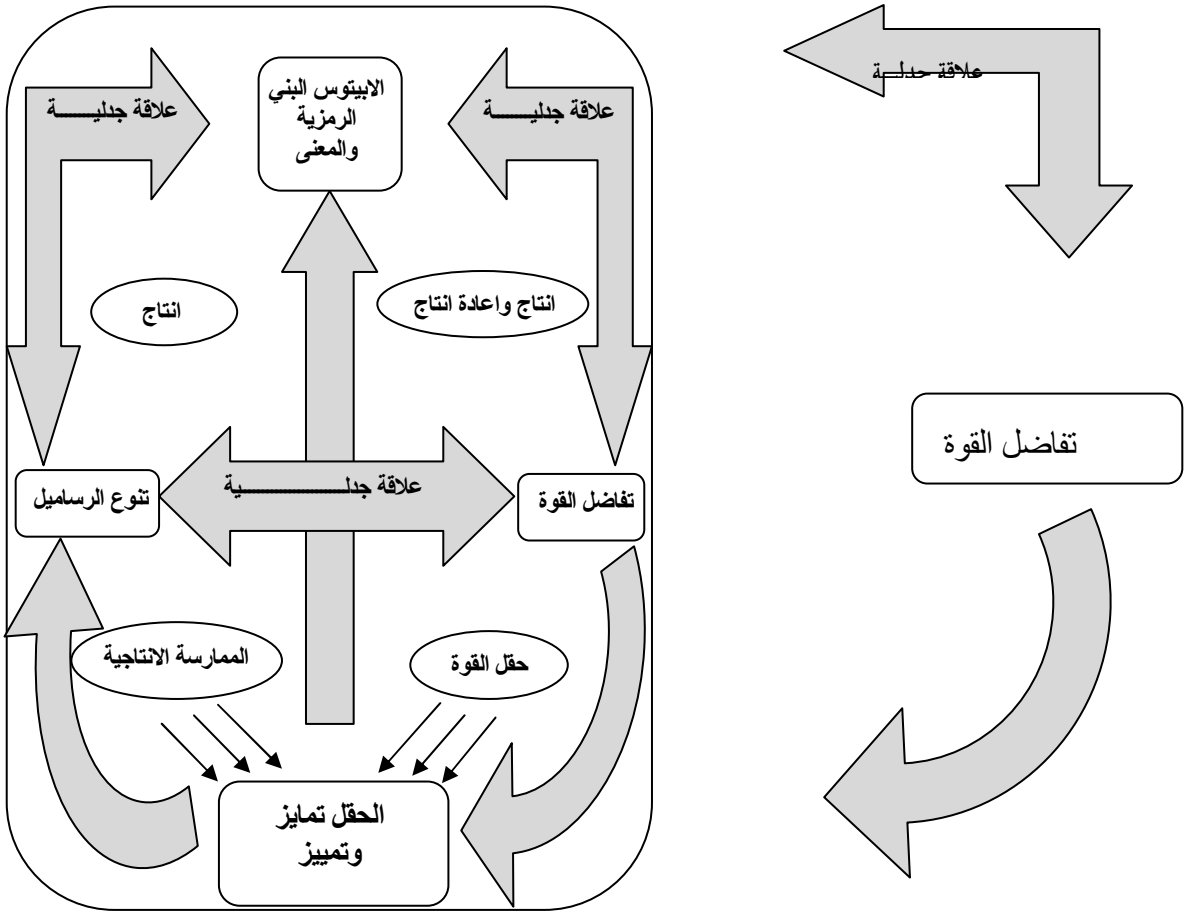

3-2 التصنيف الطبقي وتوزيع الأبيتوس:

ويرى بورديو أنه من الممكن تموضع مجموعة من الأفراد ظاهريًا ضمن طبقة واحدة، وقد يحاول هؤلاء تغيير تموضع أنفسهم في طبقات أخرى، فيتحكم في ذلك تقويماتهم الخاصة للأشياء المحيطة بهم، وإدراكهم الخاص، وأهدافهم ونشاطهم في مختلف الحقول وفي الفضاء الاجتماعي، وتموقعهم فيه، ومدى تمثلهم لذلك الموقع، فهذه التقسيمات والتصنيفات هي التي تحدد سلوك الفاعلين المنتسبين، وتنظم ممارساتهم المتعددة[22]، ومن هذا المنظور يمكننا أن نتساءل هل من الضروري أن يكون لكل الفاعلين الاجتماعيين المنتسبين لنفس الطبقة نفس الأبيتوس Le mémé Habitus، أم أنَّ بنية الأبيتوس تحمل خصوصيات فردية؟

حسب بورديو، فإنَّ هناك اختلافًا موضوعيًا بين الهابتوس الفردي والهابيتوس الجماعي، وهو اختلاف خاص بكل موقف، إذ لا يمكن أن يكون لكل الأفراد المنتمين لطبقةٍ واحدةٍ التجربةَ نفسها، بمعنى أن يكونوا قد عاشوا نفس التجربة وخبروها بالطريقة ذاتها، ومع هذا التحفظ يضيف بورديو إلى أنه يمكن للأعضاء المنتمين إلى الطبقة نفسها، أن يعيشوا تجارب متماثلة، وأن يواجهوا مواقف متشابهة، حيث يكون التعبير عن الخصوصية داخل الفئة وفي إطار مسارها، لذلك فقد يَشترك عدد معتبر من مكونات بنية أبيتوسات Les Habitus الفاعلين المنتسبين في نفس الطبقة، لتناسقها الموضوعي مع أهدافهم، وتمثلاتهم، وممارساتهم، دون أن تكون نتاج خضوع تام لقواعد التنظيم الاجتماعي[23].

2-4التصنيف الطبقي وتوزيع الرأسمال:

لقد تمَّ التطرق سابقًا إلى التصنيف الطبقي وفق مؤشرات وارنر، ومن الملاحظ استبعاده للخصائص والمؤشرات الثقافية، التي يعتبرها بورديو من أهم محدّدات مواقع الأفراد في حقولهم وفضاءاتهم الاجتماعية، فهم يقبلون تلك الفروق الموضوعية التي تتجلى في الثروات المادية

والثقافية وما تدره من فوائد تتحول فيما بعد إلى امتيازات مُعترفٍ بها في التمثلات التي تكون بين الأعضاء، أي إلى رأسمالٍ رمزي يجعل هؤلاء الأفراد يتجاهلون الأسس الفعلية للفروقَ وأسباب استمرارها، مِمّا يجعلهم لا يدركون أنّ حقولهم المختلفة هي ميادينٌ للصراع والمنافسة بين مجموعات تتعارض مصالحها، فتُمارس عليهم سلطة رمزية لا تفرض نفسها من خلال الأوامر فحسب، إنما بممارسة تبدو طبيعية تمس اللغة وأنماط السلوك وأسلوب العيش، وتتجاوز ذلك إلى عالم الأشياء كاللوحات والأثاث العتيق والسيارات...[24].

إذن، فتوليد السلطة الرمزية لطبقة معينة يمر عبر تحويل اجتماعي للثروات المختلفة إلى شكل من أشكال الرساميل التي تتضمن مزايا اجتماعية ورمزية تصب في صالح تلك الطبقة، محاولةً بذلك فرض أنماط رؤيتها للأشياء، وأحكامها الثقافية، واستخلاص ما يناسبها ونبذ غير ذلك، بطريقة هادئة وسلمية، لتكريس اختلافات الفضاء الاجتماعي، وشرعنة ممارستها للسلطة وهيمنتها على الطبقات الأخرى.

والاختلافات ذاتها تعيد إنتاج هذه الأحكام التي تبدو بديهيةً للآخرين وتولدها عبر مختلف الطاقات الاجتماعية وتحويل الرساميل إلى الرأسمال الرمزي الذي يسمح بممارسة السلطة الرمزية، فنجاعة هذه الأخيرة مرتهنٌ بما يسميه بورديو بـ "دائرة الشرعية" التي تتكون من حلقات ثلاث مُحددة بالطقوس الرمزية وبشرعية المُنفذ وتواطؤ المُهيمَن عليهم، مستشهدًا بالخطاب السلطوي كنوع من أنواع الطقوس الرمزية، و«تكمن خصوصية الخطاب السلطوي (كدرس الأستاذ وخطبة الواعظ) في أنه لا يكتفي بأن يكون مفهومًا ومُستوعبًا (...) وهو لا يفعل فعله الخاص، إلاّ شريطة أن يُعترف به كخطاب نفوذٍ وسلطان»[25]، بمعنى أنَّ التصنيفات الطبقية للبُنية الاجتماعية هي تقسيمات موضوعية (طبقة العمر، طبقة الجنس...) تخضع كلها للموقع المشغول في التوزيع، فهي تنتج أشكالاً متقاربة من البُنى الذهنية ونماذج شبه مشتركة من الممارسات الرمزية المعبرة للانتماء لتلك الطبقة[26]، هذه الممارسات الرمزية لا تتم بيُسرٍ وسهولةٍ كما يعتقد البعض، بل تقتضي شروطًا خاصة، فينبغي أن يصدر الخطاب من الفاعل المُفَوض الذي سُمح له بأن يلقيه، أي ممن عُرِف وأُعترف له بأحقية إنتاج فئة معينة من الخطاب، كما يُشترط أن يُلقى في المقام أو الحقل المشروع وأمام المتلقي الشرعي، أي الفرد المعني بتلك الفئة من الخطاب، وينبغي كذلك للخطاب أن يتخذ الشكل المعترف بشرعيته، أي أن يخضع مثلاً لقواعد نحو وصرف اللغة المستخدمة.

في واقع الأمر أنَّ التفويض لممارسة الطقوس الرمزية والهيمنة ليست "هِبة عشوائية"، بل هي اختيارٌ معقلن يفرضه منطق الشرعية، القائم على مكانة المُفوض في تراتبية السباق نحو التميّز، وتتحدد هذه المكانة بمقدار الرساميل التي بحوزته، وأهمها الرأسمال الثقافي المحول إلى رأسمالٍ رمزي يُسبغ على صاحبه الاحترام والتشريف، ويتطلّب تراكم هذا الشكل من رأس المال جهداً متواصلاً من أجل الحفاظ على العلاقات التي تؤدي الى الاستثمار المادي والرمزي له، حيث يكون البعد الرمزي أكثر أهمية، ويؤكد بورديو أنه لا يوجد شئ يخلو من رمزي[27]،

شكل رقم(04): يبيّن التصنيف الطبقي من خلال توزيع الأبيتوس والرساميل

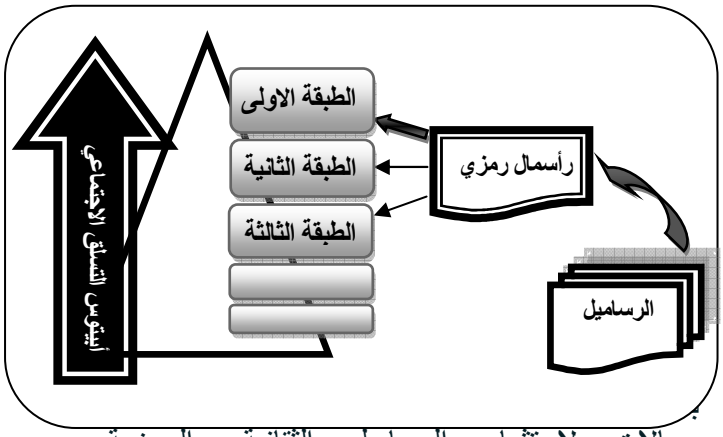

مجالات لاستثمار الرساميل الثقافية والرمزية والتصنيف الطبقي وإعادة إنتاجه، لذلك لا يمكن اعتبار هذه المساهمة سوى "فلاشات" ترمي إلى توسيع آفاق التنقيب والبحث المعمق في إسهامات هذا السوسيولوجي التي استمرت زمنًا يزيد على أربعة عقودٍ،

وباكتسابه يُعمق الفاعل موقعه ويُخول له ممارسة سلطته الرمزية.

والسلطة الرمزية ليست شيئًا متموضعًا في حيزٍ مكاني معين، إنما هي عبارة عن نظام من العلاقاتً الاجتمًاعية المُعقّدة والمتشابكة التي ترسم الحدود الطبقية في الفضاء الاجتماعي وفي مختلف حقوله.

وشملت مجالات تمتد من واقع المزارعين الجزائريين وطموحاتهم، مرورًا بدراسة الطبقات الاجتماعية والنسق المدرسي والثقافة والأذواق وصولاً إلى الحقول الأدبيّة والأكاديميّة الإعلاميّة،

والحركات الاجتماعيّة والعولمة...الخ، والتي قد تفيد أي الباحث في فهم المخاض العسير الذي يشهده العالم، وتحولات واقعه الاجتماعي.

الهوامـــــش:

1-الرشدان عبد الله، علم الاجتماع التربية، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عَمان، 1999، ص339.
2-قورفيتش جورج، دراسات في الطبقات الاجتماعية، تر: رضا أحمد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1972، ص ص5-10.
3-بدوي أحمد السيد، علم الاجتماع الاقتصادي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (القاهرة)، 1985، ص204.
4-المرجع نفسه، ص205.
5-غدنز أنتوني، علم الاجتماع، تر: الصباغ فايز، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، بيروت، 2005، ص35.
6- Snyders Georges, Ecole : classe et lutte des classes, édition P.U .F, Paris, 1976, p335.
7- Ibid, p337.
8-صبور محمد، المعرفة والسلطة في المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995، ص35.
9- Béraud.C et Coulmont. B, Les courants contemporains de la sociologie, Presses universitaires de France, 1e éd, Paris, 2008, p92.
10- Dictionnaire de la langue française, le petit Larousse, édition Larousse-Bordas, Paris, 1998, p253.
11-بورديو بيار وج.د فاكونت، أسئلة علم الاجتماع في علم الاجتماع الإنعكاسي، تر: الكور عبد الجليل، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب، 1997، ص14.
12- Crahay Marcel, L'école peut- elle etre juste et efficace ?, édition Boeck université, Belgique, 2000, p85.
13-خواجة عبد العزيز، مبادئ في التنشئة الاجتماعية، دار الغرب، وهران (الجزائر)، 2005، ص90.
14- Barrère Anne et Sembel Nicolas, Sociologie de l'éducation, édition Nathan, Paris, 1998, p17.
15- Accardo Alain et Corcuff Philipe, La sociologie de Pierre Bourdieu, édition Le Mascaret, 1986, p56.
16- Ansar Pierre, Les sociologies contemporaines, édition du Seuil, Paris,1990, p42.
17-كابان فيليب ودورتيه فرنسوا، مرجع سابق، ص221.
18- Béraud.C et Coulmont. B, Op.cit, p94.
19- Accardo Alain et Corcuff Philipe, Op.cit, p60.
20-خواجة عبد العزيز، مرجع سابق، ص93.
21-الحوراني محمد عبد الكريم، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار مجدلاوي، ط1، عمان (الأردن)، 2008، ص85.
22 - Bourdieu Pierre, La distinction: critique sociale du jugement, Op.cit, p690.
23-تريمش ماهر، بيار بورديو: فضاء اللعبة، الحقل، المشهد، السلع الرمزية، تراكم الامتياز، مرجع سابق، ص ص29-30.
24-بيار بورديو، الرأسمال الرمزي والطبقات الاجتماعية، الفكر العربي المعاصر، عدد41، 1986، ص49.
25-ماهر تريمش، بيار بورديو: نظرية اللعبة، عنف السلطة، سوسيولوجية التشيئ والمشيأة، كتابات معاصرة، مجلد9، عدد35، أكتوبر-نوفمبر 1998، ص ص63-64.
26- Bourdieu Pierre, La distinction: critique sociale du jugement, Op.cit, p686.
27-عبد العظيم حسني إبراهيم، الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي: قراءة في سوسيولوجيا بيير بورديو، مجلة إضافات، العدد15، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ومركز دراسات الوحدة العربية، صيف 2011، ص89.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 33 - 40
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

النخـــــــار الحجاجي في خطبة الجزائـــــــر

السبتي سلطاني
جامعة عنابة

مقدمـــــــــة:

بين يدي الإلياذة:

كانت فكرة وضع الإلياذة في ختام الملتقى الوطني الخامس للفكر الإسلامي بوهران، حيث تمّت التوصية بانعقاد الملتقى السادس بالجزائر العاصمة احتفاء بمناسبة الذكرى العاشرة لاسترجاع السيادة الوطنية، وكذا الاحتفال بمرور الألفية على تأسيس مدينة الجزائر العاصمة على يدي القائد: بلكين بن زيري. وفي هذا السياق التاريخي تقدم الدكتور مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلي بطلب من الشاعر مفدي زكريا أن يضع نشيدا جديدا للجزائر يكون بمثابة ملحمة تاريخية شعرية يقول مولود قاسم:" ولهذا طلبنا من المناضل الكبير، الشاعر الملهم، شاعر الكفاح السياسي،وشاعر الكفاح الثوري المسلح، الأستاذ مفدي زكريا صاحب الأناشيد الوطنية: من جبالنا طلع صوت الأحرار سنة 1932 وفداء الجزائر روحي ومالي سنة 1936 وقسما سنة 1955 واعصفي يا رياح ونشيد جيش التحرير ..... وبعضها وضع في سجن سركاجي، أقول طلبنا منه أن يضع لنا نشيدا جديدا يجمع هذه الأناشيد كلّها، ويشمل فيه وبه تاريخ الجزائر من أقدم عصورها حتّى اليوم، مركّزا على مقاومتنا لمختلف الاحتلالات الأجنبية على العهود الحضارية الزاهرة المتعاقبة وحاضرنا ومستقبلنا في كفاحنا لاستعادة جميع ثرواتنا، ومقومات شخصيتنا وبناء مجد جديد لأمتنا."[1]

وفعلا استجاب مفدي زكريا لطلب صديقه الوزير،وشرع في إنجاز هذا المشروع الضخم، وكان على اتصال دائم ومباشر بصديقيه: مولود قاسم وعثمان الكعاك من تونس للاستفادة من جميع الحوادث التاريخية التي هو بصدد توظيفها في الإلياذة، ويقر مولود قاسم بأنّ مفدي زكريا كان أكثر الثلاثة نشاطا والتزاما بتنفيذ هذا العمل، إذ كثيرا ما كان يهاتف صديقيه ليلا لضبط المادة العلمية والتاريخية في الإلياذة، إلى أن انتهى من إنجازها ووضع مقدمتها صديقه مولود قاسم، ومع بداية عام 1972 كانت الإلياذة قد طبعت بعد أن وصل عدد أبياتها إلى ستمائة وعشرة أبيات، افتتحت بها أشغال الملتقى الوطني السادس للفكر الإسلامي يوم 24 جولية 1972م[2]ثم ما لبث مفدي أن واصل نظمه للإلياذة إلى أن بلغت ألف بيت وبيت، وقد قسمها إلى قسمين هما: قسم الجمال، وقد خص به جمال الجزائر بسهولها وبحارها وجبالها وصحرائها، وقسم الجلال، واختص بسرد أمجاد البلاد وعراقتها التاريخية، وقد جاءت الإلياذة في شكل مقاطع بها 100 مقطع في كل مقطع عشرة أبيات يفصل بينهما بلازمة موحدة.

يعد الخطاب الحجاجي محور اهتمام الدراسات النقدي الحديثة التي انكبت على مقاربة الخطاب الشعري العربي وفق أحدث المناهج النقدية، والتي وجدت في الموروث الشعري العربي خير معين لتطبيق هذه المناهج النقدية الغربية على غرار المنهج التداولي.

وفي هذا السياق نجد انم فدي زكريا قد وظّف التكرار الحجاجي بشكل مكثف في مدونته الشعرية الموسومة بإلياذة الجزائر، وعليه يطرح التساؤل التالي: إلى أي حدّ وفق الشاعر في توظيف التكرار كآلية حجاجية هدفها إقناع المتلقي بجزائر الجمال وجزائر الجلال؟ ثم ما هي أشكال هذا التكرار الذي عمد الشاعر إلى توظيفه في مدوّنته الشعرية؟

1- مفهوم التكـــرار:

التكـرار مصـطلح بلاغـي عربـي قـديم عرفـه البلاغيـون القـدامى، "وتنبهـوا لوجـوده مـن خـلال استقرائهم للتـراث الشـعري والنثـري القـديم"[3]، كمـا أنّ اهتمام البلاغيين العرب بالإعجاز البلاغي في القرآن الكـريم دفعهـم إلـى التنبـه لوجـود التكـرار فـي الـنص القرآني لأسباب ودواع بلاغية إقناعية، وهو ما جعلهم يفردون لهذه الظاهرة دراسات عديدة ومصنفات خاصة تعكس مدى اهتمامهم بهذا الموضوع.

أ- التكرار لغة:

جـاء فـي معجـم مقـاييس اللغـة:

"(كَرَّ) الكـاف والـراء أصـل صـحيح يـدلّ علـى جمـع وترديـد، ومـن ذلـك (كَـرَرْتُ) أي رجوعـك إليـه بعـد المـرة الأولـى، فهـو الترديـد الـذي ذكرنـاه، والكريـر الحشـرجة فـي الحلـق، سـمّي بـذلك لأنّـه يرددهـا، قـال الأعشى:

فَنَفْسِي فِدَاؤُكَ يَوْمَ النِّزَالِ
إِذَا كَانَ دَعْوَى الرِّجَالِ الْكَرِيرَا

والكَرُّ جبل سمي بذلك لتجمع قواه، والكَرُّ الحسئ من الماء وجمعه كِرَارٌ."[4]

وجاء في اللسان: " الكَرُّ: الرجوع، كَرَّرَ الشيء وكَرْكَرَهُ: أعاده مرّة بعد أخرى، والكَرَّة: المرّة، والجمع الكرَّات، يقال كَرَرْتُ هذا الحديث وكَرْكَرْتُهُ، إذا رددته عليه، الجوهري: كَرَرْتُ الشيء تَكْرِيرًا وتَكْرَارًا، قال أبو سعيد الضرير: قلب لأبي عمرو بين تِفْعَالٍ وتَفْعَالٍ؟ فقال: تِفْعَالٌ اسم وتَفْعَالٌ بالفتح مصدر."[5]

قـال الزمخشـري: " كَـرَرْتُ عليـه الحـديث كَـرًّا وكَـرَرْتُ تَكْـرَارًا، وكَـرَرْتُ علـى سـمعه كـذا وتَكَـرَّرَ عليه، وفعل ذلك كَرَّةً بعد كَرَّةٍ، وكَرَّاتٍ."[6]

أمّـا الفيروزأبـادي فعـرّف التكـرار بقولـه: " وكَرْكَرَهُ أعاده مرّة بعد أخرى، وكَرَّ عليه كَرًّا وكُرُورًا وتَكْرَارًا، عطف وكَرَّ عليه: رجع فهو كَرَّارٌ، ومِكْرَارٌ، وكَرَّرَهُ تَكْرِيرًا وتَكْرَارًا وتَكِرَّةً."[7]

ب- التكرار اصطلاحا:

التكـرار فـن قـولي مـن الأسـاليب المـاثورة عنـد العـرب، بـل إنّـه مـن أبـرز مظـاهر الفصـاحة عنـدهم، ويبين الجاحظ الفائدة من التكرار بقولـه: " إنّ النـاس لـو استغنوا عن التكرير وكفّوا مئونـة البحث والتنفير لقلّ اعتبارهم، ومن قلّ فضله كثر نقصه، ومن قلّ علمه قلّ فضله، ومن قلّ فضله كثر نقصه...."[8]

ولقـد ذهـب الزركشـي إلـى الـربط بـين المـدلول اللغـوي والمـدلول الاصـطلاحي للفـظ التكـرار بقولـه: " هو إعادة الفظ أو مرادفه"[9]

2- مفهوم الحجاج:

أ- الحجاج لغة:

حَاجَجْتُهُ، أُحَاجَهُ، حِجَاجًا، وَمُحَاجَّةً من حَجَجْتُهُ بالحُجَجِ التي أدليت بها، والحجة البرهان وقيل الحجة ما دوفع به الخصم وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكـون الظفـر عنـد الخصـومة، وجمـع الحجـة حجـج وحجاج وحاجّه محاجّة وحجاجا نازعه الحجة وحجه يحجه حجّا، غلبه علـى حجتـه، وفـي الحديث: فحج آدم موسى، أي غلبه بالحجة واحتج بالشيء، اتخذه حجة، وقـال الأزهـري: " إنمـا سـميت حجـة لأنهـا تُحَـجُّ أي تقصد، لأن القصد لها وإليها" [10]

وجـاء فـي لسـان العـرب الحِجَـاجُ والمُحَاجَّـةُ مصـدران لفعـل حَـاجَجَ، حَجَـجَ: الحَـجُّ: القصـد. وحَجَّـهُ يَحُجُّهُ حَجًّا: قصده. والحُجَّةُ: البرهان، وقيل: الحُجَّةُ مـا دفـع بـه الخصـم[11] ويقـال حَاجَّـهُ مَحَاجَّـةً وحِجَاجًـا أي نازعته. وحَجَّه يَحُجُّهُ حَجًّا: غلبه على حُجَّتِهِ[12]

ب- الحجاج اصطلاحا:

يفرق ديكرو بين معنيين للفظ الحِجَاج: المعنـى العادي والمعنى الفني أو الاصطلاحي. فالحجاج بمعناه العـادي طريقـة عـرض الحجـج وتقـديمها، ويسـتهدف التـأثير فـي السـامع كـي يحقق النجاعـة والفاعليـة، وهـذا مبدأ أولـي تتحقق من خلاله السمة الحجاجية غير أنـه ليس معيـارا كافيـا، إذ لا يجب أن تهمل طبيعـة ونفسية المتلقـي أو السـامع، فنجـاح الخطـاب الحجـاجي يكمـن بالدرجة الأولـى فـي مدى انسجامه مـع المتلقي، ومدى قـدرة الأدوات والتقنيـات الحجاجيـة المسـتخدمة فـي إقناعـه، هـذا فضـلا عـن مـدى تـأثير اسـتثمار الجانـب النفسي لدى المتلقي بغية التأثير فيه[13].

أما الحجـاج بـالمعنى الفنـي أو الاصـطلاحي فيـدل علـى صنف معين من العلاقات المدرجة فـي الخطـاب

وفي اللسان ضمن المحتويات والخاصية الأساسية للعلاقات الخارجية أنها درجية أو قابلة للقياس بالدرجات[14].

وتطلق لفظة الحجاج أو المحاججة عند "شاييم بيرلمان" و" تيتكاه" " **perleman**" و" **tytica** " على ذلك العلم الذي يدرس تقنيات الخطاب التي تؤدي في النهاية إلى تسليم الذهن بما يعرض عليه من أطروحات أو تزيد في درجة تسليمه بها[15].

أمّا الغاية من الحجاج فيؤكد بيرلمان على أنّها جعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان يقول: " فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يحثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة."[16]

3- التكرار الحجاجي بين التقرير والتوكيد:

تتعدد الأهداف التي يتوخاها الشاعر بنزوعه إلى التكرار، منها ما يهدف إلى تقوية النغم في النص الشعري، ومنها ما يستهدف تقوية المعاني الصورية الكلية، ومنها ما يستهدف تقوية المعاني التفصيلية الجزئية[17] ومن أمثلة النمط الأول من التكرار الذي غايته تقوية النغم ما ورد في القرآن الكريم من تكرار في سورة الرحمن:(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) التي تكررت واحد وثلاثين مرّة، قال الإمام البغوي في تعليل التكرار في هذه الآية: " كرّر هذه الآية في هذه السورة تقريرا للنعمة وتأكيدا في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدد على الخلق آلاءه، ويفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها، كقول الرجل لمن أحسن إليه، وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويجحدها: ألم تكن فقيرا فأغنيتك؟ أفتنكر ذلك؟ ألم تكن عريانا كسوتك؟ أفتنكر ذلك؟ الم تكن خاملا فعززتك؟ أفتنكر ذلك؟ ومثل هذا التكرير شائع في كلام العرب."[18]

أمّا في الشعر فقد عمد الشعراء إلى التكرار الذي يهدف إلى تقوية النغم وتقرير المعنى وتوكيده في الكثير من المواضع، من ذلك ما أورده المهلهل في رائيته المشهورة حين يقول:[19]

وَهَمَّامَ بْنَ مُرَّةَ قَدْ تَرَكْنَا
عليهِ القشعمانِ منَ النسورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إِذَا خَافَ المُغَارُ مِنَ الْمُغِيرِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إِذَا طُرِدَ اليَتِيمُ عَنِ الْجَزُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إذا ما ضيمَ جارُ المستجيرِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إذا ضاقتْ رحيباتُ الصدورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إِذَا خَافَ المَخُوفُ مِنَ الثُّغُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إِذَا طَالَتْ مُقَاسَاةُ الأُمُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُ الزَّمْهَرِيرِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
عليهِ القشعمانِ منَ النسورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إِذَا خَافَ المُغَارُ مِنَ الْمُغِيرِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إِذَا طُرِدَ اليَتِيمُ عَنِ الْجَزُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إذا ضاقتْ رحيباتُ الصدورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إِذَا خَافَ المَخُوفُ مِنَ الثُّغُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إِذَا طَالَتْ مُقَاسَاةُ الأُمُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ
إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُ الزَّمْهَرِيرِ

فالقارئ يلاحظ حتما هذا التكرار المتوالي للعبارة **" على أن ليس عدلا من كليب"** التي تكررت على مدار الأبيات السابقة، ويعلق عبد الله الطيب على هذا التكرار بقوله: " ألا يرى القارئ أنّ إعادة " على أن ليس عدلا...إلخ" إنما هي رنّة لفظية قوية كرّرها الشاعر ليصل بها الكلام ويبالغ في جرسه، أم أليس في ورود هذا التكرار – منتحلا كان أو أصيلا- في شعر المهلهل

وشعر الحارث بن حلزة اليشكري... ما يدل على أم هذا النهج من التكرار كان حينئذ طريقا مهيعا؟"[20]

وإذا كان التكرار في الأساليب الفنية الشائعة في كلام العرب يهدف إلى تقوية المعنى، أو إكساب المعنى حمولة فنية جمالية، فإنّ نازك الملائكة ترى أنّ الاهتمام بالتكرار في الشعر العربي الحديث هو نتاج مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي جاءتنا بتطور واضح في أساليب التعبير الشعري، وكان التكرار أحد هذه الأساليب.

وتذهب نازك إلى أنّ التكرار يجب أن يخضع لبعض القوانين الخفية التي تتحكم في العبارة تقول: " وثاني قاعدة نستخلصها هي أنّ التكرار يخضع للقوانين الخفية التي تتحكم في العبارة وأحدها قانون التوازن، ففي كلّ عبارة طبيعية نوع من التوازن الدقيق الخفي الذي ينبغي أن يحافظ عليه الشاعر في الحالات كلّها."[21]

فنازك ترى أنّ هناك نمطين من التكرار: تكرار بنّاء فطن، يحافظ على التوازن الهندسي، ويميل بالعبارة " كما تميل حصاة دخيلة بكفة الميزان"22 وللتدليل على هذا النمط من التكرار الذي يستهدف تقوية النغم ويحافظ على التوازن الهندسي للنص الشعري، تأتي نازك بمثالين: أحدهما لبدر شاكر السياب يقول فيه:[23]

فِـــي دُرُوبٍ أَطْفَـــأَ المَاضِـــي مَـــدَاهَا
وَطَوَاهَـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــا
فَاتْبَعِينِي .. اتْبَعِينِي

تؤكد نازك الملائكةأنّ التوازن الهندسي والنغمي في هذا المثال قائم على تكرار كلمة:

" اتبعيني" حيث أنّ الشاعر يقف بين زمنين متوازيين: الماضي الذي يفرغ منه، والمستقبل الذي يتشبث به ويحاول دعمه وتثبيته، تقول نازك: " إنّه يحس بانطفاء الدروب الضائعة في الأمس، فيحاول أن يملك ثباتا في المستقبل على اساس الحب الإنساني، وبهذا يتم التوازن العاطفي للعبارة، وقد رتّب الكلمات بحيث تلائمه هندسيا، وذلك بأن أعطى الماضي فعلين قويين هما: أطفأ وطوى، ففكان لابد له من أن يعطي المستقبل أيضا فعلين كي يوحي بقوته إزاء هذا الماضي، ولذلك كرّر كلمة اتبعيني"[24]

أمّا النمط الثاني من التكرار، فهو يقوم على هدم التوازن الهندسي والنغمي للبيت الشعري، وتضرب نازك الملائكة لذلك مثالا لنزار قباني حين يقول:[25]

مَاذَا تَصِيرُ الأَرْضُ لَوْ لَمْ نَكُنْ
لَوْ لَمْ تَكُنْ عَينَاكِ..
مَاذَا تَصِيرْ ؟؟

ترى نازك الملائكة أن تكرار صيغة **"لَوْ لَمْ نَكُنْ** " أخلّت بالعبارة، وأنّ نزار كان في غنى عن هذا التكرار الذي ساهم في هدم التوازن الهندسي للقصيدة.

1- التكرار وآلياته الحجاجية في إليادة الجزائر:

أ- تكرار الحروف:

يعدّ تكرار الحروف من أكثر أشكال التكرار حضورا في الشعر العربي الحديث، إذ لا يكاد يخلو منه نص شعري، ولعلّ أحسن مثال على هذا النمط من التكرار ما أورده الشابي في قوله:[26]

عَذْبَةٌ أَنْتِ كَالطُّفُولَةِ كَالأَحْلامِ
كَاللَّحْنِ كَالصَّبَاحِ الجَدِيدِ
كَالسَّمَاءِ الضَّحُوكِ كَاللَّيْلَةِ القَمْرَاءِ
كَالوَرْدِ كَابْتِسَامِ الوَلِيدِ

فالملاحظ في هذه الأبيات أنّ الشابي عمد إلى تكرار حرف "الكاف" كأداة للتشبيه ثمان مرات، لأنّها تجدد التشبيه وتقويه، والشاعر آثر توظيف كاف التشبيه على واو العطف لما لذلك من أثر نفسي بليغ ناجم عن الانسجام النغمي الذي يتركه حرف الكاف في النفس.

وبالرجوع إلى مفدي زكريا في الإليادة، نجد أن هذا النمط من التكرار قد شغل حيزا هاما من شعره، لما فيه من تأثير فني جميل ينتج نغما موسيقيا عذبا، إذ يطالعنا الشاعر في أولى قصائده بتكرار حرف النداء " يَا " يقول:[27]

جَزَائِرُ يَا مَطْلَعَ المعْجِزَات
وَ يَـا حُجَّـةَ اللهِ فِـي الكَـائِنَات
وَ يَا بَسْمَةَ الرَّبِ فِي أَرْضِـهِ
وَ يَـا وَجْهَـهُ الضَـاحِكُ القَسَـمَات
وَ يَا لَوْحَـةً فِي سِجِلِّ الخُلُود
تَمُـوجُ بِهَـا الصُّـوَرُ الحَالِمَـات
وَ يَا قِصَّةً بَثَّ فِيهَا الوُجُودُ

مَعَــانِي السُــمُوِّ بِــرَوْعِ الحَيَــاة
وَ يَا صَفْحَةً خَطَّ فِيهَا البَقَا
بِنَارِ وَ نُورِ جِـهَادِ الأُبَاة

وتتواصل باقي أبيات القصيدة على هذا النم من التكرار، حيث يتكرر الحرف "ياء" ضمن آداة النداء ياء بشكل مكثف، ممّا يضفى على القصيدة تقوية للنغم الموسيقي الأخاذ يجعل المتلقي متيقظا دوما للآتي.

كما يعمد زكريا إلى تكثيف استخدام حروف الصفير " **السين والصاد والزاي**" وما توحي به هذه الأصوات من تأثير نفسي يوحي بالرغبة في البوح والدعوة المتلقي لمشاركة الشاعر وجدانه وأحاسيسه يقول:[28]

جَزَائِرُ أَنْتِ عَرُوسُ الدُّنَا
وَمِنْــــكِ اسْــــتَمَدَّ الصَّــــبَاحُ السَّــــنَا
وَأَنْتِ الجِنَانُ الَّذِي وَعَدُوا
وَإِنْ شَــــغَلُونَا بِطِيــــبِ المُنَــــى!!
و أَنْتِ الحَنَانُ وأَنْتِ السَّمَاحُ
وأَنْــــتِ الطِمَــــاحُ وَأَنْــــتِ الهَنَــــا
وَأَنْتِ السُّمُوُ وَأَنْتِ الضَّمِيرُ
الصَّــــرِيحُ الَّــــذِي لَــــمْ يَخُــــنْ عَهْــــدَنَا
وَمِنْكِ اسْتَمَدَّ البُنَاةُ البَقَاء
فَكَانَ الخُلُودُ أَسَاسَ البِنَا

فالملاحظ في هذه الأبيات اعتماد الشاعر على أصوات الصفير التي تكررت في هذه المقطوعة بشكل جلـيّ وواضـح، ولا يخفـى علـى القـارئ مـا لهـذه الأصوات من صفات الوضوح والقوة والإبانة، وذلك بفعل التصاقها في مخرج الصوت واحتكاكها المباشر بجهاز السمع وما يؤديه ذلك من لفت لانتباه المتلقي الذي يستهدفه الشاعر ويروم التأثير فيه، فأصوات الاحتكاك لها سبعة مواضع في اللغة العربية كما يقول كمال بشر:" أمّا اللغة العربية فلها سبعة أو ثمانية مواضع احتكاكية هي مواضع الفاء والثاء وأختيها الذال والظاء، والزاي ومعها السين والصاد، والشين وموضع الخاء وصاحبتها الغين والخاء والحاء ومعها العين ثم الهاء، فهذه سبعة مواضع، ويمكن عدّها ثمانية إذا خصصت لليـاء موضعا مستقلا على ما يرى بعضهم."[29]

وبالإضافة لحرف النداء وأصوات الصفير التي عمد الشاعر إلى تكرارها في مدونته الشعرية نجد أنّ مفدي زكريا تعمد الإكثار من توظيف حرف العطف " واو"، وغالبا مار يرد حرف العطف واو ليفيد مطلق الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، وهو من أثر حروف العطف استعمالا في اللغة العربيةإ غير أنّ ما يلاحظ على توظيف مفدي لحرف الواو مكررا في الإلياذة، هو تصديره إياها لأغلب أبيات المدونة، ممّا يجعله خارج الدلالة التي وضع لها أصلا وهي الجمع بين المعطوفين، إلى معان أخرى كالاستئناف وغيره من المعاني يقول:[30]

وَحَمَّامُ مَلْوانَ مَلَّ المُجُونَا
وَأَنْــــهَى غِوَايَتَــــهُ وَالفُــــتُونَا
وَفَضَّلَ خَوْضَ الحِمَامِ بَدِيلاً
عَــــنِ المُسْتَحِــــمَّات وَالعَــــائِمِينَا
وَقَدْ عَاشَ دَرْبًا لِحُلْوِ الأَمَانِي
فَأَصْــــبَحَ دَرْبــــًا يُــــلاَقِي المــــَنُونَا
وَكَانَ كَمِينَ الضِّبَا وَالذِّئَابِ
فَصَــــارَ لِــــصَيْدِ الــــذِّئَابِ كَمِــــينَا
وَغَاصَتْ بِهِ ثَوَرَاتُ الهَوَى
فَفَجَّــــرَتِ العَــــزْمَ فِــــي الثَّائِرِينَــــا
وَأَعْلَنَ تَوْبتَـهُ فِي الجِبَالِ
فَكَـانَ الرَّصَـاصُ القِصَـاصَ الضَّـمِينَا
وَمَدَّ اليَمِينَ لِدَاعِي الفِدَا
فَأَقْسَــــمَ أَنْ لاَ يَــــخُونَ اليَمِــــينَا
وَشَمَّرَ يَرْفُضُ دُنْيَا المَلاَهِي
وَيَنْفُــــضُ عَنْــــهُ غُــــبَارَ السِّــــنِينَا
وَأَضْفَى الجَمَالُ عَلَيْهِ جَلاَلاَ
وَكَـانَ الجَلاَلُ عَلَيْـهِ ضَـنِينَا

هكذا نلاحظ كيف أنّ الشاعر عمد إلى تكرار حرف الواو مع كلّ بيت من أبيات هذا المقطع إلى أن يصل إلى الغاية التي أقام من أجلها خطابه الحجاجي، حيث يخلص إلى النتيجة النهائية التالية:[31]

هِيَ الأَرْضُ...أَرْضُ الجَزَائِرِ...مَهْمَا
غَوَتْ وَصَبَتْ ..أَبَدًا لَنْ تَخُونَا

فالشاعر بتعمده تكرار حرف الواو لا يقف فقط عند هدف التقرير فحسب، بل يسعى إلى التأثير في المتلقي من خلال وصله للأبيات بعضها ببعض كي يصل في الختام إلى الغاية التي من أجلها نظم هذه القصيدة وهي إقامة الحجة على الجاحدين الذين ينكرون على أرض الجزائر بطولاتها أمجادها، مقرا بأنّ هذه الأرض ستظل طاهرة ظاهرة لن يدنسها المستدمر ولن يلحقها العار أبد الدهر.

ب- <u>تكرار الألفاظ:</u>

يعدّ تكرار الألفاظ من أكثر أنواع التكرار شيوعا في الشعر العربي، حيث يعمد فيه الشاعر إلى تكرار كلمة ما لتحقيق غايات موضوعية وأخرى فنية، لكن يظل الهدف الأسمى لهذا التكرار هو: " إشاعة لون عاطفي غامض يقوّي الصورة التي عليها بنية القصيدة، أسماء الأشخاص والمواضع وما هو بمنزلتها من الأعلام والألفاظ التي تنزل منزلة الأعلام."32

ولتوضيح الهدف الحجاجي من هذا النمط من التكرار يورد عبد الله الطيب مثالا للخنساء في رثاء أخيها صخر:[33]

وَإِنَّ صَخراً لَوالِينا وَسَيِّدُنا
وَإِنَّ صَخراً إِذا نَشتو لَنَحّارُ
وَإِنَّ صَخراً لَمِقدامٌ إِذا رَكِبوا
وَإِنَّ صَخراً إِذا جاعوا لَعَقّارُ
وَإِنَّ صَخراً لَتَأتَمَّ الهُداةُ بِهِ
كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأسِهِ نارُ

فالخنساء تلجأ إلى التكرار الحجاجي من اجل إضفاء جو من الحزن والتعاطف الوجداني معها في محنتها، نظرا لما للتكرار من تأثير عاطفي كبير لدى المتلقي.

ومن أمثلة التكرار اللفظي الذي يقوم على ترديد كلمة بعينها في إلياذة الجزائر نجد:

ج- تكرار الأسماء:

إن الدارس لظاهرة تكرار الأسماء في الإلياذة يجد أنها شغلت حيزا كبيرا منها، إذ كثرا ما يلجأ مفدي زكريا إلى تكرار الأسماء سواء كانت أسماء أعلام أو أسماء أماكن من ذلك قوله:[34]

سَجَا اللَّيْلُ فِي القَصَبَة الرَّابِضَة
فَأَيْقَظَ أَسْرَارَهَا الغَامِضَة
وَبَيْنَ الدُّرُوبِ وَبَيْنَ الثَّنَايَا
عَفَارِيتُ، مَائِجَةٌ رَاكِضَة
وَمِلءَ سَرَادِيبِها الكَافِرَا
تِ تُصَاغُ قَرَارَاتُنَا الرَافِضَة
فَيَحْتَارُ بِيجَارُ فِي أَمْرِهَا
وَيَحْسَبُهَا مَوْجَةٌ عَارِضَة
فَيَفْجَؤُ بِيجَارَ إِصْرَارُ شَعْبٍ
وَتَدْمَغُهُ الحُجَّةُ النَاهِضَة

فالشاعر في هذه الأبيات يعمد إلى تكرر اسم العلم **بيجار**[35] في سياق تأكيده على قوة رجال جيش التحرير، وتحدّيهم للمستعمر في قلب القصبة، حيث يعجز هذا الجنرال ويحتار في كيفية التخلص من قادة الثورة وعلى رأسهم **"علي عمار"** المدعو **"علي لابوانت"** الذي يؤثر الموت على الاستسلام يقول: [36]

وَيَأْبَى عَلِيٌّ رُضُوخَ الجَبَان
فَتَسْمُوا بِهِ رُوحُهُ الفَائِضَة

ففي تكرار الشاعر لاسم الجنرال بيجار شكل من أشكال التأكيد على فشل هذا القائد المدعوم بكل أشكال الدعم من الأسلحة وفرق النخبة من الجيش الفرنسي مقابل فرد أعزل هو علي عمار الذي لم يكرر اسمه الشاعر لغاية حجاجية خالصة، إذ من خلال اكتفائه بذكره مرة واحدة وبالمقابل تكرار اسم القائد الفرنسي تأكيد وحجاج على أن القوة مهما تعددت وتنوعت أساليبها لن تجدي نفعا أمام قوة الإيمان بالقضية.

<u>- تكرار الأفعال:</u>

يعتبر تكرار الأفعال شكل من أشكال الخطاب الحجاجي الذي يستهدف إقناع المتلقي باعتبار أنّ الفعل كثيرا ما يرتبط بالسياقات الدالة على الحركة والانفعال، وهذه الحركة هي التي تشد انتباه القارئ وتدفعه إلى تتبع فضوله ممّا يجعله يتعاطف مع المرسل، وبالتالي يتيح له إمكانية التأثير فيه.

ومن صيغ التكرار القائمة على ترديد الفعل في إلياذة الجزائر نجد:

وَقَالَ الرَّعَادِيدُ: قَوْمٌ رِعَاعٌ
مَجَانِينُ تَجْرِي وَرَاءَ الخَيَالِ

وَقَالَ المَنَاجِيدُ: قَوْمٌ كِرَامٌ
صَنَادِيدُ مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ
وَقَالَ الفَرَنْسِيسُ: بِئْسَ المَصِيرُ
إِذَا القَـوْمُ لَمْ يُمْحَقُوا بِالنَّكَالِ
وَقَالَ الأُلَـى: نَاصَرُوا حِزْبَنَا
سَنَقْضِي عَلَى لَعْنَةَ الاحْتِـلاَلِ
وَقَالَ الَّذِي خَلَّدُوا شِعْرَهُ
فِدَاءُ الجَزَائِرِ رُوحِي وَمَالِـي

لقد عمد مفدي زكريا إلى عرض مختلف وجهات النظر إزاء حرب التحرير ونظرة كلّ طرف إليها، وذلك من خلال تكراره للفعل: " وقال " الذي تكرر بشكل عمودي مع بداية خمسة أبيات من عشرة أي أنّ الشاعر قام بتوظيف التكرار الحجاجي على مستوى الفعل بما نسبته 50 من مجموع الأبيات الشعرية في هذه المقطوعة.

ومن صيغ التكرار القائمة على ترديد الفعل في الإلياذة نجد:

وَتَأْبَى المَدَافِعُ صَوْغَ الكَلاَمِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ شَـوَاظٍ وَجَمْـرِ
وَتَأْبَى القَنَابِلُ طَبْعَ الحُرُوفِ
إِذَا لَمْ تَكُنْ مِـنْ سَبَائِكِ حُمْرِ
وَتَأْبَى الصَّفَائِحُ نَشْرَ الصَّحَائِفِ
مَا لَمْ تَكُنْ بِالقَـرَارَاتِ تَسْرِي
وَيَأْبَى الحَدِيدُ اسْتِمَاعَ الحَدِيثِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ رَوَائِعِ شِعْرِي

فالشاعر هنا يعمد إلى تكرار الفعل " **تأبى**" إلحاحا منه على تأكيد فكرة أنّ سلطان القوة هو الآمر الناهي هو الآمر الناهي، وبالتالي فإنّ ما أخذ بالقوة لم ولن يستردّ إلاّ بالقوة، بل إنّ السبيل الوحيد لاسترجاع السيادة الوطنية هو الثورة ولا شيء غير الثورة، ولترسيخ هذه القاعدة وتأكيدها يلجأ الشاعر إلى آلية التكرار الحجاجي عبر تكرار الفعل "تأبى" والتكرار ههنا زيادة عن كونه جاء لتنبيه المتلقي فهو يستهدف التهويل والتعظيم وهذا دأب مفدي زكريا في هذه المقطوعة.

الخاتمة:

شكل الخطاب الحجاجي في شعر مفدي زكريا علامة فارقة في الخطاب الشعري الجزائري بوجه عام، ومن أبرز آليات الخطاب الحجاجي ووسائله في شعر مفدي زكريا عموما وإلياذة الجزائر علة وجه الخصوص نجد التكرار الحجاجي الذي ميّز أغلب مقاطع هذه المدونة، ومن خلال دراستنا المتأنية لخصائص التكرار الحجاجي في إلياذة الجزائر توصلنا إلى النتائج التالية:

يعد التكرار الصوتي أهم ما نمط تكراري طغى على المدونة الشعرية موضوع الدراسة لما للتكرار الصوتي من تأثير نفسي وإقناع عقلي يؤثر في المتلقى لذلك تعددت أوجه التكرار الصوتي، منها تكرار أصوات الصفير وتكرار الأصوات المجهورة التي وجد فيها مفدي زكريا خير وسيلة حجاجية لتحقيق أهدافه من خلال تأليفه لإلياذة الجزائر.

تنوع التكرار اللفظي بين تكرار الأفعال وتكرار الأسماء ففي سياق السعي لتحريك المشاعر الساكنة والتأثير فيها عمد الشاعر إلى تكرار الأفعال، أمّا في سياق تثبيت وتقرير قوة جيش التحرير وعراقة هذا الوطن عمد مفدي زكريا إلى تكرار مجموعة من الأسماء التي ميزت وطبعت مرحلة من مراحل تاريخ الجزائر.

الهوامش:

1 - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص9
2 - حسن المرجع نفسه، ص 12.
3 - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ج2، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط5، 1981، ص 73.
4 - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج4، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، دار الفكر، القاهرة، مصر، 1979، ص26 .
5 - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: مجموعة من الأساتذة، دار المعارف، مصر، د ت، مادة (كَرَ).
6 - الزمخشري، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، لبنان،1965، مادة(كَرَرَ)
7 - الفيروزأبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي،مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 2005، مادة (كَرَرَ)
8 - الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، ج 3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964، ص 181.
9 - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر ، القاهرة، مصر، ط3، 1980، ص10.
10 - ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، المجلد الثاني، مادة حجج
11 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، 1992م، مادة (حجج)، ص: 570.
12 - Le grand Robert. Dictionnaire de la langue française. P 535 Paris 1989. T
13 - chaim perelman, argumentation, art, encyclopedea universalis-
14 - صابر الحباشة، التداولية والحجاج، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية،2008، ص 21
15 - نعمان بوقرة، نظرية الحجاج، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد:407 مارس2005.
16 - محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2008، ص 108.
17 - عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج 2، مطابع حكومة الكويت، الكويت، 1989، ص 64.
18 - الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي: معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، المجلد السابع،1991، ص 443.
19 - مهلهل بن ربيعة، الديوان، تحقيق: طلال حرب، الدار العالمية، الجيزة، مصر، ص 4
20 - عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ص 66.
21 - نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، منشورات مكتبة النهضة، مصر، ط3، 1968، ص244.
22 - المرجع نفسه، ص ن.
23 - بدر شاكر السياب، أزهار وأساطير، مطبوعات النجف، العراق، 1957، ص40.
24 - نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ص 245.
25 - نزار قباني، قصائد، بيروت، لبنان، 1956، ص 2.
26 - أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970، ص 183.
27 - مفدي زكريا، الإلياذة، ص 19.
28 - المصدر السابق، ص 22.
29 - كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000، ص 199.
30 - مفدي زكريا، الإلياذة، ص29.
31 - المصدر السابق، ص29.
32 - عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج2، ص 90.
33 - الخنساء، الديوان، تحقيق: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004، ص46.
34 - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص27.
35 - مارسيل (بيجار 14 فبراير 1916 في تول، فرنسا 18 - يونيو2010)كان عسكرياً فرنسياً برتبة جنرال. بدأ حياته موظفا في أحد البنوك، غداة اندلاع الحرب العالمية الثانية جند للدفاع عن فرنسا، وبعد احتلال باريس من طرف الألمان تم اعتقاله، وبعد الإفراج عنه غادر فرنسا نحو الجزائر .أرسل إلى الهند الصينية ضمن فرقة المظليين برتبة ضابط وشارك في معركة بيان بيان فو. وبعد هزيمة فرنسا عاد من جديد إلى الجزائر للمشاركة في القضاء على الثورة التحريرية، وقاد عدة معارك ضد جيش التحرير الوطني في الشرق الجزائري، أصيب في معركة آرقو بجبال تبسة في صيف عام 1956 بقيادة لزهر شريط. كلف في نهاية سنة 1956 بالقضاء على معركة الجزائر، وأشرف على قيادة الحرب النفسية ضد خلايا الفدائيين في العاصمة، إذ لعب دورا كبيرا في ممارسة التعذيب ضد

المناضلين والفدائيين في معركة الجزائر حيث استباح كل الممارسات القمعية والبوليسية لتحقيق أهدافه العسكرية حتى اقترن ذكر اسمه بالممارسات الوحشية ومظاهر التعذيب أثناء الثورة التحريرية في الجزائر.

36 - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص27.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 107 - 124
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الجباية البيئية كأداة لتحقيق التنمية المستدامة في الجزائر

محمد مسعودي

جامعة العقيد أحمد دراية أدرار

أولا: ماهية التنمية المستدامة

1. مفهوم التنمية المستدامة:

لقد ارتكزت النظرة التقليدية للتنمية على تطوير وإنعاش مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية وتوفير الإمكانيات والهياكل لصالح المجتمعات والأفراد في الوقت الراهن، من دون الأخذ بعين الاعتبار للأجيال المستقبلية، ولا للجوانب البيئية، الأمر الذي أدى إلى تبلور مفهوم جديد للتنمية اقترن باسم "التنمية المستدامة" .

وإذا كانت التنمية المستدامة كمفهوم يُعتبر قديماً قدم الزمان، فإنه كمصطلح يُعد ابتكاراً جديداً يرجع الفضل فيه إلى مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة البشرية الذي انعقد في استكهولم سنة 1972، أين أصبح هذا المصطلح محل اهتمام وواحد من الأفكار التي تربط بين البيئة والتنمية الاقتصادية، وقد أصبحت الاستدامة منذ هذا المؤتمر تُمثل منهجا للتنمية التي تُعنى بقضايا الفقر والبيئة والمساواة[1].

وأشهر تعريف للتنمية المستدامة هو ذلك التعريف الذي ورد سنة 1987 في تقرير اللجنة الدولية للبيئة والتنمية المعروف " بتقرير برونتلاند"، حيث عرف التنمية المستدامة على أنها: "التنمية التي تفي باحتياجات الجيل الحالي دون الإضرار بقدرة الأجيال القادمة على الوفاء باحتياجاتها[2]. وفي تعريف آخر يُمثل محاولة للربط ما بين البيئة والتنمية الاقتصادية، نجد أن التنمية المستدامة تُعرف على أنها ,"محاولة الحد من التعارض الذي يؤدي إلى تدهور البيئة عن طريق إيجاد وسيلة لإحداث تكامل ما بين البيئة والاقتصاد."[3]

2. أهداف التنمية المستدامة :

إن الأهداف التي تسعى التنمية المستدامة إلى تحقيقها كثيرة، لذلك سنقتصر على إبراز أهمها فيما يلي:

أ. إبراز أهمية الموارد البشرية، والبحث في القضايا الهامة المرتبطة أساسا بردم الهوة التكنولوجية بين الدول المتقدمة والمتخلفة، وتعزيز دور المرأة في مختلف القطاعات.

ب.السعي للحد من الفقر العالمي، وهذا من خلال تلبية احتياجات أكثر الطبقات فقراً[4].

ج. البحث في مستجدات البيئة والنظر بشكل خاص في انعكاساتها على الدول، مع تبادل الآراء في شأن الاستفادة من التجارب الناجحة في مجال حماية البيئة والبحث في آفاق جديدة للتعاون.

د. النظر في المستجدات الاقتصادية بالتركيز على تأثيرات العولمة وطرق الاستفادة من إيجابياتها، وخاصة في تعزيز دور القطاع الخاص وزيادة قدراته التنافسية، وتحقيق الاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية والبشرية.

5- عرض الاتجاهات والقضايا المتعلقة بدور الحكم الراشد (La bonne gouvernance) في تحقيق التنمية المستدامة، وأثره على تطوير آليات الحكم وطرق تطبيقها في الدول النامية بشكل خاص.

3. أبعاد التنمية المستدامة:

ترتكز التنمية المستدامة على أسس أو أبعاد محددة يمكن حصرها فيما يلي[5]:

أ- البعد الإيكولوجي(البيئي): يسعى أساسا إلى:

- منع التلوث والحد منه.
- رفع مستوى إدارة الموارد الطبيعية والبيئية وتحسين استغلالها .

- الحفاظ على سلامة الأنظمة الإيكولوجية (les écosystèmes).
- الحفاظ على التنوع البيولوجي
- (la biodiversité).

- الإهتمام بالقضايا البيئية على المستوى العالمي، ومن بين القضايا المثيرة للاهتمام في الوقت الراهن نجد مشكل التلوث، التصحر، التغيرات المناخية العالمية...الخ.

ب- البعد الاقتصادي:

ويتمحور حول عنصرين مهمين هما: تحقيق النمو والكفاءة في استغلال الموارد؛ فالنمو المتواصل يؤدي إلى تحسين مستوى الدخل الوطني والفردي وبالتالي تحسين مستوى المعيشة، أما الكفاءة فيقصد بها حسن استغلال الموارد المتاحة،و ذلك بتحقيق أكبر قدر ممكن من الإنتاج والمنافع بأقل الموارد والتكاليف، هذا وقد تنبه علماء الاقتصاد مؤخراً إلى أهمية رأس المال الطبيعي[6] في عملية التنمية.

ج- البعد الاجتماعي : يسعى بالخصوص إلى:

-تحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع فيما يتعلق بتوزيع الموارد والاستفادة من كافة الخدمات.

-الإقلال من مستويات الفقر.

-إتاحة الفرص بشكل متساوي بين أفراد المجتمع دون أي تمييز أو تحيز .

-تسهيل وتشجيع الحريات الفردية.

-زيادة الترابط الاجتماعي وتقويته.

-مشاركة الأفراد في إعداد البرامج التنموية وفي تنفيذها، وهذا يُعتبر عاملا مهماً للنجاح.

- هذه البرامج التنموية.
- الحفاظ على الهوية الثقافية.

تطوير المؤسسات الاجتماعية القائمة، وإيجاد مؤسسات جديدة تخدم التنمية وتضمن ديمومتها.

وعلى العموم، فإن نظرية التنمية المستدامة سليمة في أساسها لكن بنائها لم يكتمل بعد، وتحتاج إلى جهد نظري وعلمي وميداني لأن مشكل تدهور البيئة لا يزال قائما وصعوبة مواجهته تزداد أكثر، وما يزيد الوضع تعقيدا أن هناك أكثر من مليار نسمة حول العالم يعيشون في فقر حاد ويعانون معاناة هائلة في الحصول على الموارد، الأمر الذي يُصَعِّب من تحقيق المهمة الجوهرية للتنمية المستدامة والمتمثلة في تهيئة الفرص التي تتيح لملايين الناس من بسطاء الحال الاستفادة من الموارد بأفضل الطرق في ظل بيئة سليمة[7].

وإن نجحت نظرية التنمية المستدامة في توضيح الفروض والركائز التي يتحقق في ظلها النمو المستدام، فإنها لم تبين كيفية تحقيق هذه الفروض، أي كيفية تلبية الحاجات الأساسية للسكان خاصة الفقراء، والطرق المثلى للحفاظ على الموارد الطبيعية، ثم أخيراً ميكانيزمات تحقيق الفعالية الاقتصادية؛

إذ أنه لا يكفي القول بوجوب وضع السياسات التي تحقق هذه الفروض والأهداف، وإنما يبقى السؤال مطروحا أمام واضعي هذه السياسات عن كيفية تجسيدها على أرض الواقع[8] .

إن نظرية التنمية المستدامة تُعد بحق أكبر تحدي يواجه البشرية، لأن المزاوجة بين التنمية الاقتصادية وضرورة الحفاظ على البيئة ليس بالأمر الهيِّن، وما نرجوه هو أن تستديم نظرية التنمية المستدامة في حد ذاتها، وأن تكون الطريق الآمن للوصول إلى تنمية شاملة.

ثانياً: ماهية الجباية البيئية :

من المعلوم أن السياسة الجبائية، تُستعمل في الأساس كأداة تمويلية، ورغم أن هذا الدور التمويلي لا يزال قائماً، إلا أنه تغيَّر نوعياً بالموازاة مع تغير مهام الدولة[9]، التي بعد أن جانبت الحياد،أصبحت تستعمل الضريبة كأداة للتأثير على الوضع الاقتصادي والاجتماعي، ومؤخراً حتى على الوضع البيئي،وهذا بعد أن استفحلت ظاهرة التلوث وأصبحت تشكل خطراً كبيراً على الإنسان في المقام الأول، ناهيك عن الأضرار التي تلحق بالمكونات الأخرى للبيئة .

وتَدَخُّل الدولة للتأثير على الوضع البيئي، أي

الحد من التلوث وتحسين نوعية البيئة، غالباً ما يتم من خلال ما يُعرف بالجباية البيئية، فما هي الجباية البيئية يا ترى ؟ وما هي أهم مضامينها ؟.

1 .مفهوم الجباية البيئية :

-تُعرف الجباية البيئية على أنها مجموعة الإجراءات الجبائية التي لها تأثير على البيئة، وهذه الإجراءات تتضمن: ضرائب ورسوم، إتاوات، إجراءات ضريبية تحفيزية[10].

-الجباية البيئية أو كما يُفضّل البعض تسميتها بالجباية الخضراء، هي عبارة عن مجموعة الإجراءات الجبائية الرامية إلى تعويض أو بالأحرى الحد من الآثار الضارة اللاحقة بالبيئة من جرّاء التلوث.

-حسب تعريف منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، نعني بالجباية البيئية، جملة الإجراءات الجبائية التي يتسم وعاؤها (منتوجات، خدمات، تجهيزات، انبعاثات) بكونه ذا تأثير سلبي على البيئة[11].

وتعريف الجباية البيئية، يستند في الواقع على ثلاثة مقاربات نوردها فيما يلي[12]:

- **المقاربة حسب الهدف المعلن:**

حسب هذه المقاربة، فإن الجباية تعد بيئية إذا تضمنت أي إجراء يهدف المشرع من خلاله إلى تحسين الوضعية البيئية، مع اشتراط أن يكون هذا الإجراء مدون في النصوص القانونية.

- **المقاربة حسب السلوك:**

بحيث أن كل إجراء جبائي يُولّد تحفيز اقتصادي لتحسين البيئة والحد من التلوث، يُعد إجراء جبائي بيئي.

- المقاربة حسب المنتوج أو التلوث المُستهدف من خلال الإجراء :

وفق هذه المقاربة، فإن كل إجراء جبائي يكون لوعائه تأثير سلبي على البيئة، يعد إجراء جبائي بيئي.

وللجباية البيئية أهداف محددة نبرز أهمها فيما يلي:

- المساهمة في إزالة التلوث عن طريق ما تتضمنه الجباية البيئية من إجراءات ردعية سواء كانت ضرائب أو رسوم أو غرامات مالية؛ أو من خلال ما تتضمنه من إجراءات تحفيزية .

- تصحيح نقائص السوق، أو ما يُصطلح على تسميته بفشل السوق.

- إيجاد مصادر مالية جديدة يتم من خلالها إزالة النفايات والحد من التلوث.

- ضمان بيئة صحية لكل أفراد المجتمع، وهذا ما تنص عليه مختلف التشريعات.

- غرس ثقافة المحافظة على البيئة لدى المجتمع.

- وقاية البيئة محلياً وعالمياً من النشاط الإنساني الضار.

- تحقيق الفعالية البيئية والاقتصادية، باعتبار أن الضرائب الكبيرة على التلوث، تؤدي بالمكلف إلى الاتجاه نحو التقليل من التلوث، وبالتالي التقليل من التكاليف التي يتحملها المشروع، مما يؤدي في المدى المتوسط إلى تخفيض الأسعار .

- المساهمة في تحقيق التنمية المستدامة .

- التحفيز والتشجيع على عدم تخزين النفايات الصناعية الخطرة .

- الحد من الأنشطة الخطيرة والمُلوثة للبيئة، باعتبارها أصبحت مُكَلِّفة كثيراً لميزانية الدولة، وهذا بحكم المصاريف الباهضة التي تُدفع للتقليل من آثار هذه الأنشطة .

- تشجيع التطور التكنولوجي والبحث العلمي، فيما يخص آليات ووسائل الحد من التلوث، ولاسيما في المنشآت الصناعية الأكثر تلويث.

ولتحقيق هذه الأهداف، تعتمد الجباية البيئية على جملة من الأدوات أو الإجراءات. وقد صنفت الوكالة الأوربية للبيئة (AEE) الإجراءات الجبائية البيئية بالاستناد على معايير اقتصادية، إلى ما يلي[13]:

✓ **إجراءات تغطية التكاليف:** وتهدف هذه الإجراءات إلى إشراك المستفيدين من الخدمات البيئية

(كتوصيلات الصرف الصحي، شبكات المياه)في تغطية مصاريف المراقبة والمتابعة، وهذا عن طريق تحميلهم جزء من التكاليف.

✓ **إجراءات تحفيزية** :وترمي إلى تعديل السلوك الضار بالبيئة، من دون السعي إلى تحقيق إيرادات .

✓ **إجراءات تمويلية** : وتهدف إلى توفير إيرادات أو مداخيل للحكومات[14]. وتجدر الإشارة إلى أن هذا التصنيف نسبي، فإجراءات تغطية التكاليف أو الإجراءات التمويلية يمكن أن يكون لهما آثار تحفيزية لتعديل السلوك بما يتناسب مع متطلبات الحفاظ على البيئة، كما أن الإجراءات التمويلية -المُرتكزة على ضرائب بيئية يتغلب عليها الجانب التمويلي أكثر من الجانب التحفيزي للحد من التلوث-؛ يمكن تكييفها أكثر فأكثر لتحقيق أهداف بيئية محددة .

والإجراءات الجبائية ذات الأهداف البيئية، يمكن تحليلها على أساس معايير عدة نذكر منها[15]:

❖ الطبيعة الجبائية للإجراء (مقاربة قانونية):

ونميز هنا بين صور الإجراءات الجبائية البيئية والتي قد تتمثل في : ضرائب ورسوم، إتاوات، إعفاءات، قروض ضريبية ،إعانات مباشرة .....الخ. فالضرائب البيئية يرتكز وعاؤها على منتوج أو معدات تُلحِق أضراراً بالبيئة، أما الإتاوات البيئية فترتبط بالدفع مقابل خدمات بيئية مؤداة؛ وتعتبر الضرائب والإتاوات البيئية إجراءات جبائية ردعية أو سلبية؛ في حين أن الإجراءات الجبائية ذات الأثر التحفيزي - وبالنظر إلى تأثيرها على الدخل – تشمل: الإعفاءات الضريبية، التخفيضات، الاهتلاكات الاستثنائية، القروض الضريبية.

❖ **مستوى التحصيل :**

نقصد بمستوى التحصيل، الهيئات التي تسهر على جمع العائدات الجبائية البيئية، عندما يتعلق الأمر بالإجراءات الردعية أو السلبية (كالضرائب والإتاوات البيئية)، بحيث نُراعي في التحليل ما إذا كانت على المستوى البلدي، الجهوي، أم الوطني .

وكما هو الحال بالنسبة للإجراءات الجبائية الردعية، فإن الإجراءات الجبائية التحفيزية،قد تُمنح أيضاً سواء على المستوى المحلي أو الوطني .

وعلى العموم، فان هذا المعيار يهدف إلى بيان موضع السياسة البيئية التي تستند على الجباية، بمعنى هل هي محلية أو وطنية .

❖ **تخصيص الإيرادات :**

يتم التحليل حسب هذا المعيار، بالاعتماد على وجهة الإيرادات الجبائية البيئية،هل هي لصالح ميزانية الدولة، أم لحسابات خاصة، أو لصالح هيئات عمومية أو خاصة.

وبعد استعراضنا لمختلف المفاهيم المرتبطة بالجباية البيئية، سنلقي الضوء فيما يلي على أهم مضامين الإجراءات الجبائية ذات الأهداف البيئية :

2. **الضرائب أو الاقتطاعات البيئية :**

تتمحور الإجراءات الجبائية الردعية، حول الضرائب البيئية التي ترمى إلى استدخال الآثار الخارجية للتلوث[16]، وتعديل سلوك المنتجين أو المستهلكين بما يتماشى وضرورة الحفاظ على البيئة، وهذا من خلال استهداف التقليل أو الحد من التلوث .

وسنحاول من خلال هذا العنصر، القيام بمسح شامل للضرائب البيئية، عبر التطرق إلى مفهومها، أهدافها وأشكالها .

1.2: مفهوم الضرائب البيئية : المصطلح العام الذي سندأب على استعماله هو مصطلح الضرائب البيئية؛ إذ أن هناك من يستعمل مصطلح الضرائب الإيكولوجية، غير أنه لكون مصطلح "الايكولوجي" هو دراسة الوسط، والبيئة هي الوسط في حد ذاته[17]، فإننا نُفضِّل استعمال مصطلح الضرائب البيئية.

وليس من السهولة بمكان الوقوف على تعريف محدد وواضح للضرائب البيئية، إذ تتعدد التعاريف لها بتعدد الزوايا التي يُنظر من خلالها إليها، وهذا ما سيتبين لنا من خلال التعاريف التي سنستعرضها فيما يلي :

* عرف المشرع البلجيكي الضرائب البيئية كما يلي :

الضريبة البيئية هي كل ضريبة تُفرض بمعدل يضمن التخفيض المُعتبر لاستعمال أو استهلاك المنتوجات المضرة بالبيئة، و/ أو إعادة توجيه طرق الإنتاج والاستهلاك نحو مُنتَجات أكثر مواءمة لضرورة الحفاظ على البيئة وحسن استغلال الموارد الطبيعية[18].

*** الضرائب البيئية:** هي عبارة عن حقوق نقدية مُقتطعة من طرف السلطات نظير استعمال البيئة.

ونعني بالسلطات:الحكومات المركزية، الجماعات المحلية، أو أي جهاز إداري سواء كان محلي أو وطني مخول قانوناً. أما عبارة "استعمال البيئة" فنعني بها كل نشاط يؤثر سلباً على البيئة،ولاسيما الأنشطة المُلوثة كقطاع النقل، القطاع الصناعي.....الخ[19].

* الضرائب البيئية هي عبارة عن علاقة اجتماعية تحت غطاء قانوني، تأخذ شكل تحويل نقدي، بين المستعملين للبيئة والدولة – سواء كانت هذه الأخيرة ممثلة بهياكلها المركزية أو المحلية – وهذا نظير استعمالهم أو هدرهم لموارد البيئة.

* تُعرِّف منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية (O.C.D.E) الضرائب البيئية على أنها:مجمل الضرائب المرتبطة بالبيئة، والتي تمتاز عموماً بكونها اقتطاع إجباري بدون مقابل يندرج ضمن وعاء يُهدَف من خلاله حماية البيئة[20].

* اعتبر الديوان الأوربي للإحصاء (Eurostat)، أن الضريبة البيئية هي كل ضريبة يتمحور وعاؤها حول الأضرار البيئية[21].

* المعهد الفرنسي للبيئة (IFEN)، قدم تعريفاً مفاده:

تعتبر ضريبة ما، ضريبة بيئية إذا كان وعاؤها عبارة عن وحدة فيزيائية لها تأثير سلبي- مُبرهن عليه – على البيئة، وسواء تعلق الأمر باستعمال موارد طبيعية أو إنتاج و/أو استهلاك منتجات لها تأثيرات ضارة على البيئة؛ والتأثير السلبي المُبرهن عليه يجب أن يُؤسس على أساس علاقة سببية واضحة بين الوحدة الفيزيائية ومستوى التدهور الحاصل للبيئة[22].

* وغير بعيد عن التعريف السابق، أوردت اللجنة الأوربية (la commission européenne)

التعريف التالي:

كل اقتطاع يُعد بيئي، إذا كان مجال فرضه له آثار سلبية على البيئة.

* حسب الكاتب (benoît jadot) فإن الضرائب البيئية هي عبارة عن اقتطاعات لها علاقة بالسياسات البيئية، من حيث استخدامها كأداة لتحقيق أهداف هذه السياسات، وكذا من حيث استخدامها كوسيلة لتوفير موارد مالية تضمن نجاح هذه السياسات في حد ذاتها[23].

* وهناك من اعتبر أن الضريبة البيئية، تتمثل في الضريبة التي تسمح بإعطاء قيمة نقدية لاستغلال الموارد البيئية، التي غالباً ما يتم استغلالها بالمجان، بحيث نجد أن المُنتجين يُلقُون بنفاياتهم المُلوثة في مختلف عناصر البيئة (ماء، هواء، أرض) دون مقابل[24].

* وبالاستناد إلى الهدف المنشود من فرضها، هناك من عرَّف الضريبة البيئية على أنها:

الضريبة التي تهدف إلى توفير إيرادات مالية يتم تخصيصها لأغراض بيئية من جهة؛ والى تحفيز المنتجين أو المستهلكين للحد من التلوث البيئي من جهة أخرى.

والهدف التمويلي يقتضي أن يكون وعاء الضريبة البيئية واسعاً ومعدل الاقتطاع منخفض ،أما الهدف التحفيزي للحد من التلوث، فيقتضي أن يكون وعاء الضريبة البيئية ضيِّقاً ومعدل الاقتطاع مرتفع[25].

* ويمكن تعريف الضريبة البيئية أيضاً على أنها: اقتطاع إجباري من طرف الدولة، وبدون مقابل، يُحسب على أساس وعاء معين غالباً ما يشتمل على مصادر التلوث، وهذا بُغية الوصول إلى تحقيق أهداف بيئية معينة.

ومجال الضرائب البيئية يرتكز أساساً على الاقتطاعات ذات الصلة بالتلوث، إلا أنه قد يتسع

ليشمل الاقتطاعات التي لها علاقة ببعض طرق تسيير الموارد الطبيعية، كما أن أوعية الاقتطاع غالباً ما تكون:

المنتجات الطاقوية، معدات وخدمات النقل، انبعاثات التلوث – المُقاسة أو المُقدَّرة – سواء في الماء أو الهواء، المُرَكَبات الكيميائية المُستنفذة لطبقة الأوزون، تسيير النفايات، الضوضاء .هذا بالإضافة إلى تسيير المياه، الغابات، ومختلف الموارد الطبيعية[26].

وعلى العموم يمكننا أن نعتبر اقتطاع بيئي، كل اقتطاع له آثار مؤكدة على البيئة، تتميز بكونها أقل وضوحاً (أي غير محددة بدقة) ،غير أنها من دون شك تُعد ايجابية .

2.2 أهداف الضرائب البيئية :

تتمثل الأهداف الأساسية، لتأسيس الضرائب البيئية ضمن المنظومة الجبائية، فيما يلي :

❖ السعي نحو التعديل الايجابي لسلوك الملوثين عن طريق ردعهم مالياً، وهذا حسب درجة تلويثهم وإضرارهم بالبيئة، بحيث كلما زدنا سعر الضريبة، كلما حَفَّزنا الملوثين نحو تبني تقنيات إنتاج أنظف وأكثر احتراماً للبيئة[27].

❖ تحقيق التخصيص الأمثل للموارد، إذ وكما تقدم شرحه في الفصل السابق، فإن الآثار الخارجية للتلوث، تؤدي إلى عدم التخصيص الأمثل للموارد، وإزاء هذا الأمر فان الضريبة البيئية تلعب دور المُصَحِّح، بحيث تكفل إعطاء المؤشرات السعرية

❖ (les signales - prix) الحقيقة، وبالتالي التخصيص الأمثل للموارد[28].

❖ المساهمة في تمويل سياسات حماية البيئة، من خلال زيادة الإيرادات الجبائية التي تُستعمل لتغطية النفقات البيئية؛ ويعد هذا الهدف من بين الأسباب الرئيسية لتأسيس الضرائب البيئية في أغلب الدول، وتـجدر الإشـارة إلى أن تحقيق هذا الهدف، غالباً ما يتم عن طريق فرض ضرائب بيئية، تمس مجالات الطاقة والكربون ومختلف أنواع الوقود.

❖ استعمالها كوسيلة فعالة، لإدماج تكاليف الخدمات والأضرار البيئية مباشرة في أسعار السلع والخدمات، أو في تكاليف الأنشطة المتسببة في التلوث، وهذا تطبيقاً لمبدأ الملوث الدافع، الذي يكفل التكامل بين السياسات الاقتصادية والبيئة الرامية إلى الحفاظ على البيئة ومكافحة التلوث[29].

❖ تحريض المستهلكين والمنتجين على تحسين وتعديل سلوكهم نحو استعمال سليم بيئياً للموارد المتاحة.

❖ تشجيع التجديد التكنولوجي والتحولات الهيكلية في أساليب الإنتاج، وتعزيز احترام التشريعات الخاصة بحماية البيئة.

❖ تحميل المُلوث نصيبه من نفقات حماية البيئة، وهذا من خلال تصميم ضرائب بيئية تضمن تغطية تكاليف السياسة البيئية، أما جزئياً أو كلياً[30].

❖ المساهمة في محاربة المصادر الصغيرة للتلوث مثل: النفايات، المواد الكيماوية المستعملة في الفلاحة سواء كانت أسمدة أو مبيدات.

❖ المساهمة في تجسيد مفهوم التنمية المستدامة، فالبعض من المختصين يعتبرون أو يسمون الضرائب البيئية بـ "جباية التنمية المستدامة ".

3.2 أشكال الضرائب البيئية :

تنطوي الضرائب البيئية على أشكال عديدة، تهدف في مجملها إلى الحد من التلوث البيئي والاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية، وفيما يلي سنستعرض مختلف هذه الأشكال:

أ). الضرائب على الإنبعاثات المُلوثة: les taxes sur les émissions polluants

هذا النوع من الضرائب البيئية هو عبارة عن اقتطاع نقدي يتناسب مع حجم الإنبعاثات الفعلية أو المُقَدرة، التي يتم صرفها سواء في الهواء أو الماء أو الأرض، ويُنصح باعتماد هذا النوع من الضرائب في حالة ما إذا كانت مصادر الإنبعاثات ثابتة، وهذا لأجل تسهيل عمليات المراقبة والتسيير على الصعيد الإداري[31].

وينطوي هذا النوع من الضرائب البيئية على نجاعة بيئية (eco- efficience) معتبرة، ذلك لأنه يطال المُلوثات أو الإنبعاثات في حد ذاتها (كانبعاث الكبريت مثلاً)[32]. وتُفرض الضرائب على الإنبعاثات المُلَوِثَة في حالة إمكانية قياس أو تقدير هذه الإنبعاثات من جهة، وحساب التكاليف الحدية للأضرار من جهة أخرى .

- وكما هو معلوم فان الآثار الجانبية الضارة، للإنبعاثات الملوثة الناجمة عن مختلف الأنشطة الاقتصادية، لا تنعكس ضمن أسعار السلع والخدمات، لهذا فان الضرائب التي تطال مباشرة هذه الإنبعاثات كفيلة بتصحيح هذا الوضع، وعادة ما تكون الاقتطاعات الضريبية المفروضة على انبعاثات التلوث – سواء في الهواء أو في الماء – متناسبة مع مستويات هذه الإنبعاثات، بحيث كلما زاد حجم هذه الأخيرة، كلما زاد مستوى الاقتطاع الضريبي – والعكس صحيح -، الأمر الذي يُحفِّز الملوثين لتخفيض إنبعاثاتهم المُلوثة، بغية التقليل من نسب الضرائب المدفوعة، مما يؤدي قطعاً إلى تخفيض نسب التلوث[33].

ولفرض هذا النوع من الضرائب، لابد من توافر إمكانيات تقنية وتكنولوجية معتبرة، ناهيك عن الخبرات والكفاءات البشرية المتخصصة في مجال التحديد النوعي والقياس الكمي للتلوث، وهذا ما يجعل الدول النامية في موقف ضعيف تُجاه فرض هذا النوع من الضرائب الذي يطال الإنبعاثات المُلوثة مباشرة .

ومن أمثلة الضرائب على الإنبعاثات الملوثة، مايلي[34]:

-الضرائب على مُلوِثات الهواء

(SO_2، NO_X، CO، CFC .....الخ)، والتي تُفرض بالتناسب مع حجم انبعاث هذه المُلوثات ومع حجم الأضرار الناشئة عنها .

-الضرائب على الضوضاء، والتي تُفرض حسب حجم الضوضاء الواقعة، وكذا حسب نوع المصدر (مصدر الضوضاء).

هذا ونشير إلى أن هناك من يُفضِّل تسمية الضرائب على الإنبعاثات الملوثة، بالضرائب البيغوفية (نسبة إلى العالم Pigou الذي يعد أول من تكلم عن إستدخال الآثار الخارجية للتلوث عبر الضرائب)، وذلك لكونها تمس المُلَوثات مباشرة، مما يكفل إستدخال الآثار الخارجية

وتصحيح فشل السوق بنجاعة أكبر.

ب) **<u>الضرائب على المُنتجات</u>** : les taxes sur les produits

إذا كان إنتاج بعض المنتجات أو التخلص منها، يُفرز أضراراً بالغة على الصحة أو نفايات وملوثات، فإن هذه المنتجات يمكن التقليل منها، عبر فرض ضريبة عليها[35].

وتحل الضرائب البيئية على المنتجات محل الضرائب على الإنبعاثات الملوثة، إذا تعذر فرض هذه الأخيرة مباشرةً، كما أن الضرائب البيئية على المنتوج تُستعمل بشكل أكبر لتصحيح الآثار الخارجية .

أكثر من استعمالها للحد من التلوث . ومن الممكن أن تستهدف هذه الضريبة بعض أنواع المنتجات التي تضم عناصر مُلَوثة أو سامة، كما من الممكن أن تُفرض في شكل ضرائب على إستهلاك منتجات معينة، وهذا بغية التقليل من استهلاك هذه المنتجات أو التحفيز نحو إستهلاك منتجات أخرى بديلة[36].

وإلى جانب الحد من إستهلاك المنتجات الملوثة، تؤدي الضرائب البيئية من هذا النوع إلى توفير إيرادات جبائية، يرتبط حجمها بدرجة المرونة السعرية المتعلقة بهذه المنتجات محل فرض الضريبة، بحيث إذا كان الطلب على هذه المنتجات غير مرن، فإن الضريبة البيئية على المنتوج يمكن أن تُحصِّل إيرادات مالية معتبرة، إلا أن تأثيرها البيئي يكون أقل، أما إذا كان الطلب على هذه المنتجات يتسم بالمرونة لتغيرات السعر، فإن هذا سيؤدي لا محالة إلى التقليل من إستعمال هذه المنتجات – بعد فرض الضريبة البيئية - ما يعني تحقيق فعالية بيئية أكبر، وحجم إيرادات مالية أقل، والضريبة البيئية على المنتوج،

يجب أن تأخذ بعين الإعتبار إمكانية اللجوء إلى المُنتجات البديلة للمنتجات الأصلية محل فرض الضريبة، بحيث إذا كانت هذه المنتجات البديلة، تنطوي هي الأخرى على أضرار بيئية، فإنه لا جدوى من فرض الضرائب البيئية على المنتجات أصلاً؛ أما إذا كانت المنتجات البديلة للمنتجات الأصلية موائمة أو مُفضَّلة بيئياً، فإن فرض هذا النوع من الضرائب البيئية سيتسم بالنجاعة البيئية، ذلك لأنه سيؤدي إلى إحلال المنتجات البديلة المفضلة بيئياً، محل المنتجات المُضرة بالبيئة[37]. وينسحب هذا التحليل على الضرائب المفروضة على البنزين بحيث نجد أنه يتم- في أغلب الدول – فرض ضرائب كبيرة على البنزين المتضمن للرصاص، بغية تحفيز اللجوء نحو استعمال البديل الأخر له، وهو البنزين بدون رصاص . وتجدر الإشارة إلى أن الضريبة البيئية على المنتوج مقارنة بالضريبة البيئية على الإنبعاثات الملوثة، تحتاج إلى حجم معلومات أقل فيما يخص آليات وميكانيزمات فرضها، كما تنطوي على تكاليف إدارية متواضعة، مما يجعل إمكانيات فرضها في الدول النامية كبيرة .

ومن أمثلة الضرائب البيئية على المنتوج، ما يلي[38]:

-الضريبة على المحتوى الكربوني لمختلف أنواع الوقود الأحفوري (ضريبة الكربون).

-الضريبة على المركبات العضوية الطيارة

(les composés organiques volatils) الناجمة عن اشتعال بعض أنواع المحروقات مثل : البروبان، البنزول ...الخ .

- الضريبة على زيوت التدفئة أو بالأحرى على محتواها من الكبريت، الذي يؤدي عند اشتعاله إلى توليد غاز أوكسيد الكبريت الضار .

- الضريبة على مساحيق الغسيل المُتضمِّنة لعنصر الفوسفاط .

- الضريبة على الأسمدة والمبيدات الكيمياوية، التي تستهدف محتوى هذه الأخيرة من الفوسفاط أو النترات .

ج) الإتاوات على الخدمات المؤداة: les redevances pour les services rendus

تمثل الإتاوات أو حقوق الاستعمال المقابل النقدي للإستفادة من خدمات بيئية معينة، مثل التوصيل بشبكة المياه الصالحة للشرب، الصرف الصحي، جمع النفايات والتخلص منها، معالجة مياه الصرف الصناعي.

ومن حيث المبدأ، فإن عائدات إتاوات أو حقوق الاستعمال لا تدخل ضمن الميزانية العامة للدولة، ذلك لأنها تهدف في المقام الأول إلى تغطية التكاليف الحقيقية لأداء هذه الخدمات بالموازاة مع ضمان حماية للبيئة بشكل أفضل، لهذا فغالباً ما يتم تخصيص هذه الإيرادات لصالح الهيئات والمؤسسات المُقدِمة لهذه الخدمات.

وإلى جانب تغطية التكاليف الحقيقية لأداء الخدمات، تهدف الإتاوات أو حقوق الإستعمال إلى تشجيع الإستغلال العقلاني للخدمات المؤداة، فتسعير مناسب – على سبيل المثال – للمياه الصالحة للشرب أو للكهرباء، يؤدي إلى ترشيد الإستغلال وتجنب التبذير .

وتعد الإتاوة على جمع ومعالجة الفضلات، الأكثر تطبيقاً في العديد من الدول، وهي تتطلب حتى تكون فعالة، الأخذ بعين الإعتبار للحجم الفعلي للنفايات، وكذا لبعض العوامل النوعية، كتركيز المواد السامة التي قد تتواجد ضمن هذه النفايات[39].

د) الضرائب على استغلال الموارد الطبيعية : Les taxes sur l'exploitation des ressources naturelles

تُوفِّر الموارد الطبيعية العديد من المواد الأولية التي تستعمل في مختلف الأنشطة، وهي غالباً ما تكون مملوكة من طرف الدولة التي تعطي حقوق الاستغلال أو عقود الإمتياز لشركات عامة أو خاصة تقوم بالإستغلال التجاري لهذه الموارد، التي قد تشمل الموارد المتجددة كالغابات والثروة السمكية أو الموارد غير المتجددة كالبترول والمعادن[40].

والتسيير الراشد لهذه الموارد يعتبر عامل مهم للنمو الإقتصادي المستدام الذي يراعي جانب الحد من

التلوث، لهذا فإنه يمكن تكييف الضرائب على الإستغلال التجاري للموارد الطبيعية، لتحقيق أهداف بيئية إلى جانب الأهداف الإقتصادية، كأن يتم فرض ضرائب كبيرة على الطرق الإستغلالية – للموارد الطبيعية – الأكثر تلويث، وهذا بغية تحفيز الشركات المستغلة نحو تبني طرق إنتاج أو استغلال أقل تلويث.

3. **الحوافز الضريبية في مجال الحد من التلوث :** يُقصد بالحوافز الضريبية ذات البعد البيئي، كل سياسة ضريبية تعمل على تحقيق أهداف بيئة لصالح المجتمع من خلال توجيه الإستثمارات نحو المجالات التي تُسهم في تخفيض درجة تلوث البيئة، مما يؤدي بشكل أو بآخر إلى تعديل سلوك الأفراد والمنشآت ايجابياً تُجاه البيئة .

ويمكن عملياً، منح العديد من الحوافز الضريبية، لأجل تشجيع الإستثمارات البيئية أو تحفيز الملوثين على تبني سياسات بيئية حمائية، وعليه فإن الاتجاه العام لهذه الحوافز غالباً ما يتمثل في[41]:

1.3- الحوافز الضريبية الموجهة لتشجيع إنشاء قطاع خاص لحماية البيئية: يُعنى بإنتاج معدات مكافحة التلوث أو تقديم خبرات فنية وتقنية لذلك، أو القيام بأنشطة النظافة ومعالجة التلوث، كما هو الحال عليه في أغلب الدول الصناعية، والحوافز الضريبية في هذا الصدد، من الممكن أن تكون - على سبيل المثال – على شكل إعفاء جزئي أو كلي من الضرائب على الأرباح أو الأرباح المُعاد استثمارها (les bénéfices réinvestis)، الإعفاء من حقوق التسجيل؛ كما يمكن أن يكون الإعفاء في صورة الاستبعاد أو الاستثناء من مجال تطبيق الرسم على القيمة المضافة (TVA)، وهذا فيما يخص المنتجات أو الخدمات ذات الطابع البيئي .

2.3-**الحوافز الضريبية:** الموجهة لتشجيع القطاعات الصناعية على التجهيز بمعدات الحد من التلوث:

وفي هذا الصدد، فإن إجراءات الإعفاء من الرسم على القيمة المضافة، والرسوم الجمركية وكذا الترخيص بنظام الإهتلاك المتسارع لهذه المنتجات تُعد اجراءت جبائية ناجعة .

مما سبق، يتبين لنا أن الحوافز الضريبية مؤهلة لأن تلعب دوراً فاعلاً في مجال الحد من التلوث البيئي، وهذا لكونها تُعتبر أداة تشجيع وتوجيه للأنشطة المرتبطة بهذا المجال، والتي قد تتمثل في أنشطة اقتناء أو إنتاج أجهزة أو معدات أو آلات تساعد في تدنية درجة التلوث، أو الأنشطة العاملة في مجال النظافة ولاسيما ما يرتبط منها بإنتاج مواد التنظيف . وتشجيع هذه الأنشطة يكون عبر استفادتها من معاملة ضريبية تمييزية، تتمثل في منحنها اعفاءاً ضريبياً للأرباح المحققة لمدة معينة أو إعفاء منتجاتها من ضريبة المبيعات وغيرها، أو السماح لها بخصم أقساط اهتلاك إضافية – لتخفيض الوعاء الخاضع للضريبة – أو تخفيض سعر الضريبة التي تخضع لها هذه الأنشطة .

ولضمان فعالية الحوافز الضريبية في مجال الحد من التلوث، فإنه يمكن ربطها بعدد من العوامل على النحو التالي[42]:

أ-يمكن ربطها بنوع النشاط المرغوب فيه، والنشاط المقصود هنا هو الذي يعمل في مجال الحد من التلوث وحماية البيئة .

ب-يمكن ربطها بالموقع الذي سيقام فيه المشروع، كأن يُقام المشروع أو النشاط في مناطق بعيدة عن التجمعات السكانية، مما يؤدي إلى تخفيف أضرار التلوث بشكل عام، وتخفيض درجة التلوث في المناطق المكتظة بالسكان بشكل خاص .

ج- يمكن ربطها بإعادة استثمار الأرباح المحققة في المشروعات البيئية، وبالتالي يكون هناك ضمان لاستمرار هذه المشروعات البيئية وزيادة درجة تخفيض التلوث بإستمرار .

ثالثاً: الجباية البيئية الجزائرية – الواقع والآفاق -

:إن تطوير الجباية البيئية في الجزائر، جاء كاستجابة لمتطلبات حماية البيئة، أي الحد من أضرار التلوث البيئي، وكذا لتحقيق مفهوم التنمية المستدامة. والإجراءات الجبائية ذات الأهداف البيئية المطبقة في الجزائر، ترتكز أساساً على الإجراءات الردعية (الرسوم البيئية)، بحيث تم عبر قانون المالية لسنة

1992، استحداث أول رسم بيئي، تمثل في الرسم على الأنشطة المُلوثة أو الخطيرة على البيئة [43](T.A.P.D)، ليتم بعد ذلك في سنوات: 2000، 2002، 2003، 2004، 2006؛ تعديل معدلات الرسم على الأنشطة الملوثة أو الخطيرة على البيئة

(سنة 2000)، بما يجعلها أكثر تحفيزاً للحد من التلوث؛ وكذا تأسيس رسوم بيئية جديدة

(سنوات 2002، 2003،2004و2006). وسنحاول من خلال هذا المحور استعراض مضمون الجباية البيئية الجزائرية.

1. الرسم على الأنشطة الملوثة أو الخطيرة على البيئة (T.A.P.D)

شهد تفعيل هذا الرسم، مرحلتين أساسيتين: مرحلة التأسيس الأولي ثم مرحلة التشديد.

1.1 مرحلة التأسيس الأولي:

بموجب المادة 117 من القانون رقم 91-25 المتضمن قانون المالية لسنة 1992، تم تأسيس رسم على الأنشطة الملوثة أو الخطيرة على البيئة، بالمعدلين السنويين التاليين:[44]

-3000 دج بالنسبة للمنشآت المصنفة الّتي لها نشاط واحد على الأقل خاضع لإجراء التصريح.

-30.000 دج بالنسبة للمنشآت المصنفة الّتي لها نشاط واحد على الأقل خاضع لإجراء الترخيص.

أما بخصوص المنشآت الّتي لا تُشغِّل أكثر من شخصين، فينخفض معدل الرسم إلى 750 دج بالنسبة للمنشآت المصنفة الخاضعة للتصريح وإلى 6000 دج بالنسبة للمنشآت المصنفة الخاضعة للترخيص.

والمؤسسات المصنفة الخاضعة للترخيص هي تلك المؤسسات الّتي يؤدي نشاطها الاستغلالي إلى أخطار ومساوئ، قد تكون لها آثار سلبية على الصحة العمومية، النظافة والأمن، الفلاحة، حماية الطبيعة والبيئة، المحافظة على الآثار والمعالم التاريخيّة وكذلك المناطق السياحيّة؛ أما المؤسسات الخاضعة للتصريح فهي الّتي لا تشكل خطراً بالغاً على المجالات المذكورة آنفاً.

كما نصت هذه المادّة أيضاً، على أن يرتبط تطبيق هذا الرسم بمعامل مضاعف يتراوح بين 1 و6 على كل نشاط من هذه النشاطات، وهذا حسب طبيعتها وأهميتها.

ويُحصَل مبلغ الرسم من قبل قابض الضرائب المختلفة للولاية، على أساس تِعداد المنشآت المعنية التي تُقدمها المصالح المكلفة بقطاع البيئة؛ ويضاعف مبلغ الرسم بنسبة 10%، إذا لم يتم تسديد المبالغ المستحقة في الآجال المعنية.

كما تطبق غرامة، تحدد نسبتها بضعف مبلغ الرسم، على مالك المنشأة الّذي يمتنع عن تقديم المعلومات الضرورية أو يعطي معلومات خاطئة، فيما يخص تحديد نسبة الرسم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ناتج هذا الرسم يُخصص كلية لصالح الصندوق الوطني للبيئة وإزالة التلوث (FEDEP)[45]، كما أن هذا الرسم لم يعرف التطبيق الفعلي إلا إبتداءًا من سنة 1994.

وحسب اعتقادنا، فإن تأسيس هذا الرسم لم يتم على أسس سليمة، وذلك لأن أساسه فرضه يرتكز على طبيعة المنشأة المصنفة وليس على درجات التلوث والأضرار الناتجة عنه.

والملاحظ أن التطبيق الأولي للرسم على الأنشطة الملوثة أو الخطيرة على البيئة، تم بمعدلات ضعيفة، لا تُمكّن من فرض أثر تحفيزي فعال للخفض من التلوث، الأمر الّذي حذا بالمشرع إلى التشديد أكثر في فرض هذا الرسم. وهذا ما سيتضح لنا في المرحلة الموالية.

2.1-مرحلة التشديد في فرض الرسم :

بموجب المادة 54 من القانون رقم 99-11 المؤرخ في 23 ديسمبر 1999 والمتضمن قانون المالية لسنة 2000، تم رفع المعدلات السنوية للرسم على الأنشطة الملوثة أو الخطيرة على البيئة؛ كما تم تصنيف المنشآت المُلوثة إلى نوعين هما:

أ) المنشآت الخاضعة قبل انطلاقها للتصريح المسبق من رئيس المجلس الشعبي البلدي المختص إقليمياً.

ب)المنشآت الخاضعة لترخيص مسبق سواء من الوزير المكلف بالبيئة أو الوالي المختص إقليمياً أو رئيس المجلس الشعبي البلدي المختص إقليمياً.

وقد حُدِّدت المعدلات السنوية الجديدة لهذا الرسم كما يلي:

-9000 دج، بالنسبة للمنشآت المصنفة الّتي تخضع أحد أنشطتها على الأقل للتصريح.

-20000 دج، بالنسبة للمنشآت المصنفة الّتي تخضع أحد أنشطتها على الأقل لترخيص من رئيس المجلس الشعبي البلدي.

-90000 دج، بالنسبة للمنشآت المصنفة الّتي تخضع أحد أنشطتها على الأقل لترخيص من الوالي المختص إقليمياً.

-120000 دج، بالنسبة للمنشآت المصنفة الّتي يخضع نشاط واحد منها على الأقل لترخيص من الوزير المكلف بالبيئة.

أما فيما يخص المنشآت الّتي لا تُشغِّل أكثر من شخصين، فتنخفض معدلات الرسم إلى:

-2000 دج، بالنسبة للمنشآت المصنفة الخاضعة للتصريح.

-3000دج، بالنسبة للمنشآت المصنفة الخاضعة لترخيص من رئيس المجلس الشعبي البلدي.

-18000دج، بالنسبة للمنشآت المصنفة الخاضعة لترخيص من الوالي.

-24000دج، بالنسبة للمنشآت المصنفة الخاضعة لترخيص من الوزير المكلف بالبيئة.

2. الرسوم المرتبطة بالنفايات الصلبة :

1.2-رسم رفع القمامات المنزلية (T.E.O.M):

تمت زيادة معدلات هذا الرسم من خلال قانون المالية لسنة 2002 – بغية تفعيل مبدأ الملوث الدافع وتغطية تكاليف تسيير النفايات-على النّحو الآتي:46

-ما بين 500دج و1000دج عن كل محل ذي استعمال سكني.

-ما بين 1000دج و10000دج عن كل محل ذي استعمال مهني أو تجاري أو حرفي أو ما شابهه.

-مابين 5000دج و20000 دج على كل أرض مهيأة للتخييم والمقطورات.

-ما بين 10000 دج و100000دج على كل محل ذي استعمال صناعي أو تجاري أو حرفي أو ما شابهه، يُنْتِج كمية من النفايات تفوق الأصناف المذكورة أعلاه.

ويتم تحديد هذه الرسوم وتطبيقها على مستوى كل بلدية بقرار من رئيس المجلس الشعبي البلدي، بناءاً على مداولة المجلس الشعبي البلدي، وبعد استطلاع رأي السلطة الوصية.

كما أُوكِلَت- إبتداءاً من أول يناير 2005 – عملية التصفية والتحصيل والمنازعات المتعلقة برسم رفع القمامات المنزلية إلى المجالس الشعبية البلدية.

2.2- الرسم التحفيزي على عدم تخزين النفايات المرتبطة بأنشطة العلاج في المستشفيات والعيادات الطبية:

أسس قانون المالية لسنة 2002، رسماً للتشجيع على عدم تخزين النفايات الإستشفائية المرتبطة بأنشطة العلاج في المستشفيات والعيادات الطبيّة؛ وهذا بسعر مرجعي قدره 24000دج عن كل طن من النفايات المخزونة.

ويتم ضبط الوزن المعني وفقا لقدرات العلاج وأنماطه في كل مؤسسة معنية، أو عن طريق القياس المباشر؛ أما بالنسبة لحاصل الرسم، فيُوزع على النّحو التّالي47:

-10 % لفائدة البلديات.

- 15% لفائدة الخزينة العمومية.

-75% لفائدة الصندوق الوطني للبيئة وإزالة التلوث.

وقد تم منح مهلة 03 سنوات للمستشفيات والعيادات الطبيّة، للتزود بتجهيزات الترميد الملائمة أو حيازتها.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الرسم، يهدف إلى تحفيز المستشفيات، العيادات، ومراكز العلاج الأخرى على تخفيض كميات النفايات المُعْدِية والمُلَوِّثة كيميائياً، وهذا نظراً للأخطار الكبيرة الّتي تنجر عنها.

3.2-الرسم التحفيزي على عدم تخزين النفايات الصناعية الخاصة و/ أو الخطيرة:

نص قانون المالية لسنة 2002، على تأسيس رسم لتشجيع عدم تخزين النفايات الصناعية، وحدَّد مبلغه بـ 10500دج عن كل طن مخزون من النفايات الصناعية الخاصة و/ أو الخطيرة.

وتُخصص نواتج هذا الرسم، كما يلي:[48]

-10% لفائدة البلديات.

- 15% لفائدة الخزينة العمومية.

-75% لفائدة الصندوق الوطني للبيئة وإزالة التلوث.

ويدخل هذا الرسم التحفيزي حيِّز التنفيذ بعد مهلة 03 سنوات من تاريخ الانطلاق في تنفيذ مشروع مُنشأة إزالة النفايات.

4.2- الرسم على الأكياس البلاستيكية:

تم استحداث هذا الرسم، بموجب قانون المالية لسنة 2004، ويضم وعاؤه جميع الأكياس البلاستيكية- سواء المنتجة محلياً أو المستوردة من الخارج-وقد حُدِّدَ مبلغه بـ 10.5 دج للكيلوغرام الواحد.

ويُدْفَع حاصل هذا الرسم كليةً، لحساب التخصيص رقم 065-302 الّذي عنوانه الصندوق الوطني للبيئة وإزالة التلوث49.

5.2- الرسم على العجلات المطاطية[50]:

تم بموجب قانون المالية لسنة 2006، تأسيس رسم على العجلات المطاطية الجديدة، سواء المستوردة من الخارج أو المنتجة محلياً، وهذا بالمبالغ التالية:

-10دج للعجلة المُستعملة في المركبات الثقيلة.

-5دج لكل عجلة تستعمل في المركبات الخفيفة.

ويتم توزيع حاصل هذا الرسم على النّحو الآتي:

-10% لصالح الصندوق الوطني للتراث الثقافي.

-15% لصالح الخزينة العمومية.

-25% لصالح البلديات.

-50% لصالح الصندوق الوطني للبيئة وإزالة التلوث (FEDEP).

3. الرسوم المرتبطة بالإنبعاثات الجوية الملوثة

1.3- الرسم التكميلي على التلوث الجوي ذو المصدر الصناعي:[51]

بُغية الحد من التلوث الجوي ذو المصدر الصناعي، تم – بموجب قانون المالية لسنة 2002- تأسيس رسم تكميلي على الكميات المنبعثة من المنشآت المصنفة والّتي تتجاوز العتبة القانونية المسموح بها للتلوث. ويُحسب مبلغ هذا الرسم بالاعتماد على المعدلات الأساسية للرسم على الأنشطة الملوثة أو الخطيرة على البيئة T.A.P.D – المشار إليها سابقاً-.

كما تتم زيادة مبلغ هذا الرسم، بالاستناد على معامل مضاعف يتراوح بين 1 و5، وهذا تبعاً لمعدل تجاوز حدود القيم.

ويُخصص ناتج هذا الرسم كما يأتي:

-10% لفائدة البلديات.

-15% لفائدة الخزينة العمومية.

-75% لفائدة الصندوق الوطني للبيئة وإزالة التلوث.

2.3- الرسم على الوقود:

تم استحداث هذا الرسم لأول مرّة، بموجب قانون المالية لسنة 2002؛ بحيث كان يُقدر مبلغه بـ 1دج لكل لتر من البنزين محتوي على الرصاص، سواء كان عادي أو ممتاز[52]، إلاّ أنّه وبموجب قانون المالية لسنة 2007، تم تخفيض معدل هذا الرسم، وهذا على النّحو الآتي:53

-بنزين بالرصاص (عادي أو ممتاز): 0.10 دج لكل لتر.

-غاز أويل: 0.3 دج لكل لتر.

ويُقْتَطَع ناتج هذا الرسم ويُعَاد دفعه، كما هو الحال بالنسبة للرسم على المنتوجات البترولية (T.P.P) بحيث تُوكل مهمة تحصيله ودفعه إلى شركة نافطال (N.A.F.T.A.L)، وهذا بالاستناد على كميات البنزين الّتي تم توزيعها من طرف هذه الشّركة54.

أما حصيلة هذا الرسم، فتخصص على النّحو الآتي:

-50 % لحساب التخصيص الخاص رقم 100-302 الّذي عنوانه الصندوق الوطني للطرق والطرق السريعة.

-50 % لحساب التخصيص رقم 065-302 الّذي عنوانه الصندوق الوطني للبيئة وإزالة التلوث.

4. الرسوم المرتبطة بالتدفقات السائلة المُلَوِثة :

1.4- الرسم التكميلي على المياه المستعملة ذات المصدر الصناعي[55]:

تم بموجب قانون المالية لسنة 2003، إنشاء رسم تكميلي على المياه المستعملة ذات المصدر الصناعي؛ وهذا وفقاً لحجم المياه المُنتَجة وعبء التلوث الناجم عن النشاط الّذي يتجاوز حدود القيم المحددة.

ويُحدَّد مبلغ هذا الرسم بالرجوع إلى المعدل الأساسي السنوي للرسم على الأنشطة المُلوثة أو الخطيرة على البيئة، ومعامل مضاعف يتراوح بين 1 و5 تبعاً لمعدل تجاوز حدود القيم المسموح بها.

أما حاصل هذا الرسم، فيخصص على النّحو التّالي:

-50% لفائدة الصندوق الوطني للبيئة وإزالة التلوث.

-20% لفائدة ميزانية الدولة.

-30% لفائدة البلديات.

2.4- الرسم على الزيوت والشحوم وتحضير الشحوم: 56

أنشأ قانون المالية لسنة 2006، رسم على الزيوت والشحوم وتحضير الشحوم، يُحدَّد بـ 12500دج عن كل طن مستورد أو مصنوع داخل التراب الوطني، والّذي ينجم عن استعماله زيوت مستعملة.

أما مداخيل هذا الرسم، فتتوزع على النّحو الآتي:

-15% لصالح الخزينة العمومية.

-35% لصالح البلديات.

-50% لصالح الصندوق الوطني للبيئة وإزالة التلوث.

5. الإجراءات الجبائية التحفيزيّة في مجال الحد من التلوث :

لم ينص المشرع الجزائري- صراحة- من خلال قوانين المالية، على أي إجراءات جبائية تحفيزية لصالح الاستثمار في مجال الحد من التلوث وحماية البيئة، وهذا على النقيض من بعض المواد القانونية المُندرِجة ضمن التشريعات البيئية المختلفة، والّتي تنص على ضرورة إيلاء الحوافز المالية أهمية قُصوى في مجال حماية البيئة والحد من التلوث، وهذا كنص: المادة 76 من قانون حماية البيئة في إطار التنمية المستدامة والّذي مفاده:" تستفيد من حوافز مالية وجمركية تحدد بموجب قانون المالية، المؤسسات الصناعية الّتي تستورد التجهيزات الّتي تسمح في سياق صناعتها أو منتوجاتها، بإزالة أو تخفيف ظاهرة الاحتباس الحراري، والتقليص من التلوث في كل أشكاله"[57].

ونص المادة 77 من القانون ذاته، والّتي مفادها58:" يستفيد كل شخص طبيعي أو معنوي يقوم بأنشطة ترقية البيئة من تخفيض في الربح الخاضع للضريبة. ويحدد هذا التخفيض بموجب قانون المالية"[59].

ومن منظور عام، فإن الإجراءات التنظيمية المنصوص عليها في القانون رقم 01-03 المرتبط بتشجيع وتطوير الاستثمار؛ تُعد مكسب كبير لصالح تحفيز الاستثمار الخاص، ولاسيما في مجال حماية البيئة، وهذا عبر الحوافز الجبائية والشبه الجبائية المتعددة الممنوحة من طرف الدولة بواسطة الوكالة

الوطنية لتطوير الاستثمار (A.N.D.I)، الّتي تم إنشاؤها خصيصاً لهذا الغرض.

وتوجهات المستثمرين المسجلة من طرف الوكالة الوطنية لتطوير الاستثمار، فيما يخص المجال البيئي، تتعلق أساساً بمجال تسيير النفايات الحضرية الصلبة، ولاسيما جمع القمامات المنزلية، أين تم تسجيل 14 مشروع (50% من هذه المشاريع متواجدة في النسيج الحضري لمدينة الجزائر العاصمة)؛ وكذا مشاريع استرجاع وتدوير النفايات، أين تم تسجيل 28 مشروع (25 % من هذه المشاريع متمركزة في مدينة الجزائر العاصمة)[60].

وبالرّغم من الإجراءات التحفيزية الممنوحة من طرف (A.N.D.I)، إلاّ أنّ عدد المشاريع المسجلة في المجال البيئي، لا يزال ضعيفاً، ولاسيما فيما يخص المشاريع المتعلقة بجمع ونقل النفايات.

ويرجع السبب في ذلك، لعوامل عديدة أهمها الوضعيات المالية الصعبة الّتي تشهدها معظم البلديات، وكذا العوائق المصاحبة لعروض المناقصة، والّتي تحد من عمليات توكيل الخواص فيما يخص خدمات جمع ونقل النفايات.

أما سوق استرجاع وتدوير النفايات فهو أكثر ديناميكية، ويتعلق أساساً بالورق، البلاستيك والمعادن، كما أنّه لا يضم مشاريع مرتبطة بتثمين النفايات ذات التحلل العضوي المستعملة في إنتاج السماد العضوي، وهذا نظراً لنقص التوعية والتحسيس في هذا المجال.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الاستثمارات البيئية المنجزة في إطار الوكالة (A.N.D.I) – سواء تعلقت بعمليات جمع ونقل النفايات أو عمليات الاسترجاع والتدوير- تخضع للنظام العادي، ولا تستفيد من الإجراءات التحفيزية المعتبرة الممنوحة في إطار النّظام الاستثنائي والتي من بينها: الإعانات، الإعفاءات الجبائية الممنوحة في إطار النظام الاستثنائي والمتعلقة بمرحلة الاستغلال.

كما أن المؤسسات الصغيرة (MICRO-ENTREPRISE) العاملة في المجال البيئي، تستفيد هي الأخرى من مساعدات مالية وإجراءات تحفيزية مختلفة بموجب المرسوم الرئاسي رقم 96-234 الصادر في جويلية 1996، والمتعلق بدعم تشغيل الشباب عن طريق تقديم حوافز متعددة وإعانات مالية من الموارد المالية الّتي يتم تخصيصها من ميزانية الدولة لصالح الصندوق الوطني لدعم تشغيل الشباب، وهذا كله في إطار برنامج القروض الّتي يتم تسييرها من طرف الوكالة الوطنية لدعم تشغيل الشباب (A.N.S.E.J).

وكما هو الحال عليه في وكالة تطوير الاستثمار (A.N.D.I)، فإن المشاريع الاستثمارية ذات التوجه البيئي، المستفيدة من الحوافز المقدمة في إطار الوكالة الوطنية لدعم تشغيل الشباب، تتركز هي الأخرى في مجال تسيير النفايات المنزلية، بحيث تم تسجيل 36 مشروع فيما يخص جمع ومعالجة القمامات المنزلية، و63 مشروع فيما يخص الاسترجاع وإعادة التدوير للنفايات[61].

والواقع، أن المشاريع البيئية الممولة في إطار الوكالة الوطنية لتطوير الاستثمار أو الوكالة الوطنية لدعم تشغيل الشباب، والمرتبطة أساساً بمجال تسيير النفايات والقمامات المنزلية، لا تستفيد من اعتمادات مالية معتبرة، مما يجعل أداءها ضعيفاً وغير متوافق مع متطلبات تسيير قطاع النفايات الحضرية، ولاسيما في المدن الكبرى ذات الكثافة السكانية العالية، الّتي تتطلب استثمارات أكثر اتساعاً في هذا المجال.

وعلى العموم، فإنّ محدودية الحوافز الاستثمارية الممنوحة في المجال البيئي، من طرف وكالتي A.N.D.I وA.N.S.E.J، يمكن استدراكها عن طريق منح حوافز أكثر فعالية في هذا المجال، وهذا بالتنسيق مع الصندوق الوطني للبيئة وإزالة التلوث (FEDEP) ووزارة المالية، لأجل توفير جميع الظروف المساعدة على نجاح الأنشطة والمشاريع المرتبطة بالحد من التلوث وحماية البيئة.

كما أن متطلبات دعم المشاريع الاستثمارية في المجال البيئي، تقتضي من جهة، توسيع مجال نظام الحوافز الاستثنائية المُعتَمد من طرف الوكالة الوطنية لتطوير الاستثمار، لكي يشمل مختلف أنواع وأشكال

الاستثمارات البيئية- ولاسيما ما ارتبط منها بالاستثمار في مجال معدات مكافحة التلوث -؛ ومن جهة أخرى، زيادة الإعتمادات المالية المُخصصة للصندوق الوطني لدعم تشغيل الشباب.

6. الآفاق المستقبلية للجباية البيئية في الجزائر:

بالنسبة للآفاق المستقبلية للجباية البيئية الجزائرية، فهي ستكون بدون شك واعدة على الصعيد البيئي، إذا ما تم توسيع المجالات البيئية التي تطالها من جهة، والاعتماد على التجسيد الفعلي لمبدأ المُلوث الدافع من جهة أخرى. وعلى العموم، فإن تفعيل الجباية البيئية الجزائرية مستقبلاً، يقتضي الاهتمام بمزيد من الإجراءات الجبائية البيئية، التي سنُورد نماذجاً منها فيما يلي:

1.6- بالنسبة للإجراءات الجبائية الردعية (الرسوم البيئية): يتوجب -حسب اعتقادنا- مايلي:

أ- تكييف الرسوم البيئية الحالية، لتتلاءم مع التطبيق الفعلي لمبدأ الملوث الدافع، وهذا من خلال التحكم في تقنيات القياس المباشر للتلوث، لكي تكون الرسوم البيئية تناسبية مع حجم التلوث المُنبعث .

ب-تأسيس رسم على الضوضاء، أو بالأحرى على مصادرها، وهذا للحيلولة دون استفحالها، ولاسيّما في الأوساط الحضرية.

ج-الاهتمام بفرض رسوم بيئية على المُنتجات المُلوثة (كالتي تحتوي على مركبات CFC).

د-العمل على تصميم ضرائب بيئية، تمس الإنبعاثات المُلَوِثة مباشرة،(SO_2، NOX ،CO_2)، كما هو عليه الحال، في الدول المتطورة.

ه-إنشاء رسم على إنتاج واستيراد الأسمدة ومختلف المبيدات الكيميائية.

و-تقييد حركة المرور بالسيارات، داخل المدن الكبيرة المكتظة بالسكان، عن طريق فرض رسم على الدخول (taxe d'accès) لوسط هذه المدن، وهذا بغية التشجيع على استعمال وسائل النقل العمومي والحد من الضوضاء والتلوث الجوي.

ي-فرض اقتطاعات بيئية على الورق وما شابهه.

2. بالنسبة للإجراءات الجبائية التحفيزية (الحوافز الضريبية): يتعين الإهتمام بالإجراءات التالية:

أ-الإعفاء الكلي من TVA، أو فرضها بمعدل منخفض، فيما يخص اقتناء آلات ومعدات التدوير للنفايات والحد من التلوث.

ب-فرض الضريبة على أرباح الشركات بمعدل منخفض، بالنسبة للمؤسسات التي تُقدِّم خدمات بيئية (كأنشطة رفع القمامات المنزلية)، أو التي تقوم بإستثمار جزء من أرباحها في المجال البيئي.

ج-اعتماد الإهتلاك الاستثنائي، بالنسبة لمعدات وتجهيزات مكافحة التلوث المستعملة في المؤسسات الإنتاجية.

الخاتمـــــة:

إن الوضع البيئي في الجزائر، يشهد تدهوراً مستمراً نتيجة لاستفحال التلوث بمختلف أشكاله ولاسيما التلوث الجوي في المناطق الساحلية التي تشهد تَركزاً كبيراً للصناعات الملوثة. والمحيطات الحضرية، تعاني هي الأخرى من وضع بيئي متردي، يمتاز عموماً بانتشار النفايات والقمامات الحضرية بشكل كبير؛ وما يزيد الطين بلةً، هو أن المفارغ العمومية تتسم بالعشوائية وقلة التنظيم. وتُعاني المحيطات الحضرية كذلك، من استفحال التلوث الناجم عن سوء تسيير المياه المستعملة وانعدام عمليات التصفية لها؛ مما يؤدي إلى انتشار العديد من الأمراض الخطيرة التي تُهدِّد الصحة العامة للمواطنين. أما بالنسبة للضوضاء، فتُعد القاسم المشترك بين أغلب المدن ذات التجمعات السكانية الكبيرة، وهذا نظراً للحركة الكبيرة لمرور السيارات، والانتشار الواسع لورشات البناء وما إلى ذلك.

وقد أدى تفاقم ظاهرة التلوث في الجزائر، إلى إلحاق أضرار كبيرة بالمجتمع والبيئة على حد سواء، بحيث انتشرت العديد من الأمراض الخطيرة، وشهدت مختلف الأنظمة البيئية المزيد من التدهور؛

وأمام هذا الوضع، ظهرت الحاجة إلى ضرورة القيام بتقييم اقتصادي لأضرار التلوث البيئي بالجزائر، وهذا بُغية تحديد قيمة الأضرار الناجمة عن التدهور البيئي، وتحديد أولويات السياسة البيئية.

وفي إطار السعي لتحقيق التنمية المستدامة والحيلولة دون استفحال ظاهرة التلوث البيئي، تبنت السلطات الجزائرية جملة من السياسات البيئية، ومن بين أهم هذه السياسات، سياسة إدراج الجباية البيئية كأداة للحد من أضرار التلوث البيئي. وبُغية تفعيل الجباية البيئية الجزائرية، عمدت السلطات – من خلال قوانين المالية- وابتداءاً من سنة 1992، إلى تأسيس جملة من الرسوم البيئية، التي شملت العديد من القطاعات البيئية، ولاسيما مجالات النفايات الصلبة، الإنبعاثات الجوية المُلوثة، التدفقات الصناعية السائلة والأنشطة الصناعية المُلوثة أو الخطيرة على البيئة. وإضافةً إلى هذا، تم منح بعض الحوافز الضريبية لصالح الاستثمارات البيئية التي تُعنى بالحد من التدهور البيئي، وهذا في إطار برامج الوكالة الوطنية لتطوير الاستثمار A.N.D.I.

وعلى العموم، فان الجباية البيئية الجزائرية، تشهد تطوراً مستمراً على المستوى التشريعي، إلا أن فاعليتها على أرض الواقع فيما يخص الحد من التلوث تعد محدودة؛ كما أن مردوديتها المالية، تُعتبر ضعيفة.

الهوامـش:

1- صالح فلاحي، التنمية المستدامة بين تراكم رأس المال واتساع الفقر، مجلة الحقيقة الصادرة عن جامعة أدرار، العدد الثاني، مارس 2003، ص 193.
2- محمد عبد الكريم ومحمد عزت، اقتصاديات الموارد والبيئة، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000، ص، 294.
3- نفس المرجع، ص295.
4- محمد صالح الشيخ، الآثار الاقتصادية والمالية لتلوث البيئة ووسائل الحماية منها، مطبعة الإشعاع الفنية، ط1،ا لإسكندرية، 2002، ص 94.
5- لعلي بوكميش، التنمية المستدامة ومشكلة التسلح، مجلة الحقيقة، مرجع سابق، ص 257 – 259.
6- فيما يخص مفهوم رأس المال الطبيعي راجع: محمد عبد الكريم ومحمد عزت، اقتصاديات الموارد والبيئة، مرجع سابق،ص 299- 300.
7- أسامة قاضي، التنمية والبيئة، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد 23، العدد 1، 1995، الكويت ص 327.
8- محمد عبد البديع، اقتصاد حماية البيئة، دار الأمين، القاهرة، 2003، ،ص 327.
9- عبد المجيد قدي، المدخل إلى السياسات الاقتصادية الكلية – دراسة تحليلية تقييمية – ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2، بن عكنون (الجزائر)، 2005، ص 168.
10- conseil français des impôts : un rapport sur la fiscalité et environnement , septembre, 2005 , p. 02.
11- rapport de la commission des comptes et de l'economie de l'environnement sur la fiscalité liée à l'environnement , op.cit , p.11.
12- IBID ,p.11- 12 .
13- rapportt de la commission des comptes et de l'economie de l'environnement sur la fiscalité liée à l'environnement , op.cit , p. 14 .
14- كضرائب الطاقة والكربون التي تفرض في أغلب الدول لغرض تمويلي أكثر منه بيئي.
15- Ibid , p.13 .

16- katheline Schubert et Paul zagamé , l'environnement une nouvelle dimension économique , libraire vuibert, paris, 1998, p. 40 .
17- beat burgenmier et yuko harayama , théorie et pratique des taxes environnementales, ECONOMICA,paris, 1997 ,p. 89.
18- Eric engle, les écotaxes en France, mémoire disponible sur site Internet : http://lexnet.bravepages.com/mémoire.html, p. 35 (Date de consultation : le 10/11/2006).
19- Dominique bureau et autres, Fiscalité de l'environnement, la documentation française, Paris,1993, , p : 10 – 11.
20- O.C.D.E :environnemental taxes and green tax reforme , paris, 1997, p. 17- 18 .
21- rapport de la commission des comptes et de l'economie de l'environnement sur la fiscalité liée à l'environnement , op.cit , p.12.
22- Ibid .
23- benoît jadot, fiscalité de l'environnement , bruylant , Bruxelles, 1994 , p. 09.
24- slim mounir, la fiscalité de l'environnement, mémoire de fin d'étude , institut d'economie douanière et fiscal, koléa, 1997, p. 10.
25- CHAMBRE DE COMMERCE ET D'INDUSTRIE DE PARIS : un rapport sur la fiscalité environnementale : se limiter a encourager l'écologie et l'innovation, septembre 1999 , p. 23.
26- rapport de la commission des comptes et de l'economie de l'environnement sur la fiscalité liée à l'environnement , op.cit , p.12
27- benoît jadot, op.cit, p.16 .
28- beat burgenmier et yuko harayama,op.cit, p. 94 .
29- احمد باشي، دور الجباية في الحد من التلوث البيئي، مجلة علوم الاقتصاد والتسيير والتجارة، جامعة الجزائر، ع 11، 2004، ص 131.
30- benoît jadot, op.cit, p. 13.
31- caroline London, environnement et instruments économique et fiscaux, libraire général de droit et de jurisprudence , paris , 2001, p. 23.
32- O.C.D.E : la reforme fiscale écologique axée sur la réduction de pauvreté , 2005, p.113.
33- Ibid , p. 37.
34- beat burgenmier et yuko harayama,op.cit, p. 105.
35- O.C.D.E : la reforme fiscale écologique axée sur la réduction de pauvreté, op.cit,p. 35.
36- Caroline London, op.cit, p. 23-24.
37- O.C.D.E : la reforme fiscale écologique axée sur la réduction de pauvreté, op.cit , p. 35.
38- beat burgenmier et yuko harayama,op.cit, p. 105.
39- Ibid , p.113.
40- O.C.D.E : la reforme fiscale écologique axée sur la réduction de pauvreté, op.cit ,p.34.
41- slim mounir .op.cit. p.36- 37.
42- محمد حلمي، فعالية الإعفاءات الضريبية في مكافحة تلوث البيئة، مجلة التعاون الصناعي في الخليج العربي، ع 92، يوليو 2003، ص 114.
43- Taxe sur les activités polluantes ou dangereuses pour l'environnement.
44- المادة 117 من القانون رقم 91-25 المتضمن قانون المالية لسنة 1992، ج.ر عدد 65-1991.
45- Fonds national pour l'environnement et la dépollution.
46- المادة 11 من القانون رقم 01-21 المؤرخ في 22 ديسمبر 2001 والمتضمن قانون المالية لسنة 2002، ج.ر، عدد 79، سنة 2001.
47-المادة 204 من القانون رقم 01-21، السابق ذكره.
48- المادة 203 من القانون رقم 01-21، السابق ذكره.

49- المادة 53 من القانون رقم 03-22 المؤرخ في 28 ديسمبر سنة 2003، والمتضمن لقانون المالية لسنة 2004، ج.ر، عدد 83.

50- L'article 60 de la loi n°05-16 correspondant au 31/12/2005, portant la loi de finance pour 2006, J.O n°85.

51- المادة 205 من القانون رقم 01-21، السابق ذكره.

52- المادة 38 من القانون رقم 01-21، السابق ذكره.

53- المادة 55 من القانون رقم 06- 24 المؤرخ في 26 ديسمبر 2006، والمُتضمن قانون المالية لسنة 2007، ج ر عدد 85/2006.

54 Ministère des finances : Circulaire n°17/MF/MDB/DGI/DLF/LF2002, concernant le recouvrement de la taxe sur les carburants.

55- المادة 94 من القانون رقم 02-11 المؤرخ في 24 ديسمبر 2002، والمتضمن قانون المالية لسنة 2003، ج. ر.عدد/86-2002.

56- L'article N°61 de la loi n°05-16 correspondant au 31/12/2005, portant la loi de finance pour l'Année 2006, J.O. N°85/2005.

57- المادة 76 من القانون رقم 03-10 الصادر في 20 جويلية 2003، والمتضمن قانون حماية البيئة في إطار التنمية المستدامة، ج.ر. عدد 43 (2003).

58- المادة 77 من نفس القانون.

59- لم نعثر عبر إطلاعنا على مضامين قوانين المالية منذ سنة 2004 إلى غاية 2007، على أي حوافز مالية لصالح أنشطة الحد من التلوث وترقية الحفاظ على البيئة.

60- Rapport sur l' environnement (2005), Op.Cit, P :325.

61- Ibid, p.326.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 239 - 254
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

المقاربة بالكفاءات في ظل المقاربة بالمحتويات

حجاج عمر
قسم علم النفس جامعة غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة:

لقد أصبح التعليم صناعة كبرى في جميع أنحاء العالم و لقد أصبحت للكفاءة التعليمية أهمية كبرى بالنسبة للدول الكبرى

و أصبح مصطلح الكفاءات متداولا في مجال التربية، و فرضت المقاربة بالكفاءات نفسها في كل الميادين ، و اعتمدتها البلدان المتقدمة في أنضمتها التربوية.

و إذا كان الإهتمام إلى عهد قريب منصبا على تحسين المضامين و تكوين المعلمين في الجانب المعرفي لتلقين التلميذ جملة من المعارف و عليه أن يستظهرها عندما يقتضي الأمر ذلك إذن ما جدوى تغيير البرامج الدراسية، مالم يكن من أجل تمكين المزيد من التلاميذ من بناء كفاءات و معارف أوسع، ثابتة وجيهة و قابلة التجنيد في الحياة العامة وميدان العمل ثم طبقت خلال منتصف التسعينات بيداغوجية الأهداف المقاربة بالأهداف . و أصبح العمل التربوي أكثر دقة من حيث تخطيطه وآدائه إلا أن هذه المقاربة على نجاعتها لم تهتم بالأهداف لوحدة متكاملة إذ ينشغل المعلم بتحقيق الأهداف مجزأة غير مترابطة (متقاطعة) مع محاولة تعديل سلوك التلميذ و مهما قيل من انتقادات تربوية لهذه المقاربة فهي ضرورية في نظرنا لبناء المقاربة الجديدة (المقاربة بالكفاءات) لأن الأهداف الجزئية للدرس قد تشكل حد ذاتها كفاءات قاعدية أو مؤشرات كفاءة إذا كانت قابلة للملاحظة و القياس و لن تصاغ إلا كذالك .

و بطبيعة الحال و مادام النظام التربوي العالمي في تطور سريع فعلى القائمين على رعاية شؤون القطاع البحث عن كيفية تحديث الطرائق و المناهج لمواكبة العولمة التربوية و مسايرة العصر فكان اعتماد المقاربة بالكفاءات و ممارسة التعليم

و التعلم و انتقاء (الطريقة البنائية) وهذه المقاربة بالكفاءات أسلوب تعليمي ظهر في أوربا حوالي سنة 1468م طبقته الولايات المتحدة الأمريكية لتطوير جيوشها ثم انتقلت هذه المقاربة بصفة فعلية إلى المؤسسات التعليمية الأمريكية بدءا من سنة 1960م ثم إلى بلجيكا عام 1993م و تونس عام 1999 فالجزائر 2003.

فالمقاربة تصور مستقبلي لفعل قابل للتنفيذ وفق مرامي وخطط منسجمة مع الشروط و العوامل الضرورية اللازمة للأداء (الكفاءات المستهدفة، الطرائق، الوسائل، الوسط التربوي ...الخ) و هذا كله لتحقيق المردود المرتقب.

إن وضوح المناهج وسلاستها يعدّ ركنًا أساسيًّا للنجاح في ممارسة العملية التعليمية التعلمية وتنفيذها، ذلك أن الإدراك السليم للمناهج يقود إلى ممارسات سليمة وتطبيقات صحيحة في الميدان التربوي، حتى يتمكن المعلم من تطويع المناهج وفقًا لحاجات ومطالب الأفراد النامية، ووفق ما يناسب خصائص المتعلمين وحاجاتهم، لأنّ هذا الهدف إذا لم يتحقق تصبح كل المجهودات التي يبذلها غير ذات جدوى ولا تحقق فوائدها المرجوة.

هذا الوضوح والإدراك إن تحققا من شأنهما خلق الدافعية لكل من المعلم والمتعلم، ذلك أن هذا المجال يعتبر من أعقد المهام والمهارات التدريسية، فالدافعية عند المتعلم تعد شرطاً للنجاح والتفوق، لأنها تدخل ضمن مهامه الرئيسية نظراً لأهميتها في العملية التعليمية التعلمية، وحتى يحقق المعلم ذلك وجب عليه أن يتحلى بها هو نفسه قبل أن يبثها في التلميذ، فالدافعية لا تختص بالتلميذ فحسب، بل إن المدرس بحاجة إليها حتى يزيد من فاعلية عملية التدريس، وبالتالي تتحقق أهدافه التي يرمي الوصول إليها بكل يسر وكفاءة.

في هذه الدراسة سنحاول أن نخصص ثلاثة مباحث، أولاهما لموضوع الدافعية، تعريفها، فأهميتها، وظيفتها، أنواعها، ثم أهم النظريات المفسرة لها، والمبحث الثاني خصصناه للتدريس، تعريفه، ثم وظائفه، ثم التخطيط للتدريس كونها من متعلقاته أما المبحث الثالث فخصص لبيداغوجية المقاربة بالكفاءات.

المبحث الأول: الدافعيـــــة

1- تعريف الدافعية:

"يحتل موضوع الدّوافع بصفة عامة مركز الصّدارة الأهمية الكبرى في علم النفس الحديث، ذلك لأن معرفة الإنسان لدوافعه ولدوافع السلوك ضرورية تجعله يدرك دوافع سلوك غيره من الناس، الشّيء الذي يؤدي إلى بداية إقامة علاقات إنسانية أفضل بينه وبين أفرادمجتمعه"
(عبد الرحمن الوافي، 1998، ص78)

لأن علم النفس هدفه الدراسة العلمية للسلوك ودوافعه المسببة له، لأن وراء كل سلوك دافع وعليه يمكننا أن نتساءل عن معنى الدوافع.

يعرف (نوربيرت سلامي، 1999 Norbert Sillamy,)، الدافعية بأنها: "مجموعة عوامل ديناميكية تحدد سلوك الفرد، وتعتبر الدافعية بأنها العنصر الزمني الأول للسلوك وهي التي تجعل الجسم في حركة، ولكنها تبقى لغاية انخفاض التوتر، ويعتبر علم النفس الكلاسيكي دواعي الحركات الأسباب العقلية بالدرجة الأولى وفي الدرجة الثانية الأسباب العاطفية، ولكن هذا التمييز مصطنع، لأنه في أصل سلوكاتنا لا يوجد سبب واحد، ولكنها مجموعة لا يمكن تفكيكها من العوامل، شعورية ولا شعورية، فسيولوجية، عقلية، عاطفية، اجتماعية، وهي كل في تفاعل عكسي"

(Sillamy Norbert, P173 1999)

ويرى (سلامي) أن الدافعية عبارة عن تفاعل مجموعة من العوامل الديناميكية المحددة للسلوك وهي في تفاعل مستمر وغير قابلة للتفكيك.

أمّا (محمد مصطفى زيدان، 1985) فيعرّفها بأنها: "مجموعة من الطاقات الكامنة التي ترسم للكائن الحيّ أهدافه وغاياته، لتحقيق التوازن الدّاخلي أو تهيئ له أحسن تكيّف ممكن مع البيئة الخارجيّة"

(محمد مصطفى زيدان ، 1985، ص41).

أمّا (محي الدين توق وعبد الرحمن عدس، 1984) فيعرفان الدافعية على أنها "مجموعة من الفوارق والخارجية التي تحرك الفرد من أجل إحداث التوازن الذي اختل"

(محي الدين توق وعبد الرحمن عدس،1984، ص140.).

بينما يرى (جابر عبد الحميد جابر، 1990) أن الدافعية: "حالة فيزيولوجية داخل الفرد تجعله ينزع إلى القيام بأنواع معينة من النشاط، وتهدف الدوافع إلى خفض حالة التوازن إلى الكائن الحي، وتخلصه من حالة عدم التوازن"

(جابر عبد الحميد جابر، 1990، ص24)

ويرى (حسين ياسين طه، 1990) أن الدافعية هي: "حالة داخلية تنتج عن حاجة ما وتعمل هذه الحالة على تنشيط أو استثارة السلوك الموجه عادة نحو تحقيق الحاجة المنشطة"

(حسين ياسين طه وأميمة علي خان، 1990، ص133)

ويعتبر (فرج عبد القادر طه) "أن الدافع النفسي من محددات السلوك وسر وجهته التي تقوده نحو الهدف، والدافع النفسي يثير السلوك أو النشاط ويوجهه نحو تحقيق هدف معين، ولا يكون الدافع عن ذلك حتى يتحقق الهدف، أو يعجز الكائن الحي عن مواصلة السلوك أو يغير هدفه أو يتحول عنه أو يجبر على تأجيل تحقيقه حتى تحين ظروف أكثر مواءمة"
(فرج عبد القادر طه وآخرون، ص191).

كما يعرف (عبد الرحمن الوافي) الدافع بأنه: "حالة أو قوة داخلية جسمية أو نفسية، تثير السلوك في ظروف معينة، وتواصله حتى ينتهي إلى غاية معينة، وهو قوة باطنية لا نلاحظها مباشرة بل نستنتجها من الاتجاه العام للسلوك الصادر عنها"
(عبد الرحمن الوافي ، ص78.)
بينما يعرفه (مصطفى عشوي، 1994) بأنه "حالة من

التوتر النفسي والفسيولوجي الذي قد يكون شعوريا أو لا شعوري يدفع للقيام بأعمال ونشاطات وسلوكات لإشباع حاجات معينة للتخفيف من التوتر ولإعادة التوازن للسلوك أو النفس بصفة عامة"

(مصطفى عشوي، 1994،ص103).

يتبين من خلال التعاريف سابقة الذكر أن غاية الدوافع هي إشباع حاجة الفرد، تدفعه من خلال التوتر إلى القيام بالسلوك الذي يرضي الحالة ويستعيد توازنها بعدما كانت في حالة لا توازن ومن حالة لا تكيفية إلى حالة تكيفية، ولكنها عند الكائن الإنساني تنتظر الوقت المناسب للإشباع وبالطريقة المناسبة.

كما أن الملاحظ للتعاريف السابقة رغم اتفاقها في بعض الجوانب إلا أنها تختلف في جوانب أخرى، ويعود الاختلاف إلى أن كلا منها يمس جانبًا معينا وإلى المواقف المختلفة التي فسرت من خلالها الدافعية، كما يعود إلى المصطلح نفسه.

2- وظائف الدافعية:

للدافعية ثلاث وظائف رئيسية تتمثل في كونها (أحمد عزت راجح، 1962، ص61):
.- تنشيطية - توجيهية - حفاظية.

01– تنشيطية: تحرير الطاقة الانفعالية التي تحرك وتنشط السلوك، وتزيد الطاقة المبذولة في السلوك كلما ازدادت الطاقة المتحركة.

02– توجيهية: توجيه السلوك نحو وجهة معينة، فهي تحدد إقدام الفرد حينما تكون المثيرات مهمة لبقائه أو حفظ توازنه، وتحدد وجهة الإحجام حينما تكون المواقف أو المثيرات تهدد الفرد، كما تحدد وسائل الإرخاء حسب قوّة الدافع إذا تمددت الوسائل كلما ازدادت قوة الدافع.

03– حفاظية: المحافظة على استمرارية السلوك مادامت الحاجة قائمة فبعد تحريك السلوك وتوجيهه نحو هدف معين، لا يتوقف السلوك إلا بعد تحقق الهدف، أي إتباع الحاجة أو الدافع.

عمومًا يمكن تلخيص وظائف الدافعية في كونها:

- تمد السلوك بالطاقة وتسير النشاط.
- تحرك السلوك من حالة السكون إلى حالة حركة.
- تمد بعض دوافع السلوك بالطاقة أكثر مما تمده بها الغير من المؤثرات الخارجية، كالجوائز، والحوافز المادية.
- تختار النشاط وتحدده، فتجعل الفرد يستجيب لبعض المواقف وليصل البعض الآخر.
- تحدد الكيفية التي يستجيب بها الفرد للموقف.

3- أنواع الدوافع:

يقسم الباحثون الدوافع إلى دوافع شعورية ودوافع لا شعورية، وهذه الدوافع تكون فيزيولوجية أو نفسية أو اجتماعية أو نفسية اجتماعية.

وقد مال بعض العلماء أمثال (ماكدوجال، MacDougall) إلى تقسيم الدوافع على أساس ما إذا كان مصدرها الوراثة أو مصدرها البيئة، إلى دوافع غريزيّة مثل غريزة الجوع وغريزة العطش، والجنس، والأمومة، على أساس أنها موروثة في تكوين الكائن الحي، وليس في حاجة إلى من يعلمه إياها، وتقابلها الدوافع المكتسبة وهي التي يتعلمها المرء ويكتسبها عن طريق خبراته وتجاربه واحتكاكه بواسطة البيئة مثل الاتجاهات والميول والعواطف والعادات، لكن (فرج عبد القادر طه) يرى بأن ننظر إلى هذا التقسيم بعين من المرونة والحذر، مبررًا ذلك بقوله: "يندر أن نجد في النّفس البشرية خاصة دافعًا تنفرد الوراثة بتحديده كليّة، أو آخر تنفرد البيئة بتحديده كليّة، وإنّ الأقرب إلى الصّواب أن نقول بأنّ كلّ دافع يتحدّد بالوراثة والبيئة في تفاعلهما معًا"
(فرج عبد القادر طه وآخرون، مرجع سابق، ص151.)

وقسّم (فرويد، Freud) وتلاميذه الدّوافع إلى نوعين حسب شعور الشّخص بها ووعيه بوجودها داخل نفسه وهما:

3- 1- الدوافع الشعورية:

وهي تلك الدّوافع التي يشعر الفرد بوجودها بداخله أو يمكن أن يستدعيها إذا ما سئل عنها، مثل بماذا تحسّ الآن؟ أو ماذا تريد الآن؟

3- 2- الدوافع اللاشعورية:

وهي الدّوافع التي لا يشعر الفرد بأنها موجودة لديه وتدفعه لسلوك معين ونحو تحقيق هدف محدّد، وهي دوافع لا تظهر في شعور الفرد ولا في وعيه.

3- 3- الدوافع الفطرية:

وهي ما كانت تأثيراتها بيولوجيّة جسميّة وهدفها خطر وهي ما تنتقل عن الوراثة فلا يحتاج

الفرد إلى تعلمها أو اكتسابها، وعادة ما يطلق عليها اسم الدّوافع الفيزيولوجيّة، ومن علامات هذه الدّوافع:

- ظهورها منذ الولادة.
- عامّة ومشتركة بين أفراد النّوع الواحد جميعًا.

3- 4- الدوافع النفسية:

يعرف (أبراهام ماسلو، Maslow) الدّوافع النّفسيّة بأنها: "الحاجات المتمحورة حول الأمن، والحبّ، واحترام الذات وتأكيد الذات" لكن حسب (مصطفى عشوي) أنّ ما يؤخذ على تعريف (ماسلو) أنه "أهمل تمامًا الحاجات الرّوحيّة للإنسان كالإيمان بالله، والعبادات المختلفة ودورها في دافعيّة الإنسان"(مصطفى عشوي،مرجع سابق، ص106)

ويعرفها (مصطفى عشوي) بأنها "تحدث نتيجة اضطراب واختلال في التوازن العضوي والكيميائي للبدن في الحالات العاديّة عندما يكون الإنسان سببًا معارضًا فإنّ هذه الدّوافع غالبًا ما تتعرض إلى اضطراب كبير وعدم إشباع، وذلك بسبب المرض الذي يصاب به الإنسان".

كما يعرّفها (محمد شطوطي) "بأنها تطلق عادة على الحالات الفيزيولوجيّة النّاتجة عن وجود حاجات للبدن تحدث تغيّرًا في التوازن العضوي، فتنشأ عن ذلك حالة التوتر تدفع الكائن إلى النّشاط والقيّام ببعض الأعمال التي تؤدّي إلى إشباع الحاجة وإعادة البدن إلى الحالة الطبيعيّة من التوازن والاعتدال" (محمّد شطوطي ، 2002، ص47.)

3- 5- الدوافع المكتسبة:

هي كل ما يتعلمه الفرد عن طريق الخبرة والممارسة والتدريب وعادة ما يصنف علماء النّفس هذه الدّوافع المكتسبة إلى ما يلي:

3- 6- دوافع اجتماعية عامة:

وتمثّل كلّ ما يكتسبه الإنسان عن طريق خبراته اليوميّة وتفاعله الاجتماعي، مهما اختلفت الحضارة التي ينتمي إليها، ويبدو هذا الدّافع واضحًا في ميل الإنسان إلى العيش في جماعات، وإلى الاجتماع ببني جنسه والاشتراك معهم في نشاطهم الاجتماعي مهما اختلفت الحضارة المنتمي إليها.

3- 7- دوافع اجتماعية فردية:

وتشمل الدّوافع التي يتميز بها الأفراد بعضهم عن بعض، فقد يكتسبها بعضهم لخبراته الخاصّة ولا يكتسبها البعض الآخر لأنه لا يميل إليها، فهذا يميل إلى الرّياضة، وذاك يميل إلى الرّسم، والآخر يميل إلى المسرح، وما هذه الدّوافع والميول إلا اتجاهات نفسيّة تعبر عن اتجاه وجداني عاطفي يكتسب ثباتًا نسبيًّا يحدد شعور الفرد وسلوكه نحو موضوعات أو أشخاص أو أشياء معيّنة.

4- نظريات تفسير الدافعية:

أدّت المحاولات المتكرّرة لتفسير الدّافعيّة إلى ظهور عدّة نظريّات أشهرها اختصارًا:

4- 1- النظرية الارتباطية:

ترى هذه النّظريّة إلى الدّافعيّة من منظور سلوكي (مثير-استجابة)، إذ يعتبر

(ثورندايك، Thorndayk) من العلماء الأوائل الذين تناولوا موضوع التعلم تجريبيًّا، وصاحب النّظريّات الشّهيرة فيه، الذي قال بمبدأ المحاولة والخطأ كأساس للتعلم مفسّرًا ذلك بقانون الأثر، حيث يؤدّي الإشباع الذي يتلو الاستجابة إلى تعلمها وتعزيزها، كما يؤدّي عدم الإشباع إلى انفعالها، وعملاً بهذا القانون يؤدّي البحث من الإشباع أو تجنب الألم إلى الدّافع الكامن وراء تعلم الاستجابة.

ويأخذ (هل، Hull) قانون الأثر بأكثر دقة، حيث يستخدم مصطلح تخفيض أو اختزال الحاجة للدلالة على حالة الإشباع، ومصطلح الحاضر للدلالة على بعض المتغيرات المتدخلة الواقعة بين الحاجة والسّلوك، إذ الحاجة كمتغير مستقل تؤثر في الحاضر، وهذا الأخير يؤثر بقوة في السّلوك.

أمّا (سكينر، Skinner) فلا يرى ضرورة في افتراض متغيرات دخيلة كالحاضر لتفسير السّلوك، غير أنه يقبل مفهوم التعزيز كأساس للتعلم، مستخدمًا عونًا على ذلك مفهوم الحرمان، إذ يؤدّي التعزيز إلى تقويّة الاستجابات التي تخفف كميّة الحرمان، كما يؤكّد أنّ خبرات الفرد بنتائج السّلوك هي التي تحدّد تكرار أو عدم تكرار السّلوك في المرّات اللاحقة، إذ يرى أنّ نتائج السّلوك ولاسيّما التعزيزيّة منها تشكل الحاجز أو الباعث الذي يدفع الأفراد للسّلوك بطريقة معيّنة في موقف ما.

ما يؤخذ على النّظريّة الارتباطيّة أنّ تفسيراتها تقوم أساسًا على النّتائج التي تختص عن بعض التجارب التي أجريت على التعلم الحيواني، إلا أنه يمكن اشتقاق بعض التجارب المناسبة للتعلم البشري، ومفيدة في تفسير الدّافعيّة.

4- 2- نظريّة التحليل النّفسي:

تعود نظريّة التحليل النّفسي في أصولها إلى (فرويد، Freud)، فهي تستخدم مفهوم الغريزة واللاشعور والكبت وآليّات الدّفاع عمومًا في تفسيرها للسّلوك الإنساني اللهوي وغير اللهوي على حد السّواء، لاعتقاد (فرويد، Freud) أنّ معظم جوانب السّلوك الإنساني مدفوع بحافزين غريزيين، هما حافز الجنس وحافز العدوان.

تؤكّد نظريّة التحليل النّفسي على خبرات الطفولة المبكرة في تحديد سلوك الفرد المستقبلي، كما تطرح مفهوم الدّافعيّة اللاشعوريّة لتفسير ما يقوم به الفرد من سلوك دون أن يكون قادراً على تحديد أو معرفة الدّوافع الكامنة وراء سلوكه هذا، ويفسّر (فرويد، Freud) هذه الظاهرة بمفهوم الكبت.

"وطبقًا لنظريّة (فرويد)، يحدث نوع من التفاعل بين خبرات الطفولة المبكرة والرّغبات اللاّشعوريّة المكبوتة والنّاميّة عن حافزي الجنس والعدوان"

(فرج عبد القادر طه وآخرون، مرجع سابقص212.)

إذ يرى (فرويد، Freud)، أنّ الدّافعيّة تعبير لا شعوري للرّغبات العدوانيّة والجنسيّة التي قد يعبر عنها بطريقة صريحة أو في بعض الصّور الرّمزيّة مثل الأحلام، أو زلّات اللسان، كما يرى أنّ عمليّة الكبت لا تؤدّي إلى انهيار فاعليّة حافزي الجنس والعدوان وأثرهما في السّلوك على نحو مطلق، بل يمارسان أثرهما في تحديد السّلوك على مستوى لا شعوري، حيث يمكن التعبير عن الحاجات والرّغبات والدّوافع المكبوتة بأشكال سلوكيّة أخرى مقنّعة.

4- 3- النظرية الإنسانية:

جاءت هذه النّظريّة ردًا على النّظريّة التحليليّة، التي ترى أنّ أصول السّلوك بيولوجيّة المتمثلة في الغرائز (غريزة الحياة والموت)، واعتراضها على المدرسة السّلوكيّة التي ترى أنّ السّلوك مدفوع بعوامل كالتعزيز والحرمان والمكافآت، ويعتبر (أبراهام ماسلو، Maslow, 1943) من روّاد هذه النّظريّة، حيث انطلق في بناء نظريّته -التي تدعى كذلك بنظريّة ترتيب الحاجات- من ثلاثة أفكار رئيسيّة هي:

1- أنّ الإنسان كائن ناقص غير تام يظلّ طول حياته طالبًا محتاجًا، لذلك تؤثر احتياجاته على سلوكه، ويبدأ هذا التأثير عند الحاجة التي لم يتمّ إشباعها منتقلاً إليها من الحاجات التي تمّ إشباعها.

2- أنّ الحاجات عند الإنسان ترتب حسب أهميّتها من الحاجات الأساسيّة إلى المركّبة.

3- تنقسم الحاجات إلى خمس مستويات رئيسيّة مرتّبة ترتيباً هرميّاً -كما في الشّكل رقم (01)-، ولا يتمّ إشباع حاجات المستوى الأعلى -أو العمل على إشباعها- إلا بعد إشباع حاجات المستوى الأدنى منه.

نجد في قاعدة الهرم في تصنيف (أبراهام ماسلو، Maslow) الحاجات الفيزيولوجيّة كونها الأكثر أهميّة والأشدّ إلحاحًا بالنّسبة للفرد، ولا يكون ظهور الدّوافع النّاتجة عن الحاجة إلى الأمن إلاّ بعد إشباع الدّوافع الخاصّة بالحاجات الفيزيولوجيّة، والحاجات التي يتمّ إشباعها تختفي وتظهر محلها الحاجة التي تأتي في المستوى الذي يليها، فعند إشباعها تظهر الحاجة إلى الحبّ والانتماء... والشّكل رقم (01) يوضّح التنظيم الهرمي للحاجات (لماسلو، Maslow).

الشّكل رقم (01): يمثل التنظيم الهرمي للحاجات (لماسلو، Maslow)

إن اختلاف النّظريّات المفسرة للدافعية من طرف علماء النفس يعود إلى اختلاف نظرتهم للإنسان، وللسّلوك الإنساني، واختلاف الممارسة السّيكولوجيّة التي ينتمون إليها، إلا أنها ومهما اختلفت في تفسيراتها "فهي تساعد المعلم على فهم أعمق للسلوك الإنساني، وتمكنه من تكوين تصوّر واضح" (عماد الزغلول وعلي الهنداوي، 2007، ص293.)

على الرّغم من أهميّة هذه النّظريّة وأثرها في نماذج التعلم والعلاج وفائدتها في مجال التنشئة الإجتماعيّة، إلا أنها تقوم على أفكار فلسفيّة تسلم بل وتُفْرِطُ إلى حدّ بعيد بحريّة الإنسان وخيريته وقدرته على تقرير مصيره وعلى التعقل والإبداع، وتخلو من التجريب بمعناه العلمي، كما أنه ليس من الضّروري أن يؤجّل الفرد إشباع حاجات معيّنه حتى يتسنى له إشباع الحاجات الدّنيا، في ذات الوقت فإنّ هناك الكثير من الدّوافع تم إغفالها في تصنيف ماسلو للحاجات.

4- 4- النظرية المعرفية:

يرى أصحاب النّظريّة المعرفيّة على رأسهم (هانت، Hunt, 1965) "أنّ التفسيرات المعرفيّة تسلم بافتراض مفاده أنّ الكائن البشري مخلوق عاقل يتمتع بإرادة حرّة تمكّنه من اتخاذ قرارات واعيّة على النّحو الذي يرغب فيه"

(عماد الزغلول وعلي الهنداوي، المرجع السّابق، ص209.)

أي تؤكد على أن الإنسان كائن إرادي عقلاني يتمتع بإرادة حرّة تمكنه من اتخاذ القرارات المناسبة والسّلوك الذي يراه مناسبًا، والنّشاط العقلي للفرد يزوده بدافعيّة متأصلة فيه، وتشير إلى أنّ النّشاط السّلوكي يعتبر كفاية في حدّ ذاته وليس وسيلة، فظاهرة حبّ الاستطلاع هي نوع من الدّافعيّة الذاتيّة يمكن تصوّرها على شكل قصديّ إلى تأمين معلومات حول موضوع أو حادث، أو فكرة عبر سلوك استكشافي.

تفضّل هذه النّظريّة تفسير الدّافعيّة بدلالة متوسّطات مركزيّة، كالدّوافع الذاتيّة والاستطلاع والقصد والدّافع لإنجاز النّجاح... الخ، حيث تنطوي هذه المفاهيم جوهريًّا على التّأكيد على حريّة الفرد وقدرته على الاختيار وتوجيه سلوكه بالاتجاه الصّحيح.

وترى أنّ الأفراد لا يستجيبون للمثيرات والحوادث الخارجيّة أو الدّاخليّة على نحو تلقائي، وإنما في ضوء نتائج العمليّات المعرفيّة التي يجريها الأفراد على مثل هذه الحوادث والمثيرات، وترى أنّ عمليّة الإدراك الحسّي والتفسيرات التي يعطيها الأفراد للحوادث أو المثيرات تحدّد طبيعة السّلوك الذي يقومون به.

4- 5- نظرية التعلم الاجتماعي:

"تنطلق هذه النّظريّة من افتراض رئيسيّ مفاده أنّ الإنسان كائن اجتماعي يعيش ضمن مجموعات يؤثر ويتأثر بها، حيث يلاحظ سلوك الآخرين ويتعلم الكثير من الخبرات والمعارف والاتجاهات وأنماط السّلوك الأخرى من خلال ملاحظة سلوك الآخرين ومحاكاة هذا السّلوك" (عبد المجيد نشواتي، 1998، ص239.)

"يشير علماء هذه النّظريّة إلى أنّ التعلم السّابق يعتبر أهم مصدر من مصادر الدّافعيّة، فالنّجاح أو الإخفاق لاستجابات معيّنة يؤدّي إلى تفهم الأشياء التي تؤدّي إلى نتائج ايجابيّة أو سلبيّة، ومن ثمّ الرغبة في تكرار الأنماط السّلوكية النّاجحة، والخبرة الشّخصيّة لا ترتبط بالضّرورة بحدوث التعلم الاجتماعي" .

وترى هذه النّظريّة أنّ العديد من الدّوافع الإنسانيّة مكتسبة من خلال عمليّة الملاحظة والتقليد وفقاً للنّتائج التي تتبع سلوك الآخرين.

4- 7- نظرية التنافر المعرفي:

جاءت هذه النّظريّة لتفسير دافعيّة الأفراد نحو تحقيق التوازن والانسجام المعرفي، فتنشأ الدّافعيّة نتيجة لعدم هذا الانسجام وهذا التوازن، "تمثل نظريّة التنافر المعرفي التي قدّمها (ليون فستنجر، L. Festinger)، امتداد لمنحى التوقع-القيمة والتي تفترض أنّ لكلّ منّا عناصر معرفيّة تتضمّن معرفة بذاته (ما نحبه، ما نكرهه، أهدافنا وأشكال توقعنا) ومعرفة بالطريقة التي يسير بها العالم من حولنا، فإذا ما تنافر عنصر من هذه العناصر مع عنصر آخر، بحيث يقضي وجود أحدهما منطقيًّا بغياب الآخر، حدث التوتر الذي يملي على الفرد ضرورة التخلص منه"

(عبد اللطيف محمد خليفة،2000، ص145-146.)

مثل هذه الحالة تحدث عندما يلزم الفرد نفسه بعمل يتناقض مع معتقداته واتجاهاته وعاداته السّلوكيّة، الأمر الذي يؤدّي إلى حدوث حالة من التنافر المعرفي لديه، ويسعى الفرد للتخلص من هذا

التنافر بإقناع نفسه بأنّ ما يعمله شيء مفيد بحد ذاته و يحقق أهدافه، ويلجأ إلى إيجاد مبرّرات تؤكّد أنّ عمله لا يتناقض مع معتقداته واتجاهاته.

وتنشأ حالات التنافر المعرفي هذه عندما يمتدّ عدم الاتساق إلى أشياء مهمّة بالنّسبة للأفراد، وعندما يشعر الفرد بهذه الحالة تدفعه إلى أن يخفض درجة التنافر أو يستبعده بغية تحقيق الاتساق، ومن ثمّ يمثل التنافر المعرفي مصدرًا للتوتر يؤثر في سلوك الأفراد، وبالتالي فهو يساعدنا على التنبّؤ بالظروف التي تدفع الأفراد للانجاز، والظروف التي تحول دون ذلك حيث يعدّ الاتّساق أحد المؤثرات الدّافعيّة المهمة في سلوك الانجاز، وهذا ما أشار إليه (محي الدّين حسين، 1988) بأنّ أهميّة نظريّة التّنافر المعرفي ترجع إلى اهتمامنا بالجوانب المعرفية في الدّافعيّة والسّلوك"

(عبد اللطيف محمد خليفة،المرجع السابق، ص146)

المبحث الثاني: التدريس

إنّ التّدريس نظام من الأعمال مخطّط له، ويقصد به أن يؤدّي إلى تعلّم ونمو التلاميذ في جوانبهم المختلفة، ويشتمل على مجموعة من الأنشطة الهادفة يقوم بها المعلم والمتعلم، ويتضمّن عناصر ثلاثة ذات خاصيّة ديناميّة: معلماً، متعلماً، ومنهاجاً دراسيّاً، كما أنه يتضمّن نشاطاً لغويّاً وهو وسيلة اتصال أساسيّة، إلى جانب وسائل الاتصال الصّامتة لإكساب التلاميذ المعارف، المهارات، القيّم، الاتجاهات، والميول المناسبة.

وللتّمكن من الإلمام بهذا المفهوم الاستراتيجي في العمليّة التعليميّة–التعلميّة لابدّ من التعرض له بشيء من الشّرح والتفصيل.

1- تعريف التدريس:

1- 1- المعنى اللغوي للتدريس:

جاء التعريف اللغوي للتدريس حسب

(سهيلة محسن كاظم الفتلاوي) كما يلي

(سهيلة محسن كاظم الفتلاوي ، 2003، ص15-16.):

"إنّ كلمة التّدريس مشتقة من الفعل درس، فيقال درس الشّيء والمرسم يدرس دروسًا: عفا، ودرسته الريّاح ودرسه القوم: عفوا أثره، ودرست الثوب أدرسته درسًا فهو مدروس ودريس أي أختلقته، ومنه قيل للثوب الخلق: دريس والدّرس الطريق الخفي، ودرس النّاقة يدرسها درسًا: راضها.

ودرس الكتاب يدرسه درسًا ودراسةً، ودارسة، من ذلك كأنه عانده حتى انقاد لحفظه، قال تعالى: "وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ" (من الآية 105 من سورة الأنعام).

وقيل: دَرَسْتَ قرأت كتب الكتاب، قال ابن عباس معنى الآية: "كَذَلِكَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ لِيَقُوْلُواْ دَرَسْتَ" أي تعلمت، ويقال درست الكتاب أدرسه درسًا أي ذللته بكثرة القراءة حتى سهل حفظه، ويقال درست السّورة أي حفظتها ويسمى إدريس عليه السّلام، لكثرة دراسة كتاب الله تعالى، ويقال درست الصّعب حتى رُوضْتَهُ.

والمدراس والمدرس: الموضوع الذي يدرّس فيه.

والمدرس: الكتاب (والمدارس) والمدارس: الذي قرأ الكتب ودرسها.

والمدراس: البيت الذي يدرس فيه القرآن.

وفي الحديث الشّريف: تدارسوا القرآن، أي إقرأوه وتعهّدوه لئلا تنسوه، وأصل الدّراسة الرّيّاضة والتعهّد للشّيء.

أمّا الفعل الرّباعي للدّرس هو درس يدرس تدريسًا: فعل رباعي بالتضّعيف تامّ بإعطاء الدّروس عن خبرة وتجربة وحنكه وعلم.

دارس يدارس مدارسة: العلم: درسه معه.

سلك التدريس: مهنة التعليم.

1- 2- المعنى الاصطلاحي للتدريس:

ترى (الفتلاوي)، أنّه قد وردت مداخل عديدة في تحديد مفهوم التدريس يحدّد كل واحد منها صيّغًا معيّنه للتدريس

(سهيلة محسن كاظم الفتلاوي، المرجع السّابق، 2003، ص16-18.)

وفي محاولة تعريف التدريس لابدّ من الأخذ بنظر الاعتبار أكثر من مدخل وهي:

عُرّف التدريس من وجهه النّظر التقليديّة على أنه: عمليّة تقديم الحقائق والمعلومات والمفاهيم للمتعلم داخل الفصل الدّراسي.

أمّا التعريف الذي يعكس وجهة النّظر التي ترى في التدريس منظومة متكاملة من العلاقات والتفاعلات، له مدخلاته وخطواته أو عمليّاته

ومخرجاته فترى أنّ التدريس: مجموعة متكاملة من الأشخاص والمعدّات والإجراءات السّلوكيّة التي تشترك جميعًا في إنجاز ما يلزم لتحقق أغراض التدريس على نحو فعّال، أمّا (محمد زيّاد حمدان، 1985) فيعرّفه ضمن هذا الاتجاه: على أنه عمليّة تربويّة تأخذ في اعتبارها كافة العوامل المكوّنة للتعليم، ويتعاون خلالها كل من المعلم والمتعلم لتحقيق الأهداف التربويّة المرجوّة، وهناك من ينظر إلى التدريس على أنه عمليّة تفاعليّة أو اتصاليّة ما بين المعلم والمتعلم يحاول فيها المعلم اكتساب المتعلمين المعارف والاتجاهات والخبرات التعليميّة المطلوبة مستعينًا بأساليب وطرائق ووسائل مختلفة تعينه على إيصال الرّسالة مشاركًا المتعلم فيما يدور حوله في الموقف التعليمي.

ويرى (حمدان، 1985) أنّ التدريس: "عمليّة إنسانيّة أو اجتماعيّة منتجة يتمّ خلالها تحويل أفراد التلاميذ من حالة تحصيليّة متدنيّة غير كافيّة لأخرى كافية مرغوب، وهو علم تطبيقي أحد مكوّناته المتنوّعة من العلوم الإنسانيّة، الاجتماعيّة والرّياضيّة والطبيعيّة..."

(عبد اللطيف الفاربي وآخرون، مرجع سابق، ص102.)

ونستنتج من هذا التعريف أن التدريس يستهدف نقل المتعلم من وضعية معرفية، إلى وضعية معرفية جديدة تتحقق فيها أهداف التعلم المنشودة، وهو عمليّة مقصودة هادفة.

ويعرف التدريس على أنه: "علم من علوم الأداء (Paraxologie) مثل الطبّ والزّراعة والهندسة... وهي علوم تقوم على دعامتين هما:

- الأولى: معرفة نظريّة تتمثل في قوانين كل علم؛ مبادئه ونظريّاته.

- الثانيّة: ممارسات في الواقع العملي تجري على هديّ من المعارف النّظريّة بهدف اختيار مدى صدق هذه المعارف النّظريّة... والتعليم من حيث هو علم أداء علوم شتى كالسّياسة والاقتصاد والاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النّفس، وعلم التواصل، والعلوم الطبيعيّة والحيويّة"

وهذا التعريف يقرن التدريس بمفهومين متلازمين، ينبغي التحكّم فيهما من طرف المدرّس وهما:

- التحكم في المادّة العلميّة المكلف بتدريسها.

- التحكم في طرائق توصليها إلى المتعلمين، استنادًا إلى قوانين ونظريّات التعليم والتعلم ومعرفة خصائص المتعلم وشروط بناء المفاهيم والقيّم والمهارات لديه.

كما يضيف (حمدان) أنّ التدريس يقوم على ترجمة عمليّة للمنهاج التربوي وفق مراحل متسلسلة:

1- المرحلة التحضيرية: وتشمل صيّاغة الأهداف، التقويم القبلي، تصميم عمليّة التدريس واقتراح خطته في شكل أنماط تعليميّة وأنشطة للتعلم وإجراءات عمليّة إعداد بيئة التعلم.

2- المرحلة التنفيذية: وتشمل إنجاز وتنفيذ ما تمّ تحضيره.

3- مرحلة التغذية الراجعة: ويقوم فيها المدرّس بتقويم تقدّم التلاميذ وكشف مدى تأثيره عليهم ثمّ التصحيح والتوجيه.

يعرف (لجندر، 1988 ;Legender) التدريس بأنه: "مهنة قابلة للتعلم تشتمل مجموعة تقنيّات ينبغي التحكّم فيها ومهارات يتوجّب اكتسابها".

يركّز (لجندر) في تعريفه للتدريس بأنه "مجموعة تقنيّات ومهارات ينبغي أن تتوفر في من يقوم بهذا الدّور، بينما يعرف (لايف، ج، 1974 LeiF.J) التدريس بأنه: "فعل يبلغ بواسطته للتلميذ مجموعة من المعارف العامّة والخاصّة وأشكال التفكير ووسائله، ويجعله يكتسبها ويتعلمها ويستوعبها، وذلك باستعمال طرق معدّة لهذا الغرض، واعتمادًا على قدراته الخاصّة".

وانطلاقًا من هذا التعريف نستنتج أنّ التدريس هو عمليّة تستهدف تحقيق هدف محدّد باعتماد طرق ملائمة، الهدف منها مساعدة المتعلم على الاكتساب والاستيعاب.

كما يعرّف (محمّد الدريج، 1991) التدريس بأنه: "نشاط تواصل يهدف إلى إثارة التعلم وتحفيزه وتسهيل حصوله، كما أنه مجموعة الأفعال التواصليّة والقرارات التي يتمّ اللجوء إليها بشكل قصديّ ومنظمّ، أي يتمّ استغلالها وتوظيفها بكيفيّة مقصودة من طرف الشّخص (أو مجموعة من الأشخاص) الذي يتدخل كوسيط في إطار موقف تربوي-تعليمي"

(محمد الدريج،1991، ص13.)

نستنتج من ذلك أن ظواهر التعلم تشكل موضوعًا من مواضيع علم النّفس العام (سيكولوجية التعلم) فإن ظواهر التعليم تشكل محورًا أساسيًا لعلم التدريس (الدّيداكتيك) والذي يعني الدّراسة العلميّة

لطرائق التدريس وتقنيّاته ولأشكال تنظيم موافق التعلم، التي يخضع لها التلميذ قصد بلوغ الأهداف المنشودة سواء على المستوى العقلي أو على المستوى الوجداني أو على المستوى الحسيّ الحركيّ، إنّ الموضوع الأساسي للدّيداكتيك هو بالضّبط دراسة الظروف المحيطة بمواقف التعلم ومختلف الشّروط التي توضع أمام التلميذ لتسهيل ظهور التمثلات لديه وتوظيفها أو إبعادها أو ووضعها موضع تغيير ومراجعة لمختلف التصوّرات والتمثلات الجديدة.

"ويجد الباحث في مجال التدريس وطرائقه صعوبة كبيرة من تحديد مفهومه، خاصّة أنه يستخدم بمرادفات كثيرة وقد يستخدمها البعض للدّلالة على نفس المعنى: كالتعليم، والتدريب، التمرين، التوجيه..."

(عبد الله قلي ، 1994، ص124.)

نستنتج من ذلك أنّ هذا المفهوم تتداخل معه مفاهيم أخرى من الجانب الاصطلاحي وهذه الصّعوبة في الاستعمال الدّقيق، تعود للافتقار للحدود الدّقيقة الواضحة.

وعرّفه (حمدان) بأنه "عمليّة تربويّة هادفة تأخذ في اعتبارها كافة العوامل المكونة للتعليم ويتعاون خلالها كل من المعلم والتلاميذ لتحقيق ما يسمى بالأهداف التربويّة"

(عبد الله قلي، نفس المرجع، ص125.)

يتضح من هذا التعريف أنّه ينظر إلى التدريس على أنّه عمليّة إلاّ أنّه لا يزيل الغموض لعدم تضمينه لمكوّنات هذه العمليّة وما يكن أن يقوم به المعلم والتلاميذ وكيف يقومون بذلك.

أمّا (أحمد علي الفنيش) فيعرّفه بأنّه: "نشاط مقصود صمّم ليقدّم تعلمًا، وتشتمل ظاهرة التدريس على ثلاثة عناصر: المدرّس، والطالب، والمادّة الدّراسيّة ولابدّ لهذه الثلاثي أن يتسم بسمة المرونة والحركيّة".

نظر التعريف الثاني إلى التدريس على أنّه نشاط مقصود، ويفتقر بدوره إلى تحديد نوع النّشاط وما يمكن أن يدخل ضمنه وكيف يتمّ القيام به.

ونتيجة لهذه الملاحظات يتبنى (عبد الله قلي) التعريف الأتي "مجموع الأنشطة المقصودة التي يقوم بها المدرّس بهدف ترجمة الأهداف التربويّة إلى مواقف وخيرات يتفاعل معها التلاميذ ويكتسبون منها السّلوك المرغوب".

ويعتبر هذا التعريف أشمل وأدقّ، لأنه يعتبر التدريس مجموعة أنشطة يخططها وينفذها المدرّس لتحقق أهدافه التربويّة، كما تشمل هذه الأنشطة الأداء الذي يمكن ملاحظة لعدد من أشكال الفعل العلمي، وتضمّ العديد من فعاليّات التعلم، التنظيم وإدارة الفصل، عروض الشّروح، والأنصاف الحيّة، تحديد العمل والتأكّد من أدائه، والتفاعل المفيد مع التلاميذ...

2- وظائف التدريس:

يعرّف (دلاندشير وبيار، 1969 Dlandasher and Pierre,) وظائف التدريس كما يلي: "كل فعل تلفظي للتعلم ينتجه المدرّس"بينما يعرفها (بوستيك م، Postic M, 1977) بأنها: "الدّور الذي تلعبه مجموعة من الأفعال في مجال التعليم لأجل بلوغ هدف معين والمساهمة في تكييف الوضعيّات البيداغوجيّة".

إنّ وظائف التدريس تقوم على انسجام مجموعة من الأفعال الجزئيّة التي يقوم المدرّس لأجل أداء وظائف معيّنة، وهناك تصنيفات عديدة لوظائف التدريس أو التعليم منها تصنيف (دلاشير وبيار، Dlashir Pierre, 1969) :

(عبد اللطيف الفاربي وآخرون، مرجع سابق، ص146.)

2- 1- الوظائف الوجدانية:

وتشمل وجدانيّة إيجابيّة مثل المساعدة والتشجيع والجزاء وحسن الدّعابة، ووجدانيّة سلبيّة مثل النّقد والاتهام والسّخريّة والعقاب.

2- 2- وظائف التشخيص:

مثل التوضيح بأدوات (رسوم، رموز، أشياء)، أو دعوة التلميذ إلى استعمالها أو استعمال تقنيّات سمعيّة بصريّة.

2- 3- وظائف التطوير:

وتشمل وظائف وأفعال مثل التنشيط وتكليف المتعلم بالبحث الشّخصي وتنظيم أفكاره.

2- 4- وظائف التغذّية الرّاجعة:

وهي وظيفة تقويميّة تصحيحيّة تشمل تغذيّة راجعة إيجابيّة مثل تقبّل أجوبة التلميذ وتغذيّة راجعة سلبيّة مثل عدم تقبّل أجوبته.

2- 5- وظائف شخصية:

وهي وظيفة التعبير الشّخصي والتأويل الذّاتي مثل دعوة التلميذ إلى التعبير عن حالة أو وضعيّة شخصيّة.

2- 6- وظيفة التنظيم:

وهي وظيفة ضبط مشاركة المتعلم داخل القسم وتنظيم تحرّكاته وتنقلاته، وتوجيه أوامر إلى التلاميذ.

3- التخطيط للتدريس:

التخطيط للتدريس هو العمليّة التي يتمّ بها تنظيم وتصميم استراتيجيّات التدريس وسبل تنفيذه وتشمل عمليّات تحليل الحاجات وتحديد المقاصد والأهداف، وتصميم الوسائل والخدمات، وتحديد وضعيّات التقويم وأساليب التصحيح والمراجعة والتطوير ولتخطيط التدريس مستويات متعدّدة، إذ أنه قد يشمل الخطة السّنويّة والدّوريّة والشّهريّة والأسبوعيّة واليوميّة، كما أنه يمكن التخطيط لوحدة أو درس:

يعرّف (حمدان، 1985) تخطيط التدريس بقوله: "يقصد رسم مشروعات لمزيد من العنايّة بالعمليّة التربويّة واستثمار الجهود إلى أقصى حد على أن يكون التخطيط محققًا لأهداف الدّولة متمشّيًا مع التطوّر المنشود، مشتملاً على خطوات التنفيذ مبنيًّا على الواقع ومدعّمًا بالإحصاء والنّماذج والأمثلة، وعلاج المشكلات التربويّة بحلول واقعيّة ملائمة للإمكانيّات ومسايرة لمقوّمات المجتمع وأهدافه" (عبد اللطيف الفاربي، مرجع سابق، ص268)

إنّ تخطيط التعليم يتطلب تنظيمًا قبليًّا، وهذا التنظيم يستند على تخطيط التعليم، أي على الخطوات التي ترمي إلى "تعليم شيء ما لشخص ما"، وهذا التخطيط ينقسم إلى خمس خطوات أساسيّة:

1- تحديد الأهداف المراد بلوغها:

هذه المرحلة يمكن أن تقسّم بدورها إلى درجات تنحدر من العامّ إلى الخاصّ الإجرائي:

أوّلها: تصنف الأهداف وفق مجالاتها: - المعارف. - المهارات.- المواقف.

ثانيها: تصنف الأهداف عموديًّا داخل كل مجال، فالمعارف يمكن تذكّرها أو فهمها أو تطبيقها أو تحليلها.

ثالثها: تحوّل هذه الأهداف المصنّفة إلى إنجازات ملموسة توحي بمحتويات دروس معيّنة.

رابعها: تحول هذه الإنجازات إلى سلوكات قابلة للقيّاس والتمحيص.

2- اختيار وتنظيم المحتوى:

ينبغي بعد هذه المرحلة الأولى أن نختار المحتويات التي تمكّننا من بلوغ الأهداف، وأنّ تنظم هذه المحتويات بكيفيّة يسهل اكتسابها وتتدرج من السّهل إلى الصّعب ومن البسيط إلى المعقّد.

3- انتقاء وتنظيم تجارب التعلم:

ينبغي في هذه المرحلة تحديد وتنظيم الكيفيّة التي ستبلغ بها الأهداف، أي: كيف سنحقق الأهداف، وفي أيّة وضعيّة؟ ووفق أيّة تقنيّة؟ وما نوعيّة المكتسبات التي ستنجز...؟ وهناك كثير من التجارب يمكن أن نصنفها إلى نمطين: نمط يمكننا من اكتساب معلومات جديدة وإدماجها في المعلومات التي سبق اكتسابها، وتجارب تنتج لنا إمكانيّة تنظيم هذه المعلومات.

4- صياغة وتنظيم استراتيجيات التعليم المراد استعمالها:

يتعلق الأمر هنا بنمط السّلوكات والتدخلات والمواقف التي ستقود الدّرس والتي ستمكّن من تحقيق الأهداف، وهي المهارات التي تتيح اكتساب المعارف وتطبيقها وتحليلها، والنّموذج المساعد على التعلم الحقيقي داخل القسم، والذي يحكم العلاقات بين التلاميذ وسلوكاتهم.

5- توقع أنماط التقويم:

ويتعلق الأمر بتوقع نوع التقويم الذي سينجزه التلاميذ: كيف ومتى وبأيّ وسائل سنتأكّد من نتائج التعليم ومن نجاعة المحتويات والتجارب والإستراتيجيّة التي اخترناها ووظفناها.

6- دافعية المعلم للتدريس:

يندر الحديث عند التربويين عن دافعية المعلم للتدريس، إذ على العكس من ذلك نجد أن الاهتمام انصب على المتعلم ودافعيته للتعلم، وكذا المنهاج الدراسي ومكوناته، ولعل مرد ذلك إلى الاهتمام الذي أولته التربية الحديثة لمحورية ومركزية المتعلم في العملية التعليمية التعلمية الذي كان أحيانًا على حساب دور المعلم والاهتمام به، ولكن بدأ الاهتمام بالمعلم في ستينيات القرن الماضي من ناحية الكفاية التعليمية أو التدريسية -التي تصب بدورها في نهاية المطاف لصالح المتعلم-، لكن لا يعني ذلك الانصراف كلية عن دور المعلم وأهميته والاهتمام به وعن المهمات

العسيرة التي يؤديها والوظائف الشاقة التي يمارسها ويضطلع بها.

إن المسؤولية الأساسية للمدرس هو إثارة التلاميذ وحفزهم على التعلم الفعّال عن طريق الأساليب الفاعلة من أسئلة، ومناقشات، وفرصة إبداء الرّأي، والاستنتاج، وإصدار الأحكام، واكتساب ملكة النّقد والتقويم لديهم وغير ذلك مما يتحقق على إثره إشباع رغباتهم وميولهم، ويأخذ بأيديهم إلى معرفة الطرائق والأساليب التي يحصلون بها على المعرفة، ويدربهم على التفكير النّاقد في المسائل والمواقف المختلفة، التي تكسبهم الشّجاعة والصّراحة في حدود الحريّة الملتزمة التي تحترم الآخرين.

ذلك أنّ مهمّة المعلم الأساسيّة إمّا تقوم على صيّاغة العنصر البشري الذي يضمن استمراريّة الكينونة البشريّة وتقدّمها، فحتى تتحقق الأهداف المتوخّاة من العمليّة التعليميّة لابدّ من الاهتمام بجميع الأطراف الفاعلة فيها بمن فيهم المدرّس ودافعيّته للإنجاز.

وباعتبار المعلم عنصرًا مهمًّا في العمليّة التربويّة والتعليميّة يتفاعل مع الظروف المحيطة به سواء كانت مدرسيّة أو غيرها ويمارس أدوارًا متنوعة، فإنّ الدّراسات أثبتت أنّ أهمّ العناصر التي تدفعه للعمل تتمثل في "الطموح، المثابرة، سلوك الإنجاز، المخاطرة، التنافس، حب التفوق، إدراك الزّمن، الاهتمام بالامتيّاز، إنجاز العمل بسرعة ودقة، تحقيق مكانة مرتفعة بين الآخرين، عدم الإحساس بالملل، الرّغبة في التغلب على الصّعوبات، الاستقلال، وضع أهداف تتناسب مع القدرات الذاتيّة، الإقدام على الأعمال الصّعبة في مقابل الأعمال الرّوتينيّة، بذل الجهد والصّبر عليه، الإصرار على إنجاز الأهداف البعيدة

(عبد الرّحمن صالح الأزرق،2000، ص146.)

ذلك أنّ أهم مكاسب المدرس النّاجح في القسم هو أن يكون لديه مستوى مرتفع من الدافعية للتدريس والاتجاه الإيجابي نحو مهنته، ليحقق تفاعلاً جيّداً ومثمراً مع التلاميذ، ذلك الدور الشاق الذي لا يكون إلا إذا تميّز بصفات تؤهله لإقامة تفاعل مؤثر في حياة التلميذ.

والمستوى المرتفع من الدافعية للتدريس يجعل من المدرس أن يكون ناجحًا وبالتالي يؤثر بصفة مباشرة وبصورة بناءة في حياة النّاشئة، وتوجيه مسارهم النّمائي ومساعدتهم على اكتشاف قدراتهم العقليّة ومن ثمّة مساعدتهم على الصّمود أمام صعوبات التوافق وغيرها من المعوقات التي تعرقل سيرورة نموهم نظرًا لما يتميّزون به من قلة الاستقرار والثبات في هذه المرحلة من التعليم. (أحمد شبشوب،1991، ص298-299.)

المبحث الثالث: المقاربـــة بالكفاءات

تعد المقاربة بالكفاءات، إحدى البيداغوجيات التي تترجم أهمية العناية بمنطق التعلم المركز على المتعلم وأفعاله، وردود أفعاله إزاء الوضعيات المشكلة، في مقابل منطق التعليم الذي يرتكز على المعارف التي ينبغي إكسابها للمتعلمين، وجاءت هذه المقاربة كجيل ثالث لمقاربات سابقة تواكب التطور شهده العالم في التربية والتعليم والذي تبنته وزارة التربية الوطنية، وعلى أساسها تم بناء المناهج الجديدة التي شرع في تطبيقها ابتداء من السنة الدراسية 2004/2003.

1- مفاهيم :

كلمة بيداغوجية، كلمة ذات أصل يوناني تتكون من مقطعين هما: Peda وتعني الطفل، وGogie وتعني علم، أي علم وفن تربية الطفل.

وعند جمع المقطعين Pédagogie يصبح المعنى الكامل للمصطلح هو علم تربية الطفل.

أما كلمة مقاربة، الذي يقابله المصطلح اللاتيني Approche، فإن معناه، هو الاقتراب من الحقيقة المطلقة وليس الوصول إليها، لأن المطلق أو النهائي يكون غير محدد في المكان والزمان.كما أنها من جهة أخرى خطة عمل أو إستراتيجية لتحقيق هدف ما.

وفيما يخص مصطلح الكفاءة الذي يقابله في اللغة الأجنبية La Compétence، فالمقصود به هو مجموع المعارف، والقدرات والمهارات المدمجة، ذات وضعية دالة، والتي تسمح بإنجاز مهمة أو مجموعة مهام معقدة.

والكفاءة بصورة عامة "مجموعة من التصرفات الاجتماعية/الوجدانية ، ومن المهارات المعرفية او من المهارات النفسية الحس/حركية التي تمكن من ممارسة دور، وظيفة؛ نشاط، مهمة أو عمل معقد على أكمل وجه"

(فوزي بن دريدي، 2002، ص08)

2- خصائص التدريس بمقاربة الكفاءات

- تفريد التعليم بتشجيع الاستقلالية والمبادرة لدى المتعلم، مع إيلاء عناية خاصة بالفروق الفردية بين المتعلمين.
- قياس الأداء بالاهتمام بتقويم الأداءات والسلوكات بدلا من المعارف الصرفة النظرية .
- إعطاء حرية أوسع للمدرس في تنظيم أنشطة التعلم وتقويم الأداء.
- دمج المعلومات لتنمية كفاءات أوحل إشكاليات في وضعيات مختلفة .
- توظيف المعلومات وتحويلها لمواجهة مختلف مواقف الحياة بكفاءة (استغلال الموارد المكتسبة).

وعلى هذا الأساس، فإن العلاقة بين المداخيل البيداغوجية المختلفة، هي علاقة تكامل وترابط.

(محمد الصالح حثروبي ،2002، ص12)

3- مستويات الكفاءة :

أ – في المقاربة السابقة (التعليم بالأهداف)

نجد :

الغاية، المرمى، الأهداف العامة، الأهداف الخاصة، الأهداف الإجرائية

ب- في المقاربة الجديدة (التعليم بالكفاءات) نجد:

الغاية، المرمى، الكفاءة الختامية (كفاءة نهائية)، الهدف الختامي المندمج، الكفاءة القاعدية، الهدف التعلمي.

ولإبراز جوانب الاختلاف بين المقاربتين على صعيد مستوى الكفاءتين السابقتين، والجدول الموالي يوضح التباين بين المقاربة الحالية والسابقة:

جدول رقم (01) : يوضح الفرق بين المقاربة الحالية والمقاربة السابقة

المقاربة بالكفاءات	مقاربة سابقة
- منطق التعليم والتكوين. - من أجل المشكلات. - الاعتماد على وضعيات ذات دلالة. - أهمية المسار تسبق أهمية النتيجة . - الاهتمام بالعمل الفردي والجماعي معا. - الإدماج الفعلي الأفقي والعمودي المتواصل. - النظرة الشمولية والكلية. - الخطأ مؤشر لتعديل المسار وبناء التعلمات. - ربط الحياة بالواقع.	- منطق التعليم والتعلم. - مبدأ الاكتساب والأداء البسيط. - الاعتماد على كل الوضعيات البعيدة. - الاهتمام بالنتيجة. - الاهتمام بالفعل الفردي أولا ثم الجماعي ثانيا. - ربط آلي وتراكمي. - أولية الجزء. - الخطأ عيب يترتب عنه جزاء . - غياب الربط وإن كان فهو شكلي. - الانطلاق من الغير.

- الانطلاق من الذات. - الاهتمام بالمعرفة الفعلية. - الاعتماد المحكّ كمرجع. - إستراتيجية التعليم الخاص بكل فرد. - نتعلم لنتصرف.	- الاهتمام بالمعرفة. - الاعتماد على المعيار كمرجع . - إستراتيجية عامة تهم الجميع. - نتعلم لنعرف وننجز.

http://dlamjia.arabblogs.com/123/archive/2007/10/354110.html

4- مستجدات المنهاج:

أ- من مفهوم البرنامج إلى مفهوم المنهاج:

إن تطبيق بيداغوجية المقاربة بالكفاءات، يستلزم التخلي عن مفهوم البرنامج، والانتقال إلى مفهوم المنهاج؛ إذ الأول عبارة عن مجموعة المعلومات والمعارف التي يجب تلقينها للطفل خلال مدة معينة، في حين أنّ الثاني يشمل كل العمليات التكوينية التي يساهم فيها التلميذ، تحت إشراف ومسؤولية المدرسة، خلال مدة التعليم، أي كل المؤثرات التي من شأنها إثراء تجربة المتعلم خلال فترة معينة.

لذا، فالمناهج الجديدة، التي اعتمدت المقاربة بالكفاءات، تجيب على التساؤلات الآتية:

- ما الذي يتحصل عليه التلميذ في نهاية كل مرحلة

ب- من معارف وسلوكات وقدرات وكفاءات؟

والجدول الآتي يبرز لنا مميزات ومواصفات المنهاج وفق المقاربة بالكفاءات.

- جدول رقم (02) : يوضح مواصفات المنهاج وفق المقاربة بالكفاءات

الأهداف/ الكفاءات	- واضحة ودقيقة قابلة للتحقيق - تشتق من خصائص المتعلمين وميولهم وتصاغ على شكل قابل لملاحظة والقياس
مجالات التعلم	- المعرفية –الحس حركية- الوجدانية - تهتم بالنمو المتكامل والمتوازن لشخصية المتعلم في كل المجالات
المحتويات والمضامين	- دقيقة ومتدرجة من حيث البناء - هدفها مساعدة المتعلم على التكيف مع بيئته الطبيعية والاجتماعية - عبارة عن خبرات وموارد يجب أن يمتلكها المتعلم لبناء كفاءاته
مصادر التعلم	- متنوعة في الوسط المدرسي وخارجه، والمدرس ما هو إلا مصدر منها مثل:الكتب،الأفلام،وسائل الإعلام،الرحلات....
طرائق	- النشطة والفعالة، والتي تدفع المتعلم لاكتشاف المعرفة بنفسه :

التدريس	حل المشكلات/المشروع/ التعلم التعاوني...
الأنشطة اللاصفية	رافد من روافد التعلم المختلفة،متنوعة، ومرتبطة بالحاجات الحقيقية للمتعلم، محفزة على الإبداع وتفتق المواهب.
دور المدرس	-منشط ومنظم، ومسهل لعملية التعلم - يعد الوضعيات، ويحث المتعلم على التعامل معها ، ويتابع من خلال التقويم.
دور المتعلم	- محور العملية التعليمية –التعلمية، فهو العنصر النشيط فيها فهو ينجز، يبادر، ويساهم في بناء التعلمات، ويمارس في جو تعاوني.
التقويم	- جزء من عملية التعليم والتعلم فهو مدمج فيها، وملازم لها - كاشف للنقائص، ومساعد على استدراكها أداة للكشف عن مدى تمكن التلاميذ من الكفاءات المستهدفة، وسيلة لتعزيز العلاقة بين المدرس والمتعلم والأسرة.

(محمد الصالح حثروبي ،2012، ص27)

ج- المقصود بالوضعية / مشكل (Situation Problème) :

هي الوضعية التي يستعملها المدرس، لجعل تلاميذه يبحثون، وتتميز بتسيير خاص للقسم، وتقترح لإثارة تعلم معارف جديدة.

-يعرف لنا Philippe Meirieu)) وضعية مشكل بكل بساطة هكذا:الشخص، وهو يقوم بمهمة، يواجه عائقا .

.

-هي مجموعة من المعلومات في سياق معين ،و التي يجب استغلالها من أجل مهمة محدودة ،إذن هي حالة،مشكلة يجب حلها، مشروع

-وضعية مشكل هي وضعية للتعلم.

-هي وسيلة للتعلم و ليست نتيجته.

-هي إستراتيجية تعليم تساعد على مشاركة المتعلمين.

-تسمح ببناء معارف جديدة ، تنتهي إلى إنتاج محدود.

-ذات دلالة بالنسبة للمتعلم: تمثل تحديا،و تبين له لأي غرض تصلح المعارف ولمهارات .

-وضعية المشكل تقتضي القيام بمهمة معقدة (تستدعي عدة معارف)، هي ذات دلالة بالنسبة للتلميذ تمثل تحديا واقعيا يصادفه في الحياة، و هي إجمالية تامة ،تحتوي على هدف.

-يمكن القول إذن إن الوضعية المشكل هي وسيلة من الوسائل التعليمية ، و حسب التعريف نستخلص أن للوضعية المشكل عناصر:

أ- المهمة : و هي التعليمة الموضحة لطبيعة العمل الذي يجب أن ينجزه المتعلم .

ب- العائق : الحاجز الذي لا تتم المهمة إلا باجتيازه و الذي يمثل الهدف الحقيقي لبناء التعلم.بالنسبة للمعلم.

د- القيد : الشرط الذي يفرض إتباع نظام عملي جعل المتعلم مضطرا على مواجه العائق.

ج- السند :الوسيلة التي تكون في حوزة المتعلم و تساعده على اجتياز العائق .

http://www.ouarsenis.com/vb/showthread.php?t=2423

أما كيف يستطيع المدرس بناء وضعية مشكل، فإنه يستطيع بناء هذه الوضعية بطرح الأسئلة الآتية

على نفسه :

- ما هي معارف التلميذ التي يجب زعزعتها بوضعية/ مشكل؟
- هل بإمكان التلاميذ الشروع في حل المشكل؟
- ما هي مختلف فترات النشاط؟
- ما هو دوره أثناء مختلف فترات النشاط؟
- كيف يسير القسم؟

ولتوضيح الممارسة التعليمية الجديدة، يمكن للمدرس أن يقترح في عدة أحيان وضعيات متنوعة لأعمال أفواج، أنشطة جماعية للقسم، لحظات عمل فردية، بحيث تدفع التلميذ إلى أن يكون فاعلا: يقترح حلولا ويقارنها مع زملائه، ويدافع عن حلوله ويعدلها إذا لزم الأمر... الخ، ويكون دور المدرس هو تسيير النقاش داخل القسم وهو المسؤول. على أن يقترح في الوقت المناسب عناصر المعرفة الواردة في البرنامج.

من جهة أخرى، فإن المشكلات التي يطرحها ليست تطبيقات، بل هي مشكلات للتعلم، وظيفتها الرئيسية، إثارة الرغبة في البحث عند التلميذ، أو إعطاؤه الفرصة ليتعلم كيف يبحث، ومن ثم فهي تسمح له بأن يستعمل معارف سابقة لفهم العمل المطلوب منه ليشرع في إجراء للحل، مع جعله يكتشف حدود معارفه.

خلاصة:

خلاصة لما سبق ذكره، تعد الدافعية إحدى المفاهيم التي ارتكزت عليها المباحث الأولى لعلم النفس، بل ولا زالت ترتكز إلى اليوم، كونها تمثل مفهومًا مركزيًّا، باعتباره محددًا مهمًّا من محددات السلوك الإنساني، لذلك حاولت هذه الدراسة توضيحه في المبحث الأول بدءًا من تعريف الدافعية ووظيفتها وأنواعها وإبراز النّظريّات المختلفة التي فسّرت السّلوك من خلاله المتمثلة في النظريات التالية النظرية الارتباطية، نظرية التحليل النفسي، النّظريّة الإنسانيّة، النظرية المعرفية، ، نظرية التعلم الاجتماعي، نظرية التنافر المعرفي،.

وتطرقت في المبحث الثاني من هذه الدراسة إلى التدريس؛ فتمّ تعريفه لغةً واصطلاحًا، وإلى وظائفه ثم التخطيط للتدريس نظرًا للصلة الوثيقة لهذه المفاهيم بالتدريس، كما تم التطرق إلى دافعية المعلم للتدريس وفي نهايتها تم الحديث على بيداغوجيا المقاربة بالكفاءات.

الهوامش:

أ- العربية

1- عبد الرحمن الوافي، مدخل إلى علم النّفس العام، الخنساء للنّشر والتوزيع، الجزائر،1998.
2- محمد مصطفى زيدان، نظريّات التعلم وتطبيقاتها التربويّة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الطبعة الأولى، الجزائر، 1985.
3- محي الدين توق وعبد الرّحمن عدس، أساسيّات علم النّفس التربوي، جون وايلي وأولاده، نيويورك، 1984.
4- جابر عبد الحميد جابر، سيكولوجية التعلم ونظريّات التع حسين ياسين طه وأميمة علي خان، علم النّفس العام، الطبعة الأولى، جامعة بغداد، 1990،.ليم، دار الكتاب الحديث، الكويت، 1990،
5- فرج عبد القادر طه وآخرون، معجم علم النّفس والتحليل النّفسي، دار النّهضة العربيّة للنّشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت،
6- حسين ياسين طه وأميمة علي خان، علم النّفس العام، الطبعة الأولى، جامعة بغداد، 1990.
7- مصطفى عشوي، مدخل إلى علم النفس المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الطبعة الثانيّة، الجزائر، 1994.
8- أحمد عزت راجح، أصول علم النّفس، دار الكتاب العربي، الطبعة السّابعة، القاهرة، 1962.
9- محمد شطوطي، علم النفس وصلته بالتربيّة في بناء شخصيّة الطفل، دار شرشال للنّشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 2002.
10- عماد الزغلول وعلي الهنداوي، مدخل إلى علم النّفس، دار الكتاب الجامعي، الطبعة الثانيّة، العين (الإمارات العربيّة المتحدة)، 2007.
11- عبد المجيد نشواتي، علم النّفس التربوي، دار الفرقان، الطبعة التاسعة، عمّان، 1998.
12- عبد اللطيف محمد خليفة، الدافعية للإنجاز، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 2000.
13- سهيلة محسن كاظم الفتلاوي، كفايات التدريس المفهوم التدريب الأداء، دار الشّروق للنّشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 2003.

14- محمد الدريج، تحليل العمليّة التعليميّة: مدخل إلى علم التدريس، كليّة علوم التربيّة، مركز تكوين مفتشي التعليم، الطبعة الثانيّة، الرّباط، 1991.15- عبد الله قلي، أسلوب التدريس، قراءات في طرائق التدريس، كتاب الرّواسي 3، جمعيّة الإصلاح الاجتماعي والتربوي، الطبعة الأولى، باتنة (الجزائر)، 1994.
16- عبد الرحمن صالح الأزرق، علم النّفس التربوي للمعلمين، درا الفكر العربي (بيروت)، ومكتبة طرابلس العلمية العالمية (ليبيا)، الطبعة الأولى، 2000.
17- أحمد شبشوب، علوم التربية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1991.
18- محمد الصالح حثروبي،المدخل إلى التدريس بالكفاءات، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر،2002.
19- محمد الصالح حثروبي،الدليل البيداغوجي وفق النصوص المرجعية والمناهج الرسمية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر،2012.
20- فوزي بن دريدي ، الوافي في التدريس بالكفاءات، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر،2002.
21- ويلارد أولسون، تطور نمو الأطفال، ترجمة حافظ إبراهيم وآخرون، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، 1962.

ب- الأجنبية والإنترنت:

199922- Norbert Sillamy, Dictionnaire De Psychologie, Larousse, Edition Hardcover France.
23- http://www.nassarz.net/ithteerabatalaghallalgadaly/aldafeea/aldafeea.htm.
24- http:// www. dlamjia.arabblogs.com/123/archive/2007/10/354110.html
25- http://www.ouarsenis.com/vb/showthread.php?t=2423

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 13 - 24
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الدلالة في تداخل السرد القصصي بالشعر
– شعر إيليا أبي ماضي أنموذجا.

طارق ثابت
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن دلالة التداخل بين القصة والشعر؛ لأن الدارس يقف مندهشا أمام دلالة هذا التداخل أولا، وإلى جنس هذا اللون من الأدب ثانيا؛ فهل يرجع هذا إلى نضج الشعر عند العرب حتى استوى على هذا الوجه من الصناعة التي تطفح بالحكاية والقص، أم هو تطور مس القصة و الشعر ذاته، وبخاصة إذا نظرنا إلى قضية ميلاد القصة في الأدب العربي باعتبار أن ذلك من أهم القضايا التي أسالت لعاب النقاد ومؤرخي الأدب؛ فمنهم من يذهب إلى نفي ظهورها في العصر الجاهلي ويراها حديثة الظهور ويستند في ذلك إلى غياب النصوص القصصية ذات البعد الفني الناضج في تلك الفترة، ويعلل ذلك بعجز العقل العربي عن التحليل، ويذهب البعض الآخر إلى الاعتقاد بوجودها في تلك الأزمنة مستدلا على ذلك بما وصلنا من أقاصيص شعرية كخبر السموأل بن عادياء، وامرئ القيس وغيره.

وقد توصلت هذه الدراسة في نتائجها أنه كيفما كان البحث في وجود القصة العربية فإن رأس الأمر أننا حيال أعمال قصصية متناهية في الطرافة، بل أمام شعر قصصي مفعم بالدلالة في تداخل الشعر والسرد معا، وقد أخذنا في ذلك تجربة إيليا أبو ماضي الشعرية أنموذجا لأنها الأقرب للتحليل والتطبيق.

Abstract

This research aims to study how the twolitereture subgects " the story and poetry" overlap;first, because the students finds himself astonished twoards the segnificance of this overlapping and secondly, because of this style of literature emerged .the question is it due to the poetry maturity that belongs to the arab.till it reached a great literature's indusrialisation.which overflew on the tale and the story and then been deeply overlap. to the developpement of these two types of literature themselves ."? Especially if we we think of the story's birth in the arab literature considering that was one of the the critisizers and literaure historian's intersting subject .Among them who deny its emergency before the the isslamic era and take it as a new subject articulating on the absence of the story that includes an atistic dimention in that time, thinking that also because the

arb brin's infermity to analyse.Others think that the existance of this kind of literature emerged erlier and goes to the past era relying on what reached us as poetic stories like " Khaber Assmoual ben Adia" and " amroua El kays" and others.The study conluded that that however is is the research found the arabic "story" the truth is that talking about this matter is uncommon and also considered by a type of poeitry which is full of significance through poetry and narration which are overlap .We took as an example " Ilia Abou Mathi's experience in poetry because it's close to anlysis and application

أولا-مقدمة:

الشعر كما يُعرّف " قول موزون مقفى، يدل على معنى"، وعلى هذا الأساس يصبح للشعر تميزه الواضح عن الفن القصصي، والناشئ من استقلاله البين عنه في شرطي الوزن والقافية؛ لأن القصة عبارة عن مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة، أو حوادث عدة تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها، وتصرفها في الحياة على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض، و يكون نصيبها في القصة متفاوتا من حيث التأثر والتأثير، وبهذا يمكن القول أن ما نصطلح على تسميته شعرا قصصيا لون من الأدب قائم على المجانسة بين القصة والشعر كليهما ولهذا فالشعر القصصي جنس أدبي يتداخل في تشكيله نوعين أدبيين مختلفين؛ هما الشعر والقصة، فبحكم أنها قصيدة، لابد أن تَكون شعراً و بحكم أنها قصصية لابد أن تنقل إلينا قصة؛ فهي شعر وقصة في آن واحد، وبمقدار متساوٍ، وللشعر القصصي صور متعددة، بعضها بدأ ظهوره في التاريخ القديم، هو الشعر الملحمي، والبعض الآخر ظهر في القرون الوسطى، وكان لونا متنوعا من القصص المنظوم أطلق عليه الغربيون Romances، ويمكن أن نسمي هذا النوع بالشعر الروائي، وقد كان للشعر العربي القديم قصصه التي تتلاءم مع بيئته وظروفه التي كانت في بعض صورها عبارة عن منظومات لأمثال ذات واقعة وحوار، أو شرائح تمهد لمعنى يستهدفه الشاعر؛ كهذه التي نلقاها ضمن معلقتي امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى في الجاهلية على سبيل المثال.

أ-مشكلة البحث: تتمثل في التأكيد على أن طبيعة الجنس الأدبي وحدها لا تكفي لتكون زادا للكاتب أو الشاعر كي يبث الرسالة إلى المتلقي بل إن كفاءة الناص ونضج أدوات الفن لديه من شأنهما أن يمكنا العمل الأدبي من أن يكون جادا و مناوشا لأعماق المتلقي .

ب-الهدف من البحث: إن الهدف من وراء هذا البحث هو الكشف عن الفروق الجوهرية بين القصة النثرية والشعرية، وبيان أن الشعر العربي ليس بعاجز عن تحقيق الفكرة القصصية التي تعتبر هدفا أسمى للقاص، وهو فوق ذلك قادر على تجاوز وظيفة التوصيل – عبر هذا الجنس الأدبي – إلى الإثارة الفنية الدلالية.

ج-منهجية البحث: حاولت أن تكون مقاربتي النقدية على حظ من التطبيق وذلك بتمييز النصوص القصصية ، وتبين خصائصها الفنية من حيث كونها شعرا، محاولا الإفادة مما وسعني من أدوات التحليل ، الإحصائي البنيوي، وربما التاريخي في بعض الأحايين بالنظر إلى مرحلة البحث وما تستدعيه من طبيعة الأدوات النقدية المسعفة ومن بين المراجع التي سبقت إلى هذا الحقل الأدبي كتاب القصة الشعرية في العصر الحديث للدكتورة عزيزة مريدن والذي آثرت الكاتبة أن تجعله رصدا موفقا لأهم الخصائص، الفنية العامة للقصة الشعرية العربية في الحقبة المذكورة ، لدى عدد كبير من الشعراء القصاصين . كما وضع الدكتور مصطفى عليان دراسة مشابهة بعنوان " الغزل القصصي في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي " ،والكتاب كما نلاحظ - وإن كان يستوعب فضاء تاريخيا واسع النطاق إلا أنه يوجه اهتمامه إلى موضوع الغزل فلا يعدوه .

ثانيا-القصة في شعر إيليا أبي ماضي:

يُعتبر إيليا أبو ماضي[1] في طليعة شعراء المهجر الذين استهوتهم القصة في شعرهم، وعالجوا بأسلوبها معظم أفكارهم، وموضوعاتهم؛ حيث غلب على شعره هذا اللون وفاضت دواوينه بأنواع كثيرة من القصة ما بين أسطورية أو غير أسطورية، ومابين طويلة متنوعة القوافي والأوزان، وقصيدة في صورة مقطوعات، وكلها تنطق بالحكمة والعظة، وتستظهر العبر الأخلاقية في المجتمع الإنساني؛ هذا ولقد كان نزوع أبي ماضي إلى هذا اللون الأدبي في شعره الأدبي تأثرا بما نظمه بعض شعراء العربية كخليل مطران فيما وضعه من أقاصيص، متلّت باعثا جديدا لهذا الشعر في أدبنا الحديث؛ إذ" كان إيليا أبو ماضي قد عاش في مصر في فترة كان فن مطران القصصي قد ذاع في المحافل الأدبية، وانتشر بين الأدباء، ولم يكن إيليا قد اتصل بعد بالثقافة الغربية واتخذها موردا من موارد ثقافته، ولهذا فقد كان من الطبيعي أن يتأثر إيليا بمطران في مذهبه الأدبي عامة وبالاتجاه القصصي بصفة خاصة "[2]، وغني عن الذكر أن نشير إلى أن لفيفا من الشعراء المحدثين إلى جوار الشاعر كان لهم من التوفيق في هذا الفن القصصي حظا لا يخفى على قارئ التراث الشعري الحديث، من أمثال: (ندره حداد)، و (إلياس فرحات)، و(الشاعر القروي)، و(فوزي المعلوف) و (إلياس أبو شبكة)؛ غير أن إيليا أبو ماضي يعد " من أكثر شعراء المهجر تناولا للقصة الفنية من حيث العدد والنوع "[3]، ولئن عددنا ما توافر على عناصر القص مجتمعة في قصائد الشاعر؛ فإن ثمة من قصائده المتعددة ما يشكل الحوار فيها رافدا فنيا هاما يجعلها أقرب ما تكون إلى الشعر القصصي، وإن هي لم تستوف في نظامها شروط هذا الفن؛ فكثيرا من شعر أبي ماضي " يدخل في باب القصة، أو الحوار فهو يضع في القصة أو المحاورة أفكاره وعواطفه على لسان غيره، وحسبك أن تستمع إلى مطالع بعض قصائده في ديوان الخمائل لتدرك أنها فواتح قصص أو محاورات "[4]

ولقد تنوع القصص الشعري لدى الشاعر إيليا أبو ماضي وتعددت مضامينه، فعرَف القصة ذات الطابع الرومانسي، وذات الطابع الواقعي، والقصة ذات البعد الرمزي، أو الاتجاه الأسطوري، وهي في مجملها تعتمد على خيال الشاعر بدرجة أولى في حبكتها وبنائها الفني وتجسيدها للشخصية والحدث.

والشعر القصصي بهذا كله يعد ملمحا من ملامح التجديد لدى الشاعر، وهذا التجديد هو بالأساس في شكل القصيدة، وقالبها القصصي؛ والذي أثر أيضا في نظامها الإيقاعي، والوزن، وطبيعة القافية باعتبار أن هذا الشعر القصصي؛ جنس أدبي يعود في أساليبه إلى الشعر، فوق كون القصة مظنة لحركته النصية، ومصدرا لدلالات الفعل وديناميكيته، ولعل من أشق ما يعترض الشاعر عامة في سبكه القصصي، ذلك الأسلوب الدقيق من العرض اللغوي المتوالي في أبنيته، والذي نصطلح على تسميته بالسرد كعنصر مميز للقصة، و السرد" أسلوب تقرير الأحداث، وسوقها في سياق يوقعه الشاعر وفقا لطبيعة الانفعال، والشعر لا يقبل السردية؛ لأن الحديث الذي تلم به يقع في حدود النثر وعالم الوعي إلا أن السرد قد يشف وقد يتكاثف وفقا لدربة الشاعر" [5]، ومن أجل ذلك يعد السرد كشكل من أشكال التعبير في القصص الشعري أمرا من الصعوبة بمكان؛ بل إنه ليكاد يهوي بالعمل الشعري إلى مأزق التقرير، والإطناب الذي تضمر معه شعرية القصة وبناؤها المزدوج، ما لم يتكفل القاص بعرض فلذاته السردية على نحو خاص يراعي قالبها الفني، ولغة السرد بعد ذلك هي التي تنقل إلينا القصة من إطارها الواقعي إلى عالمنا اللغوي المقروء، فالحادثة الفنية هي تلك السلسلة من الوقائع المسرودة سردا فنيا، التي يضمها إطار خاص، والحدث في القصة يمثل مادة للغة السردية منها يصدر وعنها يُعبر.

وتقصّي دلالة اللغة في القصة الشعرية، يستوجب الوقوف عند تراصف الأحداث، وتواليها باعتبار ذلك نتاجا لأنساق تلك اللغة ذاتها، و بعدا دلاليا لحاضر الواقع اللغوي فـ"النص القصصي يمكن تجزئته إلى وحدات بسيطة يقدم في كل منها على الأقل حدث بسيط أو وظيفة بسيطة بحيث يتكون من هذه الوحدات جملة متتاليات سردية يتيح النظر في هذه الأخيرة تمييز التي تقع حديثا قبل تلك التي انطلق منها القصص أو التي يتابعها في سيرورته بعد نقطة

الانطلاق هذه، كما يتيح تمييز المتتاليات التي تقع بعد تلك التي يتوقف عندها القصص أو التي لم يتناولها بعد في السياق التتابعي الذي تندرج فيه "[6]، وفي مقاربتنا النقدية لنسيج السرد القصصي ودلالته اللغوية في شعر إيليا القصصي؛ نجد أن ما لدينا من حكايات شعرية قد سار في مسافات ذات موضوعات مختلفة فمنها القصص الاجتماعي والعاطفي، والأخلاقي، والأسطوري وغير ذلك، أما من الناحية الفنية فقد شكل الملمح الرومانسي نظاما عاما لأشكال العرض السردي لتلك الأقاصيص على نحو ما ميز القصص الشعرية في العصر الحديث عامة؛ لأن" الطريقة الرومانسية في عرض هذه الأقاصيص هي الغالبة عليها فلا تكاد تخلو أقصوصة من الخيال المجنح، والتصوير الدقيق الذي يرسم الشخصيات و الأجواء في صور تشبيهية حية و مجسمة، كما نلمس فيها الحزن العميق و مزج الطبيعة من حول أبطالها بالعواطف الإنسانية وعكس المشاعر الحساسة المنفعلة على الطبيعة "[7].

وقد أتاح أبو ماضي للسرد مساحات من لغته القصصية، وذهب إليه كلما ألحت الحاجة الفنية، ولم يعد للحوار المباشر قوة للبلاغ وحده، وربما استعان به في القصة بكاملها، وأصبح وسيلة لرواية الأحداث ووصف الشخصيات، والأبطال وصفا تستغني عن لوحات الحوار أو يكاد، في الكثير من قصائده الشعرية.

ثالثا-أنماط السرد القصصي في شعر أبي ماضي:

وإذا كان السرد في مفهومه هو" نقل الحادثة من صورتها الواقعة إلى صورة لغوية "[8]، فقد اعتمد هذا النقل عند أبو ماضي على طريقتين لرواية الأحداث و توصيفها:

أ- السرد المباشر: و هو نوع من العرض للأحداث؛ كلي في نقله لأجزاء الحكاية إذ " يقوم فيه الراوي بذكر أحداث حصلت قبل زمن السرد؛ بأن يروي أحداثا بعد وقوعها"[9]، مُلمّا بكل جوانب تلك الأحداث، بالنظر إلى الشكل الذي نمت به محاورُها إلى سمعِهِ فنقلها إلى صورتها الفنية، فإذن هنا " تكون العلاقة بين القصة وبين الفعل السردي؛ علاقة بعدية أو لاحقة؛ حيث تبدأ لحظة السرد بعد انتهاء القصة. "[10]، و حين يبدأ الشاعر في عرضه ذاك فإنه يعرض إلى كل ما يتعلق بقصته الشعرية بما في ذلك عناصرها الموغلة في خبايا الحدث من محيط البيئة والأحوال النفسية للأبطال؛ فهو بذلك وكأنه يعلم كل شيء عن جزيئات قصته وعناصرها المصطنعة .

وهذا النوع من السرد نجده في عدد من الأقاصيص الشعرية لدى أبي ماضي كـ (وردة وإميل[11]، قتل نفسهُ[12]، حكاية حال[13]) و ربما ذهب الشاعر في مقدمة هذه القصص إلى الإعلان- بداية- عن استقلاله عن ملابساتها، ونصب نفسه لمجرد رواية أخبارها؛ إمعانا منه في إضفاء سمة الواقعية على مجرياتها ومن ذلك ما قدم به لقصته حكاية حال إذ يقول[14]:

هجرت القوافي ما بنفسي ملالة
سواي إذا اشتد الزمان ملول
و لكن عذبني أن أقول حوادث
إذا نزلت بالطود كاد يزول
و بغضني الأشعار أن دعاتها
كثير، وأن الصادقين قليل
وأن الفتى في ذي الربوع عقاره
وأمواله، و الباقيات فضول
سكت سكوت الطير في الروض بعدما
ذوى الروض و اجتاح النبات ذبول
فما هزني إلا حديث سمعته
عن الغيد كالغيد الحسان جميل
فما أنا في هذي الحكاية شاعر
و لكن كما قال الرواة أقول

إن الشاعر في بدئه للنص القصصي بمثل هذه التوطئة يكون قد ألمح إلى صدق موضوعه، وتحديد الصوت الذي يتولى رواية الخبر القصصي أو الذي يقوم بعملية الإخبار في نص قصصي لا يقل أهمية عن صيغة السرد أو ترتيبه أو سرعته، بل إنه يحتل موقعا محظيا يتقدم مبررا باقي العناصر الجمالية المكونة للنص القصصي الحديث؛ فاعتماد أبي ماضي على هذا الشكل من السرد الكلي يصدر فيه عن حرصه على جعل المتلقي مقتنعا بسيرورة الأحداث،

وبما ستسفر عنه من نتائج؛ آثرا أن يقف هو حيالها موقف الراوي الأمين بيد أن ذاك ساقه في أحيان كثيرة إلى حد الابتذال، وبدا واعظا أحيانا ومعلقا على المواقف والشخصيات في أحيان أخرى؛ بما أضعف قوة البث الفني، ولقد أمسى "من العيب في القصص الحديث أن يتدخل المؤلف تدخلا سافرا بالشرح أو التحليل مستقلا في ذلك عن الحوار والحديث النفسي، فينبغي أن يكون تدخله مستورا في أضيق الحدود"[15].

ب- السرد الذاتي: وفي هذا النوع يُنصّبُ الشاعر نفسه متحدثا عن شخصيات قصته وأفعالها ، وأفكارها وحالاتها النفسية لا عن طريق القص الخارجي، وإنما يعُد نفسه عنصرا أساسا في القصة؛ فهو" يكتب على لسان المتكلم ، وبذلك يجعل من نفسه و أحد شخوص القصة شخصية واحدة ، وهو بذلك يقدم ترجمة خيالية "[16] ؛ ينقل عبر هذه الترجمة ما عاشه من تجارب أو تصوره من وقائع مفترضة، ونسجل حضور هذا السرد في عدد من الأقاصيص الشعرية وبخاصة تلك التي يكون البطل فيها شخصية إنسانية مثل قصصه الشعرية (طبيبي الخاص[17]، الشاعر والملك الجائر[18])، والجدير بالملاحظة في تلك القصص استعمال الشاعر لضمير المتكلم، وإسناد الأفعال إليه باعتباره عنصرا فاعلا في خط العمل السردي وإن هو اعتمد على شخصيات أخرى لصناعة الحدث والمواقف السردية.

إن الشاعر في قصته(رؤيا الأولى) يسوق إلينا مثلا أو حكمة مفادها أن السفيه لا تسكته إلا الشتيمة. وعبر سرد ذاتي ينقل إلينا الأحداث كأنه عاشها عبر متتاليات سردية تغلب عليها ذات الشاعر، يقول:[19]

رؤيا منام... رب حلم في الكرى
فيه تلـوح حقائـق الأشيـاء
إني حلمــت كأنـما أنا سائر
في روضــة خلابـة غنــاء
النور مفـروش على طرقـاتها
والعطـر في النسمات والأفيـاء
والعشــب فيها سنـدس متوج
والجو أضـواء على أضـواء
وإذا بصوت كالهر ير يطـن في
أذني، وأنيــاب تصــر ورائي
فأدرت طرفــي باحثا متعجبا
مما سمعت، ولسـت في بيداء
فإذا ورائـــي في الحديقة نابح
ضـاري المحاجر ضامر الأحشاء
كادت تطــل عروقه من جلده
وتطــل معها شهـوة لدمائي
أشفقت يعلــق نابه بردائي
فرفسته غضـــبا، فطار حذائي
فطـوى نواجـذه عليـه كأنما
عضــت نواجـذه على العنقاء
ومضـى به لرفاقــه فتهللــوا
وتقـاسموه، فكان غيــر عشاء
لا يعجبــن أحــد رآني حافيا
أبلـت نعالي ألســن السفهاء.

إن القصيدة في عمومها لم تعن بالحوار الداخلي أو الخارجي، وانسابت في عرض مباشر تنامى فيه الخط السردي للوقائع كما رآها الشاعر في منامه، بما شكل قواما للنص ، ومنطلقا لاستكناه دواخل أولئك الناس الذين لا يعالجون من أدواء نفوسهم إلا بالشتيمة والهجوم.

إن مثل هذا السرد الحي للأحداث في القصيدة الشعرية هو ما نجده في أعمال الشاعر ذات البعد الحكائي كقصيدة (ضيف ثقيل)، و(الناسكة)، و(أنت والكأس)، وفي مثل هذه وتلك يجسد أبو ماضي قدرته على إضفاء اللغة القصصية على أجواء النص الشعري، على نحو ما فعل شعراء المهاجر الأمريكية.

رابعا-الوظائف السردية في القصة الشعرية:

في بحثنا للسرد القصصي، ودلالاته لدى أبي ماضي، يجدر بنا أن نضبط وظائفه في مختلف تجلياته عبر تلك القصص، ويمكننا أن نحدد تلك الوظائف السردية فيما يأتي:

أ- وظيفة الاستهلال: لاشك أن أول ما تعتمد عليه القصة الشعرية هو التقديم لأجوائها وفضائها الواقعي؛ كعنصر هام واجب الحضور، و"يشترط فيها من الناحية الفنية أن تحتوي على التمهيد للأحداث"[20]، وقد شغل السرد في شعر أبي ماضي القصصي أغلب بداياته، مستغنيا بذلك عن لوحة الحوار، وقد أتاحت

الأنساق السردية عبر وحدات الاستهلال على لسان الشاعر فاتحة أو بداية مقدمة للقصة الشعرية، ويؤثر أبو ماضي أن يقدم لقصته بعرض لغوي؛ يمثل السرد فيه منطلقا لتحديد معالم الصور في المشاهد الموالية، بحيث يتضمن تعريفا وتقديما لأهم الظروف التي ستحتضن القصة، من ذلك ما نجده في قصيدة (وردة وإميل)، وقد قدم أبو ماضي لقصته بهذه الوحدات السردية ذات البعد الاستهلالي[21]:

يا ليتـما خلق الزمان أصيلا
إني أراه كالشبــاب جميلا
ولى فودعت السماء بهـاءها
من بعده وهوى النهار عليلا
جنحت ذكاء إلى الغروب كأنما
تبغــي رقادا أو تريد مقيلا
وتناثرت قطـع السحاب كأنها
الجيش اللهـام إذا أثنى مفلولا
هذا و قد بسط السكوت جناحه
والليل أمسى ستـره مسـدولا
قد بات كل مسهد طوع الرقـا
د وكل جفن بالكرى مكحولا

هذا وفي معرض الحديث عن أدوار السرد في مطالع القصائد القصصية؛ نشير إلى أن الشاعر في بعض تلك الأقاصيص يؤثر أن يستهل بوحدات من الأبيات يضمنها أهمية ما هو بصدد روايته؛ كما هو الشأن في افتتاحه لقصة (الشاعر والأمة) بقوله[22]:

خير ما يكتبه ذو مرقم
قصة فيها لقوم تذكره

كما قد يكون الاستهلال إشادة بصدق من نقلت عنه؛ تحقيقا لصدق ما يساق من أخبار، كما في قصته التي بعنوان (هي)[23]:

أروي لكم عن شاعر ساحر
حكايــة يحمد راويـها

وربما عزا الشاعر قصته إلى حلم رآه وهذا عبر متوالية سردية في مطلع النص القصصي

كما في قصيدة (رؤيا)[24]:

رؤيا منام، رب حلم في الكرى
فيه تلـوح حقائق الأشـياء

إن النمط اللغوي العام للسرد في أغلب مطالع الأقاصيص الشعرية يولي الموضوع ذلك الاستهلال الخاص الذي يهيئ القارئ لجوهر النص؛ لأنها " تترك في النفس انطباعا عميقا وأثرا بالغ الأهمية ولهذا الأثر صدى فيما يليه، وعليه يترتب رد الفعل المترقب من المتلقي؛ فإذا كان المطلع، أو المقدمة حسنا شد انتباه المتلقي إلى القصيدة وتفاعل معها وبهذا تحدث الاستجابة المتوخاة؛ والتي هي هدف المبدع."[25]

ب- <u>الوظيفة التشويقية</u>: إن الأبنية السردية في النص القصصي نظام من العرض اللغوي؛ يهدف إلى إدخال القارئ إلى جو ذلك النص، وإذا كانت الحادثة جزء لا يتجزأ من معمار القصة الشعرية؛ فإن الدعوة إليه، وشغف المتلقي إلى ترقبها يعد من وظائف الخطــاب السردي، والحكاية بعد ذلك هي " النسيج الداخلي الذي يجعل من السرد أو القصة أو الرواية أو المثل، أي كل أنماط القص قابلة لأن تحدث التشويق لدى قارئها في مسار أحداثها المترابط والمطرد"[26]، وتظل لحظة التأزم أو العقدة في القصة بؤرة حيوية لتنامي عنصر التشويق في سرد النص القصصي، وفي أثنائها يصل المتلقي إلى استحضار حس قصصي بالغ التحفز لمعرفة الحل الحاسم وراء ما توالى من أحداث عبر تلك الأنساق المتنامية؛ خلف لغة العرض، ولإيليا أبي ماضي في قصيدته الشعرية (المجنون) نموذج لما ذكرنا من الوظيفة التشويقية في بعض متوالياتها السردية، والقصة تروي خبر رجل موسوس أصغى الشاعر إلى صراخه فهاله ما يقول و أثار دهشته[27] :

أطار عني النوم صوت في الدجى
كأنــه دمدمة الشــلال
يصرخ، و الريــح تردد الصدى
في أذن الفضــاء و التلال
يـا ليل قف هنيــهة قبـالي
تر البــرايا و أر الليــالي
أنا الشـادي، أنا البــاكي
أنا العــاري، أنا الكاسي
أنا الخمــرة، و الــدن
أنا الســاقي، أنا الحاسـي

ويمضي الشاعر في متابعة المجنون، والإصغاء إلى هذيانه، غير أنه يذهل لعبارات يرددها تتمثل في قوله[28]:

تلاقـى الأحمق الجـاهل
و العالـم في كفـي
و من كـان له إلــف
و من كــان بلا إلف

وداعي العجب يستفز الشاعر من حيث علمه بأن هذا الرجل يضع في كفه كل أصناف البشر وأسرار العوالم، وهنا يسكت صوت الحوار، والنجوى الداخلية لتتدخل أدوات السرد في فضاء النص تنقل إلى القارئ بتشويق سعي الشاعر إلى هذا المجنون العجيب ثم وقوفه فجأة على ما يرمي إليه هذا الصارخ من ادعائه امتلاك العالم بيده[29]:

و كـان الليل قد أزمـع
أن يحــدو مطـاياه
فساد الصمت في الوادي
كأن المــوت يغشاه
فسرت و الفجر دليلي باحثا
في الغاب و السفوح و التلال
فلم أجد غير صـريع هامد
منطرح في جانـب الشلال
لا شيء في قبضــته الشمــال
و ليس في اليمنى سوى صلصـال.

إن مثل هذا المسح اللغوي؛ الذي يضيء المشهد السردي لا يحسن أن يعتمد على مجرد الحوار، أو استحضار الحدث مجردا من التقديم له بوصف زمان الليل وقد أخذ ينحصر، ثم إقبال الفجر وإطلاله على الجسد الصريع الهامد، وهو يقبض على حجر من صلصال، ولا بد لتلك المتتاليات في تواليها أن تحدث وقعا لدى المتلقي؛ وإلا فما أدت وظيفة التشويق و الاجتذاب.

جـ- <u>الوظيفة التنسيقية</u>: إن لأسلوب الشاعر ولطريقة تعبيره دخلا كبيرا في مدى توفيقه في القصة بصرف النظر عن موضوعها؛ وهذا يعني أن الأولوية تظل للمعالجة أكثر من المضمون ذاته؛ فبهذه المعالجة تتضح قيمة القصة من الناحية الفنية، والنص القصصي - في مجمله - قائم على ذلك الانسجام الحادث بين عناصره الفنية، والشاعر القاص مطالب باستحضار أدواته اللازمة لتحقيق ذلك الانسجام في أثناء معالجته لهذا الخطاب القصصي؛ باعتباره ذي بنية شعرية وإن بدا موضوعيا في مضمونه ومحتواه، وفي الشعر القصصي يجري الحديث عن التنسيق بوصفه وظيفة جمالية للغة السرد تنتظم أجزاء القصة لتعطيها ذلك التكامل، و التآلف بين وحداتها، فالسارد "يأخذ كذلك على عاتقه التنظيم الداخلي للخطاب القصصي"[30]؛ فيمنح الأحداث والوقائع فيما بينها تساوقا وانسجاما وحسن تأت.

وقد مارس السرد في شعر أبي ماضي القصصي وظيفته التنسيقية لتصميم الحبكة[31]وفق النظام اللغوي الذي يتيح اتساقها، و قد عمل السرد الشعري على إحداث تلك الروابط على عدد من الأقاصيص التي لم تكتف بالحوار وحده لنقل التجربة الشعرية، ومن ذلك ما نراه في قصة (الناسكة) و التي أرادها أن " تعبر عن رأي نلمسه في طبيعة التربة والطين، ونسمعه في ابنة الأرض السنبلة "[32]، و وراء هذه الأخيرة تخفّى الشاعر لينقل إلينا رأيه هو بأسلوب رمزي لا يخلو من طرافة، وقد أحال أبو ماضي السنبلة إلى برهان على فكرته أو إلى سبيل للوصول إليها كعادته وعادة المهجريين[33]في موقفهم من الطبيعة، يقول الشاعر في قصته[34]:

أبصــرت في الحقــل قبيل المغيـب
سنبـلة في سفــح ذلك الكثـيب
حانية مطـرقـة الـــــــــــرأس
كأنما تسجـــــد للشمـــس
أو أنها تتلو صلاة المســـــاء
فملـت عن راهبـــة الحقـــل
وسرت ، لا ألـوي على ظلـــي
ألتقط الحـــــب و أذريـــــه
و تـارة في النـــار ألقيـــــه
مستخرجامنـــه لجسمـــي غذاء
قد غابـت الشمس وراء القمـم
و سكـت الطيـــر الذي لم ينـــم
لكن ناري لم تـــزل ترعـــج

و لم أزل آكـــل ما تنضـــــــج
يا حبـــــذا النار و نعم الشـــواء
و إنـــنـــي في مـــــرحي والـــد د
إذ صاح بي صـوت بلا موعـــد
ما الحب يا هذا ،و لا السنبل
ما تأكل النـــار، و ما تأكـــــل
وإنمـا أسلافـك الأصفياء
لا بشـر لا طـائـــر ماثـــــــل
يـاعجبـــا نطـق و لا قـا ـــــــــئل
من أين جاء الصـوت؟ لا أدري
لكنمـــــا ناسكـــــة البـــــــــر
قد رفعت هامتـها للعـــــلاء

لا يعتبر إيليا أبو ماضي السرد جهازا تصويريا ناقلا للحدث بشكل صرف كما هو، وإنما يعمد إلى تصوير المعنى؛ فتراه وقد أورد الحركة التي ينبض بها الحدث فيصفها بكل قِطعِها، ويتدخل الموقف السردي ليضفي على الفعل دلالته النفسية الممكنة، وبعده الانفعالي الذي ينمو بالأحداث والمشاهد ويحدث بينها توافقا، وانسجاما؛ ويعطي أبو ماضي رأيه صريحا؛ مستجيبا لتطور الوحدات السردية التي هيأت للحل الأخير؛ الذي يقضي بأن ما نطعمه ليس إلا شيئا من ذواتنا، و"يترك إيليا للسنبلة النابتة على التربة أن تشهد بهذا، فلسنا لها آكلين بإقرارها إنما نأكل من شيء آخر هو منا وإلينا، كلام كهذا في النثر أو في شعر عادي لن يكون كما كان عليه في هذا الشعر التمثيلي البديع "[35].

د- <u>الوظيفة الوعظية:</u> نجد في الكثير من الأشعار القصصية لإيليا أبي ماضي تلك الأبنية السردية ذات البعد الوعظي؛ والتي تمثل عبر تضاريسها اللغوية وجها لالتزام أبي ماضي بقضايا شتى تهم الإنسان والمجتمع، فـ" أبو ماضي صاحب رسالة لا تستمد خصائصها من أي رسالة أخرى، وإن استأنست بها جميعها، وسوف تشبهه بابن عربي تارة، وبالحلاج أخرى، وطورا برابعة العدوية، ولكنك مهما شبهته بسواه فإن شخصيته قائمة بميزاتها المستقلة فلا المعري أو الخيام يبتضع منها، لا ولا الفلسفات القديمة أو الحديثة."[36]، ومن أجل ذلك نعثر على تلك الرسالة تعترض القص الشعري أو تنسحب إلى آخره في نجوة من لوحات الحوار، وقطع الحدث لتقرير حقيقة، أو حكمة أو رؤية للشاعر في الكون، والحياة تستمد مضمونها من موضوع القصة الشعرية؛ ولا ريب بعد ذلك أن نجد الشاعر يقطع خيط السرد للأحداث في حكايته الشعرية (قتل نفسه)؛ معبرا عن رأيه بمثل قوله[37]:

وما النـاس إلا عبيد القوى
فكن ذاك أو كن بلا شاكر
أشد من الدهر مكـرا بنوه
فويل لمـن ليس بالماكر
فكن بينهم خاتـلا، غادرا
ولا تشتك الغدر من غادر.

وفي قصيدته (التينة الحمقاء)، يرمز للبخيل الذي يقبض يده ويمنع خيره، فحياته وموته سواء ويمثله بالتينة التي رفضت أن تزهر وتثمر فاجتثها صاحب البستان، ولا يكتفي الشاعر بالنجوى الداخلية للحوار الشائع في هذه القصة، ولا بتعاقب الأحداث التي أسفرت عن مكافأة الشجرة الحمقاء وإنما يذيل نصه القصصي بوحدة سردية تمثلت في قوله[38]:

من ليس يسخو بما تسخو الحياة به فإنه أحمق بالحرص ينتحر.

خامسا-خاتمة: وفي الأخير يمكننا أن نخلص إلى القول أن إيليا أبو ماضي يعد في طليعة شعراء المهجر الذين استهوتهم القصة في شعرهم، وعالجوا بأسلوبها معظم أفكارهم، وموضوعاتهم؛ حيث غلب على شعره هذا اللون وفاضت دواوينه بأنواع كثيرة من القصة ما بين أسطورية، وغير أسطورية، ومابين طويلة متنوعة القوافي والأوزان، وقصيدة في صورة مقطوعات، وكلها تنطق بالحكمة والعظة، وتستظهر العبر الأخلاقية في المجتمع الإنساني، وما نستنتجه من أن الدلالة في تداخل السرد بالشعر عند إيليا أبي ماض تتشكل عن طريق إبراز الوقائع الجزئية التي تتراصف فيما بينها لتصبح حدثا جاهزا أو نسقا من أنساق الشعر القصصي، وهذا كما رأينا يتطلب جهدا لغويا يعبر بدقة عن أسرار ذلك الحدث وملابساته؛ بشكل لا يخلو من إيحاء ودلالة.

بيبليوغرافيا البحث:

أولا- المصادر:

1- إيليا أبو ماضي، تبر وتراب ، دار العلم للملايين، بيروت، ط9، 1980.

2- إيليا أبو ماضي، الجداول، دار العلم للملايين، بيروت، ط14، 1980.

3- إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، دار العودة ، بيروت ، ط/دت .

ثانيا- المراجع:

1- ألفرد خوري، إيليا أبو ماضي شاعر الجمال والتفاؤل والتشاؤم، بيت الحكمة، بيروت، ط1.

2- أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية- التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996.

3- إيليا حاوي، في النقد والأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1986

4- جعفر الطيار الكتاني، إيليا أبو ماضي، دراسة تحليلية، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

5- حسن أحمد الكبير، تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث – من 1881 إلى 1938، دار الفكر العربي، بيروت، دت.

6- حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، أدب النهضة الحديثة، دار الجيل بيروت، ط2، ج2، 1991.

7- سامي سويدان، في دلالية القص وشعرية السرد، دار الآداب، بيروت، 1991.

8- سمير المرزوق وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا، الدار التونسية للنشر، ط1، 1985.

9- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط7، دت.

10- طالب زكي طالب، إيليا أبو ماض بين التجديد والتقليد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دت.

11- عبد المجيد عابدين، بين شاعرين مجددين إيليا أبو ماضي وعلي محمود طه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،ط4، 1989.

12- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، ط3، 1981 .

13- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار الفكر العربي، 1983.

14- عزيزة مريدن، القصة الشعرية في العصر الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1974.

15- عزيزة مريدن، القصة والرواية، دار الفكر، دمشق، 1980.

16- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، ط3، 1973.

17- محمد يوسف نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، ط1، د ت.

18- نور الدين السد، الشعرية العربية دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

ثالثا-المواقع الالكترونية:

1- سيدة أكرم رخشنده والدكتور حامد صدقي، الشعر القصصي في ديوان إيليا أبي ماضي شاعر المَهاجَر الأكبر، مجلة

ديوان العرب الالكترونية،http://www.diwanalarab.com/spip.php?article7385.

الهوامش:

1-إيليا أبو ماضي شاعر لبناني من أبرز شعراء العربية، ولد سنة1891، رحل إلى مصر في سنة 1900 و ظل بها إحدى عشرة سنة يشتغل في التجارة؛ كان يقرض خلالها بعض الشعر جمعه في شبه ديوان أسماه تذكار الماضي، هاجر الشاعر بعدها إلى أمريكا وفي نيويورك بالذات كانت حياته الأدبية خصبة جدا، فأصدر فيها دواوينه الشعرية الثلاثة : الجداول، ثم الخمائل، و ديوان إيليا أبو ماضي، وانخرط منذ العام 1920 في صفوف الرابطة القلمية، التي قُدّر لها أن تقوم بدور بارز في حركة الأدب والنقد العربي في المهجر، وأصبح أبو ماضي شاعر الرابطة القلمية الأول، و ربما أمير شعراء المهجر، و في العام 1948 زار لبنان بعد انقطاع طويل، وكان موضع تكريم كبير، فمنحته الحكومة اللبنانية وسَامَيْ الأرز والاستحقاق، وعلق رئيس الجمهورية السورية على صدره وسام الاستحقاق الممتاز سنة 1949، وبعد هذا التاريخ عاد الشاعر إلى المهجر ليواصل نشاطـه الأدبي، وقد توفي سنة 1957.
ينظر: حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي و تاريخه -أدب النهضة الحديثة،(بيروت: دار الجيل ،1991، ط2، ج2)، ص 445. وألفرد خوري، إيليا أبو ماضي شاعر الجمال والتفاؤل والتشاؤم،(بيروت: بيت الحكمة،د ت، ط1)، 40.
2 -حسن أحمد الكبير، تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث – من 1881 إلى 1938،(بيروت: دار الفكر العربي، د ت)، ص427.
3 -طالب زكي طالب، إيليا أبو ماضي بين التجديد والتقليد،(بيروت: منشورات المكتبة العصرية، دت)، ص139.
4 -عبد المجيد عابدين، بين شاعرين مجددين إيليا أبو ماضي وعلي محمود طه،(الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية،1989، ط4)، ص129.
5 -إيليا حاوي، في النقد والأدب، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1986، ط2)، ص199.
6 -سامي سويدان، في دلالية القص وشعرية السرد،(بيروت: دار الآداب، 1991)، ص165.
7 -عزيزة مريدن، القصة الشعرية في العصر الحديث،(الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1974)، ص112.
8 -عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد،(بيروت: دار الفكر العربي، 1983)، ص138.
9 -سمير المرزوق و جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا،(تونس:الدار التونسية للنشر، 1985)، ص101.
10 -سامي سويدان، في دلالية القص وشعرية السرد،(بيروت: دار الآداب، 1991)، ص174.
11 -هي قصة شبيهة بقصة روميو وجوليت؛ فقد مات الحبيبان شهيدى الحب .
12 -هي قصة شاب أضاع غناه، فتخلى عنه صحبه، فانتحر بعد افتقاره.
13 -هي قصة رجل مسن أخلص لزوجته، ولكنها غدرت به لكبر سنه.
14 -إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي،(بيروت:دار العودة، دت)، ص540.
15 -محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص550.
16 -عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ص139.
17 -هي قصة فتى ادعي المرض، وادّعَتْ حبيبته أنها الطبيب فجاءَت لزيارته.
18 -خلاصتها أن أفكار الشاعر و نصائحه و حكمه باقية خالدة، و أنه أبقي على التاريخ مِن أي سلطان ظالم.
19 -إيليا أبو ماضي، تبر وتراب ، (بيروت: دار العلم للملايين، ط9، 1980)، ص66.
20 -عزيزة مريدن، القصة الشعرية في العصر الحديث،(الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1974)، ص13.
21 -إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي،(بيروت:دار العودة، دت)، ص607.
22 -المصدر السابق، ص427.
23 -إيليا أبو ماضي، الجداول، (بيروت:دار العلم للملايين، ط14، 1980)، ص118.
24 -إيليا أبو ماضي، تبر وتراب ، (بيروت: دار العلم للملايين، ط9، 1980)، ص66.
25 -نور الدين السد، الشعرية العربية- دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي،(الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995)، ص242.
26 -أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية- التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ترجمة أنطوان أبو زيد،، 1996)، ص312.
27 -إيليا أبو ماضي، الجداول، (بيروت:دار العلم للملايين، ط14، 1980)، ص84.
28 -المصدر السابق، ص88.
29 -المصدر السابق، ص89.

30 -سمير المرزوق و جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا،(تونس:الدار التونسية للنشر، 1985)، ص108.
31 -الحبكة تعني السياق أو المجرى الذي تجري فيه القصة وتتسلسل بأحداثها، وتندفع بشخصياتها وتتصارع و تستولي أثناء هذا كله على لب القارئ بإحكام الضوابط بين هذه العناصر كلها حتى تبلغ النهاية، للاستزادة ينظر: عزيزة مريدن، القصة الشعرية في العصر الحديث،(الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1974)، ص41.
32 -جعفر الطيار الكتاني، إيليا أبو ماضي، دراسة تحليلية، ص121.
33 -يقصد به أدب المهاجرين العرب الذين تركوا بلادهم فترة الحكم العثماني للعالم العربي، واستقروا في الأميريكيتين الشمالية والجنوبية، و أنتجوا أدباً و أبدعوا شعراً وأصدروا صحفاً وكونوا جاليات وجمعيات وروابط ثقافية، وكان إبداعهم الأدبي له صفة التمايز عن أدب الشرق بما يجمع مِن ملامح شرقية، وملامح غربية، للاستزادة ينظر: سيدة أكرم رخشنده والدكتور حامد صدقي، الشعر القصصي في ديوان إيليا أبي ماضي شاعر المَهاجَر الأكبر، مجلة ديوان العرب الالكترونية،http://www.diwanalarab.com/spip.php?article7385
34 -إيليا أبو ماضي، الجداول، (بيروت:دار العلم للملايين، ط14، 1980)، ص124.
35 -جعفر الطيار الكتاني، إيليا أبو ماضي، دراسة تحليلية،(بيروت:دار الكتب العلمية، دت)، ص121.
36 -المرجع السابق، ص02.
37 -إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي،(بيروت:دار العودة، دت)، ص371.
38 -إيليا أبو ماضي، الجداول، (بيروت:دار العلم للملايين، ط14، 1980)، ص47.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 126 - 138
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الضغط الضريبي كحافز للتهرب والغش الضريبي

رحال نصر

كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير جامعة الوادي

الملخـــص:

إن فرض الضرائب على المكلفين يجب أن يكون منطقيا حتى يكون ذلك مقبولا لديهم ولو أفرطت السلطات في رفع مستوى معدلات الضرائب والرسوم ستكون النتيجة الحتمية وهي نقص الحصيلة الضريبية، بل يتعدى ذلك إلى تغير سلوك المكلفين فبدل من إنتهاج سلوك التصريح والتسديد العادي في الآجال القانونية، سوف يتجهون نحو ممارسة التهرب والغش الضريبي هربا من الضغط الضريبي المفروض عليهم.

وعليه تأتي هذه الورقة البحثية لتوضيح الإطار المفاهيمي للتهرب والغش الضريبي وكذا عرض نظرية الضغط الضريبي.

الكلمات المفتاحية:

التهرب الضريبي، الغش الضريبي، الضغط الضريبي.

Résumé:

L'imposition de taxes sur les contribuables doivent être raisonnables afin d'être acceptable d'avoir, et si des pouvoirs publique à augmenter les taux d'impôt et les taxes seront le résultat inévitable est le manque de recettes fiscales, mais aussi pour modifier le comportement de charge, lieu de poursuivre le comportement des limites de remboursement normale tendent à la pratique de l'évasion et la fraude fiscale, pour échapper à la pression de la fiscalité qui leur sont imposées.

Et il est venu de ce papier pour illustrer le cadre conceptuel de la fraude et l'évasion fiscales ainsi que la présentation de la théorie de la pression fiscale.

Mots clés: L'évasion fiscale, fraude fiscale, la pression fiscale.

مقدمة:

لما كان فرض الضرائب في مجتمع معين في وقت معين يؤدي إلى التأثير على سلوك الأفراد وتعديل خططهم في مجالات الإنفاق سواء بالنسبة للإستهلاك أوالإستثمار،فقد إستعانت النظرية الحديثة للضريبة بعد التحول على الفكرة التقليدية بوجوب الحد بقدر الإمكان من فرض الضرائب وكذلك وضع نسب ملائمة بواسطة النماذج الإقتصادية المختلفة والمهتمة بدراسة سلوك المكلفين على أسس منهجية، فأدخلت الضريبة كأحد المتغيرات في التوازن الإقتصادي الأمثل، كما أن دراسة سلوك المكلفين تواجه العديد من الصعوبات بالقدر الذي يؤثر على قيمة ما حققته النتائج، نتيجة لعدم كفاية ما تتضمنه هذه المتغيرات من ناحية، وإعتمادها على إفتراض قيام المكلف الذي يتحمل العبء الحقيقي بدفعه لتلك الضرائب، دون الأخذ في الحسبان ما ينجر من نقل عبء الضريبة والتهرب منها أوتجنبها بشتى السبل القانونية والغير قانونية من تعقيدات على نحو يؤدي في النهاية إلى عدم ملائمة النظام الضريبي في مجتمع معين للهيكل

الإقتصادي السائد وهذا ما يسمى بالضغط الضريبي والذي سيكون موضوع بحثنا.
من هذا المنطلق تأتي إشكالية بحثنا هذا متمثلة في السؤال التالي:

إلى أي مدى يمكن للضغط الضريبي أن يضطر المكلفين لسلوك التهرب والغش الضريبي ؟ وللإجابة عن إشكالية البحث التي تم طرحها إنطلقنا من الفرضيات الآتية؟

- يحتمل أن يكون الضغط الضريبي عامل وحافز أساسي للتهرب والغش الضريبي.

- ليس بالضرورة أن يكون الضغط الضريبي سببا لسلوك التهرب والغش الضريبي.

أولا : مفاهيم أساسية حول التهرب الضريبي

إن التطرق لظاهرة التهرب الضريبي يؤدي إلى طرح تساؤلات عديدة تتعلق بتحديد مفهوم واضح لها و الإحاطة بها وعرض تصنيفاتها ومختلف المفاهيم التي تتداخل و تترابط معها و عليه سوف نوضح ذلك :

1- التهرب الضريبي

لقد عرفت ظاهرة التهرب الضريبي من قبل العديد من الباحثين لذلك سنورد هنا أهم التعاريف و تصنيفاتها و أشكالها فيما يلي :

1-1- تعريفات التهرب الضريبي

يمكن أن نجمل مختلف التعاريف التي تناولت موضوع التهرب الضريبي أو ما يعرف بالتجنب الضريبي فيما يلي :

- تعريف Margairaze André

التهرب الضريبي هو محاولة التملص من الضريبة في حدود القانون .

- تعريف Martinez Jean Claude

التهرب الجبائي هو فن تفادي الوقوع خارج مجال القانون.

- تعريف Delahaye Thomas

التهرب الضريبي هو أن يسعى المكلف إلى التخلص من الضريبة دون أن يخترق القانون الجبائي، و إنما يعمل على خلق وضعيات تسمح له بتحقيق ذلك .[1]

- تعريف جامع أحمد

هو تخلص الفرد من دفع الضريبة دون إرتكاب أية مخالفة لنصوص التشريع الضريبي.[2]

- تعريف Gaudemet Paul Marie

يقصد بالتهرب الضريبي أن يتخلص المكلف القانوني من دفع الضريبة دون مخالفة أحكام التشريع الضريبي القائم.[3]

- تعريف Cartou Louis

فإنه يعرف التهرب الضريبي على أنه " هي مجموعة العمليات التي يقوم بها المكلف من أجل وضع مادته الخاضعة للضريبة في متناول النظام الجبائي الذي يمنحه أحسن وأكثر إمتيازات سواء في داخل الدولة أوخارجها ". [4]

و من أمثلة ذلك الضريبة على التركات، حيث يقوم المعني بالأمر بتقسيم أمواله على ورثته رغم أنه مازال على قيد الحياة في شكل هبات حتى لا تخضع أمواله للضريبة فنجد أن هناك نوعا من التحايل يقوم به المكلف بطريقة قانونية.

و إذا كان التهرب الضريبي يعني إمتناع المكلف عن دفع الضريبة المستحقة كلها أو بعضها عن طريق إنكار حدوث الواقعة التي أنشأت الضريبة أو إخفاء بعض أو كل عناصر الوعاء الضريبي أو بإنكار قدرته على الدفع حتى يتم إسقاط الضريبة و هو ما يعرف عند البعض بالتجنب الضريبي، أو المسار الأقل فرضا للضريبة أي إستغلال المكلف لبعض الثغرات القانونية بغية عدم تحقق الضريبة عليه بصورة صحيحة وعدم الإلتزام بدفعها و هذا الشكل من التهرب لا يتضمن أية مخالفة يعاقب عليها القانون حيث يستعين المكلف في التهرب من الضريبة بأهل الخبرة و الإختصاص لإستنباط طرق التحايل، مستندين في ذلك إلى خلل أو ثغرة قانونية.[5]

1-2- تصنيفات التهرب الضريبي

يعبر عن التهرب الضريبي أحيانا بالغش الضريبي المشروع أو التجنب الضريبي" والغش الضريبي المشروع في الواقع هو عبارة مرادفة للتهرب الضريبي"، و يتجلى التهرب في صنفين هما:
- التجنب الضريبي المقصود من المشرع الجبائي.

- التجنب الضريبي غير المقصود من المشرع الجبائي.

1-3- أشكال التهرب الضريبي

بعد التعرض إلى مفهوم التهرب الضريبي و

تصنيفاته نتطرق هنا لأشكال التهرب الضريبي و هي الحالات التي تمكن المكلف من التخلص من الضريبة دون مخالفة القانون وهي كما يلي :

1-3-1- الامتناع :

وهو أبسط طريقة للتهرب من الضريبة وبصورة أوضح، فإن المكلف يمتنع عن القيام بالواقعة أو التصرف الذي تفرض على أساسه الضريبة، ومثال ذلك إمتناع الشخص عن إستهلاك سلعة ما خاضعة لضريبة مرتفعة، و هذه الضريبة قد تكون مقصودة من طرف المشرع الذي يهدف إلى دفع الأفراد بطريقة غير مباشرة إلى التقليل من إستهلاك السلعة محل البحث مراعاة لإعتبارات إقتصادية أو إجتماعية مختلفة كالحد من إستيرادها توفيرا للعملات الأجنبية أو تشجيع إنتاج السلع البديلة لها أو الحد من إستهلاكها حفظا للصحة العامة،[6] و طريقة الإمتناع هذه تؤدي بالمكلف إلى تجنب دفع الضريبة كليا أو جزئيا، و يكون عدم الدفع كليا عندما يمتنع المكلف من إستهلاك السلع لتجنب دفع الضرائب على الإنفاق كما يستطيع أن يوظف كل ثروته في سندات قرض أصدرتها الدولة و أعفته و أعفت دخله من الضرائب لتشجيع الإكتتاب فيه، فالمكلف لا يدفع أي ضريبة على ثروته كما يكون عدم الدفع جزئيا كأن يقلل من أرباحه الخاضعة للضريبة وذلك بالتقليل من نشاطه حتى لا يتجاوز الحد المقرر إخضاعه للضريبة.[7]

1-3-2- الإحلال :

يتمثل الإحلال في أن المكلف عوض أن يوظف أمواله في أنشطة أخرى تكون معفاة أو مفروضة عليها ضريبة أقل،[8] و يتجسد ذلك مثلا في الإستثمار الفلاحي ومن ناحية أخرى قد يستهدف المشرع هذه النتيجة تحقيقا لأغراض معينة، و في هذا الإطار قد يشجع هذا الأخير الأفراد على التوجه نحو الإنتاج الزراعي من أجل تحقيق الإكتفاء الذاتي و خلق مناصب شغل و القضاء على البطالة وفي هذه الحالة يحرص المشرع على إعفاء المتهمين بهذا الميدان من الضرائب و غالبا ما يكون هذا الإعفاء لمدة معينة تشجيعا وتحفيزا لهم.

ثانيا- لمحة عن الغش الضريبي

1- الغش الضريبي

لقد تعددت آراء و تعاريف الباحثين في ظاهرة الغش الضريبي، إذ من الصعب إعطاء تعريف شامل يحظى بإجماع واسع نظرا لإختلاف الزاوية التي ينظر منها كل باحث لذلك سنورد هنا بعض التعاريف لهذه الظاهرة و كذلك تصنيفاتها.

1-1- تعريفات الغش الضريبي

- تعريف Lucien Mehl

" يعرف الغش الضريبي بأنه خرق للقانون الجبائي بهدف التخلص من الضريبة وتخفيض وعائها."[9]

- تعريف Camille Rosier

" يشمل الغش الضريبي كل الحركات و العمليات القانونية و المحاسبية و كل الوسائل و الترتيبات و التدابير التي يلجأ إليها المكلف بهدف التخلص من دفع الضرائب."[10]

- تعريف Margairaz André

" يمكن القول بأن هناك غش عندما تطبق الوسائل التي تسمح بالتخلص من الضريبة في حين أن المشرع لم يسمح بذلك، فالغش الضريبي بمعناه العام هو كل عمل تام قائم على سوء نية صاحبه بهدف التغليط و التضليل". [11]

- تعريف جامع أحمد

" هو محاولة الشخص عدم دفع الضريبة المستحقة عليه بإتباع طرق و أساليب مخالفة للقانون و تحمل طابع الغش و غيره".[12]

- تعريف Delahaye Thomas

[13] " الغش الضريبي هو مخالفة للقانون الجبائي. "

- تعريف القانون الجبائي الجزائري

" كل محاولة للتخلص من الضريبة بإستعمال طرق تدليسية في إقرار أساس الضرائب و الرسوم التي يخضع لها المكلف أو تصفيتها كليا أو جزئيا. [14]

و من خلال هذه التعاريف نلاحظ أنها تتفق حول النقاط التالية:

- الغش الضريبي هو المخالفة الواضحة و الصريحة لنصوص القانون الجبائي.

- يتم الغش الضريبي بوسائل مادية أو محاسبية و غيرها من أجل عدم دفع الضريبة.

- يهدف الغش إلى التخلص من الضريبة.

لذلك يمكن أن نوجز مختلف التعاريف السابقة في التعريف التالي للغش الضريبي " هي كل مخالفة واضحة وصريحة للقانون الجبائي بإستعمال وسائل

مادية و محاسبية وغيرها من أجل التخلص من الضريبة سواء بشكل جزئي أو بشكل كلي.

1-2- تصنيفات الغش الضريبي:

يعبر عن الغش الضريبي أحيانا بالتهرب الضريبي غير المشروع، وتوجد عدة تصنيفات للغش الضريبي نذكر منها مايلي :

1-2-1- الغش البسيط و الغش المعقد

1-2-1-1- الغش البسيط

يتمثل هذا النوع من الغش في كل محاولة متعمدة من أجل دفع ضريبة أقل وهذا من خلال تقديم تصريحات ناقصة، تتضمن بيانات ناقصة أو خاطئة بسوء نية، أو التأخر في تقديمها أو عدم تقديمها نهائيا، فهو إذا : كل تصرف أو إغفال مرتكب من أجل التخلص من الضريبة.[15]

1-2-1-2- الغش المعقد:

يمكن تعريفه بأنه غش بسيط مقرون بممارسات تدليسية، أي أن المكلف يستعمل أساليب ماهرة تمكنه من التخلص من الضريبة، وكذلك مسح كل الآثار التي قد تؤدي إلى كشف مغالطاته، ويتميز هذا النوع من الغش بأنه يجمع عناصر الجريمة، أي أن الغش المعقد يتوفر على العناصر التالية :

- عنصر النية: أي أن المكلف على دراية بأن الفعل غير مشروع.

- العنصر المادي : و المتمثل في تخفيض أساس الضريبة.

- عنصر التدليس : و يعني لجوء المكلف إلى مسح كل الأدلة ترقبا لأي مراقبة محتملة.

1-2-2- الغش الوطني و الغش الدولي

في هذا النطاق يصنف الغش كما يلي :

1-2-2-1- الغش الوطني

يمكن تعريفه بأنه كل إستعمال لطرق و ممارسات غش من قبل المكلف محاولة منه للتخلص بصفة غير شرعية من إلتزاماته الجبائية الناجمة عن التشريعات الجبائية الوطنية، و يمكن كذلك تعريفه بأنه كل غش يتم داخل حدود الدولة، يكون المكلف في مواجهة سلطات بلده فهو يخضع لقانون جبائي وحيد.

1-2-2-2- الغش الدولي

يتمثل هذا النوع من الغش في عدم دفع الضريبة أو الضرائب داخل البلد و تحويل المداخيل إلى بلد يتميز بجاذبية جبائية إن صح التعبير، وهذا بغية التقليل من المبالغ المقتطعة وهذا النوع من الغش يرجع إلى التطور الكبير الذي عرفته التبادلات الدولية و النشاط الكبير الذي غير حركة رؤوس الأموال.[16]

ثالثا – ماهية الضغط الضريبي

1- مفهوم و أهداف الدراسة النظرية العامة للضغط الضريبي

1-1- مفهوم الضغط الضريبي

هو العلاقة التي تقدم النسبة المئوية للدخل المقتطع في شكل ضرائب و رسوم على الدخول المحققة من طرف الأفراد المكلفين بالضريبة أو من طرف الدولة ذاتها. [17] يعبر الضغط الضريبي عن نسبة الإقتطاع الضريبي مقارنة بالناتج المحلي الخام، وهو إحدى المؤشرات المستخدمة لتقييم الأنظمة الضريبية وذلك بفضل المقارنة بينها، فضلا عن أن إرتفاعه فوق مستويات معينة يمكن أن يكبح النشاط الإقتصادي، و يقصد بالضغط الضريبي أيضا ذلك التأثير الذي يحدثه فرض الضرائب المختلفة و الذي يختلف تبعا لحجم الإقتطاعات الضريبية من جهة و صورة التركيب الفني للهيكل الضريبي من جهة أخرى، و يعبر عنه أيضا على أنه العبء الذي يحدثه الإقتطاع الضريبي على الإقتصاد الوطني. [18]

1-2- أهداف دراسة النظرية العامة للضغط الضريبي

تحدد التغيرات الإقتصادية والإجتماعية التي يحدثها فرض الضرائب أهداف دراسة النظرية العامة للضغط الضريبي، وتنقسم هذه التغيرات إلى:[19]

- تغيرات لاإرادية: نتيجة إختلال في الكيان الضريبي قد تؤدي إلى إحداث تناقض لأهداف السياسة الضريبية أو الأسس العلمية والفنية للإخضاع الضريبي.

- تغيرات مقصودة: أي التغيرات التي يهدف النظام الضريبي أو السياسة الضريبية إلى تحقيقها.

2- أنواع ومعايير قياس الضغط الضريبي

2-1- أنواع الضغط الضريبي :

هناك نوعين من الضغط الضريبي: الأول ضغط ضريبي فردي والثاني ضغط ضريبي إجمالي.

2-1-1- الضغط الضريبي الفردي

يملك كل فرد موارد شخصية والتي تستهدفها الدولة والجماعات المحلية بإقتطاعات في شكل ضرائب مباشرة وغير مباشرة، وتمثل هذه الأخيرة طبعا مساهمات كما أنها تعتبر تضحية يجب تحملها من قبل كل فرد ما دام أنه يوجد حرمان لكل مكلف بالضريبة من جزء من دخله،ويحتسب الضغط الضريبي آخذا بعين الإعتبار دخل المكلف بالضريبة ومقدار الضرائب التي تضاف إليها الإقتطاعات الإجبارية المحسوبة على أساس الحماية الإجتماعية، فإذا كان الدخل يرمز له ب R والضرائب ب Iوالضغط الضريبي الفردي ب PFI وبالتالي صيغة المعادلة PFI=I/R .

كما تجدر الإشارة إلى أن الضرائب غير المباشرة على الإستهلاك لا تؤخذ بعين الإعتبار، لأنه من الصعب بل يستحيل في بعض الحالات أن نقوم بحساب كل الضرائب التي يتحملها الفرد والتي تكون بطبيعة الحال متضمنة في أسعار السلع المشتراة المستهلكة أو المستعملة.[20]

2-1-2- الضغط الضريبي الإجمالي

في هذا الإطار نأخذ مجمل الإيرادات الضريبية المحصلة الدولة والجماعات المحلية بما في ذلك الإقتطاعات الإجبارية من طرف صناديق الضمان الإجتماعي، وعلى ضوء هذا إذا رمزنا للضغط الضريبي الإجمالي PFG، الإيرادات الضريبية I والدخل القومي معبرا عليه بالناتج الداخلي الخام PIB ستكون لدينا **المعادلة التالية:**[21]

2-2- معايير قياس الضغط الضريبي:

تنحصر معايير قياس الضغط الضريبي المتبعة إما على أساس نسبة الإقتطاع الضريبي إلى الدخل القومي، أو على أساس نسبته إلى مجموع الإقتطاعات العامة التي تمثل موارد الدولة المختلفة.

2-2-1- نسبة الإقتطاع الضريبي إلى الدخل القومي

إن معيار الضغط الضريبي القومي يمكنه أن يبين العبئ الضريبي،دون الأخذ بعين الإعتبار أوجه إنفاق الإيرادات الضريبية، وبمعنى آخر إعادة توزيع ما إقتطعته الضرائب من الدخل القومي، ويمكن أن يتساوى الضغط الضريبي لبلدين عندما يتشابه الهيكل الإقتصادي والإجتماعي أو مستوى التقدم الإقتصادي، غير أنه في الواقع يختلفان نتيجة لطبيعة النفقات المنتجة وغير المنتجة التي يقوم الإقتطاع الضريبي في كلا البلدين بتمويلها.[22]

2-2-2- نسبة الإقتطاع الضريبي إلى مجموع الإقتطاعات العامة

تزداد صعوبة قياس الضغط الضريبي وفق هذا المعيار القائم على إيجاد نسبة الاقتطاع الضريبي إلى مجموع موارد الدولة (مجموع الاقتطاعات العامة) المتمثلة في جميع الضرائب المباشرة وغير المباشرة بالإضافة إلى أشباه الضرائب مثل التأمينات الإجتماعية، حيث يبقى هنا المعيار قليل الدقة نتيجة تعذر قياس بعض الاقتطاعات غير الضريبية في كثير من الأحيان، بالإضافة إلى أنه في الدول النامية تظهر الزيادة المستمرة في حجم الإنفاق، الأمر الذي يظهر العلاقة الوطيدة بين هذا الإقتطاع والمستوى العام للاقتطاعات

المختلفة بحيث يزداد العبء الضريبي كلما ازداد حجم الاقتطاعات العامة.

إن المقارنات الدولية في مجال الضغط الضريبي يكتنفها الكثير من الصعوبات، فحتى لو افترضنا إتباع أسس موحدة في حساب العبء الضريبي فإن العبئين الضريبيين متساويين في النسبة المئوية إلى الناتج الداخلي الخام، ولكن لا تتساوى أثرهما إذا كان الدخول متفاوتة فإقتطاع 15% من دخل ضعيف جدا يكون أشد وطأة من إقتطاع 15% من دخل مرتفع بسبب تناقص المنفعة الحدية كلما إرتفع الدخل[23].

3- شرح قانون لافير

3-1- حدود الضغط الضريبي

إن حدود الضغط الضريبي تتموقع على مستويين إثنين الأول إجتماعي سياسي والثاني إقتصادي.

- المستوى الإجتماعي السياسي:

يظهر أنه من المستحيل وضع مستوى لايمكن تحمله من الضغط الضريبي، فتقبل ومقاومة الضريبة يمكن أن تؤدي إلى زعزعة السلم المدني هذا من جهة، ومن جهة أخرى عندما تطبق دولة معينة ضغطا ضريبيا مرتفعا، يميل المكلفون بالضريبة إلى العمل على تهريب رؤوس أموالهم نحو دول تكون فيها مستويات الإقتطاعات منخفضة بشكل جد محسوس، كذلك نفس الحالة بالنسبة للمستثمرين الأجانب التي ستعزف عن الإستثمار في البلدان التي تعرف بتطبيق معدلات ضريبية جد مرتفعة.

- **المستوى الإقتصادي:**

لدينا فكرة الضريبة تقتل الضريبة التي قام بشرحها الإقتصادي الأمريكي لافير,حيث أوضح أن هذه العبارة تتحقق لما تقوم الدولة بتجاوز حد أو عتبة معينة من فرضها للضرائب و يصبح ذلك عامل معرقل للإقتصاد, بإعتبار أنه يمكن سلب مجمل الدخل ولتفادي مثل هذه الوضعية وخاصة في حالة تطبيق معدلات ضرائب مرتفعة, سيتجه كل مكلف بالضريبة نحو التهرب من دفعها أو حتى الغش أثناء تصريحه بدخله، أو الحد من نشاطه الإقتصادي بسبب الضغط

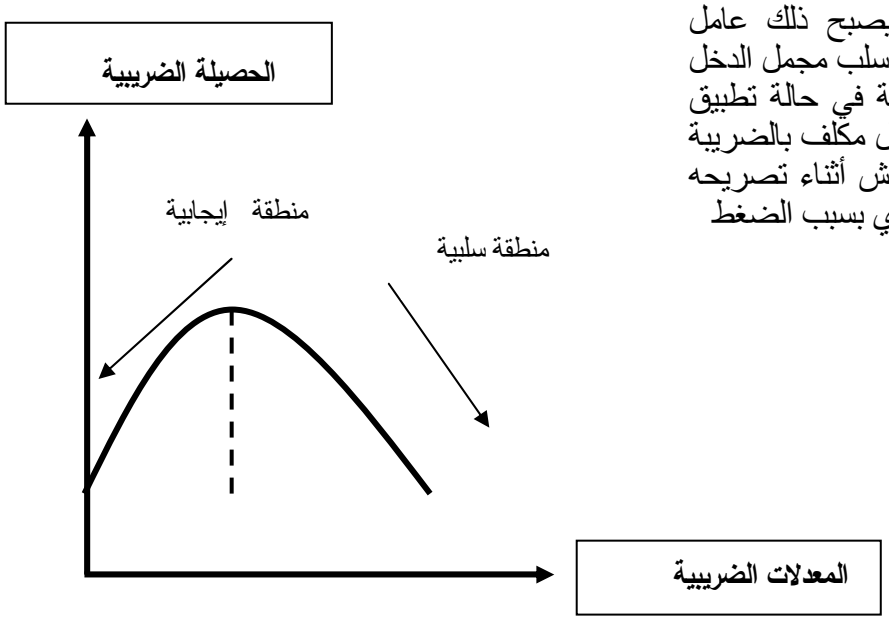

الضريبي المفروض .[24]

3-2- البناء النظري لمنحنى لافير:

يوجد في الواقع سببان رئيسيان يفسران هذه الظاهرة "الضريبة تقتل الضريبة" السبب الأول، تؤدي الضريبة على الدخل إلى إحداث تشوه في السعر النسبي بين العمل والراحة، و هذا بدوره يؤدي إلى انحراف (تغير) في تفضيل الأفراد بخصوص الإستهلاك و خسارة الإدخار.

الضريبة على الدخل والتقسيم بين الراحة و النشاط.

الأثر الأكثر شهرة للضريبة و الذي يدفعنا إلى إثبات الوجود النظري لمنحنى لافير، هو التشوه (الإعوجاج) في الأسعار النسبية مابين الراحة و العمل الحاصل بسبب الضرائب المفروضة على الدخل، بصفة عامة يمكننا إرجاع الطابع غير الحاث على العمل إلى الضرائب.

على نحو مبسط، فإن الأفراد يتصرفون في تقسيم أوقاتهم من خلال نوعين من الأنشطة: الراحة ونقصد به الأنشطة المنزلية الغير الخاضعة للضريبة، و العمل و هو نشاط خاضع طبعا للضرائب.

لنفترض الآن أننا في مجتمع حيث لا توجد ضرائب، و كان هناك فلاح يعتمد على محصول القمح، حيث يقوم بجني هذا المنتج ثم بيعه في السوق، هذا النشاط يجلب له مثلا 100 دينار في الساعة، و هذا بدوره يمكنه من شراء الضروريات التي يحتاجها ولتكن الخبز مثلا و ذلك بـ: 33 دينارا للكيلوغرام إذا كان يقوم بإنتاج(إعداد) الخبز بنفسه، و يستغرق من أجل ذلك نصف ساعة فالخيارات المتاحة أمام هذا الفلاح ستكون بسيطة جدا :

إما أن يشتري الضروريات (الخبز) من السوق، وهذا يكلفه 20 دقيقة عمل(أي الوقت الذي ينبغي عليه عمله للحصول على ما مقداره 33 دينارا من إنتاجه للقمح).

وإما أن يقوم هو بإنتاج ما يحتاجه (الخبز)، وهذا بدوره سيكلفه 50 دينارا (بدلالة إنتاج القمح بأسعار السوق)

لا شك أن الخيار الأفضل لهذا الشخص ستكون بالتأكيد هي التخلي عن الإكتفاء الذاتي وبيع القمح ومن ثم شراء ما يحتاجه (الخبز) من السوق.

في هذه الحالة فإن الإنتاج الجاري يكون قد إرتفع ب 33 دينارا من القمح و 33 دينارا للخبز. لنتصور الآن أن الدولة فرضت ضريبة ثابتة قدرها 50%، هذا يعني أنه في ساعة إنتاج واحدة، فإن الفلاح لا يحصل إلا على 50 دينارا كدخل حقيقي و يكون الرصيد في هذه الحالة 50 دينار و هو نسبة ما ستأخذه الدولة كاقتطاع إجباري .

الخيارات المتاحة أمام هذا الشخص في هذه الحالة ستتغير، ولكنها ستبقى بسيطة و تصبح كما يلي:

- إما أن ينتج القمح من أجل شراء الخبز. أو:

- أن يقوم هو بتحويل إنتاجه من القمح

إلى خبز.

- في الحالة الأولى، فإنه يجب 40 دقيقة عمل، بينما في الحالة الثانية ينبغي دائما 30 دقيقة (كما في المثال الأول).

لا شك أن النظام الأمثل للإنتاج سيكون هو الإكتفاء الذاتي، و الإنتاج الجاري في هذه الحالة سيكون منقوصا مما قيمته 33 دينارا من القمح و 33 دينارا من الخبز.

هذا المثال ليس قصصيا، لكنه يعبر و ببساطة عن واقع الحال، كما أننا محاطون بأمثلة كثيرة من هذا النوع، و المشكلة تكمن في التعرف على هذا النوع من الظواهر.

يمكننا الآن تمثيل ما قلناه عن طريق التمثيل البياني التقليدي للتحكيم بين العمل والراحة، فرد له 24 ساعة في اليوم فإذا كان يعمل صفر(0)ساعة، فإن دخله يكون معدوما(0)، و إذا كان يعمل 24 ساعة فإن دخله يساوي24w ، حيث w يمثل معدل الأجر الساعي لهذا الفرد، و بطبيعة الحال فإن أي ثنائية أو زوج تتوسط النقطتين السابقتين(أنظر الشكل1) تمثل توزيع الفرد لوقته بين العمل و الراحة.

في الشكل (01) :

عند النقطة A فإن وقت الراحة =24ساعة ، الدخل=0 وعند النقطة B فإن وقت العمل=24ساعة ، الدخل =24w (أقصى دخل ممكن).

كل النقاط(الأزواج أو الثنائيات) التي تقع على المستقيم (AB) هي نقاط ممكنة.

النقطة E تمثل نقطة التوازن، و عند هذه النقطة تتساوى المنفعة الحدية لساعة العمل الأخيرة مع المنفعة الحدية لساعة الراحة الأخيرة.

منحنى المنفعة(oU) يمثل ميل المستقيم(AB) عند النقطة(E).

الشكل(01): منحنى تقسيم الوقت بين العمل و الراحة

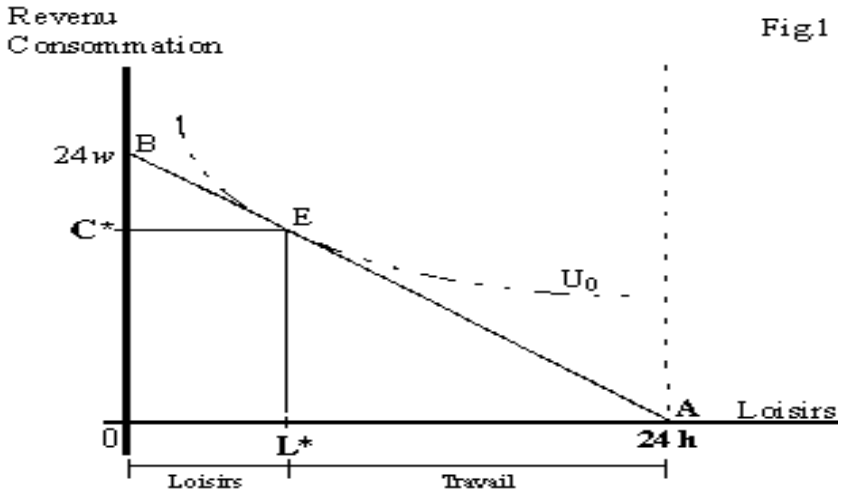

العلاقة بين عرض العمل و معدل الضريبة

إن ما تقوم به الضرائب هو أنها تغير من معدل الأجرw، فمن أجل معدل ضريبة t فإن w(1- .)tمعدل الأجر الحقيقي ليس إلا

مثلا إذا كان w=100 دينار في الساعة ،و كان معدل الضريبة 25%، فيكون معدل الأجر الحقيقي مساويا إلى 75 دينارا في الساعة، في الشكل الأول فإن الزيادة في معدل الضريبة(t) تترجم أو تظهر من خلال إنتقال النقطة B نحو الأسفل.

و من أجل كل معدل ضريبة فإننا نحصل على نقطة توازن جديدة E(t) الموافقة لها.

المنحنى الذي يصل بين مختلف نقاط التوازن E(t) التي حصلنا عليها، ليست في النهاية إلا منحنى عرض العمل S(t) بدلالة معدل الضريبة..

الشكل(02): منحنى عرض العمل بدلالة معدل الضريبة

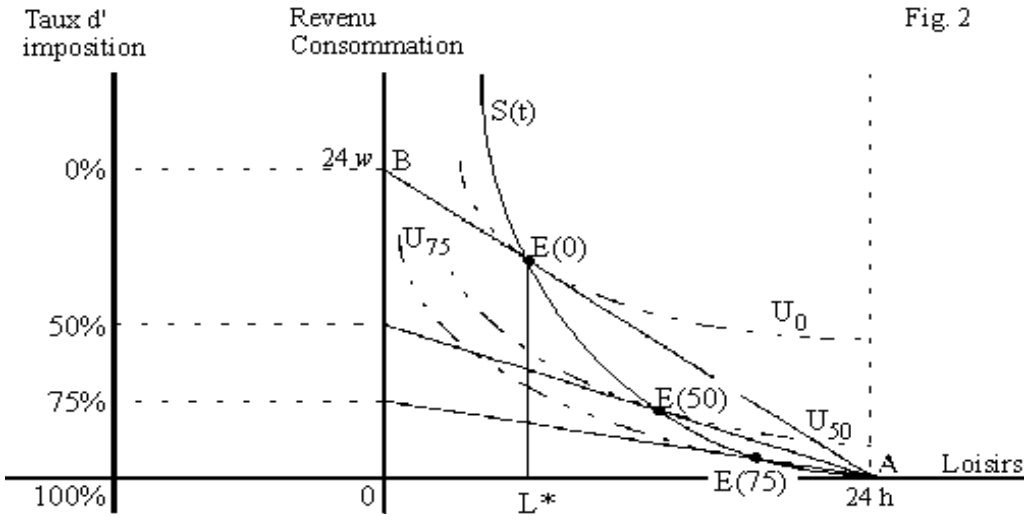

هذا المنحنى(S(t يبين لنا بأن عرض العمل يتناقص بتزايد المعدل الحدي للضرائب.

الإنتاج و هو مرتبط بعرض العمل و يتناقص إذن مع معدل الضريبة.

في حالة ما إذا كان مستوى عرض العمل معدوما و ذلك عند معدل ضريبة 100% الإنتاج يكون بدوره معدوما من أجل هذا المستوى الضريبي، ومستوى الإنتاج يتناقص إذن و بشكل منتظم من C* إلى غاية الصفر(0)، في نفس الوقت الذي تمر فيه الضريبة من الصفر(0) إلى معدل 100%.

في الحقيقة يمكننا أن نفهم بسهولة بأن الأفراد إذا كانوا مجبرين على تحويل كل إنتاجهم إلى الدولة، فإنهم سوف يفضلون التوقف عن العمل نهائيا، أو على الأقل تحويل نشاطهم من الإطار القانوني إلى السوق السوداء، هذه الظاهرة محققة و بدرجات مختلفة في كل المجتمعات الحالية.

الشكل(03): علاقة الإنتاج بمعدلات الضريبة

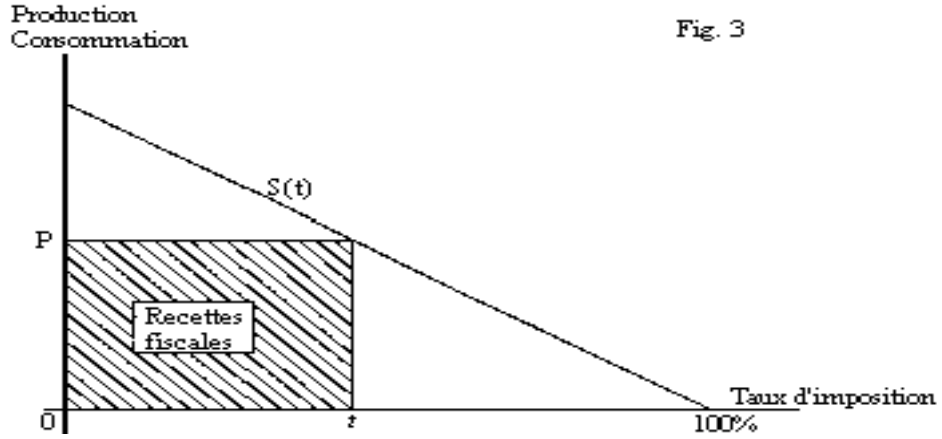

من الشكل (03):

- ما بين القيمتين (الحدين) من الإنتاج الموافقتين للمعدلين 0% و 100%، فإن الإنتاج يتناقص بإنتظام مع معدلات الضريبة.

- يمكننا إذن تبسيط هذه الفرضية الأساسية بتمثيل منحنى الإنتاج على شكل خط مستقيم متناقص.

- منحنى لافير يربط ما بين مستويات الحصيلة الضريبية للدولة و معدلات الضريبة.

- حصيلة الدولة تكون معدومة عندما يكون

معدل الضريبة معدوما، و بعدها تتزايد مع هذا المعدل قبل أن تتناقص إلى غاية الصفر(0) من أجل معدل ضريبة 100%.

و في الواقع يمكننا شرح هذه النتيجة بطريقة أكثر بساطة بالأخذ بعين الإعتبار منحنى الإنتاج والحصيلة الضريبية للدولة الموافقة لمساحة المستطيل المضلل في الشكل (03)

الشكل(04): علاقة الإنتاج (والإستهلاك) بمعدل الضريبة

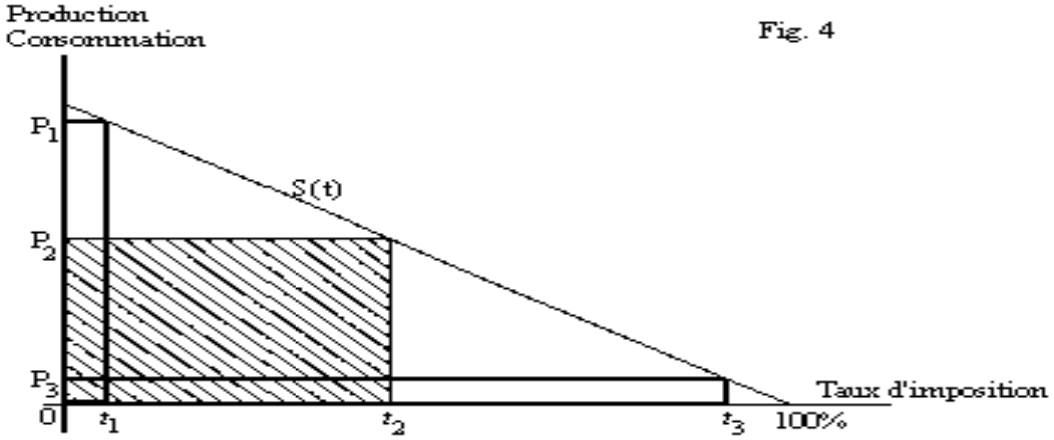

هذه المساحة صغيرة للمعدلات المنخفضة أو المرتفعة (حيث أن عرض المستطيل يؤول إلى الصفر بينما طوله يؤول إلى قيمة منتهية).

الحصيلة الضريبية تكون أعظمية

(في أقصى قيمة لها)عندما تكون مساحة المستطيل عظمى، أي من أجل قيمة متوسطة لمعدل الضريبة.

إذا تفحصنا الشكل (04) جيدا يمكننا تفهم كيف يمكن لإقتصاديي العرض الوصول إلى مثل هذه النتائج.

إن الشكل (04) يتيح لنا إمكانية مقارنة الحصيلة الضريبية (مساحات المستطيلات) الناتجة عن معدلات مختلفة للضرائب، المساحة المستطيلة المضللة تزيد أولا مع معدلات الضريبة ثم تتناقص بعد ذلك إلى الصفر.

العلاقة بين الحصيلة الضريبية و المعدلات الضريبية(منحنى لافير).

إذا قمنا بربط الحصيلة الضريبية للدولة مع معدلات الضريبة، فإننا نحصل على منحنى لافير(أنظر الشكل (05).

المنحنى في الشكل (05) يوضح بأنه إبتداء من معدل ضريبة *t كل زيادة في الضغط الضريبي تنتج تراجعا في الحصيلة الضريبية، و طبعا لا يمكننا الزعم بأن هذا المعدل هو هذا أو ذاك، و كما هو الحال بالنسبة لقانون الطلب حيث لا يحدد لنا عند أي قيمة الطلب ينخفض عند تخفيض الأسعار، فإن منحنى لافير لا يحدد لنا بكم تتغير الحصيلة الضريبية

للدولة عند تغير معدلات الضريبة المعطاة.

الشكل(05): منحنى لافير

Fig. 5

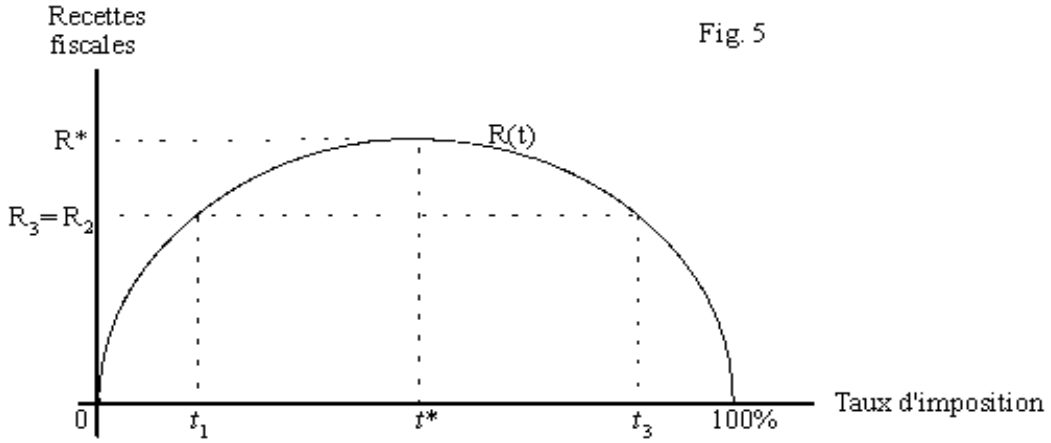

منحنى لافير إذن ما هو إلا إطار تحليلي يعتمد أساسا على بديهية حقيقية، هذه البديهية تقوم على أن الأفراد مستعدون للعمل أكثر عند زيادة دخولهم الحقيقية.

إن مبدأ منحنى لافير مستنتج من هذه البديهية و النتيجة هي أن هذا المنحنى واقعي وحقيقي.

وهكذا وصل آرثر لافير سنة 1974 إلى رسم المنحنى الذي يُنسب إليه و مفاده بإختصار أن " زيادة المعدلات الضريبية تؤدي إلى خفض الحصيلة لكن بعد مستوى معين".

<u>خاتمـــــــة:</u>

إن الضغط الضريبي عبارة عن مدى التأثير الذي تحدثه فرض الضرائب المختلفة، فلقد رأينا أن الضغط الضريبي يؤثر على العمل كما أنه يؤثر على الاستهلاك والإنتاج وهذه التأثيرات تنتقل بطبيعة الحال إلى حصيلة الدولة من الضرائب, فقد يؤثر الضغط الضريبي على حصيلة الدولة تأثيرا سلبيا بحسب معدل الضغط الضريبي ومدى قبول الأفراد لهذا المعدل، فهناك نقطة بين المنطقة الايجابية والمنطقة السلبية تسمى بمعدل الضغط الضريبي الأمثل، وفي هذه النقطة تكون حصيلة الدولة في أكبر مستوى ممكن وبعد هذه النقطة تبدأ حصيلة الدولة بالتناقص، بالإضافة إلى جانب التهرب والغش الضريبي الذي يجب أن لا ننساه، فهذا الأخير له الأثر الواضح على خزينة الدولة طبعا ومما لا شك فيه فسلوك التهرب والغش يزداد بإرتفاع معدل الضغط الضريبي، ومن هذا المنطلق نستطيع تأكيد الفرضية الأولى التي طرحت من قبل أن الضغط الضريبي عامل وحافز أساسي للتهرب والغش الضريبي

الهوامش:

1- Margairaz André, la fraude fiscales et ses succédanées, Comment on échappe à l'impôt,édition Blonay, Suisse, 1988, P : 27.

2- جامع أحمد، علم المالية، فن المالية العامة، الجزء الأول، الطبعة 2، دار النشر العربية، القاهرة، 1975، ص: 244،245.

3- Delahaye Thomas, Le Choix de la Voie moins imposée, édition Bruylant, Bruxelles,1977, P : 164.

4- Martinez Jean Claude, La fraude fiscale, PUF, Paris, 1984, P : 91.

5- سوزي عدلي ناشد، ظاهرة التهرب الضريبي الدولي و آثارها على إقتصاديات الدول النامية، جامعة الإسكندرية،1999،ص : 21.

6 - Gaudemet Paul Marie, Précis de Finances Publique, édition Montchrestien, Tome 2, Paris, 1970, P : 314.

7 - Cartou Louis, Droit Fiscal international et européen, 2 édition, Précis Dalloz, Paris, 1991, P : 259.

8- يونس أحمد البطريق، حامد عبد المجيد دراز، محمد أحمد عبد الله، مبادئ المالية العامة، دار شباب الجامعة، الإسكندرية، 1978، ص :157 .

9- Margairaz André, op.cit,P : 27.

10- Ibid, P : 28.

11- Idem

12- جامع أحمد، مرجع سابق، ص: 244،245.

13-Delahaye Thomas, op.cit , P : 164.

14- المادة 303-1- من قانون الضرائب المباشرة و الرسوم المماثلة

15- سوزي عدلي ناشد، مرجع سابق، ص: 21.

16- Martinez Jean Claude, op.cit , P : 91.

17- محمد عباس محرزي،إقتصاديات المالية العامة،ديوان المطبوعات الجامعية،بن عكنون الجزائر،2003،ص:325

18 - نصر رحال،مصطفى عوادي، الغش والتهرب الضريبي في النظام الضريبي الجزائري،نشر وتوزيع مكتبة بن موسى السعيد الوادي الجزائر 2011/2010 ،:70،71.

19- يونس أحمد البطريق،النظم الضريبية،الدار الجامعية، الإسكندرية مصر،2001،ص:87،88

20- محمد عباس محرزي،مرجع سابق،ص:325،326.

21- نفسه،ص:326.

22- يونس أحمد البطريق، النظم الضريبية، مرجع سابق،ص:79.

23- -http://islamfin.go-forum.net,15/01/2011 -

24- محمد عباس محرزي،مرجع سابق،ص:327.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 26 - 30
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الفضاء المغلق في رواية «مذاكرة الجسد»

دليلة زغودي

ملحقة مغنية جامعة تلمسان

تمهيد:

من غير الضروري ،هنا، التذكير بالأهمية البالغة للمكون الفضائي داخل العمل الأدبي عموما ،و السردي منه على وجه الخصوص ،ليس فقط بوصفه الخلفية التي تجري في إطارها الأحداث ، وتتفاعل فيها الشخصيات ، وطبعا لن يتجه القصد، مطلقا، إلى الفضاء المرجعي بواقعيته- فمن المعلوم أن الأفضية « الموظفة في نص من النصوص الشعرية (أو السردية) تتجاوز دائما واقعيتها بمجرد تحولها إلى جسد لغوي»[1]- لا و لن ينظر إليه بوصفه البعد الطباعي الذي يوزع الوحدات اللغوية و غير اللغوية على مساحة البياض .

وإنما باعتباره عنصرا هاما في بناء الخطاب ، وأحد الموجهات الأساسية للسيرورة الدلالية و الشاشة التي ترتسم عليها تجاذبات الخطاب و تقلباته .

و قد كان الفضاء ،و لا يزال، يضطلع بالقسط الأكبر من عملية بناء الأكوان السردية فهو :

«لا يخضع للمعنى إنما يمضي مع المعنى في سياق واحد ، إنه ناتج حتما عن تغيير موقف الإنسان مع الواقع ، غير أنه على مستوى النص لا يظهر تابعا لأي مضمون أو موقف سابق عليه، لأنه هو نفسه يصبح مصدر المعنى أو على الأصح مصدر المعاني المتعددة اللا محدودة»[2] .

ورواية «ذاكرة الجسد »، مثل غيرها من الروايات ،تغص بالتواجد الفضائي ، وتستثمره بشكل لافت يدعو إلى الوقوف عنده بالتأمل و التحليل . وهو ،فيها، يتخذ صورا شتى تتباين عن بعضها من حيث الضيق و الاتساع ، ومن حيث الانفتاح والانغلاق، والعموم و الخصوص ...كما تختلف في علاقاتها ببعضها من حيث الشمول و الجزئية.

فمن الفضاءات ما هو عام و شامل في شكل بلد مثل الجزائر و تونس و فرنسا، أو مدينة كقسنطينة و باريس.ومنها ما هو جزئي و مشمول ينضوي تحت النوع الأول؛ على غرار الشوارع و البيوت و المقاهي و المطارات و المساجد و الجسور...

غير أن هذه الأفضية و إن كانت قد نالت نصيبها من التواجد في المتن ، وتقاسمت الحضور فيه على نحو متقارب ، إلا أنها لم تحظ بالتعميق الدلالي ذاته و لا حملت بالرؤية الاستراتيجية عينها . و يعود ذلك إلى كون التوزيع الفضائي داخل الخطاب قد تم من وجهة نظر السارد – المشارك في الحكاية وهو "خالد"، الذي نعتمد موقفه في مطالعة هذه الأفضية و رصد علاقاتها بالعناصر الأخرى في الخطاب .

ومن وجهة نظره هو (أي: خالد) ، فإن الفضاء لا ينخرط في مسلك التأطير الدلالي العام للنص، و يدخل نسقية اللعبة التأليفية لشذرات الخطاب إلا عندما يتصل بفضاء" الوطن" (الجزائر) في شموليته أو كتفاصيل .

على الرغم من أن العمل تتشاطره ثلاثة بلدان ؛ فإلى جانب الجزائر، يوجد تونس و فرنسا ،إلا أن حضور البلدين الأخيرين فيه ليس إلا عابرا و سريعا يرد في طيات الحكي و يضمن في ثنياته.ولا يختصهما بالوصف إلا فيما ندر ، وحتى في حال وجوده فإنه يكون مختصرا وعاما و لا يتناول التفاصيل.كما أن هذين البلدين في عمومهما، أو من خلال مدنهما ،لا يخرجان مطلقا عن هيئتهما الفضائية العادية ، و لا ينزاح الحديث عنهما ،أبدا ،إلى الأوصاف الإنسانية .

ووحده فضاء"الوطن" ،في عمومه و مجزء ، «يرى لا كإطار جغرافي للمحكي ، ولكن بالأحرى كعنصر بنينة »[3] ويتم تجريده من هيئته الطوبونيمية (الفضائية) ليكسى بملامح آدمية[4]؛ بما يوحي بوجود علاقة من نوع حميمي و خاص تربط "خالدا" به ؛ فهو يُستفسر و يُخاطب ، ويُعامل كأم تارة و كأب تارة أخرى ، ومرة كمجرم سفاح وكضحية مستنزفة و مغلوب على أمرها مرة أخرى ، يستجار به ،أحيانا، من الوحدة و القهر و صقيع المنافي ، ويهرب من ظلمه وقسوته و عنفه ،في أحايين أخرى .

ولعل أبرز ما يميِّز هذا الفضاء و يصنع خصوصيته؛ هو كونه فضاء روائيا مفارقا تلحم أجزاءه جملة من المتناقضات التي تسفر عن نفسها في مستويات مختلفة . وإذا كانت « اللغة هي المدخل الضروري لقراءة الفضاء الروائي»[5]،فإن الأضداد اللغوية التي يكتظ بها الخطاب في المقاطع المخصصة للفضاء ، لخير شاهد على ذلك.

فما هي أهم تجليات هذه المفارقات الفضائية؟ وما هي آثارها على البناء العام للرواية و انعكاساتها على الشخصيات؟

- على سبيل التقديم :

«الوطن كله ذاهب للصلاة
و المذياع يمجد أكل التفاحة
و أكثر من جهاز هوائي على السطوح يقف مقابلا المآذن ، يرصد القنوات الأجنبية التي تقدم لك كل ليلة على شاشة تلفزيونك أكثر من طريقة عصرية لأكل التفاح! » [6]

هكذا يقدم إلينا السارد الفضاء في بداية الرواية ؛ فعلى أساس تقاطب **الأسفل / الأعلى** من محور "العمودية" يوقفنا على ما يحدث في الأعالي ،و ما يتبدى للعين عندما يلقى بالبصر على هذا البلد للوهلة الأولى. قبل أن ينزل بنا إلى حمأة الشوارع و المقاهي و البيوت ، ويأخذ بأيدينا لنتفرج على أضداده .

حيث تنتصب بإزائنا "المآذن "التي تصدح بالأذان للصلاة و بجوارها ترتفع أجهزة هوائية تبث برامج تدعو للفساد.فتتقاطع معالم الدين و التقوى مع مظاهر الفساد و الانحلال على صعيد واحد، و يحلهما الفضاء في المنزلة الخلاقية (القيمية) نفسها.

يقع هذا الملفوظ في الصفحات الأولى من العمل الروائي في خضم مواجهة وصفية للوطن أو بالأحرى ، للمدينة - الوطن ، و لعله بوقوعه في هذا الموقع [الافتتاحي] ، أن يكون السارد قد رأى أن يجعل من "التناقض" بطاقة تعريفية و سمة مركزية ،يجب أن يحيط كل من لا يعرف هذا الوطن بها علما ،بما أنها أبرز معلم فيه و أكثر خواصه طغيانا و انتشارا .

و من الفضاء العام ينتقل التناقض إلى الفضاءات الجزئية على نحو متدرج يكتسح ،في طريقه، كل شيء؛

1- قسنطينة: انغلاق الفضاء :

الملاحظ أن "**قسنطينة**" في الرواية لا تعامل كمدينة لها خصوصياتها الجغرافية و الثقافية و الاجتماعية ، و إنما تتخذ كأنموذج يحتوي على سمات وطن كامل إنها "المدينة الوطن" [7]–كما يقول خالد.

في هذه المدينة، يواجهك التناقض أول ما تضع قدميك على أديمها ؛ ففي مطارها « تتقاذفنا النظرات الباردة المغلقة ، تتقاذفنا العبارات التي تنهى وتأمر و كل هذه الوجوه المغلقة وكل هذه الجدران الرمادية الباهتة.. »[8]

تصادف هذا في المطار؛ و هو عتبة المدينة و بوابتها التي يجب أن تنفتح لكل زائر ولو كان غريبا، و انغلاقه بهذا الشكل يشفّ عن مدى استشراء هذا الداء ،و تأصله فيها حتى بلغ منها الواجهة و وصل فيها إلى المدخل. وجعلها توصد أبوابها في وجه أحد أبنائها البارين، وهو الذي كلفه عشقها العيش معطوبا لبقية حياته، و الذي يعود إليها بعد سنين من التشرد في المنافي؟*

و لكن هذه المدينة ، وبعد أن تتفرَّس في هويته و تتعرف عليه و تتذكر- أخيرا - بطولاته ، تقرر أن تفتح له بابها ، وإذاك: « تدخل المخبرين وأصحاب الأكتاف العريضة و الأيدي القذرة من أبوابها الشرفية ..و تدخلني مع طوابير الغرباء و تجار الشنطة ..و البؤساء» [9].

إن انغلاق فضاء المدينة لا يعزى في هذه الرواية – كما هو ملاحظ- إلى طابعها العمراني ؛ من ضيق شوارع، وارتفاع حيطان و اكتظاظ البيوت و المباني أو شدة الازدحام ،كما عودتنا صور المدينة في الرواية العربية [10]، وإنما يعود إلى هيمنة الفساد عليها بانتشار الآفات الإدارية و عموم الفوضى و التخلف و اختلال المقاييس ، فهو فضاء مغلق في وجه فئة المخلصين للوطن من أبنائه فقط ،الساعين إلى النهوض به ، الرافضين لخيانته واستغلاله ، حيث لا

يجدون سبيلا للولوج إليه و لا حيزا يؤويهم داخله بعد أن ملأته حشود الوصوليين والانتهازيين و اللصوص.

و إذا كان من المعلوم ،أيضا، أن الفضاء لا يوصف في النصوص السردية لذاته وإنما يوظَّف- غالبا- لإثراء عنصر الشخصيات أو "البنية الممثلية" – كما يدعوها كورتيس-[11] فإننا نلمس وجود "انغلاق عاطفي" يسود الصلات بين الشخصيات داخل هذا الفضاء، و هو ما يجعل "عدوى" الانغلاق تنتقل إلى خالد الذي يعود إلى وطنه فاتحا "ذراعه الوحيدة" لمدينته – هامسا لها في شوق: «كيف أنت يا أميمة..واشك؟

أشرعي بابك واحضنيني .. موجعة تلك الغربة..موجعة هذه العودة. »[12]

فإذا به يغادرها و هو يردِّد: « « لا تطرقي الباب كل هذا الطرق..فلم أعد هنا»

لا تحاولي أن تعودي إليّ من الأبواب الخلفية ، ومن ثقوب الذاكرة و ثنايا الأحلام المطوية، ومن الشبابيك التي أشرعتها العواصف. »[13]

2- الجسر: فضاء التوقف :

إن للجسور حضورا هاما و فاعلا في هذه الرواية ، حيث يشكل موضوع الجسر مقرا لتكثيف دلالي على أصعدة مختلفة،وإذا كان لهذا الحضور المركزي علاقة بمعالم قسنطينة الطبيعية التي استوعبت أغلب أحداث الرواية و هي «مدينة الجسور المعلقة» – كما يسمونها – فإن رمزية الجسر قد استثمرت بأشكال أقل ما يقال عنها أنها متقاطبة.

تجتمع السياقات المختلفة للجسور حول دلالته الأولية على "العبور" *من ضفة إلى أخرى ؛ بحيث يقع هذا العبور على مستوى محور الأفقية الذي يستند إلى بعدي "الأمام "و"الخلف" .و العبور يقترن – غالبا- بالانتقال من وضع إلى وضع آخر يفترض به أن يكون أحسن من الأول ،يترك فيه "العابر" حالا ليستقبل حالا أحسن منها ، فالأمام يرتبط بالمستقبل ، وبانتظار المجهول .

و سعيا وراء هذا المجهول ، وانبهارا بسطوة بريقه فإن: «كل شيء كان يبدو مسرعا على هذا الجسر ،السيارات و العابرون و حتى الطيور ،وكأن شيئا ما كان ينتظرهم على الطرف الآخر» [14].

تبدو الحركة على هذه القنطرة طبيعية في جمعها بين البشر و الحيوانات و حتى الآلات على الهدف عينه ،وفق المنطق العادي لدوران عجلة الحياة ، حيث استقصاد الأمام هو التوجه الطبيعي و المفترض بكل سائر.

غير أن منطق هذا الفضاء يملك وجهة نظر مغايرة ، يفاجئهم بها و هو يعلن أنه: « ربما كان بعضهم يجهل آنذاك أن الذي يبحث عنه قد يكون تركه خلفه وأنه في الحقيقة لا فرق بين طرفي الجسر ،الفرق الوحيد هو في ما فوقه ..وما تحته»[15]

هكذا يواجه منطق التناقض ، الذي يسود هذا الفضاء، "جموع العابرين" بدلالة جديدة للجسور ، حين يعكس محور التنقل فيها ،و يزيحه من المستوى الأفقي إلى المستوى العمودي الذي يتألف من بعدي **"فوق"** و**"تحت"** .

و يخبرهم بأن الجسر الذي صُمِّم كي يكون معبرا من ضفة إلى أخرى بشكل أفقي ما عاد ينهض بهذه الوظيفة منذ تطابقت الضفتان في خيبتهما ، و لم يعد هناك من داع لقطعه بقصد بلوغ الضفة الأخرى.

عندها يصبح هاجس العابرين ، لا التقدم نحو الأمام ، وإنما ينكفئ على: «تلك الهاوية المخيفة التي يفصلك عنها حاجز حديدي لا أكثر ..و التي لا يتوقف أحد لينظر إليها ربما لأن الإنسان بطبعه لا يحب أن يتأمل الموت.. كثيرا»"[16]

يمتد التناقض بهذا الشكل و يكتنف كل شيء ، فلا تفلت من قبضته حتى القناطر التي تتحول من فضاء **للعبور** من الخلف إلى الأمام إلى فضاء **للتوقف** عند طباق فوق و تحت ؛ من ممارسة الحياة عبر عيشها و التطلع فيها إلى "الآتي" عن طريق السعي باتجاه "الأمام"، إلى إيقاف دولاب الحركة، و التوقف في انتظار السقوط إلى أسفل ؛حيث الهاوية القابعة تحت الجسر تتلهف لتلقف من يتوقف به السعي فوق الجسور و القناطر في فضاء هذه المدينة « الصخرة » التي كانت «دائما أكبر من الجسور لأنها تدري أن لا شيء تحت الجسور سوى الهاوية! »[17].

3- البيوت المغلقة / المفتوحة :

في ركن آخر من فضاء هذه المدينة المتناقضة، يقبع فضاء لا يسلم هو الآخر من الازدواجية الاستعمالية ، يبينه الملفوظ التالي؛ « تتوقف فجأة خطواتي أمام جدران بيت لا يشبه بيوتا أخرى هنا كانت أكبر دار مغلقة يرتادها الرجال ، وكان لها ثلاثة أبواب تؤدي إلى شوارع وأسواق مختلفة .لقد كانت في

الواقع دارا مغلقة مشرعة مدروسة ليتسلل إليها الرجال من أية جهة و يخرجوا منها من أية جهة أخرى»[18]

لعل أول ما يلفت انتباه المتلقي في هذا المقبوس هو هذه الأضداد اللغوية المتصاقبة على امتداده ، حيث تتصادم الألفاظ الدالة على **"الانفتاح"** مع نظيرتها التي تفيد**"الانغلاق"** ؛فهي دار مغلقة في ظاهرها ؛تحتمي بجدرانها العالية من فضول المارة، و لكنها مشرعة «في الواقع» للرجال المتسللين خفية ، وتملك بدل الباب الواحد ،ثلاثة أبواب تفضي إلى أكثر الأماكن ازدحاما في المدينة ؛وهي«شوارع وأسواق مختلفة ».

بهذا الشكل ، يكشف الفضاء المتناقض عن أحد وجهيه و يخفي الآخر،فتتظاهر قسنطينة بالتعفف و الاستقامة ، بينما هي تصون بؤر الخلاعة فيها و تحميها بالجدران و تحوطها بالأسوار. و « خلف شوارعها الواسعة تختبئ الأزقة الضيقة الملتوية، و قصص الحب غير الشرعية ، و اللذة التي تسرق على عجل خلف باب..و تحت ملاءتها السوداء الوقور ، تنام الرغبة المكبوتة من قرون»[19]

4- المآذن و الغرف المظلمة الشبقية : تجاذبات الفضاء

بالموازاة مع الفضاء السابق ، يوجد فضاء آخر يضعه الخطاب على الطرف الآخر من المحور العمودي ضمن تصنيف اعتباري يقسم الفضاءات بين **"الأعلى"** و**"الأسفل"** ؛ وهو فضاء «المآذن» الذي يشغل قطب "الأعلى" ، ويشخص كمقابل لـ«الغرف المظلمة الشبقية» الملتصقة "بالأسفل".

يقول خالد : «كنت في تلك اللحظة كمعظم رجال هذه المدينة أقف في الحد الفاصل بين شهوة الجسد وعفة الروح ، يتجاذبني إلى أسفل النداء السري لتلك الغرف المظلمة الشبقية .. حيث تحلو الخطايا ، ويسمو بي إلى أعلى ذلك النداء الآخر لتلك المآذن التي افتقدت طويلا تكبيرها ورهبة آذانها الذي كان يدعو إلى الصلاة ، فيخترق بقوته دهاليز نفسي و يهزني لأول مرة منذ سنوات» [20]

يتجلى الاستقطاب واضحا في هذا الملفوظ ، وتتبدى لعبة الشدِّ و الإرخاء بجلاء لا لبس فيه مع توارد المفردات المتضادة على طوله و انخراطها في مسارين دلاليين متعاكسين ؛فهنالك « الغرف المظلمة الشبقية» من جهة ،و« المآذن» من جهة أخرى .

«الغرف المظلمة الشبقية» ع « المآذن »

ومن لوازم القطب الأول نجد : « شهوة الجسد» ، «يتجاذبني إلى أسفل» ، « النداء السري لتلك الغرف المظلمة الشبقية »، «تحلو الخطايا»

ونعثر على لوازم القطب الثاني في هذه الصور: « يسمو بي إلى أعلى ذلك النداء الآخر»، «رهبة آذانها الذي يدعو إلى الصلاة »، «فيخترق بقوته دهاليز نفسي و يهزني»

وإذا ما تأملنا، في البداية، الفعلين المستعملين للنداء في كلا الموقفين؛ **" يتجاذبني "** و**" يسمو بي"**، فإنه يمكن ملاحظة أن " يتجاذبني" يدل على الإلحاح في الطلب ضمن فعل إغرائي يسخِّر جهة " الأسفل" ، وينم عن وجود تردد أو مقاومة من الشخص المطلوب . و بالموازاة معه ، يقترن الفعل "يسمو" بإقناع المطلوب و الارتقاء به نحو "الأعلى"

وفيما **يمارس** الفعل الأول إغراءه عبر نداء **سري** في الفضاء السفلي ، نلفي "الأعلى " **يعلن** الإقناع في « نداء يخترق بقوته دهاليز نفسي»

يمكن الفصل بين معطيات هذه الثنائية في الجدول التالي:

الفضاء العمودي	
«الأسفل »	«الأعلى»
«الغرف المظلمة الشبقية»	«المآذن»
«يتجاذبني»	«يسمو بي»
«السرية»	«الجهر بقوة»

و قد يكون في انتقاء المآذن عوضا عن المساجد ، و هي أعلى جزء فيها ، تكريس لهذا التصنيف القيمي الذي يعتمد على مقولتي "الأعلى و"الأسفل" الفضائيتين ،و الذي يجعل من الأولى مناط القيم الأخلاقية و الروحية الإيجابية[21] و يقرن الثانية بقيم الانحطاط السلبية : «ها هي مدينة تستدرجك إلى الخطيئة ثم تردعك بالقوة نفسها التي تستدرجك بها »[22]

و بهذا يتحدد خيار المتنقلين في فضاء هذه المدينة بين الصعود إلى الأعلى أو النزول إلى الأسفل ، وينحصر بين ارتقاء مدارج السمو الروحي أو السقوط في مهاوي " الخطيئة" ، فيغرق قسم منهم في العبادة و الزهد و ينشغل عن الدنيا و ما فيها بالآخرة ،

بينما يضيع القسم الآخر و يذهب عقله أو يفقد حياته وهو يلهث خلف لذائذ الحياة و شهواتها .

و النتيجة: «ها نحن بلا أفكار ..نبحث عن قدرنا بين الحانات و المساجد» [23]

ينغلق فضاء الوطن ، إذن، على تناقضاته السافرة ، ويتلفف بأضداده المتصارعة في هيئة تشي بوجود انهيار باطني يطفو بآثاره على السطح .

وإذا كان التناقض دليل الحياة و مثار الأسئلة ؛ مادام الموت وحده يمحو الفوارق و يزيل الاختلاف بتجانسه المطلق الذي يقتل السؤال[24]، فإن الحياة في هذا الفضاء يطغى عليها الصراع ويهيمن عليها الجدل و تتوزعها الإيديولوجيات المتناحرة؛ فتتعالى فيها أصوات النقاش بين التيارات المختلفة التي تصنع لحمته السياسية و الاجتماعية و الثقافية ..

وهكذا تضطر الأضداد إلى التجاور دون مهادنة ، ويفرض عليها التعايش دون مساكنة ، و تكون فيها احتمالات التصادم والانفجار جاهزة في كل وقت و عند أدنى إثارة... وهو ما تكفل الجزءان التاليان لهذه الرواية أي : " فوضى الحواس" و"عابر سرير" ببيانه و رصد تداعياته .

الهوامش:

[1] - كحلوش.فتيحة: بلاغة المكان ؛ قراءة في مكانية النص الشعري ، الانتشار العربي ، بيروت- لبنان ، ط 2008،1 ،ص.25.

2 - ألبريس: الاتجاهات الأدبية في القرن العشرين ، ت. جورج طرابيشي، منشورات عويدات ، بيروت، ط 1، 1965، ص.17، عن، حبيلة الشريف: بنية الخطاب الروائي ، عالم الكتب الحديث ، أربد – الأردن، ط1، 2010 ص .195.

3 - Herbert . P : le temps et la forme, Ed : Naaman- sherbrook , Quebec, 1983,p.20
عن، نجمي. حسين : شعرية الفضاء : المتخيل و الهوية في الرواية العربية ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، ط1، 2000.ص.46.

4 - بخصوص خروج الفضاءات من هيئاتها الفضائية إلى الهيئة البشرية ينظر تحليل "غريماس" لأقصوصة "موباسان "في كتابه:
Maupassant : la sémiotique du texte ; exercices pratiques , Seuil, 1976 p.137.

5 - حسين نجمي، شعرية الفضاء ، ص. 46.

6 - مستغانمي . أحلام : ذاكرة الجسد، دار الآداب للنشر و التوزيع ، بيروت- لبنان، ط.21، 2005ص.12.

7 - نفسه : ص.287.

8 - . نفسه : ص.284.

*. خالد ؛ بطل" ذاكرة الجسد" هو مجاهد فقد ذراعه اليسرى في حرب التحرير ، و غادر الجزائر بعد الاستقلال بسبب مناوءته للنظام الحاكم وقتها.

9 - ذاكرة الجسد: ص. 287.

10 - يمكن ملاحظة ذلك ، مثلا ، في روايات عبد الحميد بن هدوقة و سحر خليفة....

11 - Courtès.j : analyse sémiotique du discours; de l'énoncé a l'énonciation , Hachette , Paris , 1991, p.228.

12 - ذاكرة الجسد : ص. 284.

13 - نفسه : ص.376.

*. ورد في "المعجم الوسيط" ضمن مادة :جسر: «الجسر: القنطرة و نحوها مما يعبر عليه ... »
- ينظر: المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، جمهورية مصر العربية مكتبة الشروق الدولية ، ط4، 2004 ص. 122.

14 - ذاكرة الجسد: 292

15 - نفسه : ص. 292

16 - نفسه : ص. 292

17 - نفسه : ص. 292

18 - نفسه : ص. 292

19 - نفسه : ص. 292

20 - نفسه : ص ص. 314-315.

21 - للوقوف على رمزية "العلو" الروحانية و السامية ينظر:
Chevalier.J et Gheerbrant.l : Dictionnaire des symboles , Ed : Laffont/ Jupiter, Paris , 1982. p.495.

22 - ذاكرة الجسد: ص 315.

23 - نفسه : ص.344

24 - دراج . فيصل: الرواية و تاويل التاريخ: نظرية الرواية و الرواية العربية، المركز الثقافي العربي ، لبنان – المغرب، ط1، 2004 ،ص. 170

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 47 - 57
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

القصة القصيرة عند جمال ناجي: دراسة فنية

محمود فليح القضاه

جامعة آل البيت

مدخل:

ولد جمال ناجي في مدينة أريحا عام 1954، ودرس المرحلة الابتدائية فيها، ثم انتقل عام 1967 بسبب نكبة فلسطين إلى عمان، حيث أكمل المرحلتين الإعدادية والثانوية، ثم درس التربية الفنية في كلية تدريب عمان. عمل في السعودية ـ في منطقة تهامة تحديدا ـ سنتين مدرسا للتربية الفنية، ثم انتقل للعمل المصرفي حتى عام 1995، ويعمل في الوقت الحالي مديرا لأحد مراكز الأبحاث في عمان[1].

وقد أصدر بعدها عددا من الروايات والمجموعات القصصية على النحو التالي:

- الروايات: الطريق إلى بلحارث عام 1982، ووقت عام 1984، ومخلفات الزوابع الأخيرة عام 1988، والحياة على ذمة الموت عام 1993، وليلة الريش عام 2004، وعندما تشيخ الذئاب عام 2008.

- القصص القصيرة: رجل خالي الذهن عام 1989، ورجل بلا تفاصيل عام 1994، وما جرى يوم الخميس عام 2006، والمستهدف عام 2011.

ويهمنا هنا أن نتوقف عند فنه القصصي الذي جاء في أربع مجموعات قصصية، ففي الوقت الذي حظي فنه الروائي بدراسات فنية[2]، فإنّ فنه القصصي لم يحظ حتى اليوم بدراسة شاملة،حيث أنه لا توجد دراسة سابقة بالعنوان والإطار الفني والموضوعي نفسه، الأمر الذي دفعني إلى دراسة ما كتب جمال ناجي من قصص تجاوزت الأربعين عبر التحليل الفني والنظرة الموضوعية. ومن هنا فإنه يمكن القول إنّ طبيعة هذه الدراسة قد فرضت تقسيم البحث بعد اتباع منهجية قراءة النتاج القصصي لجمال ناجي والتعمق فيه، واستخلاص القضايا في هذا النتاج وبيان البناء الفني إلى قسمين أساسيين، هما:

1- المضمون في قصص جمال ناجي.

2- الشكل (البناء الفني) في قصص جمال ناجي.

1- المضمون في قصص جمال ناجي:

شهدت نهاية الثمانينات باكورة إنتاج جمال ناجي من القصص القصيرة، حين ظهرت مجموعته الأولى (رجل خالي الذهن) عام 1989، ثم توالت مجموعاته الأخرى بالظهور والتي كان آخرها (المستهدف) عام 2011، ومن يتتبع مضامين قصص جمال ناجي فإنه يجد أنّ القضايا الاجتماعية كانت محط اهتمامه، وأنها تطغى على القضايا الأخرى، فكان البعد الاجتماعي هو المسيطر على جل ما كتب من قصص، وهذه القضايا الاجتماعية يمكن القول إنها قد تنوعت فمنها ما يعبر عن مشكلات يعاني منها المجتمع الأردني، ومنها ما يعبر عن تفاصيل الحياة الاجتماعية في ذلك المجتمع، فمن يقرأ قصة العلبة يجد أنها تكشف عن الفقر والظروف الاقتصادية الصعبة التي يعاني منها كثير من الناس، فالعلبة بطلة القصة تروي كيف كانت تنتقل من رف إلى رف ومن يد إلى يد ومن خزانة إلى خزانة كهدية رخيصة الثمن، تقول هذه العلبة: " هنا فقط فهمت بأنني تحولت إلى هدية!، لكن الحق أن تلك الزوجة استخفت بي واسترخصتني حينما قالت لزوجها: لكن هذه العلبة رخيصة !، وعززت رأيها مستشهدة بالهدية التي قدمها المريض إليها قبل مدة... " [3] ومن ثم فإنّ هذه القصة تكشف أيضا عن التقاليد والطقوس الاجتماعية لكثير من الناس، فهذه العلبة ما إن تصل إلى بيت ما في مناسبة ما حتى تُحمل إلى بيت آخر في مناسبة أخرى لتشكل هذه العلبة حركة دائرية تصل في نهايتها إلى صاحبها الأول (زاهر) الذي اشتراها من البقالة، تقول العلبة:" لكن هذه المرأة أعادتني بعد فترة إلى بيت (زاهر) يوم قامت بزيارته مصطحبة معها زوجها !، عرفني (زاهر) فقال لزوجته: تخيلي، ها قد رجعت إلينا العلبة التي اشتريناها من البقالة قبل أشهر" [4].

وفي قصة السترة السوداء يكشف القاص عن

آفة اجتماعية جديدة يعاني منها المجتمع وهي آفة النصب والاحتيال، ففي هذه القصة يتعرض بطل القصة إلى الاحتيال عندما أراد شراء سترة من بائع كان ينادي: (السترة بدينارين)، وعندما توقف البطل عند البائع أوهمه هذا البائع بأن في المحل القريب ما هو أفضل من هذه السترة، وحين وافق البطل وذهب مع ذلك البائع تفاجأ بأن المحل لم يكن سوى غرفة أشبه بقبو تحت درج عمارة وهذا القبو هو مكان النصب والاحتيال، يقول البطل:" خفضت رأسي، حنيت كتفي، نظرت عبر الفتحة إلى أسفل، فرأيت غرفة أشبه بقبو، يتوسطها ستة رجال يلعبون الورق ويدخنون ويشربون الشاي الأسود " [5]، وفي هذا المكان يفرض على البطل شراء السترة بسبعة دنانير، يقول المحتال لبطل القصة:"ها، ما رأيك ؟ إنها مناسبة، أليس كذلك ؟... سنعطيك إياها بسبعة دنانير فقط، وهذا سعر خاص" [6].

و في قصة مقاومة بيضاء كانت المرأة حاضرة في تصوير العلاقات الاجتماعية، وكانت صورة المرأة مقابلة لصورة الرجل من خلال الصراع القائم بين الزوجة وزوجها، ومن خلال السلطة التي كانت تمارسها تلك الزوجة مع ذلك الزوج، بشكل يرسم تلك التحولات التي يشهدها المجتمع والتغيرات الاجتماعية التي أصبحت فيها المرأة تقاسم الرجل معطيات المجتمع والحضارة، بل تجاوزت المرأة في هذا المجتمع دورها بشكل خرجت فيه عن المألوف وما في ذلك من مفارقة من خلال الحوار الذي يرسمه الكاتب بين الزوجة وزوجها:

" متى ستتعلم الصدق ؟ فأجاب: لم يبق في العمر وقت للتعلم.

هزت رأسها باستخفاف: سأبدل ملابسي بسرعة، وأنت ابدأ بتجهيز نفسك، سأحضر لك بدلة مناسبة. ثم خطت نحو خزانة الملابس قائلة... سأختار لك بدلة مناسبة "[7]. هنا ظهرت المرأة صاحبة السلطة التي تصدر الأوامر بدل الرجل الذي كان يتوق إلى الخلاص والتمرد على الواقع الذي يعيشه، فالأمر بحاجة إلى قوة تخلصه من ذلك الخوف الذي يعتمل في نفسه، يقول الكاتب مصورا حالة الضعف التي كان يعيشها ذلك الزوج: " تحتاج المسألة إلى ثورة، تمرد، عصيان، لا فرق، فالمهم هو رفض الأمر قبل أن يصبح واقعا. سبق أن اتخذ قرارات مشابهة بالعصيان، لكنه لم يقو على تنفيذها "[8]، وبالتالي فإنّ القاص في هذه القصة قد طرح جانبا هاما من جوانب الحياة الاجتماعية، وهي العلاقة المتوترة بين الأزواج والصراع القائم بينهم بما في ذلك من مفارقة، الأمر الذي بدت فيه المرأة– الزوجة متسلطة بعد أن كانت ضحية التسلط وضحية العادات والتقاليد البالية.

وحين يظهر البعد الاجتماعي في قصص جمال ناجي فإنه غالبا ما يرافق هذا البعد ذلك البوح الإنساني الذي يكشف من خلاله القاص عادات وتقاليد المجتمع الذي يعيش فيه، والمعاناة التي يعيشها كثير من الآباء، ففي قصة العيد الذي لا يحبه أبي يصف القاص جولة العيد في القرية بدءا من بزوغ شمس، يقول الكاتب: " لكن العيد، قبل أن يطرق باب دارنا يتوقف عند أطراف قريتنا: يلقي أحماله، يتفحص البيوت الوادعة في ظلمة ما قبل الفجر، يبتسم لها، يتوعدها بصباح مزركش، ثم يحمل أكياسه ويجوب دروبها المقفرة،... يتفقد البئر، وإذا نسي نفسه وتأخر، فإنه يلتقي نساء القرية، يغازلهن ويرافقهن إلى بيوتهن... "[9]. ولم ينس الكاتب أن يصف أجواء العيد في بيت أسرته: " ما إن تبزغ الشمس حتى يوقظنا من نومنا، فتثور زوبعة الفجر: قرقعة الأواني، صخب إخوتي، قحّات والدي، تشهداته، وصيحاته،... " [10]. ثم يرتدي البطل وإخوته الملابس النظيفة، يقبّلون أيدي أبيهم وأمهم، ثم يأخذون القروش منهم، ليبتسم لهم العيد ويلوح لهم بيده، ويمضي إلى البيوت الأخرى.

وفي يوم العيد يصف القاص زيارة أبي عاهد الذي تربطه بأمه صلة قرابة، فتكشف هذه الزيارة عن السعادة المرسومة على وجوه الصغار في وقت تختفي هذه السعادة على وجوه الكبار من شدة الفقر، فالفقر آفة اجتماعية يعاني منها كثير من الناس ومنهم البطل والد الراوي، حيث عبء الأسرة والأطفال وضيق المكان، وبدلا من أن يكون العيد مصدر فرح وسعادة للأب فإنه يصبح مصدر همّ وشقاء، ومن هنا كانت المفارقة (الهمّ والشقاء يوم العيد بدل السعادة والفرح)، ولذلك كان الأب يثور بسرعة كلما جاء العيد وليكون عنوان القصة العيد الذي لا يحبه أبي. ويمكن القول إن البعد الاجتماعي قد جاء واضحا في كثير من قصص جمال ناجي كقصص: الكحلاء، والحلاق، وتلك الأيام، ومجتمع مدني، وعوني ابن خالتي، وعادي،....

ولم يكن البعد الإنساني غائبا عن فكر جمال ناجي وإن جاء هذا البعد بشكل محدود، هذا البعد قد يكون جميلا يعبر عن الفرح الإنساني وقد يكون مؤلما يعبر عن المعاناة الإنسانية، ويمكن القول إن قصتي نسيان و الموت شخصيا هما أبرز ما مثّل هذا البعد في قصص ناجي، ففي قصة نسيان تناول

الكاتب موضوع الحب حيث يروي تجربة حب عاشها البطل مع فتاة، هذه القصة قد تكون واقعا وقد تكون حلما من نسج خيال الكاتب، وبما أن الحب موضوع إنساني فإن هذه القصة تعد ترجمة لحياة كثير من الذين يقعون في شرك الحب، فتصف حياة العاشقين والمراحل التي يمكن أن تمر بها رحلة الحب، حيث الفرح بداية الطريق، في وقت قد يتبدل الفرح والسعادة إلى حزن تلتاع به القلوب بسبب الفراق الذي يقع بين العاشقين، وهذا ما كان في هذه القصة، حيث بدأ الكاتب قصته بوصف لحظات الفرح الغامر التي جمعته مع محبوبته " أحببتها، سرنا معا، ابتعدنا عن ضوضاء العيون فتقاربنا: هي وأنا. تناديت، جمعت نفسي، تجرأت: أحبك. تدفق الهواء في صدري، تدافعت دقات قلبي بعنف: خشيت أن تقتلني تلك الكلمة الحارقة: أحبك "[11]. هذه السعادة لم تدم طويلا في حياة الكاتب، إذ تحول ذلك اللقاء الجميل وذلك الفرح إلى فراق مؤلم حزين " ذاكرتي لن تسعفني الآن إذا حاولت استرجاع الأسباب التي أدت إلى اختفائها من حياتي... وأنني تفكرت في آخر هذه الحياة الفانية أن فراشي تحول من فرط أرقي إلى دبابيس"[12]، وقد حاول الآخرون إيجاد الحل للبطل بأن قدموا له وصفة النسيان التي لم ترق له" لاحقتني أصواتهم عليك بالنسيان... تألمت فعادوا: لا تتألم. صمت، فقالوا معا: انس حتى الألم "[13].

وعندما يكون الحب بعدا إنسانيا يمثل جانب السعادة في حياة الإنسان، فإن الموت يمثل الجانب الآخر في تلك الحياة حيث الحزن والمعاناة، وهذا ما جاء في قصة الموت شخصيا حيث رسم الكاتب في هذه القصة ذلك الصراع بين الموت والبطل، فالموت كما يراه البطل كائن يتنفس ويتحرك ويخترق إسمنت السقوف والجدران وبلاط الغرفة ويطلق رائحة خاصة به، هذا الموت كان يحاول الانتصار والظفر بالمعركة، لكنه لم يستطع حسم المعركة في تلك اللحظة، يقول الكاتب: " اعتقد أنه بنهوضه عن سريره وسيره في الصالون أفسد على الموت خطته للظفر به "[14]، وبقي الموت يطارد بطل القصة حتى أصبح البطل يشعر بقربه منه وبدنو أجله، وقد نجح الكاتب في أن يصل إلى تلك الفكرة التي تقول بأن الإنسان يشعر بدنو أجله وأنه يحس بالموت من دون أن يراه [15]. لقد جاءت القصة لتكشف عن هاجس الموت الذي يخاف منه الإنسان ويخشاه، فالإنسان بشكل لا شعوري يشعر أن الموت يلاحقه وهكذا كانت المعطيات في هذه القصة " فرك عينيه، نظر من جديد، فعادت الظلمة تغمغم في الغرفة وتلون ما فيها: الستارة، الخزانة الجدران، السجادة المعرقة، كلها غدت مكسوة بوشاح أسود تتخلله مساحات بنفسجية داكنة "[16]. وإذا ما كان الموت نهاية الإنسان فإن الظفر حليفه حين سكنت حركة البطل " ذاك كان آخر عهده بالحركة، فقد سكن جسمه بعد أن تملكته نوبة حادة من السعال الخانق، لم يعد قادرا على تحريك أطرافه، لم يعد ينطق،... "[17]

وكان للبعد القومي نصيب ضئيل في قصص جمال ناجي، فقد وقف عند القضية الفلسطينية في قصة وحيدة هي قصة صيف عام 1989، حين أشار إلى نكبة عام 1948 ومرور واحد وأربعين عاما على خروج البطل من فلسطين، فيقول: " تصوري، كيف تمر الأيام بسرعة ؟ واحد وأربعون عاما مرت على تلك الرحلة من فلسطين، كنت يومها في الرابعة من عمري... "[18].

2- الشكل (البناء الفني) في قصص جمال ناجي:

إن من يتناول القصة القصيرة يجد أن القصة لا تتحدد بمضمونها فقط , بل تتحدد أيضا بالشكل الذي يقدم من خلاله المضمون , وقد ينجح الكاتب في نقل فكرته , ولكنه قد يفشل في تقديم عمل يتكامل فيه جانبا الموضوع والشكل, ويثير في نفس القارئ رغبة طبيعية ويرضيها[19]، وهذا ما يؤكده (آرنست فشر) إذ يقول: " إنه لمن الحماقة أن نركز كل اهتمامنا على المضمون، وأن نضع الشكل في المقام الثاني، فالفن هو تشكيل... هو إعطاء الأشياء شكلا. والشكل وحده هو الذي يجعل من الإنتاج عملا فنيا "[20]. ومن هنا تظهر أهمية دراسة البناء الفني في قصص جمال ناجي، وهذا يتطلب قراءة قصص المجموعة والبحث في أهم عناصر العمل القصصي، كالأحداث، والشخصيات، والزمان والمكان، والأسلوب القصصي، وغيرها من العناصر الأخرى.

أ- الأحداث:

الأحداث عنصر مهم في القصة القصيرة، وهو لازم فيها لأنها لا تقوم إلا به، ويستطيع القاص إذا أراد أن يكتفي بعرض الحدث نفسه دون مقدماته أو نتائجه كما في القصة القصيرة، أو قد يعرض هذا الحدث متطورا مفصلا مثلا في القصة الطويلة أو الرواية[21].

والكتاب يستمدون أحداث قصصهم من مصادر مختلفة: الواقع، والخيال، والتاريخ، ومن دراسة قصص جمال ناجي يظهر أن الواقع كان مصدرا

غنيا استمد منه القاص أحداث قصصه، وكما يقول محمود تيمور فإن القصة مرآة المجتمع " وليس الأدب على وجه عام، والقصة على وجه خاص ليست إلا مرآة للمجتمع وصورة تفصح عن جوانبه ونفسيات أهله... "[22].

وإذا قرأنا قصة العدوى فإننا نجد القاص قد استمد أحداث قصته من المجتمع الذي يعيش فيه ومن واقع الحياة اليومية، فهذه القصة تصور وقائع حياتية عاشها البطل كما عاشها الركاب والسائق في سيارة عامة. وقد جاءت هذه الأحداث لتكشف عن الهم الجماعي الذي أصبح قاسما مشتركا بين ركاب السيارة، حين أطلق أحد الركاب تنهيدة سرعان ما انتقلت إلى الركاب الآخرين بمن فيهم البطل. وقد لجأ القاص إلى المونولوج الطويل في عرض أحداث قصته وفي الكشف عن الموضوعات التي تشغل بال الركاب في سيارات الأجرة كما تشغل بال الناس بشكل عام، كموضوعات: الطقس، والأسعار، والطرق، وحوادث السير، وغيرها. ومن خلال متابعة الأحداث في هذه القصة نجد أنها تسير على نمط القص التقليدي البسيط وفق تسلسل زمني، حيث الترتيب الطبيعي للأحداث، فقد يبدأ القاص قصته من أول حوادثها، وقد يبدأ القصة بنهايتها، فعرض القصة له طرق يصعب تحديدها [23]، ويمكن القول إن جمال ناجي قد سار في بناء معظم قصصه على نمط القص التقليدي البسيط. وحين استمد القاص أحداث قصصه من الواقع، فإن قصة طموح محلي قد تزاوجت فيها الأحداث بين عالمي الواقع والغرائبية، وقد بنى القاص معظم أحداث قصته في عالم الواقع، فهو يصف العلاقة القائمة بين الأم المطلقة وابنها الذي لم يكمل العاشرة بعد، ومن خلال الحوار الذي رسمه القاص بين الأم وابنها جاءت الأحداث في عالم الواقع، فالابن كان مولعا بألعاب الحاسوب: " أحست بالضجر، نهضت عن سريرها متجهة إلى غرفته بخطى سريعة: - ألم تمت ؟. فأجاب بانهماك: دقيقة واحدة، انتظريني. وتابع معركته الضارية التي استخدم فيها أسلحة أوتوماتيكية ومتفجرات وكرات ملتهبة "[24].

إن موت الابن الذي تحدثت عنه الأم كان المقصود به الخسارة في لعبة الحاسوب، لتنتقل الأحداث فيما بعد إلى عالم الغرائبية ويصبح موت الابن حقيقة واقعة " ثم دوى صوت انفجار كبير عبر سماعة الجهاز، فصاح قهرا، سقط عن كرسيه... ركلته بحذائها فلم يستجب، تحول ارتيابها إلى جزع، ركعت إلى جانبه، هزت كتفه، تحسست وجهه، راعتها برودة جسده وجفاف جلده، فانفجر صراخها "[25].

وقد تراوحت قصة أحياء سبق أن ماتوا بين عالمي الواقع والغرائبية أيضا، فأحداث القصة في بدايتها كانت في عالم الواقع لكنها خرجت فيما بعد إلى عالم آخر، عالم تسوده الغرائبية، فبداية القصة تتحدث عن بطل القصة حين فقد أمه، وبعد ذلك تخرج الأحداث عن المألوف وتصبح غريبة عن الواقع، فقد رأى البطل بناية قريبة تتآكل وتنهار على ساكنيها بلا ضجيج، كما رأى زميله الذي مات في حادث سير يمر من جانبه، ورأى خاله الذي فارق الحياة قبل أسبوعين[26].

والقاص حر في اختيار وانتقاء حوادث قصته،أما عن طريق القراءة أو المشاهدة أو الاستماع أو التخيل [27]. وفي قصة الكحلاء كان للتراث المحلي أثر واضح في بناء الأحداث، ففي هذه القصة يسلط القاص الضوء على تلك الأوهام والخرافات التي تعيش في عقول كثير من الناس أو ما يسمى بـ (فأل الشر)، فأحداث هذه القصة تعرض صورة للبطل وأمه حين يعيشان ذلك الوهم (فأل الشر)، فالمرأة ترى أن نبتة الكحلاء تجلب المصائب للبيت الذي تزرع فيه، في الوقت نفسه يرى البطل أن المصائب حلت عليه بسبب هذه الفتنة، فقد وقع عن السلّم وفي اليوم التالي مات عمه، وفي إحدى المرات اصطدمت سيارته بسيارة أخرى [28]. كما كان للمفهوم الديني أثر واضح في بناء أحداث هذه القصة، حين طلبت الأم من الابن قراءة آية الكرسي ثلاث مرات عند إلقاء أوراق وأغصان النبتة. وللتراث المحلي أثر واضح أيضا في قصتي البقايا[29] والمنذور[30].

ويرسم القاص بعض قصصه على شكل لوحات أو مقاطع , هذه اللوحات قد ترتبط فيما بينها بعلاقة كما في قصتي: الجهات الخمس , وعوني ابن خالتي , ففي قصة الجهات الخمس تظهر لوحات (أب، وأم، وفاعل خير، وأب)، وفي قصة عوني ابن خالتي تظهر لوحات (الأحوال، وشهادة سوء سلوك، ويوم الحمار، وحذاء ابن خالتي)، وقد لا ترتبط هذه اللوحات فيما بينها بعلاقة كما في قصة يوميات رجل مكتوف اليدين، فتظهر لوحات (ابتسامة، وصحو، وحافة، واستعانة، غراب)، وبهذه اللوحات التي رسمها جمال ناجي يمكن القول بأنها تظهر تطلعه الدائم إلى التعبير عن مضامين قصصه بإشكال تجريبية جديدة , تعكس فهمه للواقع من حوله والعالم بقضاياه الإنسانية الواسعة, والبحث عن أشكال تعبيرية جديدة جعلت النهاية المفتوحة سمة بارزة في عدد من قصصه، كقصص: لهاث ليلة العيد , والموت شخصيا،

والحلاق، والمستهدف، وتلك الأيام، وغيرها من القصص، فللقارئ الحكم النهائي على تصرفات الشخصيات ومجريات الأحداث , وهو ليس مطالبا بالضرورة أن يضع نهاية لكل قصة، ذلك إن النهايات المفتوحة لكثير من القصص القصيرة تعطي القارئ فرصة اقتراح الحلول وإصدار الأحكام[31]، كما" أن القارىء لا يقف موقفا سلبيا محضا، بل يعيد من جديد بناء رؤيا أو مغامرة ابتداء من العلاقات المجمعة على الصفحة. مستعينا هو أيضا بالمواد التي هي في متناول يده، أي ذاكرته"[32]. وإذا ما تابعنا دراسة الأحداث في قصص جمال ناجي فإننا غالبا ما نجده يلجأ إلى استخدام المفارقة في بناء الأحداث وخاصة في نهاية القصة كما هو الحال في مثلا في قصة الجهات الخمس، فحين كان همّ الوالد الكبير كيف يخبر ابنه بموت العصفور دون أن يعاني من صدمة نفسية توقعها الأب لابنه، إلا أن المفارقة كانت حين لم يأبه الابن بموت العصفور ولم يحزن بل عاد إلى اللعب بجهاز الحاسوب، يقول الأب: من دون أن يكترث بذهولي ودهشتي التي أنبتت سؤالا مفجعا: لماذا لم يحزن مثلي؟[33]. وتظهر المفارقة في قصص أخرى كقصص: عوني ابن خالتي وعادي وقلب أخضر و....

ب- <u>الشخصيات:</u>

الشخصية عنصر من أهم عناصر القصة , وهي التي تقوم بالأحداث لأن " الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار والآراء العامة , ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي, بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما, وإلا كانت مجرد دعاية وفقدت بذلك أثرها الاجتماعي وقيمتها الفنية معا "[34].

ومعروف أن الشخصية هي التي تقوم بالأحداث، وقد تكون هذه الشخصية هي المحور الأساسي للقصة، ومنها وبها ينطلق القاص إلى بيان رؤية العمل القصصي، ومن خلالها تتكشف رؤية القاص والمنهج الذي يسير عليه في بناء عمله الأدبي، وهذه الشخصيات منها ما هو رئيسي يحتل مركز الصدارة في القصة، ومنها ما هو ثانوي وذلك حسب الدور الذي تقوم به هذه الشخصية[35]. ومن يستعرض شخصيات القاص في مجموعاته القصصية يجد أن هذه الشخصيات تنقسم حسب الدور الذي تقوم به إلى قسمين:

1 - شخصيات رئيسية، أو شخصيات بطلة.

2 - شخصيات ثانوية.

وقد كانت خطة جمال ناجي في رسم شخصيات قصصه تقوم على اختيار شخصية تكون مركز الدائرة، ويحيط هذه الشخصية بشخصيات ثانوية تدور في فلكها، ويمكن القول إن هذا هو الخط العام الذي سار عليه في بناء شخصيات الغالبية العظمى من قصصه، وهذا ما يظهر في مجموعاته القصصية الأربع. وإذا تتبعنا المصادر التي استقى منها القاص شخصياته القصصية، فإننا نجد أنه اهتم بالواقع وعرض قضايا الحياة ومشكلات المجتمع، فالحياة التي نعيشها أصبحت من أهم المصادر التي أمدت القاصين بالشخصيات القصصية، فحين نقرأ قصة السترة السوداء من مجموعته القصصية الأولى (رجل خالي الذهن) تظهر لنا شخصية رئيسية هي شخصية الراوي، فهذه الشخصية محورية تدور حولها الأحداث وهي بسيطة تعكس واقع طبقة عادية ميسورة الحال في المجتمع، فقد استوقفها صاحب الصوت الذي يصيح (السترة بدينارين)، فالدينار سعر مناسب لسترة تلبس في فصل الشتاء القارس، والشخصية الرئيسية هذه أيضا ليس لها تفاصيل كبرى وفيها نلمح شخصية البطل المهزوم الذي يمارس تشريحا للذات من خلال السلبية في السكوت على الباطل، فقد استسلمت هذه الشخصية لعملية النصب والاحتيال وقبلت بها، ولم تكن شجاعة في رفض ما أملي عليها، بل تنازلت عن حقها:

" ها ما رأيك ؟ إنها مناسبة أليس كذلك ؟. ووجدتني أقول: بلى، إنها مناسبة !، حينئذ أفلت قبضته، فأحسست بأنني هبطت من عل، وبلعت ريقي وأنا أنفض رأسي مرددا: إنها مناسبة "[36].

أما الشخصيات الثانوية في القصة فهي شخصيات: الشاب والستة رجال وقد استمد القاص تفاصيل الشخصيات من الأرصفة أو الأحياء الفقيرة في المجتمع، وهذه الشخصيات تسجل واقعا حياتيا لفئة من فئات المجتمع تمارس النصب والاحتيال على الآخرين ولا عمل لها سوى لعب الورق والتدخين وشرب الشاي الأسود. وقد يأتي القاص بشخصيات قصصه من المحيط الذي يعيش فيه، وقد يكون القاص إحدى شخصيات القصة، فيقوم برواية الأحداث التي مرت به، وهذه الأحداث قد يكون القاص عاشها بنفسه أو شاهدها أو سمع عنها، يقول الدكتور محمد نجم: "

ولا يفر من الكاتب الذي يتجه اتجاها واقعيا في قصته أن يعرض علينا من الحوادث ما سبق وقوعه فعلا، أو ما ثبتت صحته بالوثائق والمستندات، ولا من الشخصيات ما له ذكر في سجل المواليد والوفيات، ولكن عليه أن يقنعنا بإمكان حدوث مثل هذه الحوادث ووجود مثل هذه الشخصيات في الحياة التي نحياها ونعرفها "[37]. وفي قصة المنذور تظهر شخصية الابن كشخصية رئيسية في القصة، هذا الابن هو الكبير بين إخوته وعليه تقع المسؤولية إذا غاب والده " يوم قرر والدي زيارة عمتي العائدة من الحجاز، ذكرني بأني الكبير بين إخوتي ففهمت البقية قبل أن يكمل: عليّ أن أهتم بالدار أثناء غيابه "[38]، وقد وصفت الأم هذا الابن بالمنذور وما لهذا الوصف من دلالات كبيرة عند الأب " قالت أمي بصوت ليليّ موحش: هذا الولد منذور !. تثاءب أبي، استعاذ بالله، قال بتوجس: اللهم استر"[39]، وقد ظهرت هذه الشخصية بسيطة صادقة بعيدة عن التكلف والافتعال حالها حال الشخصيات الثانوية تكشف عن نفسها من خلال أفعالها وأقوالها " تمشيت في الباحة الشاسعة المكشوفة، تلهيت بالاستماع إلى صوت الريح وهي تجرجر أوراق شجرة الكينا قرب البوابة، أحسست بالجوع، هرعت إلى المطبخ، عثرت على قطعة جبن وكسرة خبز، حملتها وقرفصت أسفل الجدار الطيني للمخزن"[40].

أما الشخصيات الثانوية في القصة فهي: الأب، والأم، والخالة، والمرأة، والرجال، والنساء، فقد ساهمت في صنع الأحداث ومساعدة الشخصية الرئيسية في توظيف الحدث وبناء الفكرة، وقد ركز عليها القاص وظلت في مسرح الأحداث حتى نهاية القصة، وقد اتسمت بالبساطة والعفوية أيضا، فهذا الأب وهذه الأم يواسيان الابن حين تعرض للاحتراق" قال بصوته العريض: أنت رجل والرجل لا يبكي !. ضمتني أمي إلى صدرها، تمتمت بذعر، مسدت رأسي الحليق وجبهتي، وعيني المبلولتين. قال أبي بطريقته الخشنة: ولو ! أي والله لو وقع هذا الحجر في عيني ما بكيت "[41].

وفي الحديث عن الشخصيات يمكن الإشارة إلى اختلاف ظهر في قصة العلبة، حيث الشخصية الرئيسية (البطل) في هذه القصة ليست من طينة البشر فهي علبة حلوى، أما الشخصيات الثانوية فهي من جنس البشر وهي كثيرة، فنجد شخصية زاهر، وزوجته، و سارة، والبقال، والرجل المريض،...، وقد انتقلت العلبة بين أيدي هذه الشخصيات لتصل في نهاية المطاف إلى صاحبها الذي اشتراها في البداية، ولم تكن هذه العلبة في تنقلها بين الأيدي تشعر بالاستقرار والأمان " لو بقيت في المصنع لارتحت من هذه الحياة التي لا استقرار فيها ولا أمان، كل يوم في بيت، وفي كل بيت حكايات، لكنني الآن أشعر باحترام لنفسي، وبأنني لعبت دورا مهما في حياة الناس "[42]. ويمكن القول إن القاص قد كشف من خلال شخصياته القصصية عن الأوضاع الاقتصادية الصعبة للناس، يظهر هذا في حديث الزوج لزوجته حين طلب منها القيام بزيارة عاجلة إلى أقاربه لكي لا يخسران العلبة، فلم يبق من صلاحيتها سوى يومين اثنين[43].

وفيما يتصل بالشخصية في قصص جمال ناجي من حيث نموها وتطورها , فيمكن القول إن الشخصية الجاهزة هي السمة التي ميزت شخصيات تلك القصص , فالشخصية الجاهزة كما يسميها عز الدين إسماعيل[44], هي الشخصية المكتملة التي تظهر في القصة, حيث تظهر دون تغير في تكوينها وتأخذ صفة واحدة لا تبارحها , عكس الشخصية النامية التي لا يتم تكوينها إلا بتمام القصة[45], وبالنظر إلى هذه الشخصيات الجاهزة فإنه يمكن القول إن أغلبها كان مأخوذا من الواقع ومن البيئة المحيطة بالقاص، وهذا ما فعله(فرانسوا مورياك) - القاص الفرنسي، حين كان يستوحي شخصياته من البيئة المحيطة به[46]، والقاص شاء أم أبى فإنه يبني أشخاصه انطلاقا من عناصر مأخوذة من حياته الخاصة[47].

ج- الزمان والمكان:

وهما من العناصر الأساسية في بناء القصص , وحين نتحدث عن الزمان فإننا نتحدث عن الزمان الخارجي والزمان الداخلي، وإذا ما بحثنا في الزمان الخارجي فإنه الزمان الواقعي التاريخي الذي يفترض أن القصة قد وقعت فيه (إطار الحدث) فعليه تترتب عناصر التشويق والاستمرار وصيرورة الأحداث[48] وتكشف قراءة قصص جمال ناجي أنه لم يحفل بتحديد الزمن الخارجي وإن أشار في نهاية بعض قصصه في مجموعة رجل خالي الذهن إلى تاريخ كتابتها، وبالتالي فإنّ الزمن الخارجي اتسم بالتعميم والغموض، كما أن الأحداث التي أوردها القاص كان من الصعب أن يستنتج منها القارئ الزمان الذي وقعت فيه سوى قصة صيف عام 1989حين أشار القاص إلى الذكرى الحادية والأربعين للنكبة " الآن وجدتها، نحن في منتصف أيار والإذاعات تبث الأناشيد بمناسبة الذكرى

الحادية والأربعين للنكبة "[49].

أما الزمان الداخلي فهو المدة الزمنية التي وقعت فيها الأحداث وتتحرك فيها الشخصيات , فيظهر أن القاص لم يحفل به كثيرا وإن كان الزمان " يساعد على تطوير الأحداث , ويقوم بتوضيح السببية التي تحرك الأحداث , وتدفع بها إلى الأمام , ويسمح بتغير الشخصيات من خلال حركته داخل القصة "[50] , وقد ظهر هذا الزمن في مواضع قليلة كما جاء على لسان البطل " حضرت ولم أجدك في الساعة التاسعة والنصف... عدت إلى بيتي في الحادية عشرة مساء "[51]، وفي قصة أخرى على لسان الراوي يظهر الزمان الداخلي" في الصباح نبدأ الحفر، عند الضحى نتناول فطورنا ثم نتابع الحفر حتى تتوسط الشمس السماء "[52].

أما المكان فهو الأرضية التي تدور عليها الأحداث كما تتحرك عليها الشخصيات وهو لا ينفصل عن الزمان، وما ينطبق على الزمان في قصص جمال ناجي ينطبق على المكان، فلم يحفل القاص بالمكان كثيرا، وإن ظهر المكان في بعض قصصه , فهو لم يعن بتحديد أبعاده المميزة كإطار عام تدور فيه الأحداث , ومن القصص التي ظهر فيها المكان، قصص: السترة السوداء, وليل وأشياء كثيرة , وساعتان، والحزام الذهبي , ففي قصة السترة السوداء يظهر المكان بشكل عابر، يقول القاص: " البرد قارس حتى في قاع عمان، لكن... "[53]، وفي قصة ليل وأشياء كثيرة يظهر المكان (المقبرة) " طافت عيوننا أرجاء المقبرة بحثا عن الأرواح والأشباح، حدثني عن جدته التي تخاف المشي بجانب المقبرة ليلا "[54]، ويظهر المكان مبهما لا خصوصية له في قصة العيد الذي لا يحبه أبي " يتمشى قرب البئر كي يبدد الوقت المتبقي لبزوغ الشمس، يتفقد البئر، وإذا نسي نفسه وتأخر، فإنه يلتقي نساء القرية "[55].

د- **<u>الأسلوب القصصي:</u>**

أما الأسلوب القصصي فهو " الطريقة التي يعالج بها القاص أحداث قصته , ويقدم بها شخصياته إلى المتلقين , ويصور بها بيئة القصة ومواقفها المختلفة , ويصف بها نظرته للأحداث والشخصيات" [56]. وقد تعددت الطرق التي يكتب بها القاصون قصصهم، كالسرد، والحوار , وتيار الوعي , وغيرها.

ومن يقرأ قصص جمال ناجي يلحظ تنوعا في أساليب السرد, حيث السرد بضمير الغائب(هو), وضمير المتكلم (أنا)، وضمير المخاطب(أنت), وقد يشترك أكثر من ضمير في القصة الواحدة , وهذا يظهر في أكثر من نص في قصص ناجي, فيظهر اشتراك الضمائر الثلاثة(المتكلم, والغائب, والمخاطب) في قصص:السترة السوداء, والعلبة، وزيارة متأخرة، ولهاث ليلة العيد، والعود وغيرها، وقد " كان من المألوف أن يستخدم ضمير واحد من أول القصة إلى آخرها..... أما الآن فإن القصة القصيرة تستطيع استخدام الضمائر الثلاثة، وغالبا ما تكون الضمائر الثلاثة ملاصقة لوجهة نظر البطل "[57].

وحين ننظر إلى هذه القصص التي اشتركت فيها الضمائر الثلاثة يظهر لنا قلة استعمال ضمير المخاطب في القصص التي يرد فيها, فلم يأت إلا في مواقف عابرة , وقد يعود هذا الأمر إلى أن ضمير المخاطب قياسا بضميري الغائب والمتكلم هو الأحدث نشأة في الكتابات السردية المعاصرة [58], أما ضميرا المتكلم والغائب فقد شكلا ركيزة أساسية اعتمد عليها القاص في معالجة أحداث قصصه، فضمير المتكلم حين يلجأ إليه القاص فإنه يجعل الحكاية المسرودة مندمجة في روح المؤلف, كما أنه يذيب الفروق الزمنية والسردية بين السارد والشخصية والزمن جميعا , فيستحيل السارد نفسه إلى شخصية كثيرا ما تكون مركزية [59] , وهذا ما نلمحه في القصص التي اعتمدت بشكل كبير على ضمير المتكلم, ففي قصة النباح يظهر صوت القاص المحيط بكل صغيرة وكبيرة وهو يقدم نفسه للقارئ دونما واسطة, فقد لجأ إلى السرد بضمير المتكلم , فهو أكثر ملاءمة لطبيعة المرحلة التي تعيشها الشخصية، من حيث الإحباط، والنفس المأزومة، والرغبة الجامحة في بث همومها للآخرين عسى أن يخفف ذلك عنها, يقول (لين أولتبنيرد): " إن سرد القصة بلسان المتكلم – تقوم به الشخصية الرئيسية – ليمنحنا أكبر قدر ممكن من الإحساس بالمشاركة في القصة , فالتقمص العاطفي ممكن تماما فيكون لدينا إحساس موهوم بمعاناة مغامرات الشخصية الرئيسية كلها..."[60].

وفي قصة النباح، يقول القاص على لسان البطل: " كابوس النباح احتلني في يقظتي وأحلامي، وبدا لي العالم فما مفتوحا لكلب شرس، وفكرت بروية: فأنا لا أستطيع التغلب على هذا العدد من الكلاب، وطالما أنني عرفت سبب النباح، فقد بطل العجب في المسألة... "[61]. وكما لجأ القاص إلى ضمير المتكلم في معالجة أحداث قصصه، فقد لجأ أيضا إلى ضمير الغائب فهو سيد الضمائر السردية الثلاثة , وأكثرها تداولا بين السراد وأيسرها استقبالا

لدى المتلقين، وأدناها إلى الفهم لدى القراء، وقد كان ضمير الغائب حاضرا في قصص جمال ناجي، وكأن القاص يوافق غيره من القاصين في استعمال هذا الضمير لما له من فوائد عظيمة، فهو وسيلة صالحة لأن يتوارى وراءه السارد فيحرر ما يشاء من أفكار وأيديولوجيات , ويمنع من السقوط في فخ (الأنا) الذي قد يجر إلى سوء فهم العمل السردي, كما أنه يحمي السارد من إثم الكذب بجعله مجرد حاك يحكي[62].

ولم يقف جمال ناجي عند أسلوب السرد بضمائر الغائب, والمتكلم, والمخاطب, في نقل أحداث قصصه وتقديم شخصياتها، بل لجأ إلى تيار الوعي (المونولوج) الداخلي.

ويظهر تيار الوعي في قصص كثيرة مثل: السترة السوداء، والبقايا، ورجل لا يحسن الحب، ولهاث ليلة العيد، وظهر تيار الوعي بشكل كبير في قصة العدوى، حين تتحدث الشخصية عن نفسها الداخلية وأفكارها المكنونة، وفي هذه القصص يكشف هذا التيار عن معاناة نفسية يعيشها أبطال هذه القصص، فتيار الوعي كثيرا ما يصاحب بطل القصة، وقلما يتعداه إلى غيره من الشخصيات، نحو ما جرى في قصة العدوى " في عزلة الصمت التي أعيشها في سيارة الأجرة، أفكر في كثير من الأمور إن لم أقل في جميعها ! أقلب الحياة على وجوهها، أشرق، أغرب، وأبحث عن حلول ومخارج لهمومي التي ما أكثرها. هكذا أنا، لذا فإنني لا أشارك في تلك الأحاديث التي يلجأ الركاب أحيانا إلى نبشها دون مبرر "[63]، هذا الصراع يكشف عن معاناة نفسية تعاني منها شخصية البطل .

وفي لغة السرد والحوار يحمد للقاص استخدامه الفصحى، كما أنه آثر العبارة الواضحة الخالية من التعقيد والغموض ذات اللغة البسيطة، وكان للفعل الماضي حضوره الكبير في بناء جمله، حيث يمكن تمييز صيغتين من صيغ استخدامه:

1- جمل وصفية تعتمد السرد بضمير الغائب (كانت ملساء ناعمة)، و(أطفأ المصباح بسرعة)، و(تأمل السقف والجدران)، و(صاح مختالا بين الدجاجات)،...

2- جمل تعتمد ضمير المتكلم ساردا (مات أبي قبل ثلاث سنوات تقريبا)، و(رأيت بقال الحي يسير بلا هدى)، و(توجهت نحو الصبي، فوجدته واقفا)، و(تنهدت، ابتعدت عن حطامه)،...

ويمكن القول إن البحث في الفن القصصي عند جمال ناجي قد أظهر مجموعة من النتائج، من أهمها:

1- كانت القضايا الاجتماعية أبرز القضايا التي عالجها القاص، تلتها القضايا الإنسانية، ولم يتناول القضايا القومية إلا في قصة واحدة (صيف عام 1989).

2- لجأ القاص إلى أسلوب القص التقليدي البسيط بدرجة كبيرة، وإن لجأ في بعض الأحيان إلى أسلوب التجريب كالتقطيع المشهدي والمونولوج الداخلي.

3- كان الواقع المصدر الأساسي الذي استمد منه القاص أحداث قصصه.

4- اهتم القاص بتصوير الشخصيات من الخارج، في حين بدا الاهتمام قليلا بتصوير تلك الشخصيات من الداخل.

5- تنوعت طريقة السرد بالضمائر الثلاثة (الغائب، والمتكلم، والمخاطب).

6-اعتمد القاص اللغة العربية الفصحى في السرد والحوار عدا مواضع محدودة استخدم فيها العامية.

7- لم يحفل القاص بالزمانين: الخارجي والداخلي كثيرا، وكذلك الحال بالنسبة للمكان.

8- كانت النهاية المفتوحة سمة بارزة في كثير من قصص المجموعة،كقصص: لهاث ليلة العيد, والموت شخصيا، والحلاق، والمستهدف، وتلك الأيام، وغيرها.

الهوامش :

1- – ناصر يعقوب، التجربة الروائية عند جمال ناجي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 1998، ص 1.

2– السياسة وأثرها في روايات تيسير السبول وجمال ناجي ومؤنس الرزاز / عوني الفاعوري – رسالة ماجستير 1995.
- التجربة الروائية عند جمال ناجي / ناصر يعقوب - رسالة ماجستير 1998.

- المكان في أعمال جمال ناجي/ كامل التميمي – رسالة ماجستير 2006.
3- جمال ناجي، رجل خالي الذهن، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، 1989، ص 21.
4- المصدر نفسه، ص 23.
5- جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص 9.
6 - جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص12.
7- جمال ناجي، ما جرى يوم الخميس، الدار العربية للنشر والتوزيع، بيروت، 2010، ص 75.
8 - جمال ناجي، ما جرى يوم الخميس، ص74.
9- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، 1994، ص18.
10- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص18.
11- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص64.
12- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص64.
13 - جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص66.
14 - جمال ناجي، المستهدف، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص20.
15 - انظر: المستهدف، ص22.
16 - جمال ناجي، المستهدف، ص23.
17-المصدر نفسه، ص24.
18 -جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص51.
19-رشاد رشدي , النقد والنقد الأدبي , دار العودة , بيروت , 1971 , ص 23 _ 53.
20-آرنست فشر، ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم،الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978، ص201.
21-محمد زغلول سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة،منشأة المعارف، الإسكندرية، 1973، ص11.
22-محمود تيمور، القصة في الأدب العربي، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة،1971، ص 59.
23-محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، 1997، ص514.
24 _ جمال ناجي، المستهدف، ص97.
25- المصدر نفسه، ص100.
26-جمال ناجي، ما جرى يوم الخميس، ص 98-99.
27-عبد اللطيف الحديدي، الفن القصصي في ضوء النقد الحديدي، د. م، 1996، ص 131.
28-جمال ناجي، المستهدف، ص12.
29- جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص 53.
30-جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص33.
31- إبراهيم الفيومي, دراسات في الرواية والقصة القصيرة,منشورات وزارة الثقافة،عمان ,1997، ص161.
32-ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس،منشورات عويدات، بيروت،1971، ص64.
33- جمال ناجي، ما جرى يوم الخميس، مصدر سابق، ص48.
34-محمد غنيمي هلال , النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة،القاهرة، 1997، ص562.
35-عبد اللطيف الحديدي، الفن القصصي في ضوء النقد الحديث، د. م، 1996، ص139.
36 _ جمال ناجي، رجل خالي الذهن، مصدر سابق، ص 11.
37-محمد نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
38- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص34.
39 _ جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص34.
40-جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص35.

41-المصدر نفسه، ص39.
42-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص23.
43-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص23.
44-عز الين إسماعيل , الأدب وفنونه،دار الفكر العربي، ط7، 1978، ص 192.
45-المرجع نفسه، ص 193.
46-نيرفانا مختار حرّاز،فرانسوا مورياك،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،1981،ص46.
47-ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة،مصدر سابق،ص64.
48-مراد عبد الرحمن مبروك، بناء الزمن في الرواية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998، ص10.
49-جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، مصدر سابق، ص51.
50-عبد القادر أبو شريفة , مدخل إلى تحليل النص الأدبي ,دار الفكر، الأردن، ص 139.
51-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص25.
52-المصدر نفسه، ص53.
53-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص7.
54-المصدر نفسه، ص 17.
55-جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، مصدر سابق، ص 18.
56-عبد اللطيف الحديدي , الفن القصصي في ضوء النقد الحديث , 1996 , ص 189.
57-يوسف الشاروني , دراسات في القصة , دار طلاس، 1989، ص 53.
58-عبد الملك مرتاض , في نظرية الرواية , عالم المعرفة، الكويت، 1998،،ص189.
59-عبد الملك مرتاض , في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص 177 – 178.
60-لين أولبنيرد، الوجيز في دراسة القصص، ترجمة عبد الجبار المطلبي، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، 1983، ص150.
61-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص28.
62-عبد الملك مرتاض , في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص 177 – 178.
63-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص31.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 187 - 197
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الكفايات المهنية اللازم توفرها في عضو هيئة التدريس الجامعي

بواب رضوان
قسم العلوم الاجتماعية جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل

مدخـــل:

ينظر الكثير من التربيين إلى أهمية الكفايات عند أعضاء هيئة التدريس في الجامعات حيث يقوم كل عضو بدور مهم وفعال في تحقيق أهداف وبرامج الجامعة الموضوعة وتوظيفها بطريقة تساعد الطلبة على التعرف على خصوصيات برامجهم الدراسية، لذلك لابد من أن يبذل أساتذة التعليم الجامعي الجهد اللازم لصقل كفاياتهم التعليمية، وأن تبذل الجامعة الجهد اللازم من أجل تأهيلهم وتدريبهم بشكل يساعدهم على القيام بعملهم بشكل كامل.

ونظرا لأهمية الدور الذي يلعبه عضو هيئة التدريس في العملية التعليمية بالجامعة، ولكي يتمكن من القيام بدوره التعليمي والتعلمي بشكل فعال، لابد من امتلاك هذا العضو لمجموعة من الكفايات المهنية مثل الكفايات التدريسية، الكفايات التقويمية، الكفايات الإنسانية، الكفايات التكنولوجية، ... إلخ، كل هذا يتطلب مزيدا من الاهتمام بإعداد وصقل كفاياتهم، وقد أكدت الكثير من الدراسات التربوية على أنه يجب إعداد برامج تدريب لأعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات لما له من أثر إيجابي في تطور التحصيل العلمي عند الطلبة.

والتدريس في الجامعة هو علم تطبيقي مبني على خطة تعليمية، تنظم بموجبها المادة العلمية وتحوّلُ إلى مقياس يتيسر فهم محتواه، يهيأ لاستقباله الطلبة، تشخص صعوبات تعلمهم، ويقيمون مرحليا ونهائيا باستمرار، واستجابة لكل ذلك ينبغي على الأستاذ الجامعي أن يوظف كل ما أوتي من إمكانيات معرفية عامة ومتخصصة، مهارة عالية من التخاطب الإنساني ومرافقة الطالب، ومعرفية علمية بطرائق التدريس ووسائل تقويمه، إضافة إلى التعليم القائم على الاستكشاف والتدريس الإبداعي، كل ذلك في ظل دراية كافية وصحيحة بخصائص الطلبة واحتياجاتهم، وقدراتهم العقلية ووظائفهم الدماغية، وأساليب تعلمهم وتفكيرهم، وكذا طبيعة توقعاتهم المرتبطة بالمادة التعليمية وبمدرسها.

كما أن التدريس في التعليم العالي هو عملية معايشة يومية متفاعلة وديناميكية بين الأستاذ وطلابه بهدف بث ونشر روح البحث والتمحيص وأساليب العلم والاهتمام بنشر أخلاقيات العلم والعلماء، وتأهيل القيم والمبادئ التي تحكم العمل في مؤسسات التعليم العالي.

إضافة إلى أن مهنة التدريس هي من المهن الدقيقة التي تحتاج إلى إعداد جيد، وهي ليست مجرد أداء آلي يمارسه أي فرد أو كل فرد حسبما توفرت لديه قدرة تعينه أو بقدر ما عنده من علم، ولكنها مهنة لها أصولها وعلم له مقوماته، فضلا عن أنها عملية تعليمية تربوية تقوم على أسس وقواعد ونظريات، وهي عملية بناء وتكوين الأجيال المتعاقبة.

وعليه فالأستاذ في أي نظام تعليمي هو العنصر المهم الذي تقوم في الغالب على جهوده عملية التربية والتعليم، فهو المنفذ الحقيقي للمنهج، وهو العنصر الفاعل في العملية التربوية بما ينقل من قيم وتقييم من علاقات، وينمي من قدرات واتجاهات، ولا شك أن مهمته ازدادت أهمية في ظل التطورات المتلاحقة في وسائل التربية والتعليم والاتصالات والمعلومات الناتجة عن التطور الاقتصادي والعلمي والتقني، فمكانة الجامعة ارتبطت بمكانة أساتذتها، وقد صارت قوة الجامعات اليوم تقاس بارتفاع وانخفاض أداء أساتذتها وعلمائها، والتعليم الجامعي لا يمكن أن يقوم بدوره ويتطور إلا إذا وُفرت الإمكانات لهذا الفاعل، والالتفاتة إلى الدور الكبير له وتحقيق مطالبه التربوية والعلمية.

لذا أصبح لزاما اليوم على القائمين بميدان التربية والتعليم الاهتمام بتطوير وتنمية مهارات الأستاذ

المهنية بالشكل الذي يسمح له بفهم طبيعته ومهنته وما ينبغي له أن يعرفه، ليتقن عمله على أتم وجه وليقوم برسالته على أكمل وجه، وذلك من خلال تدريبه وتهيئة الجو المناسب لذلك، مما يسمح له بزيادة كفاياته المتعددة والتي تسمح له بترقية التدريس الفعال الذي يؤدي إلى مكاسب تعليمية لجميع المتعلمين ومواجهة المشكلات المرتبطة بكل ما يتعلق بالنظام التعليمي من تدفقات طلابية كبيرة وضعف المستويات والتأطير وغياب الوسائل العلمية والإمكانيات البيداغوجية اللازمة.

ومنه يمكن القول أن عضو هيئة التدريس الجامعي ينبغي أن يكون لديه اتجاهات إيجابية نحو هذه المهنة ونحو الطلبة، وأن تتوفر فيه مجموعة كفايات أساسية تساعده على مواكبة معظم التغيرات والتحديات والمواقف التي تواجهه في العملية التعليمية.

وبناءً على ما سبق ذكره سنحاول إعطاء نظرة موضوعية شاملة عن هذا الموضوع واستجلاء كل ما يتعلق به من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية:

1- ما هو واقع ومستلزمات مهنة التدريس الجامعي؟

2- ما هي وظائف عضو هيئة التدريس الجامعي؟

3- ما هي أنواع الكفايات المهنية؟

4- ما هي الكفايات اللازم توافرها في عضو هيئة التدريس الجامعي؟

ثانيا: أهداف البحث:

– التعرف على مهام ووظائف الأستاذ الجامعي.

– التعرف على مدى أهمية مهنة التدريس الجامعي.

– التوصل إلى قائمة أهم الكفايات الموجودة في هذه المهنة.

– الرغبة في معرفة الكفايات المهنية التي لابد من توافرها في عضو هيئة التدريس الجامعي.

ثالثا: المفاهيم العامة للبحث:

يتطلب بحثنا هذا التطرق إلى مفاهيم محورية وأساسية، ومفاهيم مرتبطة بموضوع الدراسة:

المفاهيم المحورية والمفتاحية:

أ. الكفاية: تأتي كلمة كفاية في اللغة كما أورد الرازي من الفعل (كفي) يكفيه كفاية أي كفاه مؤنته.[1]

ويمكن القول أن الكفاية في ابسط صورها ومعانيها تتمثل في استطاعة الفرد القيام بعمل أو مهمة دون مساعدة مباشرة من طرف آخر. ومع ذلك فإن "طعيمة" يرى أنه ليس من اليسير تقديم تعريف اصطلاحي دقيق لكلمة كفايات، لكنه قدم توضيح لمعناها الشامل بأنه تعني "مختلف أشكال الأداء التي تمثل الحد الأدنى الذي يلزم لتحقيق هدف ما."[2]

كما تعرف الكفاية بأنها "مجموعة منظمة من القدرات (الأنشطة) التي تمارس على المحتويات في صنف معين من الوضعيات، لحل المشاكل التي تطرحها هذه الوضعيات."[3]

ويعرفها عبد الله الحارثي بأنها "مجموعة من المعارف والمهارات والقدرات والاتجاهات التي ينبغي أن يمتلكها المعلم ويكون قادرا على تطبيقها بفعالية وإتقانها أثناء التدريس ويتم اكتسابها من خلال برامج الإعداد قبل الخدمة والتدريب والتوجيه أثناء الخدمة. "[4]

وتعرف أيضا الكفاية على أنها "كل ما يتم تسخيره في الفعل وكل ما يسمح بتغيير تنظيم الفعل أي تلك الكيفيات التي يدير بها الأفراد مواردهم المعرفية والاجتماعية أثناء قيامهم بفعل من الأفعال في وضعية ما."[5]

وعليه فإن التعريفات السابقة أعطت المعنى العام للكفاية في كل المجالات والمهن والتي اتفقت على أن الكفاية هي المقدرة وأنها المستوى المناسب لأداء المهام المنوطة، أي أنها عبارة عن قدرات مكتسبة تسمح بالسلوك والعمل في سياق معين ويتكون محتواها من معارف ومهارات وقدرات واتجاهات مندمجة بشكل مركب، كما يقوم الفرد الذي اكتسبها بإثارتها وتجنيدها، وتوظيفها قصد مراجعة مشكلة ما وحلها في وضعية محددة.

ب. الكفاية المهنية: يتجسد مفهوم الكفاية المهنية في الكفايات التي لابد من توفرها في القائم بمهنة التعليم ويعرفها "بنجر" على أنها "قدرة المعلم التي تمكنه من أداء سلوك معين يرتبط بما يقوم به من مهام تربوية وتعليمية في التدريس بحيث تشتمل المعارف والمهارات والاتجاهات المرتبطة بالتدريس وتؤدى بمستوى كامل ينعكس أثره على سلوك الطلاب بشكل يمكن ملاحظته في سلوك وأداء المعلم." [6]

وعرفها "مرعي وآخرون" بأنها "القدرة على عمل شيء بمستوى معين من الأداء بتأثير وفعالية، وتكون الكفاية في صورة هدف عام ومصوغة سلوكيا على شكل نتائج تعليمية تعكس المهارة أو المهام التي على المعلم أن يكون قادرا على أدائها. " [7]

وعرفها وزان بأنها "أعلى مستوى يحققه المعلم باستخدام التعلم الذاتي في المعارف والمهارات والاتجاهات في مجال تدريسه لمجال تخصصه." [8]

وعليه يمكن القول أن الكفايات المهنية هي مجموعة القدرات وما يسفر عنها من المعارف والمهارات والاتجاهات التي يمتلكها الأستاذ الجامعي وتمكنه من أداء عمله وأدواره ومسؤولياته، ويمكن أن يكون لها تاثير مباشر أو غير مباشر على العملية التعليمية.

ج. الكفايات التدريسية: يشير الكثير من الباحثين إلى أن الكفايات التدريسية هي عبارة عن المهارات والقدرات التي يمتلكها المعلمون في مجال تصميم التدريس وتنفيذها وتقويمها لتحقيق تعلم أكثر فعالية.

كما تعرف الكفايات المدرسية بأنها "قدرة الأساتذة على أداء التدريس بكفاءة وفعالية في ضوء ما يمتلكونه من معارف ومهارات وقدرات مرتبطة بمجالات الاتصال البيداغوجي، وتقديم المادة العلمية، وطرائق التدريس والوسيلة التعليمية والتقويم ومعرفة خصائص المتعلم."[9]

ومنه فالكفاية التدريسية هي عبارة عن مهارات ومعلومات وسلوكيات وصفات يكتسبها المعلم لتعينه على أداء مهمة معينة، هذه الكفايات تشمل التمكن من المادة الدراسية والقدرة على تشويق الطلبة والتحمس في الأداء واستخدام طرق التدريس الحديثة والوضوح في الشرح واستخدام الأمثلة المناسبة...الخ.

د. <u>الكفايات التكنولوجية:</u> إن جودة التعليم لا تتحقق إلا بتوفير المعلم الكفء، هذا المعلم لم يعد مقتصر في نقل المعرفة وتلقين الطلبة...الخ، بل أصبح دوره في ظل تكنولوجيا التعليم والتقنية الحديثة والتي تدخل في تصميم عملية التعليم والتعلم وتنفيذها وتقويمها، لذا فإن المعلم لابد أن تتوافر فيه مجموعة كفايات وأهمها الكفايات التكنولوجية والتي تعرف بأنها " مجموعة القدرات والمهارات والاتجاهات التي يمتلكها المعلم ويقدر على ممارستها في مجالات تكنولوجيا التعليم المختلفة وخاصة في مجال تصميم وإنتاج المواد التعليمية واستخدامها وتقويمها، وفي مجال تشغيل الأجهزة التعليمية المختلفة."[10]، أي أن الكفايات التكنولوجية هي مجموعة المعارف والمهارات والاتجاهات التي يمتلكها المعلم وتمكنه من أداء مهامه ومسؤولياته بمستوى يمكن ملاحظته وتقييمه في مجال المهارات الحاسوبية، ومجال استخدام الحاسب في العملية التعليمية ومجال الوسائل التعليمية ومجال وسائل الاتصال.

وعليه فالمعلم مطالب اليوم باكتساب الكفايات والمهارات التي تساعده على استخدام الحاسب الآلي والإنترنت ومهارات الاتصال والتواصل والقدرة على تحويل المحتوى التعليمي إلى نشاطات تعليمية، والتدريس باستخدام تكنولوجيا التعليم وتدريب وتهيئة الطلاب للتعامل مع عالم التكنولوجيا والمعلومات.

ه. الكفايات التقويمية: يشير الكثير من التربويون إلى أن المعلم الناجح والكفء هو المعلم الذي يتمتع بمهارات وقدرات في مجال تقويم العملية التعليمية عامة والطالب خاصة، ولديه القدرة على اختيار أهم أساليب التقويم المناسبة أثناء العملية التدريسية، هذه القدرات تتمثل في مجموعة من كفايات يمكن حصرها فيما يلي:

1) القدرة على تحري الدقة والعدل في تصحيح أوراق الطلاب الامتحانية.

2) القدرة على العدل بين الطلاب أثناء العملية التعليمية.

3) القدرة على طرح الأسئلة التي تشجع الطلاب على التفكير والابتكارية والتجديد والتحديث.

4) القدرة على المناقشة وانتقاد الطلاب بطريقة بناءة.

5) القدرة على التنويع في الأنشطة لمواجهة الفروق الفردية بين الطلبة.

6) متابعة الواجبات والأنشطة وجعلها معيارا للتقويم.

7) القدرة على تهيئة الطلاب نفسيا قبل الامتحان، وإجراء الامتحانات في وقتها وتسليم أوراق الامتحانات في وقتها واستخدام هذه الامتحانات كوسيلة تهديد.

8) القدرة على استخدام التقويم المرحلي عند نهاية كل سداسي والتقويم النهائي في نهاية كل العام الدراسي.

و. الكفايات الإنسانية: إن عضو هيئة التدريس الجامعي اليوم مطالب بإتباع أساليب تدريس تساهم في تحقيق أنسنة التعليم أي بناء ذات الطالب وتحقيق إنسانيته، هذا لا يتأتى إلا من خلال امتلاك هذا العضو للكفايات الإنسانية اللازمة للعملية التدريسية، وتعرف الكفايات الإنسانية بأنها "كل المهارات والقدرات والممارسات التي يتمتع بها أعضاء هيئة التدريسية في الجامعات والتي تساعدهم على الاهتمام بذات الطالب وتحقق إنسانيته، وتقاس إجرائيا من خلال اعتماد الطلبة على فقرات الأداة المعدة من قبل الباحث لهذا الغرض."[11]

وتشمل هذه الكفايات القدرة على إشاعة الجو الديمقراطي بين الطلبة، واستخدام المناقشة المبنية على أسس ديمقراطية، وتقبل آرائهم والتعامل بمساواة وإنسانية وتقدير ظروف الطلبة،...إلخ.

ز. الجامعة: كلمة الجامع (university) مأخوذة من الكلمة اللاتينية (universitas) والتي تعني التي تضم عملا أو حرفة، ليصبح اللفظ فيما بعد يطلق على الإتحاد العلمي أو النقابة التي تشمل عددا من رجال العلم سواء كانوا أساتذة أو طلابا لتدل على التجمع لهؤلاء.

وقد تعددت تعاريف الجامعة حسب دورها ووظيفتها وأهدافها، فتعرف الجامعة بأنها "هي المصدر الأساسي للخبرة والمحور الذي يدور حوله النشاط الثقافي في الآداب والعلوم والفنون، فمهما كانت أساليب التكوين وأدواته فإن المهمة الأولى للجامعة ينبغي أن تكون دائما هي التوصيل الخلاق للمعرفة الأساسية في مجالاتها النظرية والتطبيقية وتهيئة الظروف الموضوعية بتنمية الخبرة الوطنية التي لا يمكن بدونها أن يحقق المجتمع أي تنمية حقيقية في الميادين الأخرى."[12]

ويعرفها رياض قاسم بأنها " حرم العقل والضمير، إنها حرم العقل لأنها تؤمن به وبالحقيقة التي يشيدها ولأنها لا توقف جهودها على تهذيبه وتنميته وبعث قدراته على الإنتاج والإبداع...، وإنها حرم الضمير لأنها تؤمن بأن المعرفة الإيجابية مهما عززت تظل ناقصة بل قد تنقلب فسادا ما لم تؤديها مناعة خلقية..."[13]

أما سياما سنو فتعرفها على أنها "مؤسسة أو مجموعة أشخاص يجمعهم نظام ونسق خاصين تستعمل وسائل وتنسق بين مهام مختلفة للوصول بطريقة ما إلى معرفة عليا. " [14]

ومن خلال هذه التعاريف يمكن القول بأن الجامعة هي المؤسسة التعليمية التي تقوم بوظيفة التدريس وإعداد البحث العلمي ونشر الثقافة والمعرفة، وتكوين الإطارات اللازمة والتنمية وخدمة المجتمع، كما أنها ذلك المكان الذي يعتبر معقل الفكر الإنساني في أرفع صوره ومستوياته ومكانا خصبا لنمو القيم الإنسانية والوطنية والحفاظ عليها.

ح. عضو هيئة التدريس الجامعي: يطلق هذا المسمى في كثير من الجامعات على من يكون عمله الأساس التدريس أو البحث الأكاديمي، سواء كان عمله في الجامعة جزئيا أو كليا، وفي هذا البحث يقصد بعضو هيئة التدريس الأساتذة من الحاصلين على درجة الدكتوراه أو الماجستير أو ما يعادلها من المصنفين على وظيفة (أستاذ/أستاذ محاضر، أستاذ مساعد، أستاذ معيد).

ويعد هذا الأستاذ حجر الزاوية في العملية التربوية، فهو القائم بهذه العملية بوصفه ناقلا للمعرفة ومسؤولا عن السير الحسن للعملية البيداغوجية في الجامعة، وليس الأستاذ مدرسا أو ملقنا للمعرفة بقدر ما هو منظم لنواحي النشاط المؤدي إلى اكتساب المعرفة والمهارات لدى الطلاب من خلال التدريس والإشراف على مذكرات التخرج والمشاركة في البحوث العلمية.

ويعرف الأستاذ الجامعي على أنه "مختص يستجيب لمطلب اجتماعي، يتحكم في عدد لا بأس من المعرفة وكذا المعرفة العلمية، وهو عامل حر في اختياراته البيداغوجية مع الحرص على جعل روح المبادرة والاستقلالية توافق وبكل حساسية منفعة المتلقين."[15]

ويعرف عبد الفتاح أحمد جلال أعضاء هيئة التدريس الجامعي بأنهم "مجموعة الأشخاص الناقلين للمعرفة والمسؤولين عن السير الحسن للعملية البيداغوجية بالجامعة والقائمين بوظائف وواجبات مختلفة مثل التدريس والتوجيه العلمي للطلاب وإجراء البحوث العلمية والإشراف عليها" [16]

ويشمل سلك الأساتذة الجامعيين حسب المادة 28 من المرسوم التنفيذي رقم 08-130 المؤرخ في 27 ربيع الثاني من عام 1429 هـ الموافق لـ 03 مايو سنة 2008 المتضمن القانون الأساسي الخاص بالأستاذ الجامعي كل من سلك المعيدين وهو في طريق الزوال، وسلك الأساتذة المساعدين، وسلك الأساتذة المحاضرين، وسلك الأساتذة، وتشير المادة 4 من نفس المرسوم إلى أن الأستاذ الجامعي هو " الفرد المسؤول عن إعطاء تدريس نوعي ومحين مرتبط بتطورات العلم والمعارف والتكنولوجيا والطرق البيداغوجية والتعليمية ومطابقا للمقاييس الأدبية والمهنية والمشاركة في إعداد المعرفة وضمان نقل المعارف في مجال التكوين الأولي المتواصل والقيام بنشاطات البحث التكويني لتنمية كفاءاتهم وقدراتهم لممارسة وظيفة أستاذ باحث. " [17]

إجمالا لما تم ذكره فإن عضو هيئة التدريس الجامعي هو الفرد الذي يقوم بوظيفته التعليمية والبحثية في المؤسسة الجامعية ابتداءً من درجة أستاذ مساعد وصولا إلى درجة أستاذ التعليم العالي.

المفاهيم المرتبطة بموضوع الدراسة:

أ. القدرة: يرادف معجم علوم التربية بين مصطلح الكفاية والقدرة معتبرا إياهما "قدرة الفرد أثناء مواجهته مشكلات ووضعيات جديدة على استدعاء معلومات أو تقنيات مستعملة في تجارب سابقة" وهما أيضا "جملة الإمكانات التي تمكن فردا

من بلوغ درجة من النجاح في التعلم أو في أداء مهام مختلفة."[18]

بيد أن الكثير من العلماء ميزوا بين الحدود الدلالية لكلا المصطلحين، فالقدرة حسبهم هي "مراق افتراضية تسمح بتحديد المحاور التي سيعمل المدرسون والمكونون حولها، بتنظيم تدريس وتدريب ممنهج لنفس الأشخاص خلال فترة معينة، وهي تسهل وضع أنشطة بيداغوجية منسجمة ومتوافقة، وتحديد آثارها في مسار معين، ويمكن تحديدها اعتمادا على مجالات التعليم والتكوين الثلاث: المجال المعرفي، المجال الوجداني، المجال الحسي الحركي."[19]

لكن ما يمكن الإشارة إليه أن هؤلاء الباحثين اختلفوا في توضيح العلاقة بين الكفاية والقدرة، فهناك فريق يرى أن الكفاية أشمل من القدرة وحجته في ذلك أن الكفاية الواحدة تتضمن عددا من القدرات بشكل تفاعلي ولولبي، ويرى الفريق الثاني العكس جاعلا الكفاية تختص بمواد دراسية معينة أو بوضعيات معينة بينما يموقع القدرة داخل مواد تعليمية عامة ووضعيات مهنية وبالتالي القدرة أشمل من الكفاية.

ب. المهارة: يستخدم البعض مصطلح المهارة كمرادف لمصطلح الكفاية لكن هناك من يفرق بينهما؛ حيث أن المهارة هي الجزء الأدائي الذي يقوم به الفرد، أما الكفاية فهي المهارة العملية يضاف إليها المعارف والمعلومات النظرية والقيم والاتجاهات الوجدانية.

ج. كما تعرف المهارة بأنها "مجموعة الأفعال المنهجية والحركية التي يتقنها المدرس أو التلميذ... بالنسبة للمدرس المهارات التعليمية مجموعة أفعال مجزأة ترتبط فيما بينها لتشكل وظيفة من وظائف التدريس (حوار، إلقاء، ضبط، تشخيص)، وبالنسبة للتلميذ فالمهارة هي مجموعة أفعال يقوم بها لأداء مهام وتمارين معينة... (التعبير، الرسم، القفز...) وتشمل هذه المهارات العضوية الحركية المهارات التلفظية والمهارات الجسمية والمهارات اليدوية..."[20]

د. وبذلك تكون المهارة :هي مجموعة من الأنشطة تترجم مدى التحكم في أداء مهمة معينة، وهي ذات مستويات ثلاث في المجال الديداكتيكي:

- ✓ مهارات التقليد والمعالجة والمحاكات، ويتم تنميتها بواسطة تقنيات المحاماة والتكرار.
- ✓ مهارات الإتقان والدقة وتنمى بالتكرار والتمهير والتدريب.
- ✓ مهارات الابتكار التكيف والإبداع وتنمى بالعمل الذاتي والجهد الشخصي الموجهين.[21]

ه. الأداء: يشير الكثير إلى أن الأداء يختلف عن الكفاية، فالأداء حسبهم هو إظهار السلوك أما الكفاية فهي السلوك نفسه مع أشياء أخرى، ويعرف فاروق حمدي الفراء الأداء بأنه هو " الناتج السلوكي الذي يحققه المنهاج، كما تظهره عملية التقويم."[22]، أي أن الأداء هو مستوى الإنجاز الذي حققه الفرد.

كما يقصد بالأداء "المخرجات والأهداف التي تسعى المنظمة إلى تحقيقها عن طريق العاملين فيها، ولذا فهو مفهوم يربط بين أوجه النشاط وبين الأهداف التي تسعى المنظمات إلى تحقيقها عن طريق مهام وواجبات يقوم بها العاملين داخل المنظمات." [23]

أما الأداء في مجال التدريس فهو "مقدار ما يحققه المعلم من سلوك وفعالية مع تلاميذه في أثناء الموقف التعليمي التعلمي."[24]

وفي قاموس التربية يعرف الأداء بأنه "الإنجاز الفعلي الذي يميز القدرة الحقيقية، وتعني القدرة كل ما يقوله المعلم في أثناء الموقف التعليمي التعلمي وما يتصل به على نحو مباشر أو غير مباشر من إدارة الفصل، إدارة المناقشة، الإلقاء، استخدام الوسائط التعليمية، توجيه الأسئلة، وغدارة التفاعل اللفظي."[25]

إجمالا لهذه التعاريف يمكن القول أن الأداء هو بمثابة الانعكاس المباشر للكفاية وهو السلوك الظاهر الذي يتجلى ويتمظهر والذي يمكن ملاحظته بطريقة مباشرة، وقياسه فعليا.

رابعا: خصائص الكفايات:

إذا ما لاحظنا في الأدبيات البيداغوجية التربوية نقر بأن تحديد خصائص الكفاية يتم وفق خمس ميزات أساسية وهي كالآتي: [26]

خاصية الحشد لمجموعة من الموارد المندمجة:

ومن بين الموارد التي تستدعيها الكفاية نذكر المعارف النابعة من التجربة الشخصية وآليات وقدرات ومهارات... هذه الموارد تشكل مجموعة مندمجة يصعب في غالب الأحيان تحديدها.

خاصية الغائية:

إن ما يحشده التلميذ أو الأستاذ من موارد متنوعة يكون قصد القيام بنشاط أو بحل مشكل مطروح في ممارسته المدرسية أو في حياته اليومية، وفي كل الحالات فإن الكفاية يكون غائية وقصدية وتستجيب لوظيفة اجتماعية بالمعنى الواسع للكلمة.

خاصية الصلة بين فصيلة من الوضعيات:

وذلك أن تنمية كفاية معينة يتطلب حصر الوضعيات التي يمارس فيها التلميذ الكفاية، ورغم اختلاف تلك الوضعيات فإن تنوعها واختلافها محصور في فصيلة محددة وخاصة.

خاصية هيمنة التخصص (المادة):

ترتبط الكفاية أكثر بالتخصص (أو المادة)، وميزتها هاته ناتجة عن كونها غالبا ما تحدد عبر فئة من الوضعيات تتناسب مع مشكلات خاصة بالتخصص ومنبثقة عن مقتضياته، إلا أن هذا لا ينفي أن بعض الكفايات تنتمي إلى تخصصات مختلفة تكون أحيانا قريبة من بعضها، وتكون بذلك قابلة للنقل.

فالمعلم أو المتعلم الممتلك للكفاية في مجال ما يتمكن من التصرف بكيفية متوقعة في سياقات ومواقف تتسم بدرجة عالية من التعقيد، وذلك لأنه يفهم ما يجب فعله ويتذكر الكيفية والشروط الملائمة للإنجاز الفعال والصائب، ما دام قد تدرب بانتظام على امتلاك الكفاية المعينة في سياقات ومواقف كثيرة ومتشابهة.

خاصية قابلية التقويم:

بخلاف القدرة التي يصعب تقويمها، فإن الكفاية تتميز بقابليتها للتقويم، لأنه بالإمكان قياس نوعية تنفيذها ونوعية النتيجة المتحصلة.

خامسا: أسس تحديد الكفايات في مجال التعليم:

جاءت تربية المعلمين القائمة على أساس الكفايات كرد فعل لتربية المعلمين المألوفة أو التقليدية، وتعتمد عملية تحديد الكفايات واختيار مصادر اشتقاقاتها بدرجة كبيرة على بعض الأسس، هذه الأسس كما حدده هرمة نقلا عن كوبر Cooper في عدة محاور منها: [27]

الأساس الفلسفي:

يعد هذا الأساس بمثابة الأساس الحاكم الذي يتم في ضوئه وضع الغايات والأهداف والمنطلقات التي تتفق مع قيم المجتمع وفلسفته، ومن خلاله تتحد النتاجات المرغوبة لعملية التربية، وهو يلعب دورا كبيرا في تحديد مفهوم معين لدور المعلم وتتحدد في ضوئه الكفايات المهنية اللازمة لأداء هذا الدور بأسلوب علمي سليم ويواكب تطور العصر.

أساس المادة الدراسية:

المادة الدراسية تعد إحدى مكونات الموقف التعليمي (المعلم، الطالب، المادة العلمية) ولا يمكن أن تتم العملية التعليمية بدون وجود خبرات ومعارف تقدم للمتعلم، ومن هذا المنطلق فإن أساس المادة الدراسية يعد أحد منطلقات الكفايات التعليمية اللازمة من خلال البناء المعرفي وتنظيماته المتنوعة في مجال المادة الدراسية، وعادة ما تركز الكفايات التي تحدد في ضوء هذا الأساس على الكفايات التخصصية التي تقوم على المعرفة بصفة أساسية، كما يتوقع أن يكون هذا الأساس مصدرا لتحديد بعض الكفايات الأدائية في مجال المادة الدراسية التي تعتبر مكملة للكفايات المعرفية في المجال.

أساس الممارس:

تعد ممارسة العملية التعليمية من الجوانب المهمة في صقل شخصية المعلم وتزويده بالخبرات التي تعجز البرامج التقليدية لإعداده عن تزويده بها، ومن هذا الجانب فإن أساس الممارس يقوم على مفهوم مفاده أن الكفايات التعليمية اللازمة للمعلم في أي مجال أو تخصص يمكن تحديدها من خلال التحليل الدقيق لما يفعله المعلمون والأساتذة الأكفاء أثناء ممارستهم لعملية التدريس، فالمعلم الكفء أو المقتدر من خلال أدائه لمهامه التدريسية المحددة مثل إدارة النقاش والحوار، إدارة الصف، مشاركة الطلاب في العملية التعليمية، وتعزيز وإثارة دافعيتهم نحو التعلم وغيرها من المهام الأخرى يمكن أن تعطي نموذجا جيدا للأداء المتميز وربما الفعال، وهذا بدوره يتيح الفرصة لتحديد الكفايات المرغوبة في ضوء هذا الأساس.

ومما سبق؛ نستنتج أن الأسس السابقة هي التي تشكل في مجموعها الإطار العام الذي يمكن أن نستخرج ونشتق منه الكفايات المهنية اللازمة لعضو هيئة التدريس الجامعي.

سادسا: أنواع الكفايات وتصنيفاتها:

تتعدد أنواع الكفايات بتعدد النظرة إليها وذلك حسب فلسفات التعليم ونظريا ت التدريس وحاجات المجتمع، والمقصود بتصنيف الكفايات كما تقول إيمان هريدي هو "تحديد المحاور التي تدور في ضوئها الكفايات باعتبارها رئيسية، يتم تحليلها إلى كفايات ثانوية، حيث غن الهدف من التصنيف تيسير مهمة التفكير في كل جانب من جوانب الإعداد وتنميته لدى المعلمين."[28]

وقد قسم بعض الباحثين الكفاية إلى ثلاثة أقسام وميزوا بين ثلاث درجات من الكفاية؛ وهي:[29]

الكفاية الأولية:

أي كفاية الدرجة الأولى، وتعرف في الأدبيات الكندية بالأهلية أو القدرة، ونتحدث عنها حين يتعلق الأمر بمعرفة علمية أو مجموعة محددة من العمليات جوابا عن إشارة (سؤال أو تعليمة أو صيغة معروفة ومألوفة من طرف التلاميذ...) ويكون القصد منها هو إجراء.

1- **كفايات أولية مؤطرة:** أي كفايات الدرجة الثانية ويتعلق الأمر بامتلاك مجموعة من هذه الكفايات الأولية، وبمعرفة اختيار الكفاية التي تصلح

من بينها لمواجهة وضعية مستجدة بما تقتضيه هذه المعرفة من تحليل وتأويل للوضعية.

2- **كفايات مركبة**: أي كفايات الدرجة الثالثة، وفيها تكون بصدد الاختيار والتركيب الصحيح لمجموعة من الكفايات الأولية بهدف معالجة وضعية جديدة ومركبة.

وهناك أيضا عدة أساليب لتصنيف الكفايات إلى محاور ومنها:

- الكفايات من حيث طبيعتها (تصنيف بلوم):[30]

أ. كفايات معرفية: وتتمثل في أنواع المعارف والمعلومات والمفاهيم اللازمة للمعلم، سواء حول المادة أو البيئة المحيطة أو الطالب.

ب. كفايات نفس حركية: وتتمثل في المهارات الأدائية التي تلزم المعلم في مختلف أوجه النشاط التربوي للعملية التعليمية.

ج. كفايات وجدانية: وتتمثل في الاتجاهات والقيم التي يتبناها المعلم ويؤمن بها.

- الكفايات من حيث مستوى التعقيد: ويبدأ من البسيط وينتهي بالمركب، لذا يساعد هذا التصنيف واضعي برامج الإعداد والتدريب على وضع تصور واقعي لمراحل الإعداد المهني للمعلم.

- الكفايات من حيث أدوار المعلم: وينطلق هذا التصنيف من تصور لأدوار المعلم مع طلابه ويتلخص ذلك في حصر مجالات الكفايات في ستة؛ هي:

- المعلم ناقل للمعرفة
- المعلم مدير للنشاط التعليمي.
- المعلم مصمم ومصدر لعملية التدريب على التعليم.
- المعلم مدير ومصمم لمهام التعليم.
- المعلم مشارك في الإشراف.
- المعلم متفاعل مع الآخرين.

كما يصنف بعض الباحثين الكفايات إلى ثلاثة أنواع، كفايات معرفية، وكفايات أدائية، وكفايات نتائج، وفيما يلي عرض لمفهوم كل نوع: [31]

- الكفايات المعرفية: وتشمل المعلومات والحقائق واستخدام أدوات المعرفة في الميادين العلمية وهي ليست كافية لتمكين المعلم من ممارسة عمليه بفعالية، بل لابد من توافر كفايات أدائية تمكنه من أداء متطلبات العمل، وتنقسم الكفايات المعرفية إلى نوعين فرعيين هما كفايات العمليات (أي طرق التدريس)، وكفايات المحتوى (محتوى المادة الدراسية...الخ)

- الكفايات الأدائية: وتشير إلى سلوك المعلم كما يقوم به في حجرة الدراسة، وتتعلق بالأداء بالإضافة إلى المعرفة، ومعيار تحقق الكفاية هنا هو في قدرة المعلم على القيام بأداء المهام التعليمية المطلوبة.

- الكفايات النتائج: وهي تختلف عن سابقتيها ويُعنى بها أن المعلم لابد أن يكون قادرا على إحداث نتيجة مرغوبة أو تغيير مرغوب في أداء طلابه من خلال استخدامه لعدد كبير من الكفايات المعرفية والأدائية وهي أعلى مستوى للكفايات، وهذا هو الهدف الأساسي للتعليم، وتتميز كفايات النتائج بالقدرة على الوصول إلى النتائج.

كما أشارت يسرى مصطفى السيد إلى أن هناك أربعة أنواع من الكفايات المهنية؛ هي:[32]

- الكفايات الوجدانية: وتشير إلى استعدادات الفرد (المعلم) وميوله واتجاهاته وقيمه ومعتقداته، وهذه الكفايات تغطي جوانب متعددة مثل حساسية المعلم وثقته بنفسه واتجاهاته نحو المهنة (التعليم).

- الكفايات الأدائية: وتشير إلى كفاءات الأداء التي يظهرها الفرد (المعلم) وتتضمن المهارات النفس حركية (كتوظيف وسائل تعليمية) وأداء هذه المهارات يعتمد على ما حصله الفرد (المعلم) سابقا من كفايات معرفية.

- الكفايات المعرفية: وتشير إلى المعلومات والمهارات العقلية الضرورية لأداء المعلم في شتى مجالات عمله (التعليمي، التعلمي).

- الكفايات الإنتاجية: وتشير إلى أثر أداء المعلم للكفايات السابقة في الميدان (التعليم) أي أثر كفايات المعلم في المتعلمين، ومدى تكيفهم في تعلمهم المستقبلي أو في مهنهم.

وعليه ومن خلال استعراضنا لكل هذه التصنيفات توصلنا إلى أن هناك اختلاف في تصنيف الكفايات، فعادة تصنف حسب كل باحث أو حسب البيئة التعليمية وحسب الهدف المسطر لها.

سابعا: الكفايات اللازم توافرها في عضو هيئة **التدريس الجامعي:**

لكي يقوم عضو هيئة التدريس الجامعي (المعلم) بأداء أدواره ووظائفه بكل كفاءة واقتدار لابد أن يتمتع بقدر كاف من القدرات والمهارات والكفايات اللازمة لأداء مهنته التدريسية والتعليمية، هذه الكفايات يمكن تلخيصها فيما يلي:[33]

- كفاية التخطيط للتعلم: وتتضمن هذه الكفاية مجموعة من المهارات مثل مهارة صوغ الأهداف التعليمية بصورة أدائية وتصنيف الأهداف إلى أهداف معرفية وحسية أو مهارية ووجدانية وتنظيم الأهداف على شكل مترابط ومتسلسل وتحديد المحتوى المعرفي للمتعلمين واختيار طرائق التقويم الملائمة للأهداف والقدرة على تحديد مستوى التطور والتحسين في التحصيل لدى طلابه، إضافة إلى امتلاك مهارة التخطيط لإدارة المناقشات بفعالية.

- كفاية تحديد الاستعداد للتعلم: وتتضمن هذه الكفاية قدرة المعلم على تحديد المتطلبات المسبقة التي ينبغي توافرها لدى المتعلم ليكون قادرا على تعلم الخبرات الجديدة واختيار المعلم للأساليب والأدوات التي تساعده في الكشف عن هذه المتطلبات المسبقة، ووضع الخطط العلاجية التي يؤدي إلى مساعدة المتعلمين على امتلاك هذه المتطلبات وإتقانها، إضافة إلى "القدرة على تصميم مواقف تعليمية لتنمية مهارات التفكير تكون مشتقة من موضوعات المنهج المقرر. "[34]

- كفاية استثارة الواقعية للتعلم: وتشمل هذه الكفاية قدرة المعلم على اختيار أساليب الحفز والتعزيز المختلفة واستخدامها وتوظيفها بحيث تؤدي إلى استثارة دافعية المتعلم نحو التعلم وتشجيعه على التفاعل والمشاركة الإيجابية في عملية التعليم والتعلم إضافة إلى تهيئة البيئة المناسبة لتحفيز الطلاب على التعلم وغرس الاتجاهات الإيجابية في نفوس الطلبة نحو الانضباط الذاتي وتعزيز تعلمهم الفردي والذاتي.

- كفاية إدارة التفاعل الصفي: وتتضمن هذه الكفاية قدرة الأستاذ على توفير جميع الظروف والشروط الصفية اللازمة لحدوث عملية التعليم ومن خلال قدرته على توفير الأجواء المادية الملائمة وتوفير الأجواء النفسية والاجتماعية اللازمة، إلى جانب تهيئة بيئة تعليمية داخل حجرة الدراسة تحقق تعلما فعالا والتمكن من استخدام الوقت بفعالية لتحقيق أهداف الدرس، واستخدام الأساليب التي تتيح التفاعل الصفي بين الطلاب لأنفسهم وبين المعلم بطريقة متقنة.

- كفاية توظيف المواد التعليمية والمناهج التربوية وتوظيف الوسائل التعليمية: وتتضمن قدرة المعلم على توظيف المواد التعليمية والمناهج المدرسية توظيفا فاعلا بصورة تسهم في تحقيق الهداف التربوية المنشودة، وقدرته أيضا على اختيار الوسائل التعليمية وإعدادها وتوظيفها بشكل فعال في عملية التدريس والمواقف التعليمية إضافة إلى توظيف هذه الوسائل في تنظيم المادة الدراسية ومراعاة تسلسلها المنطقي وربط المادة التي يدرسها بغيرها من المواد الأخرى لتحقيق التكامل بين المناهج. [35]

- كفاية الإشراف على التدريبات والتطبيقات العملية: وتتضمن قدرة المعلم على تطبيق المعلومات النظرية تطبيقا عمليا والقدرة على الإشراف على المتعلمين وهم يتدربون على أداء المهمات والتدريبات العملية كالمذكرات والتربصات، إضافة إلى "القدرة على إعداد تطبيقات عملية لتنمية القدرة على إنتاج أكبر عدد من الأفكار والتصورات في وحدة زمنية محددة، وتشجيع الطلاب على حل الأسئلة بأكثر من طريقة ودمج مهارات التفكير في موضوعات المنهج الدراسي بحيث يتعلم الطلاب المادة العلمية ومهارة التفكير معا، وتنمية مهارة حل المشكلات واتخاذ القرارات لدى الطلاب."[36]

- كفاية الاتصال والتواصل: وتتضمن هذه الكفاية قدرة المعلم على العمل مع المتعلمين ومع الزملاء ومع الإدارة ومع أولياء التلاميذ، وقدرته على تشجيع المتعلمين للتفاعل الإيجابي في الموقف التعليمي التعلمي من خلال تقبله لأفكار المتعلمين ومشاعرهم وآرائهم ووجهات نظر، وتوجيه الأسئلة التي تثير التفكير، وتنظيم عملية تفاعل المتعلمين مع بعضهم البعض خلال الموقف التعليمي واستخدام المثيرات المتنوعة وأساليب التعزيز المختلفة التي تشجعهم على التفاعل.

- كفاية المهمات الإدارية والبيداغوجية والبحثية: وتشير هذه الكفاية إلى قدرة المعلم على أداء بعض المهمات الإدارية مثل متابعة دوام المتعلمين، وتنظيم السجلات والملفات وكتابة التقارير والقيام بمهمات المناوبة وزيارة الصف ...إلخ، إضافة إلى القدرة على أداء بعض المهمات البيداغوجية كالإشراف والمتابعة البيداغوجية والتقويمية للطلبة، أما البحثية فتتمثل في القدرة علة البحث عن طريق التعامل الجيد مع الكمبيوتر والإنترنت ووسائل التكنولوجيا الحديثة وحضور الندوات والدورات التدريبية ومتابعة الدوريات والمجلات والنشرات التربوية والعلمية وكتابة كتب ومقالات في تخصصه والانضمام كعضو كباحث في فرق بحث تهتم بدراسة مواضيع ومسائل خاصة بمجال التخصص.

- كفاية التوجيه والإرشاد: وتتضمن قدرة الأستاذ على مساعدة المتعلمين في معرفة قدراتهم وإمكاناتهم الذاتية وتبصيرهم بها ومساعدتهم على تحقيق النمو المتكامل لشخصياتهم وتحقيق التكيف والتوافق الإيجابي المستمر مع أنفسهم ومع محيطهم.

- كفاية العلاقات الإنسانية: ويدخل في نطاقها قدرة هذا العضو على احترام مشاعر الأطراف التي يتعامل معها، والثقة بقدراتهم والتعامل مع المتعلمين كأشخاص، وتقبل الاختلافات في وجهات النظر مع المتعلمين والزملاء والإدارة والمشرفين، والمحافظة على علاقات طيبة معهم، إضافة إلى "القدرة على بناء جسور الثقة مع الجميع، وتعليم طلابه كيفية تطبيق إستراتيجيات إدارة الخلافات الشخصية داخل الفضاء التعليمي الموجود فيه، والميل إلى غرس قيم التسامح والعدل مع الآخرين في نفسه وفي سلوك طلابه."[37]

- كفاية التقويم: وفيها لابد من الأستاذ أن يكون لديه القدرة على تقويم المتعلمين سواء كان هذا التقويم مرحليا أو ختاميا، واختيار أدوات التقويم الملائمة وإعدادها واستخدامها واستخراج نتائجها وتفسيرها وتحليلها والاستفادة منها في تحسين نوعية التعلم إضافة إلى قدرته على تعليم طلابه التقويم الذاتي وإصدار الأحكام، وتمكنه من ربط أسئلة التقويم المستمر بأهداف الدرس السلوكية والإجرائية المصاغة من قبل وإتقانه آلية توظيف جميع أنواع التقويم وتوظيف التطبيقات العملية لنتائج الاختبارات كتغذية راجعة لتحسين تعلم طلابه.

1- كفاية توظيف العلاقة بين المؤسسة التعليمية والمجتمع المحلي: وتتضمن هذه الكفاية قدرة المعلم على تنظيم علاقة المؤسسة التي يعمل فيها بالمجتمع المحلي وتطويرها، بحيث تصبح هذه المؤسسة مركزا للنشاط الاجتماعي، وتنظيم الإفادة من خبرات المجتمع وما فيه من تربية موازية بشكل يتكامل مع التربية النظامية التي تقدمها المؤسسات التعليمية إضافة إلى القدرة على تعريف الطلاب بأهم المشكلات الاجتماعية وبأبعادها الحقيقية وأسبابها أثناء تدريس المقررات الدراسية، والتمكن من خدمة المجتمع المحلي من خلال مادة التخصص والتمكن من تطوير أساليب التعاون بين المدرسة وأسر الطلاب وبناء علاقة بين الجامعة والمجتمع المحلي من خلال مشاركة الطلاب في القيام بزيارات ميدانية لأماكن ومواقع في المجتمع تتواجد فيه المشكلات.

وختاما لما سبق ذكره يمكن القول أن تطوير الكفايات عند عضو هيئة التدريس الجامعي (المعلم) من شأنه أن يطور ويرفع من مستوى الجودة في التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة، لأن الأستاذ الجامعي هو رأس العملية التعليمية وذروة سنامها وأساسها المتين، وكل ما يتعلق به من كتاب ومبنى ومنهج ووسائل تعليمية متطورة...الخ جميعها لا تجدي إذا لم يكن هذا العضو قادرا ومتمكنا ومؤثرا في مهنته.

الخاتمة:

إن الكفايات المهنية أصبحت لازمة لأي معلم لزوم السلاح للجندي ولزوم السماعة للطبيب، فالمعلم بدونها لاشيء وعمله حينئذ يعتبر مضيعة للجهد والوقت وهدرا للطاقة، فكيف إذا كان هذا المعلم هو أستاذ الطور الجامعي، فإن مسؤوليته تصبح أكبر، فهو الناقل لتراث الأمة وهو المكوّن وهو المدرب وهو المسير لفئة من الطلاب سيكونون بعد وقت ليس بالطويل إطارات وفاعلين يساهمون بعلمهم وعملهم في بناء هذا المجتمع.

ومع تطور التعليم الجامعي لم يعد يعوَّل على الشهادة كثيرا، فهي لا تعني أكثر من الإجازة في علم من العلوم، حيث انتقل الاهتمام من التركيز على الشهادة إلى التركيز على الأداء في المواقف التعليمية المختلفة. فالمعلم بصفة عامة والأستاذ الجامعي بصفة خاصة، أصبح أمام حقيقة مفادها أن الأستاذ الكفء هو الذي يمتلك المهارات والكفايات اللازمة لداء مهنة التعليم والتي تعين الطالب على الاتصال بمصادر الثقافة والمعرفة وتعينه على تطوير مستواه، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال عملية التدريس الفعال القائم على مجموعة كفايات إذا أتقنها المعلم زادت من احتمال أن يصبح معلما ناجحا.

الهوامش:

1-الرازي محمد بن أبي بكر (1978): مختار الصحاح (د ط)، دمشق، المكتبة الأموية، ص 591.
2-طعيمة أحمد رشدي (2006): المعلم كفايات إعداده وتدريبه، ط2، القاهرة، دار الفكر العربي، ص 33.
3-المفاهيم الأساسية للمقاربة بالكفاءات، مجلة التربية والتعليم، نقلا عن موقع:
www.ksast.com/showthread.php ?t=15807 (12/05/2012 18 :30h)

4-عبد الله الحارثي (1993): فعالية المشرف التربوي في تطوير كفايات معلمي المواد الاجتماعية بالمرحلة المتوسطة من وجهة نظر المعلمين بمنطقة الطائف التعليمية، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص15.
5-حديد يوسف (2009): تقويم الأداء التدريسي لأساتذة التعليم الثانوي في ضوء أسلوب الكفايات الوظيفية، رسالة دكتوراه في علم النفس التربوي، قسم علم النفس، جامعة منتوري، قسنطينة، ص 162.
6-الحكمي الحسن إبراهيم (2004): الكفاءات المهنية المتطلبة للأستاذ الجامعي من وجهة نظر طلابه وعلاقتها ببعض المتغيرات، مجلة رسالة الخليج العربي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، السعودية، العدد90، ص10.
7-مرعي توفيق أحمد وآخرون (1992): أراء المشرفين التربويين في الأردن في مدى تمكنهم من الكفايات الأدائية الأساسية ومدى استخدامها لها، دراسات تربوية، القاهرة، رابطة التربية الحديثة، ص 135.
8-وزان سراج محمد (1983): الكفايات النوعية اللازمة لمعلم التربية الإسلامية بالمرحلة المتوسطة في المملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة أم القرى، ص 22.
9-يوب نادية، يوب مختار (2010): تقويم الكفايات التدريسية للأستاذ الجامعي، مداخلة بالملتقى الوطني الرابع في تعليمية العلوم الإنسانية والاجتماعية بالجامعة، المركز الجامعي غرداية.
10-حسن علي أحمد بن دومي (2010): درجة تقدير معلمي العلوم لأهمية الكفايات التكنولوجية التعليمية في تحسين أدائهم المهني، مجلة جامعة دمشق، المجلد 26، العدد الثالث، ص 446.
11-عبود مهدي علوان، ماجدة إبراهيم (2005): الممارسات التدريسية لعضو هيئة التدريس الجامعي في ضوء أنسنة التعليم من وجهة نظر الطلبة، مجلة علوم إنسانية، العدد 22، نقلا عن موقع: http://www.uluminsania.com (16/06/2012 10 :30h)
12-العياشي عنصر (1998): أيُّ غد لعلم الاجتماع، الجزائر، الجامعة اليوم، ص 12.
13-قاسم رياض (1995): مسؤولية المجتمع العلمي العربي، منظور الجامعة العصرية وأفق الحرية الديمقراطية داخل الحرم الجامعي، المستقبل العربي، العدد 193، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 81.
14-دليو فضيل وآخرون (2001): إشكالية المشاركة الديمقراطية في الجزائر، جامعة منتوري، قسنطينة، ص 15.
15- Byrn (J) : école cherche menger, édition INSP, Paris, 1987, p123.
16-صالح عبد العزيز (د.س): التربية وطرق التدريس، دار المعارض، مصر، الجزء الثالث، ص 76.
17-المادة 4 و28 من المرسوم التنفيذي رقم 08-130 المؤرخ في 27 ربيع الثاني عام 1429 الموافق 3 مايو سنة 2008 المتضمن القانون الأساسي الخاص بالأستاذ الباحث، ج ر، العدد 23.
18-مجموعة مؤلفين معجم علوم التربية (2001): مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك، ط3، سلسلة علوم التربية (09-10) منشورات عالم التربية.
19-الدريج محمد(2004): الكفايات في التعليم، من أجل تأسيس علمي للمناهج المندمج، منشورات سلسلة المعرفة للجميع، ص298.
20-مجموعة مؤلفين معجم علوم التربية: مرجع سابق، ص 298.
21-زكريا محمد بن يحي (2004): المدخل بالكفايات، الملتقى التكويني لفائدة مفتشي التعليم الإكمالي بالمعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية وتحسين مستواهم، الجزائر، ص 8.
22-المرجع السابق، ص 9.
23-بن نوار صالح (2006): فعالية التنظيم في المؤسسات الاقتصادية، مخبر علم الاجتماع الاتصال للبحث والترجمة، قسنطينة، ص92.
24-زكريا محمد بن يحي: مرجع سابق، ص9.
25-المرجع السابق، ص 9.
26-يونس لشهب، عبد العزيز حداني (2010): مفهوم الكفاية في المجال التربوي، التعريف والنظرية البيداغوجية، مجلة علوم إنسانية، السنة السابعة، العدد 44، ص 5، ص 6.
27-الهرمة محمد سالم(1996): برنامج مقترح لتنمية الكفايات اللازمة لمعلمي اللغة العربية بالمرحلة الثانوية بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، رسالة دكتوره غير منشورة، كلية التربية، جامعة الزقازيق، جمهورية مصر العربية، ص20، ص21.
28-هريدي إيمان أحمد محمد(2003): برنامج مقترح لتدريب معلمي اللغة العربية للناطقين بغيرها من الأطفال في مصر في ضوء الكفايات اللازمة لهم، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد الدراسات والبحوث التربوية، جامعة القاهرة، مصر، ص 51.
29-يونس لشهب، عبد العزيز حداني: مرجع سابق، ص 7.

30-عبد الرحمان سعيد بن بتيل (2010): برنامج مقترح قائم على الكفايات المهنية اللازمة لمعلمي اللغة العربية بالمرحلة الثانوية بمنطقة عسير في ضوء احتياجاتهم التدريبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الملك خالد، السعودية، ص 30.
31-جرادات عزت وآخرون (1987): التدريس الفعال، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ص 47.
32-يسرى مصطفى السيد: تنمية الكفاءات المهنية للمعلمات في كيفية إعداد الخطط العلاجية لتحسين المستوى التحصيلي للتلميذات الضعيفات، جامعة الإمارات العربية المتحدة، كلية التربية، مركز الانتساب الموجه بأبوظبي، نقلا عن موقع: http://www.khayma.com/yousry/index.htm (03/09/2012 18 :30h)
33-خيري عبد اللطيف (1998): خصائص المعلم المهني وكفاياته، عمان، دائرة التربية والتعليم، أنوروا، يونسكو، ص10 - ص13.
34-العنزي بشرى بنت خلف (2007): تطوير كفايات المعلم في ضوء معايير الجودة في التعليم العام، بحث مقدم للقاء السنوي الرابع عشر بعنوان (الجودة في التعليم العام)، الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية، القصيم، السعودية، ص 19.
35-المرجع السابق، ص 19.
36-المرجع السابق، ص 19، ص 20.
37-المرجع السابق، ص 24.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 177 - 184
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

المجتمع المدني الجزائري و إشكالية تأسيس ثقافة المواطنة

قريد سمير

بقسم علوم الإعلام والاتصال جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم

مقدمة:

أدت التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في عالمنا المعاصر إلى بروز مفاهيم جديدة حول الدور الذي يمكن أن يلعبه الأفراد والجماعات في عملية التنمية الشاملة، وقد ارتبط هدا الدور بظهور عدد من التنظيمات الاجتماعية التي أصبحت تغطي كافة نشاطات الحياة الإنسانية، هده التنظيمات أصبحت تعرف بمؤسسات المجتمع المدني .

ولقد ارتبط مفهوم المجتمع المدني – على الرغم من الخلاف حول مضمونه ووظائفه – بالتنظيمات غير الحكومية التي تمثل وسائط اجتماعية بين الفرد (المواطن) والدولة (السلطة)، وتتضمن فعاليتها في تنظيم الفاعلين الاجتماعيين من خلال قنوات مؤسسية، وتمكينهم من المشاركة في المجال العام وتنمية ثقافة المبادرة لديهم واحترام الآخر، ونبذ العنف والاعتراف بالتنوع والتعدد.

لذا، أضحى مفهوم المجتمع المدني مرتبط بدَمقرطة الحياة الاجتماعية، بما يؤصل ثقافة المواطنة القائمة أساسا على سيادة القانون ومساواة الجميع أمامه دون تمييز في الجنس أو العرق أو المهنة أو المكانة، ومن هنا تمثل مؤسسات المجتمع المدني -في تقديرنا- المجال الذي ينبغي أن يعبر فيه المواطنين من حقهم في المشاركة الاجتماعية،ليشمل ليس الحقوق السياسة فقط، بل والحقوق الاجتماعية.

هذا، وعلى الرغم من أهمية الدور المنوط بمؤسسات المجتمع المدني في تأسيس ثقافة المواطنة، إلا انه يمثل(المجتمع المدني) تحديا مفهوميا ومعرفيا لثقافتنا السائدة، لا فقط لغياب تقاليد الحرية والاختلاف والتسامح في الفضاء العمومي، ولكن أيضا لأخطاء بعض المنظرين لهذا المفهوم، ولعل أبرزهم سعيهم إلى إسقاطه على الواقع العربي بمنطق غربي لا يأخذ بعين الاعتبار خصوصية العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني، وجدلية المراحل في بناء الديمقراطية على أسس دستورية مؤسساتية.[1]

يمكن القول أن المفهوم الحديث للمجتمع المدني يتمثل في ذلك الإطار الاجتماعي الذي ينظم له الأفراد المتفاعلون فيه طواعية دون أن يقع تحت طائلة سلطة قهرية، ويعمل على تعبئتهم للمشاركة الفاعلة في عملية التنمية المجتمعية، ولذلك تبدو ثقافة المواطنة إحدى أهم الأدوار التي يمكن أن تضطلع بها مؤسسات المجتمع المدني الجزائري، من خلال الاهتمام بالإنسان (المواطن) كقيمة يجب الاعتراف بحقوقه دون تمييز.

ضمن هذا السياق يأتي هذا البحث ليحاول تسليط الضوء على موضوع المجتمع المدني وإشكالية تأسيس ثقافة المواطنة من خلال التطرق إلى إشكالية فهم علاقة المجتمع المدني بالمواطنة ثم التعرض إلى عوامل نشأة المجتمع المدني الجزائري، ثم تبيان دور المجتمع المدني الجزائري في تأسيس ثقافة المواطنة ، وأخيرا خاتمة.

أولا: حول إشكالية الفهم:

لقد أثبتت الدراسات الحديثة أن تطوير

المجتمعات لا يتم عن طريق السياسات الحكومية وحدها، وإنما أيضا عن طريق توليف بين الأجهزة الحكومية والتنظيمات غير الحكومية التي تستطيع بفضل قدرتها التعبوية والتطوعية على استقطاب الأفراد وتنمية ثقافة المواطنة لديهم وإشراكهم في حل بعض المشكلات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. وفي هذا السياق تلعب مؤسسات المجتمع المدني دورا أساسيا في تحقيق التنمية المجتمعية، باعتبارها تمثل شريكا اجتماعيا واقتصاديا تساهم في تعظيم قدرات الأفراد على المساهمة في النشاطات المجتمعية المختلفة، وتحمل حتى بعض المسؤوليات التي قد تتخلى فيها الدولة عن دورها.

لكن بالنظر إلى الحالة الجزائرية يلاحظ أنها متخلفة إلى حد كبير بسبب استمرار هيمنة الأطر القديمة القائمة على النظرة المغيبة للإنسان (المواطن) الجزائري كفاعل مشارك في الفعل التنموي، "فعندما يكون الإنسان مهمشا ومضطهدا لا ينتظر منه أن يكون له دور فعال في التنمية الفعلية، إذ لابد من أن يكون الإنسان مشاركا ومنتجا. ولن يكون ذلك دون إتاحة الفرص لانطلاق قدراته وتأهيله النوعي الجيد لاكتساب المعرفة والمهارة المتطورة. ولابد في كل الأحيان أن يتوافر لديه الحد الأدنى من حقوق المواطنة متواكبة مع واجباتها، الأمر الذي يرسخ الشعور بالانتماء والإخلاص والحماسة والعمل الدؤوب والحرص على المال العام والمصلحة العامة".[2]

لقد أكدت التطورات الأخيرة، أن الإنسان الجزائري وصل فعلا إلى المستوى الحرج مع المجتمع والسلطة، فهذه الأخيرة تراجعت وابتعدت عن واقع المجتمع، لا تعبر عنه ولا تقيم معه أي صلة من صلات التمثيل الشرعي. فجل الرؤساء الذين تناوبوا عن الحكم عقب وفاة الرئيس هواري بومدين، لم تفرزهم ثقافتهم السياسية ولا دورهم في المجتمع والدولة. كل ما في الأمر أنهم عينوا وفق منطق دوائر النفوذ في السلطة، وترك للشعب أمر تزكيتهم كحكام عليه. وقد أفضى تكرار ظاهرة عدم الاكتراث بإرادة الشعب كسلطة حقيقية لممارسة الحكم والتخلي عنه، أن طفت في الأعوام الأخيرة مسالة المواطن والدولة، وصارت تعالج كإشكالية خاصة في الصحف الفرنسية. ومنطوق الإشكالية يطرح على النحو التالي: إلى أي مدى يستمر الإنسان الجزائري في أن يعتبر نفسه مواطنا في ظل غياب دولة تكثف معنى الجمهورية (أي الجمهور الواعي لحقوقه السياسية والمدنية ولواجباته حيال الدولة عندما تسرف بالتزاماتها بعيدا عن إرادة الشعب). وعلى هذا النحو، بدأ الالتفات إلى جهة الدولة لمعرفة مدى شرعيتها ودرجة الإنسان الجزائري في سلم المواطنة

(la citoyenneté). فالمواطنة شعور متزايد بوجود الدولة كمعادل سياسي وقانوني للمجتمع والأمة.[3]

لم تعد أزمة المجتمع الجزائري وشرعية السلطة وإخفاقها في بناء دولة حديثة مجرد أزمة تحول عابرة، بل كانت في الأساس أزمة تحول شاملة على جميع الصعد: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فتح معها المجال أمام تداعيات عنيفة نالت من كنه المسار الخاص الذي اتبعته الجزائر منذ الاستقلال، الأمر الذي كون منذ بداية الأزمة رأيا مفاده أنها ستطول وتفرز معها تداعيات ومضاعفات تغذيها المطالب الاجتماعية الراغبة في التحول، ويأتي في مقدمتها تغيير النظام و آلياته .[4]

هذا، ويلخص الباحث العياشي عنصر تجليات الأزمة الجزائرية بأبعادها المختلفة كما يلي:

- عجز المجتمع عن تحقيق الانتقال من وضعية تقليدية متميزة بسيطرة بنى اجتماعية قائمة على روابط الانتماء لمجموعات تحدد هويتها مثل: القرابة والدين واللغة.
- انتشار الظواهر المرضية التي أسهمت في التخلف الاجتماعي والركود الثقافي مثل: الرشوة والمحسوبية والزبونية وروح الاتكال والمضاربة.
- طغت ممارسات تجسدت في خوصصة الدولة، وهي من سمات الأنظمة السياسية الوراثية الجديدة التي تكون فيها مؤسسات الدولة عبارة عن أدوات يستخدمها أفراد مقربون من الحاكم لتحقيق مصالحهم ومطامعهم.
- فشل المؤسسات الاجتماعية و عجزها عن أداء دورها في وظيفتها بفعالية بما في ذلك الأسرة والمدرسة ومنظومة التكوين والتعليم، فضلا عن الجمعيات المهنية والمدنية التي عرفت حالة اضطراب واختلال قصوى نظرا لعمق التحولات التي يعرفها المجتمع وتسارعها، وكذلك بفعل إخضاعها لآليات المناورة السياسية، واستعمالها بطريقة مكيافيلية من قبل السلطة.

- اتساع فجوة التفاوت الاجتماعي بين الفئات والشرائح المختلفة، بخاصة أن هذا التفاوت يفتقد أسسا مشروعة تبرره في ظل غياب نسق قيمي يحظى باتفاق نسبي لدى القوى الاجتماعية.
- خنق الحريات الفردية والعامة والتضييق إلى درجة الإلغاء لحرية التعبير، وفرض قوالب جاهزة، ومنع المبادرة المبدعة، ونفي الاختلاف والتمايز، وتأكيد أحادية متعسفة في كل شيء. أضف إلى التعسف في استعمال السلطة واحتكار الامتيازات المرتبطة بها (..) وقد أدى ذلك إلى توسيع الفجوة بين الحكام والمحكومين، وفقدت مؤسسات الدولة مصداقيتها لدى الشرائح العريضة من المجتمع.[5]

إذا، كان لهذه العوامل مجتمعة الأثر البارز في تعميق تخلف المجتمع وركوده، وتقلص دور الفرد، "ولذلك تم استحضار مفهوم المجتمع المدني وما تبعه من مفاهيم مقاربة له كالديمقراطية وحقوق الإنسان، وتعميمها في وقت أصبح فيه الجزائري مهما كان منحدره الاجتماعي، غير آمن على أول حقوقه الأساسية، ألا هو الحق في الحياة، دون الكلام عن الحقوق الأخرى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية".[6]

والواقع أن مرحلة التسعينات شكلت نقطة تحول بارزة في تاريخ الجزائر السياسي، حيث تم التركيز خلالها على تطوير مؤسسات المجتمع المدني، وفسح المجال أمامها لتشارك في عملية التنمية المجتمعية، وتحقق مبدأ المواطنة، وتعيد الاعتبار لدور الإنسان (المواطن) في تحريك عملية التنمية.

ثانيا: عوامل تشكل المجتمع المدني الجزائري

لقد عرفت مرحلة التسعينات جملة من التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، والتي كان لها الأثر العميق في إحداث التحول الديمقراطي والتعددية وفسح المجال أمام مؤسسات المجتمع الجزائري لتؤدي دورها في عملية البناء الاجتماعي. فبعد المصادقة على دستور 1989، شهدت مؤسسات المجتمع المدني نموا متزايدا، يمكن تفسيره بعدة عوامل يمكن تلخيصها فيما يلي:

1-العوامل السياسية:

لقد بينت التجربة السياسية التي عرفتها البلاد منذ الاستقلال، والمتمثلة في سيطرة الحزب الواحد أنها تمت من منطلقات خاطئة، لأنها قيدت حرية التعبير، وأدت إلى تأخير التحول الديمقراطي، ولذلك "أصبح الجميع مع بداية التسعينات يرى أن الحزب الواحد يؤدي بالضرورة إلى اختناق الحريات الفردية والجماعية". [7]

ونتيجة لضبابية المناخ السياسي الذي عرفته البلاد في هذه المرحلة (1962-1988)، وبفعل غياب تقويم جدي للأوضاع المتأزمة عبر أغلب المواطنين عن سخطهم وتذمرهم من النظام السياسي الحاكم، وفي هذا الإطار يعتبر الباحث "عنصر العياشي" أن نقطة الضعف الأساسية للنظام، وبالذات في الثمانينات، هي نقطة فقدانه للشرعية بخاصة وأن قاعدته التقليدية (الشرعية التاريخية والثورية) قد أضحت بدون معنى لدى الغالبية التي يمثلها جيل من الشباب المولود بعد الاستقلال، إضافة إلى قيام النظام السياسي على القوة، بفعل الصراع الذي وقع بين المجموعات المتنافسة على السلطة منذ نهاية حرب التحرير". [8]

إن أزمة النظام السياسي الجزائري المتمثلة في عدم قدرته على الحفاظ على شرعيته القديمة واكتساب شرعية جديدة، وفي توسيع قاعدته الاجتماعية أو حتى الحفاظ على تلك القديمة أو القيام بأدواره التقليدية، التي تميز بها باعتباره نظاما سياسيا يعتمد على تماهي كلي، بين السياسي والاقتصادي، تكمن في اعتبار الدولة هي الفاعل السياسي الرئيسي والوحيد بالنسبة للكثير من الفضاءات/ المؤسسات والقوى الاجتماعية. كما أن الدولة كانت ولا زالت إلى حد بعيد هي رب العمل الرئيسي والموزع الريعي الأساسي.[9]

هناك ثمة حقيقة نجمت عن تجربة بناء الدولة في الجزائر، وهي أن البناء لم يكن يتم داخل مفهوم الدولة الذي يتطور مع تطور المؤسسات كتعبير عن السيادة، ولم يكن لصالح فكرة الاستيعاب للمرافق العامة كتعبير سيادي عن المجتمع المدني. قد قام الدليل القوي على فشل مشروع البناء لمؤسسات ديمقراطية، عندما منح المجتمع لأول مرة في تاريخه لكي يعرب صراحة عن رأيه في انتخابات تشريعية متعددة لعام 1992، فسرعان ما وئدت التجربة في مهدها لتفصح عن خلو التاريخ السياسي من الرصيد الديمقراطي.[10]

قد فرضت هذه التحولات على النظام السياسي في الجزائر بعض التنازلات، وذلك من خلال التفكير جديا في تحديث مؤسسات المجتمع المدني.

2- **العوامل الاقتصادية:**

لقد شكل التصنيع الكيفية المناسبة في اعتقاد القائمين على مشروع التنمية، وبالتالي مشروع المجتمع المنشود، ومنه معالجة التناقض في التكوين الاجتماعي الجزائري وبقايا الموروثات. وكان الهدف المعلن لإستراتيجية التصنيع، إدخال الطاقة الاقتصادية المؤممة في إطار بناء اقتصاد وطني مستقل. كما أن سياسة التصنيع الجزائرية أعطت الأسبقية لبناء مؤسسات تركيب تنظيمي قوي لرأسمال، لها الأفضلية بان ترسي قواعد البناء التحتي الصناعي الوطني، وفي نفس الوقت لامتصاص أعداد كبيرة من العاطلين عن العمل، مع تجنب تعميم العلاقات الرأسمالية. ومنذ ذلك الوقت، دخل النمو الصناعي نتيجة التأميمات المبرمجة في إستراتيجية التطور الاقتصادي في تناقض مع مختلف بنى ومنظومات المجتمع الجزائري.[11]

وواضح من خلال هذا الطرح، أن النموذج الجزائري بقي رهين الحسابات السياسية، التي أغفلت عن الاستثمار في الإنسان كرأسمال بشري وتثمين دوره في عملية التنمية، وأغفلت كذلك عن دور مؤسسات المجتمع المدني في الفعل الطوعي الحر، ونتيجة لذلك "عرف الاقتصاد الوطني منذ السبعينات، وبداية الثمانينات تطورات جوهرية كان أهمها فشل النموذج الاشتراكي في تحقيق التنمية، مما ترك قناعة لدى الغالبية العظمى من الجزائريين بضرورة إصلاح النظام السياسي الذي عمل على استنزاف ثروات وطاقات البلاد، وعمق من الفوارق الاجتماعية وتفشي البطالة، وجعل السلطة والثراء في يد قلة من الجزائريين".[12]

وفي ظل هذا الوضع المتأزم الذي مر به القطاع الاقتصادي، وجدت الدولة نفسها مجبرة على استيعاب هذا التنوع في تشكيلات المجتمع الجزائري (خاصة فئة الشباب)، وللتخفيف من حدة المعارضة لجأت إلى إحداث تغييرات جذرية على مستوى النظام التشريعي، لفسح المجال أمام تنظيمات المجتمع المدني لتؤدي دورها في عملية التنمية الشاملة.

وجدير بالذكر في السياق ذاته، أن أحداث تشرين الأول/ أكتوبر 1988 وان كانت تبدو عفوية نتيجة تدهور الأحوال الاقتصادية وتفشي البطالة إضافة إلى الظواهر السلبية الأخرى كالرشوة، والمحسوبية، ومحاباة الأقارب...الخ، إلا أنها كانت في الحقيقة نتيجة حسابات سياسية سلبية لأطراف فاعلة في السلطة. وهذا الحدث تم استثماره من طرف البعض وأعلنت التعددية الحزبية كما جسدتها المادة 40 من دستور 1989.[13]

3- **العوامل الاجتماعية: وتتمثل فيما يلي:**

- ارتفاع نسبة البطالة (25-30%) خاصة عند الشباب.
- انخفاض القدرة الشرائية للمواطن خاصة مع تدهور قيمة الدينار.
- الارتفاع المتزايد لعدد السكان، بحيث وصل هذا العدد إلى 26 مليون نسمة سنة 1992.
- ضعف قدرة الدولة في مجال خلق مناصب شغل جديدة أو المحافظة على المناصب الموجودة بسبب قلة إمكانيات الاستثمار من جهة وإعادة هيكلة المؤسسات العمومية من جهة أخرى، والتي تتطلب في العادة تقليص عدد العمال.[14]

ويبدو أن هذه العوامل مجتمعة ساهمت بشكل أو بآخر في إحداث نقلة نوعية على مستوى البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع، تبلورت على وجه الخصوص في صدور قانون 31/90 الذي عملت السلطة فيه على إحداث تعديلات على التشريع الخاص بالجمعيات. ويتبين هكذا بأن الدولة حاولت في هذه الفترة تشجيع تكوين وتأسيس الجمعيات حتى تعمل على تقليص حدة التوتر والصراع (بعد أحداث أكتوبر1988)، وحتى تسهم في خلق مجتمع مدني قوي وفعال مؤسساتيا في جميع الميادين، ويعمل على تحقيق التنمية المحلية والوطنية، وهو ما وقع النص عليه في الفقرة الثانية من المادة 43 من الدستور والتي جاء فيها ما يلي : "تشجيع الدولة ازدهار الحركة الجمعوية". ذلك أن :

- المجتمع المدني أصبح يمثل في هذا الوقت بالذات شريكا اجتماعيا لا غنى عنه في تنفيذ برامج وخطط التنمية الشاملة بجوانبها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

- الدولة أصبحت عاجزة في ظل التحول إلى - نظام اقتصاد السوق- عن تلبية الحاجات الأساسية للمواطن، ولذلك فإن تشجيع مؤسسات المجتمع المدني قد يخفف الضغط عن الحكومة في هذا المجال.

- المجتمع المدني أصبح يمثل أرقى صور التفاعل الاجتماعي بينه وبين الإدارة المحلية من خلال التعاون على تحقيق التنمية البشرية المستدامة.

- باعتبار أن المجتمع المدني يمثل (رأس مال اجتماعي) وشريكا اجتماعيا وأساسيا وجب أن يتلقى المساعدة والمساندة من الدولة لينتشر أكثر ويقوم بدوره الحيوي في تأسيس ثقافة المواطنة.

يبدو من خلال هذا الطرح أنه على الرغم من أن المجتمع المدني عرف انفتاحا كبيرا وحيوية تبلورت في تعدد تنظيماته وتنوع أنشطته لبلورة المطالب الاجتماعية لفئات عريضة من المجتمع الجزائري، "لكنها ظلت محل تجاذبات قوية جعلت منها كيانات هشة(كرتونية) عجزت عن تجسيد المطالب الاجتماعية والثقافية للحد من جبروت (سلطة) الدولة. لكن تلك الجمعيات والمنظمات كانت في أغلبيتها إما قابلة للاختراق من جانب الفرقاء السياسيين، لاحتوائها من قبل النظام،وإما أنها مُشكَلة من هيئات أركان لا تُعبر عن طموحات الشرائح العريضة في المجتمع، وليس لها قاعدة شعبية عريضة. إن وجود بعض جمعيات المجتمع المدني، التي تجد صعوبة في بلورة المعلومة لدى أفراد المجتمع المدني، جعلها تندفع في بعض الأحيان إلى خطاب مادح ومداهن وتودد إلى السلطة الحاكمة.. ".[15]

لذا، ترتبط عملية التنمية الاقتصادية، ومسالة تحديث المجتمع الجزائري، وإعادة النظر في الأسس والقواعد التي تحكم عمل مؤسساته، بقضية حيوية هي مسالة السلطة وطبيعة نظام الحكم، والمؤسسات التي يمارس من خلالها. لعل حجر الزاوية في بناء الديمقراطية وتشييد الدولة العصرية، هو تأكيد حق المواطنة وترسيخه، وهو يعني تكفل مؤسسات الدولة بحماية الحقوق المدنية و السياسية المعترف بها للأفراد والجماعات، ومعاملتهم على قدم المساواة من دون تمييز على أسس العرق، الدين،اللغة، أو الانتماء السياسي، وهنا ترتبط علاقة المجتمع المدني بثقافة المواطنة كونها قيمة وممارسة تميز الثقافة السياسية الحديثة، حيث يعتبر الفرد(المواطن) فاعلا كامل الحقوق، يقوم بواجباته عن وعي وإرادة حرة ويشارك في الحياة العامة من خلال انتمائه إلى هيئات و تنظيمات المجتمع المدني.[16]

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن المجتمع المدني له دور تعبوي تنموي، من خلال تعبئة الطاقات البشرية دون تمييز للمشاركة الفاعلة في عملية التنمية المجتمعية، ولذلك تبدو ثقافة المواطنة إحدى أهم الأدوار التي يمكن أن تضطلع بها مؤسسات المجتمع المدني، من خلال الاهتمام بالإنسان(المواطن)، كقيمة يجب الاعتراف بحقوقه دون تمييز.

ثالثا:دور المجتمع المدني الجزائري في تأسيس ثقافة المواطنة:

يختلف علماء السياسة والاجتماع حول تحديد دور المجتمع المدني. هل أنّ دور المجتمع المدني ينحصر في إرساء مبدأ المواطنة والدفاع عن المصلحة العامة والحريات العامة وحقوق الإنسان ومصالح الفئات الاجتماعية (المرأة، المهمّشين، الشباب...) ؟ أم أنّ دور المجتمع المدني أوسع من ذلك وأكثر تسيّسا على اعتبار أنّه موكول إليه تغيير السياسات في إطار من التنوّع والتعدّد والمشاركة الحرّة حتى تغيير الأنظمة السياسية استنادا إلى أن ماهية المفهوم تحيلنا ضرورة إلى المجتمع في تميّزه عن السلطة أي في مواجهة الدولة.[17]

يتأكد في هذا السياق كذلك أنه سواء انحصر دور المجتمع المدني في مجرّد إرساء مبدأ المواطنة الفاعلة والدفاع عن الحقوق والحريات وعن مصالح الفئات الاجتماعية أم كان دورا أكثر تسيّسا من خلال مواجهة الدولة والسعي إلى تغيير السياسات وحتى الأنظمة القائمة أنّ جوهر المدنية يتعضّى مع الرغبات التنموية. وبناء عليه ينهض سؤال أساسي يتعلق بتجليات هذا التعضّي ومبرّراته؟.[18]

ومن ثمة يجدر بنا أن التساؤل هل الفعل التنموي في الجزائر انبثق من إرادة المجتمع المدني ودوره في تأسيس ثقافة المواطنة، أم مازال مؤطر بإرادة السلطة التي تأبى التغيير بل تقاومه؟.

لقد ارتبط ظهور المجتمع المدني الجزائري بفشل التجربة التنموية الجزائرية التي اعتمدت على اقتصاد الريع القائم على استنزاف الموارد الطبيعية، بما فيها النفط، دون الأخذ بعين الاعتبار لأهمية الإنسان(المواطن) باعتباره رأسمال بشري فاعل في تحريك عملية التنمية ودفع عجلة النمو.

إذا، فالنموذج التنموي الجزائري فشل لأنه أهمل الجانب الثقافي من خلال تغييب مفهوم المواطنة التي تقوم على المشاركة الحقيقية للفرد في عملية التنمية انطلاقا من كون الفرد فاعلا له كامل الحقوق، يقوم بواجباته من خلال انتمائه إلى هيئات ومؤسسات المجتمع المدني.

على هذا الأساس، أضح مفهوم المجتمع المدني أكثر ارتباطا بحقوق الإنسان وثقافة المواطنة التي تستوعب كل فئات المجتمع دون

تمييز أو تهميش. [19]

وجدير بالذكر في السياق ذاته، أن إحدى أهم الأدوار المنوطة بالمجتمع المدني الجزائري هو تعبئة المواطنين على كل المستويات، خاصة القاعدية التي تشمل المهمشين والمستبعدين عن المشاركة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، وتنمية الوعي الجمعي لديهم بأهداف التنمية وبالقدرة على المشاركة الحقيقية. [20]

إذا يتأكد هنا أنّ دور المجتمع المدني في جوهره هو دور تنموي. التنمية هنا في معناها الشمولي المتعدّد الأبعاد، من منطلق أن هذا النمط المجتمعي يمثل حقلا للتدبّر الجماعي لسبل حلّ الخلافات وتحقيق المطالب المتنوّعة وتأكيد الهويّات في حال تعدّدها. لقد غدا من البديهيات اليوم القولُ أن السياسة كما الاقتصاد والاجتماع هي مجالات المطاف هي تنمية الإنسان مطلقا بما هو قيمة في ذاتها، فإنّه يغدو من الشرعي الحديث عن تنمية كلّ إنسان بدون استثناء، ينمّي فيه إمكانياته النفسية وقدراته الجسدية وطاقاته الروحية الظاهرة والكامنة، عبر تثمين القيم الأساسية التي ينشدّ إليها من مثل الحرّية والمساواة والعدالة والتضامن والسلام.... . [21]

وبتعبير آخر فإن دور مؤسسات المجتمع المدني يتمثل في تأسيس ثقافة المواطنة المبنية على تثمين دور الإنسان في تحقيق التنمية الشاملة << انطلاقا من التسليم بأن الإنسان هو الفاعل الأساسي في دفع مسار التنمية وهو في الآن نفسه غايتها وهدفها النهائي". [22] حتى يمكن الاستفادة الملائمة من قدراته، وإتاحة الفرصة أمامه للتعبير الكامل عن قدرته على التجديد والابتكار.

هذا، ويؤكد حليم بركات في السياق ذاته أن "من بين أهم مؤشرات قيام المجتمع المدني مشاركة الشعب في الأحزاب والنقابات والمنظمات والاتحادات والجمعيات الطوعية. إن الديمقراطية (ثقافة المواطنة) التي قد يطمح إليها العرب- بما فيها المجتمع الجزائري- لابد لها من تأمين الحقوق والحريات الإنسانية، بما فيها حرية التعبير عن الرأي والتنظيم الاجتماعي والسياسي، ما يكفل المشاركة الفعلية وتساوي الفرص من خلال تنشيط المجتمع المدني والجمع بين الحرية (أي حق التعبير، وحق التجمع، وحق التنظيم، وحق المعارضة، وحق المبادرة الشخصية والتفرد والإبداع والتنافس، وحق الاختلاف والتعدد) والعدالة الاجتماعية (أي التغلب على الفقر والبطالة الظاهرة والمقنعة، والتخفيف من الفروق الطبقية والجنسية، وتامين الخدمات والضمانات الاجتماعية، والقضاء على التمييز بصرف عن الانتماءات والأصول الاجتماعية المتنوعة". [23]

من خلال ما سبق، يمكن القول في واقعنا الجزائري أننا بحاجة لتأسيس- بكلمات إبراهيم عبد الله غلوم- جديد لمفهوم المواطنة يتجاوز بالكامل المرحلة السابقة بكل منعطفاتها و كبواتها. تأسيس جديد يقوم على الانتماء الوطني متجاوزا في ذلك كل الانتماءات العائلية والمذهبية والقبلية. تأسيس يقوم الكفاءة ودرجة القدرة على العطاء.مواطنة مؤكدة لانتماء الفرد للأرض والوطن والمجتمع والنظام ومعززة لحق الفرد في المشاركة في الشأن العام وليست مغيبة له. أي بمعنى آخر تفعيل وصيانة حقوق المواطنة الثلاث:

1- الحقوق السياسية في المشاركة في الشأن العام وحقه في الترشيح والانتخاب وفي تولي المناصب العامة.

2- الحقوق المدنية للفرد والمتمثلة في حقه في التعبير والتمثيل والانتقال والسفر وحقه في الحصول على المعلومة الصحيحة دون تقييد أو منع وحقه في أن يعامل بالتساوي مع الآخرين وفق القانون دون النظر إلى مرجعياته الاثنية والاجتماعية المختلفة.

3- الحقوق الاجتماعية والمتمثلة في حق المواطن في التمتع بمستوى معيشي لائق وحقه في العمل الشريف واللائق وفي تمتعه بالتساوي في جميع الخدمات التي تقدمها الدولة.كما يعني هذا حقه في الانخراط في الانخراط في تجمعات أهلية مدينية. ومن المهم القول أن تفعيل ذلك قد يتطلب قدرا غير عادي من العمل الطوعي الفردي والجماعي من قبل الأفراد والجماعات ومؤسسات المجتمع المدني كما هو الحال من قبل الدولة. [24]

الخاتمة:

شكل هذا البحث محاولة للتعرف على دور المجتمع المدني الجزائري في تأسيس ثقافة المواطنة، وقد تبين من خلاله أن انتفاضة أكتوبر وما تبعها من تحولات اجتماعية و اقتصادية وسياسية، تعتبر مرحلة حاسمة في تاريخ الجزائر السياسي لأنها ساهمت في عملية التحول الديمقراطي والتعددية الحزبية، وفسح المجال أمام مؤسسات المجتمع المدني لتضطلع بدورها في

جميع المجالات الحياتية لاسيما المجتمعية منها.

على أنه من المهم الإشارة في خاتمة هذا البحث إلى مسالة جد هامة في تقدير الباحث، وتكمن في أن هناك علاقة وطيدة بين ثقافة المواطنة والمجتمع المدني، باعتبار هذا الأخير يمثل سمة بارزة من سمات المجتمعات الحديثة لأنه يعبر عن وعي المجتمع وتفتحه على التعددية والحريات الإنسانية (الحق في التجمع الإنساني)، وبالنظر إلى الدور الفعال الذي يلعبه في مختلف مجالات الحياة، فإنه أصبح من الموضوعات الهامة التي تحظى باهتمام الباحثين والمفكرين من مختلف تخصصات العلوم الاجتماعية، إلى جانب كونه يعتبر مؤشرا عن مدى تطور المجتمع وتحضره فإنها يمثل أيضا البنية التحتية للعملية الديمقراطية بوصفه (فضاء عاما) ينتظم فيه مختلف الفاعلين الاجتماعيين في مؤسسات مدنية.

ومن هذا المنطلق، فإنه من المفيد التأكيد على ما يلي:

- أن عملية تأسيس ثقافة المواطنة ليست قضية مؤسسات المجتمع المدني فحسب، بل هي قضية مجتمع ككل،تتطلب تضافر جهود جميع الفاعلين الاجتماعيين بدء بالأسرة ومرورا بالمؤسسات التربوية والهيئات الحكومية وغيرها، قصد تربية الإنسان الجزائري على قيم المواطنة والمشاركة الفعلية.

- العمل على ترقية مؤسسات المجتمع المدني ودفعها نحو المساهمة في التنمية البشرية المستدامة، وكذا دعمها- ماديا ومعنويا- حتى تضطلع بدورها الفعلي في خدمة الفرد والمجتمع.

- العمل على خلق بيئة قانونية مشجعة لنشأة وتطور مؤسسات المجتمع المدني، وذلك بتسهيل إجراءات التأسيس، ومصادر التمويل.

- توفير المناخ الديمقراطي الملائم لعمل مؤسسات المجتمع المدني في تأسيس ثقافة المواطنة عبر إشاعة الحريات المدنية ودمقرطة الحياة الاجتماعية.

- تنمية ثقافة الحوار والتسامح واحترام الآخر ونبذ العنف كقيم أساسية لنشر ثقافة المواطنة في المجتمع.

- بث روح الوطنية والايجابية لدى المواطن الجزائري وجعله فردا مشاركا فاعلا في مجتمعه وتحرير الطاقات المعطلة من خلال منح المواطن الحريات الأساسية حتى يستعيد الثقة في دولته.

-تحقيق التنمية الإنسانية الحقيقية من خلال الاهتمام بالإنسان (المواطن) كقيمة يجب الاعتراف بحقوقه دون تمييز.

الهوامـــش

1)عثمان بن طالب، "أي علمانية للمجتمع المدني في الثقافة العربية؟"، موقع الانترنات www.afkaronline.org/arabic/archives/jan تم تصفح الموقع بتاريخ: 23/ 2011/11 .

2)أسامة عبد الرحمان، "الإنسان العربي والتنمية: حقوق الإنسان ركيزة محورية لأي انطلاقة تنموية"، مجلة المستقبل العربي، الصادرة ببيروت عن مركز دراسات الوحدة العربية، السنة 12، العدد 131جانفي1990، ص 4.

3)ثنيو نور الدين، "الدولة الجزائرية... المشروع العصي"، مجلة المستقبل العربي، الصادرة ببيروت عن مركز دراسات الوحدة العربية، السنة 21، العدد 242أفريل 1999، ص 23 .

4)علي سموك، "الانقسامات المتعددة في المجتمع الجزائري و صراع الهوية في سوسيولوجيا الآخر"، إضافات، المجلة العربية لعلم الاجتماع، الصادرة ببيروت عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية،العدد9 شتاء 2010، ص 127.

5) انظر: العياشي عنصر، سوسيولوجيا الأزمة الراهنة في الجزائر، في: سليمان الرياشي [وآخرون]، الأزمة الجزائرية الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ،سلسلة كتب المستقبل العربي11، ط2 ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، ص 227- 231 .

6)عبد الناصر جابي، الجزائر: الدولة والنخب، دراسات في النخب، الأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية، الجزائر، منشورات الشهاب، 2008، ص 133.

7)محمود بوسنة ، "الحركة المعوية في الجزائر: نشأتها وطبيعة تطورها ومدى مساهمتها في تحقيق الأمن والتنمية"، مجلة العلوم الإنسانية ، الصادرة عن جامعة منتوري قسنطينة- الجزائر، العدد 17 جوان2002 ص 138.

8)العياشي عنصر، سوسيولوجيا الديمقراطية والتمرد بالجزائر، القاهرة، دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع، 1999، ص9.

9)عبد الناصر جابي، مرجع سابق، ص 127 .

10) ثنيو نور الدين، مرجع سابق، ص23 .

11)علي سموك، إشكالية إنتاج المعرفة في المجتمع الجزائري ومحددات الفجوة الإستراتيجية في التنمية البشرية من اجل مقاربة سوسيو اقتصادية، في: عبد الحميد دليمي [وآخرون]، الجامعة الجزائرية والتحديات الراهنة، جامعة بسكرة- الجزائر، دار الكتاب العربي، 2006، ص 162 .

12)علي الكنز وعبد الناصر جابي، "الجزائر في البحث عن كتلة اجتماعية جديدة"، مجلة المستقبل العربي، الصادرة ببيروت عن مركز دراسات الوحدة العربية، السنة 17، العدد 183، ماي1994، ص 25.

13) دبلة عبد العالي، النظام السياسي الجزائري من الأحادية الحزبية إلى التعددية، في: حافظ عبد الرحيم [وآخرون]، السيادة والسلطة الآفاق الوطنية والحدود العالمية، سلسلة كتب المستقبل العربي52، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006، ص 202.

14) محمود بوسنة، مرجع سابق ، ص 139.

15) بوبكر بوخريسة، "الدولة الجزائرية الحديثة: بين القوة والشرعية وسيرورة البناء الديمقراطي"، إضافات، المجلة العربية لعلم الاجتماع، الصادرة ببيروت عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 12 خريف 2010 ، ص 152.

16)انظر، العياشي عنصر، سوسيولوجيا الأزمة الراهنة في الجزائر، في: سليمان الرياشي ، مرجع سابق، ص ص 232-237.

17)حافظ عبدالرحيم: المجتمع المدني والتنمية أية علاقة؟، الموقع: http.siironline.org/alabwab/derasat(01)/272.htm تم تصفح الموقع بتاريخ: 2011/05/11.

18) المرجع نفسه.

19)عبد الوهاب حميد رشيد: التحول الديمقراطي والمجتمع المدني، مناقشة فكرية وأمثلة لتجارب دولية (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2003) ص 89.

20) انظر: شهيدة الباز، دور المنظمات الأهلية العربية في تنمية المجتمعات المحلية. نيويورك: الأمم المتحدة، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب أسيا،1998،ص 04.

21)حافظ عبدالرحيم:مرجع سابق، الموقع نفسه.

22) المرجع نفسه.

23) حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006، ص 211.

24) إبراهيم عبد الله غلوم، "بناء الديمقراطية/ بناء الثقافة المدنية"، مجلة البحرين الثقافية. السنة 9، العدد 31 جانفي 2002، ص 126.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 66 - 76
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

انعكاسات الاقتصاد الخفي على الاقتصاد الجزائري

دراسة قياسية تحليلية الفترة (1970 – 2010)

علي بودلال

كلية العلوم الاقتصادية، التسيير والعلوم التجارية جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

مقدمة:

الاقتصاد الخفي ظاهرة عالمية تهدد الكثير من اقتصاديات الدول النامية والمتقدمة ، ويمثل هذا النوع من الاقتصاد نسبا عالية من الناتج الداخلي الخام في الدول النامية، حيث يقدر في الجزائر بما يقارب 30% من الناتج المحلي الخام بناءا على تقديرات عالمية وأخرى صادرة عن صندوق النقد الدولي. أي ما يتجاوز 08 مليار دولار[1] ويشمل كافة أشكال الدخل التي لا يعبر عنها رسميا ، ويكثر نشاطه في الدول التي تعاني من عدم الاستقرار وقصور في الأنظمة والقوانين.

و قد أظهرت نتائج دراسة خلال الفترة (1988-2000) أصدرها صندوق النقد الدولي تقديرات حجم الاقتصاد الخفي بنسب تتراوح بين 35%-44% من إجمالي الناتج الداخلي في البلدان النامية ، وبنسب تراوحت بين 14%-16% من إجمالي الناتج الداخلي في بلدان منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي[2].

-كما أسفرت نتائج الدراسات التي تمت في الفترة (1998 - 2000) على دول متنوعة من العالم أن الاقتصاد الخفي كنسبة من الناتج الداخلي الخام كان مرتفعا في بعض الدول مثل نيجيريا وتايلاند وروسيا والدول الإسكندنافية والشيلي وكان منخفضا في دول أخرى مثل سويسرا، أوزبكستان، النمسا والولايات المتحدة الأمريكية وسلوفاكيا وجنوب إفريقيا[3].

-دراسة حديثة تقييمية للاقتصاد الخفي في الجزائر حوالي 25% من الناتج الداخلي الخام

ومن هنا يتزايد اهتمام الباحثين الاقتصاديين حاليا في تحليل تطور الظاهرة ويعود ذلك لأسباب عدة نذكر منها على سبيل الحصر:

-الأموال السوداء هي أحد النشاطات الخفية وهي تشكل نسبة متزايدة في الناتج الداخلي الخام سواء في اقتصاديات الدول المتقدمة أو النامية منها كالجزائر.

-برامج الإصلاح الاقتصادي التي طبقت في العديد من الدول النامية أفرزت نتائج سلبية.

-الاقتصاد الخفي هو جزء من الاقتصاد الوطني للدولة ولكنه غير مسجل في الحسابات الوطنية.

1- ماهية الاقتصاد الخفي:

هناك تعريفات عدة للاقتصاد الخفي والذي أشارت إليه بعض الأدبيات بتسميات عديدة منها (وحسب ما أشارت إليه الدراسات التي أجراها المكتب الدولي للعمل ونظام المحاسبة لسنة 1993), حيث ورد مصطلح الاقتصاد غير الرسمي على الاقتصاد التحتي (Under ground Economy) والاقتصاد الأسود (Black Economy) والاقتصاد غير الرسمي (Informal Economy) , واقتصاد الظل (Shadow Economy) والاقتصاد غير المرئي (Knob served) عموما ينظر إلى الاقتصاد الخفي بأنه تلك الأنشطة غير المدرجة بالحسابات القومية فهي أنشطة بعيدة عن القنوات الاقتصادية المعلنة وبعيدة أيضا عن الرقابة والإدارة الاقتصادية للدول , وهي أما أن تكون أنشطة مشروعة أو أنشطة غير مشروعة.[4]

كذلك عرف اقتصاد الظل على انه أنشطة مشروعة وغير مشروعة تصل قيمتها سنويا إلى الملايين التي تظل خارج السجلات بعيدا عن مجال الضرائب والإحصائيين الحكوميين.

وهناك من يتناوله على أساس أنه يضم العديد من النسخ, حيث يشكل الاقتصاد غير المشروع النسخة السوداء الأكثر قوة ونفوذاً فيه وهي تتمثل بسيادة نوع من الاقتصاد المافياوي مع ممارسة كل إشكال العنف وكل إشكال التهريب من مخدرات وأسلحة وأشياء مسروقة ودعارة...الخ وذلك إلى جانب نسخ أخرى

وردية تخص الاقتصاد غير التجاري والاقتصاد التضامني, أي ما يتعلق بالتزوير والقرصنة والتهريب والفواتير المزورة..الخ.

وليكن الشكل البياني التالي أكثر توضيحا:

الشكل البياني من إعداد الباحث: د.بودلا ل علي (2007).

ونظرا لتنوع مجالات عمله يطلق أسماء متعددة حسب مجال العمل الذي يمارسه، فإذا كان متعاملا بسلعة محرمة الاستخدام والتعامل (أسلحة-مخدرات-سرقة الآثار-المتاجرة بالبشر...)

فإننا ندعوه (الاقتصاد الأسود أو اقتصاد الجريمة)Black Economy. أما إذا كان التعامل به ممنوعا واستخدام السلعة مسموحا مثل (السوق السوداء لبعض السلع-إنتاج بعض السلع بمعامل غير مرخصة-دكاكين وورش غير مسجلة-دروس خصوصية-أعمال الأجرة-عقود من الباطن غير موثقة...الخ) فإننا ندعو (الاقتصاد غير الرسمي) Informal Economy.

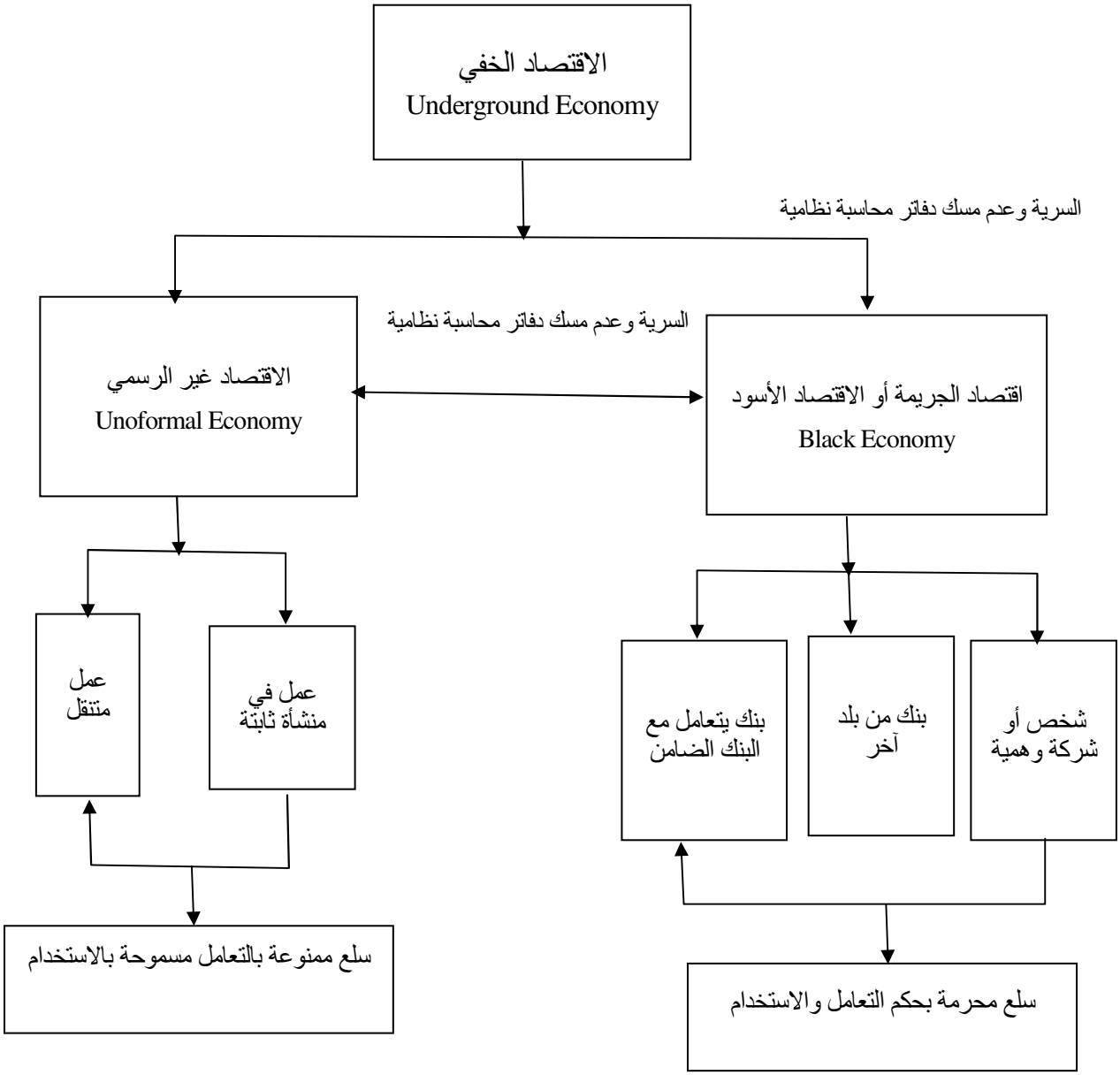

1.1.أنشطةالاقتصادالخفي: [5]

تمثل الأنشطة المشروعة أنشطة قانونية لكنها غير مسجلة رسمياً والإرباح المتولدة عنها لا تدخل في ناتج الاقتصاد الوطني ومن ذلك:

المشروعات الحرفية الغير المرخصة، الباعة المتجولون, الخدمة المنزلية, مزاولة الدروس الخصوصية. أما الأنشطة الخفية, فتتمثل في الأنشطة غير القانونية وغير المسجلة رسميا في الحسابات القومية أي هي أنشطة محظورة منها:

تجارة المخدرات والعملة والتزوير والفساد، إنتاج المخدرات-تقطير الكحول، الأموال المحتكرة، توزيع الحشيش والسجائر المهربة، دخل المراهنات والمقامرات والدعارة، السرقة بكل أنواعها.

تأسيساً على ما تقدم فأن الأنشطة غير المشروعة هي تلك الأنشطة التي تكون مصادر الأموال لها هي أموال قذرة أموال غير مشروعة المصدر ويحرمها القانون.

وبهذا يمكن تعريف الأموال القذرة بأنها: الأموال التي تنشأ من مباشرة أنشطة غير مشروعة يحرمها القانون، والأنشطة التي تمثل مصادر الأموال القذرة تشمل تجارة المخدرات والسلاح والرشوة والدعارة واستغلال الوظائف العامة للحصول على ثروات أو منافع خاصة والعمولات والاتجار في السوق السوداء فيما هي ممنوعة وسرقة أموال الدولة والتهرب الضريبي وتهريب السلع والنقود وتجارة الأغذية الفاسدة وسرقة الاختراعات والآثار والمضاربات في الأراضي والعقارات وفي البورصات وتزييف العملة وتزوير الصكوك الصرفية، والاتجار بالرقيق الأبيض.

2- أسباب ظهور وتنامي ظاهرة الاقتصاد الخفي:[6]

1.2- الضرائب: وتعد الضرائب مسؤولة عن حدوث الاقتصاد الخفي إذ تشير الدراسات إلى أن تأثير النظام الضريبي على اقتصاد الظل، ففي النمسا كان لعبء الضرائب المباشرة (بما فيها مدفوع الضمان الاجتماعي) أقوى الأثر في نمو اقتصاد الظل، بمعنى أن آثار ارتفاع معدلات الضريبة، تنعكس في صورة توفير دوافع للاتجاه نحو المخاطرة، والتحول نحو الاقتصاد الخفي ومن ثم ازدهاره على المدى الطويل. وتجدر الإشارة إلى أنه مع زيادة أسعار الضرائب تزداد حوافز التهريب منها.

2.2- البيروقراطية والفساد الإداري:

أن ازدياد التعقيدات الإدارية المتعمدة أو غير المتعمدة يؤدي ذلك إلى لجوء جهود المتعاملين إلى الأبواب الخلفية. أو مايسمى بالسوق السوداء، فالحكومة تضع التعقيدات الإدارية مثلاً في سبيل الحصول على الترخيصات أو التصريحات التي تؤدي إلى ظهور طائفة من المستفيدين يقومون في إنهاء هذه الإجراءات في مقابل الحصول على عمولات أو رشاوي.

3.2- القوانين المانعة:

قيام الدولة بوضع قوانين تمنع أو تحظر بعض الأنشطة، فيقوم الأفراد والمؤسسات بتلك الأنشطة بالالتفاف حول تلك القوانين والتحايل عليها.

4.2- انخفاض مستوى الدخل:

أن تدني مستويات الدخل في دولة ما وارتفاع نسبة البطالة والفقر فيها، يؤدي إلى ارتفاع معدلات الجريمة وإذا استمرت مستويات الدخل في الانخفاض سيؤدي ذلك إلى ظهور الجريمة الكاملة وبالتالي إلى زيادة في حجم الاقتصاد الخفي.

5.2- تواضع وعدم كفاءة المؤسسات الحكومية:

يميل حجم الاقتصاد الخفي إلى الصفر في البلدان التي تتسم المؤسسات الحكومية فيها بالقوة والكفاءة، فيما تجد أنشطة الخفاء أرضا خصبة في أي اقتصاد مثقل باللوائح تتسم فيه الحكومات بعدم الكفاءة والتعويل على السلطة التقديرية في تطبيق القانون.

3- آثار الاقتصاد الخفي:

أ) الآثار الايجابية:

1. **الأثر على التشغيل:** حيث يساعد على حل أزمة البطالة ويزيد في معدلات التشغيل ويقلص من حدة الفقر، ذلك بسبب أن الاقتصاد الخفي لا يحتاج إلى موافقات رسمية وإلى مستوى علمي معين والى أعمال معينة.

2. **الأثر على ميزان المدفوعات:** يساعد على تخفيض الواردات من الخارج ومن ثم المساعدة في خفض العجز في ميزان المدفوعات للدول.

1. 3. **الأثر على الإنتاج والعرض السلعي:** حيث يساعد على تخفيض الأعباء الاجتماعية للعديد من طبقات الشعب التي تطبق مبدأ الاكتفاء الذاتي فحتماً أن الإنتاج سوف يزيد مما يؤدي إلى زيادة العرض السلعي.

ب) الآثار السلبية:

1- الآثار الاقتصادية وتتمثل في:

-تمتع أصحاب الدخول الخفية، بالمرافق والخدمات العامة ولا يسددون الضرائب المستحقة عليهم.

-تتمثل خطورة الاقتصاد الخفي ، في أنه في حالة توظيف الأموال غير المشروعة في مجالات الاستثمارات المتعددة، وأن كان يؤدي إلى رفع معدلات النمو الاقتصادي وخلق فرص عمل جديدة، إلا أن الدافع لتوظيف أو استثمار هذه الأموال غير اقتصادي بقدر ما هو متعلق بإخفاء حقيقة مصدرها الاحتماء من المطاردة القانونية.

-يؤدي إلى عدم صحة البيانات والمعلومات التي على أساسها تعد الإحصاءات الوطنية وبذلك تكون المؤشرات المستخلصة غير مناسبة لوضع السياسة الاقتصادية.

-ندرة البضائع في الاقتصاد الرسمي نتيجة الرقابة على الأسعار أو التوزيع بانتظام قد تزيد كثيراً أسعارها في اقتصاد السوق السوداء.

-اختلاف معدل النمو الاقتصادي، حيث أنه عندما يوجد الاقتصاد الخفي، فإن معدلات النمو الحقيقي في الاقتصاد سوف تختلف عن معدل النمو المسجل، ومن يظهر تشوه المؤشرات الاقتصادية في صورة تقديرات أقل من الواقع، أو تقديرات مغالى فيها عن معدل النمو الاقتصادي الرسمي.

4- حجم الاقتصاد الخفي في مختلف بلدان العالم:

يرجع المحللون الاقتصاديون أسباب انتشار الاقتصاد الخفي في مختلف دول العالم خاصة الدول النامية إلى الأزمات الاقتصادية التي مرت بها، بالإضافة إلى برامج إعادة التصحيح الهيكلي التي فرضت عليها من قبل صندوق النقد الدولي والبنك العالمي.

1.4:- مناهج تقدير الاقتصاد الخفي:7

من الصعوبة التوصل إلى تقدير دقيق لحجم هذا الاقتصاد لأنه أصلا اقتصاد خفي إلا إن ذلك لا يمنع من محاولة التوصل إلى تقدير ما لحجم الاقتصاد الخفي. توجد **مجموعتان من الأساليب لتقدير حجم الاقتصاد الخفي** أحداهما الأساليب المباشرة التي تقوم على أساس تقدير الأنشطة التي تتم في اقتصاد الظل وتجمع هذه الأنشطة للحصول على تقدير لهذه المعاملات (المسح بالعينة وتدقيق الحسابات الضريبية). والأخرى هي الأساليب غير المباشرة وتقوم على محاولة اكتشاف الآثار التي تترتب على وجود هذا الاقتصاد وهي تتضمن ما يلي:

1- طريقة الإحصائيات السكانية وقوة العمل: من خلال استخدام باحثين متخصصين بحساب الإنتاجية فيتم حساب الفارق بين (قوة العمل، وعدد العاملين)، وبالتالي يتم حساب الإنتاج الإجمالي الفعلي عن طريق عدد العمال × إنتاجية العامل الواحد ويكون الإنتاج في اقتصاد الظل أي غير الرسمي يعال (الفارق بين قوة العمل وعدد العاملين) × إنتاجية العامل.

إن هذه الطريقة تحتاج إلى معرفة دقيقة بتقدير إنتاجية العمل في كل قطاع، لكنها تعطي صورة تقريبية عن حجم هذا القطاع، ومن أهم الدول التي تستخدم هذه الطريقة /إيطاليا وبعض دول الاتخاذ الأوروبي/.

2-اعتماد الدراسات القطاعية وأسئلة الاستقصاء: من خلال توزيع استثمارات تتضمن مجموعة أسئلة وتتناول البائعين والشارين وبعد إملائها يتم المقارنة بين أجوبة كل منها كأن نركز على جانب الإنفاق مثلا لفئة معينة من الناس ونقارنها مع مصادر الدخل الرسمية وهكذا مع الفئات الأخرى، الفارق بين المداخيل الرسمية والإنفاق الفعلية يعبر عن حجم الاقتصاد غير الرسمي.

إن هذه الطريقة تحتاج إلى جهد كبير وتخصص علمي دقيق في صياغة الأسئلة والاستنتاجات وتطبق هذه الطريقة في الدول الاسكندينافية وخاصة (السويد-الترويج).

3-طريقة الناتج الإجمالي: وتطبق هذه الطريقة في مصلحة الضرائب في الولايات المتحدة الأمريكية باعتماد مبدأ الانتقال من الجزئي إلى الكلي، من خلال اعتماد عدد من الأسر بشكل عشوائي، ودراسة أوجه الإنفاق ومصادر الدخل مع التركيز على أوجه الإنفاق الترفي مثل (القصور-التحف-السيارات...الخ).

وتؤخذ مجموعة من الأسر الأخرى في مستويات اجتماعية مختلفة وبنفس الطريقة بحسب دخلها ومصروفها وبعدها تحسب على مستوى الاقتصاد الكلي، وتقارن بين الدخل الإجمالي الرسمي مع الدخل المحسوب فالفارق بينهما هو (الاقتصاد الخفي)، وهي شبيهة إلى حد ما بطريقة أسئلة الاستقصاء.

4-طريقة تعمد على مؤشرات جزئية: مثل معرفة الاستهلاك الحقيقي من الكهرباء، أو الماء، واعتماد مؤشر التشغيل النظامي، فمثلا إذا كان حجم الكهرباء اللازم للإنتاج دخل قدره /20/ مليار دينار في

الجزائر يحتاج إلى /20/ مليون كيلو فولت، فإذا كان الاستخدام من الكهرباء هو/30/ مليون كيلو فولت. فعندها نستطيع أن نقدر حجم الاقتصاد الخفي بعد استبعاد الهدر من الكهرباء (وهذه يمكن حصرها)، ونصل عندها إلى حساب قيمة هذا الاقتصاد.

5-المعاملات:

استخدام البيانات الخاصة بالحجم الكلي للمعاملات النقدية في الاقتصاد من اجل حساب إجمالي الناتج المحلي الاسمي والكلي أي الرسمي الخفي ثم تقدير حجم الاقتصاد الخفي بطرح إجمالي الناتج المحلي الرسمي من إجمالي الناتج المحلي الاسمي الكلي.

6-الطلب على النقود: تقدير حجم الاقتصاد الخفي من واقع الطلب على السيولة على افتراض إن المعاملات الخفية تتم نقداً وان الزيادة في الاقتصاد الخفي سوف تزيد من الطلب على السيولة.

يمثل الجدول التالي: **نسبة الاقتصاد غير الرسمي من الناتج الداخلي الخام لمختلف بلدان العالم خلال سنة 2003:**

الجدول (1): نسبة الاقتصاد الخفي من الناتج الداخلي الخام لمختلف بلدان العالم خلال سنة 2003.

المنطقة	البلد	حصة الاقتصاد الخفي من PIB%
جنوب شرق آسيا آسيا الجنوبية	اندونيسيا	78
	فليبين	72
	تايلندا	50
	بنغلادش	17
	الهند	91
إفريقيا الشمالية إفريقيا الجنوبية	الجزائر	42
	المغرب	45
	تونس	50
	مصر	55
	بنين	93
	تشاد	74
	غانا	72
	كينيا	72
	إفريقيا الجنوبية	51
أمريكا اللاتينية	أرجنتين	.349
	برازيل	.147
	الشيلي	38
	كولومبيا	.655
	المكسيك	.239
	البيرو	.159

Source : **Ilo, Global employment Trends, Geneva, 2003.**

يتضح لنا من خلال الجدول أن أكبر نسبة الاقتصاد الخفي من الناتج الداخلي الخام تظهر بشكل واضح بجنوب شرق آسيا، في البلدان التالية: اندونيسيا (78%)، الفلبين (72%). كما تظهر أيضا بنسبة كبيرة في بلدان آسيا الجنوبية على رأسها الهند (91%).

أما في إفريقيا الشمالية فإن هذه النسبة تظهر في كل من: تونس (50%)، ومصر (55%). بينما في إفريقيا الجنوبية فنجدها في كل من: بنين (93%)، تشاد (74%).

وفي بلدان أمريكا اللاتينية فإن النسبة الكبيرة للاقتصاد الخفي تظهر في كل من: البيرو (59%.1)، كولومبيا (55%.6).

إن **الجدول رقم (2)** يمثل نسبة الاقتصاد الخفي من الناتج الوطني الخام (PNB) (%) في كل منطقة من العالم حسب تقديرات سنة 2006.

الجدول (02): نسبة الاقتصاد الخفي من الناتج الوطني الخام (PNB) (%) سنة 2006.

المنطقة	الاقتصاد الخفي من الناتج الوطني الخام (%)
آسيا الشرقية	,324
أوروبا الشرقية ووسط آسيا	,737
أمريكا اللاتينية	,541
أفريقيا الشمالية	,527
دول منطقة التعاون والتنمية الاقتصادية	,417
إفريقيا الجنوبية	,342
آسيا الجنوبية	,735

Source: **world Bank, 2006.**

يظهر جليا من هذا الجدول أن نسبة الاقتصاد

الخفي من الناتج الوطني الخام تتوزع كمايلي: أفريقيا الجنوبية (42,3%)، ثم تليها منطقة أمريكا اللاتينية (41,5%) في حين أن آسيا الجنوبية تقدر نسبة الاقتصاد الخفي فيها بحوالي (35,7%).

إن انتشار الاقتصاد الخفي في مختلف بلدان العالم وتفاقم حدته جعلت من هذه البلدان تبحث عن مختلف الأساليب القادرة على التعامل معه بغية إدماجه في الاقتصاد الرسمي.

ومن بين أهم البلدان التي اعتبرت سياساتها ناجحة اتجاه الاقتصاد الخفي، وحظيت بتشجيع من قبل المنظمات العالمية كصندوق النقد الدولي والبنك العالمي نذكر: السنغال، تونس والمكسيك

5- نظرة عامة حول الاقتصاد الخفي في الجزائر:[8]

تعد الجزائر من بين أهم البلدان التي تعاني من تنامي ظاهرة الاقتصاد الخفي، وذلك راجع إلى التغيرات التي عرفها الاقتصاد الجزائري والتي تزامنت مع كل فترة تاريخية مر بها، ولعل أهم مرحلة ميزت هذا الأخير هي فترة ما بعد منتصف الثمانينيات التي شهدت فيها الجزائر أزمة اقتصادية حادة انجر عنها بروز عدة سلبيات كان لها تأثير كبير على مردودية الاقتصاد الوطني، مما دفع بالجزائر للتوجه إلى إصلاحات حملت في طيتها تغيير النظام الاشتراكي المتبع وتبني نظام اقتصاد السوق.

ويمكن ذكر أهم الأسباب التي ساعدت على تنامي ظاهرة الاقتصاد الخفي في الجزائر: (**لجنة علاقات العمل، 2004: 71**).

1-أزمة انهيار أسعار البترول وتأثيراتها على انخفاض معدلات الاستثمار، وما نتج عنها من ارتفاع في معدلات البطالة.

2-أزمة المديونية الكبيرة التي حتمت على الجزائر الخضوع لشروط صندوق النقد الدولي لإعادة جدولة الديون مرورا بالإصلاح الهيكلي الذي كان له تأثيرا سلبيا خاصة على الناحية الاجتماعية: (انتشار الفقر والبطالة).

3-عدم مرونة الجهاز المصرفي الجزائري مما يعرقل تمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة وهذا ما يؤدي إلى البحث عن طرق وفرص بديلة في القطاع الخفي.

4-النمو الديمغرافي المتزايد.

5-انتشار الرشوة والفساد خاصة في الإدارات العامة.

6-البيروقراطية والقيود الحكومية المانعة.

1- القطاعات الخفية الأكثر انتشارا في الجزائر:

أ- قطاع البناء والأشغال العمومية: (Abrika, B, 2001 : 4ـَـَ)

يعتبر من بين أهم القطاعات المغذية للاقتصاد الخفي، خاصة بعد الإصلاحات الاقتصادية التي أسفر عنها غلق العديد من المؤسسات العمومية، وبالتالي خلق الجو المناسب لنشوء مؤسسات مصغرة غير رسمية.

2- قطاع التجارة:

وأهم أسباب انتشار التجارة غير الرسمية هي:

- ارتفاع معدل البطالة عند الشباب خاصة الذين يطلبون العمل لأول مرة.
- تحرر التجارة الخارجية أدت إلى فتح الأسواق على السلع والخدمات الأجنبية مما ساعد على تنامي ظاهرة تقليد العلامات التجارية وانتشار السلع المغشوشة في الأسواق الجزائرية كما يوضحه الشكل رقم (2).
- غياب الشفافية في ممارسة الأنشطة التجارية وغياب استعمال الشيكات في العمليات التجارية.

كما توجد أيضا قطاعات أخرى تنشط في القطاع الخفي كقطاع المنتجات الغذائية، قطاع النسيج، وصناعة الأثاث... الخ[9]

1.5-حجم القطاع الخفي في الجزائر:

إن مختلف الأزمات التي مرت بها الجزائر كانت ذات أثر سلبي سواء على الناحية الاقتصادية أو على الناحية الاجتماعية مما ساعد على تنامي القطاع الخفي الذي جاء يلبي احتياجات الأفراد كتوفير مناصب للعمل، تلبية الحاجات الأساسية، ... الخ، مثلما يوضحه الجدول رقم (3). **حجم الاقتصاد الخفي من الناتج الوطني الخام (الفترة: 1988-2006):**

السنوات	نسبة الاقتصاد الخفي من PNB (%)
1988	**19.5**
1990	**25.4**
1998	**32.95**
2000	**34.1**
2003	**42**
2006	**34.2**

Source: Adair, P: l'économie informelle au Maghreb, 2002.

Own calculations based on world Bank data, Washington D.C, 2002, world Bank, 2006.

وبالرغم من المجهودات التي تقوم بها الجزائر في القطاع الخفي لمحاولة إدماجه في الاقتصاد الوطني كمنح المساعدات للمؤسسات الصغيرة، دعم المشاريع المتعلقة بالنشاطات التقليدية، اتخاذ تدابير صارمة لمكافحة الغش الضريبي،إلا أن حجمه يبقى معتبرا.

2.5-تقدير حجم الاقتصاد الخفي في الجزائر:

بيد طبيعة الظاهرة وقصور البيانات المتاحة حالا دون تطبيق طريقة التفاوت بين الدخل والإنفاق القومي، كما تعذر علينا أيضا إعمال أسلوب المعاملات.

ونظرا لتوافر البيانات عن كل من العملة المتداولة والودائع الجارية والودائع الآجلة فقد عملنا على تقدير حجم الاقتصاد الخفي بدلالة الدخل غير المعلن باستخدام.(modèle de vito.Tanzi).[10]

1.2.5-نموذج (V.Tanzi1982) أسلوب التهرب والغش الجبائيين.

تقدير الدخل غير المعلن باستخدام النموذج التانزي القياسي**" لمعادلة الطلب على العملة."**

يهدف النموذج إلى تقدير حجم الاقتصاد الخفي في الجزائر خلال الفترة

(1970-2010) وذلك بدلالة الدخل غير المعلن وكما سلف الذكر فإن الفكرة الأساسية لذلك المنهج **هي تحديد دالة الطلب على العملة** بوضع تقديرين لحيازة العملة:

الأول: حينما لا يكون المتغير الضريبي مساويا للصفر.

الثاني: حينما يكون المتغير الضريبي مساويا للصفر.

ويطلق على الفرق بين التقديرين: النقود غير المشروعة ومن هنا سيخرج مقدار:

الدخل الخفي=النقود غير المشروعة x سرعة تداول الدخل النقدي .

2.2.5 -فرضيات النموذج:

1-أنشطة الاقتصاد الخفي هي نتيجة مباشرة لارتفاع الضرائب.

2-تستخدم العملة أساسا لإتمام معاملات الاقتصاد الخفي وتراكم الثروة.

3-تماثل سرعة تداول الدخل النقدي في كل من الاقتصاد الرسمي والاقتصاد الخفي.

3.2.5-متغيرات النموذج:

المتغير التابع: نسبة العملة إلى النقود بمعناها الواسع $\frac{a}{T_2}$

المتغيرات التفسيرية:

- متوسط الناتج الداخلي الخام y_m

-نسبة الأجور إلى الناتج الداخلي الخام. $\frac{R}{y}$

– نسبة الضرائب إلى الناتج الداخلي الخام. $\frac{T_X}{y}$

معدل الفائدة . i

4.2.5-الشكل الرياضي للنموذج:

يستخدم نموذج الانحدار غير الخطي المتعدد لتقدير دالة الطلب على العملة ، وتأخذ الدالة الصورة اللوغاريتمية التالية:

$$Log\frac{a}{T_2}=b_0+b_1 Logy_M+b_2 Log\frac{R}{y}+b_3 Log\frac{T_X}{y}+b_4 Log+\alpha$$

حيث α : متغير عشوائي (ذو قيمة متوقعة = صفر وتباين ثابت).

b_0 : الثابت ، b4, b3, b2, b1: معلمات المتغيرات التفسيرية للنموذج.

تحديد التوقعات القبلية للنموذج :

عن المتوقع أن تكون قيمة معلمتي المتغير بين y_x،i سالبة $0>b_1$ ، $0>b_4$

ومعلمتي المتغيرتين $\left(\frac{R}{y}\right)$ $\left(\frac{T_X}{y}\right)$ موجبة.$b_2 >$ 0 ، $b_3 <$ 0.

5.2.5-البيانات:

تم الحصول على البيانات من مصادر رسمية (البنك العالمي، صندوق النقد الدولي، بنك الجزائر، بعض المواقع الإلكترونية...)

6.2.5-أسلوب التقدير المستخدم:

تم استخدام طريقة المربعات الصغرى العادية لتقدير معلمات دالة الطلب على العملة بواسطة نظام **(Logiciel Eviews 5.1).**

تقدير النموذج: بتعويض الإحصاءات المتوفرة والمطلوبة للنموذج نتج ما يلي:

$$+0,071288\ \ Log\left(\frac{T_X}{y}\right)+0,256067\ \ Log\ i$$

7.2.5-اختبار النموذج:

- جاءت إشارات المعلمات المقدرة مطابقة للتوقعات القبلية.
- بلغ معامل التحديد $R^2 = 0,948$ (94%)
- يعني ارتفاع المقدرة التفسيرية للنموذج بنسبة 94 بالمائة.[11]

السنوات	1970	1980	1985	1990	2000	2005	2010
الدخل الخ حجم الاقتصاد الخفي	,0096829	44604 ,417	,58262192	,176132802	,396507379	942858 ,983	1452225 ,576
نسبة % نسبة الاقتصاد الخفي إلى.P.IB	,280	,270	,210	,240	,250	,230	,240

باستخدام برنامج Logiciel EVIEWS 5.1 عبر الحاسوب الآلي.[12]

- تبين أن *F المحسوبة أكبر من F الجد ولية عند مستوى معنوية 5% بالنسبة لجميع المعلمات المقدرة ، **وهذا ما يوحي بأن جميع المتغيرات التفسيرية تؤثر بصورة جوهرية على المتغير التابع** $\frac{a}{T_2}$

- اختبار $Durbin - Waston = 1,741$

أكبر من الصفر، وهذا ما يدعم المقدرة التفسيرية لجميع المتغيرات التفسيرية للنموذج.

تقدير حجم الاقتصاد الخفي خلال الفترة (1970-2010) بدلالة **الدخل الخفي بواسطة نظام (5 1. EVIEWS)** وأسفرت النتائج عما يلي: تطور حجم الدخل الخفي خلال الفترة (1970–2010)

المصدر: د. بودلال علي. مرجع سبق ذكره ص311-318.

تطور حجم الاقتصاد الخفي خلال الفترة (1970-2010)

8.2.5-تحليل النتائج:

قد تحققنا من صحة فرضيات الدراسة إذ ثبت وجود الاقتصاد الخفي بحجم لا بأس به في الجزائر حيث:

1-تراوح حجم الاقتصاد الخفي خلال فترة الدراسة بين 55833.673 مليون دينار.

جزائري كحد أدنى و862185.652 مليون دينار جزائري كحد أقصى.

2- بلغ المتوسط السنوي لنسبة الدخل الخفي إلى الناتج الداخلي الخام خلال الفترة المدروسة (1970-2010) حوالي 24% إلى 25%.

3- تختلف أسباب نمو الاقتصاد الخفي من سنة لأخرى ومن دولة لثانية إلا أنه يمكن بصفة عامة حصرها في النقاط الآتية بالنسبة **للاقتصاد الجزائري:**

تطور الاقتصاد الخفي في الجزائر من خلال الدخل الخفي

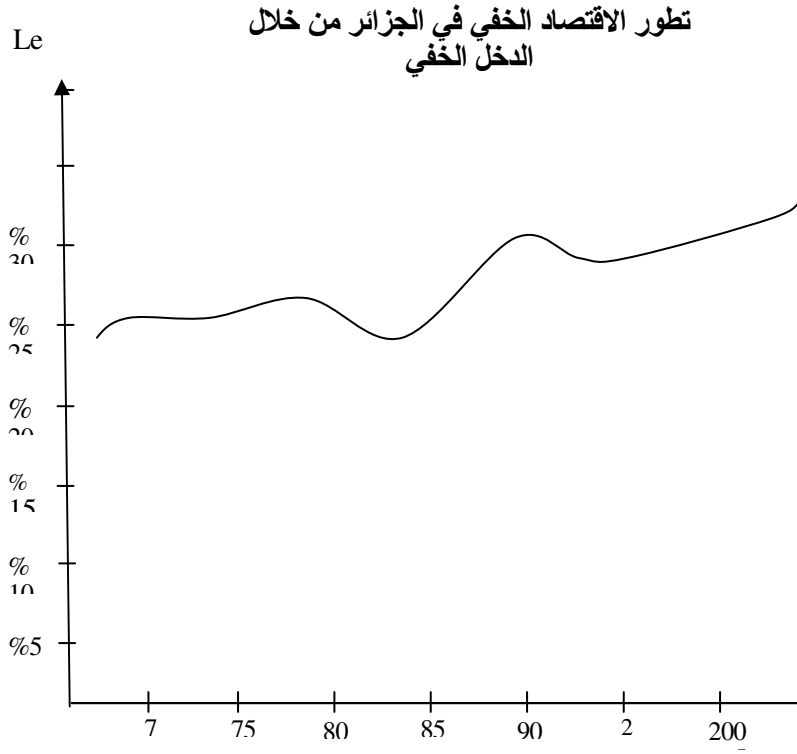

-على المستوى الكلي للظاهرة:

انعكس وجود الاقتصاد الخفي بالسلب على الموازنة العامة في الجزائر خلال فترة الدراسة في صورة فقدان في الحصيلة الممكنة للضرائب على الناتج الداخلي الخام حيث:

1- بلغ المتوسط السنوي لنسبة الفاقد الضريبي إلى الحصيلة الفعلية للضرائب على الدخل الإجمالي خلال فترة الدراسة حوالي (28%) وقد أسهم ذلك في:

2- تزايد العجز الكلي للميزانية من جهة وما يبرر انتشار الظاهرة وتعدد مختلف الأساليب للتهرب والغش الجبائيين من جهة أخرى.

3- التعديلات الضريبية التي تمت أثناء فترة الدراسة:

4- الضريبة على المداخيل يدفعها أساسا الأجراء في القطاع العام.

5- كثرة الإعفاءات من الإدارة الجبائية زادت من حجم الاقتصاد الخفي.

6- توسع السوق السوداء والسوق الموازية للعملات الصعبة.

7- في الفترة الأخيرة من الدراسة عرف الاقتصاد الجزائري نوعا من الاستقرار ويعود ذلك إلى: -وضع تنظيم جديد للاقتصاد من نوع ليبرالي عن طريق وضع آليات تشريعية وتنظيمية جديدة تسمح بالانتقال من الاقتصاد الموجه نحو اقتصاد السوق.

فمن هذه المعطيات: **يظهر وزن الاقتصاد الخفي في الاقتصاد الجزائري اعتبارا لبعض المؤشرات الاقتصادية السلبية التي عرفها الاقتصاد:**

- نمو سلبي للناتج الداخلي الخام خلال فترة التسعينات بالقيمة الحقيقية مما أدى إلى انخفاض محسوس للدخل الفردي قدره (15,7%).

- إجمالي رصيد الخزينة سلبي باستمرار باستثناء سنتي1990 – 1991.

- ارتفاع كبير لمعدل التضخم ناتج عن تحرير الأسعار وتخفيض قيمة الدينار المعدل 23% سنويا بين سنوات (1987 – 1994).

- تزايد نسبة البطالة بسبب فقدان مناصب الشغل في القطاع الاقتصادي الرسمي.

- إعادة هيكلة المؤسسات وتباطؤ النشاط الاقتصادي.

- وضعية أمنية للبلاد جد معرقلة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية.

6-الإجراءات الوقائية للتخفيف من ظاهرة الاقتصاد الخفي في الجزائر:

من اجل الحد أو التخفيف من ظاهرة الاقتصاد الخفي في الجزائر ينبغي إتباع الإجراءات الآتية:

-إصلاح النظام الضريبي ومسايرته للتطور العالمي.

-مراجعة أساس حساب الضريبة ومعدل الضريبة والتصاعد الضريبي.

-تشديد العقوبات على التهرب الضريبي.

-الإصلاحات التي تؤدي إلى تحرير القوانين التنظيمية وزيادة قدرة الاقتصاد على المنافسة

الخاتمة:

استهدف البحث دراسة ظاهرة الاقتصاد الخفي في الجزائر وأثرها على الاقتصاد الرسمي خلال **الفترة (1970–2010)**. إذ بدأنا بتحديد وتعريف الظاهرة وعناصرها وعلاقتها بالاقتصاد الرسمي والأسباب الاقتصادية التي تؤدي إلى نشوء وتطور الاقتصاد الخفي، كما تطرقنا لمختلف أساليب تقدير الاقتصاد الخفي مركزين على المقاربات النقدية التي تعد أكثر استخداما كونها تعتمد على الدخل الذي مفاده النقود، وهي بمثابة حجر الزاوية في المعاملات الاقتصادية الخفية.

كما عرضنا المكون المشروع وغير المشروع للاقتصاد الخفي في الجزائر لننتهي بتقدير حجم الاقتصاد الخفي بدلالة الدخل الخفي بانتهاج مقاربة نقدية مكنتنا من تحديد نسبة الاقتصاد الخفي في الجزائر وبينت النتائج المتحصل عليها بأن الظاهرة تتواجد بنسب متفاوتة، وهي في توسع وانتشار مستمر يعود أسبابه لعوامل عدة، منها جمود النظام الضريبي وعجزه عن مواكبة التطورات العالمية الحديثة، والإعفاءات التي يتميز بها النظام الضريبي الجزائري، الغموض، البيروقراطية الإدارية، تساهل السلطات في تطبيق الأحكام القضائية والعقوبات، نقص التنسيق بين المصالح الإدارية المشتركة... الخ كلها هذه الأسباب نتجت عنها اختلالات بين العرض والطلب و...و الأسعار، معدلات التضخم... والبطالة غدت ودعمت في توطيد أركان الاقتصاد الخفي في الجزائر.

وإن معالجة أي ظاهرة اقتصادية أو اجتماعية يجب أن يكون منطلق من أسباب ظهورها، ومنسجما مع مكوناتها وعوامل ارتباط عناصرها الداخلية، وهذه الظاهرة (الاقتصاد الخفي) تشكل بحدود 30% من الاقتصاد الجزائري، ومعالجة (الاقتصاد الإجرامي) تتطلب الحزم والقوانين المانعة لذلك، لأنه يسبب هدرا كثيرا للاقتصاد الوطني ومشكلة تتجاوز حدود الجانب الاقتصاد إلى الجوانب الأخرى. لأن الجزائر تعتبر بلدا عابرا لبعض أوجه (الاقتصاد الإجرامي) مثل (المخدرات، الأقراص المهلوسة...الخ).

أما الاقتصاد الخفي فإنه يتواجد جنبا إلى جنب مع الاقتصاد الرسمي، ويكاد يكون مكملا ومنافسا له ولذلك يدعى في بعض الأحيان (الاقتصاد الموازي) وهو لا يسدد ما يترتب عليه من (ضرائب ورسوم) ويعتمد على (اللاعلنية في العمل) ولا يمسك دفاتر محاسبية تبين نفقاته وإيرادته...الخ ومقاومة هذا الاقتصاد برأينا تتطلب معالجة تعتمد على (السبب والنتيجة) وليس بأسلوب (المنع والملاحقة).

-التوصيات: في ضوء النتائج المستخلصة من الدراسة التقييمية ومن تجارب البلدان السابقة الذكر، **يوصي الباحث بما يلي.**

1-التوجه نحو زيادة معدلات النمو، بحيث تساعد على توليد إمكانية توسيع القطاع الرسمي وبالتالي يحل تدريجيا محل القطاع الخفي.

2-تسهيل الإجراءات الإدارية أمام انتقال هذا القطاع إلى الجانب الرسمي (التراخيص الإدارية-الإجراءات المالية والتجارية...الخ)

3-التوسع الأفقي والتكامل العمودي في القطاع الرسمي من أجل زيادة إمكانية استيعاب اليد العاملة القادمة إلى سوق العمل، وبالتالي زيادة الناتج الداخلي الإجمالي.

4-تحسين الرواتب والأجور في القطاع الرسمي، بما يضمن تحسين مستوى الدخل.

5-ضرورة وجود تسيير جيد للحاكمية، مما سيغلق المجال أمام انتشار الرشوة، الفساد والبيروقراطية ويسهل توفير الجو الملائم لدراسة المشاريع التي بإمكانها منح مناصب كثيرة للشغل.

الهوامـــــش:

1-المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي (2004) دورة عادية سبتمبر 2004 ص.ص. 41 – 43.

2-صندوق النقد الدولي 2002 " قضايا اقتصادية" الاختباء وراء الظلال ص.ص 201 -222.

3- Schneider F2002 « Estimating the Size of the danish shadw economy using the currency demand Approach AnAtt mpt scaud Jof Economics Vol88 PP643-68I.M.F

4 - Schneider. (1986) « Estimating the Danish Shadow Economy using the currency Demand Approach: An Attempt ». Scand.J.of Economics, vol.88.pp.643-68.

5-د.هاشم م (2010): الاقتصاد غير الرسمي في بلدان الجوار العراقي :نشرة متابعات اقليمية مجلة مركز الدراسات الاقليمية -جامعة الموصل جمهورية العراق، العدد(20).

6-د. بودلال علي (2007): تقييم كلي للاقتصاد غير الرسمي في الجزائر"مقاربة نقدية للاقتصاد الخفي" أطروحة دكتوراه في العلوم الاقتصادية.جامعة تلمسان.

7- Tanzi, v. (1982a) « Underground Economy and Tax Evasion in the United States : Estimâtes and Implications ». In Tanzi (1982).

8 - Prenaut A 2002: « l'informelle aujourd'hui en Algérie, Forme de transition ou mode d'intégration spécifique à la hiérarchie imposée par la mondialisation ? » Cahiers du GREMANO 17 PEDET-CNRS Université Paris 12.

9- د.بودلال علي (2007): تقييم كلي للاقتصاد غير الرسمي في الجزائر"مقاربة نقدية للاقتصاد الخفي" أطروحة دكتوراه في العلوم

الاقتصادية.جامعة تلمسان.
10- Tanzi,v. (1982a) « Underground Economy and Tax Evasion in the United States : Estimates and Implications ». In Tanzi (1982).
11-تم تقدير معلمات النموذج وإجراء الاحتياجات الإحصائية باستخدام برنامج النظام Logiciel Eviews 5,1
12- $Log \frac{a}{T_2}$: Source V. Tanzi 1983 : The underground economy in the united states : Annual 1930- 1980 IMF STAFF papers Vol 30 n° 2 juin P.P 229 – 301. Estimates

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 43 - 49
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

تحليل مظاهر التحويل في اللغة العربية بين القديم والحديث

عبد الكريم خليل

المركز الجامعي ميلة

ملخـــــــص:

النحو والصرف علمان متكاملان، يخدم بعضهما الآخر؛ ذلك أن الأول يحتاج إلى التصريف لمعرفة أصل الكلمة، ومن ثم الحكم عليها، من حيث البناء والإعراب، أو غير ذلك مما يحتاج إليه النحوي في تحليل وتفسير الظواهر النحوية واللغوية المختلفة.

ولما كان اهتمامي منصبا على الدراسات الصرفية -التي لا يمكن بأي حال من الأحوال فصلها عن التطبيقات النحوية، لأن الكلمة العربية يُحتاج قبل إعرابها إلى معرفة أصلها واشتقاقها- أحببت أن أخوض في مجال تعليمية التحولات الصرفية للمشتقات والأفعال العربية، بنظرة حديثة تتكئ على علم الأصوات الحديث ومبادئ التعليمية.

لقد كان النحاة القدامى يصنفون الفعل (قال) في باب (نصر) ويضعونه في باب (فَعَلَ) ، ثم يبررون ذلك بنظام الإعلال والإبدال، الذي صعَّب من تعليمية الصَّرف والنحو بالنسبة للمتعلمين، ولو أنه قيل أن هذا الفعل من باب (جال) مثلا، ووزنه هو (فَالَ) عوض (فَعَلَ) لأمكن التخلص من هذا التعقيد الذي لا جدوى منه.

وتحاول هذه المقالة عرض بعض هذه الجوانب المستعصية، وتسهيلها للمتلقين بطريقة صوتية حديثة، تتوافق مع مبادئ التيسير والتعليمية المنشودة.

مقدمة :

تعرض هذه الدراسة للمشتقات العربية المحولة، وذلك ببيان التوجيه الصوتي من منظور علم الأصوات الحديث، بتقصي بعض الظواهر التي تلحق الأسماء والأفعال لغرض إحداث الخفة وإزالة الثقل وتحقيق المواءمة والاقتصاد في المقاطع الصوتية.

ولا يتم هذا الانسجام الصوتي إلا من خلال العودة إلى البنى العميقة لتلك الكلمات المحولة وذلك من أجل تسهيل تعليمها للمتلقين الناشئين، ومحاولة تبسيط هذه المسألة، وبالتالي تحبيب علم الصرف للطلبة والمتعلمين الذين يعانون من النفور منه، ولعل مرد هذا الإحساس يعود إلى صعوبة هذا الفن وجفافه ودورانه في سكة تكاد أن تصدأ؛ لكثرة سلاكها.

إن هذه الدراسة تحاول إعادة ترميم سكة الصرف العربي، وذلك بالاعتماد على آراء المفكرين والعلماء واللغويين المحدثين، الذين أسهموا إسهاما عظيما في إثراء الدرس الصرفي العربي وحاولوا جاهدين تبسيطه وتجديده، وربطها بأفكار جهابذة اللغة القدماء وتعليلاتهم؛ لأن هؤلاء المحدثين استندوا إلى الأفكار الأولى للقدماء، فزادوا عليها، وأنقصوا منها، وبدلوا فيها تبديلا، حتى تراهم أحيانا يبررون الظاهرة بتعليل يفوق القدماء صعوبة.

أولا: مفهوم التحويل:

التحويل من المصطلحات المستعملة حاليا بكثرة، لأن له فائدةً عظيمةً في الدرس الحديث؛ حيث إن دراستَهُ والإلمامَ بقوانينه يكشف عن البنى العميقة للتراكيب والمصطلحات العربية.

1- التحويل لغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ): "تَحَوَّل عن الشيء: زالَ عنه إلى غيره، وحَالَ الرَّجُلُ

يَحُولُ: تَحَوَّلَ من موضع إلى موضع، وكذلك حَالَ إلى مكان آخر أي تحوّل منه"[1].

والحِوَلُ يجري مجرى التحويل، يقال: "حَوَّلُوا عنها تحويلا وحِوَلاً". والتحويل مصدر حقيقي من حوّلت، قال الله تعالى: (لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)[2]. أي تحويلا[3]. وكذلك قال الله تعالى في سورة الإسراء: (لاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً)[4].أي تبديلا وتغييرا.

يتبين لنا أن مفهوم (التحويل) هو التغيير والتبديل، من حالة إلى أخرى أو من شيء إلى آخر، وكذلك الانتقال من مكان إلى مكان.

2- التحويل في اصطلاح : المدرسة التوليدة التحويلية/ النحو العربي :

يعود هذا المصطلح عند التوليديين إلى العالم الأمريكي الشهير (تشومسكي نوعم CHOMSKY Noam)؛ الذي أعلن عن نهج جديد لدراسة اللغة وهو القواعد التوليدية التحويلية، وذلك في كتابه الذي صدر سنة 1957، وهو كتاب "البنى التركيبية".

وقد أحدث هذا التيار ثورة في عالم اللسانيات الحديثة[5]. ومرت المدرسة التوليدية التحويلية بثلاث مراحل رئيسة هي:

أ- مرحلة النظرية الكلاسيكية: ظهرت بظهور كتابه "البنى التركيبية" سنة 1957.

ب- مرحلة النظرية النموذجية: ظهرت بظهور كتابه "مظاهر النظرية التركيبية"، سنة 1965م.

ج- مرحلة النظرية النموذجية الموسعة: وظهرت بظهور كتابه "دراسات الدلالة في القواعد التوليدية"، سنة 1972م[6].

لقد ميز "تشومسكي" بين البنية السطحية والبنية العميقة، فالأولى هي التركيب التسلسلي السطحي للوحدات المادية المنطوقة أو المكتوبة، وعليها يستند التفسير الصوتي للجملة، وهي مختلفة بين الأشخاص[7].

أما البنية العميقة فهي عنده[8] تعني التركيب الباطني المجرد للجملة الموجود في ذهن المتكلم فطريا، ومنه يستمد التفسير الدلالي للجملة، وهذه البنية يشترك فيها جميع البشر[9].

إن هذين المصطلحين (البنية السطحية والبنية العميقة) إنما تحدد مفهومهما بدقة عند "تشومسكي" في كتابه "مظاهر النظرية التركيبية" الذي نشر سنة 1956م.

فالمدرسة التوليدية التحويلية تعد هذين البنيتين[10]، أحد الأجزاء النظرية الأساسية؛ أنها من نتائج نظرة هذه المدرسة إلى نظام القواعد.

إن الوصف النحوي للجمل كما قدمه "تشومسكي" له جهتان: إحداهما سطحية والأخرى عميقة، والقواعد التي تربط بين البنيتين تسمى التحويلات النحوية[11].

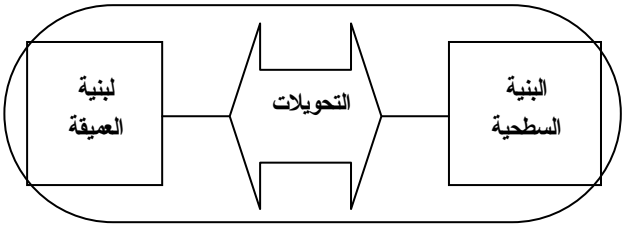

وأهم عناصر التحويل في المدرسة التوليدية التحويلية: التحويل بالزيادة، والحذف، والترتيب والاستبدال.

أما **التحويل بالزيادة** يكون بإضافة عنصر إلى عناصر الجملة النواة ، ويعبر عنه رياضيا بالقانون الآتي: أ ← (أ+ب)، أي إن (أ) تتحول إلى (أ+ب)، بحيث (ب) غير متضمنة في (أ)[12].

و**التحويل بالحذف** هو عكس الأول، فهو إسقاط أحد عناصر الجملة، ويعبر عنه التحويليون بالمعادلة الآتية: (أ+ب) ← ب، فالبنية العميقة التي تتكون من (أ+ب) أصبحت في البنية السطحية (ب) فقط[13].

بينما يكون **التحويل بالترتيب** بإحلال عنصر مكان آخر في الجملة الواحدة، وقد عبر عنه التحويليون بالمعادلة الآتية: (أ+ب) ← (ب+أ)[14].

في حين يكون **التحويل بالاستبدال** بإحلال صيغة لغوية مكان أخرى[15]، ويعبر عنها بالقانون الرياضي الآتي: (أ ← ب)، أي استبدال حرف الألف بالباء.

ويكاد أن يكون مصطلح التحويل خاصا بعلم الصرف وحده؛ لأن اللغويين العرب القدماء كانوا أكثر ما يشيرون إليه عند دراسة التغيرات التي تطرأ على الكلمة الواحدة، فيكون بذلك ما أشار إليه التحويليون امتدادا لما ورد في علم الصرف قديما؛ لأن التحويل بالزيادة والحذف كائن في الأفعال والأسماء، فهي قابلة لهما، فالكلمة (دَرَسَ) تمثل الجذر اللغوي، وهو الفعل، تتحول إلى (يَدْرُسُ) و(أَدْرُسُ) و(تَدْرُسُ) و(نَدْرُسُ) بإضافة حروف المضارعة الأربعة، وتتحول أيضا إلى (دَرَسْتَ) و(دَرَسْتُ) و(دَرَسْتُمَا) وغيرها من الصيغ

الأخرى التي تم توليدها بالزيادة إلى الكلمة الأولى التي تمثل الأصل (الجذر أو المادة اللغوية)، وكذلك الاسم (دَرْسٌ) يمكن أن يضاف إليه ضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب.

وكما جرت هذه الزيادة في أصول الكلمات وجذورها، وتحولت إلى صور أخرى جديدة (مولدة بالزيادة)، يتم كذلك التحويل بالحذف من خلال إسقاط هذه الحروف أو الضمائر الجديدة، لتعود الكلمة إلى سيرتها الأولى (الأصل).

والشيءُ نفسه يقال عند التحويل بالترتيب، فعناصر الكلمة وهي الحروف، يمكن أن يعاد ترتيبها بطريقة أخرى وهذا ما يسمى عند علماء الصرف القدماء بـ"القلب المكاني"، فكلمة مثل "**وَدَعَ**" تعطينا خمس صور أخرى عند تقليبها، وهي (**وَعَدَ، دَوَعَ، دَعَوَ، عَوَدَ، عَدَوَ**)، وهذا منهج الخليل الفراهيدي في "العين"، الذي اعتمد فيه نظام التقليبات، أي إعادة ترتيب حروف الكلمة وجمعها من جديد، (تفكيكها ثم إعادة جمعها).

وكذلك التحويل بالإحلال أو الاستبدال هو نفسه القلب في حالة الإعلال والإبدال، كما في الفعل (**قَالَ**) الذي أصله (**قَوَلَ**)، قلبت الواو ألفا لانفتاح ما قبلها، طلبا للخفة واليسر في النطق. فالقلب هنا يعني استبدال أو إحلال حرف مكان آخر.

إن اطلاع تشومسكي على بعض مباحث النحو العربي، ونعني بذلك الآجرومية[16] قد يجعلنا نحس ببعض الشكوك في كونه قد استرق أساس نظريته من لغة العرب، ويزيد ريبنا أكثر إذا عدنا إلى مناظرة عبد الرحمن الحاج صالح -أب اللسانيات في الجزائر- لتشومسكي، وتفوقه عليه من خلال كشفه لبعض الأفكار التي نهبها من العربية.

ثانيا: التحويل بإبدال (قلب) صامت إلى صامت:

يدخل هذا التحويل على الأفعال التي تبدأ بالحروف: "الواو، الياء الصاد، الدال والذال والزاي"، حينما يُصاغُ الافتعالُ منها.

1- (نموذج الافتعال الفعل وَصَلَ):

الفعلُ (**وَصَلَ**) مثال واوي، وزنه (**فَعَلَ**)، يتحول إلى (**اتَّصَلَ**) حينما يوزن على (**اِفْتَعَلَ**) فبنيته العميقة هي (**اِوْتَصَلَ**).

يفسر علماء اللغة المحدثون هذا التحويل بأنه ناتج عن تأثير الثاني (**التاء**) في الأول (**الواو**)، حيث فَنِيَ الأول في الثاني، وهو ما يسمى بالمماثلة الكلية الرجعية، فصوت "التاء" في (**اوْتَسَعَ**) "يتسم بملامح قوة، وذلك لأنه انفجاري علاوة على أنه تحصَّن بالحركة، في حين أن الواو لبسه السكون، والحرف الساكن حرف ميّت –كما وصفه القدماء- فعمد الناطق إلى مثل هذا الإبدال للتخلص من الضعف، وليكون نطقهم من وجه واحد"[17].

وهناك من فسر أن التخلص من الواو هنا ناتج أن العربية ترفض المقطع المتوسط المغلق(إوْ iw)؛ لأن نهايته تنتهي بواو مكسور ما قبلها، وهي نهاية هابطة، فتحذف الواو وتعوض بتاء مماثلة للصوت التالي لهذه الواو، وهو التاء هنا[18].

ولكن هذه النظرية غير مطّردة، لأن هناك حالات لا تعوض فيها هذه الواو بحرف مماثل للحركة التي تليها، ومن ذلك المصدرية، فمصدر الفعل (**أَوْصَلَ**) هو (**إيصَال**)، الذي أصله (**إِوْصَالَ**)، وفيه المقطع الذي ترفضه العربية (إوْ iw)، ونحن نلاحظ أن الواو في هذا المقطع لم تقلب صادا (**إِصَّال**)، بل قلبت (واوا).

لذلك يمكن أن نحافظ على هذا الاطراد، بأن نقول إن حرف الواو هذا المسبوق بكسرة، قلب ياءً؛ لأن ما قبله مكسور –كما تشير إليه القاعدة الصرفية القديمة- فأصبح الفعل (**إِيْتَصَلَ**)، ثم يقال على الياء هنا ما قيل على الواو من أنها حرفٌ (ساكن وميت)، لذا غلبتها التاء الانفجارية القوية.

2- (نموذج الافتعال من الفعل صَبَرَ):

إن البنية العميقة للفعل (**اِصْطَبَرَ**) هي (**اصْتَبَرَ**)، فهو على وزن (**اِفْتَعَلَ**)، حيث تحولت التاء، وهي تاء الافتعال، إلى طاء، والسبب هنا يعود إلى تأثير الصاد المفخمة على التاء المرققة، فأبدلت إلى نظيرها المُفَخَّم وهو (الطاء)[19]، أي تحقيقا للانسجام والتقارب بين الحرفين وتسهيل النطق وتقليل الجهد العضلي[20] تبعا لقانون المماثلة الصوتية.

ولقائل أن يسأل: لماذا قلبت التاء طاء ولم تقلب حرفا مفخما آخر؟ ثم لماذا لم تقلب صادا كأختها الأولى ثم تدغم فيها؟، ثم لماذا لم تفنَ كما فنيت الواو في (اتَّصَلَ)؟.

إن هذه التاء إنما قلبت طاءً، لأنها قريبة منها، ثم إنهما ينتميان إلى المخرج نفسه وهو (**النطع**) عند

الخليل بن أحمد، مع الدال كذلك، ولما كانت الدال غير مفخمة كالصاد، بقي لنا حرف واحد (**الطاء**)، وهو حرف مفخم مثل الصاد تماما، لذلك أُبْدِل إليه، ثم إن بعض القبائل العربية تنطق بالتاء طاءً، فيقولون في (**تَمْر**)← (**طَمْر**)، لأنهما من مخرج واحد. فحرف (t) في الفرنسية ينطق في شكل (ت) و(ط)، وكأنهما حرف واحد ينطق حينا مرققا، وينطق مفخما حينا آخر.

هذه إجابة السؤال الأول، أما السؤال الثاني؛ فلأنه ليس لدينا ما يسوغ لنا أن نحذف الصَّاد؛ لأنه ليس لدينا مقطع منبوذ، لأن هذا الحرف صحيح، بخلاف الأول المعتل (الواو في "وصل")، ثم إن هذا الحرف الأخير أَلِفَ الفناء والاستبدال.

3- (نموذج الافتعال من الفعل زَحَم):

إن البنية العميقة للفعل (**اِزْدَحَمَ**) هي (**اِزْتَحَم**)؛ لأنه على وزن (**اِفْتَعَلَ**)، استبدلت التاء بحرف الدَّال، فانتهى الفعل إلى الصورة التي نعرفه بها.

يفسر المحدثون سبب هذا الإبدال إلى كون حرف (الدال) الذي استبدل به التاء مجهورا، بخلاف الأول (المهموس) الذي لا يتحقق الانسجام والسهولة في النطق إذا سبقه حرف الزاي المجهور كذلك[21] حيث إن هناك صعوبةً في الانتقال الصوتي من الجهر إلى الهمس، لذلك أبدل حرف التاء بالدال، ليصبح الحرفان المتجاوران مهموسين، وإنما وقع الاختيار هذه المرة على حرف الدال، لا حرف الطاء الذي مخرجه النطع كذلك، لأن الثاني مفخم والأول مجهور، لا يتحقق به الغرض المتوخى من الإبدال.

4- (نموذج الافتعال من الفعل ذَخَرَ):

وكذلك الحال نفسه بالنسبة للفعل الذي يبدأ بالذال، كالفعل (**ذَخَرَ**) الذي يجيء (**اِفْتَعَلَ**) منه على (**اِذْدَخر**) بدلا من (اِذْتَخَرَ) فالذال مجهور والتاء مهموس، لذلك وجب إبدال المهموس بمجهور آخر من المخرج نفسه، فكان حرف (الدَّال)، ويمكن أن تبدل هذه الدال إلى ذَال فيصبح (**اِذّخر**)، كما حدث في (**اظطلم**) بقلبها إلى (**اِظّلم**)، وذلك نشدانا للخفة واليسر في النطق.

ويمكن تلخيص هذا النوع من التحويل في ما يلي:

صوت مفخم + صوت مرقق ← تحويل ← صوت مرقق + صوت مرقق

صوت مجهور + صوت مهموس ← تحويل ← صوت مجهور + صوت مجهور

ثالثا: التحويل بحذف حرف، واستبداله بحركة قصيرة أو همزة:

1- (نموذج الفعل خَشِيَ):

يكون مثل هذا النوع من التحويل في مثل الفعل (**خَشِيَ**) الذي تسند إليه تاء الفاعل، فيصبح (**خَشِيتُ**).

يرى المحدثون أن الياء في هذا الفعل ناتجة عن تتابع حركتين قصيرتين (كسرتين) تحولتا إلى كسرة طويلة، وبنيته العميقة هي (**خَشِيْتً**)، ولما كانت العربية تكره المقطع المزدوج (إيْ iy) وترفضه، عمدت إلى حذف الياء لوقوعها في نهاية مقطع هابط، وذلك للمخالفة بين عنصري المزدوج عن طريق التخلص من الياء[22]، وتعويضها بحركة من جنس الحركة التي تسبقها، وهي الكسرة.

لعل هذا التعليل قد زاد هذه الظاهرة تعقيدا، فالمتعلم يرى الياء ماثلة أمامه، ثم يُقال له إنها حذفت وعُوِّضَ عنها بكسرة، ثم التقت كسرتان آلتا فيما بعدُ إلى ياء. فهم في التمثيل –هنا- كمن يعمد إلى البئر التي تقدم منها عاطش، فيفرغون ماءها الطبيعي النقي بالكامل، ويسدون منبعها وهو ينتظر وحلقه يكاد يجف من الريق، ثم يعيدون ملأها بماء البحر الذي أعيدت تحليته بماكنات وآلات حديثة.

ولعل التوجيه والتعليل الصوتي لمثل هذه الحالة هو تخلص العربية من المقطع (شِيْ) (**chiy**)، بحذف السكون، ليستقر المقطع على صورة (شِي) (**chii**).

وربما حَمَلَهُم على هذا التعليل هو نشدانهم لظاهرة مطردة، وتعليل واحد لهذه الظاهرة؛ لأنهم حين وقفوا على فعل من نحو (**دُعِوْتُ**) حذفوا الواو، وقلبوها حركة من جنس الحركة التي قبلها وهي الكسرة هنا (**دُعِوْتُ**← **دُعِيتُ**)، ثم قلبوا الكسرتين كسرة طويلة (**دُعيتُ**).

إن هذا التفسير كذلك، فيه نوع من التعقيد، بالنسبة للمتعلمين الناشئين، لذا يمكن القول بأن الواو حذفت في المقطع (**عِوْ**)؛ لأن ما قبلها مكسور، والكسرة تناسبها الياء، فاستبدلت بها، كما سبق وأن علله القدماء.

2- (نموذج تعدية الفعل بَيَنَ بهمزة النقل):

وكذلك الفعل (**أَبَانَ**) صيغته (أَفْعَلَ) وبنيته العميقة (**أَبْيَنَ**)، فالناطق استثقل الفتحة على الياء، فحذفها (أي الياء) واستبدلها بفتحة قصيرة، وذلك تبعا لقانون المماثلة، ثم أعاد توزيع الأصوات المتبقية في مقاطع

جديدة، وبالتالي تتوالى فتحتان قصيرتان، فتتشكل حركة طويلة وهي الألف. وتسمى هذه المماثلة بالمماثلة الرجعية، أي إن الصوت اللاحق أثر في الصوت السابق، فأدى إلى مماثلته.

ولكن ما نَسِيَهُ هؤلاء المحدثون أن الإعلال بالنقل يبقى قائما على كل حال في مثل هذه الحالة؛ لأنه لا مناص من إعادة توزيع الحركات كما قالوا، وهذا شبيه بالنقل، بل هو نَفسُه، وذلك بعد أن حذفت الياء ثم قلبت فتحة، وتحولت الفتحتين ألفا، حيث أخذت الباء في (**أَبْانَ**) حركة الفتحة الطويلة التي هي في أصلها فتحتين قصيرتين، فأصبح الفعل (**أبَانَ**).

لعل هذا التفسير اللغوي الحديث زاد من تعقيد تفسير هذه الظاهرة الصرفية الصوتية، ولو قيل أن أصل الفعل هو (**أَبْيَنَ**)، تحركت الياء بالفتح فنقلت الفتحة من حرف العلة إلى الساكن الصحيح قبلَها (الباء) وهذا إعلال بالنقل. فأصبح الفعل (**أَبَيْنَ**)، ثم تحولت الياء إلى ألف وهو الحرف الذي يناسب الفتحة التي تلحق الحرف الذي قبلها (إعلال بالقلب)، فآل الفعل إلى صورته النهائية (**أَبَانَ**).

3- (نموذج المضارع المبنى للمجهول من الفِعْلُ قَوَمَ):

إنَّ البنية العميقة للفعل (**أُقِيمَ**) هي (**أُقْوِمَ**) على وزن (**أُفْعِلَ**)، حيث حذفت الواو وعوضت بكسرة قصيرة تبعا لقانون المماثلة، ثم أعيد توزيع الأصوات المتبقية في مقاطع جديدة، وبالتالي تتوالى كسرتان (حركتان قصيرتان) فتعوضان بكسرة طويلة (ياء) أي وفق ما يلي:

أُقْوِمَ ← **أقْـِيم** ← **أُقْيَمَ** ← **أُقِيمَ**

وهذا ما يصطلح عليه المحدثون بالمماثلة الرجعية.

إن القول بنقل حركة الواو منها إلى الصحيح قبلها ثم قلب هذه الواو ياءً لمناسبة حركة ذلك الحرف (أي الإعلال بالنقل ثم القلب) يبدو أبسط، وأقل تعقيدا من هذا المذهب الذي يبقى قاصرا على كل حال، وغير دقيق؛ لأنهم حينما يحذفون الواو ويعوضونها بالكسرة، ثم يستبدلون الكسرتين بياء طويلة، يقفون أمام حقيقة سكون الحرف الذي قبلها، فيتمحلون التعليل ويقولون إن ما جرى لا يعدو أن يكون إعادة توزيع الحركات.

إن الكسرة الطويلة تستلزم أن تكون قبلها كسرة قصيرة، وإلا لما عدت مدا، ولتحولت إلى لين أو غيره، كما تم قلب الواو بعد نقل حركتها (**أُقِوْمَ**)، وذلك من أجل التخلص من المقطع (**kiw**) الذي ترفضه العربية مطلقا، فكان السبيل إلى ذلك بإطالة حركة الكسرة من خلال قلب الواو ألفا؛ لأن الواو لا تناسبها الكسرة قبلها، بل الضمة، خلافا للياء.

4- (نموذج الماضي المعدى بهمزة النقل من الفعل أَمِنَ):

أما الفعل (**آمَنَ**) فبنيته العميقة هي (**أَأْمَنَ**) على وزن (**أَفْعَلَ**) حيث توالت فيه همزتان، فحذفت الثانية لثقل توالي الهمزتين[23]، وعوض عنها بحركة من جنس الحركة التي قبلها (أي فتحة أضيفت إلى الفتحة بعد الهمزة الأولى، فأصبحت فتحة طويلة)، وهذا ما ذهب إليه القدماء حيث عمد المحدثون إلى فحص ذلك التعليل، فأعادوا هدمه، ثم بنوه من جديد بالمواد التي تم هدمه بها من قبل؛ وذلك لأن القدماء –في هذه الحالة- يعللون هذا التحويل -هنا- بالتقاء الهمزتين، وهذا مما لا تستحسنه العرب، فعمدوا إلى قلب الهمزة الثانية(ألفا).

إن ما حمل القدماء على هذا التوجيه هو حركة الهمزة الأولى –بطبيعة الحال- وهي الفتحة، وإلا لِمَ لم يقلبوا الهمزة الثانية واوا أو ياء فيصبح الفعل على ذلك في صورة (**أَوْمَنَ**) أو (**أَيْمَنَ**)، لذا، نقول إن ما قام به المحدثون لا يعدو أن يكون تحصيل حاصل لا غيرُ.

5- (نَمُوذَجُ الماضي المسند إلى واو الجماعة من الفِعْل لَقِيَ):

البنية العميقة لهذا الفعل هي (لَقِيُوا) لأنه على وزن (فَعِلُوا).

وما حدث هنا أن الياء وقعت بين كسرة وضمة، فقلبت الكسرة ضمة لمماثلة الضمة بعد الياء، ولم تقلب الضمة كسرة؛ لأن الضمة هنا علامة للجمع[24]، فأصبح الفعل (**لَقُيُوا**) ثم سقطت الياء لضعفها، فصار الفعل (**لَقُوا**)[25].

وما غفل عنه هؤلاء أن سقوط الياء هنا لا يترتب عنه سقوط الضمة التي عليها، كما في (**أَعَانَ**) التي أصلها (**أَعْيَنَ**)، لذلك كان عليهم ألا يتجاوزوا هذه المرحلة، لأنه حين تحذف الواو تبقى حركتها (الضمة) فيؤول الفعل إلى (**لقُـوا**)، ثم تتحول الضمتان القصيرتان ضمة طويلة أي واوا، فيصبح الفعل (**لَقُووا**)، فيلتقي ساكنان مثلان، الأول الواو الناتجة عن إطالة الضمتين، والثانية واو الجماعة، فتحذف الأولى لوجود الضمة قبلها دليلا عليها، ولم تحذف الواو الثانية لأنها للجمع، وهذا يشبه ما ذهب إليه القدماء في تفسير إعلال الواو في (**يَكْتُبُنَّ**).

6- (نموذج اسم الفاعل من الأجوف الواوي قَوَلَ):

إن الفعل (**قَالَ**) أجوف واوي، يصاغ منه اسم الفاعل على (**قَائِلٌ**) فالهمزة فيه منقلبة عن الواو؛ لأن البنية العميقة لهذا الاسم هي (**قَاوِلٌ**).

يقول القدماء إن سبب إعلال الواو همزة هنا هو أنها جاءت عينا لفعل أجوف أعلت في ماضيه، وهذا كلام صحيح.

ويمكن أن ندعِّم هذا القول بالاستناد إلى النظام المقطعي العربي، وذلك بتقطيع الكلمة صوتيا.

إن الواو في الفعل (**قَوَلَ**) حرف علة، وليست صامتا، فهي حركة على كل حال؛ لأن الفعل مثال أصلا، ولذلك يكون التقطيع الصوتي كما يلي:

قا (ص ح ح) ← (مقطع متوسط مفتوح) وِل (ح ح ص)←(؟؟) على اعتبار أن الواو حركة.

إن الفاحص لهذا النظام المقطعي يلاحظ عدم استقامته، فهو نظام غير سوي، بل فيه إخلال بقواعد الدراسة الصوتية المقطعية؛ لأن المقطع لا يبدأ بحركة أبدا، ثم إنه لا يبدأ بحركة طويلة، بل نجده يبدأ بصامت في جميع المقاطع العربية، وهذا ما حدث في المقطع الثاني (وِلْ)، الذي إذا نظرنا إلى الواو فيه على اعتبار أنها صامت يستقيم النظام، أما إذا دققنا فيها، واستنتجنا بأن أصلية في الاعتلال، وفعلها معتل أجوف، فإننا نلاحظ عدم صحة ذلك النظام واضطرابَه.

لذلك فقد تم تصحيح هذا المقطع بقلب الواو همزة وذلك ليتحول المقطع إلى صورة جديدة وهي (ئِلْ) فيصير النظام المقطعي سليما، لأن الهمزة صامت. والمقطع متوسط مغلق (ص ح ص).

خلاصة الدراسة:

يمكن الخروج بمجموعة من النتائج التي وصلت إليها هذه الدراسة.

أ- الغرض الأول الذي من أجله يحدث التحويل هو تحقيق الانسجام الصوتي وتخفيف الجهد العضلي عند النطق.

ب- التحويل يهدف إلى تقليص عدد المقاطع في الكلمة الواحدة، وهذا للحد من توالي الذي يخلق نوعا من الثقل الملاحظ، كما في الفعلين (**ذَوَدَ**) وَ(**قَوَلَ**) اللذين يتحولان فيما بعد إلى (**ذَادَ**) و(**قَالَ**) بإطالة المقطع الأول (حذفُ الوَاو)، فبعد أن كانت الكلمتان مكونتين من ثلاثة مقاطع قصيرة أصبحت مؤتلفة من مقطعين أحدهما متوسط مفتوح (**ذَا، قَا**) والآخر قصير (**دَ، لَ**)، وهذا من أساليب التخلص من الثقل.

ج- ويهدف التحويل كذلك إلى التخلص من المقاطع التي تخلق صعوبة؛ إذا ائتلفت بعضها ببعض، خاصة المقطع المتوسط المغلق الذي يستبدل بمقطع متوسط مفتوح، كما في (**مِوْزَان**) تصبح (**مِيزَان**)؛ لأن الكلمة الثانية أخف وأسهل عند النطق.

د- التحويل يهدف إلى التقريب بين صفات الحروف، وهذا أيضا من أساليب التخفيف والتسهيل النطقي الصوتي، وذلك كما في (**اصْتَبَرَ**)، فالصاد مجهور، والتاء مهموس، لذلك وجب استبدال أحد الحرفين ليُلائم ويشابه أخاه، فلم تستبدل الصاد بحرف آخر؛ لأنها أصلية في الكلمة، فوقع الأمر على التاء لأنها زائدة هنا، فنُظِر إلى الحروف التي محلها المخرج نفسه، وهي الدال والطاء وهي التي تخرج مع التاء من النطع، فوجدوا أن الدال لا يفي بالغرض المتوخى؛ لأنه حرف مهموس، فاختاروا حرف الطاء؛ لأنه مجهور يناسب أخاه، فأصبح الفعل (اِصْطَبَرَ).

هـ- لعل للهجات العرب دوراً في الإبدال القياسي، كما في المثال الذي تقدم، فبعض القبائل تقلب الحروف المتقاربة في المخرج كنطقهم لحرف التاء طاء مثلا، فيقولون في (تمر← طمر).

و- يمكن التخلص من بعض هذه التعقيدات، وذلك بمحاولة إضافة أبواب أخرى للأفعال العربية، خاصة المعتلة، كقولنا مثلا إن الفعل (قال) يمثل بابا، والفعل (مال) باب آخر أيضا، فتصبح الأفعال:(جال، زال، عاد، جاد، ساد) من باب (قال) لأن مضارعها بالواو، وليست من باب (نَصَرَ)، وذلك هروبا من التعليل الذي قد يصعّب من علم الصرف، ومثلها كذلك الأفعال (بات، عاش، جاش، بان، فاض) من باب (مال)، لأن مضارعها بالياء.

وتخلص هذه الدراسة إلى أن بعض حالات التحليل الصوتي للتحولات الصرفية عند المحدثين مبني على آراء القدماء وجهودهم اللغوية العظيمة، إذ إنه في كثير من الحالات التي تم طرحها هنا يتشابه التعليل التقليدي القديم مع تعليل التيار الحديث.

إلا أن هؤلاء قد أسهموا إسهاما عظيما في تطوير المناهج التي تحلل بها الظاهرة الصرفية. ومحصول القول إنه يجب الاعتراف بجهود القدماء والمحدثين معا، واستنتاج قواعد مشتركة هي نتيجة الجمع بين النهجين، وذلك للاستفادة من جهود علماء اللغة القدماء والمحدثين معا.

الهوامش :

1- لسان العرب، ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري)، دار صادر، بيروت، لبنان ، ط01 ، 1997م ، 190/2.
مادة (ح و ل).
2- الكهف/108.
3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها
4- الإسراء/77.
5- ينظر: الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، زكرياء ميشال، المؤسسة الجامعية، بيروت لبنان، ط02، 1983م، ص: 260. وينظر: تشومسكي ومدرسته اللغوية: خليل أحمد عمايرة، مجلة الفيصل، الرياض، المملكة العربية السعودية، ع96، السنة الثامنة، 1985م، ص: 108-109.
6- ينظر: اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د.ط، 2005م، ص: 205، وينظر كذلك: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، زكرياء ميشال المؤسسة الجامعية، بيروت: لبنان، ط02، 1985م، ص: 101 وما بعدها.
7- ينظر: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، بيروت: لبنان، ط01، 2004م، ص: 52 وما بعدها.
8- أي عند تشومسكي.
9- ينظر: المرجع السابق، ص: 52 وما بعدها.
10- أي البنية السطحية والبنية العميقة.
11- ينظر: من الأنماط التحويلية في النحو العربي، محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة مصر، (د.ط)، 2006، ص: 14 وما بعدها.
12- ينظر: الاتجاهات النحوية لدى القدماء، دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة، حليمة أحمد عمايرة، دار وائل، عمان: الأردن، ط: 01، 2006،
ص: 230.
13- ينظر: المرجع نفسه، ص: 223.
14- المرجع نفسه، ص: 220.
15- ينظر: صيغ الأمر في العربية، بحث في ضوء نظرية القواعد التوليدية والتحويلية، طه الجندي، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد 24، 1999م، ص: 122.
16- اطلع عليها لما كان طالبا في المرحلة الجامعية مع أستاذه "فرانزروزنتال" الذي كان يدرس في جامعة بنسلفانيا، وهو أحد المستشرقين الذين كانوا يعرفون العربية.
ينظر: تشومسكي ومدرسته اللغوية، خليل أحمد عمايرة، مجلة الفيصل، الرياض، المملكة العربية السعودية، العدد 96، السنة الثامنة، 1985م، ص: 108 وما بعدها.
17- القواعد الصرف صوتية بين القدماء والمحدثين، سعيد محمد شواهنة، مؤسسة الوراق، عمان: الأردن، ط01، 2007م، ص:77.
18- ينظر: "التحولات الصوتية المقطعية للمزدوج الحركي"، فيصل إبراهيم صفا، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية: "التواصل"، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، العدد 16، 2006، ص: 18 وما بعدها.
19- ينظر: الدراسات اللغوية الحديثة وجذورها عند العرب، صلاح الدين صالح حسنين، الرياض، المملكة العربية السعودية، العدد 59، السنة الخامسة، 1982م، ص: 60.
20- ينظر: تصنيف وتحليل لصور الإعلال والإبدال الصرفي في المشتقات الأحد عشر والمصادر وتيسير تعليم المبرمج منها لتلامذة المرحلة الثانوية من خلال الربع الثاني من القرآن الكريم والمنهاج الوزاري، دراسة وصفية تحليلية، رابح بومعزة، رسالة ماجستير (مخطوط)، معهد اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر، 1998، 1999، ص: 218.
21- ينظر: علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، محمود فهمي حجازي، دار غريب، القاهرة: مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص: 39.
22- ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي حسن الشايب، ص: 410.
23- ينظر: الكتاب، سيبويه، 246/4.
24- ينظر: الحركات في اللغة العربية، دراسة في التشكيل الصوتي، زيد خليل القرالة، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط1، 2004م، ص: 130.
25- ينظر: المرجع نفسه، ص: 130.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 79 - 89
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

تسويق الخدمات بين خصوصية الخدمة وتجنب تدعيم الجوانب المادية والمرئية

ليلى مطالي

كلية العلوم الاقتصادية. التسيير والعلوم التجاريةجامعة بومرداس

مقدمة:

توسع سوق الخدمات مع ما يوفره من فرص عمل معتبرة من جهة، والتطور السريع للمنافسة من جهة أخرى يفرض على المؤسسة تبني توجه تسويقي لتتمكن من البقاء والاستمرار، باعتبار أن الهدف الرئيسي من نشاطها هو الزبون، والتسويق هو الوسيلة التي تمكن من تحديد حاجات ورغبات هذا الزبون وتقديم الخدمات الكفيلة بتلبيتها.

ورغم تأخر الاهتمام بتسويق الخدمات مقارنة بتسويق المنتجات المادية، إلا أن الوعي بأهميته جعل مجال تطبيقه في توسع مستمر؛ فهو يشمل حاليا مؤسسات النقل البري والجوي، الفنادق، البنوك والتأمينات وغيرها.

وإن كان مصطلح « المنتوج» في التسويق ينطبق على حد سواء على السلع المادية والخدمات، وبالتالي فالمفاهيم والتقنيات التسويقية الأساسية تبقى صالحة مهما اختلفت طبيعة المنتجات، إلا أن الخدمات تتميز بمجموعة من الخصائص التي تؤثر بشكل أو بآخر على السياسات التسويقية للمؤسسة، الأمر الذي يتطلب البحث عن وسائل تمكن المؤسسة من تمييزها عن منتجات المنافسين. وهذا يؤدي بنا إلى طرح التساؤل التالي: إن كان الزبون يتوفر على معايير لقياس وتقييم جودة المنتجات المادية، فما هي المعايير التي يعتمد عليها في تقييم الخدمة؟ بصيغة أخرى ما هي البدائل التي يقدمها تسويق الخدمات لتعويض عدم ملموسية الخدمة ومساعدة مؤسسات الخدمات على ترويج خدماتها؟ وبأخذ المؤسسات الجزائرية كعينة للدراسة، فما مدى استيعابها لأسس ومفاهيم التسويق الخدمي؟

ومحاولة للإجابة عن هذه التساؤلات سنتناول في موضوعنا هذا النقاط التالية:

- ✓ تسويق الخدمات: أهميته ومعوقات تطبيقه؛
- ✓ خصائص الخدمات: حيث سيتم التركيز على المشاكل التي تنشأ عن هذه الخصائص مع تقديم البدائل التسويقية المتاحة أمام المؤسسة لتسويق خدماتها؛
- ✓ تصور جديد لتسويق الخدمات: أين يتم التعرف على العناصر الداعمة لتسويق الخدمات وصولا إلى مفهومي التسويق الداخلي والتسويق التفاعلي.
- ✓ مع تدعيم الدراسة ببعض الأمثلة والنماذج عن مؤسسات الخدمات الجزائرية والعربية بشكل عام، مع التركيز على قطاع البريد في الجزائر كنموذج لهذه المؤسّسات، حيث تمّ إجراء بحث ميداني على عدد من وكالات البريد في الجزائر للوقوف على مدى تطبيقها لأسس ومفاهيم التسويق الخدمي،

1. تسويق الخدمات: أهميته ومعوقات تطبيقه:

1.1. أهمية تسويق الخدمات:

تقليديا لم تكن مؤسسات الخدمات موجهة نحو التسويق، وإنما كانت تولي اهتماما أكبر نحو الإنتاج، وبهذا فقد تجاهلت ولسنوات طويلة إمكانية تسويق خدماتها. لكن بالنظر لطبيعة الخدمة التي يستلزم تقديمها الاحتكاك المباشر والتفاعل بين مقدم الخدمة الزبون، فإن هذا في حد ذاته يستوجب أن تكون المؤسسات الخدمية أول من يتفهم ويطبق المفاهيم التسويقية الحديثة. كما أصبح على المؤسسة الخدمية تبني توجه تسويقي إذا أرادت البقاء لسببين رئيسيين[1]:

- ➢ نمو سوق الخدمات مع ما يوفره من فرص أعمال هامة[2]؛
- ➢ اشتداد المنافسة في قطاع الخدمات مما يفرض على المؤسسة الاعتماد على التسويق حتى تكون في مستوى هذه المنافسة.

لكن رغم ضرورة تبني مؤسسات الخدمات للمفاهيم

والتقنيات التسويقية للأسباب التي سبق ذكرها، إلا أن هذا يبقى بعيدا عن الواقع، حيث أظهرت العديد من الدراسات أن هذه المؤسسات أقل توجها بالتسويق من المنظمات الإنتاجية[3].

2.1. معوقات تطبيق تسويق الخدمات:

هناك جملة من الأسباب كانت وراء تأخر تبني المؤسسات الخدمية للتقنيات التسويقية لتسويق خدماتها من أهمها[4]:

- عدم الاتفاق على تعريف موحد للخدمة وحدودها:

من المسلم به أن نقطة البدء في دراسة أي نشاط تتطلب وجود اتفاق نسبي على تعريف هذا النشاط؛ حيث أن تعريف النشاط بشكل سليم يمكن من وضع الأسس الواجب اتباعها عند ممارسته. لكن باستعراض الكتابات التي تعرضت لتعريف الخدمات، نجد أنها تركزت على ثلاثة مداخل أساسية، وذلك على النحو التالي:

- **مدخل التعريف التوضيحي:** وهذا التعريف يوضح طبيعة نشاط الخدمات دون إبراز الخصائص المكونة لها والتي تميزها عن باقي المعروضات، كتعريف الجمعية الأمريكية للتسويق الخدمة على أنها «الأنشطة والمنافع والإشباع التي تقدم للبيع أو تكون مصاحبة لبيع سلع مادية »5. ويلاحظ أن هذا التعريف يمكن أن يطبق على تسويق الأفكار والمكان والأنشطة وغيرها دون أن يكون منصبا على تعريف الخدمة ذاتها.

- **مدخل التعريف بالخصائص:** ويرتكز هذا المدخل على خصائص الخدمة للتعرف على طبيعة الخدمة واختلافها عن السلع المادية. ونذكر في هذا الصدد تعريف «Kotler» للخدمة على أنها «أي فعل أو أداء يقدمه طرف إلى طرف آخر على أن يكون بالضرورة غير ملموس ولا ينتج عنه انتقال في ملكية شيء ما، كما يمكن أن يكون مرتبطا باستخدام سلعة مادية6». وإن كان هذا التعريف يتضمن خاصيتين أساسيتين للخدمة وهما عدم اللمس وعدم الملكية، فإن للخدمات العديد من الخصائص الأخرى التي تميزها عن السلع المادية.

- **مدخل التعريف بالقائمة:** بناء على هذا المدخل يتم وضع قائمة بالأنشطة التي تمثل خدمات. (مثلا: خدمات النقل؛ خدمات علاجية؛ خدمات مالية؛ خدمات استشارية؛ إصلاح السيارات وغيرها.)

لكن ما يعيب هذا المدخل، هو أنه وبمرور الزمن قد تخرج بعض الأنشطة عن نطاق الخدمات، كما قد تتولد أنشطة جديدة ينبغي إضافتها إلى تلك القائمة، ومن هنا فإن هذه القائمة قد لا تكون دائمة في جميع الأحوال حيث تعبر عن الأنشطة الخدمية بصفة دقيقة وشاملة.

- الخلط بين المفاهيم التسويقية فيما يتعلق بقطاع الخدمات:

يلاحظ في بعض الكتابات التسويقية أن هناك اختلافات في النظر إلى مفهوم الخدمة في حد ذاته. فالبعض ينظر إلى أنشطة الخدمات «كمتغير تسويقي» بينما ينظر إليها البعض الآخر «كهدف تسويقي». فعلى سبيل المثال قد ينظر إلى خدمات ما بعد البيع كنوع من الأنشطة الخدمية كما قد يعتبرها البعض متغيرا من متغيرات المزيج التسويقي، والذي يستخدم لتدعيم المركز التنافسي للسلعة في السوق؛ ومن جهة أخرى فإن نشاط المطاعم يعتبره البعض من الأنشطة الخدمية، بينما يعتبره البعض الآخر جزءا من قنوات توزيع المواد الغذائية.

وقدم « Ph. Kotler»[7] تصنيفا للسلع والخدمات، بحيث أشار إلى أن المنتج المراد تسويقه غالبا ما يكون بين طرفين

متناقضين أحدهما يمثل السلع المادية الخالصة، والتي تقدم دون أن تصاحبها أي خدمات، والطرف الثاني يمثل الخدمات الخالصة، وتقع معظم السلع والخدمات في نقاط متفرقة من هذا المجال[8].

مما سبق يلاحظ أنه على الرغم من تنوع الأسباب الكامنة وراء تأخر تبني المؤسسات للتسويق الخدمي، إلا أنها تشترك في تركيزها على الطبيعة غير الملموسة للخدمة. وفضلا عن عدم ملموسية الخدمات فهي تتميز بخصائص أخرى نستعرضها فيما يلي.

مرحلة قبل الشّراء

2. خصائص الخدمات:

تتميز الخدمات عن السلع المادية بخصائص، غالبا ما يؤدي وجودها إلى ظهور مشكلات وتطبيقات تسويقية قد تختلف عن نظيرتها في حالة السلع المادية. ولهذا من أجل تقديم إجابة وافية عن مدى اختلاف تسويق الخدمات عن تسويق السلع المادية، يجب التعرض أولا للخصائص التي تميز الخدمات والمشاكل التي تنشأ عن هذه الخصائص، لمعرفة إلى أي مدى يمكن اتباع نفس الأسس والمفاهيم المطبقة في مجال السلع المادية ونقلها وتطبيقها في مجال الخدمات[9]. وتتميز الخدمة أساسا بأنها غير ملموسة، يتلازم إنتاجها مع استهلاكها، متباينة ولا يمكن تخزينها[10].

- **الخدمة غير ملموسة:**

يعتبر عدم قابلية الخدمة للمس فرقا جوهريا بين السلع والخدمات؛ فلا يمكن رؤية، تذوق، لمس أو سماع الخدمة قبل شرائها. ولأن المستهلك يجد صعوبة في تقييم جودة الخدمة قبل استهلاكها، فإنه يبحث عن معايير تقييم تمكنه من اتخاذ قرار الشراء، ومن هنا يكون على مؤسسات الخدمات على تطوير الجانب المادي أو الملموس للخدمة من خلال إيجاد مرحلة بعد الشّراء وإبراز مؤشرات ملموسة قبل وأثناء وبعد مرحلة الشّراء كما هو موضح في الشكل:

إبراز المؤشرات الملموسة في عرض الخدمة

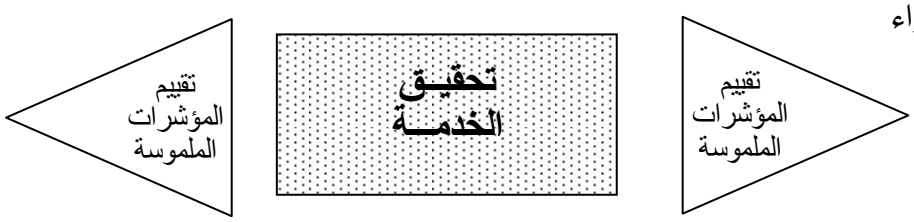

المصدر: براينيس، 2007، ص152.

ويعتبر التصنيف السّياحي « بالنّجوم » أسلوبا جيّدا للتعبير بنوع من الملموسيّة على نوعيّة صورة الخدمات وإعطاء صورة على شكل الوكالات[11]. وإن كان عدم الملموسية يستعمل للتمييز بين السلع والخدمات، فقد تم استعماله كمعيار لتصنيف الخدمات، كما هو مبين في الجدول التالي:

الجدول:1. تصنيف درجة الملموسية

درجة الملموسية	خدمات المنتج	خدمات المستهلك
• الخدمات التي تتصف بعدم الملموسية بشكل كامل وأساسي.	الأمن والحماية، أنظمة الاتصالات، التمويل،...	التعليم، وكالات التوظيف، المزادات العلنية،
• الخدمات التي تعطي قيمة مضافة للسلع الملموسة.	التأمين، عقود الصيانة، الاستشارات الهندسية، تصميم العبوات والأغلفة	خدمات التنظيف، التصليح، التأمين،...
• الخدمات التي تتوفر منتجات مادية ملموسة.	متاجر الجملة، وكلاء النقل، المستودعات، البنوك،...	متاجر التجزئة، البيع الآلي، الخدمات البريدية، العقارات،..

المصدر: بتصرف عن: الضمور، 2004، ص 25.

ومن جانب آخر، يكون على المؤسسة الخدمية البحث عن وسائل لتمييز خدماتها عن خدمات المنافسين من خلال تطوير المحيط الذي تؤدى فيه الخدمة وتطوير خدماتها بما يتلاءم مع الحاجات المتطورة للزبائن، لما له من تأثير كبير على بقاء الشركة واستمرارها في السوق[12]، مع التركيز على الاتصال التسويقي لإيصال الصورة التي تطمح إليها المؤسسة مع العمل على ترسيخها في أذهان الزبائن.

- **<u>تلازم إنتاج الخدمة مع استهلاكها</u>:**

بالإضافة إلى عدم قابلية الخدمة للمس، فإنها تتميز عن السلعة المادية بتلازم عملية إنتاجها مع استهلاكها. ففي كثير من الأحيان لا يمكن فصل الخدمة عن مقدمها ومستهلكها نتيجة للتزامن اللحظي لعملية تقديم الخدمة واستهلاكها. وعلى عكس السلع التي تنتج، تباع ثم تستهلك فإن الخدمات من جهتها تباع أولا، ثم تنتج وتستهلك في نفس الوقت مما يبرز مشاركة المستهلك في إنتاج الخدمة التي يشتريها. وبهذا يكون على المؤسسة العمل على تبسيط عرض الخدمة قدر الإمكان لمساعدة الزبون على تحديد حاجاته بشكل صحيح، فرضا المستهلك مرتبط بقدرته على التعبير عن احتياجاته، وكفاءة البائع في فهمها، وتكييف الخدمة مع هذه الحاجات.

وفي هذا الإطار، تبنى بنك الفلاحة والتنمية الريفية الجزائري فكرة بنك الجلوس[13] التي تعمل على تقريب العميل من البنك بل وعلى مشاركته في إنتاج الخدمة أحيانا، مع إلغاء كل الحواجز التي كانت تحول دون تقديم الخدمة ضمن سياق مبسط يريح العميل[14].

- **<u>عدم تماثل الخدمات:</u>**

نادرا ما تكون الخدمات متماثلة ويرجع هذا إلى أهمية العنصر البشري في إنتاجها. فالخدمة تختلف

باختلاف المنتج من جهة، وحاجات وانتظارات المستهلك المتغيرة من جهة أخرى. وهذا الاختلاف والتنوع يفسر صعوبة تنميط الخدمات، وهو ما يشكل تحديا كبيرا لمقدمي الخدمات نظرا لصعوبة استخدام معايير الرقابة على الجودة المطبقة على السلع المادية، وبهذا يكون على المؤسسة الخدمية تحسين خدماتها باستمرار؛ وذلك عن طريق الاستثمار في تكوين الموظفين مع استخدام نظم الحوافز التي تركز على أهمية الجودة ثم قياس رضا الزبائن عن طريق الشكاوي التي يتقدمون بها، وكذا إجراء دراسات مقارنة مع المنافسين.

ويلخص الجدول التالي أهم المعايير التي تستخدمها المؤسسة في تقييم جودة الخدمة المقدمة للزبائن

.الجدول:2.معايير تقييم جودة الخدمات

المعيـار	مضمـونه
الإلتزام والمصداقية	درجة التزام مقدم الخدمة بتعهداته نحو الزبون
الاهتمام	درجة الاهتمام التي يبديها مقدم الخدمة نحو الزبون
المرونة	درجة المرونة التي يتمتع بها مقدم الخدمة
التكامل	مدى تكامل الخدمة المقدمة للزبون
الوصول والمسؤولية	درجة استعداد العاملين لخدمة الزبائن
الاكتمال	مدى امتلاك العاملين للمهارات اللازمة لأداء الخدمة
التعامل	قدرة العاملين على التعامل السلس مع الزبائن
الكياسة	درجة احترام العاملين للزبائن
المظاهر المادية	درجة توافر المظاهر المادية التي تعمق من الشعور الحسي بالخدمة لدى الزبون

المصدر: بتصرف عن: طارق طه، 2007، ص318.

وإن كانت هذه المعايير ضرورية لكل مؤسسة تسعى لتحسين جودة خدماتها، فقد توصلت العديد من الدراسات الخاصة بعدد من الخدمات في بعض دول الوطن العربي إلى انخفاض مستوى جودة الخدمات المقدمة للعملاء، والتي ترجع إلى عدد من الأسباب من أهمها[15]

- مساهمة الأنشطة الترويجية في تكوين توقعات مبالغ فيها من قبل العملاء، الأمر الذي يترتب عليه اتساع الفجوة بين هذه التوقعات والأداء الفعلي للخدمات وهو ما يمس بمعيار: الالتزام والمصداقية.

- عدم اهتمام إدارات هذه المنظمات بجودة الخدمات التي تقدمها بل وقد تكون بعض هذه الإدارات غير مدركة لمفهوم جودة الخدمة وأثرها على الأداء التسويقي للمنظمات التي تقدمها.

إلى جانب النظر إلى تكلفة الارتقاء بمستوى جودة الخدمة كبند تكلفة، وإغفال تطبيق مبدأ التكلفة والعائد في هذا المجال[16]؛ وهي كلها عوامل ساهمت في تخلف النشاط التسويقي في هذه الدول

فناء الخدمة أو عدم إمكانية تخزينها:

إن الطابع غير الملموس لعدد كبير من الخدمات يجعلها تنتج وتستهلك في نفس الوقت، وبالتالي عدم إمكانية تخزينها. ولأنه لا يمكن تخزين الخدمة، يجب التأكد من إمكانية بيعها مسبقا. فالخدمة التي لا تشترى في الوقت الذي تعرض فيه هي خدمة ضائعة بالنسبة للمؤسسة. فنجد شركات الطيران تفرض أحيانا عقوبات في حالة إلغاء بعض التذاكر، لأنها تدرك أن الأماكن الشاغرة في رحلة ما لا يمكن تعويضها في رحلة أخرى. وعدم إمكانية تخزين الخدمات لاستعمالها في وقت لاحق يعرف أيضا بقصر حياة الخدمة، عدا بعض الاستثناءات كالتأمين مثلا.

3. تسويق الخدمات؛ مقوماته وفلسفته:

تعرض النموذج التقليدي للمزيج التسويقي للعديد من الانتقادات، من أهمها كون عناصر هذا المزيج قد اكتسبت في الماضي قبولا نتيجة للتناغم اللفظي « على اعتبار أنها أربعة عناصر تبدأ كلها بالحرف P »، أكثر من كونها انعكاسا للاحتياجات المعاصرة لتسويق الخدمات[17]. ولتلافي أوجه القصور المشار إليها، قام عدد من الباحثين بمحاولات لتطوير نماذج خاصة بالخدمات ترتكز في مفهومها على تمديد هذا المزيج، وذلك من خلال ضم عناصر جديدة إليه ليصبح أكثر صلاحية لتسويق الخدمة.

وعلى هذا الأساس؛ لابد من استعراض مختلف العناصر التي تعتبر كدعائم لتقديم الخدمات، العلاقات التي تربطها، للوقوف على مدى تأثيرها على جودة الخدمة المقدمة، وبالتالي رضا الزبون الذي يعتبر الغرض من وجودها.

1.3. <u>مقومات تسويق الخدمات:</u>

باعتبار مؤسسات الخدمات كنظام، عرف «Eiglier» و«Langeard» خمسة عناصر تؤثر على جودة الخدمات، والتي على المؤسسة فهمها والتحكم فيها لضمان أداء خدماتها بالشكل المطلوب. وتتمثل هذه العناصر في: الزبائن، الجانب الفيزيائي، موظفو الاتصال، التنظيم الداخلي وعرض الخدمات. ويمتاز هذا التصور بتمييزه بين المؤسسة المرئية بالنسبة للزبون والجانب المخفي لها[18].

▪ الزبون: تشير جودة الخدمة في مفهومها الحديث إلى«مدى قدرة الخدمة على مقابلة توقعات العميل وإشباع احتياجاته»[19]. وانطلاقا من هذا التعريف يظهر جليا أن حضور العميل أو الزبون ضروري باعتباره الهدف من وجودها وبالتالي لا وجود للخدمة بدونه. كما لا يجب إغفال أهمية العلاقات التي تنشأ بين الزبائن أثناء تأدية الخدمة باعتبار أن المؤسسة عادة ما تقدم خدماتها إلى عدد من الزبائن في وقت واحد مما يؤدي إلى احتكاكهم ببعضهم، وبالتالي تنشأ بينهم علاقات قد يكون لها تأثير مباشر على جودة الخدمة المقدمة من جهة والرضا الذي سيشعرون به من جهة أخرى20.

وإن كان تقييم الزبون للخدمة غالبا ما يعتمد على آراء الزبائن الآخرين الذين سبق لهم أن اشتروها، فإنه في حال أسواق الأعمال الإلكترونية فإن الأمر يزداد صعوبة بالنسبة للمؤسسة، خاصة مع التزايد اللامسبوق في المواقع والمنتديات التي تسمح للزبائن بإبداء آرائهم حول الخدمات المقدمة، حيث تعتبر هذه التقنية سلاحا ذا حدين على المؤسسة العمل لاستثماره لصالحها[21].

▪ **<u>الجانب الفيزيائي</u>**: يقصد به كل الوسائل المادية الضرورية لإنتاج الخدمة، والتي يستعملها الزبائن أو الموظفون الذين يكونون في اتصال معهم، وغالبا ما يستعمل كلاهما معا.

ويمكن تقسيم هذا الجانب الفيزيائي إلى قسمين أساسيين:

- الوسائل الضرورية للخدمة؛
- والمحيط المادي الذي تؤدى فيه الخدمة.

➢ فالوسائل الضرورية لأداء الخدمة تتضمن كل العناصر الملموسة كالأثاث والآلات الموضوعة تحت تصرف

الموظفين أو الزبائن، والتي يعد استعمالها أساسيا لتقديم الخدمة. ففي الفندق مثلا تتمثل هذه الوسائل في أثاث الغرف، مكتب الاستقبال بالإضافة إلى مختلف الآلات التي يستخدمها الموظفون أو الزبائن.

➢ أما محيط الخدمة، فهو كل ما يحيط بالوسائل التي سبق ذكرها من الموقع إلى البنايات، فطريقة تزيينها وتنظيمها... بعبارة أخرى هو المكان الذي تؤدى فيه الخدمة.

وبالنظر لمناخ العمل والدعم الذي يوفره الجانب الفيزيائي لتقديم الخدمة، فإنه يؤثر على موظفي الاتصال والزبائن على حد سواء؛ فوجود عدد محدود من الشبابيك يؤثر سلبا على أداء موظفي الاتصال وبالتالي استياء الزبائن.

▪ **<u>موظفو الاتصال:</u>** هم الأشخاص المستخدمون من طرف المؤسسة، والذين يتطلب عملهم أن يكونوا في اتصال مباشر مع الزبون. فهم على سبيل المثال موظفو الاستقبال في الفنادق، وموظفو الشبابيك في البنوك وغيرهم. ويلعب هؤلاء الموظفون دورا هاما في مؤسسات الخدمات من حيث أنهم يمثلونها لدى الزبائن. ومن هنا يكون على المؤسسة تنمية مهاراتهم في مجال الاتصال لما له من تأثير على مستوى أدائهم، تزويدهم بالمعلومات الكافية حول أهدافها وزبائنها. فموظفو الاتصال عليهم العمل لصالح المؤسسة والزبائن في نفس الوقت.

ويرى «Jacques Horovitz» و«Chan Cudennec-Poon » أن الاهتمام بموظفي الاتصال ذو أهمية بالغة لتحقيق

جودة خدمات عالية؛ فلا يعقل أن يعامل هذا الموظف الزبون بطريقة جيدة إذا لم يكن هو يعامل بطريقة جيدة. وبالمقابل فإن هذا الأخير إذا شعر

باهتمام المؤسسة فإنه فضلا عن قيامه بعمله بشكل أفضل، سيساهم بتقديم أفكار جديدة[22]. فجودة الخدمة لا يمكن أن تتحسن إلا إذا كان كل فرد من المؤسسة يعتبر أن عمله وترقيته مرتبطان كليا بالزبون. فإذا لم يكن الزبون هو المحور الرئيسي للمؤسسة فهذه الأخيرة مهددة بالزوال؛ وهذا ما أدى إلى اعتبار مفهوم الجودة كغاية في إطار سياسة تسويق ناجحة[23].

- **التنظيم الداخلي**: الحامل الفيزيائي وموظفو الاتصال لا يمثلون إلا الجانب المرئي للمؤسسة الخدمية، أي ذلك الجانب الذي يظهر للزبون. لكن في الواقع هذان العنصران يسيرهما التنظيم الداخلي للمؤسسة. وهذا النظام يمثل مديرية المؤسسة ويتضمن الإستراتيجية، التسويق، المالية، الموارد البشرية وغيرها، كما قد تضاف أيضا بعض الوظائف الخاصة والضرورية لأداء الخدمة كالتموين والصيانة. فالزبون لا يراها إلا أن لها تأثيرا مباشرا على جودة الخدمات، باعتبار أن نظام التنظيم الداخلي هو مصدر القرارات المتعلقة باختيار الجانب الفيزيائي، توظيف وتسيير موظفي الاتصال، الاتصال بين المؤسسة والزبائن، وغيرها.
- **عرض الخدمات:** باعتبار المؤسسة كنظام، يؤدي التفاعل بين مختلف عناصر هذا النظام إلى إنتاج الخدمات[24].

ونميز عموما بين نوعين من الخدمات:

- **الخدمات الأساسية:** وهي تلك الموجهة لتلبية حاجة أساسية لدى الزبون؛
- **والخدمات المحيطة أو الثانوية:** وهي خدمات تمثل قيمة مضافة للأولى.

وبصورة عامة هناك خمسة عناصر رئيسية تكون نظام أداء الخدمات:

- ثلاثة منها تنتمي إلى المؤسسة الخدمية وهي نظام التنظيم الداخلي، الجانب الفيزيائي وموظفو الاتصال؛
- العنصر الرابع يمثل زبائن المؤسسة؛
- والخدمات هي نتيجة التفاعل بين الزبائن والعناصر الأخرى.

2.3. مفهوم التسويق الداخلي، التسويق الخارجي والتسويق التفاعلي:

حسب هذا التصور فإن تسويق الخدمات يتكون من مجموعة من العناصر المرتبطة في ما بينها والتي ترتكز على المبدأ التالي: تعتبر الجودة « مسؤولية كل فرد في المؤسسة»[25]، ومن هنا فإن كل العناصر البشرية والمادية التي تساهم في إنتاج خدمة أو مجموعة من الخدمات لها وظيفة تسويق. وعلى هذا الأساس يكون لدينا: تسويق خارجي، تسويق تفاعلي وتسويق داخلي[26].

- فالتسويق الخارجي يهتم بالوظائف التقليدية للتسويق في ما يخص الاتصال مع الزبائن وفي بعض الحالات مع الموزعين. فهدف هذه الوظائف هو ترويج الخدمات وبناء صورة قوية للمؤسسة حتى تتميز عن منافسيها؛ فهو تسويق دراسات، إبداع واتصال.
- والتسويق التفاعلي[27] يعني أن جودة الخدمة في نظر الزبون مرتبطة إلى حد كبير بالتفاعل بينه وبين البائع. فهو يهدف إلى تنشيط العلاقة مع الزبون بهدف تحسين قيمة الخدمات لديه. فالغاية من وجود التسويق التفاعلي هو إثراء تجربة الزبون بالإضافة إلى تنشيط موظفي الاتصال باعتبار أن أداء وجودة الخدمة مرتبط إلى حد كبير بكفاءة وإرادة الموظفين الذين يؤدونها.
- والتسويق الداخلي[28] يعني أنه على المؤسسة تكوين مجموع موظفيها وتوجيههم نحو إرضاء الزبون وتنمية وفائه[29]، فلا يكفي إنشاء إدارة تسويق، وإنما يجب تعبئة مجموع الموظفين إلى ممارسة التسويق؛ فهدف التسويق الداخلي هو: «جعل العاملين أكثر وعيا وتفهما للعملاء وأكثر تحفزا لخدمتهم»[30].

كما يجب الأخذ بعين الاعتبار مفهوم الزبون الداخلي الذي يرتكز على وجود علاقات زبائن وموردين بين مختلف مصالح المؤسسة (أين يكون كل موظف زبون لموظف آخر). لهذا على المؤسسة توظيف الموظفين المناسبين والعمل على تدعيم وفائهم لها. وقد اعتبر «Grőnroos» نفس المؤلف أن التفاعلات بين استهلاك وإنتاج الخدمات هي لحظات أساسية لتصور الخدمة، كما أن لها آثارا للمدى الطويل على سلوك شراء المستهلكين؛ وبهذا اعتبر التسويق التفاعلي عنصرا أساسيا بالنسبة للمؤسسات التي تسعى على الاحتفاظ بالزبائن[31].

وبهذا يتميز تسويق الخدمات بالمتغيرتين اللتين أضافهما «Grőnroos» للمزيج التسويقي التقليدي (المنتوج، السعر، التوزيع والاتصال)، والمتمثلتان في التسويق الداخلي والتسويق التفاعلي[32].

4. تسويق خدمات البريد في الجزائر[33]:

1.4. منهجية الدراسة الميدانية:

تندرج أهمية الدراسة من كون القطاع العمومي للبريد يعدّ من القطاعات الاقتصادية الهامّة، وعلى الرغم ممّا تواجهه مؤسسات القطاع من مشاكل تسويقية متعدّدة، تتعلق بخدماتها وزبائنها ممّا يشكل عائقا لأداء نشاطاتها؛ إلا أن التّسويق لم يحظ باهتمام مؤسسات الخدمات العمومية للبريد في الأقطار النامية ومنها الجزائر، ومن هنا تبرز ضرورة الأخذ

بالمفاهيم والأساليب التسويقية لإيجاد الحلول المناسبة لهذه المشاكل، وتحسين أداء الخدمات.

وفي هذا الإطار شمل البحث الميداني ثلاثين(30) وكالة بريدية منتشرة على ست(06) مدن من ولايات الغرب الجزائري تغطي كلا من المناطق الداخلية والسّاحلية وهي: (وهران, مستغانم، معسكر، بلعباس، تيارت وتلمسان)؛ وقد تم اختيار خمس وكالات بريدية من كل ولاية إحداها مركزية والأربعة الباقية وكالات عادية لجعل الدراسة أكثر شمولا وأيسر مقارنة. كما شملت الدّراسة عيّنة مختارة من مسؤولي قطاع البريد على اختلاف أعمارهم ودخولهم ومستوياتهم. وقد حرص الباحث على ضمان عشوائية العينة المختارة ليضمن حسن تمثيلها للمجتمع المأخوذة منه، الأمر الذي يسمح باستخلاص نتائج علمية سليمة.

كما اعتمد الباحث في جمع البيانات على المقابلة الشخصية مع مسؤولي الوكالات البريدية السابق ذكرها، مع الاعتماد على قائمة استقصاء معدّة مسبقا لهذا الغرض، إلى جانب أسلوب الملاحظة للتعرف على الأسلوب المستخدم في التعامل مع المستفيدين، موقع الوكالات ومظهرها الخارجي،...إضافة إلى مراجعة سجل الاحتجاجات.

للوصول في الأخير إلى نتائج عامة، تسمح باقتراح التوصيات التي من شأنها تحديد السّياسات التّسويقية الملائمة والممكنة لقطاع الخدمات العمومية للجزائر.

وقبل التعرض لتسويق سيتم في ما يلي التعريف بأهم المنتجات البريدية واستعراض خصائصها.

2.4. التعريف بخدمات البريد:

- أهم الخدمات المقدمة من طرف بريد الجزائر:

يتواجد البريد على مجموع القطر الوطني من خلال 3271 مكتب بريد[34]، يضمن عددا من الخدمات الأساسية مثل:

- **البريد:** ويبلغ حجم البريد الذي يتم التعامل معه عبر مختلف المراكز الموزعة على القطر الوطني، والتي يبلغ عددها 11 مركزا في حدود 400 مليون وحدة في السنة[35].
- الطرود البريدية: تتم معالجة الطرود البريدية في أربعة مراكز موزعة على الولايات: الجزائر، وهران، عنابة وقسنطينة. وخدمة الطرود البريدية ثلاثة أنواع: فقد تكون داخلية، دولية موجهة للإرسال أو الاستقبال.
- **خدمة البريد السريع**[36]: «EMS»: وتعتبر هذه الخدمة من أكثر الخدمات البريدية سرعة، وهي تتمثل في جمع، إرسال وتوزيع المراسلات، الوثائق أو السلع في أقصر الآجال؛ حيث تضمن تغليفا آمنا ومكيفا حسب المواد المراد إرسالها. وفضلا عن السرعة والفعالية والأمان، تتميز هذه الخدمة بإمكانية المتابعة الإلكترونية[37].

وبالإضافة إلى هذه الخدمات الأساسية، تعد مكاتب الاستعلامات من الخدمات الثانوية المقدمة من طرف البريد.

- **تطوير الخدمات البريديـة:**

يعتبر تحسين وتطوير الخدمات من أهم الوسائل التي تساعد على التكيف مع الحاجات المتطورة للزبائن؛ ويمكن إرجاع تطوير خدمات البريد والاتصال في الجزائر بشكل خاص إلى جملة من العوامل من أهمها:

- التغيرات المستمرة التي تطرأ على بيئة نظام الخدمات البريدية في العالم، والتطور الهائل في عالم الاتصالات. الأمر الذي يدعو إلى ضرورة إجراء تحسينات مستمرة في هذا القطاع في الجزائر.
- محاولة تلبية طلبات العدد الكبير من المترددين يوميا على وكالات مصالح البريد، استجابة لشكاواهم من عدم كفاية تلك الخدمات.

إلا أن هناك جملة من المعوّقات التي تحول دون القيام بعملية التطويرة، والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

- تمتّع قطاع البريد في الجزائر بوضعية شبه احتكارية للسّوق، فضلا عن التأثير السلبي للأسلوب المركزي في التسيير الذي يجعل الخدمات البريدية تدار من خلال مجموعة من المحّددات والقواعد المصاغة آنفا وهو الأمر الذي لا يحفّز على تجديد وتطوير الخدمات البريدية.
- اعتماد المفهوم الإنتاجي والبيعي في تسويق أغلب الخدمات البريدية وعدم إتباع المفهوم التسويقي المعتمد على الدراسات التسويقية ومعرفة أذواق ورغبات المستفيدين والتلاؤم معها.

3.4. الممارسة التسويقية لقطاع البريد في الجزائر: يمكن تكوين صورة عن الممارسة التسويقية لقطاع البريد في الجزائر من خلال الأهمية التي توليها لمختلف العناصر التسويقية، والتي سنستعرضها فيما يلي.

- مكانة الزبائن في تسويق خدمات البريد :

توصلت الدراسة إلى أنّ الصّفة الغالبة على موظّفي القطاع بما فيهم المسؤولون، هيّ إهمالهم للعناية بالزبائن من خلال سوء معاملتهم، مع تركيز الاهتمام على تحقيق أهداف الإدارة بطريقة روتينية، وهو ما يمكن إرجاعه إلى الوضعيّة الاحتكارية للقطاع، والتي تفرض على مستعملي الخدمات الخضوع في غياب

وسائل بديلة.

ونشير في هذا الصدد (حسب 60 % من المسؤولين) إلى افتقار العديد من مصالح البريد لسجل الاحتجاجات والشكاوي المخصّص للجمهور حتى يعبّر عن رغباته ويساهم في حلّ مشاكله. فمثل هذه العمليّات حتى وإن لم تعط حلاّ نهائيا للمشكلة فإن أثرها سيكون عميقا في نفسية الجمهور (تحسّسه بالاهتمام الممنوح له وبجديّة المؤسّسة).

كما يلاحظ غياب المعايير التي تدعو إلى الحفاظ على راحة الزبون وحسن معاملته، إضافة إلى حرمانه من الاعتبار اللائق به أثناء الاتصالات المباشرة معه، مما يؤدي إلى سوء التفاعل بينه وبين الموظفين: فكم هي المرّات التّي يغيب فيها المسؤولون عن أداء وظائفهم في الشبابيك، وكم هيّ المرّات التّي يعاملون فيها الزّبائن كالأشياء ويمنحوهم خدمات رديئة (عدم احترام مواقيت توزيع الرّسائل، سرقة محتويات الطّرود، قلة بعض المطبوعات الضرورية...)[38].

لكن تجدر الإشارة إلى أن المستوى الاجتماعي المختلف لجمهور الخدمات العمومية للبريد وحالته الاقتصادية والثقافية والتعليمية والتربوية المتباينة أيضا من جهة، والضغط الذي تواجهه الوكالات البريدية نتيجة زيادة عدد المتردّدين على مصالحها من جهة أخرى، تعتبر مشاكل رئيسية وجوهرية تواجهها هذه الوكالات، مما يولدّ شعورا بعدم الرضا والنفور وبالتالي يخلق فجوة بين مقدمي الخدمة والمستفيدين.

- **<u>واقع الدعم المادي لخدمات البريد:</u>**

رغم العديد من الجهود المبذولة فإن أكثر الوكالات البريدية موضع الدراسة ينقصها الاهتمام بالمظهر الخارجي لمحلاتها والاعتناء بصورة علامتها، رغم أهمية ذلك وتأثيره على جودة الخدمة. كما تمت ملاحظة ضيق وقدم بعض مباني الوكالات البريدية، مع نقص الصيانة مما يصعّب الاستجابة لطلبات العدد الكبير من المتردّدين وذلك حتى لو توفرت الإمكانيات البشرية اللازمة، وهو ما جعل اسم القطاع العمومي للبريد والاتصال في الجزائر مقترنا بظاهرة الاكتظاظ على الشبابيك والازدحام في الطّوابير. وفي هذا الإطار تساءل الباحث: « كم هي الحالات التي يصعب فيها على المواطن إيجاد المكتب البريدي بسهولة، وكم هيّ الأحيان التي يعجز فيها أمام اكتشاف الشّباك المخصّص لخدمته بداخل المكتب»[39].

- أهمية الارتقاء بالعنصر البشرى في قطاع البريد:

إن من أهم ما يعيق المجهودات المبذولة لتحسين خدمات ووضعيّة القطاع العمومي للبريد والاتصال في الجزائر هو إهمال تكوين وتحفيز العنصر البشري الذي يعد عنصرا هاما لإنتاج وتوزيع الخدمات. ويهدف الارتقاء بالأداء البشرى إلى الرفع من كفاءة وفعالية الموظفين ـ خاصة أولائك الذين يتعاملون بشكل مباشر مع العملاء ـ حيث يتم التركيز على الجانب السلوكي من خلال تحديد الأداء النموذجي الذي يتعين على كل موظف تحقيقه.

إن من أهم ما يعيق المجهودات المبذولة لتحسين خدمات ووضعيّة القطاع العمومي للبريد والاتصال في الجزائر هو إهمال تكوين وتحفيز العنصر البشري الذي يعد عنصرا هاما لإنتاج وتوزيع الخدمات. ويهدف الارتقاء بالأداء البشرى إلى الرفع من كفاءة وفعالية الموظفين ـ خاصة أولائك الذين يتعاملون بشكل مباشر مع العملاء ـ حيث يتم التركيز على الجانب السلوكي من خلال تحديد الأداء النموذجي الذي يتعين على كل موظف تحقيقه.

وفي هذا الإطار يعترف أغلب مسؤولي القطاع بوجود نقائص في برنامج للتكوين، يرجعها بعضهم إلى سطحية التكوين واقتصاره على الطابع التقني، كما يرجعها البعض الآخر إلى خلوّها من العناصر التحفيزية؛ وهو ما يبرز ضرورة إعادة النظر في نظام المكافآت والعقوبات بحيث يكون مرتبطا بمقدار إنتاجية الموظّف وفعّاليته[40]،

كما يجب الإشارة إلى أهمية مشاركة المسؤولين من حين لآخر في مساعدة موظفي الاتصال لتحفيزهم وإزالة الحواجز والفروق التي تفصلهم والقضاء على الرّوح السّلطوية التّي تسودهم؛ رغم أن هذه القاعدة الذهبية منعدمة تماما في قطاع البريد الذي صرّح مسؤولوه تقريبا بالإجماع عن عدم مشاركتهم في أعمال دون مستوياتهم الهرميّة.

<u>4.4. نتائج الدراسة الميدانية:</u> يمكن تلخيص أهم النتائج المتوصل إليها من الدراسة الميدانية فيما يلي:

- معظم إدارات البريد التي تناولها البحث لازال التوجيه فيها يتمّ على أساس الإنتاج، حيث تتركز جهودها في إنتاج وتقديم الخدمات لمقابلة طلبات الجمهور المتزايدة، دون اهتمامها بشكل جدّي بالإجراءات التي من شأنها تنظيم وتوجيه الطلب على تلك الخدمات.
- محدودية الخدمات التّي تعرضها وكالات البريد تعكس عدم الاهتمام بعنصر التنويع في خدماتها، وأيضا عدم الاستجابة والتجاوب مع التطور الحاصل في رغبات وسلوكات وحاجات الجمهور.
- النقص في الإمكانيات المادية وخصوصا المالية منها، الأمر الذي تشكو منه معظم الوكالات موضع البحث التي تعتمد في تمويل نشاطاتها على ما

تخصّص لها الدولة، مما يعيقها من تغطية كل نفقاتها وتلبية احتياجاتها المتزايدة باستمرار.

▪ انحصار عملية التكوين والتدريب لمقدمي الخدمات على النواحي التقنية دون التسويقية، وأيضا اقتصار أسلوب الرقابة والتقييم الداخلي على هذا الجانب التقني، ممّا يتسبب في بعد هذه الوكالات البريدية عن أسواقها، وعدم قدرتها على المحافظة على السمعة الطيبة للمنظمة.

▪ الإهمال شبه الكلّي للدّراسات والبحوث على سلوك المستهلكين والزبائن في إدارة البريد والاتصال، وهو ما يعكسه انخفاض جودة الخدمات المقدمة.

وانطلاقا من النتائج السابقة، فيما يلي بعض المقترحات لحلّ المشكلات والعوائق التي تحول دون التسويق الجيد لخدمات البريد في الجزائر:

▪ التركيز على حاجات ورغبات المستعملين واعتبارها المنطلق لأيّ تجديد أو تطوير؛ ويتطلب ذلك اعتماد وإعداد نظام متكامل ومتطوّر للمعلومات التسويقية، تكون بحوث التسويق ودراسة السوق أحد أهم أجزائه. ويمكن ذلك من ربط المؤسسة البريدية بأسواقها وضمان الاستمرارية النوعية للخدمات المقدّمة.

▪ مسايرة التقدم العلمي الحاصل في مجال الخدمات البريدية وأساليب تقديمها، ومحاولة الاستفادة من أحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا في هذا المجال، وكذلك الاستفادة من البحوث والدراسات ونتائج الملتقيات التي يقوم بها إطارات ومسؤولو هذا القطاع، وذلك في إطار الإمكانيات المادية والبشرية المتاحة.

▪ زيادة المخصّص من الأموال لغرض تطوير الخدمات بزيادة الكفاءات الفنية وتحسين تكوينها من الناحية التجارية والفنية، وتطوير المباني وتوسيعها وتحديثها، وشراء الآلات والتجهيزات الحديثة التي تساهم في تحسين جودة وسرعة تقديم الخدمة، وأيضا الاستثمار في الجهود الترويجية لتغيير وتحسين انطباع الجمهور عن الخدمات البريدية المعروضة.

▪ ضرورة تحرّر المراكز البريدية من الروتين، لتمكينه من مقابلة ومواجهة كل الحالات الملحّة والاستثنائية التي تطرأ. والظروف غير العادية والتي تتطلب طبيعة خدماتها الأداء العاجل الفوري.

▪ إعطاء الأهمية للتسويق التفاعلي من خلال بناء علاقات طيبة بين مقدمي الخدمات البريدية والمستفيدين منها. وهو ما يتطلب تدريب مقدمي الخدمات على تقنيات الاتصال، بما يمكنهم من إنشاء علاقات قوية وطيبة مع الزبائن والمتعاملين، مع ضمان مساهمة وتعاون وولاء الموظفين من خلال التحفيز والتدعيم، مع ضرورة إنشاء قواعد واضحة لتقييم ومراقبة أدائهم.

▪ حتى يتوصّل القطاع العمومي للبريد والاتصال في الجزائر إلى إرضاء جمهوره يجب أن يسهر على تلبية احتياجاته. ومن هنا فمن المهمّ أن يحدّد هذا القطاع المعايير التّي يحكم بواسطتها على تطوّر هذه الاحتياجات، كما يمكن استغلال وظيفة الاستقبال في معرفة هذه الاحتياجات؛ على اعتبار أنها تعد وسيلة هامّة للاتصال المباشر مع الزّبون ومعرفة سلوكه (من خلال إبداء رأيه في الخدمة وتقديم اقتراحاته).

▪ الاهتمام بترقية مستوى الخدمة المؤدّاة من جهة (توفير أساليب للتقدير كمنح جوائز لأحسن وكيل استقبال ولأحسن مركز بريدي)، إلى جانب تقنين - بصفة واضحة - طبيعة الاتصالات مع الزبائن وقياس مستوى الرّضا المتوصّل إليه من جهة أخرى (عن طريق صندوق الأفكار، الاحتجاجات، التحقيقات...).

▪ تتميز الخدمات بمجموعة خصائص، تؤدي إلى ظهور مشكلات وتطبيقات تسويقية قد تختلف عن نظيرتها في حالة السلع المادية. ويعتبر عدم ملموسيتها جوهر هذا الاختلاف، كما أنه ساهم بشكل كبير في تأخر تبني وتطبيق مؤسسات الخدمات للمفاهيم والأساليب التسويقية.

▪ وفي هذا الإطار، يكون على المؤسسة الخدمية تدعيم الجانب المرئي بالنسبة للزبون بما فيه من وسائل مادية، كفاءة الموظفين الذين يؤدونها لاسيما في مجال الاتصال، باعتبارها عوامل يلجأ إليها الزبون للحكم على جودة الخدمة لعدم تمكنه من تقييمها قبل شرائها. وبهذا يتميز تسويق الخدمات بضم عناصر جديدة للمزيج التسويقي تتمثل في التسويق التفاعلي والتسويق الداخلي، حيث يركز الأول على علاقة البائع بالزبون؛ بينما يؤكد الثاني على ضرورة تكوين مجموع موظفي المؤسسة وتوجيههم نحو إرضاء الزبون وتنمية وفائه.

▪ وإن كانت بعض مؤسسات الخدمات الجزائرية تدرك أهمية تدعيم صورة الخدمة لدى الزبون، من خلال ابتكار أساليب وطرق لتسهيل تقديم خدماتها، فإنها مطالبة شأنها في ذلك شأن مؤسسات الخدمات العاملة في الوطن العربي، بتبني جوهر الفكر التسويقي الذي يقوم على تركيز الجهود وتوجيهها نحو إرضاء الزبون والحفاظ عليه.

▪ ومنظمات الخدمات العمومية لا تختلف عن غيرها من المنظمات التجارية من حيث التسيير الإداري الذي تمارسه ومن حيث حاجتها الماسة لأساليب وتقنيات التّسويق، ويقع الاختلاف فقط في

الهدف الذي تسعى لتحقيقه (الخدمة العمومية للمجتمع قبل اعتبار تحقيق الربح).

- وفي الأخير نشير إلى ضرورة التخلي عن سيادة المفهوم الإنتاجي التي تعكس تركيز مسؤولي القطاع موضوع البحث على مشاكل الإنتاج، بسبب وضعية الاحتكار وخضوع الزبائن، لاسيما وأن الإنتاج أقل من الطلب، لفتح المجال أمام المفاهيم والأساليب التسويقية التي من شأنها الارتقاء بالخدمة العمومية، حتى تؤدي الدور المنوط بها.

الهوامـــــش:

1- Pettigrew et Turgeon, 1996, pp. 378-379.

2- يرى بعض المؤلفين أن التطور الكبير الذي عرفه سوق الخدمات كان نتيجة لمجموعة من العوامل من أهمها: تطور مستوى المعيشة، ظهور منتجات جديدة، تغير طرق التفكير وغيرها. أنظر: Darmon et al., 1996, pp. 520-522.

3- لأكثر تفاصيل حول إحدى هذه الدراسات ونتائجها، يمكن الرجوع إلى: الصحن، 1996، ص 342-343.

4- للتفصيل يمكن الرجوع إلى المرجع السابق، ص 343-349.

5- Darmon et al., op. cit., pp. 519-520.

6- Kotler et Dubois, 2000, p. 443.

7- Ibid., pp. 443-445.

8- من الصعب اعتماد هذا التصنيف نظرا للارتباط الوثيق بين الخدمات والسلع المادية؛ وقد أدى هذا إلى ظهور مجموعة من التصنيفات الأخرى تناولها بالتفصيل « عنان وآخرون، مرجع سابق، ص265-271 ».

9- أنظر:

Baux, 1987, pp. 424,425.

Darmon et al., op. cit., pp. 522-525.

Kotler et Dubois, 2000, pp. 445-448.

Pettigrew et Turgeon, op. cit., pp. 379-385.

10- بالإضافة إلى هذه الخصائص الأربعة، يرى بعض المؤلفين أن الخدمات تتميز بمعدل إنتاجية ضعيف إذا ما قورنت بالسلع المادية. إلا أنه لا يمكن اعتماد نفس المقاييس المطبقة في المصانع لتقييم إنتاجية الخدمات؛ فما يهم المستهلك هو جودة الخدمة أكثر من الكمية، فإنتاجية الجراح لا تقاس بعدد العمليات التي يقوم بها، وإنما بنجاح هذه العمليات. أنظر: Darmon et al., op. cit., pp. 525.

11- برانيس، مرجع سابق، ص152.

12- للتعرف على الطرق المستخدمة في تطوير الخدمات يمكن الرجوع إلى:« معلا، 1995، ص 158-161».

13- بنك الجلوس هو تنظيم جديد لهياكل وأنشطة البنك قصد تحقيق الفعالية في الأداء والعمل على راحة العميل، وهي فكرة مأخوذة من تجارب البنوك الأنجلوسكسونية، وسمي بهذا الاسم لأنه يتم فيه استقبال العميل بالجلوس في مكان لائق ومريح، حيث يواجه مباشرة موظف البنك المكلف بالزبائن.

14- يمكن الرجوع إلى: زيدان، 2005، ص 295-297.

15- بتصرف عن: نوري، 2005، ص 254.

16- وفي هذا السياق؛ توصلت أبحاث Rust، Moorman وDickson إلى أنه من المربح بالنسبة للمؤسسة تبني استراتيجية تنمية وفاء الزبائن مع ما تتطلبه من زيادة في المصاريف بدل التركيز على تخفيض التكاليف:«Audrain-Pontevia, 2004, p24. ».

17- للمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى: طارق طه، مرجع سبق ذكره، ص304-306.

18- Eiglier et Langeard, 1999, pp. 16-18.
19- طه، مرجع سبق ذكره، ص313.
20- تدرك بعض المؤسسات الخدمية أهمية آراء الزبائن حول ما تقدمه من خدمات، لذلك تحاول استغلالها من خلال بث شهادات لزبائن راضين عن خدماتها، ويعتبر هذا من بين الوسائل التي تلجأ إليها المؤسسة لإعطاء طابع ملموس أو تدعيم الجانب المادي للخدمة؛ يمكن الرجوع إلى:
Jean-Marc Décaudin et Denis Lacoste, Publicité des Services, Publicité des Produits : Une Analyse Comparative Fondée sur L'Avantage Concurrentiel, La Revue Française Du Marketing, N° 206 - 1/5, Fevrier 2006, p. 62.
21- يتطلب تسويق الخدمات عن طريق الانترنت معالجة تسويقية تراعي خصائص هذه الخدمات من جهة، وتكنولوجيا المعلومات المستعملة بما فيها من مزايا وعيوب من جهة أخرى. أنظر:
طه، مرجع سابق، ص298-303؛
أبو فأرة، 2004، ص169-171.
22- للتفصيل حول العناصر الأساسية للوصول إلى جودة خدمات عالية يمكن الرجوع إلى:
Labucheix, 1990, pp. 156-164.
23- Badoc, 1998, p. 274.
24- استعمل « Eiglier » و« Langeard » مصطلح « servuction » المؤلف من الكلمتين: « service » والتي تعني الخدمة و« production » الإنتاج، للتعبير عن إنتاج الخدمات.
25- أتكنسون، 1996، ص 38.
26- Tocquer et Langlois, 1992, pp. 36-38 .
27- Le marketing relationnel.
28- Le marketing interne.
29- عدة مؤسسات ربطت الربح برضا الزبائن، ورضا الزبون برضا الموظفين: فرغم الاعتقاد السائد بأن حصة السوق عامل رئيسي محدد للمردودية، مع اللجوء إلى اقتصاديات الحجم لتخفيض التكاليف وزيادة الأرباح؛ فإن هناك استثناءات؛ فبعض المؤسسات ناجحة أكثر من غيرها لأنها أدركت أن وفاء الزبون أكثر ربحية من تزايد حصتها في السوق: « Olivier et Negel, 2000, p. 43. ».
30- الضمور، مرجع سابق، ص 343.
31- Grőnroos, 1999, pp. 10-11.
32- في الوقت الذي اتجهت فيه العديد من الشركات بالدول الأجنبية إلى تبني وتطبيق هذه الفلسفة، الأمر الذي ترتب عليه تحقيق العديد من الفوائد فان الكثير من الشركات بالوطن العربي لا تتبنى ولا تطبق هذه الفلسفة في ممارساتها لأنشطة التسويق: نوري، مرجع سابق، ص 256.
33- تم الاعتماد في إعداد هذا الجزء على الدراسة الميدانية التي قام بها الباحث براينيس، مرجع سابق، بتصرف، ص 158- 404.
34- http://www.poste.dz/sp/ (10/03/2011).
35- نقلا عن الموقع: http://www.poste.dz/sp/?idc=20&idc2=1&page=lecourier ، تاريخ الإطلاع: 2011/03/10.
36- Courrier Express.
37- la traçabilité électronique.
38- أنظر: براينيس، مرجع سابق، ص 328.
39- نفس المرجع، ص 270.
40- على الرغم من أن الوضعية الحالية والمستقبلية القريبة لسوق العمل هيّ في صالح المؤسسة (نظرا لوجود البطالة)، وأنّه من السهل إيجاد الموظف والاحتفاظ به حتى بدون إرضاءه تماما، إلاّ أنّ ضمان إخلاصه ووفائه وإنتاجيته ليس بالأمر الهيّن.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 53 - 63
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

دروب الرواية الجزائرية بين التأسيس و التجريب

خديجة الشامخة

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

توطئـــــة:

إن الحديث عن خمسين سنة من الاستقلال، هو الحديث عن انجازات كبيرة وتطور في جميع مجالات الحياة إلى حد يجعلنا نعترف بتلك التحولات بين البارحة واليوم من التعدد السياسي والحرية في التعبير وانتشار الوعي السياسي وقد انعكس هذا على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي...ولعل الجانب الأدبي هو-مايهمنا-ما نحاول تحليله في هذه الورقات ونخص بتحليل الرواية الجزائرية وما شهدته من تطور جعلها تحتل مكانة مرموقة في مصاف الأعمال الروائية العربية والعالمية على يدّ روائيين روادأمثال؛ عبد الحميد بن هدوقة، والطاهر وطار، وواسيني الأعرج ورشيد بوجدرة، وأحلام مستغانمي...

فالمتتبع لما تعج به الساحة الأدبية الجزائرية من كتابةونشر للنصوص الإبداعية في مختلف الأجناس الأدبية من قصة ورواية وشعر ومسرح، يلاحظ أن ثمة حركة أدبية ونقدية تواكب ما ينتج وينشر.وللإحاطة بهذا المجهود الأدبي الروائي والتعرف على مساره وتوجهاته؛ وهو في حقيقتها يتعلق الأمر بالتساؤل عن حدود العملية الأدبية وآفاقها والأدوات التجريبية التي توظفها، وكذا محاولات التأصيل الروائي في الجزائر، خاصة في هذه الآونة التي تعيش فيها حالة محك حقيقي في الجوالأدبي على مستوى العربي والعالمي.وحتى على مستوى المثقف الهاوي.

يُعد نص"غادة أم القرى"الصادر سنة1947فاتحة التأريخ لجنس الرواية في الجزائر، رغم أن البعض يعود بهذا التواريخ قرن كامل إلى الوراء وتحديدا لسنة1847مع صدور نص(حكاية العشاق في الحب والاشتياق)لمؤلفها الجزائري محمد بن إبراهيم التي يعتبرها بعض النقاد الجزائريين أول نص روائي جزائري وعربي، ويصرون على اعتبارها الرواية العربية الأولى بدل رواية زينب لمحمد حسين هيكل التي صدرت سنة 1914،1 ولكن بعيدا عن الخوض في هذه المسألة التاريخية التي هي من اختصاص نقاد ومؤرخي الأدب الذين يملكون القدرة على الفصل فيها، نحاول في هذه الورقات إعطاء صورة موجزة عن مسيرة الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية.

الحركة الاستعمارية وسلخ الهوية الوطنية:

بداية؛ لقد سخرت الرواية الجزائرية من أجل استعادة الثقافة والتاريخ المستبعدين من قبل قراءة إمبريالية، فلقد حاول الاستعمار الفرنسي محو عروبة الجزائر المفرنسة الهوية واللغة والفكر، في ظل هذا الواقع برزت الكتابة لتكون سلاحا إلى جانب النضال العسكري في التحرر.اتبعت فرنسا سياسة وحشية وتخريبية و إزاء الجزائريين وممتلكاتهم وموارد عيشهم[2]،وطبقا شعاره الذي به"لابد من منع العرب من الحرث، من الحصاد من الرعي"[3]وذلك لوعيه-المستعمر-الكبير بأثر ارتباط الجزائريين بأرضهم هذه العلاقة التي يبرزها"فرانز فانون" في قوله:"إن القيمة الأكثر أهمية بالنسبة للشعب المستعمر هي الأرض، أنها شيء محسوس، فالأرض تؤمن الخبز وتضمن الكرامة."[3] وبذا كانت الخطوة الأولى لسلخ الجزائريين عن هويتهم الوطنية، فقد زادت عمليات مصادر الأراض واحتجازها، وتم استصدر القانون المدني

الذي فتت ملكيات الأراضي القبلية الجماعية،ليتاح للتجار أن يشتروها شيئا فشيئا.وعملت الإدارة الفرنسية كذلك على أن تصب إشراف ورقابة للسلطات حتى أن الحج إلى البقاع المقدسة منع ولم يسمح به إلا بعد تدخل البرلمان الفرنسي 1913م.[4] وعملت السلطات الفرنسية على تشويه الهوية الوطنية والقومية فمنعت تدريس العربية وعمدت إلى تأهيل عدد من الأشخاص أشباه المتعلمين بإكسابهم جزء من الثقافة الفرنسية ليكونوا عونا لها...[5]

واستمر الاضطهاد إلى غاية تاريخ 8 ماي 1945 المنعرج الحاسم في تاريخ استعمار الفرنسي للجزائر؛وترى عايدة بامية أن مذابح(سطيف)وإن جعلت الروائيين يتجهون إلى المسائل السياسة في أدبهم مبتعدين عن المشاكل الاجتماعية إلا أن حرب التحرير هي التي جعلتهم ينهجون نهج الالتزام تجاه ما سماه معمري؛"واقع الأمة الجزائرية العميق"[6].

وهكذا كان الروائيون الجزائريون على اختلاف ولاءاتهم الأيديولوجية يسخرون أدبهم للتعبير عن واقع الثورة الجزائرية قبل وخلال وبعد حرب التحرير،مؤكدين الدور النضالي لكافة أفراد الشعب الجزائري.يقول محمد ديب سنة1950: "إن جميع قوى مفكرينا المبدعة الموضوعة في خدمة إخوانهم المضطهدين تجعل من الثقافة و الآثار التي ينتجونها أسلحة للقتال أيضا،تلك الأسلحة التي ستستخدم في الفور بالحرية"[7] والرواد في هذا الأدب مجموعة من الروائيين أبرزهم(كاتب ياسين، ومولود فرعون جان عمروش، ومولود معمري، ومحمد ديب، ومالك حداد، وآيت جعفر...)تجاوز بعض هؤلاء محاربة العدو بالكلمة المقاتلة إلى بذل الروح في سبيل معركة التحريركما كان من شأن(مولود فرعون)[8]

إن هذا الأدب رغم ما قال عنه بعض الجزائريين من أنه لا يمثل المجتمع الجزائري لأنه مكتوب بالفرنسية، ولأن الروايات تنشر في فرنسا ولأن أصحابها يتلقون جوائز أدبية أجنبية وأن النقاد الفرنسيين يحفلون ببعضها[9] أقول إن هذا الأدب بالرغم من ذلك برهان على إخفاق المستعمر في صهر شخصية الجزائري وإذابة هويته واجتثاث جذور الوطنية.وإن هذا الأدب يبرز بوضوح طابعه النضالي حين يقارن بأدب الرحلة السابقة ذلك الأدب الذي جسد المجتمع الجزائري بنظرة المستعمر، يقول ديجو:" من الممكن أن نحصي بين سنة 1920 إلى 1945 في ميدان الرواية والقصة القصيرة في الجزائر: قائد بن شريف مؤلف أحمد بن مصطفى عسكري القوم1920وعبد القادر حاج حمو مؤلف "زهراء زوجة عامل المنجم 1952... وسليمان بن إبراهيم...كاتب خضراء راقصة ولد نايل1926 وشكري خوجة1929 ومحمد ولد الشيخ 1936 وأخيرا مؤلف ابوالنوار الجزائر الشاب1945 الأخوان زناتي..."[10] إن هذه الآثار ذات دعوة أخلاقية أحيانا...وكان الكتاب يتوجهون في آثارهم إلى الفرنسيين. وإذا ما انتقدوا أحيانا باعتدال تأثير الاستعمال المشؤوم على الأخلاق (المسكرات بخاصة)لم يغلفوا قط المعزوقة الكريمة عن محاسن الاستعمار وعن الوطن الأم. ويمكن القول؛ بشكل ما أنهم كانوا ينظرون إلى مجتمعهم نظرة المستعمر."[11]

ويعد هذا الجيل المستلب جاء جيل الرواد الذين تحدثنا عنهم؛ ففي سنة1950 وضع مولود فرعون عن روايته (ابن الفقير) 1952 ظهر كتاب (الهضبة المنسية لمولود معمري، وفي العام ذاته نشرت رواية(البيت الكبير) لمحمد ديب،1953 كانت(الأرض والدماء)لمولود فرعون1945كانت(الحريق)لديب، وظهرت سنة1955(نوم العادل) لمولود معمري.وبذلك يكون الجزائري قد استطاع أن يعيد تشكيل صورته كما هي في حقيقتها النضالية رافضا كل ما أسقطه عليه المستعمر.[12] وبدء من عام 1956 يرى ديجو أن الالتزام السياسي كان أكثر تأكيد بانطلاق النضال حيث استلهم الكتاب الحدث.

فظهرت رواية (الجثة المطوقة) لكاتب ياسين ما بين (1954-1955) ثم تعقبها بعد ذلك في سنة 1956رائعة ياسين (نجمة). وهكذا حيث استمر تواصل الابداع في ظل حركة التحرر.

إلا أن أدب هؤلاء الرواد قُبل بنقد شديد.كما أشرت سابقا، فما كادت رواية(النهضة المنسية)لمعمري تنشر، حتى كتب عنها بعض الجزائريين تعليقات جد لاذعة تنفي قدرة هذه الرواية على خدمة القضية الجزائرية،لأنها مكتوبة بالفرنسية، وطبعت في فرنسا[13].لكن ألم هؤلاء الكتاب لأنهم يكتبون بلغة غير لغة شعبهم،لم يكن أقل من حرص أولئك الطاعنين على أدبهم. ويكفي أن نعرض لموقف كاتب واحد هو مالك حداد،فقد شعر حداد بالغربة لأنه لا يكتب بالعربية، وعبر عن ذلك حين قال:"اللغة الفرنسية هي غربتي"[14]...بل جعل ارتباطه بالفرنسية يتما؛"لم نتعلم من فرنسا إلا يتماً"[15] إنها أزمة تعبير عند حداد:"أنا الذي أغني بالفرنسية أيها الشاعر يا صديقي لا تلمني، إذا ما صدمت رطانتي، لقد أراد لي الاستعمار أن أحمل اللكنة في لساني أن أكون معقود اللسان"[16]على أن الشاهد الصارخ على ألم مالك حداد مادار بينه وبين عبد الله الركيبي يوما في مبنى اتحاد

الكتاب الجزائريين، حين شاهد الركيبي طفلا ينطق بالفصحى مع مالك،فيسأله: من هذا؟ فيجيب حداد:" هذا انتقامي من الفرنسية، أنه ولدي...."[17]

وتأتي مضامين هذه الأعمال الروائية التي كتبها حداد ورفاقه لتكون الرد الأقوى على المطاعن السابقة؛فأدب(ديب ومعمري وفرعون وياسين...)أدب نضالي أبطاله من المناضلين، يعالج حياة الثوار في الجبال ومشاركة المرأة في الثورة وقضايا الاغتراب والهجرة والعمال.وقد كان لاشتراك بعض الأدباء في ثورة التحرير أثر أعمق في بث صيحات الرفض والتمرد والسخط في أدبهم، حتى إن منهم من سقط شهيدا من مثل أحمد رضا حوحو ومولود فرعون[18].

وبالرغم من كوّن هذا الأدب أدبا ملتزما ثوريا، فقد وجهت إليه بعض الملاحظات النقدية حول فنية بعض الأعمال فيرى سعيد علوش ذهابا مع جان ديجو أن بعض الروايات المكتوبة بالفرنسية لم تكن إلا سيرة ذاتية لعدد من الكتاب[19]؛ فرواية مولود فرعون الأولى (ابن الفقير) سيرة ذاتية في جلها[20] ويصدق الأمر ذاته على آثار كاتب ياسين؛ فرائعته (نجمة)تحفل في كثير من مواضعها بأحداث مرّ بها الكاتب نفسه، وهو الأمر الذي دفع ديجو ليقول: "إنها سيرة ذاتية صيغت بالجمع"[21] بيد أن كون هذه الأعمال أقرب إلى السيرة الذاتية لا يلغي فنية العمل أو يقلل من قيمته مضمونا وشكلا، وليس لهذا الرأي في الروايات السابقة إلا أن يكون ملاحظة وصفية لا ترقى إلى أن تكون مطعنا عليها. ولا يعني هذا الدفاع عن هذه الروايات أنها جميعها تمتاز بأشكال فنية يرتضيها القارئ فكثيرا ما يقف النقاد على أعمال هي ذات مضامين ثورية حقيقة لكن مستواها الفني أقل مما ينبغي كما هو الحال مع أعمال مولد فرعون.[22]

ولا يقف الأمر به عند هذا الحد، بل يرى أن الارتقاء بمستوى الأدب الجزائري لا يكون إلا بالالتزام بالمسألة الوطنية؛ "لكي نتقدم بأدبنا إلى الأمام ونرفع مستواهن يجب أن نندمج في المعركة بشكل كلي وحماسي، وبهذا وحده سوف تتكشف أمامنا أثمن الصفات الإنسانية.إن العمل على الظفر بمستقبل لبلادنا واجب وطني بالنسبة للكاتب، كما أنه ضمان اكيد لجود إنتاجه."[23] إن هذا الاحساس العميق بالمسؤولية تجاه القضية الوطنية دفع جيلا بأكمله من الروائيين إلى تسخير أقلامهم لخدمتها حتى أصبح الأمر كما يقول مالك حداد:"محبرتك هي المبنع، هي الإنسان كله"[24].

وقد كان هذا التسخير للأدب بأي لغة كانت حتى وإن كان بالفرنسية؛ فالقيود التي فرضتها فرنسا على تعلم العربية ومحاولة فرنسة الجزائر أوجدت جيلا من الجزائريين أبعد ما يكون عن لغته العربية،جيلا اكتسب ثقافته الفرنسية من المدارس الفرنسة في الجزائر أو نتيجة للهجرة إلى فرنسا. غير أن هذا الجيل لم تقف اللغة حائلا بينه وبين التعبير عن عروبة ووطنية قضيته الجزائرية،فكتب بالفرنسة أدبا نضاليا، وسخر معرفته بالفرنسة ليرقى بإبداعه عن طريق الاطلاع على الآداب العالمية. وترى سعاد خضر أن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية والذي استمر من الفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية عام1963؛ هو سلاح من أسلحة معركة التحرر.[25]

ويتساءل في هذا السياق باحث مثل عبد الكبير الخطيبي فيقول:"لماذا لم تتمخض الثورة الجزائرية عن ثورة خاصة بها في الأشكال الاستطيقية"[26].وهو للأمر ذاته يثني على كاتب ساين في روايته(نجمة)التي كانت-كما قال-شاهدا على إدراك ياسين"أن الكاتب الثوري الذي اختار النضال بالقلم، يجب أن يكون ثوريا كذلك في مجاله الخاص، مجال الكتابة.[27]

وباستقلال الجزائر كانت البواكير لاختفاء هذا الأدب-الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية-فلم يعد هنالك دافع لاستمرار الكتابة بالفرنسية في ظل جزائر عربية. وهؤلاء الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية معبرين عن وضعية(سوسيو- ثقافية)معينة في ظل الاستعمار غير الاستقلال اتجاهاتهم،فلزم بعضهم الصمت معبرا عن التزام عميق تجاه عروبة شعبه كما صنع مالكحداد،بينما استمر الآخرون دون تطور وبمحاكاة لم تضف شيئا لا إلى المضمون ولا إلى الشكل الفني.[28]

جاءت الرواية الجزائرية لاستعادة هويتها وكذا تاريخها وثقافتها المسلوبة من طرف الإمبريالية الاستعمارية التي حاولت طمس الهوية ومحو عروبة الجزائر والعمل على فرنسة الفكر واللغة والهوية منذ إن وطئت فرنسا أرض الجزائر، وفي ظل هذا الواقع برزت الكتابة لتكون سلاحا إلى جانب النضال العسكري في التحرر.

إلا أن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية تتراجع لصالح واقع تقافي سياسي وافق التحرر وحركته حركته النضالية ممثلة بالرواية المكتوبة باللغة العربية.تعود جذور الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية إلى ماقبل الاستقلال، وتحديدا سنة1947 حين صنفت أول رواية عربية على يد أحمد رضا حوحو وسمت بـ(غادة أم القرى)؛ وهي رواية تتناول جانبا اجتماعيا يلمح فيها الكاتب إلى ما

يمارس على المرأة من ضروب الجهل والتخلف، وقد كان مستوى هذه الرواية متدنيا فنيا.[29]

مرحلة تأسيس الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية:

يرجع بعض النقاد ظهور الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية إلى تاريخ لاحق وهو عام 1951 حين صدرت رواية (الطالب المنكوب) لعبد المجيد الشافعي، وهي كسابقتها لم تعرض للأوضاع السياسية في الجزائر بل تحدثت عن شاب جزائري عاش في تونس طالبا وأحب فتاة تونسية، ويصفها عبد الله الركيبي قائلا:" هي رواية رومانسية في أسلوبها وموضوعها،كما أنها ساذجة في طريقة التعبير."[30] ومنذ ذلك أيّ 1951لم تظهر رواية جزائرية عربية إلا في عام 1968 بعد الاستقلال على يد محمد منيع، والذي صنفت روايته (صوت الغرام)على نهج رومانسي يروي قصة شابين ريفيين وفشل حبهما نتيجة لتقاليد المجتمع التي تحرم أيّ علاقة بين الجنسيين مهما كانت بريئة...

إذن؛ يمكن ارجاع تأخر ظهور الرواية حتى هذا التاريخ إلى ظروف عدة منها: الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في الجزائر في ظل الاستعمار، كما أن الصعوبات المتمثلة في الطباعة والنشر كانت جسيمة[31] وكان لطول فترة التجهيل باللغة التي مارسها المستعمرون أثر كبير في عدم تمكن الجزائريين من اللغة العربية وبالتالي تأخر ممارستهم للكتابة الروائية باللغة العربية. ويرد الركيبي هذا التأخر في ظهور الرواية العربية الجزائرية إلى أن فن الرواية فن صعب يحتاج إلى صبر وأناة وتأمل طويل، مع انعدام النماذج الروائية الجزائرية العربية التي يمكن تقليدها والنسج على منوالها.[32] ويبدو أن ظهور الفن الروائي المدون باللغة العربية وارتقاؤه أصبح متطلبا سياسيا وقوميا في محاولة لإثبات الهوية؛ أيّ متطلبا حضاريا قبل كونه متطلبا أدبيا. فإذا كانت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسة قد ركزت على تشخيص مظاهر البؤس والحرمان والتخلف قبل الثورة التحريرية فإن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية حاولت أن تشير إلى احداث الثورة التحريرية ثم الخوض في الحديث عن ثورة البناء والتشييد التي انتشلت الفلاح والعامل والمعلم من بؤرة الفساد والتخلف.[33].

إن هذا الارتداد في الأعمال الروائية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية إلى فترة حرب التحرير والاتكاء عليها؛ أي تعصير الماضي هو محور جل الأعمال الروائية التي كتبت بعد الاستقلال؛ ويعلل سعيد علوش هذا التنقيب من قبل الروائيين في الماضي من حيث هو مجال ليعرف به الروائي الجزائري نفسه؛ فيقول :"إن ما يدفع الروائي...إلى البحث داخل الماضي لهو تعرفه فيه على نفسه إنه يقوم بفرز ما يمكن ان يفهم، وما يمكن أن ينسى للحصول على تمثيل الوضوح داخل الحاضر...وهدف التاريخي بهذا هو إعطاء هوية للذي يحيا بوساطته،هروبا من النسيان والغياب الذي رسمه الآخر(المستعمر) على جسده."[34] غن سيطرة الأحداث المتراكمة لحرب التحرير، والتغيرات السياسية والفكرية، احساس الشعبي الجزائري أنه أحوج ما يكون إلى إعادة تأسيس مفاهيم هويته الوطنية والقومية، وكل ذلك جعل معظم الأعمال الإبداعية تنزع إلى الواقعية، الأمر الذي أبعد الكتاب عن الروايات التاريخية والتراثية والرومانسية، فلم يكن هناك مجال للمبدع في ظل كل هذه الظروف أن يلجأ إلى الماضي أو ينغلق على الذات

ومن هنا أخذت الرواية الجزائرية في نظرتها إلى الواقع تركز على موضوعات أربعة:واقع الكفاح المسلح، وواقع الثورة الزراعية، وواقع النقد الذاتي والفساد الإداري، وواقع الاغتراب عن الوطن وهكذا ظهرت أسماء مازالت تحمل على عاتقها الاتكاء على هذه المرجعيات من أمثال: عبد الحميد بن هدوقة، والطاهر وطار، وعبد الملك مرتاض، ومرزاق بقطاش، وواسيني الأعرج...إلخ.

ويمكن القول أن رواية(ريح الجنوب)للكاتب عبد الحميد بن هدوقة؛ تعد أول رواية جزائرية فنية رائدة باللغة العربية بعدا الاستقلال[35] وتبرز قيمة هذه الرواية من كونها أسست لاتجاه الكتابة الروائية الجزائرية الذي يميل إلى التجسيد الواقعي لأحوال المجتمع الجزائري؛ فقد رصدت هموم الفلاح الجزائري ومشاكله مع الأرض،كما سجلت للفكرة سيطرة الخرافات والأساطير والجهل والفقر الذي امتزج بالحياة في الريف الجزائري.على الرغم من ذلك نجد أن الكثير من الملاحظات النقدية تتعلق بمضمون الرواية وبنائها وجهت لهذا العمل؛ فيرى عبد الفتاح عثمان أن هذه الرواية لم تهتم بتسجيل أحداث الثورة وتأثيرها على الصراع الطبقي في المجتمع.ويرى مخلوف عامر؛ أنه منذ أواخر الستينيات أخذت حالة الثورة المسلحة ببعدها المثالي، تتلاشى تدريجيا...وأن(ريح الجنوب) تبنت خطابا يقيم عملية فرز طبقي داخل الوطن ليقترب من طبيعة الصراع بروح نقدية وهكذا أصبحت الرواية تشير بأصابع الاتهام إلى الطبقة المستغِلة على أنها خانت عهد الأوائل واستأثرت بالزرع والضرع.[36]

هذا على مستوى المضمون، أمّا الجانب الفني فيكاد يكون من المجمع عليه أن اهتمام الروائي بالتسجيلية في وصف حياة الريف والاتجاه إلى الخطابية والاستطراد المباشرة أدى إلى ترهل البناء الفني والبطء الدرامي وطغيان المقولات على بناء الشخوص والأحداث بالإضافة إلى أن الرواية لم تنجح في ايجاد مركز ترتكز عليه الأحداث لتنمو وتتطور داخل بنية متماسكة، فلا رابط بين الأحداث سوى الفكرة العامة المهيمنة وهي وصف الحياة الاجتماعية في القرية الجزائرية بعد الاستقلال، وهو أمر أضعف الصراع الدّرامي في الرواية.[37]

ربما لا تكون هذه حال رواية بن هدوقة وحدها، إذ أن اهتمام الكتاب الجزائريين بالمضمون الأيديولوجي دفع معظم الأعمال الروائية نحو الخطابية والمباشرة والسطحية في تبليغ المضامين الوظيفية[38].حتى أن هذه أصبحت سمّة لصيقة بالأدب الجزائري الروائي عانة مع تفاوت في وضوح هذه السمة واختفائها، الأمر الذي دفع كثير من النقاد إلى جعل مدى واقعية الرواية وطبيعة مضامنيها المعيار الأول لفنيتها يقول إدريس الناقوري في ذلك: "والواقعية تعني الاقتراب من الشعب والتعبير عن مطامحه وتطلعاته وقيمة الأصلية، وهي التي تعطي للرواية خصوصيتها ومضمونها الحيوي، أنها المقياس الأول لفنية الرواية."[39] ويشهد على هذا التوجه النقدي في النقد الجزائري عناوين الدراسات النقدية؛ فغالبا ما يقف الدّارس على عناوين كهذه(الواقعية في روايات عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار-الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام-الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع...) بل أن الباحث كثيرا ما تستوقفه تعليقات نقدية كهذا الأخير:"أحداث الرواية بسيطة متواضعة لم ترتقع إلى مستوى تصوير الكفاح الثوري والذي خاضه شعب الجزائر، وخاصة أنها كتبت اثناء اشتعال الثورة في جبال الأوراس، فلم نر طول الرواية وعرضها وصفا لمعركة واحدة"[40].

ختاما نشير إلى أن رواية(ريح الجنوب)لابن هدوقة تعد المؤسسة للواقعية في الأدب الجزائري العربي.فهذه الرواية رغم كل ما قيل عنها وعن مكانتها سبقت بعمل رائد يرجع إلى سنة1969 هو رواية(رمانة)للطاهر وطار، وهي رواية تؤكد اتجاه نحو الالتزام السياسي والفكري والنضالي ومن هنا يكون الطاهر وطار-متقدما على لبن هدوقة- فضل طليعية نشر رواية تنتمي إلى الفكر والواقعي الاشتراكي.وكما كان للطاهر وطار فضل تأسيس اتجاه الالتزام الروائي في رمانة كان له أن يعمق هذا الاتجاه في روايته التي صدرت في1972 وهي(اللاز) و(الزلزال).

إذن؛سنوات السبعينات من القرن الماضي هي سنوات الانطلاقة الفعلية للرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية، فبالإضافة لرواية لـ(ريح الجنوب)لعبد الحميد بن هدوقةو(اللاز والزلزال)للطاهر وطار؛ هذه الروايات الثلاث تحديدا رسخت الفن الروائي في الحقل الثقافي الجزائري، وبعدها لم يعد سؤال ماهية الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية مطروحا، فقد كانت روايات بن هدوقة والطاهر وطار فاتحة لبروز جيل بأكمله من الروائيين الجزائريين الذين يكتبون الرواية بلغة عربية تنفلت من الأطر التقليدية للغة العربية المتوارثة، وتعالج الواقع الاجتماعي والسياسي بلغة حداثية وبرؤية عميقة وتمكن من الفن الروائي، حيث حاول الروائيين الجزائريين أن؛"يوفروا لأعمالهم الرواية قدرا من الفنية يتفاوت بتفاوت زاد كل منهم ورصيده من الممارسة الروائية، وقد اجتمع تراكم من النصوص الروائية في هذه الفترة بلغ"16"ستة عشر نصا روائيا وهو النتاج الذي حدا ببعض الباحثين إلى اعتبار أن السبعينيات عقد الرواية الجزائرية وتبلور اتجاهاتها."[41]

لقد عالجت الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية منذ انطلاقتها بداية سنوات السبعينات مختلف الإشكالات الاجتماعية والسياسية التي عرفها المجتمع، و"ارتبطت بمختلف السياقات السياسية والتاريخية التي عرفتها الجزائر المستقلة"[42]،وبالإضافة لكون رواية جيل السبعينات هي:"رواية البورجوازية الصغيرة المثقفة،كما أنها لم تكن تخرج عن جدلية التاريخ والواقع المعيشيوالمكتوب في الرواية هو المثقف المأزوم بإشكالية الواقع"[43]،فقد تناولت المصائر الفردية والجماعية للإنسان الجزائري، وصيرورة هذه المصائر في إطار مسار الثورة التحريريةكرواية(اللاز) لطاهر وطار، أو الثورة الاجتماعية التي أعقبت الاستقلال كرواية(ريح الجنوب) لعبد الحميد بن هدوقةو(الزلزال) لطاهر وطار.

فقد؛"كان الارتباط بالواقع المرجعي هو دائما المحور الأساسي لهذه الكتابات التي تنطلق منه وتعود إليه، باعتباره أساسيا في كل النماذج المكتوبة، لكن ضمن تصور إيديولوجي يشيد بالثورتين لارتباطهما معا، كما كان يعتقد آنذاك"[44]وهذه الإشادة بالثورة التحريرية كفعل تاريخي جليل مخلد درب الجزائر نحو الاستقلال، والثورات التي تلت هذا المكسب العظيم-الاستقلال-(الاجتماعية، والثورة الثقافية، والثورة الزراعية)أوقع الرواية الجزائرية المكتوبة في

التماهي مع الخطاب السياسي والإيديولوجي للنظام الحاكم،كما أن هذا النظام عمل على استقطاب وتوظيف الإنتاج الإبداعي والفكري لخدمة مصالحه الإستراتيجية ولتبرير اختياراته من خلال مؤسسات الدولة الثقافية والأيديولوجية(وزارة الثقافة ومجلاتها، مؤسسات النشر والتوزيع التابعة للدولة، اتحاد الكتاب، الجرائد الوطنية وملاحقها الثقافية...)،ونتيجة لهذا التوجيه الإيديولوجي المحكم من طرف النظام السياسي للعملية الإبداعية فإننا نجد أن القاسم المشترك بين جل تلك الأعمال الروائية التي صدرت أثناء عشرية السبعينيات باللغة العربية قد اشتركت في التركيز على نقطة مهمة تتعلق بالتعبير عن"معاناة وطموحات الإنسان الجزائري وكفاحه المسلح في سبيل إقامة مجتمع الكفاية والعدل"[45]وهو نفس الخطاب الذي أنتجه وسوقه النظام السياسي الذي تبنى الخيار الاشتراكي المسكون بفكرة النضال التحرري كوسيلة مثلى لتحقيق العدالة الاجتماعية، حيث نلاحظ أن "الخطاب الروائي الذي تضمنه هذه النصوص، قد تماهى إلى حد بعيد مع الخطاب الإيديولوجي الذي ساد خلال السبعينات ويرجع ذلك إلى الطبيعة الشعبية للسلطة الحاكمة آنذاك "[46]،التي عملت على تأميم المجتمع بأكمله لصالح مشروع الدولة.

ننتقل بنفس الوتيرة إلى جيل الروايات في سنوات الثمانينات التي لم تكن امتداد واستمرارية بشكل من الأشكال لرواية السبعينات على مستوى جميع الأصعدة؛(الفني، وطبيعة الرؤية للعالم، طبيعة الخطاب...)ولم يسجل أيّتحول جذري ولا تطور مغايرة خلال سنوات الثمانينات يمكن اعتباره قطيعة مع رواية السبعينات؛ لهذا نقول وبشيء من الحذر المنهجي عن الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية تحديدا؛أن سنوات الثمانيناتهي مرحلة ركود واستقرار للرواية الجزائرية،بالرغم أن فترة الثمانينات من القرن العشرين قد عرفت بالجزائر تغيرات سياسية واقتصادية عميقة، غير إن الرواية الجزائرية وباستثناءات قليلة ظلت غارقة في الرؤية التي أنتجها الآباء المؤسسون للرواية الجزائرية دون أن يتمكنوا من إنتاج نصوص تشكل قطيعة مع تلك النصوص والرؤى، هذه القطيعة لم تحدث إلا مع نهاية عقد التسعينات من القرن الماضي حين برز جيل من الروائيين الشباب يكتبون الرواية لأول مرة غالبا وينتجون نصوصا ذات حساسيات أدبية ومعرفية مغايرة، وهذا ما يسميه داود محمد"بانبثاق حقل روائي جديد."[47]

مرحلةالأزمة في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية:

وظيفة؛"الفن هي دائماً أن يحرك الإنسان بكليته، وأن يسمح"للأنا"بالتماثل بحياة الآخرين، وأن يمكنها مما لم تكنه، وما هي جديرة بأن تكونه...فالفن ضروري لكي يستطيع الإنسان أن يفهم العالم ويغيره، ولكنه ضروري أيضاً بسبب السحر الذي يلازمه."[48]٤الجت الرواية الجزائرية في فترة التسعينات مختلف التحولات الطارئة على المجتمع بوصفها الفن الذي استوعب كل المضامين الاجتماعية، و تكفل بنقلها بعمق شديد...كما رصدت عديد الظواهر الاجتماعية التي أفرزتها الأزمة أثناء العشرية السوداء؛(الإرهاب)ليس حدثا بسيطا في حياة المجتمع،وقد لا يقاس بالمدة التي يستغرقها ولا بعدد الجرائم التي يقترفها، بل بفضاعتها ودرجة وحشيتها. وعندما يتعلق الأمر بالجزائر فغن الإرهاب تقاس خطورته بتلك المقاييس جميعا، إذ استغرق مدة غير قصيرة حوالي عشر سنوات ارتكب جرائم كبيرة وارتكبها بفظاعة بلغت أقصى ما بلغته الهمجية. لذلك فإن وقعه في القلوب والعقول قد يعادل وقع الثورة التحريرية إن لم يفقها، ولكن انشغال الناس به في سعيهم اليومي وأرقهم الليلي، لم يمنع بعض الكتاب من تسجيليه. وكذا تسجيل انطباعاتهم وحديثهم النفسي، وآرائهم ومواقفهم اتجاه ما يقع في الجزائر، و بذلك نحت الرواية الجزائرية إلى تتبعها تاريخيا من خلال ما سجله الروائيون، فعالجت موضوع المثقف الذي طالته يد الأزمة بالدرجة الأولى لأنه يمثل صوت الحق الرافض لأي تغير سلبي على المجتمع، المثقف الذي كان له رأي مناهض ومندد لما يحدث في الجزائر والممثل في الكتاب و الأدباء و الفنانين و الصحافيين، ونتيجة لمجاهرته برأيه و فضحه للجرائم، قوبل برد عنيف و عوقب بأشد مما كان يتوقع، و لقد بلورت الرواية الجزائرية موقف المثقف الجزائري و صورت الأحداث التي مرّ بها، و الآلام التي ألمت به.

وتجدر بنا الإشارة إلى أن الكثير من الدارسين و الملاحظين يسمي أدب التسعينيات أو العشرية السوداء في الجزائر بـ(الأدب الاستعجالي)؛لأنه ولد نتيجة الظروف المفاجئة التي طبعت المجتمع الجزائري في مجال الإرهاب، حيث الأحداث متتالية ومتتابعة ومتسارعة ومفاجئة على نمطية لم يعهدها المجتمع وبأحداث لم يخبرها، مما يتطلب أدباً استعجالياً يعبر عنها، و يؤرخ لها ويكشف أسبابها ونتائجها، ويتخذ موقفاً منها، غير أن هذا الأدب اتسم بطابع الذاتية؛لأنه نقل لأحداث ذاتية خبرتها النفس

ومرت بها وتأثرت بها أشد تأثير، ولأنها أساس المرجعية الروائية للمغرب العربي من حيث الكتابة والإبداع، حيث السيرةوالرواية متجاوران، يتفاعلان فينتج النص الأدبي؛ لأنهما تنطلقان من التجربة الذاتية لتتجاوزاها بعد ذلك إلى مسالك التخييل وفضاءاته[49]؛ فإذن ضمير المتكلم يتجلى عبر هذا النص وبوضوح بالتشخيص والممارسة، حتى كاد أن يقترب مما يعرف بكتابة المذكرات أو اليوميات.

كما أشارنا سابقا؛ مثلت فترة التسعينات انطلاقه حقيقية للروايةِ المعاصرةِ في الجزائر، لجيلٍ من الشبابنخص بالذكر لدى الابداعات النسائية التي كتبن الروايَةَ لأول مرة، في ظروف اجتماعية وأمنية متأزمة.عالجت هذه الروايات صورةَ الموتِ اليومي والدمار الذي طال الوطنَ.فجاءت كتابةُ المرأةِ جزءًا لا يتجزأ من هذا الوضع المفجع.لأن الكتابةَ الروائيةَ باللغةِ العربيةِ قبل هذه الفترة، انحصرت في اسمينِ بارزينِ هما:الكاتبة زهور ونيسي والكاتبة أحلام مستغانمي.فمثلت فترة نهاية التسعينات من القرن الماضي، نقلةً نوعيةً للكثير من الصحافياتِ اللواتي تحولن من مجال الإعلام إلى مجالِ الإبداعِ الأدبي مثلالكاتبة(فضيلة الفاروق، وياسمينة صالح، وزهرة ديك...)وكلهن اشتغلن كصحافياتٍ في فترةِ الأزمةِ التي عاشتها الجزائر،ووقفن على بشاعة الحربِ...!وربما هو الحافزُ الذي فجرَ اللغةَ لديهن في شكلِ إبداع[50].تقول أحلام مستغانمي:"مازلت أبحث من خلالِ كتاباتي عن قيمة حياتي معنى معا"[51]

كما نجد روح التمرد تبلغ أقصى مداها في هذه الكتابات ونذكر على سبيل الاختصار لا الحصر نجد في كتابات فضيلة الفاروق خاصة في روايتها(اكتشاف الرغبة)،التي تعد من أقوى الكتابات الروائية جرأة في تكسير طابو"الجنس"في الأدب النسوي الحديث؛بالمعنى الذي نرى الروائية والقاصة فضيلة الفاروق، قد تجاوزت الأديبة أحلام مستغانمي التي كانت سباقة في طرق الكتابة المحظورة عندما أصدرت في سنوات السبعينيات من القرن المنصرم مجموعتها الشعرية التي وضعت لها عنوانا مثيرا للانتباه (الكتابة في لحظة عري)، وهذا قبل أن تتألق روائيا في الثلاثية الروائية (ذاكرة الجسد، وعابر سرير، وفوضى الحواس) وبالتالي فإن روح الثورة والتمرد على السائد من القيم البالية تعد من أبزر ملامح الالتزام عند جزء من كاتبات القصة والرواية في الجزائر[52]؛وليس من شك فإن الملامح الجمالية في النص الروائي، يحظى بالعناية الكبيرة، من لدن القاصة الجزائرية من الجيل الجديد، حتى وهي تخوض الكتابة في موضوعات تبدو محظورة في واقع المجتمع الذي تنتسب إليه...نلمس بصمات ذلك في نصوص(الزهرة والسكين)للقاصة زهرة بوسكين، وفي نصوص القاصة زكية علاّل خاصة في قصتها(قبر مفتوح)وفي غيرها من النصوص القصصية التي تتميز بحدتها وجرأتها الفكرية والطرح الموضوعي، ومحاولة بلوغها أقصى المعنى المنشود، من خلال غلغلة سكين الكتابة في الجرح الاجتماعي والوجع الواقعي[53]،حتى يخال القارئ أن زكية علال اختار أن تنحاز لمقولة جبران خليل جبران "ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب".

وبالتأكيد فإن ما يميز الكتابة القصصية والروائية النسوية في الجزائر، سواء ما كان معبر عنها باللغة العربية أو بالفرنسية التزامها الواضح بالخط الوطني النضالي خلال مرحلة الثورة والاحتلال، والتزامها بخط البناء والتشييد وبالتحول الاجتماعي في الجزائر الجديدة المستقلة، حيث يلحظ أن مواكبة الرواية والقصة النسوية الجزائرية، لا تقف بمعزل عن التطورات الجارية في مجتمع يسعى إلى مواكبة الحداثة بالموازاة مع ما يستوجبه العقل من المحافظة على ما يتميز به المجتمع الجزائري من خصوصيات صعب اختراقها بجرة قلم من مبدعة وقاصة مهما بلغت حجما كبيرا من الإبداع الفكري والأدبي، انطلاقا من الإحساس العميق بروح المسؤولية والوعي بالذات، والوفاء للانتماء لوطن يفرض حضوره على حاملة القلم، حتى وإن كان اخترق طابو الكتابة ووقع فيالمحظور الاجتماعي...لأن نقطة الانطلاق كانت بالأساس الالتزام الأدبي القائم على وعي المرأة الجزائرية المبدعة الذي لن يكون نشازا عن النص الأدبي الجزائري بوجه عام...[54]

ختاما؛ تطورت الرواية الجزائرية مستندة على مبدأ التجاوز المستمر، لتوسيع أفق المغامرة الروائية، وتفجيرها من خلال انفتاحها على المتخيل الشعبي المحلي، والذاكرة الجمعية وما تحفل به من إمكانات، وطاقات لشحنها وتجديد دمائها السردية كالأغنية الشعبية، والأمثال، والألغاز، والعادات، لتبلغ الرواية العربية الجزائرية مع بداية الثمانينيات، والتسعينيات من القرن الماضي درجة عالية من النضج والعمق والتحول، خاصة مع رواية(عرس بغل)للطاهر وطار1978، ورواية(نوار اللوزتغريبة صالح بن عامر الزوفرى)لواسيني الأعرج1983،ورواية(الجازية والدراويش)لعبد الحميد هدوقة سنة1983، دون أن ننسى (ذاكرة الجسد، وفوضى الحواس، وعابر سرير)لأحلام مستغانمي، ثم الرواية التي نشرتها أخيرا والمعنّونة

بـ(نسيان كوم)،ورواية (الأمير)لواسيني الأعرج وغيرها من الأعمال التي حاولت التأسيس لمرحلة جديدة سمتها التجديد والتجريب على مستوى الخطاب والآليات. وفي الكتابات الإبداعية النسوية الجديدة، لا نجد انفصالا بين هذا الجيل الجديد، والجيل القديم، والمخضرم من حيث الالتزام والوعي بقضايا الوطن والمرأة والمجتمع، أو الموضوعات المتعلقة بالتمرد والانقلاب على القيم البائدة، التي تميز ثقافة المجتمع الذكوري المهيمن، بحيث نجد في هذا الجيل الجديد من كتابات القصة القصيرة-حتى لا ننسى-ما يرتبط مثلا بجيل(جميلة زنير،وزليخة سعودي...)ونخص بالذكر جيل زهور ونيسي من حيث الالتزام الأدبي، مع الاختلاف في التنوع وفي اللغة، والأداء الفني، ويمكن أن نذكر أسماء أمثال(جميل طلباوي، وأم البنين، وأم سارة وعقيلة رابحي، وزهرة أنيس،...)فعلى الرغم من ارتباط القاصة الجديدة براهن عصرها وقضايا مجتمعها بأشكاله المعقدة، فإنها من ناحية التزامها، لا تمثل قطيعة مع الجيل الذي سبقها...مثلا القاصة الجزائرية زهرة أنيس التي تنشر باستمرار قصصها على مختلف الصفحات الأدبية،خاصة"المجاهد الأسبوعي"تمثل وفاء وامتداد للجيل السابق من جانب الارتباط بالأرض والوطن والقيم النضالية الثابتة، التي فصل فيها دم الثورة والشهداء على الرغم من أنها تسعى دائم في نصوصها، أن تكون صورة صادقة للأفكار التي تؤمن بها، كونها ابنة منطقة ثورية حاضنة للجهاد ضد المحتل الفرنسي...وهي بقدر إيمانها بالتواصل مع الجيل الأدبي السابق من حيث الالتزام في كتابة القصة القصيرة بقدر ما ترى أن الكتابة الأدبية والفنية، لابد أن تحمل بصمات وخصوصيات حاملة القلم نفسه...

وأمام كثرة التجارب الروائية والقصصية الجزائرية التي انخرطت في مسالك التجريب؛ تلك تشكّلات تستمد تجدّد نسغها من تجدّد رؤى كتّابها المتسائلة:شروطا وأدوات ووظيفة في المجتمع، من خلال إعادة النظر في العلاقة بالذات والمجتمع واللغة. ولعل الكتاب(عبد الحميد بن هدوقة، والطاهر وطار، وواسيني الأعرج، ورشيد بوجدرة، وجيلالي خلاص...)وجميع هذه الأعمال الروائية على مدى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، والتي تشكّل عمر هذه الرواية الجزائرية العربية. وهو نمط بقدر ما يكشف عن علامات تقاطع بين تجارب هؤلاء الكتاب ونصوصهم فإنه يبين توفر علامات تمايز بين تجربة وأخرى وحتى بين نصّ وآخر داخل التجربة الروائية الواحدة.

قائمة المصادر والمرجع المعتمدة:

- أحلام مستغانمي، مقال موسوم بـ" أرض الأحلام والصراع"، صحيفة أخبار الأدب، مصر، 22فبراير1998.
- أحمد دوغان، شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)،1989.
- إبراهيم عباس، الرواية المغاربية تشكل النص السردي في ظل البعد الإيديولوجي،دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط1، 2005.
- إدريس الناقوري، الرواية المغربية-مدخل إلى مشكلاتها الفكرية والفنية-، دار النشر المغربية، المغرب، ط1، 1983.
- بوشوشة بوجمعة، مراجع الكتابة الروائية في المغرب العربي، مجلة الآداب،جامعة قسنطينة، الجزائر،ع 2، 1995.
- بوشوشة بن جمعة، الرواية النسائية المغاربيّة، مؤسسة سعيدان، تونس ، ط1 ،1996.
- جان بول سارتر، نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر، الآداب،ع4-5(أفريل-ماي)، 1980.
- ج.ديجو، الأدب الجزائري المعاصر المكتوب بالفرنسية، تر:إبراهيم الكيلاني، دار طلاس، دمشق، ط1، 1991.
- حسان راشدي، ظاهرة الرواية الجزائرية الجديدة، مجلة التواصل، جامعة عنابة، الجزائر،ع19، جوان 2006.
- داود محمد، الأدباء الشباب والعنف في الوقت الراهن، مجلة إنسانيات، منشورات crasc وهران، الجزائر،ع10، 2000.
- رشيد بنمسعود، المرأة والكتابة، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1 ،1994.
- سعيد علوش، الرواية والأيديولوجيا في المغرب العربي(1960-1975)، دار الكلمة للنشر، لبنان ط،1981.
- عايدة بامية،تطور الأدب القصصي الجزائري(1925-1968)،تر:محمدصقر،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر،1982.
- عبد الله الركيبي،تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1978.
- عبد الفتاح عثمان، الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع(دراسة تحليلية فنية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (د.ط)، 1993.
- عبد الكبير الخطيبي،الرواية المغربية، تر:محمد برادة، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط،ع3، 1981.
- عبد المجيد حنون، صورة الفرنسية في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986.
- علال سنقوقة، المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية، منشورات الاختلاف، الجزائر، (د.ط)، 2000.
- عمر بوشموخة، مقال موسوم بـ"القصة النسوية في الجزائربين الالتزام والوعي بالذات"،النصر، الجزائر،ع21،13882أوت2012.
- فريدة إبراهيم بن موسى، زمن المحنة في سرد الكاتبة الجزائري، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط1 ، 2012.
- فيشر أرنست، ضرورة الفن، تر:ميشال سليمان، دار الحقيقة، بيروت،(د.ط)، 1965.
- محمد البصير، الموقف الثوري في الرواية الجزائرية المعاصرة(1970-1982)، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر، 1986.
- محمد بشير بويجرة، الرواية الجزائرية بين التأسيس والتأصيل، مقاربة ابيستيمولوجية لخطاب حكاية العشاق في الحب والاشتياق، مجلة دراسات جزائرية، منشورات مخبر الخطاب الأدبي في الجزائر، جامعة وهران،ع01، جوان 1997.
- مخلوف عامر، الرواية والتحوّلات في الجزائر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، 2000.

الهوامش:

1.محمد بشير بويجرة، الرواية الجزائرية بين التأسيس والتأصيل، مقاربة ابيستيمولوجية لخطاب حكاية العشاق في الحب والاشتياق، مجلة دراسات جزائرية، منشورات مخبر الخطاب الأدبي في الجزائر، جامعة وهران،ع01، جوان 1997، ص177.
2.ينظر:عايدة بامية،تطور الأدب القصصي الجزائري(1925-1968)،تر:محمدصقر،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر،1982،ص10-11.
3.عبد المجيد حنون، صورة الفرنسية في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986، ص31.
4 -جان بول سارتر،نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر، الآداب،ع4-5(أفريل-ماي)، 1980 ،ص31.
5-ينظر:عايدة بامية، المرجع السابق، ص13.
6-ينظر:عبد المجيد حنون، المرجع السابق، ص32.
7-ينظر:عايدة بامية، المرجع السابق، ص13.
8-ج.ديجو، الأدب الجزائري المعاصر المكتوب بالفرنسية،تر:إبراهيم الكيلاني،دار طلاس،دمشق،ط1991،1،ص25.
9-محمد البصير،الموقف الثوري في الرواية الجزائرية المعاصرة(1970-1982)، مذكرة ماجستير،جامعة الجزائر، الجزائر، 1986، ص27.
10.ينظر: ديجو، المرجع السابق، ص11-12.
11.المرجع نفسه، ص19-20.
12.المرجع نفسه،ص22-23.
13.المرجع نفسه،ص23.
14.ينظر: المرجع نفسه، ص25.
15.أحمد دوغان،شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،(د.ط)،1989،ص69-70.
16.مالك حداد، الشقاء في خطر، ص13.
17.المرجع نفسه، ص36.
18.أحمد دوغان، المرجع السابق، ص75.
19.ينظر:محمد البصير، المرجع السابق، ص27.
20.سعيد علوش، الرواية والأيديولوجيا في المغرب العربي(1960-1975)،دار الكلمة للنشر، لبنان ط1،1981،ص18.
21.ينظر:ديجو،المرجع السابق، ص100.
22.المرجع نفسه، ص164.
23.سعاد خضر، الأدب المعاصر الجزائري، ص175.
24.عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري،ص74.
25.المرجع نفسه،ص117.
26.سعاد خضر، المرجع السابق، ص125.
27.عبد الكبير الخطيبي،الرواية المغربية،تر:محمد برادة، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط،ع1981،3،ص19-20.
28.المرجع نفسه، ص20.
29.سعيد علوش، المرجع السابق، ص19.
30.ينظر:محمد البصير، الموقف الثوري في الرواية الجزائرية المعاصرة(1970-1982)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر، 1986، ص27.
31.عبد الله الركيبي،تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1978، ص77.
32.ينظر:عايدة بامية،المرجع السابق، ص61.
33.عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص75
34.ينظر:محمد البصير، المرجع السابق، ص38.
35.سعيد علوش، الرواية والأيديولوجيا في المغرب العرب ي(1960-1975)، دار الكلمة للنشر، بيروت، ط1، 1981.
36.ينظر: عبد الفتاح عثمان، الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع(دراسة تحليلية فنية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (د.ط)، 1993، ص20.
37.ينظر مخلوف عامر، الرواية والتحوّلات في الجزائر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، 2000، ص24-25.

38.ينظر:عبد الفتاح عثمان، المرجع السابق، ص104.
39.ينظر: علال سنقوقة، المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية، منشورات الاختلاف، الجزائر، (د.ط)، 2000، ص121.
40.إدريس الناقوري، الرواية المغربية-مدخل إلى مشكلاتها الفكرية والفنية-، دار النشر المغربية، المغرب، ط1، 1983، ص16-18.
41.عبد الفتاح عثمان، المرجع السابق، ص74.
42.حسان راشدي، ظاهرة الرواية الجزائرية الجديدة، مجلة التواصل، جامعة عنابة، الجزائر،ع19، جوان 2006، ص 30-47.
43.داود محمد، الأدباء الشباب والعنف في الوقت الراهن، مجلة إنسانيات، منشورات crasc وهران، الجزائر،ع10، 2000، ص27-39.
44.إبراهيم عباس، الرواية المغاربية تشكل النص السردي في ظل البعد الإيديولوجي،دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط1، 2005، ص 104.
45.داود محمد، المرجع نفسه، ص40.
46.حسان راشدي، ظاهرة الرواية الجزائرية الجديدة، ص47.
47.داود محمد، الأدباء الشباب والعنف في الوقت الراهن، ص40.
48.المرجع نفسه، ص75.
49.فيشر أرنست، ضرورة الفن، تر:ميشال سليمان، دار الحقيقة، بيروت،(د.ط)، 1965، ص16.
50.ينظر:بوشوشة بوجمعة، مراجع الكتابة الروائية في المغرب العربي، مجلة الآداب،جامعة قسنطينة، الجزائر،ع 2، 1995،ص181.
51.فريدة إبراهيم بن موسى، زمن المحنة في سرد الكاتبة الجزائري، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط1 ، 2012، ص9.
52.أحلام مستغانمي، مقال موسوم بـ" أرض الأحلام والصراع"، صحيفة أخبار الأدب، مصر، 22فبراير1998، ص9.
53.ينظر:رشيدبنمسعود،المرأة والكتابة، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1 ،1994، ص123.
54.ينظر:بوشوشة بن جمعة، الرواية النسائية المغاربيّة، مؤسسة سعيدان، تونس ، ط1 ،1996، ص103.
55.ينظر: عمر بوشموخة، مقال موسوم بـ"القصة النسوية في الجزائربين الالتزام والوعي بالذات"،النصر، الجزائر،ع21،13أوت2012 ،ص12.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 201 - 206
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

سؤال الأخلاق في الفكر الجزائري
- عبد الله شريط – نموذجا

رايس زواوي و محاضر

قسم العلوم الإجتماعية– شعبة الفلسفة جامعة سيدي بلعباس

شكّلت مسألة الأخلاق في كتابات / شريط/ بؤرة إهتماماته بواقع تفكير الإنسان المسلِم، ما برّر حقًّا، تزايد تشريح علاقة الأخلاق(La Morale) بالتناقض في الفهم إزاء ربطها دوماً بالإيديولوجيا، وأنت تقرأ لأعماله الضخمة- معركة المفاهيم- مثلاً تجده يطرحها في قالب عصري تنموي مُحفِّز للإنسان المسلِم أن يكون سبباً في فهم الدّين أولاً ومِن ثَم العمل على ربطه بواقعه المُعاش(Le Vécu).

تعرض سؤال الأخلاق عبر تاريخ ظهوره إلى اعتباره مفهوماً إيديولوجياً لارتباطه بما يمكن أن نسميه معركة المفاهيم، وهذا نتيجة ما لحق به من تناقضات في الفهم، فواقع الأخلاق على العكس من ذلك أمام مصطلحي الإسلام والمسلمين، لازال يطرح البحث عن الحلقة المفقودة بداخله حتى تكون الأخلاق في علاقتها بالواقع الحسي كما يقول/عبد الله شريط/ سبب من الأسباب لفهم الدّين بعيدا عن اليوطوبيا(L'utopie) وحتى في بعدها عن الايدولوجيا[1].

لقد كان بروز نشأة أخلاق عربية إسلامية كحدث واقعي بتوظيفها، لتقديم خدمات إلى الإيديولوجيا قد ازداد بازدياد الوعي الدّيني واستشعار قيمة المسؤولية أمام تعقد الواقع الحسي الّذي صار يُشكّل المسافة الّتي فصلنا وعيّنا عنها، عندئذٍ كان إدراك الفهم للدّين كأخلاق أن أصبحت محفز لتسخير الأسباب المتاحة والمبتكرة من رجل الدّين ومن المتديِّن النشط للدفع بدواليب التنمية قُدُما لمواكب فهم الدّين، كل هذا يتأسس عندما ننظر إلى المسجد ليس كفضاء لإنتاج الخطابات الدينية فقط ، بل لتصدير الأفكار التقدمية، وطرحه من جانبه المنفتح والمَرِن أمام تعقد الواقع المُعاش، كل هذا يفرض حتمًا، تحديات تجعل الأخلاق في سُلّم الترفُّع عن اللافهم والسمُّو بالإنسان إلى مرتبته التي خُلِق لها ومن أجلها .

يُؤسّس الأستاذ/ شريط/ أنّ أخلاق عصرنا، تنبني على واقع المفاهيم الحسية، ما يجعل من أخلاقه تحوم حولها مفاهيم إنتاجية كالواقع، العلم، حسيّة الدّين، يجعلنا نستنتج أنّه يفصل بين المُتديّن النشط والمُتديّن العاجز الذي اتخذ من الدّين صلاة وزكاة ولحَى ووضوء، ثم أنّ فهم هذه، هو إدراك لقيمتها في الحياة وواقعها الحسي لقوله: ".. بل نفس الإنسان وقوته الروحية وسلامة طبعه التي يستطيع رجل الدّين أن يخلق بها المنجزات ما لا يستطيع أن يخلقه العالم باكتشافاته في المادة الطبيعية أو المخترعات الآلية "[2] ، ليطرح مسألة القيّم وعلاقتها بالمؤسسة العلمية لفهم معنى الواقع الحسي وكيف تكون الأخلاق شرط على التحرُّر من الأفكار الإيديولوجية، شرطٌ لفهم إدراك معنى الدّين بعيداً عن ما لحقه من أفكار رجعية .

الأخلاق وفضاء المسجد.

نفهم جيداً، تصور سؤال الأخلاق في الفكر العربي- الإسلامي وتفتحه على الأفكار والمؤسسات من خلال تشريح الفضاء بإنتاجه لحسيّة

الأخلاق بتطهير العقلية من المفاهيم الرجعية الأرثوذكسية[3] التي طالما ناضل أمثال/ شريط/ وأركون والجابري لتحليل آليات التحكم في الفضاء بالبحث عن أشكال الأمية: أمية الفكر والدّين، أمية الثقافة والحضارة، فيبني دور الأخلاق على مجموع الثنائيات التي شكّلت برأيه بؤرة بُعد المسلِم عن مقارعة المسافة التي وجود هذا الإنسان كمنتِج للقيّم داخل فهمه لمنظومة القيم وأحكام القيّم، فبات:" تصنيفها في قائمة الشعوب البدائية منها إلى الشعوب المتحضرة "[4] فيعتبر كل ما يمس حياة الإنسان الروحية والمادية، والتربية والنسل بأنّها مواضيع لخدمة الإيديولوجيا في فترة، كان فيها المسجد فضاءاً لإنتاج الأفكار والرجال، أما اليوم أصبح العالم العربي- الإسلامي لا يُصنَّف عالمياً لعجزه عن التواصل مع الآخر، فيماثل / شريط/ رأي/ جلال العظم/ بأنّ:" الدّين هو مجموعة من المعتقدات والتشريعات والطقوس والمؤسسات التي تُحيط بحياة الإنسان "[5] لمساهمة الأخلاق في تأسيس صروح العلم، والأهم هو بناء المؤسسات الدّينية والأخلاقية، ذات الإرتباط بواقع مثالي- واقعي لحياة المُسلِم، ما يُؤسس لاحقاً خلق إمكانية للسمو بالفكر إلى مصاف الإيديولوجيا العلمية.

لقد طرح/ شريط/ مُنعرج مُهم، على أساسه تتحدد التنميّة هي دور المسجد كوسط إجتماعي يُنتِج الفعل الإجتماعي- الإنساني من خلال بعث الأخلاق إلى جانب العلم كضرورة لتأسيس مجتمع مُتكامل على خلاف بلاد المشرق (تركيا نموذجاً)، حديثه فيه جديّة وغيرة إتجاه ما لحق المجتمع برمّته من مأساة هي التفاوت بين العالَمين، فيحدِّد على منواله الخطاب من خلال إعادة طرح القوى التي ساهمت بطريقة أو بأخرى في خلق هذا الردب(L'impasse)، خصوصاً أنه حدّد أحادية الخطاب متمثلا في أشكال المأساة منها: الأميّة بكل ضروبها..

بكلامٍ نابعٍ من ثقة في النفس، وفي مقومات الإنسان المسلمً منهاً: لغته، يتحدث / شريط/ عن مسايرة العلم، فيُؤسِّس السؤال الأخلاقي الذي يحكم الفكر في كافة المجالات التي تهم المجتمع المسلم، ضف إلى ذلك، لم يكن الدّين حجرة عثرة (Pierre D'achoppement) أمام العلم، بل الواقع برهن على ازدواجية التكامل للسؤال الأخلاقي من خلال الدّين، العلم.

لقد إستطاع الأستاذ/ شريط/ بمهارة فكرية فائقة من تحديد مصطلحات التعامل مع سؤال الأخلاق في البيئة العربية المحلية، من خلال ربط الفضاء بحسيّة الواقع، حسيّة العلم بمحاولة إدراج الإنسان العربي- المسلِم في منظومة إنتاج الأخلاق التطور، والأهم هو الإنسان كما تصوره /ابن خلدون/ اجتماعيا وأخلاقياً والأكثر كما يذكر /عبد الله شريط/ في كتابه[6] هو إنسان جديد بالنسبة للبحوث الإنسانية لأنّ المشكلة الأخلاقية التي أبقتنا على صلة من التبعية نعاني التحجر هو:" أنّنا ما زلنا عبيداً لصورة الإنسان الذي تحدثت عنه الكتب الغربية.." [7].

يطرح المسجد كفضاء مفتوح حسِّية العلم في تجديد لآليات إعتماده بما يتماشى والإنسان العصري المُسلِم، لأنّ العلم هو خاصية في الوعي بوجوده وبمؤسساته الدّينيّة والتوعوية، لهذا جاء سؤال الأخلاق بمثابة قضية الأم، عندما يتعلق الأمر بالبيئة المحلية التي تراعي قيمة العلم ودوره في التميُّز، وعلى النقيض من ذلك، مسألة القطيعة التي فرضناها على الأقل مع بيئتنا العربية-الإسلامية، جاءت لضعف فهم معنى الإندماج مع المؤسسة وإنحسار لقيمة التواصل مع الآخر سواء كان نصًّا أو شيئًا أو موضوعًا للمعرفة، وهذا لتشخيص المرض ومعالجته إنطلاقاً من العلم، فانجرفنا في التبعية فكان أن كنا دارسين للتراث القديم، وبالتالي استفحلت المشاكل والأزمات وبالدرجة الأولى الأزمة الأخلاقية بانعدام للعلم.

عندما طرح الأستاذ/ شريط/ تركيبة سؤال الأخلاق- العلم كان يتحدث ضمنياً عن الترسبات (La Sédimentation) التي لازلنا نعتقد بجدواها وبأهميتها منها المنهج في العلم كما اتخذه /ابن باديس/ أو حتى غيره[8]. لذا، وإن أتّهمنا بأنّنا مارقين على طريقة المصلحين، إلاّ أنّ البيئة هي بيئات، فما وجب الآن هو تطهير المسجد كفضاء ليس للصلاة بل لإنتاج الأفكار وإعادة صياغة بقراءة متأنية تجديدية حتى لمنهج العلم لعلمائنا وباحثينا، وإلاّ فنحن داخل الترسبات، فإذا حدثت هذه القطيعة واعترفنا بخطئنا، أمكننا عندئذٍ أن نفك منطقة معركة المفاهيم لصالحنا. فيتحدث عن معركة اشتد فيها الغلّو والتطرف لمفهوم من المفاهيم، بدل أن نُحلله، تحللنا نحن وأصبحنا عبيداً للمفهوم، عصر المشكلات قد تفاقم، ودور المسجد في بعث التنمية يكاد يكون نادراً إلاّ في المواسم، لأنّ كل(المتوافدين من الزوّار باتوا غرباء ورحلة إلى أراض أخرى وإلى مساجد أخرى)، لهذا فإنّ:" كل مشاكلنا وعيوبنا التي يفضحها بدون شفقة مردها إلى مشكلة الثقافة، أعني الثقافة بأوسع معانيها: المدارس والكتب والصحف والمحاضرات، والعادات والتقاليد، ومفاهيمنا للسياسة والاقتصاد والأخلاق ومشاكل التربية وتناقضات الأجيال وتنازع الأفكار"[9] لأنّنا لم

نتحرر بعد من تحكُم العادات الفكرية، ومن التقليد التجديدي، لهذا فإنّ معيّار الحقيقة والزيف في حياتنا الاجتماعية كلها تطرح السؤال الأخلاقي من خلال الواقع والعلم، علماً أنّ آفاق التحوُّل وارد، لكنه يحتاج إلى منهج ورؤية فعالة تناقش طبيعة المشاكل الاجتماعية والأخلاقية لمراعاة ظروف المجتمع وحاجاته وهذا لا يتأتى بالأمل والأماني، بل بالعمل الجاد، ليصبح المشكل الأخلاقي سؤالٌ للبحث وأساسه.

مفهوم الإعتراف. ميزةٌ أخلاقية- علمية.

يسوق لنا الأستاذ/ شريط/ مَعْلماً آخر يُقوي من قيمة السؤال الأخلاقي، هو ضرورة الإهتمام بِنَهم المعرفة، التي يراها نابعةٌ من أخلاق المرء وحبه لخطاياه، لا ليعشقها بل ليُصححها ويستفيد منها، فيطرح معنى المنهج لبناء نظام معرفي- علمي، حيث فُشاطر ما طرحه المفكر في ما يخص أن نتحدث على مرأى من الناس وعلى مسمع مثقفينا، أنّ هذا ناتج عن شعورنا بالرضا أمام ضعف نفوسنا لأنّنا مرضى ومولعين بالمدح ولا نقبل بالذم ونمقت أنفسنا لأنّنا لا نعترف، وإن اعترفنا، سرعان ما ننسى..

لم يتوان عن طرح الخطأ الذي وقعنا فيه بدءاً من الفارابي[10] وحتى الآن والمتعلق أنّنا لازلنا بعيدين عن طرح مشاكل مجتمعاتنا بجديّة، وهذه مشكلة الإنسان العربي في أنّه إتخذ من غيره أن يكون قدوةً، ما يطرح بصدق مسألة البحوث الأخلاقية (الاجتماعية) بحيث أُعجب الأستاذ بكتابات /ابن خلدون/ التي حقرّت التاريخ الطبيعي المتمثل في الإكثار من شرح لما بعد الطبيعة لـ/ابن سينا/ الذي خصّص في كتابه عن ما يقرب من 4% من الكتاب تناولت الأخلاق والمعاملات والسياسة ما جعل من الخطأ حتمي، ويجعل منه على الدوام مُكرراً في كتاباتنا لأنّنا خلقنا هوة بيننا وبين مجتمعاتنا ومشاكله لقوله:"..نرتكب خطأين:الأول أنّنا نُكرر الخطأ الذي وقع فيه الفارابي وابن سينا وإضرابهما في تقليدهم للباحثين اليونانيين حتى غفلوا عن مجتمعاتهم (...) وهذا ما نبه إليه ابن خلدون في غير موطن "[11]، ثم أنّ ما أثار السؤال الأخلاقي لديه هو أنّ المجتمع العربي لم يُدْرَس دراسة علمية منذ/ابن خلدون/ إلى اليوم.

نعتقد أنّ / شريط/ يتصوّر منهجًا مغايِّراً ذو مستويين هما:

- فهو مَرِن، فلأنّه يتعامل مع العلم بأخلاق منفتحة تُتيحُ له بناء نظام معرفي يكفُل تطوره.
- فهو صارم، لأنّه يتعامل مع المؤسسة الدّينية والعلمية والثقافية بجدّية، لبناء نظام معرفي حول الإنسان أولاً، والأشياء ثانيًا.

يُصوّر لنا / شريط/ على طريقة /ابن خلدون/ الإنسان العربي الذي قَبِل بالسهولة واستعصى على نفسه اقتحام المشاكل الاجتماعية بواقع مُغاير وبأدوات مختلفة ونابعةً من أصل السؤال الأخلاقي، لأنّ المشكلة هي تَمثُل النضج الفكري لواقع اجتماعي أردناه لأنفسنا.

نذكر أنّنا طرحنا إلى جانب حسيّة العلم، حسيّة الدّين بتحديد المفارقات بين المتدين النشط والمتدين العاجز لبناء مشروع مجتمع، نحن لا نتعرض إلى الدّين كمشكلة، وإنّما كيف وظّف هؤلاء الدّين كمشكلة للتنمية لذا، يتحدث/ شريط/ عن النقد الذاتي الذي يحمل الإنسان النشط بطبيعة الحال إلى تفكير ذاته وتفكير مجتمعه، هنا بالذات يكون السؤال الأخلاقي في خدمة تنمية المجتمع حاضراً بقوة..

- يُعاني المجتمع العربي الآن ثِقلٌ كبيرٌ، فُرض على دّينه ومعتقده سواء الدينيّة أو غير الدينيّة التي تتآكله من الخارج والداخل بوسائل حضرّها بنفسه لاستقبال المدّ المُتأتي من مختلف التيارات.
- هل بات الاعتماد على الدّين فقط للصلاة والزكاة والفرائض؟ ألم يكن دعوةٌ إلى العلم ومن تم إلى الإهتمام بتنمية مجتمعاتنا، ففي الوقت الذي تآكلتنا الأمواج من الخارج وبات علينا الرجوع إلى الدّين للمحافظة على سؤال الأخلاق، صرنا داخل إنحتات، لأنّنا لم نفهم الدّين إلاّ ركعات..
- لا شك أنّكم تذكرون، أنّنا أشارنا كيف أنّ الأستاذ/شريط/ يُركِّز على عاهة الأميّة بمختلف أشكالها، أميّة الفكر والدّين، أميّة القراءة والكتابة، أميّة الثقافة والحضارة، بالتركيز عليها أنها سبب التأخر على الدوام، وهذا بخلق من المؤسسة عمومًا أن تكون منبع سؤال الأخلاق.

الأخلاق شرطٌ لعمل التنمية :

عندما تعرض لموضوع التنمية، ربطه دائماً بالسؤال الأخلاقي، لأنّ قيمة الأخلاق في المجتمع أكبر لتحقيق الوثبة الكبرى وهذا طبعاً بالاهتمام:" بحياة الإنسان الروحية والمادية على

السواء، مثل مشكلة القيّم، والحرية، وأنظمة الحكم، والأسرة، والتربية، والنسل"[12]، بحيث لم يتوان أن يُحدِّد موقفه منها، وهو موقف مؤيِّد لتوظيف الحياة الأخلاقية للدفع بعملية التنمية قُدماً نحو رفاهية المجتمع، شرط أن يكون خاضعاً للرقابة الأخلاقية، كوازع أخلاقي والنظر إليها باستمرار على أنّها قيمة

لقد أشار الأستاذ / شريط/ إلى موقف رجل الدّين من عمل التنميّة في المجتمع، أراد أن يتحدث عن المساهمات في البحوث والدراسات التي تمس حياة الناس،حيث يستشهد بجيل القرن الثامن عشر والتاسع عشر أمثال / رفاعة رافع الطهطاوي/ أو/ طه حسين/أو الجزائري/ كاتب ياسين/ وللتونسي/ الحبيب بورقيبة/ ولآخرين كثيرين:" عن مأساة تاريخية، مأساة التفاوت الفظيع بين عالمين مختلفين، ولا تزال هذه المأساة تتعقد وتستمرّ على صعيد بشري مُتعاظم ومُتفاقم "[13]، فنعتقد أنّ التقاطع الموجود بين

الأستاذين /شريط/ و/أركون/ هو حسيّة الّدين وحسيّة العلم، كلاهما قد اعتبرا المسلم المتدِّين العاجز عليا يتفكر فيها المسلم لتقويم ذاته وتقييم عمله، حيث نهجُ الإستدماج من المتديِّن عمومًا العربي- المسلم وغير المسلِم لم يتم تبنيها في المؤسسة ، إلاّ لكون المسجِد كفضاء تحوّل من كونه مفتوح إلى فضاءٍ مغلق وُضِع برأيه لتأدية الطقوس والشعائر وهذا الفعل يشجبُه الأستاذ/ شريط/بإستمرار بمثابة مأساة على دينه وعلى مجتمعه، فجاء هذا التفاوت لتحديد الأسباب التي جعلت العالم الغربي يُولي إهتماماً للسؤال الفلسفي،

وهذه نقطة الإختلاف والخِلاف بين العالَمين، فأُصبغ العلم بأخلاقهم وقيمّهم، في حين لم نفهم، حتى نعيّ تماماً معنى الدّين وموجباته، وما يدعو إليه من تكريّس القيم والعمل بها بما ينفع المجتمع المسلِم وهذا لتزكية الدور المنوط للإنسان.

الأخلاق والتنمية.

جيل البعثة العلمية(19-20). مساهمة الإصلاح في تكوُّن المعرفة حول التنمية.

بناء منظومة معرفية(6- 14 الميلادي

عهد الترجمة والإنتاج).

العلم والأخلاق.

لا شك، أنّ تحديد شروط الإصلاح تبقى قائمة إذا هي لاقت جديّة لخدمة المجتمع، وعليه: " ما جدوى ما يُؤديه العالم الديني من خدمة لمجتمعه؟ وما هو نشاطه في عملية التحريك الاجتماعي التي تُقلب الحياة في وسطه في كل لحظة؟..لأنّ الهدف من الصلاة الجماعية هو التدريب على العمل الجماعي المنظّم" [14]. لذا، نحتاج إلى تريُث ثم عمل، فتطبيق، لأنّ ما من عمل فيه تنميّة أو لصالح المجموع، إلاّ ويحتاج إلى تكاثف القوى والأفكار والعقول لتسيِّيره والتمكّن منه، وهذا عندما نأخذ بعين الاعتبار جعل الأخلاق في مصاف أهدافنا التي تؤطر هذه الأفكار، وهذا بالتخلّص من الأفكار التي إعتادنا بها على مجاملة الدّين لأنّنا لازلنا نعتبره فقط ركعات وهذان خطأٌ في حقّ الدّين.

ما أثار انتباهي وأنا أقرأ للأستاذ/ شريط/ هو طرحه لبدائل تحل محل التقليدي من العُرف الاجتماعي، فهو يجمع بين التطور وما ينعكس هذا الأخير على المجتمع الإسلامي برمّته وعلى الإسلام حتى لا يعود غريباً، فيقترح جمع ثمن أضاحي العيد في الحج وهي بالمئات[15]، وحتى تُستثمر في ميادين ومجالات تعود بالنفع العام، فنلمس أنّ هذا الطرح فيه تركيب بين العلم والأخلاق[16]، لأنّه يتكفل بتخصيص ميزانية لكل بلد من بلدان المسلمين تُجمع من أثمان الأضاحي وهذا طرحٌ قلما نجده لأنّه من جهة:

- تطويرٌ للإسلام بعدم جعله تقليدي.
- التفكير في مجمع إسلامي علمي- أخلاقي، حيث يتكفل بمسؤولية ضخمة، كما يكفل للمجتمع المسلم برمّته نصيبه من المال الذي يعود على السعودية كل سنة بالمال الوفير.

إنّ التحليلات التي وردت مع/ شريط/ في

كتبه سواء- مشكلة الإيديولوجيا وقضايا التنمية- أو- الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون- أو غيرها قد تناولت طابع الأخلاق والدّين على المدى الواسع، إذاً لماذا لا نستفيد من الأفكار التي نراها تنطبق مع خصائص مجتمعنا ؟ لماذا لا نمزج الاشتراكية في الاقتصاد وفي التنظيم الاجتماعي والسياسي؟.

إنّ الاشتراكية التي تحدَّثَ عنها الأستاذ هي بمثابة نظام علمي، قبل أن تكون نظام سياسي، فعلى أساس أن نستفيد منها في عمليةِ مزجها بثقافة المجتمع، بربطِ التطور بالأخلاق شرطَ أن تكون هذه الأخيرة مُحدِّدةً للأولى، هو ما نتفق معه في طرحه الواقعي لمواكبة الآخر، لكن طبيعة الاشتراكية أو حتى غيرها من النظُم قد برهن الواقع على فشلها الذريع، ليس كنظام، وإنّما كأشخاص قد سيَّرهم هواهم، قد أصبحت أخلاق الأفراد والجماعات مختزلة، والأكثر في جعل النظام رجعي لأجل تحقيق مصالح على حساب المجتمع.

نعيش اليوم وفقاً لوجهة نظرنا ما نُسميه- عالم الذئاب- لأنّ الفرد قد أُختزل في النظام فبدل أن تكون العلاقة تبادلية بين الفرد والنظام (الآخر)، صار الفرد هو الذي يُساعد الاشتراكية ولا يتوانى في إنجاح النظام، لكن هذا صار على مسؤوليته، ففي الوقت الذي كان يُنتظر أن يطرح السؤال الأخلاقي العلاقة التبادلية بينه وبين النظام أصبحت العلاقة مصلحية قذرة، فبات سؤال الأخلاق بين مزدوجتين.

من منظور/ شريط/ مسألة التعاون لحل أي أزمة ومنها مسألة الأميّة الفكرية، أمرٌ حتمي يُوجب تدخل الدّين لحل النزاع بإحداث رتقُ علوم الدّين بالعلوم العقلية (بما فيها العلوم الأدبية) لقوله:" ويجب أن نُسجل هنا أنّ الفكر العلمي إذا كان نتيجة لليقظة الذهنية العظمى التي أثارها الدّين في المجتمع الإسلامي، فإنّه من ناحية أخرى يعتبر هو مركز الثقل في ميزان الحضارة الإسلامية."[17]، فهو بمثابة أي- الفكر الدّيني- وثبةٌ للفكر العلمي، فماذا ينفع أن يكون الدّين مُتسامحاً،عادلاً، إذا لم يخلق في المجتمع فكراً علمياً يهاجم كل تفكير رجعي، منغلق:" فعظمته في نظرنا لا تعود إلى رحمته وتسامحه وعدله الاجتماعي وتحريره للشعوب من السيطرة السياسية والاقتصادية، بل تعود قبل ذلك إلى إثارته لليقظة الفكرية التي ألهم إليها مجتمعاً تعد أبرز ميزة فيه هي الأميّة الفكرية نفسها "[18].

إنّ أهم ما يطرحه الأستاذ/ شريط/ كتحليل واقعي للمسلمين وللإسلام[19] هو التلاحم بين الفكر الدّيني والفكر العلمي كسؤال أخلاقي لتطور المجتمع، ليس فقط حضارياً مُمثلاً في المؤسسات، بل أن يكون العلم والأخلاق شيءٌ واحد.

يعود/ شريط/ في نفس المسألة التي تخدم السؤال الأخلاقي هو عبودية العجز الفكري في أنّها ترسَّخت فينا عندما انزلقنا بالخصوص كما سماه/ ابن باديس/ جرّاء الدّين التقليدي[20]، ليحدثنا بأنّ معنى العمران هو الحضارة والصناعات، بل الأكثر، هو الأخلاق، هو تنظيم حياة الناس الاجتماعية والروحية، لأنّ هناك مسافة تقع بين الفكر الدّيني والفكر العلمي، يَحْرُم نزعها حتى لا يختلط الفكرين، فلا مانع أن يتعاونا معاً، لكن لكل مجاله الخاص، ما جعل من معنى السؤال الأخلاقي هو بناء أرضية يعمل فيها كل من الفكر العلمي والفكر الدّيني على إنفراد.

إنّ مبدأ الفصل جاء كمحاولة نافعة للاحتفاظ بحدود واضحة لترقية الفرد حضارياً وأخلاقياً، ولأنّ الحدود الفاصلة لا تعني القطيعة حتماً، فإنّ الإهتمام أو النقص الفكري هو أكبر ضرر على التطور أو تراجع السؤال الأخلاقي.

حتماً، الحاجات الحياتية التي نستفيد منها على نحو من التفكير العلمي، هي دون شك علاقتها بالأخلاق تتجاوز هذه الاستجابة الواقعية، لتلعب دوراً هاماً في تكوين الفكر الأخلاقي يكون دافعاً لمراعاة ظروف المجتمع وتطوره..هذه بعض أخلاقية العلم التي يراها الأستاذ بأنّها ضرورية، فهو يتكلم عن ممارسة الأخلاق في أحيان مُعرضة للقطيعة ومرّةً أخرى يربط بينهما، خصوصاً عندما نكون في موضع أن نهتم بواقعنا.

إنّ موضوع السؤال الأخلاقي مع الأستاذ هو في تنوعه بين التحريم والتقعيد:فـ" تتعلق كلها بالمستوى الحضاري للشعوب"[21] ما يجعل منها أن تكون إعتباطية، يُصبح الاقتراب منها ممنوعاً، كأخلاق المجتمع البدائي، وهذا صنفٌ من الأخلاق الذي ينظر إليه/شريط/ بأنّه شَكّل محور التفكير الاجتماعي قديماً وحديثاً.

فعلى نحو اعتباطي، أنّ مسألة التحريم لا تخضع لأسبابٍ عقليةً قد يقبلها العقل أو يرفضها، بل نُسلّم بها بديهياً- فمسألة المُسَلَّمة (Le Postulat)- نعني بها عدم المناقشة للأخذ أو الرفض، بل قبولها كما هي أو رفضها كما هي، ما يجعل من الأستاذ/ شريط/ في تحليله لمسألة السؤال الأخلاقي يأخذ عدّة تشعبات وأهمها: " أنّ الأخلاق تقوم على تحقيق الانسجام بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة" [22] مثلاً مسألة التسامح والتعصُب هي من الأخلاق لسعادة الفرد

والجماعة، فلماذا نُعاقب أفراد نتيجة أفكارهم إلى حدّ تجريمهم؟

يستوقفنا حديث/ شريط/ عن التسامح من خلال تعرضه إلى عملية مسحية للتاريخ، ليكون التسامح هو مسألة شخصية تُحبُها السلطة وتحرمها بالمنع بتسليط أشكال من الإقصاء حيناً، ومن الاضطهاد حيناً أخر، ولك من نماذج لـ:سقراط(Socrate) أو هوبز(Hobes) نماذج على فهمية الفرد (السلطة) للتسامح، عندما يكون هذا الأخير هو إنشاء وسطٌ إجتماعي يكفل للعلم قُدسيَتِه بما يعود على الأخلاق بتنمية شاملة.

لقد أثارنا مسألة السؤال الأخلاقي بتقليبه على عدّة أوجه، اجتماعي، سياسي، دّيني والأكثر فلسفي، وبالتالي تُصبح الحرية على اختلافها ليست بذات معنى، لأنّ ما يحدث في العالم من أعمال، كان بإسم الحرية والديمقراطية تحت غطاء إفساد معنى أن تحترم الآخر. لذا، نعتبر ما وصل إليه/ شريط/ من تحليل للسؤال الأخلاقي في الفكر العربي- الإسلامي لا يختلف عن مثيله عند المجتمعات غير المسلمة، وعندما أقول عربي- إسلامي، لا يعني الدّين، بل الإعتقاد بالتديّن، كلّه خطأ، كون المعايير الأخلاقية صارت تُوضع بحسب قبولها أو رفضها من العقل.

الهوامـــش

1- بالإمكان أن نفهم الإيديولوجيا في كلمة واحدة ، بأنّها التبعثر الذي يلحق بالأخلاق لسوء الفهم ، فيجعل من الأخلاق سؤالاً بين الحسي والواقعي .
2- شريط (عبد الله) ، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية ، ديوان المطبوعات الجامعية- قسنطينة(الجزائر) ، 1981 ، ص147 .
3- إشارةً إلى الإعتماد على النص الدّيني ، دون إعمال لواقع الحس في تفعيل دور الأخلاق لخلق تنمية الأفكار (الإنسان) والأشياء (المؤسسة) .
4- المرجع نفسه ، ص148 .
5- جلال العظم (صادق) ، نقد الفكر الديني ، دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت، ط5،مارس1982، ص12.
6- شريط (عبد الله) ، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر ، ط2 ، 1981 ، ص205 .
7- شريط (عبد الله) ، المرجع والصفحة نفسها .
8- لا نُنكِر دور الإصلاح الذي إتبعه هؤلاء منهم محمّد عبده، ابن باديس.. وغيرهم كُثُر في إقامة الثقة بين الإنسان المُسلِم ومؤسسته الدّينية التي تبنّت سؤال الأخلاق- العلم، عِلمًا أنّ هذا المنهج كان فعالاًن كونه أنتج مؤسسة ذات فضاء مفتوح ركّز على دور الوعي لإنتاج إنسان واعي على الطريقة الإسلامية- العربية.
9- شريط (عبد الله) ، معركة المفاهيم ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر ، ط2 ، 1981 ، ص ص:9 – 10 .
10- أشارنا إلى الفارابي من قَبيل أنّه مثّل عتبة معرفية كانت مرجعًا للإعتماد المنهجي وللتقويم المعرفي ، فبات إيجاد منظومة معرفية تؤسِّس لأخلاقية العلم ، حسيّة الدّين حلاً يرتقي إلى طبيعة الإنسان الجديد .
11- شريط (عبد الله) ، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ، ص206 .
12- شريط (عبد الله)، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية ، ص149 .
13- أركون (محمّد) ، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد ، تر: هاشم صالح ، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر ، 1993 ، ص65 .
14- شريط (عبد الله) ، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية ، ص152 .
15- المرجع نفسه ، ص154 .
16- وإنْ إعتبارنا أنّ طرحه موضوعي ، فهو لأنّنا نبغي إخراج المسلِم من عقدة التديُّن السلبي والتقليدي ، غير أنّ ما طرحه شريط من تفكير النصوص الدّينية الوقفية يبقى نسبيًا ، لأنّ الهدف من الأضاحي هو تحديد التضامن والإندماج الإجتماعي .
17- شريط (عبد الله) ، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ، ص540 .
18- المرجع والصفحة نفسها .
19- مسألة مصطلحات الإسلام والمسلمين ، تعرض لها الباحث المفكر محمّد أركون في كتابه: الفكر الإسلامي بتحليل مُوَّسع وهو لا يختلف كما رأينا عن الأستاذ شريط .
20- المرجع السابق ، ص541 .
21- شريط (عبد الله) ، من أجل سعادة الإنسان ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر ، د:(ط ، س) ، ص70 .
22- المرجع السابق ، ص72 .

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 93 - 103
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

قياس الكفاءة المصرفية للبنوك الخاصة الجزائرية في ظل التحرير المالي

علي بن ساحة

كلية العلوم الاقتصادية، التسيير والعلوم التجارية جامعة ورقلة

مقدمـــــة:

ان احد أهداف برنامج التحرير المالي هو تعزيز كفاءة المصارف التجارية بإيجاد قطاع مصرفي ومالي مرن قادر على المنافسة، بحيث يكون فيه للمصارف مزيد من التحكم في استخدام مواردها الخاصة وتحديد الخدمات المالية التي يطلبها الجمهور وإنتاجها بكفاءة وبأسعار تنافسية.

وتسليما منا بالتداخل الحاصل بين القطاع المالي والنمو الاقتصادي، فان المصارف -في الدول النامية وخاصة بالجزائر – هي المورد الوحيد والرئيسي للائتمان المقدم إلى المشاريع الاستثمارية للقطاعين العام والخاص وكذا لتغطية العجز الحكومي. لذا تعمد هذه الدول إلى تصميم سياسات ملائمة من اجل تأهيل قطاعها المصرفي والرفع من أداءه وتحسين كفاءته في تخصيص الائتمان.

وعلى هذا الأساس تسعى ورقتنا البحثية إلى تبيان الحقيقة القائلة أن التحرير المالي سيسمح للمصارف التجارية بالتوسع وتحسين الأداء، وذلك بفحص كفاءة القطاع المصرفي الخاص في الجزائر - حيث وجود سيطر تامة للقطاع العام على الدائرة المصرفية لا من حيث الاقراض او الايداع-من خلال التدقيق في العلاقة بين ملكية المصارف،الربحية، التركز وقياس الأداء.

وعليه تبرز ملامح إشكالية ورقتنا البحثية الذي على النحو التالي:

إلى أي مدى تؤثر سياسات التحرير المالي على الكفاءة المصرفية للمصارف الخاصة الجزائرية؟

1- الكفاءة والكفاءة المصرفية:

ارتبط مفهوم الكفاءة في الفكر الاقتصادي الرأسمالي بالمشكلة الاقتصادية الأساسية، والمتمثلة في كيفية تخصيص الموارد المحدودة والمتاحة للمجتمع من أجل تلبية حاجيات ورغبات الأفراد المتجددة والمتكررة.

1-1 مفهوم الكفاءة:

ويعود مفهوم الكفاءة تاريخيا إلى الإقتصادي الإيطالي فيلفريدو باريتو، الذي طور صياغة هذا المفهوم وأصبح يعرف " بأمثلية باريتو"، وحسب باريتو فإن" أي تخصيص ممكن للموارد فهو إما تخصيص كفء أو تخصيص غير كفء وأي تخصيص غير كفء للموارد فهو يعبر عن اللاكفاءة".(Inefficiency)

يطلق مصطلح أمثلية باريتو على حالة الكفاءة الاقتصادية التي تحدث عندما لا يمكن زيادة منفعة مستهلك أو طرف مستفيد أو سلعة ما إلا عن طريق الإضرار بأحد المستهلكين أو إحدى السلع أو أكثر، وذلك ضمن تركيبة من الموارد الثابتة وعدد غير متغير من الأطراف المستفيدة، وهي تختلف عن حالة أفضلية باريتو، إذ أن حالة الأمثلية لا تتحقق إلا عند إستنفاد كافة التفضيلات .

تعددت تعاريف الكفاءة بتطور مفهومها وفيما يلي بعض هذه التعاريف التي تندرج ضمن الجانب الاقتصادي:

"يقصد بالكفاءة الإستخدام الحكيم للموارد المتاحة وعلى النحو الذي يؤدي إلى خفض التكاليف".

أو هي "مقياس لدرجة الإستخدام الرشيد للموارد المتاحة والذي يحقق أقل مستوى للتكلفة دون التضحية

بجودة مخرجات النظام".[1]

تتمثل الكفاءة بالنسبة لفيليب لورينو (Philippe Lorino): "أنها كل من يساهم في تعظيم القيمة وتخفيض التكاليف، حيث لن يكون كفؤا من يساهم في تخفيض التكاليف فقط أو في رفع القيمة فقط، ولكن الكفؤ من يساهم في تحقيق الهدفين معا".

ويوضح كل من مايو وماث

(Malo j.L et Math.j.E): "أن الكفاءة تتمثل في العلاقة الإقتصادية بين الموارد المتاحة والنتائج المحققة، من خلال تعظيم المخرجات على أساس كمية معينة من المدخلات، أو تخفيض الكمية المستخدمة من المدخلات للوصول إلى حجم معين من المخرجات "

1-2 الكفاءة المصرفية:

لقد ركزت دراسات الكفاءة المصرفية نحو تقييم هذه الكفاءة في إطار التكاليف التشغيلية للمصارف وكذلك دراسة الكفاءة المصرفية في إطار الربحية المصرفية، كما تم إستخدام مفهوم الكفاءة الإقتصادية وتطبيقها على المصارف، وذلك بقياس الكفاءة التقنية أو الكفاءة السعرية لمصرف معين أو عدة مصارف.[2]

عمليا تقيس كفاءة التكلفة درجة إقتراب البنك من تكاليف أفضل ممارسة، وبمنحنى تكاليف عند حده الأدنى أو مدى اقتراب البنوك من البنك الأقل تكلفة والأفضل ممارسة ضمن العينة، وذلك لنفس المتغيرات ووفق نفس الظروف، أما كفاءة الربح فهي تقيس مدى إقتراب البنك من تحقيق أقصى ربح ممكن عند مستوى معين من المدخلات والمخرجات والمتغيرات الأخرى.[3]

إلا أن التوجهات الحديثة تحاول دراسة الكفاءة الإقتصادية للمصارف، بطريقة أوسع وأشمل من خلال ربطها بالأهداف المركزية للإقتصاد على المستوى الكلي، وذلك بتحديد دور هذه المصارف في الإقتصاد ومدى مساهمتها في التنمية الاقتصادية.[4]

كما لاحظنا سابقا أن مفهوم الكفاءة المصرفية هو معنى واسع لا يمكن حصره في نطاق ضيق، ويمكن إعطاء التعريف الآتي:[5]

"تكون المؤسسة المصرفية كفؤة، إذا استطاعت توجيه الموارد الإقتصادية المتاحة لها نحو تحقيق أكبر قدر ممكن من العوائد، بأقل قدر ممكن من الهدر أي التحكم الناجح في طاقاتها المادية والبشرية هذا من جهة، وتحقيقها للحجم الأمثل وعرضها لتشكيلة واسعة من المنتجات المالية من جهة أخرى"

وبتحليلنا لهذا التعريف نجد أن الكفاءة المصرفية تشمل عدة جوانب يمكن تلخيصها في النقاط التالية : [6]

- الكفاءة في استخدام الموارد المتاحة بالتحكم في التكاليف وهو ما يسمى بكفاءة التكاليف؛
- الكفاءة في توزيع التكاليف من خلال السعي وراء تحقيق الحجم الأمثل ويطلق عليها كفاءة الحجم؛
- الكفاءة في تنويع المنتجات المالية من خلال تنويع النشاط ويعرف هذا النوع من الكفاءة بكفاءة النطاق.

1-2-1 انواع الكفاءة المصرفية:

أ- الكفاءة الإنتاجية:

تعرف الكفاءة الإنتاجية في المؤسسة المصرفية بالكفاءة الكلية للتكاليف "cost efficiency overall" وإذا أخذنا بعين الإعتبار أن المصرف مؤسسة إنتاجية تستخدم عناصر الإنتاج مثل العمل ورأس المال والودائع لتنتج القروض والخدمات المصرفية وغيرها، فإن الكفاءة الإنتاجية للمصرف لا تختلف عنها في المؤسسة الاقتصادية.[7]

ويمكن تعريف الكفاءة الإنتاجية بأنها: "العلاقة بين كمية الموارد المستخدمة في العملية الإنتاجية، وبين الناتج من تلك العملية، وبذلك ترتفع الكفاءة الإنتاجية كلما إرتفعت نسبة الناتج إلى المستخدم من الموارد".[8]

وتقاس الكفاءة الإنتاجية عموما بنسبة إنتاج النظام، أو المنتجات (المخرجات outputs) إلى الموارد (المدخلات Inputs) المستخدمة في تحقيق هذه المخرجات أو الناتج، وانطلاقا من ذلك فإنه يمكن زيادة الكفاءة الإنتاجية عن طريق أي بديل من البدائل التالية:[9]

- زيادة كمية المخرجات مع بقاء كمية المدخلات ثابتة؛
- زيادة كمية المخرجات بنسبة أعلى من نسبة زيادة كمية المدخلات؛
- انخفاض كمية المدخلات مع بقاء كمية المخرجات ثابتة؛
- انخفاض كمية المدخلات بنسبة أعلى من نسبة انخفاض كمية المخرجات.

ونظرا لأن العملية الإنتاجية تتضمن جانبين: الجانب الأول تقني يتمثل في كمية المخرجات الناتجة عن إستخدام كمية من المدخلات، والجانب الثاني يتعلق بالتكاليف وتتمثل في أسعار المدخلات وعليه فإن الكفاءة الإنتاجية في أي منشاة تتألف من جزأين :

*-الكفاءة التقنية (Technical Efficiency):

يشير هذا النوع من الكفاءة إلى قدرة المنشأة على إنتاج مستوى معين من المخرجات أو المنتجات بإستعمال أقل كمية ممكنة من الموارد (المدخلات)، مع إفتراض ثبات العامل التكنولوجي، وذلك بغض النظر عن العلاقات السعرية بين أسعار عناصر الإنتاج وأسعار بيع الوحدات المنتجة.

*-الكفاءة التخصيصية أو كفاءة تخصيص الموارد (Allocative Efficiency):

تشير إلى الطريقة التي يتم بها التوزيع الأمثل للموارد على مختلف الإستخدامات البديلة لها، آخذين بالحسبان تكاليف إستخدامها، إذا الكفاءة التخصيصية تشير إلى إنتاج أفضل توليفة من السلع عن طريق إستخدام توليفة من عناصر الإنتاج بأقل تكلفة ممكنة .

ب- كفاءة وفورات الحجم:

تشير كفاءة الحجم في البنك إلى التوفير في تكاليفه عند زيادة حجم المنتجات، مع الإحتفاظ بمزيج مدخلات ثابتة وبذلك تشير وفورات الحجم إلى زيادة أو إنخفاض الكفاءة بناءا على الحجم، وتعرف وفورات الحجم بأنها:[10]

"تلك الأرباح الناتجة عن الإنخفاض في تكاليف الإنتاج نتيجة الزيادة والتوسع في حجم المشروع"

ووفورات الحجم ترتبط بتغير التكلفة المتوسطة تمثل التكلفة الكلية على الإنتاج)، مع زيادة نسبة المخرجات (زيادة حجم الطاقة الإنتاجية).

ويمكن قياس كفاءة الحجم من خلال غلة الحجم، وتقيس هذه الأخيرة التغير النسبي في الإنتاج إلى التغير النسبي في عناصر الإنتاج، ويمكننا أن نجد الحالات التالية:[11]

- إذا كان التغير النسبي في الإنتاج إلى التغير النسبي في عناصر الإنتاج أكبر من الواحد، لدينا حالة غلة الحجم المتزايدة؛
- إذا كان التغير النسبي في الإنتاج إلى التغير النسبي في عناصر الإنتاج أقل من الواحد، لدينا حالة غلة الحجم المتناقصة؛
- إذا كان التغير النسبي في الإنتاج إلى التغير النسبي في عناصر الإنتاج يساوي الواحد، فتكون لدينا حالة ثبات غلة الحجم.

وعليه يمكن القول أن وفورات الحجم ترتبط بثبات غلة الحجم عند مستوى الحد الأدنى الكفء

وبالتالي فإن:

وفورات الحجم = غلة الحجم – 1 وعليه:

- تكون وفورات الحجم معدومة عندما تكون غلة الحجم ثابتة؛
- تكون وفورات الحجم موجبة عندما تكون غلة الحجم متزايدة؛
- تكون وفورات الحجم سالبة عندما تكون غلة الحجم متناقصة.

جـ- كفاءة وفورات النطاق:

تعبر كفاءة وفورات النطاق عن استطاعة البنك على إنتاج مزيجا من المنتجات (التنويع في المنتجات) بتكلفة إجمالية أقل من تكلفة أن ينتج كل منتوج من المزيج على حدى، أما إذا كان لا يستطيع ذلك فنقول عنه أنه يتصف باللاكفاءة في تنويع منتجاته، وتقاس كفاءة النطاق من خلال نسبة الإدخار في التكاليف نتيجة إنتاج منتجين أو أكثر معا.[12]

كما توضحه المعادلة الأتية :[13]

$$س = \frac{ت(ك1) + ت(ك2) - ت(ك1+ك2)}{ت(ك1+ك2)}$$

حيث:

- س: هي درجة وفورات النطاق .
- ت (ك1): هي تكلفة إنتاج الكمية (ك1) من المنتوج الأول على حدى؛
- ت (ك2): هي تكلفة إنتاج الكمية (ك2) من المنتوج الثاني على حدى؛
- ت (ك1+ك2): هي تكلفة إنتاج الكمية (ك1) من المنتوج الأول والكمية (ك2) من المنتوج الثاني معا.

وتتحقق وفورات النطاق عندما تكون قيمة (س) أكبر من الصفر، لأن تكلفة إنتاج المنتوجين معا ت (ك1+ك2) أقل من تكلفة إنتاج كل منتوج على حدى ت (ك1) + ت (ك2)، ومن الواضح أن (س) تقيس نسبة الوفر الناتج عن إنتاجهما معا بدلا من كل على حدى.

د- كفاءة إكس (X- Efficiency) :

تعرف بالكفاءة التشغيلية، وتعرف على أنها "الكفاءة في إستخدام المدخلات".[14]

كذلك الكفاءة إكس تعرف "كنسبة بين أقل تكلفة يمكن إنفاقها لإنتاج مزيج من المخرجات وبين التكلفة الفعلية التي تم إنفاقها".[15]

وأول من قام بصياغة مصطلح(X- Efficiency) هو Leibenstein عام 1966، حيث وجد أن العوامل البشرية والإدارية الفعالة التي تساهم في زيادة الإنتاجية تخفض من لاكفاءة إكس(X-Inefficiency).

ويرى بعض الإقتصاديين بأن هذا النوع من الكفاءة في العمل المصرفي، يتأثر بعوامل عديدة منها مشاكل الوكالات المصرفية المتعلقة بين المالكين ومسيري هذه الوكالات، التشريعات، التنظيمات والبنية القانونية للمصارف، وتتأثر أيضا بحجم ونطاق العمليات المصرفية .[16]

وبصورة أدق تعتبر كفاءة إكس مقياسا لمدى إنحراف الكفاءة الكلية عن مستواها الأمثل، حيث يعود هذا الإنحراف إلى عوامل تؤثر على عناصر الإنتاج كالمهارات الإدارية والتكنولوجيا المستخدمة ونظم الحوافز والأجور وغيرها من العوامل، وبالتالي فإن إرتفاع كفاءة إكس في البنك يعبر عن التحكم الجيد في مثل هذه العناصر.[17]

ويرى بعض الإقتصاديين أن هذا النوع من الكفاءة المصرفية، له آثارا أكبر على عملية القدرة التسييرية لمراقبة التكاليف أو تعظيم الأرباح، من آثار كل من حجم ونطاق الإنتاج على التكاليف، حيث تقدر بالنسبة لكفاءة إكس (X- Efficiency) بـ 20% أو أكثر من التكاليف، في حين اللاكفاءة تعبر عن حجم إنتاجية ومزيج المنتجات عندما يتم تقديرها بشكل دقيق فهي أقل من 5% من التكاليف.

تقاس كفاءة إكس بعدة طرق منها النسبة الدنيا للمدخلات أو المخرجات، أو النسبة الدنيا للتكاليف الكلية على الأصول الإجمالية أو ما يعرف بمتوسط التكلفة الكلية، أو بأقصى المخرجات إلى المدخلات، وباستخدام طرق التقدير فهي تقاس بمدى انحراف القيم الحالية من القيم المتوقعة التي تمثل الحد الكفء.[18]

1-2-2 العناصر الرئيسية للكفاءة المصرفية:

فيما يلي أهم العناصر الرئيسية للكفاءة المصرفية: [19]

1. إن الالتزام بمعدل مناسب من كفاية رأس المال، يساعد في تجنب المخاطر المتعلقة باستثمار الأموال المتاحة لدى البنك التجاري، والتي ترتبط تحديدا بالاستثمارات الأعلى ربحية؛
2. الالتزام بمعايير الإقراض المحدد من قبل السلطات النقدية، يقود إلى التخلص مما يسمى بالقروض المتعثرة والمعدومة، والتي تؤثر بصورة مباشرة على جودة الأصول وبالتالي على الربحية؛
3. وجود الإدارة الكفأة ينعكس بصورة مباشرة على ارتفاع معدلات الربحية، وذلك لأن الإدارة هي العامل الأساسي بتخفيض مصاريف التشغيل، التي تدخل في احتساب صافي الدخل للبنك التجاري؛
4. إن التوليف بين العناصر السالفة الذكر بمنظومة واحدة، يقودنا إلى النتائج الأساسية للكفاءة وهو تحقيق معدلات عالية من العائد، والجانب الأساسي في هذا الأمر هو توجيه مصادر الأموال إلى استخداماتها الأمثل بتبني مفهوم رشادة الاستغلال، والذي ينعكس بالتالي على معدلات ربحية مرتفعة إلى جانب الحفاظ على معدلات سيولة كافية، الأمر الذي يجعل من البنك أكثر كفاءة؛
5. البحث عن مجالات جديدة لاستخدام الأموال المتاحة لدى البنك، تحقق له أرباح أكبر وبتكلفة أقل وذلك من خلال إتباع إستراتيجية التنويع بالاستثمار، الأمر الذي يقود إلى توزيع المخاطر المرتبطة بالاستثمار والتقليل من تأثيرها وحدتها على البنك؛
6. الاتجاه نحو تخفيض تكلفة الخدمات المقدمة، مع الاحتفاظ بجودة مرتفعة الأمر الذي ينعكس على تحقيق معدلات عالية من النمو في حجم الودائع، والذي يوفر مصادر جديدة للأموال مما يساعد على تمويل استثمارات أخرى، تولد أرباحا إضافية وتعزز من المركز المالي للبنك.

1-2-3 العوامل المؤثرة على الكفاءة المصرفية:

نذكر منها: الربحية، المخاطر، العوامل الادارية، درجة المنافسة، الانظمة التشريعية والقانونية.

كما يمكن تقسيم العوامل المؤثرة على الكفاءة المصرفية إلى عوامل داخلية وخارجية: [20]

* **العوامل الداخلية**: والتي تتكون من السياسات المالية والإدارية المتبعة من قبل البنك، والتي تعتمد على درجة المنافسة بين البنوك، كفاءة البنك، حجم النشاط الاقتصادي، وهذه العوامل جميعها تتعلق بالسيولة والتركيز على العائد على حقوق الملكية والعائد على الإستثمار وكذلك حجم الموجودات.

* **العوامل الخارجية:** وهي العوامل المتعلقة بالسياسات الخارجية المفروضة على البنوك، ومختلف النظم والتشريعات المالية والنقدية المفروضة من قبل الحكومة والبنك المركزي تحديدا، والمتعلقة بأسعار الفوائد وحجم الإحتياطيات النقدية المفروضة على البنوك، والمتعلقة كذلك بحجم الإئتمان الممنوح من قبل هذه البنوك.

1-3 طرق قياس الكفاءة المصرفية:

تأتي أهمية قياس كفاءة الأداء من حيث الحكم على مدى قدرة الإدارة على إستخدام الموارد والإمكانيات المتاحة استخداما أمثلا، وذلك بإكتشاف الإنحرافات والتعرف على نواحي الإسراف والضياع وعدم الكفاءة ومن ثم إتخاذ القرارات والإجراءات اللازمة لمنع تلك الأخطاء وتقليل الإنحرافات ما

أمكن، والرفع من الكفاءة بما يحقق الصالح العام وصالح المؤسسة، إلا أننا نلاحظ أنه في حين قياس كفاءة الأداء أمر سهل وميسور في قطاع الصناعة حيث يمكن تركيز المدخلات والمخرجات في قيمة نقدية وحيدة لكل منها، نجد أنه في قطاع الخدمات خاصة القطاع المصرفي أمر صعب، حيث نجد أنفسنا أمام عدة مدخلات يقابلها عدة مخرجات يصعب تقويمها نقديا كما تختلف المخرجات عن المدخلات في طبيعتها ونوعيتها.

إن هذا الإختلاف والتنوع والتميز في طبيعة نشاط المؤسسة المصرفية وتعدد طرق قياس مدخلاتها ومخرجاتها صاحبه تنوع في طرق وأدوات قياس الكفاءة المصرفية، وتعود فكرة قياس الكفاءة إلى أعمال Farrell (1957) الذي حدد مقياس بسيط للكفاءة التقنية والتخصيصة من أجل مدخلات متعددة.

وفيما يلي نستعرض أهم هذه الطرق:

1-3-1 قياس الكفاءة المصرفية باستخدام النسب المالية:

تعتبر معايير الأداء من الأدوات التحليلية المفيدة والهامة، والتي تستخدمها الإدارة لتحليل نتائج الأعمال أو الأداء الفعلي بقصد تقييم أداء المنشآت، ويكون ذلك أما بمقارنة المعايير المعدة على مستوى الصناعة، أو على مستوى المنشأة، أو بالمقارنة مع النتائج التي حققتها المنشآت المماثلة في السنوات السابقة.

ومع التطور المستمر الذي عرفته الصناعة المصرفية فإن القوائم المالية لم تعد قادرة على إعطاء صورة واضحة وعاكسة لآلية العمل المصرفي، وهنا تبرز أهمية التحليل المالي الذي أصبح يستخدم ويستفيد منه كافة النشاطات الاقتصادية والاجتماعية، كالمشاريع والبنوك وشركات التمويل والمستثمرين والمدخرين والشركات التجارية الصناعية.[21]

وبالنسبة للبنوك فإن التحليل المالي يعتبر أساسا من أسس التخطيط والرقابة المالية السليمة ويتضمن دراسة تفصيلية للبيانات الواردة في الكشوفات المالية، ودراسة نتائج الأعمال أو الأداء المالي لتفسيره وتحديد مكامن الضعف والقوة في السياسات المالية المتبعة من قبل المصرف[22]، وكذا يساعد على معرفة مركز البنك وحقيقة وضعه وأين يقف بين بقية البنوك المماثلة، ويدل على الأخطار التي يمكن أن يواجهها لذا يعد التحليل المالي ضرورة قصوى للتخطيط المالي السليم.

ويتم تحليل البيانات والقوائم المالية بطرق مختلفة أهمها:

أ)-التحليل الرأسي (Vertical Analysis):

يقوم التحليل الرأسي على أساس دراسة العلاقة بين البنود المالية المختلفة بالقائمة المالية عن فترة زمنية محددة، أي قياس العلاقة النسبية للمفردات في قائمة واحدة وبمعنى أخر فإن هذا التحليل يبين الأهمية النسبية لكل بند من بنود الميزانية في تاريخ معين .[23]

ب)-التحليل الأفقي (Horizontal Analysis):

يقوم التحليل الأفقي على أساس تحليل القوائم المالية لعدد من الفترات المتعاقبة مع إختيار فترة واحدة من تلك الفترات لتكون فترة الأساس، للتعرف على حجم ونوع التغير الذي يطرأ على عنصر معين أو مجموعة من العناصر وقياس الإتجاه ونوعه وتقييمه.[24]

ج)-تحليل النسب (Ration Analysis):

ويتضمن حساب نسب محاسبية خاصة من عنصرين أو أكثر من العناصر الظاهرة في حسابات الدخل والميزانية وذلك لكشف العلاقات بين هذه العناصر.

والنسب المالية تستخدم عادة لقياس الانحرافات المالية للمؤسسة، ولتحديد نوعية الإدارة لهذه المؤسسة وتعتبر النسب المالية أداة مفيدة إذا استخدمت بحرص وفسرت بعناية، حيث يسترشد بها مقيم الأداء في تشخيص المشكلة الإدارية وتحديد العلاج المناسب من وجهة نظره، ولكن يجب على مقيم الأداء أن ينظر إلى النسب المالية على أنها مؤشرات تساعد على التشخيص ولكنها لا تكفي بمفردها.[25] وضمن هذا الإطار سنتطرق إلى نموذج العائد على حقوق الملكية كوسيلة لقياس الكفاءة المصرفية

ويمكن تلخيص النموذج العائد على حقوق الملكية في الشكل التالي:

شكل رقم: (1-2) نموذج العائد على حقوق الملكية

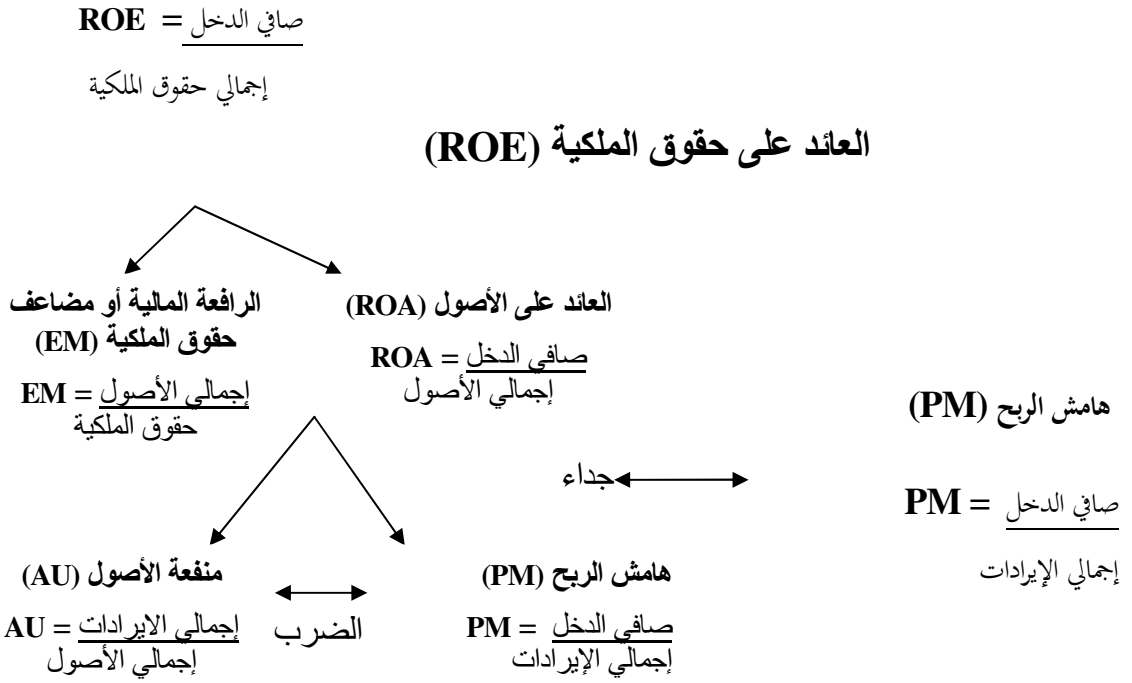

المصدر: من إعداد الباحث بناء على :

*-محمد الجموعي قريشي، قياس الكفاءة الاقتصادية في المؤسسات المصرفية "دراسة نظرية وميدانية للبنوك الجزائرية خلال الفترة 1994-2003 "، مرجع سبق ذكره.

*-فطيمة الزهرة نوي، تقييم كفاءة أداء البنوك الجزائرية بإستخدام النسب المالية ونموذج حد التكلفة العشوائية خلال الفترة "2004-2008، مرجع سبق ذكره

2-3-1 قياس الكفاءة المصرفية بالطرق الكمية:

يمكن تمييز نوعين من الطرق الكمية لقياس الكفاءة المصرفية، طريقة تعتمد البرمجة الخطية كنموذج غير معلمي وتقوم أساسا على إفتراض عدم وجود الأخطاء العشوائية عند القياس، ومن أهم طرقها

طريقة تحليل البيانات المغلفة، وطريقة تعتمد التقدير الإحصائي كنموذج معلمي، ومن بين طرقها طريقة الحد السميك وطريقة حد التكلفة العشوائية، وطريقة التوزيع الحر، وفيما يلي سيتم توضيح هذه الطرق كما يلي[26]:

***- طريقة تحليل البيانات المغلفة (DEA) :**

شهد عام 1978 تطورا في مجال قياس الأداء، فقد تمكن Charnes وزملاؤه من وضع أسس أسلوب التحليل التغليفي للبيانات، وهو تقنية غير معلمة وأحد أساليب البرمجة الخطية المبني على أساس منهجية الحد Frontier Methodology التي ترجع لأعمال Farrell عام 1957، ويتميز هذا الأسلوب بالعديد من المزايا التي من أهمها تحديد نسبة اللاكفاءة ومصادرها بالإضافة إلى سهولة الاستخدام.[27]

تعرف هذه الطريقة بأنها تقنية غير معلمة تستخدم مبادئ نظرية البرمجة الخطية لاختبار نشاط بنك مقارنة بنشاط بنوك أخرى ضمن عينة من البنوك، حيث تقدم لنا مؤشر "أفضل تطبيق" لمستوى تكنولوجي يعتمد أو يستند إلى خبرات عينة من البنوك.

تستخدم هذه الطريقة مجموعة من البيانات حول التكاليف، المخرجات، وأسعار المدخلات لعينة من البنوك، ومن خلال هذه العينة يتم تحديد البنك الذي ينتج وبأقل التكلفة حجم إنتاج عند مستوى معين من

أسعار المدخلات، ويعرف هذا البنك بـ: "أفضل بنك ممارس" أو "أفضل تطبيق" لتلك التوفيقة (مخرجات، أسعار مدخلات) ويشكل حدا للكفاءة Efficiency Frontier يغطي أو يغلف البنوك الأخرى في العينة ويمكن استخدامه لتقييم كفاءة باقي البنوك، فالبنوك التي تقع على الحد هي البنوك الكفؤة، والبنوك التي تقع خارج الحد فهي غير كفؤة، تعتبر هذه الطريقة مرنة وقابلة للتكييف، ولا تضع أسلوبا خاصا لدالة تكاليف أفضل بنك ممارس لكن المشكلة هي كونها لا تسمح بأي أخطاء في البيانات، رغم أن كل البيانات في الواقع تخضع لخطأ القياس لذلك تعتبر هذه الطريقة غير واقعية.

***- طريقة حد التكلفة العشوائية (SEFA) :**

تعتمد هذه الطريقة على تقنيات الانحدار لتقدير دالة التكاليف الكلية كمتغير تابع لعدة متغيرات مستقلة تتضمن مستويات المخرجات وأسعار المدخلات، وتشكل التكلفة الكلية المتوقعة الحد العشوائي الذي يمثل أفضل تطبيق، وعليه فإن المصرف الذي تكلفته الحالية تساوي تكلفته المتوقعة سيمثل أفضل تطبيق [28].

وبالتالي يوصف البنك باللاكفاءة إذا كانت تكلفته الحالية أعلى من تلك المتوقعة، في حين أن الفرق بين التكلفة الحالية والمتوقعة يسمى بحد الاضطراب العشوائي ويشمل عنصرين هما: الأخطاء الناتجة عن الكفاءة إكس وتكون موزعة توزيعا نصف طبيعي، والأخطاء العشوائية للإنحدار والتي تتوزع توزيعا طبيعيا.

***- طريقة الحد السميك (TFA):**

تم تطوير هذه الطريقة من طرف (Berger and Humphrey) وذلك سنة 1991 وتستمد عناصرها من الطريقتين السابقتين (DEA) و(SEFA) فهي تتبنى فرضية أن إنحرافات التكلفة الكلية الحالية عن المتوقعة مرتبطة بالأخطاء العشوائية ومرتبطة أيضا بكفاءة إكس [29].

تقسم هذه الطريقة عينة البنوك إلى أربع مجموعات أساسية حسب التكلفة المتوسطة لهذه البنوك المكونة للعينة (التكلفة الكلية/ الأصول الكلية)، وعن طريق تقدير دالة التكاليف الكلية للعينة الفرعية تكون المجموعة أو الربع الذي يتمتع بمتوسط تكلفة منخفض يمثل ما يسمى بالحد السميك، ويعتبر أفضل تطبيق يمكن من خلاله قياس الكفاءة المصرفية لباقي البنوك.

***- طريقة التوزيع الحر (DFA) :**

تطبق هذه الطريقة عندما تتوفر البيانات والمعطيات لأكثر من سنة، وتفترض أن اللاكفاءة مستقرة عبر الزمن، في حين أن الأخطاء العشوائية تتوسط عبر نفس الفترة[30]، وبما أن الإضطراب العشوائي يتكون من عنصرين هما اللاكفاءة والخطأ العشوائي، فإن متوسط الإضطراب العشوائي لمجموعة من السنوات يعتبر مقياسا للاكفاءة البنوك عبر كل سنوات الفترة . [31]

تقوم طريقة التوزيع الحر بحساب نقاط الكفاءة بأن تخصص نموذجا داليا للحد، وتفترض وجود فروق في الكفاءة عبر الزمن بين البنوك، وتتجنب إفتراضات التوزيع نصف الطبيعي(أحادي الجانب) أو غيرها من الإفتراضات حول عدم الكفاءة، وتستبدل ذلك بفرضية أن الخطأ العشوائي يتجه نحو معدل الصفر (يتعادل) عبر الزمن ويبقى الإنحراف النظامي، الذي يمثل عدم الكفاءة بإعتباره مستقلا عن عامل الزمن .

2- تحليل كفاءة الأداء للبنوك في الجزائر في ظل التحرير المالي والمصرفي

قبل التطرق الى تاثير التحرير المالي وسياساته على الاداء المصرفي للبنوك الخاصة الجزائرية وجب علينا التطرق الى مفهوم التحرير المالي والمصرفي ثم التطرق الى تبيان اثره على الكفاءة المصرفية لمجموعة من المصارف الخاصة باستخدام تحليل النسب المالية لها والمتمثلة في تطبيق نموذج العائد على حقوق الملكية.

2-1 مفهوم التحرير المالي والمصرفي:

يعتبر التحرير المالي احد مكونات وصفة التحرير الاقتصادي والتي تركز على تقليل وإزالة القيود على التجارة الداخلية والخارجية وتوسيع نشاط القطاع الخاص وإطلاق حرية قوى العرض والطلب في التسعير وجعل السوق المحلية أكثر تنافسية وتبسيط إجراءات التجارة والاستثمار والدفع إلى تبني معايير الجودة طبقا للمواصفات العالمية32.

ويتمثل التحرير المالي في إعطاء استقلالية تامة للمؤسسات المالية والبنوك وذلك من خلال إلغاء كل القيود والضوابط واعتماد آليات السوق (قانون العرض والطلب) في تحديد معدلات الفائدة الدائنة والمدينة، مع التخلي عن سياسة تاطير الائتمان وخفض الاحتياطي الإلزامي، وإلغاء الرقابة الإدارية على تخصيص الائتمان لقطاعات معينه (القطاع الحكومي) أو تقديم قروض لبعض القطاعات بأسعار فائدة تفاضلية.

2-2 تحليل كفاءة الاداء للبنوك الخاصة في الجزائر باستخدام نموذج العائد على حقوق الملكية

سيتم إستخدام البيانات والمعطيات المالية المجسدة في القوائم المالية لبنوك من أجل تقييم

أداءها وتوضيح العلاقة المتبادلة بين ربحية هذه البنوك ومخاطرها، وذلك من خلال حساب وتحليل كل المؤشرات المكونة لنموذج العائد على حقوق الملكية، ثم مقارنة أداء العينة محل الدراسة.

2-1-2- حساب وعرض والتعليق على نتائج قياس الكفاءة المصرفية:

***- العائد على حقوق الملكية (ROE):**

جدول رقم: (2-1) العائد على حقوق الملكية لبنوك العينة الوحدة:%

	2005	2006	2007	2008	المتوسط
SGA	72.15	66.17	70.19	24.25	70.18
BARAKA	-	24.67	24.37	35.37	28.13

المصدر: من إعداد الباحث بالإعتماد على القوائم المالية..

نرى أن مؤشر العائد على حقوق الملكية أخذ قيم مختلفة خلال سنوات الدراسة في بنك سوسيتي جينيرال فقد تظهر نتائج مؤشر العائد على حقوق الملكية أن هذا الأخير عرف زيادة خلال الفترة الممتدة من سنة 2005 إلى 2008 ، كان المؤشر سنة 2005 نسبته 15.72% كأدنى نسبة خلال سنوات الدراسة، لترتفع هذه النسبة في 2006 إلى17.66%، وفي 2007 إلى 19.70%، وترتفع كذلك في 2008 إلى نسبة 24.25% كأعلى نسبة خلال سنوات الدراسةأما بالنسبة لبنك البركة الجزائري فتراوحت النسب بين 24.37% كنسبة دنيا و35.37% كنسبة عائد عليا.

	2005	2006	2007	2008	المتوسط
SGA	.9511	.0518	.0419	.5618	.3215
BARAKA	.7426	.4218	.1319	.6820	.2421

وبمقارنة بنكي العينة من خلال مؤشر العائد على حقوق الملكية نلاحظ أن متوسط نسبة هذا الأخير متباعدة جدا في البنكين خلال سنوات الدراسة. حيث بلغ متوسط مؤشر العائد على حقوق الملكية 18.70% في بنك سوسيتي جينيرال خلال نفس الفترة. اما بالنسبة لبنك البركة فقد حقق عائدا مرتفع مقارنة بالبنك الاخر ليبلغ متوسط هذا الاخير 28.13%.

***- العائد على حقوق الملكية (ROE):**

جدول رقم: (2-2) العائد على الأصول الوحدة:%

	2005	2006	2007	2008	المتوسط
SGA	.311	.970	.031	.301	.281
BARAKA	-	2.44	2.56	4.16	2.68

المصدر: من إعداد الباحث بالإعتماد على القوائم المالية. تظهر نتائج مؤشر العائد على الأصول في الجدول رقم (2-2) أن بنك سوسيتي جينيرال فهو كذلك عرف الزيادة في نسبة المؤشر خلال الفترة الممتدة من 2005 إلى2008 وبنسب متقاربة، حيث كان المؤشر في 2005 بنسبة 31.1%، لتتراجع النسبة في 2006 إلى نسبة 970.% كأدنى حد خلال سنوات الدراسة، كما زادت النسبة في كل من سنتي 2007 لتصل إلى 031.%، وارتفعت سنة 2008 إلى مقدار 301.%. أما بنك البركة فهو ايضا عرف الزيادة وبنسب متباينة في نسبة المؤشر خلال الفترة الممتدة من 2006 إلى2008، حيث كان المؤشر في 2006 بنسبة 2.44% كأدنى حد خلال سنوات الدراسة، كما زادت النسبة في كل من سنتي 2007 و2008 إلى مقدار 2.56% و4.16%.

بمقارنة البنوك محل الدراسة نلاحظ أن بنك البركة حقق معدل عائد على الأصول مرتفع جدا (بفارق 1.40%) عن بنك سوسيتي جنرال الجزائر، وذلك خلال سنوات الدراسة بمتوسط يساوي 2.68% متوسط المؤشر الخاص ببنك سوسيتي جنرال الجزائر والذي بلغ 1.28%.

***-مضاعف حق الملكية أو الرافعة المالية (EM) :**

جدول رقم: (2-3) معامل الرفع المالي لدى بنوك العينة الوحدة: مرة

	2005	2006	2007	2008	المتوسط
SGA	11.95	18.05	19.04	18.56	16.90
BARAKA	-	26.74	18.42	19.32	20.68

المصدر: من إعداد الباحث بالإعتماد على القوائم المالية.

نلاحظ من خلال الجدول رقم (2-3) والذي يبين قيم معامل الرفع المالي، أن كل بنوك العينة حققت قيما متباعدة نسبيا لهذا المعامل وقد عرفت التذبذب من حيث الإرتفاع والإنخفاض.

فبالنسبة لبنك سوسيتي جينيرال ففي سنة 2005 كان المعامل بمقدار 11.95 مرة، ليرتفع هذا المعامل خلال سنة 2006 إلى 18.05 مرة، ويرتفع كذلك إلى 19.04 مرة في سنة 2007 كأعلى حد خلال سنوات الدراسة، أما سنة 2008 فقد إنخفض المعامل إلى 18.56 مرة.

بيد أن بنك البركة الجزائري قد سجل هذا المضاعف تراجع من 26.74 مرة سنة 2005 الى 18.42 مرة سنة 2006، ليرتفع ارتفاعا طفيف عامي 2007 و2006 على التوالي بمقدار 19.32 و20.68 مرة.

من خلال ملاحظة الجدول السابق نرى أن

معامل الرفع المالي مرتفع في بنك البركة الجزائري مقارنة ببنك سوسيتي جينيرال خلال سنوات الدراسة وهذا ما يعكسه متوسط المعامل حيث بلغ في 21.24 مرة في بنك البركة خلال خمس سنوات الدراسة، مقابل 3215. مرة في بنك سوسيتي جينيرال خلال نفس مدة الدراسة.

*- **هامش الربح (PM) :**

	2005	2006	2007	2008	المتوسط
SGA	97.7	6.01	5.31	5.52	52.6
BARAKA	-	35.87	37.27	51.02	41.39

جدول رقم: (2-4) معدل هامش الربح الوحدة:%

المصدر: من إعداد الباحث بالاعتماد على القوائم المالية..

بالنظر إلى قيم الجدول رقم (2-4) التي تظهر نتائج معدل هامش الربح للبنوك خلال فترة الدراسة، نلاحظ أن معدل هامش الربح شهد زيادة بمعدلات متفاوتة ومتبتعدة نسبيا خلال سنوات الدراسة.

ففي بنك سوسيتي جينيرال فقد حقق أعلى نسبة لمعدل هامش الربح في سنة 2005 بنسبة 7.97%، لتعرف هذه النسبة الإنخفاض والتراجع في كل من سنة 2006 إلى 6.01%، وسنة 2007 إلى 5.31%، وفي سنة 2008 أصبحت النسبة 5.52% مرتفعة ارتفاعا طفيفا.

أما بنك البركة فقد حقق هذا المؤشر نتائج كبيرة فارتفعت هذه النسبة من 35.87% كحد ادنى سنة 2006 الى ان يصل الى اعلى حد له سنة 2008 بمقدار 51.02%.[33]

من خلال الجدول السابق نستطيع القول أن بنك البركة الجزائري حقق معدل هامش ربح أعلى وبفارق كبير نسبيا مقارنة ببنك سوسيتي جينيرال خلال سنوات الدراسة، حيث بلغ متوسط معدل هامش الربح في بنك سوسيتي جينيرال متوسط قدره 6 52,%، اما حصة الاسد فقد حققها بنك البركة بنسبة قدرها 41.39%.

*- **منفعة الأصول (AU):**

جدول رقم:(2-5) معدل منفعة الأصول الوحدة:%

	2005	2006	2007	2008	المتوسط
SGA	49.16	16.25	19.45	23.66	77.19
BARAKA	-	6.25	6.27	7.25	6.59

المصدر: من إعداد الباحث اعتمادا على معطيات من البنوك

نلاحظ أن معدل منفعة الأصول في بنك سوسيتي جينيرال فقد عرف تذبذب وبصفة عامة ارتفاع في مؤشر معدل منفعة الأصول خلال الفترة من سنة 2005 إلى سنة 2008، حيث في سنة 2005 كانت نسبته 16.49%، لتعرف هذه الأخيرة الإنخفاض إلى أدنى حد لقيمة هذا المؤشر في سنة 2006 بنسبة 16.25%، لترتفع النسبة السابقة إلى 19.45% خلال سنة 2007، ولتشهد في 2008 أعلى قيمة للمؤشر خلال فترة الدراسة بنسبة 23.66%.

نفس الشيء في بنك البركة فمعدل منفعة الأصول عرف نسب متزايدة مختلفة ومتقاربة خلال سنوات الدراسة، حيث سجلت أعلى نسبة له في سنة 2008 بمقدار 7.25%، بينما كانت هذه النسبة في سنة 2006 إلى 6.25%، ولترتفع ارتفاعا طفيفا في سنة 2007 إلى 6.27%،

لذا فبنك سوسيتي جينيرال حقق نسب أعلى لمعدل منفعة الأصول وبفارق مرتفع نسبيا في بنك البركة خلال فترة الدراسة، حيث بلغ متوسط هذا المعدل 19.77% في بنك سوسيتي جينيرال، يليه بنك البركة الجزائري بـ 6.59% .

2-2-2 تحليل نتائج قياس كفاءة الاداء المصرفي لبنوك العينة

بشكل عام تظهر نتائج مؤشر العائد على حقوق الملكية أن بنك البركة حقق معدل عائد مرتفع قليلا مقارنة مع بنك سوسيتي جينيرال الجزائر، وذلك خلال سنوات الدراسة بمتوسط يساوي 28.13% مقابل متوسط لهذا المؤشر يساوي 18,70% في بنك سوسيتي جينيرال الجزائر.

وإذا ما حللنا هذه النتائج إلى المؤشرين المساهمين في تحقيق العائد على حقوق الملكية، وهما العائد على الأصول ومضاعف حق الملكية (الرافعة المالية)، نجد أن معدل العائد على حقوق الملكية لبنك سوسيتي جينيرال الجزائر فهو في أحسن الاحوال رغم أنه حقق معدل عائد على حقوق الملكية أقل إلا أنه حقق معدل عائد على الأصول أعلى نسبيا خلال

سنوات الدراسة، لذلك يمكن القول أنه أحسن إدارة للأصول بما يحقق أعلى صافي دخل، كما أنه أقل مخاطرة بالمقارنة مع البركة الجزائري وهذا ما يظهره مضاعف حق الملكية بحيث أنه اعتمد على أموال خارجية أو مصادر مالية خارجية.

في حين ان بنك البركة حقق عائد جيد لحقوق الملكية وذلك راجع الى بدرجة كبيرة الى مضاعف حق الملكية ومؤشر منفعة الاصول، لذلك يمكن القول ان بنك البركة هو ايضا احسن ادارة اصوله لتحقيق اعلى قدر من الدخل، لكن مقابل رفعه

الخاتمة:

إن الحديث عن كفاءة الاداء المصرفي للبنك في ظل سياسات التحرير المالي والمصرفي يؤدي بنا إلى الحكم على مدى الإستغلال الأمثل لمختلف موارد هذا البنك من أجل تحقيق أعلى عائد أو العائد الأمثل بصورة أدق.

كما أن الحديث عن الكفاءة كذلك يقود إلى الحكم على مدى التحكم والتقليل من التكاليف للوصول إلى أعلى عائد ممكن، وبإسقاط هذه القاعدة على واقع بنك سوسيتي جينيرال الجزائر وبنك البركة نلاحظ أن كل بنك لم يحقق عائد كبير أو أمثل في ظل الموارد سواء المادية أو البشرية المتاحة، لكن نستطيع القول أن بنك سوسيتي جينيرال الجزائر كان أفضل حال من حيث إستغلال أو توظيف الموارد المختلفة حيث كانت الأصول أكثر جودة أو حتى من حيث أنه أقل مخاطرة من بنك البركة، وهذا الأخير كان أفضل حال من بنك سوسيتي جينيرال الجزائر من حيث كفاءة إدارة ومراقبة والتحكم في التكاليف، وهذا ما توضحه نتائج قياس الكفاءة بإستخدام نموذج العائد على حقوق الملكية في بنوك العينة. بالتالي يمكن الحكم بمحدودية كفاءة أداء البنوك من حيث تحقيق الربحية والتقليل من المخاطرة في ظل الموارد المتاحة وخلال فترة الدراسة، بإعتبار أنه كلما كانت نسبة مؤشر العائد على حقوق الملكية أكبر نتيجة إرتفاع مؤشر العائد على الأصول ومعدل هامش الربح أساسا وانخفاض المخاطرة يكون البنك أكثر كفاءة من حيث تحقيق الربحية وتقليل المخاطرة.

الهوامش:

1- ثابت عبد الرحمن إدريس، كفاءة وجودة الخدمات اللوجستية "مفاهيم أساسية وطرق القياس والتقييم"، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2006، ص145.
2- فطيمة الزهرة نوي، تقييم كفاءة أداء البنوك الجزائرية باستخدام النسب المالية ونموذج حد التكلفة العشوائية خلال الفترة "2004-2008"، مذكرة ماجستير تخصص العلوم المالية والمصرفية، جامعة اليرموك، الأردن، 2010، ص 17.
3- عز الدين مصطفى الكور، نضال أحمد الفيومي، أثر قوة السوق وهيكل الكفاءة على أداء البنوك التجارية "دراسة تطبيقية على البنوك التجارية المدرجة في بورصة عمان"، المجلة الأردنية في إدارة الأعمال، الأردن، المجلد 3، العدد 3، 2007، ص: 256
4- فطيمة الزهرة نوي، مرجع سبق ذكره ، ص ص: 17-18
5- نفس المرجع، ص19.
6- نفس المرجع، ص20.
7-محمد الجموعي قريشي، قياس الكفاءة الاقتصادية في المؤسسات المصرفية " دراسة نظرية وميدانية للبنوك الجزائرية خلال الفترة 1994-2003 "، أطروحة دكتوراه في العلوم الاقتصادية، جامعة الجزائر، 2005 / 2006، ص: 84.
8- فطيمة الزهرة نوي، مرجع سبق ذكره، ص20.
9- ثابت عبد الرحمن إدريس، مرجع سبق ذكره، ص ص 146-147
10- فطيمة الزهرة نوي، مرجع سبق ذكره، ص20
11- نفس المرجع، ص ص: 22-23
12- نفس المرجع، ص: 24
13- علي بن ساحة، التحرير المالي وكفاءة الاداء المصرفي في الجزائر، الملتقى الدولي الثاني حول الاداء المتميز للمنظمات والحكومات: نموالمؤسسات والاقتصاديات بين تحقيق الاداء المالي وتحديات الاداء البيئي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 22-23 نوفمبر 2011، ص:05.
14- نفس المرجع، ص: 06.
15- فطيمة الزهرة نوي، مرجع سبق ذكره، ص: 25
16- محمد جموعي قريشي، مرجع سبق ذكره، ص: 89
17- فطيمة الزهرة نوي، مرجع سبق ذكره، ص : 25
18- محمد جموعي قريشي، مرجع سبق ذكره، ص: 89
19- طارق عبد الله المحيسن، أثر الكفاءة على تنافسية الجهاز المصرفي الأردني"دراسة قياسية 1979 -2004 "، رسالة ماجستير في الاقتصاد، جامعة مؤتة، الأردن، 2006، ص: 11 الاردني ص 11)
20- نفس المرجع ، ص: 59
21- نفس المرجع، ص: 27
22- خالد وهيب الراوي، إدارة العمليات المصرفية، الطبعة الثانية، دار المناهج للنشر، الأردن , 2003، ص : 323
23- سامر جلدة، مرجع سبق ذكره، ص : 165
24- خالد وهيب الراوي، مرجع سبق ذكره، ص: 324
25- فطيمة الزهرة نوي، مرجع سبق ذكره، ص : 28
26- فطيمة الزهرة نوي، مرجع سبق ذكره، ص :31
27- نفس المرجع ، ص: 31
28- محمد الجموعي قريشي، مرجع سبق ذكره، ص : 106
29- محمد الجموعي قريشي، مرجع سبق ذكره، ص : 108
30- نفس المرجع، ص 109.
31- فطيمة الزهرة نوي، مرجع سبق ذكره ، ص : 33.
32- علي بن ساحة، مرجع سبق ذكره، ص: 11.
33- إحصائيات موجودة في موقع البنك التالي:
http://www.albarakabank.com/fr/index.php?option=com_content&task=view&id=231&Itemid=40
page consulté le 20/10/2011 a 11h00.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 53 - 63
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

ما لا تواب عليه من الواجبات الشرعية
- فقه وتأصيل -

الطّاهر خذيري

الموسوعة الفقهية الكويتية

(وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت)

تمهيد:

الحمد لله، وصلى الله وسلّم على عبده ومصطفاه؛ أما بعد:

فخلال قراءتي لفروق القرافي؛ كانت تلوح لي بعض الإشراقات التي ألْهِم بها -رحمه الله-في كتابه الآنِف ذِكْرُه، وتَميدُ بي الدهشة -طَرَباً-في أحيان كثيرة لمَلاحِظِهِ التي يستخرجها بعُمْقِ فهمه، وشدّةِ سَبْره لفروع الفقه وكلّياته، وعظيم صبره على مراجعة البَصَر لدقائقه وأحواله، ولقد أوقفتني من تلك المراجعات الفقهيّة، والمقارنات الوصفيّة والحُكميّة؛ بين المشتبِهات وصْفاً والمفترقات حُكماً؛ مسألةُ الواجب الذي تندفع المساءلة عنه شرعاً بوقوع صورته؛ غير أنّ مُوقِعَه لا حَظّ له في الأجر؛ لخُلوّ قلبه -ساعةَ الامتثال-من قصْد القربى ونيّةِ الاحتساب، وهو الفرق الخامسُ والسّتّون بين قاعدة ما يُثابُ عليه من الواجبات، وبين قاعدة ما لا يثابُ عليه منها، وإنْ وقع ذلك واجبا[1].

فوقع في نفسي التّوْقُ الفقهيّ والرُّوحيّ؛ لِمُناجزةِ بحْث هذه المسألة وتجليتِها، والخلوصِ إلى بيانها، وتوضيحِ مُشْكِلها، والاستفادةِ منها في تزكية أرْواحنا؛ حتى لا تخلو حالٌ من أحوالنا عن العمل لله تعالى بنية؛ فبوُسْعنا -لو مَنّ الله علينا وهدانا- أن نتحنّثَ بالنّية الصالحة في كلّ عملٍ نعمله حاضراً، أو نَشُدّ حبال القلب على عزْم فعْلِه مستقبلاً؛ وإني لأتخيّل كمّاً هائلاً من موارد المعرفة والصّفاء القلبيّ والإقبال على الله تعالى؛ فضْلاً عن عوائد الأجر والذّخْر؛ مِن وراء تدريب القلب على نية احتساب الأجر وراء كلّ عمل تقوم به الجوارح؛ قَلّ العمل أو جَلّ.

قال الإمام الشاطبيّ -رحمه الله-:«...كلّ تكليف لا يخلو عن التعبد، وإذا لم يخلُ فهو ممّا يفتقر إلى نية؛ كالطهارات وسائر العبادات؛ إلاّ أنّ التكاليف التي فيها حقّ العبد؛ منها ما يصحّ بدون نية، وهي التي فهمنا من الشارع فيها تغليبَ جانب العبد؛ كردِّ الودائع والغُصُوب والنفقات الواجبة. ومنها ما لا يصحّ إلاّ بنية، وذلك ما فهمنا فيه تغليبَ حقّ الله؛ كالزّكاة والذّبائح والصّيد، والتي تصحّ بدون نية؛ إذا فعلت بغير نية لا يثاب عليها، فإذا فعلها بنية الامتثال -وهي نية التعبد-أثيب عليها، وكذلك التُّروك؛ إذا تُركت بنية. وهذا متفقٌ عليه»[2].

وحين تأمّلتُ هذا التحقيق من أبي إسحاق -رحمه الله-؛ تبيّنتُ عُظْمَ قيمة احتساب الأجر، وإحضارِ النية في كلّ عمل، فقد وَضَح به أنّ هناك فرْقاً شاسعاً بين مُجرّد طهارة الذمّة من المتابعة ديانةً وقضاء -والذي يتلبّس به في العادة مَن قَعَدت به همّتُه عن تحصيل الأعلى فقَنِعَ بالدُّون-، وبين ثمرة التصرفات والأعمال؛ ألا وهي رضا الله على عبده، وحُلولُ نعمته عليه بثبات أجره وكمال حَظْوته وقَدْره، والذي يتنعّم به مَن يعيش في فيْحاء المراقبة، ويُديم التّعلق بكُبريات المنازل ورفيع الدرجات.

إنّ كثيراً من الخلق على اختلاف مَنازعهم ومعتقداتهم، وتعدّد مشاربهم ورغباتهم؛ قد يبدر منهم عمل الجوارح. ونُشدانهم السعادةَ وراحةَ البال من وراء ذلك العمل هي دافعهم للعمل، لكنهم يغفُلون عن

عمل القلوب مع ربّها وحسيبِها سبحانه؛ فيفوّتون على أنفسهم -ولو كانوا موحّدين-أعلى المنزلتين وأجمل الراحتين؛ كما أنّ النَظَر المتتابع في مِثْل هذه المسالك يكشف الغطاء عن مدى الترابط بين علم السلوك وعلم الفقه، وأنّ أحدهما ليس بمنأى عن الآخر؛ إلا كمُنْتَأَى الرُّوح عن الجسد؛ فالعين الحاضرة تراهما منفصلين، وعين البصيرة تشهَدُهما نَجيّيْن قريبيْن!

من أجل هذا عزمتُ على تحرير هذا البحث، لعلَّه يكون خطوة على طريق الأوْبة إلى حياض التعلّق بالله الرقيب الكريم جل وعلا؛ وربما يكون نظراً فقهيّاً قد يزيد به الفقيه فهْماً وإدراكاً، ومن ثمّ لُزوماً واتّباعاً، وهذا الأستاذ سهْل بن عبدالله التّستريّ -رحمه الله-(ت/283هـ) يقول: «نَظَر الأكياس في تفسير الإخلاص؛ فلم يجدوا غير أن تكون حركاته وسكناته في سرِّه وعلانيته لله تعالى وحده؛ لا يمازجه شيء؛ لا هوى، ولا نفسٌ، ولا دنيا»[3] ، وصدق أبو حامد الغزالي -رحمه الله-حين قال: «...فالعمل بغير نيةٍ عناءٌ، والنية بغير إخلاصٍ رياءٌ، وهو للنفاق كفاءٌ، ومع العصيان سواءٌ، والإخلاص من غير صدقٍ وتحقيقٍ هباءٌ، وقد قال الله تعالى في كلّ عمل كانَ بإرادة غير الله مَشوباً مغموراً: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا)»[4] .

على أنّ هذا البحث مبسوطٌ أمام نواظر أهل العلم؛ فما وافق الحق منه فهو محض فضل من الله، وما خالف الحقّ منه فنزْغةٌ من الشيطان، والله تعالى منه بريء ورسولُه ﷺ، وليس للباحث في بحثه إلاّ جمْع منقولات الأئمة من هنا وهناك، وفرْشُها أمام المتأمِّل البصير النّاقد؛ فهو ناقلٌ أكثر منه غيرَ ذلك، والحمد لله على كل حال.

المبحث الأول: أقسام الواجبات الشرعية:من حيث مطلبية قصد التقرّب مِن عَدَمِه لنيل الثواب

من المعلوم المتقرِّر أنّ الواجبات أو المأمورات الشرعيّة؛ ليست على سِمة واحدة ومنهج أوحد، من حيث ضرورةُ يقْظة القلب لحظةَ القيام بالفعل الشّرعيّ؛ للحكم عليه بالصحّةِ والإجزاءِ وسقوطِ المؤاخذة ودرء طلب الإعادة؛ بخلافها حين يتعلّق المطلب بتحصيل الأجر والثواب؛ فإنّ نية التقرّبِ وإرضاءِ الملك سبحانه لازمةٌ –حتْماً-في الغالب الأعمّ منها، وتبقى منها صُبابةٌ تحتاج إلى نظرٍ ودوامِ فِكْر؛ إذ الواجبات التي هي عبادات؛ ناصعةٌ لا شِية فيها ولا إشكال، وأمّا ما تَصنّف منها في العاديات، وخرج عن مَساق العبادات -ولو تسامُحاً-؛ فلا اعتبار فيها لثوابٍ إلاّ مع قصد الامتثال والتقرّب.

ولهذا قطع الشاطبي -رحمه الله- بأنّه ما من عمل تعبّديّ أو عاديٍّ يمكنه أن يخرج عن هذا الأصل؛ حين قال: «وأما العادايات، فلا تكون تعبديات إلاّ بالنيات، ولا يتخلّف عن ذلك من الأعمال شيء؛ إلاّ النظر الأول لعدم إمكانه، لكنه في الحقيقة راجعٌ إلى أنّ قصد التعبّد فيه غير مُتوجِّه عليه؛ فلا يتعلق به الحكم التكليفيّ ألبتة، بناء على منع التكليف بما لا يطاق، أمّا تعلُّق الوجوب بنفس العمل؛ فلا إشكال في صحته؛ لأن المكلَّف به قادر عليه، متمكِّنٌ من تحصيله»[5] .

وفي هذا السياق يظهر معنى نَفْي ابنِ جزيّ الغرناطيّ -رحمه الله- وغيره شَرْطَ النية عن كثير من الأعمال؛ لا لأنّ ذلك هو الأصل؛ بل لأنّ رُسُوم الفقه ومقتضياتِ الحدود لا تُلزِم المكلّف بقصد التقرّب فيها للحكم بصحّتها، ولكنّ هذا لا يعني أن مُدّخرات الأعمال الصالحة يستحقّها مَن لم تخطر له على بال، هذا ما لا سبيل إليه. قال -رحمه الله-: «فأمّا النية؛ فهي القصد، وتجب في كلّ قُرْبة بأربعة أوصاف، وهي: أن تكون فِعْلاً لا ترْكا -سوى الصيام-، وأن تكون من حقوق الله تعالى؛ تحرُّزاً من أداء الديون وشِبْهه، وأن تكون فيما يفعله المرء بنفسه؛ تحرُّزاً من غَسل الميت، ومن يُوضِّيء غيره، وأن تكون معقولة المعنى؛ فلهذا لا تجب في إزالة النجاسة بإجماع، وتجب في التيمم عند الأربعة»[6] .

ولأجل لَمّ شتات هذا المبحث؛ ومراعاةً لطبيعة ضرورة وجازته وعدم البسْط فيه؛ فقد قسّمته إلى مطلبين:

المطلب الأول: واجبات يكفي أداؤها الظاهريّ في تحقيق المراد منها:

بمجرد حصول هذه الواجبات تسقط تبعتها، وإن لم يتحقّق بها معنى التقرّب، وصاحبها يُحْكم له ظاهراً بصحّة فعله وبراءة جانبه؛ لأنه حقّق المصلحة المطلوبة شرعاً من فعله، وإن لم ينو ذلك على وجه الحقيقة؛ مثل أداء الديون، وردّ الودائع، والغُصُوب، ودفع نفقات الزوجات والأقارب، ونحو ذلك؛ فإنّ «المصلحة المقصودة من فعل هذه الأمور انتفاعُ أربابها بها، وذلك لا يتوقّف على النية من جهة الفاعل؛ فيخرج الإنسان عن عهدتها وإن لم ينوها»[7] ، ولكنّ استحقاق الثواب متعلِّقٌ بانعقاد القلب، ولم

يحصل؛ فلا ثواب - فيما يظهر -؛ مع التسليم بأنّ فضل الله تعالى واسعٌ؛ فكأنّ العامل حقّق المصلحة العامة وضيّع مصلحة نفسه. قال القرافيّ -رحمه الله-: «فالمجزئ من الأفعال هو ما اجتمعت شرائطه وأركانه، وانتفت موانعه؛ فهذا يبرئ الذمّة بغير خلاف، ويكون فاعله مطيعاً بريء الذمّة؛ فهذا أمر لازمٌ مجمعٌ عليه، وأمّا الثواب عليه؛ فالمحقّقون على عدم لزومه، وأن الله تعالى قد يبرئ الذّمّة بالفعل، ولا يثيب عليه»[8].

وحتى يتّضح هذا التقرير ويظهر، فلا بد من سرد بعض الفروع الفقهيّة؛ ليتسنّى لنا مِن جمْعِ الأصل إلى فرعه، فَهْمُ ما تقرّر أعلاه؛ بعرضه على مآخذ الأحكام وفُهوم الفقهاء، والأمثلة عن هذا النوع من الواجبات كثيرةٌ ومتنوعةٌ، وليس المقصود حصرَها، ولكن ذِكْر بعضها لتتّسق النّظرية مع تطبيقها، ويتّضح وجهُ ما تقرّر في مقدّمة البحث، ولذلك اخترت بعض المسائل المتنوعة، وهي:

المسألة الأولى : أداء الديون

هذا الفرع يُعتبر من الحقوق الماليّة التي يتشاحّ فيها العباد، ولا شكّ أنّ دفع المَدين ما عليه لغريمه؛ تتحقّق به مصلحته المرجوّة منه ابتداء، وهي وصول الحقّ لصاحبه، ولكنْ يبقى من وراء ذلك رجاءُ الإثابة على هذا الصّنيع؛ فإنها لا تكون إلاّ بنية التقرّب بدفع الدَّين.

المسألة الثانية : ردّ الغُصُوب ودفْع الودائع والمَظالم وإرجاع العواري وأداء الأمانات

فكلّ هذه الفروع تنسجم في سِلْك واحد؛ إذ مجرّد أدائها ولو بدون استحضار نية؛ يكفي في سقوط المطالبة بها؛ لتحقّق المراد منها، وهي رجوع الحقّ لذويه، ويقال في تحصيل الثواب ما قيل في سابقه، وهكذا الأمر في الودائع والمظالم والعواري والأمانات؛ كلّها يسري عليها -حُكماً- ما تقدّم بسْطه[9].

المسألة الثالثة : نفقات الزوجات وكسوتهنّ، وإسكانهنّ، وصدُقاتهنّ

من الثابت فقهاً حقُّ نفقة الزوجة على زوجها، فالإجماع قائمٌ على وجوبها وتوابعِها المذكورة فوْق؛ بشروطٍ يذكرونها في مَحالّها من كتب الفقه؛ ويكفي في الخروج من هذا الحقّ دفْعُه لصاحبته؛ فإن استحضر الزوجُ نيةَ الطّاعة؛ كان له أجر العمل وذُخْرُه، وإنْ غفل عن النية، أو دَفَعه إليها كارهاً ممتعضاً، ولم يك في عمله هذا متبرِّراً؛ برئت ذمّته، وتحقّق لصاحبته مطلوبُها، وحُرِم هو من ثواب عمله؛ إذ الأعمال بالنيّة، والثواب حَبيسُها.

المسألة الرابعة : الغرامات وأروش الجنايات[10] وعموم الضمانات

فكلٌّ مِنها ما لم يقترن بها قصد الامتثال وإرادة القربى؛ فإنّ الذمة تبرأ بدفعها لمستحقِّيها؛ نعم، ولكن الثواب لا يثبُت إلاّ لمن أقبل على العمل بقلبه وقالبه، بنيّته وجوارحه.

المسألة الخامسة : حجاب المرأة

إذا خرجتِ المرأةُ من دارها مُتخَمِّرة محْتجبة إلى الطريقِ أمامَ مَن لا يحل لهم رؤيتها؛ أي ساترةً ما يجبُ عليها سترُه؛ ولكن من دونِ نِيَّة طاعة؛ بل لعلّها تكون عادتَها؛ فلا معصيةَ عليها ولا مؤاخذة، ويكونُ تستّرها المعتادُ كافياً في رفع الإثم عنها، ولكن لا ثوابَ لها إذا لم تنوِ بتستُّرها أمام الرجالِ نِيَّةً يحبُّها الله.

المسألة السادسة : عُموم التُّرُوك

من المقرّر عند الأصوليّين أنّ جميع النواهي تُخرج المكلّف عن العهدة بتركها، وإن لم يشعر بها؛ فضلاً عن القصد إليها؛ ومثاله: المتعفّف عن الحرام جِبلّة وطبعاً؛ بلا استحضار نية المراقبة والاحتساب؛ يُخْرجه عن عهدة ذلك النهي، فلا يؤاخذ به؛ لأنه لم يفعله، لكنّه إن استشعر قيمة فعله عند ربّه، ونوى بتركه مرضاة الله تعالى؛ حصل له مع الخروج عن العهدة الثوابُ والأجر.

وهناك أنواعٌ أخرى من هذه الواجبات التي تكفي صورتها الواقعة ظاهراً في الخروج عن العهدة، لكنّ الثواب فيها لا يُستحقّ لفاعلها إلاّ مع النية، ومن ذلك: الوصية بالعتق، والوقف، والزّواج، والقضاءُ، وكذا الحدود والتعازير، وتحمُّل الشهادات وأداؤها [11].

المطلب الثاني: واجبات لا تكفي صورة أدائها الظاهرة؛ لا في صحّتها، ولا في استحقاق الثواب عليها؛ إلاّ بحضور النّيّة.

واجبات هذا القسم مخالِفةٌ في الوصف لِما كيّفناه في المطلب الأول، ذلك أنها هنا لا تقع واجبةً إلاّ مع النية والقصد؛ وتشمل جميع أنواع العبادات التي يُشترط في صحّتها حضور النية؛ كالصّلاة والصّيام والحجّ، فهذه العبادات إذا وقعت بغير نيّة؛ لم يُعتدّ بها، ولا تبرأ الذّمة بمجرد فِعْلها، ولا يثاب عليها صاحبها؛ فالصلاة مثلاً إذا أُدِّيت بنيّةٍ كما أمر الشّرع؛ رَجَا المُصلّي الثّواب؛ غير أنّ هاهنا مَلْحظاً آخر ينبغي ألا

يُغفَل عنه، ألا وهو أنّ قبولَ هذه الأعمال والحُكْمَ بأنها مجزئةٌ غير متلازمين؛ فربّما تأمّل المُصلّي أجراً من وراء صلاته؛ لأنه جَمَع قلبه على نيّةٍ صالحة، لكنه قد يكون أخلّ بشيء من الشرائط أو الأركان، فهذا غير ذاك؛ كما هو ظاهر؛ فالمسيء صلاتَه -مثلاً- كانت له نيّةٌ وحِرْص بلا شكّ، ولكنه أُمر بالإعادة ليصحّح فعله، لا ليصحّح قصده؛ فقد كان موجوداً.

ومثالها: جميع العبادات المشروطُ فيها قصْد التقرّب، ومنها: الصلاة والصيام والاعتكاف والحجّ وما شابهها، فهذا النوع من الواجبات لا تكفي صورته في تحصيل مصلحته المقصودة منه؛ فإنّ المقصود من هذه العبادات تعظيم الرّبّ -سبحانه وتعالى- بفعلها، والخضوعُ له في إتيانها، وذلك إنما يحصل إذا قُصدت من أجله سبحانه؛ فإنّ التعظيم بالفعل بدون قصْد المعظَّم محالٌ[12]. قال الإمام الشاطبي -رحمه الله-: «مقصود العبادات الخضوعُ لله، والتوجّه إليه، والتذلّل بين يديه، والانقيادُ تحت حكمه، وعمارةُ القلب بذكره، حتى يكون العبد بقلبه وجوارحه حاضراً مع الله، ومراقباً له غيرَ غافل عنه، وأن يكون ساعياً في مرضاته وما يقرّب إليه على حسب طاقته»[13].

إنّ المقرّر في باب التعبّدات المحضة؛ الصّلاة وغيرها، أنها ما شرعت إلاّ لتَفْريد الخالق -سبحانه وتعالى- بالتعظيم، ولم تُشْرع ليُحمد عليها مَن يؤديها، أو لِيُحْظَوْا بها، ويُحْبَوْا في سبيلها شرفاً وجاهاً، فإنّ هذا مخالفٌ لميزان التعبّد الخالص، (أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) **[**سورة الزمر/**3]**، وصحيحٌ أنّ العباد تتعلّق نفوسهم بعاجل حظّ الدنيا، ولكن العبادات سبيلها تربية المطيع على أن يكون أقصى حظّه من وراء عمله التقرّب من ربّه، والتلذّذ بمناجاته؛ لا غير ذلك من ملذّات هذه الفانية[14].

فعموم العبادات أُسُّها النيات؛ وتختلف أجورها وموازينها باختلاف نوايا المتعبّدين؛ فالصلاة مثلاً لو نوى بها المصلّي الرياء صارت معصية قبيحة، والنية الصالحة فيها لها أثر بالغٌ في تكثير الأجور والحسنات؛ وهكذا جميع الطاعات يمكن أن ينوي بها فاعلها أبواب خير كثيرة؛ فيكون له بكل نية ثواب[15].

المبحث الثاني: القاعدة الأصولية: «الإجزاء غير القبول» وأثرها في تصنيف ما يثاب عليه من الواجبات وما لا يثاب عليه

المطلب الأول: شرح القاعدة وتحريرها وأدلتها

الفرع الأول: تعريف جُزْئَيْ القاعدة (الإجزاء والقبول)

أولاً: «الإجزاء» لغة:

هو الكفاية والغَنَاء - بالمَدّ -[16]، يقال: أجزأته الصلاة؛ إذا كفته فاستغنى بها عن إعادتها.

ثانياً: «الإجزاء» اصطلاحاً:

تنازع الأصوليّون في مفهوم «الإجزاء» على مذاهب ذكَرها صاحب «البحر المحيط» [17]، ومُلخَّصها كما يلي:

المذهب الأول: حَدّ الإجزاء اصطلاحاً: هو الاكتفاء بالفعل في سقوط الأمر.

ومعناه: أنّ الخطاب متعلّق بفعل المكلَّف على وجهٍ مخصوص؛ فإذا أتى به على ذلك الوجه؛ انقطع عنه تعلُّق الخطاب، وهذا على مذهب المتكلّمين في تفسير الصّحّة بموافقة الأمر.

المذهب الثاني: أن حَدَّه: إسقاط القضاء. وهو مذهب الفقهاء في معنى «الصّحّة».

والمراد بهذا الحدّ: مُطْلق الإتيان بالفعل؛ سواء كان في الوقت أو خارج الوقت؛ فمتى قُضي الفعل مستوفيًا للشروط، وانتفت عنه الموانع؛ وُصف بـ«الإجزاء»؛ وذلك لسقوط الإتيان به مرة ثانية.

المذهب الثالث: أن حقيقة الإجزاء: الأداءُ الكافي لسقوط التعبّد به.

وحاصِلُ المعنى على هذا المذهب: عموم الإتيان بالفعل إتياناً كافياً في عدم المطالبة بالفعل مرة ثانية، ويتحقّق ذلك باستيفاء شروط الفعل، وانتفاء موانعه[18].

ثالثاً: الفرق بين «الإجزاء» و«القبول»[19]:

حتى يتبيّن وجه الفرق بين المصطلحين، لا بد من تعريف مصطلح القبول، كما تَوَضَّح معنى الإجزاء قبله، وعلى هذا فـ:

القبول: هو في اللغة: مصدر قَبِل الشيء قبولاً -بالفتح والضّم-، بمعنى: أخَذَه[20]، يقال: قبلت الشيء قبولاً: إذا رضيته، وفي الحديث: «ثم يوضع له القبول في الأرض»[21].

أمّا اصطلاحًا؛ فقيل: هو: ثمْرة وقوع الطاعة مجزئةً رافعةً لِما في الذِّمة [22].

وهل هما مترادفان؟ قولان مشهوران:

القول الأول: القبول والإجزاء؛ مصطلحان مترادفان، فلا يفترقان في إثبات ولا نفي؛ فإذا وُجد أحدهما وُجد الآخر، وإذا انتفى أحدهما انتفى الآخر.

قال ابن النجّار -رحمه الله-: «وهذا المقدّم في التحرير، والذي رجّحه ابن عقيل في الواضح»[23]؛ على أنه -رحمه الله-جعل الصّحّة في مقابل القبول، وهو قريبٌ ممّا نحن فيه[24]، وقد صرّح بتوجيه هذا القول واختياره من المتأخرين؛ الصنعانيّ الأمير -رحمه الله-؛ حيث قال: «وقد يُطلق القبول ويراد به كون العبادة بحيث يترتّب عليها الثواب، فإذا نُفي كان نفياً لما يترتّب عليها من الثواب؛ لا نفْياً للصّحّة...، كذا قيل، وقد بيَّنّا في رسالة الإسبال، وحواشي شرح العمدة أنّ نفْي القبول يلازم نفي الصّحّة»[25].

أدلة هذا القول: دلّ على اعتبار هذا القول بعضُ ظواهر النّصوص الشّرعية؛ التي ورد فيها نفْي «القَبول» مُراداً به نفْي الصّحّة، وهو كثير؛ كما في حديث أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عن النَّبِيّ ﷺ قَال: «لا يَقْبلُ الله صَلاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأ»[26]، وحديث عائشة رضي الله عنها عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «لا يَقْبَلُ الله صَلاَةَ حَائِضٍ إِلاَّ بِخِمَارٍ»[27].

وهذه الأدلة معارِضة لِما ذهب إليه أصحاب القول الثاني؛ من أنّ القبول أخصّ من الإجزاء؛ فالقاعدة: أنه لا يلزم من نفْي الأخصّ نفيُ الأعمّ[28].

القول الثاني: أنّ القبول أخصّ من الإجزاء؛ إذ كلّ مقبولٍ صحيحٌ أو مجزئ، ولا عكس.

أدلته: ممّا يشهد لهذا القول بالوجاهة؛ ظواهرُ أخرى من صحيح المنقول عن رسول الله ﷺ، ومن ذلك:

حديث نافع عَنْ صَفِيَّةَ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[29]، وحديث جَرِير بْن عَبْدِاللَّهِ يُحَدِّث عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال: «إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ»[30]، وحديث ابْنِ عُمَر ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْه»[31]، وحديث عَبْدِاللَّهِ بْن عَمْرو ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُول: «ثَلاَثَةٌ لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ صَلاَةً؛ مَنْ تَقَدَّمَ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُون»[32].

وجه الشهادة بها: أنّ الفقهاء مجمعون على أنّ صلاة مَن ذُكِروا في هذه الأحاديث الأربعة صحيحةٌ، والجمْع بين هذا الإجماع القائم ومثْل هذه الأحاديث: أن يُجعل نفيُ القبول غيرَ مراد به الصّحّة والإجزاء، ولا بدّ من هذا الحمْل حتى لا يتعاند الإجماع مع النصوص الثابتة، وعليه؛ فيحمل نفْي «القبول» على معنى زُهُوق الثواب وعدم تحصيله، وتُحمل «الصّحّة» الثابتة بالإجماع على معنى الكفاية في سقوط الطلب؛ وبراءة الذّمّة.

وللإشكال القائم في تعارض القبول والصحة أو الإجزاء؛ مِن ثبوت أحدهما وانتفاء الآخر؛ التمس ابن دقيق العيد -رحمه الله-حلاًّ له عند شرحه حديث: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»[33]؛ يراجع في محلّه[34].

القول الثالث: التفصيل: ذهب أصحاب هذا القول إلى أنّ نفْي القبول إمّا أن يكون بفوات شرطٍ أو لوجود مانع، أو لا لهذا ولا لذاك، فإن كان لفوات شرط أو وجود مانع؛ فهو نفيٌ للصّحّة والإجزاء. ومثال فوات الشرط: من صلّى بغير وضوء لم يقبل الله صلاته، ومن صلّت بغير خمار لم تقبل صلاتها. ومثال وجود مانع: من تكلم في صلاته لم تقبل.

أما إذا كان نفْي القبول لا يتعلّق بفوات شرط ولا وجود مانع؛ فلا يلزم منه نفْي الإجزاء والصحّة، فقد يراد به نفي كمال القبول، أي: لم تقبل عبادته على وجه التّمام والكمال؛ الذي يحصل به الرّضا وتمام المثوبة، وقد يراد به أنّ المكلف أذنب ذنباً يوازي الحسنة التي فعلها؛ فتكون حسنته كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة صحيحة، وتبرأ بها الذّمة، ومن ذلك نفْي القبول عن صلاة الآبِق، ومَن في جوفه خمْر، ومَن يأتي عرَّافاً، مع ثبوت صحّة صلاتهم بالإجماع، وإنما المراد أن الله تعالى لا يثيبهم عليها [35].

وهذا القول الأخير هو أعدل الأقوال، وألْصقها بدلائل القرآن والسنة الدالّة على التفصيل المذكور، فبه يُجمع بين الأدلة المتعارضة ظاهريّاً، والله أعلم.

الفرع الثاني: شرح القاعدة :

إن المتأمِّل لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ يعلم يقيناً أنّ الإخلاص هو أول ما يُشترط في أمر العقيدة وأعمال القلوب، وهو أصلُ قبول الأعمال؛ لأنه السبب الأول لاستحقاق الثواب والأجر منه سبحانه؛ فالمباحات المجرَّدة إذا فُعلت بنيّة التقرّب؛ جرّت من الثواب والرِّفعة عند الله ما لا يعلمه إلا الله، ولأجله انكشف لأئمة الصّدر الأول العاملين ومن حذا حذوهم؛ أنْ لا نجاة إلا بالعلم والعبادة؛ والعالِمون العامِلون المخلِصون على خطر عظيم! فكيف بعمل لا قصد معه ولا نية؟! والعمل قد تكمُل آلة إجزائه فِقْهاً؛ فيستتمّ شروطه وأركانه وغيرَ ذلك من اللّواحق؛ ولكنه كمالٌ ظاهريّ حين لا تكون له نيةٌ تشفع له، أما إذا كان مَشوبا بقدْر من الرياء أو حظوظ النفس؛ ففيه تنازُعٌ

قديمٌ بين أئمة السّلوك؛ هل يقتضي ثواباً أم عقاباً؟ أم لا هذا ولا ذاك؟ أما الذي لم يُرِد به صاحبه غير الرياء؛ فهو وبالٌ عليه قطعاً، وإنّما الاجتهاد والنظر في العمل المختلِط، فيه قصد طيب وآخر خبيث!

الفرع الثالث: تحرير القاعدة عند الأصوليين:

قرّر هذه القاعدةَ القرافيّ في (الفروق) في معرض تفريقه بين ما يُثاب عليه من الواجبات وبين ما لا يُثاب عليه منها، وإن وقع ذلك واجباً؛ فقال -رحمه الله: ((اعلم أنّ الفرق بين هاتين القاعدتين مبنيٌّ على ما للأصل مِن أنّ القبول غيرُ الإجزاء، وغيرُ الفعل الصّحيح، وأنّ بعض الواجبات يُثاب عليها ويكون مقبولاً؛ دون بعض؛ لأنّ الله تعالى قد يبرئ الذمّة بالفعل، ولا يثيب عليه وإن كان مستكمِلاً لشروطه؛ بناء على أنّ شرط تحقيق القبول والثواب أمران؛ أحدهما: قصد الامتثال بالعمل، وثانيهما: التقوى العُرفيّة...))[36].

وهذا ما استظهره أبو حامد -رحمه الله- في الإحياء؛ فقال: «يُمنع مِن القبول بعد جَرَيان ظاهر شروط الصحة أسبابٌ خفيّةٌ لا يطّلع عليها إلاّ ربّ الأرباب جلّ جلاله»[37]، وكلامه هذا إنما يريد منه حضور قلب العامل حين العمل، وتجريدَ نيته لله تعالى.

ولقد استقرأ الإمام الشاطبيّ -رحمه الله- الفقهيات والكليات الشّرعيةَ؛ فجزم بأنّ جميع الأعمال بالنيات، وأنّ اعتبار القصد في التصرفات كلها؛ سواء كانت عبادات أو عادات؛ هو اليقين، وذَكَر أنّ الأدلة من القرآن والسّنّة على هذا المعنى لا تنحصر؛ «فالعمل إذا تعلق به القصد تعلّقتْ به الأحكام التكليفيّة، وإذا عَري عن القصد لم يتعلّق به شيء منها؛ كفعل النائم والغافل والمجنون»[38].

المطلب الثاني : أدلة القاعدة:

دلّ من القرآن الكريم على هذه القاعدة جملةٌ من الأدلة، منها:

الدليل الأول: قوله تعالى: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِن الْمُتَّقِين) **[سورة المائدة/ 27].**

وجه الدلالة: «أن ابني آدم لمّا قرّبا قربانا؛ فتُقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر مع أن قربانه كان على وفق الأمر؛ بدليل أنّ أخاه علّل عدم القبول بعدم التقوى...؛ إذ لو لم يكن على وَفق الأمر، بل كان مُختلاّ في نفسه لقال له إنما يتقبّل الله العمل الصّحيح الصّالح؛ لأنّ هذا هو السبب القريب لعدم القبول؛ فدلّ عُدوله عنه على أنّ الفعل كان صحيحاً مجزئاً، وإنما انتفى عنه القبول لأجل انتفاء شرطه الذي هو التقوى في عُرْف الشّرع، وأنّ العمل المجزئ قد لا يُقبل وإن برئت الذمّة به، وصحّ في نفسه»[39].

وقال الفخر الرّازي -رحمه الله- في معرض تفسيره لهذه الآية: «..لأنّ القبول للعمل هو أن يرضى الله ذلك العمل، ويرضى عن فاعله، ويُثيبه عليه»[40].

الدليل الثاني: قَوْله تَعَالَى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم) **[سورة البقرة/127].**

وجه الدلالة: أن الخليل وابنه – على نبيّنا الكريم وعليهما صلوات الله وسلامه-حين سألا قبول فعلهما، وهما لا يفعلان إلاّ فعلاً صحيحاً؛ دلّ هذا السؤال منهما على أنّ القبول غيرُ لازم للفعل الصحيح؛ بل المحلّ قابلٌ له؛ لحصول شرطه الذي هو التقوى في عرف الشرع؛ إذ لا يلزم من حصول الشرط حصول المشروط[41] وللفخْر الرازي-رحمه الله- عند هذه الآية تحقيقٌ نفيسٌ، يُرجع إليه[42].

الدليل الثالث: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ»[43].

ووجه الدلالة: أن الحديث اشترط في الثّواب الموهوب من الكريم سبحانه أن يُحْسن المسلم في الإسلام بما حاصلُه التّقوى؛ التي هي في حقيقتها تَرْك المعاصي، وفعل الواجبات، وبهذا الحديث تَقَيّد الإطلاق الوارد في حديث عمرو بن العاص ﷺ مرفوعاً: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»[44] ؛ فظاهره أنّ الإسلام يمحو ما كان قبله مطلقاً، وحديثُ ابنِ أمّ عبْد ﷺ مُقيَّد بالإحسان في الإسلام، «وحمْل المُطْلق على المقيّد واجبٌ؛ فهدْم الإسلام ما كان قبله مشروطٌ بالإحسان»[45]

الدليل الرابع: عَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِكَبْشٍ أَقْرَنَ يَطَأُ فِي سَوَادٍ وَيَبْرُكُ فِي سَوَادٍ وَيَنْظُرُ فِي سَوَادٍ؛ فَأُتِيَ بِهِ لِيُضَحِّيَ بِهِ؛ فَقَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ هَلُمِّي الْمُدْيَةَ»؛ ثُمَّ قَالَ: «اشْحَذِيهَا بِحَجَرٍ»؛ فَفَعَلَتْ، ثُمَّ أَخَذَهَا وَأَخَذَ الْكَبْشَ فَأَضْجَعَهُ ثُمَّ ذَبَحَهُ، ثُمَّ قَالَ: «بِاسْمِ اللهِ. اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ»، ثُمَّ ضَحَّى بِهِ[45].

ووجه الدلالة: أنه سأل الله تعالى القبول مع أنّ فعله في الأضحية كان على وفق الشريعة؛ فدلّ ذلك على أنّ القبول وراء براءة الذّمّة والإجزاء، وإلاّ لَمَا سأله -عليه السلام-؛ فإنّ سؤال تحصيل الحاصل لا يجوز[46].

الخاتمة:

وبعد؛ فما مرّ معنا في صفحات هذا البحث؛ من أحكام متعلّقة ببعض الواجبات التي تبرأ الذمّة بفعلها، وربما يُحْرَم العبد من ثوابها؛ جرّاء غفلته عن استحضار نيته؛ ممّا ينبّه إلى ضرورة الاهتمام بأمر النوايا؛ إذ هي المعيار الذي يوجه القلب المسلم؛ إمّا إلى الخير وإمّا إلى ضدّه، وبها يصحّ العمل الشرعيّ، ومن ثَمّ تتوالى آثاره الشرعيّة والحُكمية، وإمّا أن تُبْطِل العمل وتُلغي آثاره، وأهمّ من هذا كلّه؛ أنها إمّا أن تكون سبباً للثواب والجزاء الحسن من الله تعالى، وإما أن تكون سبباً للعقاب وذهاب الأجر؛ فمن حسنت نيته، وصلحت سريرته؛ حاز الفضل وفاز في الآخرة فوزاً مبيناً، ومن ساءت نيته، وفسدت سريرته؛ ابتلي بالخسران والخذلان في الدنيا والآخرة.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

الهوامش :

[1]- «أنوار البروق في أنواع الفروق»: (134/3).
2- «الموافقات»: (220/2).
3- «المجموع شرح المهذب»: (17/1).
4- «إحياء علوم الدين» (362/4). دار المعرفة.
5- «الموافقات»: (18/6).
6- «القوانين الفقهية»: (22/1).
7- «الأمنية في إدراك النية» ص: (13).
8- «أنوار البروق في أنواع الفروق»: (135/3).
9- راجع: «المنثور في القواعد»: (323/2) ط: وزارة الأوقاف الكويتية، 1405هـ.
10- الأَرْشُ: الدّية؛ أي: دية الجِراحات؛ سُمِّي أَرْشاً؛ لأنّه من أسباب النِّزاع. راجع: «تاج العروس»: (4203/1).
11- راجع تفصيل ما مرّ؛ في: «الفقه الإسلامي وأدلّته» للزحيلي: (196/1).
12- «الأمنية في إدراك النية»؛ ص: (14).
13- «الموافقات»: (21/5).
14- راجع المصدر السابق: (416/4 و484).
15- راجع: «إحياء علوم الدين»: (370/4) ففيه ما يشفي الغليل.
16- «لسان العرب»: (45/1).
17- «البحر المحيط في أصول الفقه» للزركشيّ: (255/1)، وانظر: «الكوكب المنير شرح مختصر التحرير» للبخاري: (187/1).
18- «نهاية السّول» للإسنوي: (60/1)، و«الإبهاج» لابن السبكي: (73/1).
19- وإنما اقتصر البحث على الفرق بين الإجزاء والقبول؛ مراعاةً لخِطّته، وإلاّ فإنّ هناك مصطلحات أخرى مشابهةً للإجزاء، تجتمع معه في بعض الأحكام، وتختلف معه في غيرها، ومن ذلك: النفوذ، والجواز، والاعتداد، والانعقاد، وغيرها، ولمعرفة أوجه المشابهة والاختلاف بين هذه المصطلحات وبين الإجزاء؛ يراجع: بحث جامع بعنوان: (الإجزاء عندالأصوليين؛ مفهومه وأحكامه) محمود عبدالرحيم عبدالمنعم، مجلة الشريعة والقانون، القاهرة؛ كما يُنظر في المظان الأصولية التالية: «التقرير والتحبير»: (153/2، 154)، و«شرح تنقيح الفصول»؛ ص: (77)، و«قواطع الأدلة» لابن السمعاني: (24/1)، و«البحر المحيط» للزركشي: (114/6- 429-436)، و«كشف الأسرار على أصول البزدوي» لعبدالعزيز البخاري: (173/1).
20- «القاموس المحيط»: (1351/1)
21- أخرجه البخاري برقم: (3209)، ومسلم برقم: (2637).
22- «فتح الباري» لابن حجر (235/1) دار المعرفة.
23- «شرح الكوكب المنير»: (469/1) طبعة العبيكان.
24- قال القرافيّ -رحمه الله-في «شرح تنقيح الفصول»؛ ص: (77): «الإجزاء؛ وهو كون الفعل كافياً في الخروج عن عهدة التكليف، وقيل ما أسقط القضاء. الإجزاء شديد الالتباس بالصحة، فإن الصلاة الصحيحة مجزئة، وقولنا الكافي في الخروج عن العهدة هو معنى قولنا في الصحة هي موافقة الأمر». طه عبد الرؤوف سعد. الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة، الطبعة: الأولى، 1393

هـ -1973 م، والفرق بين الإجزاء والصّحة: أنّ الصّحّة أعم منه؛ إذ يوصف بها العبادات والمعاملات، بينما يختص الإجزاء بالعبادات.
25- «سبل السلام»: (455/1).
26- أخرجه البخاري برقم (6954).
27- أخرجه الترمذي برقم: (377)، وأبو داود برقم: (641)، وابن ماجه برقم: (655)، وأحمد برقم: (24641).
28- راجع: «حاشية العطّار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع»: (476/2).
29- أخرجه مسلم برقم: (2230).
30- أخرجه مسلم برقم: (103).
31- أخرجه أحمد برقم: (4898).
32- أخرجه أبو داود برقم: (501).
33- أخرجه البخاري برقم: (6954).
34- انظر: «إحكام الأحكام شرح عمدة الحكام»: (63/1-64).
35- «مِنْحة العَلاّم في شرح بلوغ المرام»: (256/1).
36- «أنوار البروق في أنواع الفروق»: (97/2).
37- «إحياء علوم الدين»: (370/4) وما بعدها، أثناء بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية.
38- «الموافقات»: (7/3 وما بعدها).
39- «أنوار البروق في أنواع الفروق»: (147/3).
40- «مفاتيح الغيب»: (110/8).
41- أخرجه البخاري برقم: (6921)، ومسلم برقم: (334).
42- انظر: «مفاتيح الغيب»: (53/4) بتصرّف.
43- أخرجه البخاري برقم: (6921)، ومسلم برقم: (334).
44- أخرجه مسلم برقم: (336).
45- أخرجه مسلم برقم: (5203).
46- «أنوار البروق في أنواع الفروق»: (136/3).

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 287 - 296
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

مجال وطبيعة الآلة في الدستور الفرنسي لعام 1958

بن مسعود احمـــــــــد

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة :

يكاد يجمع أغلب الباحثين على أن الدستور الفرنسي لعام 1958 قد أثّر بشكل كبير أو منقطع النظير على العلاقة القائمة بين السلطات خاصة التشريعية والتنفيذية وبصفة أدق في مسألة توزيع الاختصاص بينهما ، وهذا ما جعل البعض يصف هذا التغير أو التجديد بالثورة القانونية والتي تأثرت بها العديد من الدول .

حيث أصبحت السلطة التنفيذية تشارك في الوظيفة التشريعية التي كانت حكرا على البرلمان عهدا طويلا باعتباره المعبر الوحيد عن الإرادة العامة ، أما الحكومة فقد كان دورها يقتصر فقط على وضع الإجراءات اللازمة والكفيلة بتنفيذ القوانين ، وهو ما يترتب عنه إطلاق مجال القانون وانحصار مجال اللائحة ضمن إطار النظرية التقليدية التي كانت تحكم العلاقة بين القانون واللائحة.

إلا أن الضرورات العملية كانت أكبر منذ ذلك وبدأ البرلمان يتنازل عن بعض صلاحياته للحكومة ، التي أصبحت تساهم في التشريع عن طريق اللوائح المستقلة ، وهذه النقطة هي التي جعلت أغلب الباحثين يهتمون بها بالدراسة والتحليل ، والتي أثارت العديد من الإشكاليات خاصة فيما يتعلق بموقع أو مكانة السلطة اللائحية المستقلة في النظام الدستوري الفرنسي ، ومن هذا المنطلق ارتأينا طرح الإشكالية التالية :

ما هي أبعاد التعديلات والتجديدات التي جاء بها الدستور الفرنسي لعام 1958 خاصة فيما يتعلق بمجال وطبيعة السلطة اللائحية المستقلة ؟.

للإجابة عن هذه الإشكالية الرئيسية نفرد مبحثا نتطرق فيه إلى مجال وطبيعة السلطة التنظيمية من خلال الدستور الفرنسي لسنة 1958 ، إلى جانب الأسس السياسية والاجتماعية والدستورية للتجديدات التي أحدثها هذا الدستور الأخير .

المبحث الاول : مكانة السلطة اللائحية في الدستور الفرنسي لسنة 1958

تستوجب الدراسة في هذا المقام الوقوف على مكانة السلطة التنظيمية في الدستور الفرنسي لعام 1958 ، خاصة في ظل التجديدات أو الثورة القانونية التي أحدثها هذا الدستور الأخير وأثرها على توازن السلطات وبالأخص علاقة القانون باللائحة ،ولن تكتمل الدراسة إلا بالتطرق إلى الأسس الاجتماعية و السياسية ، والقانونية لهذا التجديد وعليه ندرس في المطلب الأول الأسس السياسية والاجتماعية ، وفي المطلب الثاني الأسس الدستورية لهذه التجديدات .

المطلب الأول: الأسس الاجتماعية والسياسية

إن الوضع الجديد الذي أفضى إليه دستور 1958 في فرنسا فيما يتعلق بمسألة توزيع الاختصاص بين الحكومة والبرلمان يتضح من آثار تطور هذا الدستور على هذه العلاقة ، كما أن هذه التجديدات التي جاء بها هذا الدستور تستند على أسس اجتماعية وسياسية ودستورية ، تقوم أساسا على تطور العلاقة بين القانون و الإرادة العامة ، وأولوية تماسك الحكومة ، وأخيرا تطور مبدأ الفصل بين السلطات .

الفرع الأول : تطور العلاقة بين القانون والإرادة العامة

شهدت العلاقة بين القانون والإرادة العامة تطورا ملحوظا خاصة بعد ظهور الدستور الفرنسي لعام 1958 ، ففي العهود القديمة أو المناهج السابقة كان القانون الوسيلة الوحيدة للتعبير عن الإرادة العامة ،كون البرلمان هو الممثل الوحيد للإرادة العامة ، إلا أن دستور 1958 قلب هذه التقاليد حيث ظهرت وسائل أخرى للتعبير عن الإرادة العامة .

أولا :التقليد الفرنسي بخصوص سيادة القانون

تأثر رجال الثورة الفرنسية كثيرا بأفكار روسو ، خاصة فيما يتعلق بسيادة الأمة حيث يعد روسو السباق لوضع تصور أو نظرية خاصة بالقانون والتي تقدم أسس جديدة للمجتمع السياسي ، وهذا في كتابه العقد الاجتماعي ، حيث توصل هذا المفكر إلى مجموعة من الأهداف والتي تتمثل أساسا في أن المواطن يكتسب حقوقه من خلال مشاركته في اتخاذ القرارات داخل الجماعة ، وحتى تكتمل الأشياء وتكون هذه القرارات مشروعة يجب أن تتخذ صفتين أساسيتين ، أولا يجب أن تكون في مصلحة جميع المواطنين ، ثانيا أن تحكم الجميع [1]

ويشرط "روسو " حتى يكون القانون المعبر الوحيد عن الإرادة العامة ، يجب عند إعداد القانون أن يكون الإجماع في الآراء طليقا وهذا ما يفترض وجود وعي مدني بين المشرع والمواطن ، وبالتالي ينتج عنه إقصاء كلي للنظام النيابي ، بالإضافة إلى ذلك فان هذه التصرفات الرسمية تهدف إلى المصلحة المشتركة للمواطن [2].

وإذا كان مؤلف العقد الاجتماعي يقبل ضرورة وجود السلطة التنفيذية إلا أنه يرى أنها تبقى تابعة للشعب مصدر السلطة وصاحب السيادة ، كما يرى "روسو" أن السلطة العامة المكونة في مجموع إرادات الأفراد لا يمكن أن تستقر إلا في المجتمع بأكمله ، فالسيادة إذن ليست شيئا آخر سوى الإرادة العامة للمجتمع الذي أنشأ العقد الاجتماعي ،والقانون هو التعبير عن هذه الإرادة ، ويضيف أيضا تحفظا هو أن الإرادة العامة ليست هي الإرادة الجماعية لكل المواطنين بل هي إرادة الأغلبية، وهذا الخضوع لقرار الأغلبية يعد أيضا شرطا ضروريا للعقد الاجتماعي لأن اشتراط الإجماع حتى يصبح القانون ملزما للجميع [3].

أما عن صياغة هذه الأفكار في فرنسا خاصة سنة 1789 فإن الفضل يرجع بصفة أساسية إلى المؤسسين السابقين ، فالفقيه " سايز " مثلا يتصور النظام النيابي بقوله " الإرادة العامة يكشف عنها ليس فقط من قبل الهيئة السياسية ، ولكن عن طريق ممثليها ، والسيادة الشعبية أخذت مكانها بواسطة السيادة البرلمانية " [4].

وهكذا نصت المادة الثالثة من وثيقة حقوق الإنسان لسنة 1789 على : " الأمة هي مصدر كل سيادة ولا يجوز لأي فرد أو هيئة ممارسة السلطة إلا على اعتبار أنها صادرة منها "

كما نصت المادة الأولى من الباب الثالث من دستور 1791 على أن: " السيادة واحدة غير قابلة للانقسام ولا التنازل عنها، ولا تسقط بالتقادم وهي ملك للأمة "

من خلال هذه النصوص يلاحظ أن السلطة التشريعية أصبحت لها مكانة هامة مقارنة بمختلف السلطات خاصة السلطة التنفيذية ، كما أن القانون أصبح يحتل مكانة خاصة داخل النظام القانوني للدولة ، ومع نهاية القرن التاسع عشر أصبح مبدأ احترام القانون يحمل العديد من المعاني ، وهذا من كونه القاعدة العليا أو السامية التي تهدف إلى حماية المواطنين من التعسف كما يطبق على الجميع ، ولا يتدخل إلا نادرا ولأهداف محددة ، وهذا بسبب الدور المحدود للدولة ، وبناءا على هذه الأسباب الأخيرة فان الصفات الأساسية للقانون وخاصة العمومية والديمومة وجدت من طرف أصحاب المعيار المادي الذي يعدد الضمانة الأساسية للنظام الليبرالي [5]

وفي هذا الإطار يوجد التعريف التقليدي للقانون والذي ، وضعه كل من"Duguit" و" Esmein "، فبالنسبة للعلامة "Duguit"يعرف القانون : " القانون قاعدة عامة ،وكل الأحكام التي ليست لها هاته الصفات ليست بقانون ، حتى ولو صدرت بادعاء سيادي " وإذا كان هذا الفقيه يقصي من تعريفه تكييف التصرف ، فإن وصف الفقيه "Esmein" متباين ومختلف وهذا من خلال تعريفه للقانون والذي يعرفه : " قاعدة آمرة موضوعة من طرف صاحب السيادة من أجل المصلحة العامة لا الخاصة لا تخاطب فرد معين بل الجميع من أجل المستقبل " [6]

وحسب بعض الباحثين فإن هذا التعريف للقانون متنازع فيه ، ذلك أن التصور الذي وضعه "روسو " قد تشوه ، فحسب اعتقاده لا يمكن الحديث عن عمومية القانون إلا ضمن إطار اعتباره المعبر الوحيد عن الإرادة العامة ، ولكن وفق المعيار المادي فان دور الدولة تزايد وتدخل المشرع أصبح مضبوطا ، وأخيرا فإن هذه الحجج فاصلة ، غير أن المعيار المادي لم يكن مقبولا من طرف القانون الوضعي الفرنسي .[7]

وهذا ما جعل المعيار العضوي مطابقا لإرادة المؤسسين السابقين في فرنسا ، الذين كان هدفهم

تأسيس إرادة البرلمان وتنظميها قانونا من خلال التطور اللاحق للقانون الدستوري الوضعي ، وفي هذا السياق انتقد الفقيه " كاري دي مالبرغ " الفقهاء السابقين إذ حسبه فإن القانون تصرف أصلي وغير مشروط وله مكانة في القواعد القانونية وهذا بسبب مصدره الأصلي [8]

وختاما لهذا الموضوع يمكن القول بأن هذا السلطان المطلق للبرلمان والمبرر، كان من أهم العوامل التي ساهمت في تقهقر القانون وفقدانه للمكانة التي كان يتمتع بها ، ذلك أن التطور الحاصل في الدولة والتغيرات التي تشهدها المجتمعات أدت إلى عجز القانون عن مسايرة هذه التحولات ، حيث أن إرادة البرلمان اصطدمت بسياسة التدخل من طرف الدولة وذلك تحت تأثير المد الديمقراطي خاصة الديمقراطيات الاجتماعية وهذا ما أدى في الأخير إلى الاعتراف للحكومة بالعديد من الامتيازات والصلاحيات .

ومن دون شك أن البرلمان اليوم لم يعد صاحب السيادة في إعداد القانون كما كان سابقا وهذا بسبب نظام الرقابة على دستورية القوانين ، والدور الذي يلعبه القضاء الدستوري في الرقابة على التشريعات الصادرة عن البرلمان ، ومدى مطابقتها للدستور سواء كانت هذه الرقابة سابقة أو لاحقة ، وبالتالي انهارت أسطورة تمثيل البرلمان للإرادة العامة ، وظهرت بالمقابل وسائل أخرى للتعبير عن هذه الإرادة .

ثانيا : الوسائل الحديثة للتعبير عن الإرادة العامة

بينا فيما سبق كيف تقهقر دور البرلمان خاصة فيما يتعلق بمبدأ تمثيل الإرادة العامة تحت تأثير العديد من العوامل ،ولكن وقبل دراسة الوسائل الحديثة للتعبير عن الإرادة العامة، يجب أن نزيل بعض اللبس الذي يكتنف مسألة تتعلق بكيفية التوفيق بين مبدأ سيادة البرلمان في وضع التشريع، وحصر المجال الخاص بالقانون ، فالكثير من الدراسات لم تتطرق إلى هذه المسألة بالتفصيل ،بل اكتفت بذكر انحصار نطاق القانون وإطلاق مجال التنظيم في الدستور الفرنسي لعام 1958، باستثناء بعض الباحثين سواء في فرنسا، أوفي مصر أو في الجزائر .

ففي فرنسا مثلا تناول هذه النقطة الأستاذ Bernard Brachet حيث يقول : " إن بناء النظام الجديد فيما يخص هذه النقطة أبقى على سيادة البرلمان لأنه يعمل في المجال المحدد له ، والوضع نفسه بالنسبة للحكومة التي لها مجال أيضا محدد ، لذلك يبقى الاستنتاج صعبا بخصوص نقطة تتصل بكيفية شرح السيادة في ظل تعدد أجهزة الدولة ، لذلك هل يبقى الوزير مسؤولا أمام البرلمان ؟،يمكن الإجابة عن هذا السؤال إذا كان الوزراء ورئيسهم مسؤولين فانه مع ذلك يعينون من طرف رئيس الدولة وهذا استنادا إلى النظرية الأوروليانية القائمة على ثنائية المسؤولية ، وفي الواقع إن النقاش لدى الفقهاء الفرنسيين ليس له أهمية ذلك أن واضعي دستور 1958 مدركين جيدا لمسألة التوفيق بين سلطات الدولة وضرورة احترام الديمقراطية التقليدية " [9]

وعلى الرغم من كل هذا الجدل ، إلا أنه تجب الإشارة إلى أن دستور 1958 قد أوجد بعض الوسائل للتعبير عن الإرادة العامة والتي في مقدمتها ، أسلوب الاستفتاء ، حيث تنص المادة الثالثة منه على أن :" السيادة الوطنية ملك للشعب وهو يمارسها بواسطة ممثلين له، وعن طريق الاستفتاء العام وليس لأي جزء من الشعب ولا لأي فرد أن يدعي لنفسه الحق في ممارستها ".

ويلاحظ أن هذا النص استعمل الاستفتاء كوسيلة حديثة للتعبير عن الإرادة العامة ، وهو مظهر من مظاهر الديمقراطية شبه المباشرة التي تشوه التصور الذي أشار إليه "روسو" في كتابه العقد الاجتماعي، وفي هذا الإطار يقول الأستاذ رمزي الشاعر : "....
ويلاحظ أن الدستور الفرنسي الصادر سنة 1793 قد قرر الاستفتاء التشريعي ، ولكنه لم يتحقق على نحو عملي طوال سريان الدستور ، وعلى العكس من ذلك فقد استخدام الاستفتاء التشريعي عام 1958 أكثر من مرة ، فقد استخدمه الرؤساء في 8 يناير 1961 ، و7 أفريل 1962 و 28 أكتوبر 1962 و 27 أفريل 1969 ، و23 أفريل 1973 " [10]

ويلاحظ أيضا أن الشعب يتدخل في الوظيفة التشريعية بالتساوي مع البرلمان ، إلا أن مصطلح الإرادة العامة ليس واضحا وهو ما يدل على تراجعه ، والمستفيد هنا هو رئيس الجمهورية الذي أصبح يتمتع بمكانة هامة في ظل دستور 1958 ، حيث يسهر رئيس الجمهورية على احترام الدستور ويضمن السير الحسن للسلطات العامة واستمرار بقاء الدولة ، كما أنه غير مسؤول سياسيا أمام البرلمان حيث لا يوجد أي إجراء يحرك المسؤولية السياسية للرئيس [11] .

وما زاد من تدعيم هذه المكانة هو انتخاب رئيس الجمهورية مباشرة من طرف الشعب ، حيث أصبح رئيس الجمهورية يتمتع بسلطة موازية ومنافسة للبرلمان في التعبير عن الإرادة العامة.

وفي هذا المجال أكد الفقه والقضاء على أن لكل من القانون والتنظيم المستقل مجال معين وغير متساوي، فإلى أي مدى يستطيع الفقه والقضاء أن يواصلا موقفهما هذا لمدة طويلة ؟

في هذه النقطة يرى أحد الباحثين أن رئيس الجمهورية صاحب سلطة التنظيم المستقل ، والمعبر عن الإرادة العامة يجد نفسه خاضعا لرقابة القضاء الإداري ، وهذا التصرف يعد انتقاصا من حصانة القانون ، وهو تناقض يستلزم البحث عن وسيلة للتوفيق بين الوضع الجديد والتطبيقات السابقة لدولة القانون ،كما يجب أيضا في هذا الإطار عرض التناقضات التي يمكن أن تظهر بين المبررات النظرية والتطبيقات العملية [12].

الفرع الثاني: أولوية تماسك الحكومة واستقرارها

كما بينا فيما سبق أن دستور 1958 قد منح معظم الصلاحيات لرئيس الجمهورية الذي أصبح يتمتع بمكانة هامة داخل الدولة ،وهذا راجع إلى عدة مبررات ،أهمها ظاهرة تشخيص السلطة ، إلى جانب المفهوم الحديث لمبدأ الفصل بين السلطات الذي أصبح تدرجا للسلطة عوضا للفصل .

أولا : تشخيص السلطة

يقصد بتشخيص السلطة أن تكون السلطة مجسدة في شخص هو القائد أو الزعيم وترتبط به وتتحول من فكرة مجردة إلى كيان ملموس [13]

وهذه الظاهرة حسب بعض الفقهاء أصبحت مسألة طبيعية ،وهذا ما أشار إليه فقهاء علم الاجتماع والسياسة من خلال دراستهم لتأثير وسائل الدعاية والإعلام في بعض المجتمعات، حيث أن المواطن عادة لا يكترث بما يقوله المترشح حول برنامجه السياسي بقدر ما يهتم بانفعالاته وهندامه ولباقته وطريقة إجابته ، فبظهور التلفزيون تحولت معايير التفاضل السياسي من الخبرة والكفاءة إلى مظهر وقوام المترشح وطريقة تعامله مع الآخرين [14].

كما يرى جانب من الفقه أن السياسة في بداية القرن الماضي كانت تستند على الفكر أما اليوم فهي تعتمد على الأشخاص حيث أن السلطة ترتبط بهم وتترجم من خلال حركات الشخص [15].

وهذه الظاهرة ليست مقصورة على الدول المتقدمة ، بل حتى في دول العالم الثالث، وفي هذا الإطار اختار أحد الباحثين خمسة شخصيات الأكثر تأثيرا في العالم ، ومن بين هؤلاء الرئيس كينيدي ، والرئيس خروتشوف ، والجنرال ديغول ، وماوتسي تونغ ، وفي هذه الفرضيات تشخيص السلطة يحمل وجهين الأول من جانب المواطنين ففي هذه الحالة تتجسد السلطة في شخص الزعيم ، والثاني في التركيز الفعلي للسلطة في يد هذا الزعيم ، ولكن الربط بين السلطة الحقيقية والشخص ممثل الوحدة الوطنية ليس أمرا مسلما به ، بل يجب الاعتراف بأن هذه الظاهرة مألوفة وعادية [16]

إن دراستنا لمبدأ تشخيص السلطة أمر ضروري ولازم من أجل الإحاطة الفعلية بأبعاد وخلفيات صياغة الدستور الفرنسي لعام 1958 ، حيث يظهر وبشكل واضح تأثير النظرة الديغولية على هذا الدستور ، وهذا من شأنه أن يساعدنا على التوفيق بين هذه النظرة وبين العلاقة الموجودة بين مختلف السلطات.

- ثانيا : التكريس القانوني للمطالب السياسية في دستور 1958

كرس الدستور الفرنسي لعام 1958 بشكل واضح التوجهات والأفكار التي جاء بها الجنرال ديغول ، وهذا تحت تأثير بعض العوامل السياسية والقانونية والتاريخية ، التي استفاد منها هذا الأخير ، هذه العوامل ترجع أساسا إلى حالة عدم الاستقرار السياسي نتيجة تعدد الأحزاب وتصارعها داخل الجمعية الوطنية والسبب في ذلك يرجع إلى اعتماد نظام التمثيل النسبي ، ففي الفترة مابين (1946 – 1959) تعاقبت على فرنسا حوالي 27 وزارة بعضها لم يستقر في الحكم سوى بضعة أيام مثل حكومة J- Moch التي لم تستمر سوى ثلاثة أيام في الحكم من 1949/10/13 إلى 1949/10/17 [17]

وهكذا أخذت شخصية الجنرال ديغول مكانة داخل النظام الدستوري في فرنسا ، وهذا بسبب الدور الاستثنائي الذي كان يتمتع به في التاريخ الفرنسي ، حيث أعلن منذ اللحظات الأولى لتوليه لمهام رئاسة الوزراء سنة 1958 عن رغبته الصريحة في تغيير الأنظمة القائمة ، وبناء مؤسسات يستمد فيها رئيس الجمهورية السلطة مباشرة من الشعب ، ويتمتع بالمقابل بالهيمنة على مختلف السلطات الفعلية والواسعة خاصة أثناء الأزمات ، واستطاع ديغول فعلا تحقيق هذه الإصلاحات بمقتضيات دستورية أقرتها الأمة عندما وافقت على دستور 1958 [18]

كما كان للثورة الجزائرية دور كبير في انهيار الجمهورية الرابعة ، وهذا ما أشار إليه الأستاذ "أندري هوريو" حيث قال : " وربما كانت الجمهورية الرابعة قد توصلت إلى إصلاح ذاتها لو أنها استطاعت إنهاء مشكلة استعمار الجزائر " [19]

ولكن الصعوبة التي يشير إليها الفقهاء في هذا الإطار تكمن في: كيف نتتبع القواعد القانونية خاصة عند عملية إعدادها والتي تتأثر بدون شك بعملية ربطها بشخص معين ؟

يتضح من الإطار العام للنظام الدستوري القائم أن الهدف من وراء كل هذا هو إعادة توحيد الوظيفة

الحكومية التي كانت مقسمة سابقا وغير مستقرة .

أما فيما يتعلق بمسألة إعداد القوانين فالأكيد أن السلطة التشريعية قد أصبحت تشاركها السلطة التنفيذية في هذه العملية ، وهذا عن طريق السلطة التنظيمية المستقلة، فلم يعد دور الحكومة في هذا المجال قاصرا على تنفيذ التشريعات البرلمانية، بل أصبح لها دور في سن القواعد القانونية ، وهذه الوظيفة يتولاها رئيس الجمهورية والوزير الأول.

ثانيا : المفهوم المعاصر لمبدأ الفصل بين السلطات

بينا فيما سبق أن مبدأ الفصل بين السلطات في ظل النظرية التقليدية قد تعرض لجملة من الإصابات التي غيرت من مضمونه ، حيث أن هذا المبدأ أصبح له و من الناحية العملية وجه آخر و مغاير لمحاولة وضع الحدود بين البرلمان و الحكومة على أساس الأصيل و التابع ، وقد أشار بعض الفقهاء إلى هذا الوضع الذي اتخذه مبدأ الفصل بين السلطات ، باعتبار أن الفصل العضوي لا يؤدي بالضرورة إلى الفصل الموضوعي بين السلطات ،فمن المعلوم أن الاختصاصات تتحرك إيجابا و سلبا بين العضو التشريعي و بين الحكومة [20]

و قد أشارت محكمة القضاء الإداري في مصر إلى هذا الوضع في حكمها الصادر بتاريخ 20 ديسمبر 1954 « و من حيث أن قاعدة الفصل بين السلطات ، وفقا لما أجمع عليه فقهاء القانون العام في العصر الحديث و طبقا لأسس النظام الديمقراطي و المبادئ الدستورية تقوم على عدم فصل السلطات فصلا تاما ، و إنما هي تتمثل في فصل السلطات فصلا محدودا بتعاونها و تساندها بحيث تتداخل الاختصاصات بينها أحيانا بما يحقق الصالح العام ، و على ذلك فقد تقوم السلطة التشريعية بأعمال هي من اختصاص السلطة التنفيذية كما تقوم السلطة التنفيذية بأعمال هي من اختصاص السلطة التشريعية» [21]

الواقع أن دراسة و تحليل حكم محكمة القضاء الإداري يحتاج إلى توضيح أكثر خاصة بعد عرض آراء الفقهاء في هذا التداخل بين الاختصاصات بمعنى آخر لصالح من يكون اختلال هذا التوازن ؟

هل للسلطة التنفيذية أم للسلطة التشريعية ؟ .

أشار بعض الفقهاء إلى أنه و من أجل فهم مسألة تنظيم السلطات في الدولة يجب أن تميز بين توزيع السلطة ،والفصل بين السلطات ، و تقسيم الوظائف ، و في هذا الإطار يقول الدكتور ثروت بدوي: « و الحقيقة أنه يلزم التمييز بين هذه الأمور الثلاثة ، فتوزيع السلطة يعني تعدد الهيئات الحاكمة بما يمنع من تركيز السلطة في يد شخص واحد أو هيئة واحدة صحيح أن هذا التوزيع يجب أن يتم وفقا لمعيار معين ، و أن فلاسفة القرن 18 وجدوا هذا المعيار في تقسيم الوظائف ..، فتوزيع السلطة يعني أمرا واحدا هو تعدد الهيئات الحاكمة و يستوي إذن أن يكون معيار التوزيع التقسيم التقليدي لوظائف الدولة أو أي معيار آخر » [22]

و مما لاشك فيه أن مسالة توزيع السلطة قد ارتبطت بالحركات التي كانت تنادي بالديمقراطية و حماية الحقوق و الحريات العامة خاصة في أوروبا و التي كان هدفها الحد من السلطان المطلق للملوك و كانت الوسيلة تتمثل في مبدأ الفصل بين السلطات.

و في هذا الإطار ذهب البعض إلى أن مفكري القرن الثامن عشر لم يبينوا الفارق بين توزيع السلطة والفصل بين السلطات لأن هذا المبدأ الأخير يقدم حلا لمشكلة تحديد العلاقة بين الهيئات المختلفة الناتجة عن توزيع السلطة ، فيقيم بينها فصلا عضويا يجعلها جميعا على قدم المساواة [23]

و الواقع أن مسألة تنظيم السلطات و تحديد العلاقة بين هذه السلطات مسألة معقدة جدا ، إلا أننا و كما بينا سابقا سنركز على مبدأ الفصل بين السلطات و ما أصاب هذا المبدأ من تعديلات خاصة بظهور الدستور الفرنسي لعام 1958 ، و الذي حسب تعبير البعض قد أهدر مبدأ الفصل بين السلطات ، بتركيزه للسلطتين التشريعية و التنفيذية في يد الإدارة حيث أصبحت السلطة التنفيذية صاحبة الاختصاص الأصيل في التشريع [24].

و في هذا الإطار يقول ديفرجيه عن هذا الفصل الجديد : « إننا نجد في الوقت الحاضر فصلا بين السلطات غير متساوي و يتعلق بمزية التصنيف و التسلسل بين السلطات » [25].

أما "بيردو" فيصفه بأنه : « فصل غير تام حيث يعتبر رئيس الدولة و الحكومة من وسائل العمل الأكثر فاعلية و تأثيرا من البرلمان » [26]

وتقول الدكتورة بدرية جاسر الصالح : « ليس صحيحا أن مبدأ الفصل بين السلطات من الناحية السياسية لم يتغير في دستور 1958، ذلك أن هذا الدستور قد حظر الجمع بين الوظيفة البرلمانية و الوظيفة الحكومية ، و لكن لو أخذنا مبدأ فصل السلطات من الناحية القانونية ، أي من ناحية تقسيم الاختصاصات ، فمما لاشك فيه أنه طرأ عليه تغييرا واضحا ، فبعد أن كان اختصاص السلطة التنفيذية محصورا في تنفيذ القوانين و في ممارسة الوظيفة التنفيذية ، فتحت أيضا إلى جانب هذه الوظيفة التقليدية م (21) من الدستور ، وظيفة تشريعية م (37) هذا

بالإضافة إلى الاختصاص الحكومي المقرر بالمادة (20) لتصبح الهيئة الحكومية التي تدير سياسة الدولة تملك أيضا السلطة في التشريع فالدستور الجديد قد حافظ على مبدأ الفصل بين السلطات من ناحية البرلمان الذي مازال الحائز الأصلي للتشريع ، أما من ناحية الحكومة فقد أدخل الدستور بعض التعديلات على مبدأ فصل السلطات ليجعل من السلطة التنفيذية شريكة البرلمان في ممارسة السلطة التشريعية» [27]

من خلال ما تقدم يتبين أن معظم الأنظمة الدستورية لا تحترم مبدأ الفصل بين السلطات، لأن السلطات لا تبقى رهينة أو حبيسة الاختصاص المحدد في الدستور، خاصة السلطة التنفيذية التي أصبحت تأتي باختصاصات تعتدي بها على صلاحيات السلطة التشريعية .

فالسلطة التنظيمية لم تعد تتضمن فقط مهمة تنفيذ القوانين بل امتدت إلى أكثر من هذا المجال ، وأصبحت سلطة تنظيمية مستقلة تباشرها الحكومة بموجب نص الدستور ، إن هذا التغير الذي طرأ على مبدأ الفصل بين السلطات تم تأسيسه من طرف الدستور الفرنسي لعام 1958 . [28]

و ختاما لهذا الموضوع الشائك نعتقد كما ذهب إليه البعض من الفقهاء إلى أن مبدأ الفصل بين السلطات قد تغير مضمونه التقليدي و أصبحت العلاقة بين السلطات هي علاقة تدرج فالنظم السياسية المعاصرة وإن أبقت على فكرة تعدد الهيئات الحاكمة نجدها تميز إحدى الهيئات و تقرر لها اختصاصات واسعة ووظائف متعددة و تجعلها تهيمن على الهيئات الأخرى ، دون أن تقوم على توزيع السلطات بينها توزيعا عادلا [29]

المطلب الثاني : الأسس الدستورية للوضع الجديد

نتناول في هذا المطلب مسألة هامة جدا وهي تتعلق بالوضع الذي أفضى إليه الدستور الفرنسي لعام 1958 أو ما يعرف لدى الفقه بالثورة القانونية التي أحدثها هذا الدستور بقلبه للعديد من المبادئ الدستورية خاصة فيما يتعلق بعلاقة السلطة التنفيذية بالسلطة التشريعية والتي تبرز من خلال المادتين 34 ، 37 واللتان وصفهما البعض بأنهما من أسوأ المواد التي تضمنتها الأحكام الجديدة ، وحتى نحيط بكل الجوانب لهذا الموضوع ، ندرس أولا أصل المادتين 34 و37 ، ثم المبدأ الذي تضمنته هاتين المادتين ثانيا ، وأخيرا الآثار المترتبة عن إدراج هاتين المادتين في هذا الدستور الأخير .

الفرع الأول : مصدر المادتين 34، 37

لبحث أصل نشأة المادتين 34 ، 37 من الدستور الفرنسي لسنة 1958 نشير إلى ما تناوله السيد "Raymond Janot" محافظ الدولة وأحد أعضاء اللجنة الدستورية التي كانت مكلفة بمهمة وضع الدستور .

حيث بين هذا الأخير الأسباب الحقيقية لوضع هاتين المادتين ، وكل العوامل التي أدت إلى ذلك إلى جانب كل الاقتراحات التي قدمت في تلك الفترة ، وفي هذا الإطار يؤكد التأثير الكبير لأفكار السيد Romieu سنة 1904، 1906 ،حيث يرى أن العلامات الأولى للتغيير الكامل والمنطقي حددها الرئيس Romieu [30]

كما أن هناك أسباب أخرى منطقية يمكن حصرها في التحولات التي شهدها المجتمع وهذه ضرورة حتمية كما أن نشاط السلطة العامة أصبح له مجال واسع ، وهذا ما يفرض تدخل الدولة أكثر من أجل حماية الحريات ، ولكن الواقع كان يفرض العكس أمام تمسك البرلمان بصلاحياته واكتسابه كل يوم لسلطات أخرى ، ومن هنا نصل إلى وضعية يتضح من خلالها أن البرلمان يتمتع باختصاص غير محدود [31]

وإذا كان قانون 1948/08/17 قد حدد لأول مرة بعض المواد اللائحية بطبيعتها إلا أن هذه المحاولة غير واضحة ولا تحقق الهدف المقصود بوضوح من أجل توزيع الاختصاص بين البرلمان والسلطة التنفيذية وهذا بسبب رفض البرلمان لهذه المواد.

وبالنتيجة تمسك البرلمان باختصاصه على الرغم من أن هذا التمسك ترتب عنه نتيجتين متناقضتين : الأولى أن هذا الموقف من طرف البرلمان يترتب عنه بعض التناقض ، فمن المعلوم أن البرلمان يصادق على برنامج الحكومة . وبالمقابل يتمسك بموقفه الرافض لفكرة منح الحكومة صلاحيات اتخاذ الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا البرنامج ، وهذا ما من شأنه أن يؤدي إلى سقوط الحكومة وجمودها ، أما النتيجة الثانية فهي تتمثل في استمرارية النشاط الحكومي الذي يعد أمرا ضروريا لتنظيم المجتمع وهذا ما يجعل البرلمان مكرها أو مجبرا على التخلي أو التنازل عن بعض صلاحياته [32].

كل هذه النتائج أدت إلى تفويض سلطة البرلمان وهذا بظهور إجراء المراسيم بقوانين مع أنه ليس إجراءا جيدا لأنه يغير خصائص النظام البرلماني .

أمام هذا الوضع المعقد يجب البحث عن حلول مناسبة أو علاج ملائم للخروج من هذه المشكلة ، وفي الإطار يواصل Raymond ,j حديثه ويتوصل في

الأخير إلى الحل المناسب هو ضرورة تعديل الدستور ، أما عن العلاج الدستوري فهو يظهر من خلال الاقتراح الذي تقدم به والذي يتمثل أساسا في حصر نطاق القانون وجعل مجال التنظيم واسعا [33].

وهذا الاقتراح الأخير هو الذي تم اعتماده من طرف المؤسس الدستوري الفرنسي كما مهد للمادتين الشهيرتين .وأخيرا نذكر إلى جانب هذا الاقتراح بعض الاقتراحات التي قدمت ، فقد اقترح العودة إلى نظام قوانين البرامج الذي يعد نوعا من التحايل القانوني من طرف المشرع على الدستور ، فهذه القوانين صادرة عن البرلمان وتحمل فقط الخطوط العريضة للإصلاح أو البرنامج وتتولى الحكومة مهمة تنفيذ هذا الإصلاح عن طريق مراسيم لائحية ، أما الاقتراح الأخير فمضمونه أنه يمكن للحكومة أن تصدر مراسيم في المجال المخصص للقانون وهذا خلال الفترة الواقعة مابين أدوار انعقاد الجمعية الوطنية [34].

وتجب الإشارة إلى أن هذه الثورة القانونية التي جاء بها دستور 1958 جعلت عميد القانون العام في فرنسا الأستاذ Waline يقول أمام مفوض الحكومة ، أمام اللجنة الاستشارية الدستورية التي كانت تدرس مشروع الدستور:" أيها السادة إن مفوض الحكومة يقول لكم ليس هناك شيء يمكن أن نسميه بالثورة حينما نحدد حصر الموضوعات التي تخص القانون وتلك التي تخص سلطة التقرير اللائحية ، ولكن ألا يعد ثوريا الاقتراح الرامي لحصر مجالات القانون ، وترك ما عدا ها للسلطة اللائحية ،مع حرمان المشرع من التطرق إليها ؟، إذ الل أننا هنا نكرس مبدأ إن لم يكن سمو اللائحة على القانون فعلى الأقل معادلتها به.وهذا يتناقض مع المبدأ الأساسي الذي على أساسه بنى مجلس الدولة الفرنسي قضاءه أكثر من مائة وخمسين عاما وهو سمو القانون على اللائحة. فلا تنسوا أن هذا يعد تجديدا لعله ضروري ولكنه في جميع الأحوال ثوري " . [35]

الفرع الثاني :المبدأ العام للمادتين 37،34

إن مصدر السلطة التشريعية والسلطة التنظيمية يرجع أساسا إلى المادتين 34، 37 من الدستور الفرنسي لعام 1958 ، حيث حددتا بشكل واضح المجال الخاص بالقانون والمجال الخاص بالتنظيم ، حيث بينت المادة 34 المجالات التي يشرع فيها البرلمان إلى جانب بعض المواد الأخرى المذكورة في الدستور ، أما ما تبقى فيدخل في نطاق التنظيم حسب المادة 37 ، وهكذا عرف الدستور مجالين للاختصاص ، على أن هذا التعريف للمجال الخاص بالقانون لا ينتج عنه تعريف جديد للعمل التشريعي ، وهكذا أثرت المادة 34 من الدستور الفرنسي لعام 1958 على التقاليد الفرنسية بخصوص مسألة سيادة القانون باعتباره المعبر عن الإرادة العامة ، والذي يعتبر مجاله غير محدد،والشيء الأكيد في هذا الإطار حسب تعبير البعض أن القانون الصادر عن البرلمان قد أصبحت له فكرة موضوعية إذ أن مجاله محدد في المادة 34 ،وهذا لا يقتضي بالضرورة الاعتماد على المعيار الموضوعي [36]

لتوصيف العمل بأنه قانون ،والذي يتضمن أيضا اعتبار اللائحة قانونا من الناحية المادية ،ومازال المعيار الشكلي هو السائد في النظام الدستوري الفرنسي ،والذي بموجبه يعد القانون العمل الصادر تعبيرا عن الإرادة العامة ،وهذه الفكرة السياسية ناتجة عن اعتناق مبدأ سيادة الأمة فالقانون من خلال دستور 1958 هو العمل الصادر عن الهيئة التشريعية وليس قاعدة عامة ،كما لا تعد اللائحة قانونا استنادا إلى المعيار المادي ،بل هي مجرد قرار إداري صادر عن الجهاز التنفيذي [37].

أما عن مجال تدخل البرلمان فقد نصت المادة 34 على مجالات تدخله سواء بتحديده للمبادئ الأساسية لبعض الموضوعات، أو للقواعد المتعلقة ببعض الموضوعات، أما عن مجالات تدخل الحكومة فقد نصت المادة 01/37 على أنً جميع الموضوعات التي لا تندرج في مجال القانون تعتبر ذات طبيعة لائحية ،كما منحت المادة 21 من الدستور للوزير الأول و لرئيس الجمهورية سلطة لائحية في المجال التنفيذي وهذا باتخاذ الإجراءات اللازمة لضمان تنفيذ القوانين ، كما يصادق أيضا رئيس الجمهورية على المراسيم التي تصدر في مجلس الوزراء .

ويلاحظ أخيرا على هذا التوزيع في الاختصاص بين البرلمان والحكومة أن نطاق القانون غير محدد في بنود المادة 34 ، بل هناك مواد أخرى تسمح للبرلمان بالتدخل مثل المواد 07 – 10 -11 -17 -36-53 ، وكذلك المجال الخاص بالقوانين الأساسية خاصة المادة 34 الفقرة الأخيرة [38].

وفي هذا الإطار يقول الدكتور رأفت فودة : " ..... فنصوص المادة 34 من العمومية بحيث تكاد تغطي كل ما كان يعترف به للبرلمان في العهود السابقة على دستور 1958، بالإضافة إلى الاختصاصات المضافة بمقدمات الدساتير و بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان والنصوص المتناثرة " [39].

الفرع الثالث : النتائج المترتبة على المادتين 34 و 37

ترتب على إدراج المادتين 34 و 37 في

الدستور الفرنسي الحالي عدة نتائج تظهر على مستوى إضفاء صفة الاستقلالية على السلطة اللائحية ، إلى جانب تغير مدلول مبدأ علو القانون ، بالإضافة غلى التأثير على مبدأ خضوع اللائحة للقانون .

أولا : إضفاء صفة الاستقلالية على السلطة اللائحية

استنادا إلى نص المادة 37 من الدستور الفرنسي لحالي تستطيع السلطة التنفيذية أن تنظم كافة الموضوعات التشريعية التي تخرج عن نطاق القانون المحدد بموجب أحكام المادة 34 والمواد الأخرى منه وهذا بصفة مبتدأة ، ذلك أنه وفي ظل الدساتير السابقة كانت اللوائح المستقلة تخضع للقانون على اعتبار أنها أعمال إدارية ، كما أنها لا يمكنها أن تخالف أحكامه وإلا عدة أعمال غير مشروعة وبالتالي عرضة للإلغاء [40]

بمعنى آخر تعد اللائحة على حد تعبير البعض عملا مشروطا ، استنادا إلى وجود قاعدة عليا تحدد لها طريقة تدخلها ونشاطها ، بل هي أكثر من ذلك تعد قاعدة مشتقة من قاعدة عليا ، إذ لا يمكنها أن تزاول نشاطا مستقلا وتلقائيا وهذا هو الأساس الذي تحددت من خلاله مجالات كل من القانون واللائحة ، وعلى الرغم من تساوي هذه المجالات من حيث المدى والنطاق إلا أن تدخل كل منهما ليس بنفس المستوى والقوة [41].

إلا أنه في ظل الدستور الفرنسي الحالي تحررت السلطة اللائحية عن القانون من حيث الوجود والنطاق والتبعية ، حيث لم تعد عملا مشروطا [42].

ثانيا : طبيعة اللوائح المستقلة في ظل دستور 1958

لقد أجمع كل من الفقه والقضاء في فرنسا منذ بداية صدور دستور 1958 على منح اللوائح المستقلة التي تصدرها السلطة التنفيذية الطبيعة الإدارية ، وبالتالي لا تملك اللائحة الخصائص العامة التي يتمتع بها القانون حيث أنها لا تعد عملا عن هيئة تمثل السيادة بل تعتبر مجرد عمل إداري تابع وخاضع لرقابة القاضي الإداري وهذه الفكرة التقليدية للائحة التي ظلت مكرسة في دستور 1958 [43].

كما ساهم مجلس الدولة الفرنسي أيضا في هذا التكييف لطبيعة اللوائح المستقلة ، حيث قرر في حكمه الصادر في 1959/07/26 في قضية النقابة العامة للمهندسين أن اللوائح المستقلة وإن لم تخضع للقانون فإنها تخضع كأي لائحة أخرى لما تقرره المبادئ القانونية العامة ، ولقد استقرت أحكام مجلس الدولة الفرنسي على هذا الطرح إلى يومنا هذا [44].

أما على مستوى الفقه في فرنسا فقد قرر أغلب الفقهاء أن اللوائح المستقلة أو التنفيذية هي أعمال إدارية ، إذا أن هذا التجديد الدستوري الذي عرفه النظام الدستوري الفرنسي لا ينفي عن اللوائح والطبيعة الإدارية وبالتالي تخضع لرقابة القاضي الإداري في هذا المجال يقول الفقيه Chapus:"إن الفراغ الذي حدث نتيجة اختفاء القانون من ميدان اللوائح المستقلة لا يعني مطلقا أنه عمل على ترقية هاته اللوائح إلى مرتبة القانون ، بحيث أخذت مكانته وقيمته القانونية ، كذلك فلكل من القانون واللائحة المستقلة مكانة ، ولكل منهما درجته فهما مستقلان وغير متساويين ، ... فاللائحة المستقلة لا تزال تعتبر من القرارات الإدارية طبقا للمعيار الشكلي[45] .

وفي الأخير وعلى الرغم من هذه المكانة والاستقلالية التي أصبحت تتمتع بها اللوائح المستقلة في فرنسا إلا أنه تجب الإشارة إلى فكرة التحول القضائي الدستوري كأداة لتوسيع مجال القانون وهذا ما نلمسه من خلال دور المجلس الدستوري في فرنسا الذي استطاع من خلال بعض قراراته أن يوسع نطاق القانون على حساب اللائحة ، حقيقة إن هذا التحول يتعارض مع السياسة والفلسفة التي جاء بها الدستور الفرنسي إلا أنه ينسجم ويتفق مع التقليد الفرنسي بخصوص سيادة القانون [46].

الخاتمة:

من خلال دراستنا للسلطة اللائحية المستقلة في فرنسا و بالتحديد في دستور 1958 توصلنا إلى بعض النتائج نختصرها في ما يلي:

أصبحت السلطة اللائحية المستقلة تستمد اختصاصها من أحكام الدستور بصفة أصلية و مستقلة بخلاف ما كان عيه الوضع سابقا وبالتالي تحررت من تبعيتها المطلقة للقانون من حيث الوجود والنطاق والتبعية .

وجود فكرة موضوعية للقانون من خلال تحديد المجالات التي يشرع فيها البرلمان في المادة 34.

سيادة المعيار الشكلي لتعريف القانون في النظام الدستوري الفرنسي الذي يعتبر القانون المعبر الوحيد عن الإرادة العامة و بالتالي القانون ليس هو كل قاعدة عامة.

لا تعتبر اللائحة قانونا استنادا إلى المعيار العضوي بل هي مجرد قرار إداري صادر عن الهيئة التنفيذية و بالتالي لا يرقى إلى مصاف الأعمال التشريعية.

في ما يتعلق بمسألة تحديد مجال اللائحة و القانون هناك إجماع عند العديد من الباحثين حول

مسالة انحصار نطاق القانون و إطلاق مجال اللائحة ، إلا أن هناك من يرى عكس هذا الإجماع ،ويقرر بأن مجال تدخل البرلمان واسع بموجب العديد من نصوص الدستور و هذا الرأي هو الذي نؤيده إلا أننا نؤكد أن العلاقة بين القانون و اللائحة اهتزت بسبب لجوء الحكومة إلى التشريع عن طريق مشاريع القوانين ، و أمام تزايد عدد النصوص أصبحت السلطة التنفيذية تهتم بالجانب التنفيذي للقوانين و هذا هو الوضع الحالي في فرنسا.

صعوبة وضع حدود جامدة بين مجال القانون واللائحة .

قائمة المراجع:

أ - باللغة العربية.

د، فتحي عبد الكريم الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي . مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1989 .

د- عبد العظيم ، عبد السلام عبد الحميد تطور الأنظمة الدستورية ، الكتاب الأول ، التطور الدستوري في فرنسا ، دار النهضة العربية ، القاهرة 2006 .

عبد الغني بسيوني عبد الله ، سلطة مسؤولية رئيس الدولة في النظام البرلماني ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت 1995.

عادل الدسوقي ، هيمنة السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية ، دار النهضة العربية، القاهرة ،2002 .

د، عمر حلمي فهمي ، الانتخاب وتأثيره في الحياة السياسية والحزبية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1991 .

د، سعيد بوالشعير القانون الدستوري والنظم السياسية ، د م ج،الجزائر، 2002 .

د، رأفت فودة ، سلطة التقرير المستقلة ، دراسة مقارنة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، (ط2) ، 2010 .

د، ثروت بدوي ، النظم السياسية دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1975 .

د، بدرية جاسر الصالح ، " السلطة اللائحية في مجال تنفيذ القوانين" ، رسالة دكتوراه الدولة ، كلية الحقوق ، جامعة القاهرة ، 1979.

د منذر الشاوي ، فلسفة القانون ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2009 .

محمود حافظ ، القرار الإداري ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1979 .

بدرية جاسر الصالح ، مجال اللائحة في فرنسا ، مطبوعات جامعة الكويت ، 1990 .

عزاوي عبد الرحمان ، ضوابط توزيع الاختصاص بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2009 .

عصام علي حسن الدبس ، الأنظمة المستقلة والرقابة القضائية على مشروعيتها دراسة مقارنة ، رسالة دكتوراه ، كلية الدراسات القانونية العليا ، جامعة عمان ، 2007 .

د.عبدالحفيظ علي الشيمي ، التحول في أحكام القضاء الدستوري ، دراسة مقارنة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ،2008 .

ب-باللغة الفرنسية:

Bernard Brachet.la délimitation des domaines respectifs de la loi et du règlement dans la constitution du 04octobre 1958 . Thèse doctorat universitaire. de Bordeaux 1965. Philippe Paris 1ardant, Bernard Mathieu, institution politique et droit constitutionnel 20 édition, Delta , ,2009.

Jean _Marie Duffau ,pouvoir réglementaire autonome et pouvoir réglementaire derive , these doctrat ,universite de droit , d'economie et de sciences sociales de paris , paris2 , 1975 , P 40 .

Louis favorea , le domaine de la loi et du règlement , economica , Paris , 1981 , P65

Bernard Brachet . la délimitation des domaines respectifs de la loi et du règlement dans la 1 constitution du 04octobre 1958 , Thèse doctorat, universitaire de Bordeaux ,1965 , p3

Ibid, p 04 1

الهوامش :

1 د.فتحي عبدالكريم ، الدولة والسيادة في الفقع الإسلامي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1989 ، ص 48.

Bernard Brachet- Op.cit, p05 2

3 د.محمود محمد حافظ ، القرار الإداري ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1974 ، ص 187 .

Bernard Brachet- Op.cit, p08 4

Ibid ,P08 5

6 أنظر بدرية جاسر الصالح ، مجال اللائحة في فرنسا ،مطبوعات جامعة الكويت ، 1990 ، ص 63 .

Bernard Brachet- Op.cit, P38,39 7

8 نقلا عن د. عبد العظيم عبد السلام عبد الحميد ، تطور الأنظمة الدستورية، الكتاب الأول، التطور الدستوري في فرنسا، دار النهضة العربية ، القاهرة 2006 ، ص 242
9 عبد الغني بسيوني عبد الله ، سلطة ومسؤولية رئيس الدولة في النظام البرلماني ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1995،ص 225 .
10 Jean _Marie Duffau ,pouvoir réglementaire autonome et pouvoir réglementaire derive , these doctrat ,universite de droit , d'economie et de sciences sociales de paris , paris2 , 1975 , P 40 .
11 عادل الدسوقي ، هيمنة السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 2002 ، ص 25 .
12 نفس المرجع ، ص 26
13 د. عمر حلمي فهمي ، الانتخاب وتأثيره في الحياة السياسية والحزبية ، ط1 ،1991 ، دار النهضة العربية ، ص 225
14 نفس المرجع
15 نفس المرجع ، ص 129
16 نفس المرجع ، ص 207
17 نقلا عن د.سعيد بوالشعير ،القانون الدستوري والنظم السياسية ، د م ج،الجزائر، 2002 ، ص 259
18 د، رأفت فودة ، سلطة التقرير المستقلة ، دراسة مقارنة ، دار النهضة العربية ، (ط2) ، القاهرة ، 2010 ،ص 26
19 نفس المرجع
20 د، ثروت بدوي ، النظم السياسية دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1975 ، ص 310 .
21 د ، نفس المرجع ، ص311 .
22 د ، عبد العظيم عبد السلام عبد الحميد ، مرجع سابق ص 231 .
23 نقلا عن، د، عبد العظيم عبد السلام عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص 234 .
24 د.بدرية جاسر الصالح ، " السلطة اللائحية في مجال تنفيذ القوانين "، رسالة للحصول على دكتوراه الدولة ، كلية الحقوق ، جامعة القاهرة ، 1979، ص 140 .
25 نفس المرجع
26 Philippe ardant , Bernard Mathieu , institution politique et droit constitutionnel 20 édition, Paris ,2009P 471Delta ,
27 د ، ثروت بدوي ، مرجع سابق ،312
Louis favorea , le domaine de la loi et du règlement , economica , Paris , 1981 , P65
Ibid – p66 28
Ibid- p69
Ibid – p 70
29 رأفت فودة ، مرجع سابق ، ص 77
30 نفس المرجع ،ص 76
31 حول المعيار المادي أنظر، د منذر الشاوي ، فلسفة القانون ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2009 ، ص272
32 نقلا عن د بدرية جاسر الصالح ، مرجع سابق ، ص119
33 لتفاصيل أكثر ، أنظر عزاوي عبد الرحمان ، ضوابط توزيع الاختصاص بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2009 ، ص 283 و ما بعدها .
34 د رأفت فودة ، مرجع سابق ، ص87
35 عصام علي حسن الدبس ، الأنظمة المستقلة والرقابة القضائية على مشروعيتها دراسة مقارنة ، رسالة دكتوراه ، كلية الدراسات القانونية العليا ، جامعة عمان ، 2007 ، ص 24
36 للتفاصيل أكثر ، أنظر د.عبدالحفيظ علي الشيمي ، التحول في أحكام القضاء الدستوري ، دراسة مقارنة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ،2008 ، ص 137 .
بدرية جاسر الصالح ، مجال اللائحة في فرنسا ، مرجع سابق ، ص 137 .
37 عصام علي حسن الدبس ، مرجع سابق ، ص 25 .
38 بدرية جاسر الصالح ، المرجع السابق ، ص 130 .
نفس المرجع ، ص 131 .
39 نقلا عن عصام علي الدبس ، المرجع السابق ، ص 28 .

40 للتفاصيل أكثر ، أنظر د.عبدالحفيظ علي الشيمي ، التحول في أحكام القضاء الدستوري ، دراسة مقارنة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ،2008 ، ص 137 .

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 259 - 274
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

مفهوم التوجيه والإرشاد عند الإمام الشافعي

دراسة سيكولوجية

عبد الفتاح عبد الغني الهمص

كلية التربية، الجامعة الإسلامية غزة فلسطين

أولاً- المقدمة:

يعد الفكر التربوي والنفسي للإمام الشافعي[1] منهلاً يرتشف من حوض العلماء ومستودعاً يأخذ من بضاعته الحكماء وشمس تضيء بشعاعها علماً على الجهلاء، برع في علوم شتّى ونبغ في فلسفات متعددة وأمور توجيهية من أقواله الحكم السديد والقول الرشيد حتى أصبح منارة علمية يستهدى بها، فسبق المتقدّمين والمتأخّرين من العلماء الموجّهين المرشدين.

لقد منحه الله من الملكات والاستعدادات ما جعله يبرز في كل ميدان حتى كان رحمه الله موسوعة علمية تمشي على الأرض، كان عالماً في الفقه وعلومه والشعر وعروضه وفي علوم اللغة والتفسير والحديث والطب والتربية وعلم النفس (ملك، وأبو طالب،

1989: 10).

إن القيام بالدراسات والبحوث الثقافية حول هذا الموضوع وكشف تأثيراته الثقافية والاجتماعية والفكرية وتحليل أبعاده؛ بات عملاً ضرورياً؛ لأنه عمل ذو أهمية بالغة في تثقيف شعوبنا وإنهاضها بالروح الإسلامية الواعية (التميمي، 2001: 504).

ولمّا كان الإمام الشافعي عالماً، جمع في نفسه الزهد والتقوى والتعبد والصلاح والاستقامة والتنزه عن الدنايا, والعمل للآخرة, فلم يصدر عنه غير شعر مفعم بالحكمة والنصح والإرشاد, والدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن السلوك، رأى الباحث أن يسبر غور علومه، فأراد أن يكون هذا البحث موجّهاً نحو الملامح الخاصة بالتوجيه والإرشاد حيث يستنبط التراث التربوي ويستسقي آرائه التربوية من خلال الدرر المنفردة والمبثوثة من خلال ما توفر له من مراجع وكتب سواء كانت له أو لمن كتبوا عنه مؤصلين له في التوجيه والإرشاد بربطها بما كتبه علماء النفس المعاصرين، "ولا زالت مؤسسات التعليم مقصرة في التعريف بأعلام الفكر الإسلامي من أمثال الإمام الشافعي"

(رضا، 2009: 31)، وإن كانت هذه الدراسة لا تركز على الجانب الشرعي أو التاريخي؛ وإنما تركز على الجوانب النفسية التي تخص عملية التوجيه والإرشاد بشكل خاص.

ثانياً- مشكلة الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مهارات وكفايات المرشدين النفسيين عند الإمام محمد بن إدريس الشافعي متلمّسين ما كتبه الباحثون ومن خلال ما ورد في كتبه مثل:

(الأم، والرسالة، والديوان...إلخ)، وما تناقلته الكتب والمصادر في بطونها، ولمّا كان الإمام الشافعي أحد الأئمة الأربعة المجتهدين في ديننا والذي تقلده أمم غفيرة في المشرق والمغرب، وما خلّفه من تراث علمي كبير، فقد كان رحمه الله فقيه النفس، موفور العقل، صحيح النظر والتفكّر، عابداً ذاكراً، عالماً في السلوك ومرشداً نفسياً. "وقد أفاد الإمام الشافعي من خلال تنقّله ما بين مكة المكرّمة واليمن ومصر، حيث كان لفلسفته الدور الكبير في إرساء قواعد التوجيه

والإرشاد، وذلك من خلال تبنيه منهجاً وسطياً بين أهل الحديث وأهل الرأي" (الجرجاوي، 2008: 178).

فلقد لقي الشافعي تقديراً كبيراً من فقهاء عصره ومن بعدهم فقال أحمد بن حنبل لولده عن الشافعي: "يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للبدن" (الشافعي، ب.ت: 121).

حيث إن الكثير من الباحثين لم يهتموا بجمع التراث الإسلامي وخاصةً ما يخص الجوانب النفسية عند علمائنا المسلمين، فقد وجد الباحث في نفسه الرغبة لبيان الدُرَر الكافية في مكامن العلم والتي تحتاج إلى إبراز ما لدى سلفنا الصالح من إسهامات نفسية تفوق كثير ما كتبه علماء النفس الغرب أمثال: فرويد، ويونج، وآدلر، ودولار، وروجرز، وغيرهم الكثير، وعليه فإن مشكلة الدراسة تتحدّد في السؤال الرئيس الآتي:

ما ملامح التوجيه والإرشاد عند الإمام الشافعي من خلال كتبه؟

ويتفرع من السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية الآتية:

س1: ما ملامح التوجيه والإرشاد الأسري عند الإمام الشافعي؟

س2: ما ملامح التوجيه والإرشاد الترويحي عند الإمام الشافعي؟

س3: ما ملامح التوجيه والإرشاد النفسي عند الإمام الشافعي؟

س4: ما ملامح التوجيه والإرشاد التربوي عند الإمام الشافعي؟

س5: ما مدى الاستفادة من الفكر النفسي والتربوي عند الإمام الشافعي في مدارسنا الحديثة؟

ثالثاً- أهداف الدراسة:

1- الكشف عن ملامح التوجيه والإرشاد الأسري عند الإمام الشافعي.

2- التعرف على ملامح التوجيه والإرشاد الترويحي عند الإمام الشافعي.

3- الكشف عن ملامح التوجيه والإرشاد النفسي عند الإمام الشافعي.

4- التعرف على ملامح التوجيه والإرشاد التربوي عند الإمام الشافعي.

5- الاستفادة من الفكر النفسي والتربوي عند الإمام الشافعي في مدارسنا الحديثة.

رابعاً- أهمية الدراسة:

تعد هذه الدراسة مهمة لكونها:

1- تتناول موضوعاً جديداً -حسب علم الباحث – واطلاعه أنها الأولى من نوعها التي تناولت موضوع ملامح التوجيه والإرشاد عند الإمام الشافعي.

2- تتناول هذه الدراسة موضوعاً تأصيلياً مهماً يتناول فكر ثالث أئمة الفقه الإسلامي الذي أثرى بعلمه كثير من العلوم.

3- قد يفيد من هذه الدراسة العاملون في مجال التوجيه والإرشاد.

4- تقدّم هذه الدراسة مجموعة من التوصيات والمقترحات المهمة في مجال التوجيه والإرشاد وتأصيل هذا العلم الذي ترك كثيراً للعلماء الغرب ليقدموا نظريات ومبادئ قد تكون غير مفيدة للمجتمع الإسلامي.

خامساً- حدود الدراسة:

تتحدّد هذه الدراسة لكونها تناولت موضوع الإمام الشافعي من خلال كتبه ومن خلال ما كتب عنه فقط في مجال التوجيه والإرشاد تأصيلياً مع الاستئناس بما كتب في هذا المجال في كتب التوجيه والإرشاد النفسي.

سادساً- مصطلحات الدراسة:

ملامح: مفرد مَلْمَح ولَمْحَة (على غير قياس):

1-ما يظهر من أوصاف الوجه ومن مظهر الإنسان "ذكر للمحقِّق ملامحَ اللِّصِّ"

• حسَنُ الملامح: جميل.

2-مَشَابِه "في فلان ملامحُ أبيه".

• **المَلامحُ والظِّلالُ:** (الثقافة والفنون) أماكن مُضَاءة وأخرى مُظْلمة "رسَّام بارع في الملامح والظِّلال" (مجمع اللغة العربية، 2004: 523).

التوجيه: هو مجموعة خدمات تهدف إلى مساعدة الفرد على أن يفهم نفسه، ومشكلاته، ويستغل طاقاته وقدراته الذاتية ومهاراته واستعداداته وميوله وإمكانياته وإحدى هذه الخدمات هي عملية الإرشاد النفسي، ومعنى هذا أن التوجيه أعم وأشمل وهو جزء

من العملية التربوية، والتوجيه يسبق الإرشاد ويمهد له ، والتوجيه عملية عامة تهتم بالنواحي النظرية وهو وسيلة إعلامية في أغلب الأحيان تشترط توافر الخبرة في الموجه، وتعنى بوضع الشخص المناسب في المكان المناسب.

الإرشاد: هو عملية نفسية أكثر تخصصية، وتمثل الجزء العلمي في ميدان التوجيه الرحب ، و تقوم على علاقة مهنية (علاقة الوجه للوجه) بين المرشد والمسترشد، في مكان خاص يضمن سرية أحاديث المسترشد و في زمن محدود أيضاً .

والإرشاد عملية وقائية ونمائية وعلاجية، تتطلب تخصّصاً وإعداداً وكفاءة ومهارة ، كون هذه العملية فرعاً من فروع علم النفس التطبيقي إن خدمات التوجيه العامة وخدمات الإرشاد الخاصة تجمل عادة في مفهوم واحد وهو التوجيه و الإرشاد.

سابعاً-منهج الدراسة:

استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي والمنهج الاستنباطي، وذلك لاستنباط الأدلة التي وردت على لسان الإمام الشافعي في مجال الإرشاد النفسي لتوائم تخصص الصحة النفسية والإرشاد النفسي واستخدامهما كلما لزم الأمر لمعالجة المشكلات النفسية والاجتماعية لدى الفرد والأسرة في مجتمعنا المسلم الذي يحتاج منّا الكثير.

ثامناً- دراسات سابقة:

حاول الباحث استعراض ما كتب من دراسة عن الإمام الشافعي وهي على النحو الآتي:

1- دراسة محب الدين عبد السبحان (1986) بعنوان: "منهج الإمام الشافعي في تفسير آيات الأحكام"

هدفت الدراسة إلى التعرف على منهج الإمام الشافعي في أصول الفقه، واستخدم الباحث المنهج الاستنباطي وذلك لاستنباط الأدلة على ما وردت على لسان الإمام الشافعي – رحمه الله – وما كتب عنه في الكتب والمراجع، وقد توصلت الدراسة إلى نتائج أهمها: عدم كون الفقر عائقاً عن التعلم والاستفادة، كما تعد الرحلات العلمية عامل من عوامل تكوين الشخصية العلمية، والتدوين من أهم أسباب حفظ العلم عن الدخيل والنسيان، وكذلك تفسير الإمام الشافعي للقرآن بالرواية ورجوعه إلى القرآن والسنّة وأقوال الصحابة والتابعين مع منهج كان يسير عليه، ورجوع الإمالم الشافعي إلى ديوان العرب في تفسير بعض معاني ألفاظ القرآن الكريم، والاستنباط والاستدلال في تفسيره، وغير ذلك من الجوانب الأصولية دليل على علو فهمه وإدراكه، وذلك يبرز شخصيته التفسيرية التي لم ينتبه لها إلا القليلون

2- دراسة بدر محمد ملك، خليل محمد أبو طالب (1989) بعنوان: "السبق التربوي في فكر الشافعي"

هدفت الدراسة بيان السبق التربوي في فكر الشافعي وقد استخدم الباحثان المنهج الاستنباطي وتطرق بالبحث إلى موضوعات مهمة في مجال التربية وعلم النفس مثل: النصيحة والأمر بالمعروف، والموعظة ، واهتم بالصحة اليومية النفسية للأحداث وجعل من القصة أسلوباً مهماً، والترويح بالنفس، وكذلك أمراض القلوب، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن للإمام الشافعي السبق والتفرد في التحدث عن قضايا الصحة النفسية، ومن أهم التوصيات أن هناك حاجة ماسة إلى دراسة الصحة النفسية من وجهة نظر سلفنا الصالح والكشف عن قضايا الإرشاد والتوجيه عندهم.

3- دراسة عبد الله بن علي المزم (2000) بعنوان: "منهج الإمام الشافعي في أصول الفقه"

هدفت الدراسة إلى التعرف على منهج الإمام الشافعي في أصول الفقه، واستخدم الباحث المنهج الاستنباطي وذلك لاستنباط الأدلة على ما وردت على لسان الإمام الشافعي – رحمه الله – وما كتب عنه في الكتب والمراجع، وتوصلت الدراسة إلى نتائج كان أهمها: أن ما أُلّف في مناقب الإمام الشافعي ليس سواء، إذ يوجد بينها اختلاف كبير سببه اختلاف أغراض المترجمين، ودرجة عنايتهم بصحة الخبر، وكيفية فهمهم لكلام الشافعي، واعتبار هذه الأمور له أثر كبير في بيان حقيقة مذهب الإمام الاعتقادي ومنهجه الأصولي والفقهي، وأن جهود الإمام في تجديد علم الأصول غير منحصرة في ابتكار التأليف؛ بل امتدت لتشمل منهجه الأصولي في التدوين والتأصيل والاستدلال والجدل، وفي طريقة التأصيل تميّز منهج الإمام بالاجتهاد الأصولي، وبعرض الأصول على النصوص، وعدم الفصل بين أصول الفقه وفروعه، وفي مسلك الاستدلال تمسّك الإمام بظاهر النصوص، والتزم بحدود الشرع عند استدلاله بدليل العقل، مع اجتنابه التكلف في الاستدلال، وفي أسلوب الجدل تميّز كلام الإمام بالمحافظة على

مقاصده الشرعية، وعدم التكلف فيه.

4-دراسة محمد ناجح أبو شوشة (2008) بعنوان: "التراث التربوي في المذهب الشافعي".

هدفت الدراسة إلى التعرف على أهم القضايا التربوية المتضمنة على عدد من مصادر المذهب الشافعي، ومعرفة مدى إمكانية الاستفادة من الفكر التربوي لفقهاء المذهب الشافعي في مجال التربية في العصر الحالي، واستخدم الباحث في دراسته المنهج التاريخي، وأسلوب تحليل المحتوى، وتوصلت الدراسة إلى نتائج عديدة أهمها: أعلى فقهاء المذهب الشافعي من قيمة العلم والعلماء مؤكدين فضل العلم وأهمية الاشتغال به وقالوا بأن طلب العلم عبادة تفوق منزلتها النوافل من العبادات، ولم ينتقص فقهاء المذهب الشافعي قدر العلوم الطبيعية بل جعلوا دراستها من فروض الكفاية، كما لم يحقروا الحرف والصناعات وعدوا تعليمها من فروض الكفاية أيضاً، وكذلك اهتموا فقهاء المذهب بقضية التأليف العلمي ووضعوا له من الضوابط، كما أكدوا أهمية التقويم المستمر للطلاب حتى يقف المعلم أولاً بأول على مدى تقدمهم ومستوى تعليمهم، وأقر فقهاء المذهب بأهمية اختيار المعلم لطريقة التدريس التي تتناسب مع قدرات المتعلمين وطبيعة المادة الدراسية.

5-دراسة محمد الزحيلي (2009) بعنوان: "الشافعي واضع علم أصول الفقه".

هدفت الدراسة إلى التعريف بعلم أصول الفقه، وبيان أهدافه، وتاريخ نشأته، وظهوره، علماً قائماً على يدي الإمام الشافعي، بعد توفر المؤهلات الخاصة به، واعتمد الباحث المنهج الاستقرائي والمنهج التاريخي للسير مع خطوات التاريخ ومراحله مع شيء من المنهج التحليلي للنصوص والنقول والتعريفات والعبارات التي تلقي الضوء لتوضيح المراد والمعنى، وأوصت الدراسة: على المسلمين أن ينشروا قواعد علم أصول الفقه في العالم لتحديد المنهج السديد في التفكير والبحث، والدراسة والاجتهاد، وعلى العلماء أن يقوموا بإحياء علم أصول الفقه في المدارس والجامعات، وأن يعقدوا له الحلقات والندوات والمؤتمرات لبيانه والعمل بموجبه، والسير على خطاه، والاستفادة منه في الحياة العلمية عامة، وفي العلوم الشرعية خاصة، وفي الفقه على وجه أخص، وخلصت الدراسة بمجموعة من النتائج أهمها: ظهور براعم علم أصول الفقه في مبادئ القرآن والسنة وأقوال الصحابة والأئمة والمجتهدين، وكانت متناثرة، ولا يوجد سلك يجمعها، وكان الشافعي رحمه الله تعالى أول من وضع علم أصول الفقه، بعد أن حصل على المؤهلات بذلك، فطرياً بالذكاء والعقل، ودينياً بالتقوى والورع، وكسبياً بحفظ القرآن وتحصيل علومه، وحفظ السنة ومعرفة علومها، وإتقان اللغة وعلومها، والجمع بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، وفقه كل منهما، ومنهجهما، ودراسة علم الجدل والمنطق والمناظرة، فنسبة علم الأصول له كنسبة المنطق إلى أرسطو، والعروض إلى الخليل، وصنّف الشافعي عدة كتب في أصول الفقه، أهمها الرسالة، وهي في القمة، ثم جماع العلم، وإبطال الاستحسان، واختلاف الحديث، وأحكام القرآن، وكتاب القياس، وكلها وصلت إلينا وطبعت، واتخذها الشافعي منهجاً لاستنباط مذهبه.

6-دراسة لطيفة حسين الكندري، وآخرون (2010) بعنوان: "المضامين التربوية لفكر الإمام الشافعي في ضوء المعطيات المعاصرة".

هدفت الدراسة إلى الإسهام في تأصيل الفكر التربوي المعاصر وربطه بمصادر التربية الإسلامية وصياغة شخصية الناشئة الفكرية في ظل التوجيهات التربوية، والتعريف بأهم أفكار الشافعي في التربية والتعليم، واستخدم الباحثون أسلوب تحليل المحتوى الكيفي، لاشتقاق القيم والمضامين والمفاهيم والتصورات التربوية، وتوصلت الدراسة إلى نتائج كان أهمها: أن الشافعي – رحمه الله – استفاد من أساتذته وكان على وعي تاريخي كامل بمشروعه الفكري كناصر للسنّة النبوية رواية ودراية، كما أنه شجّع الاجتهاد ووضع قانوناً عاماً(أصول الفقه) يحد من الوقوع في الخطأ ويفيد الباحثين في طريق المعرفة القائمة على أصولها الدينية والمنطقية السليمة لضبط الاستنباط ، كما اعتنى الشافعي بالمناظرة عناية فائقة وجعل حسن الخلق أساس التباحث من أجل المنفعة المشتركة والارتقاء بالفكر من جهة، وتجنباً للتكلف من غير حاجة، والمراء والمداهنة من جهة أخرى، كما أوصت الدراسة بدراسة رواد الفكر في إطار التراث التربوي العالمي والحذر من عزل التراث وتفسيره في دائرة ضيقة وأدبيات محدودة، وكذلك تقديم دراسات تربوية موسعة باللغة الأجنبية ونشرها على شبكات الانترنت، وكذلك تعريف الناشئة بأخلاقيات طالب العلم عبر برامج إعلامية عالية التقنية.

7- دراسة نعمان شعبان علوان (2011) بعنوان: "قراءة بلاغية في ديوان الإمام الشافعي 15ه-204ه)"

هدفت الدراسة إلى التعرف على حياة الإمام الشافعي – رحمه الله – وعلمه، ويتضمن مولده ونشأته وشيوخه وتلاميذه، وشعره وفقهه، ثم أظهرت عدداً من الإشارات البلاغية المتعلقة بعلم المعاني والبيان والبيع وذلك من خلال التحليل البلاغي لعدد من القصائد الشعرية في الديوان، بالإضافة إلى كون الشافعي فقيهاً وشاعراً وعالماً في الحديث وعالماً في العربية إنه حكيم وبليغ، واستخدم الباحث المنهج الاستنباطي، وما جاء على لسانه، أو في كتبه، أو ما قاله عنه الآخرين، وتوصلت الدراسة إلى نتائج أهمها: أن قصائد الإمام تتضمن عدداً كبيراً من المسائل البلاغية موزعة على علم المعاني والبيان والبديع، ممّا يظهر بلاغة الإمام وخبرته وحكمته التي تمتع بها وغلبت على أشعاره، فهو إمام حاضر البديهة، قوي الإدراك، عميق الفكر، واسع العقل، فصيح اللسان، موفور البيان، قوي الجنان، ولذلك ما من مقطع شعري في الديوان إلا وفيه مسألة بيانية من مسائل علم المعاني.

8-نعمات شعبان علوان، (2012): بعنوان: "القيم التربوية المتضمنة في ديوان الإمام الشافعي"

هدفت الدراسة إلى التعرف على أهم القيم التربوية المتضمنة في ديوان الإمام الشافعي رحمهُ الله تعالى، وذلك من خلال دراسة ديوانه الشعري، وتحليل مضمون الأبيات الشعرية، وبناءً على الدراسة والتحليل اتضح للباحث أن الديوان مليء بالقيم التربوية والدينية العديدة غير أن الباحث ركز على مجموعة من القيم الإيجابية المتمثلة في: العلم، حسن الخلق، أدب الكلمة، الدعاء، القناعة، الصفح الجميل، الرضا الجميل، الرضا بالقدر، النصيحة، والصبر. أما القيم السلبية فقد تم التركيز فيها على ثلاثة قيم تمثلت في: لحسد، ارتكاب المعاصي، الشّح، وقد أوصى الباحث بمجموعة من التوصيات كان أهمها: الاهتمام المتزايد بما جاء في ديوان الإمام الشافعي من حيث عرض جميع القيم وتحليلها لأهميتها الكبيرة.، ورفع توصية لوزارة التربية والتعليم العالي، لجعل ديوان الإمام الشافعي مقرراً في المدارس، وكذلك الاهتمام بقضايا التأصيل الديني في المناهج، مع اعتماد هذا النهج حتى نُعيد لمناهجنا وكتبنا الأهمية والقيمة من جديد، والتركيز على القيم الدينية المتضمنة في ديوان الإمام الشافعي.

9-نافذ سليمان الجعب (2012) بعنوان: "مقومات الشخصية الإسلامية في الفكر التربوي للإمام الشافعي"

هدف هذا البحث للكشف عن مقومات الشخصية الإسلامية في الفكر التربوي للإمام الشافعي -رضي الله عنه-من خلال استخدام أسلوب تحليل المحتوى لبعض النصوص التربوية الواردة عن الإمام سواء كانت شعراً أو نثراً، وتناول الباحث هذه المقومات من خلال الحديث عن مؤهلات التجديد عند الإمام الشافعي، وخصائص تربية الشخصية الإسلامية، ثم الحديث عن مقومات الشخصية الإسلامية عند الإمام الشافعي، وتوصل الباحث إلى عدد من النتائج أهمها: امتلاك الإمام الشافعي لمؤهلات التجديد التربوي، وأن مقومات الشخصية الإسلامية هي مقومات شاملة تتمثل في: المقومات العقدية، والمقومات العبادية، المقومات الأخلاقية، والمقومات العلمية، والمقومات الاجتماعية، والمقومات الجمالية، والمقومات الإبداعية، والمقومات الصحية.، وأوصى الباحث باعتماد مقومات الشخصية الإسلامية الواردة في فكر الإمام الشافعي أساساً لمناهج التربية الإسلامية الفلسطينية، وإجراء مسابقات بحثية في توظيف تراث الإمام الشافعي لمعالجة قضايانا المعاصرة في مجالاتها المختلفة.

تاسعاً- التعقيب على الدراسات السابقة:

من خلال ما تقدّم يتبين أن ما كُتِب عن الإمام الشافعي كان في مجالات أخرى غير مجال الصحة النفسية، لذلك دعت الحاجة إلى دراسة مثل هذه الموضوعات للكشف عن أصول هذا العلم في مجال الصحة النفسية، هذا ما جعل الحاجة ماسة لمثل هذه الدراسات التي تثري الموضوع، .

عاشراً- الإجابة عن تساؤلات الدراسة:

بعد أن استعرض الباحث الخلفية النظرية لدراسته وتناول الدراسات السابقة التي يمكن الاستفادة منها عند نتائج الدراسة، والشروع في استخلاص التوصيات اللازمة لها، وجد أنه من الضروري الإجابة عن تساؤلات الدراسة الواحد تلو الآخر.

التساؤل الأول: ما ملامح التوجيه والإرشاد الأسري عند الإمام الشافعي؟

اهتم الإمام الشافعي بالصحة النفسية للنشء منذ الصغر حيث ركّز على صحة الطفل منذ نعومة أظافره.

فدعا الإمام الشافعي إلى الإرشاد الأسري وذلك من خلال ما كان يحكيه عن نفسه ليكون موجهاً ومرشداً لغيره، حيث قال: " كنت يتيماً في حجر أمي ولم يكن معها ما تعطي المعلم وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام" (الجوزي، 1984: 141).

كما وجّه الإمام الشافعي الأسرة على توجيه الطفل إلى التعلّم في الكتّاب حيث قال: " كنت أنا في الكتّاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا، فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم أكون قد حفظت جميع ما أملي، فقال لي ذات يوم لا يحل أن آخذ منك شيئاً" (الحموي، 1993: 284).

كما ركّز الإمام الشافعي على دور المسجد في عملية التوجيه والإرشاد والصحة النفسية فكان يقول رحمه الله: " كنت أتعبّد بالمسجد الحرام حينما خرجت من الكتّاب حيث كان بيتنا بالقرب من شعب الخيف حيث كان لنا دار في ذلك الشعب، وكانت أمي تدفع لي خرقاً وأكتافاً للجمال؛ لأكتب عليها" (الرازي، 1993: 114).

ثم يقول الشافعي: "أن الأسرة مسئولة في تربية أبنائها الشعر وتعلمه وحفظه، ونقله ممّا يحبّب اللغة العربية للطفل" (النووي"2"، ب.ت: 15).

ثم يقول: " كنت امرئ أكتب الشعر وآتي البوادي فاسمع منهم وقدمت مكّة وخرجت وأنا أتمثّل بشعر للبيد، وكتبت عن ابن عيينة ثم كنت أجالس علماء الحديث كمسلم" (الأندلسي، 1934: 197).

وكانت أمّه تهتم بجلوسه وتلقيه من قبيلة هذيل لكونها كانت أفصح العرب، وكانت ترشده على حفظ شعرها حتى أن الأصمعي قال: "صحّحت أشعار الهذليين على شاب من قريش بمكة يقال له محمد بن إدريس الشافعي، وصحح الأصمعي أيضاً شعر الشنفري على الشافعي بمكة" (الحموي، 1993: 311).

ولقد لعبت والدته دوراً كبيراً في تربيته وكانت ضليعة بفطرتها في فهم القرآن الكريم وحرصت على تحفيظ ولدها اليتيم الفقير كتاب الله عزَّ وجلَّ منذ الصِّغر. وأمه يمانية من الأزد وكانت من أذكى الخلق فطرة وعُرفت بُسرعة البديهة والتَّمكن في الحوار والنِّقاش.

ومن المواقف النَّادرة ما حكاه الشَّافِعِيّ عن أمه أنها شهدت عند قاضي مكة هي وامرأة أخرى، فأراد أن يفرق بينهما امتحاناً فقالت له أم الشَّافِعِيّ: ليس لك ذلك، قال تعالى: "...أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى.." (البقرة : 282).

وكان رحمه الله كثيراً ما يسأل وفود القبائل عن شعرائهم وكانوا ينشدونه أشعاراً فيستحسن بعضها، وقد كان للجانب النفسي للشعر أثر كبير في حياته حيث كان يتمتع بأبياته، وترنو نفسه لهذا الفن لكونه يمثل تجربة وخبرة حياتية، ممّا جعل صوته حسناً وعقله عظيماً وفصاحة اللسان عنده اكتسبها من القرآن الكريم وكذلك من الشعر، وقد ندب الإمام الشافعي تنشئة الأولاد في البادية لتزكوا أنفسهم ويمرحوا كنف الطبيعة ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل وتنمو الأعضاء والمشاعر وإطلاق الأفكار والعواطف، فقد تربّى رحمه الله في هذيل عشر سنين وكانت أفصح العرب (ملك وأبو طالب، 1989: 23).

وقد قال الشافعي: "الشعر كلام حسنه كحسن اللسان وقبحه كقبح الكلام" (الشافعي، 1990: 207). وبذلك تميّز بكلماته القوية المعبرة عن الحكم والقيم العظيمة.

وقد اهتمت والدته بتنمية ذكائه وقدراته وملكاته المتنوعة، فأرشدته لتعلم الفقه وسماعه، حيث قال له شيخه الزنجي: "أفتي يا أبا عبد الله فقد والله آن لك أن تفتي" (ابن خلكان، ب.ت:566).

وكان ما زال في أول شبابه، فتقلّب بين الرمي والفروسية والطب، كل ذلك بدافع من أمّه، قال أبو الحسن البصري: "سمعت طبيباً بمصر يقول: "ورد الشافعي مصر فذاكرني بالطب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره، فقلت: أقرأ عليك شيئاً من كتاب أبقراط؟ فأشار إلى الجامع فقال: "إن هؤلاء لا يتركونني" (العسقلاني،1986: 99).

ومن إرشاداته كما يقول: "أن الأسرة عليها دور كبير في تعليم الابن وإرشاده إلى تعلم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وقد أقر الإمام الشافعي بأنه كان يجالس مسلم بن خالد الزنجي، وكان يحفظ عنه ما يكتب في صحيحه (العسقلاني ،1986: 53).

تبين من خلال ما سبق من نصوص أن الإمام الشافعي أظهر دور الأسرة في نفسه حيث تربّى يتيماً

واليتم يخلق الرجال الأسوياء الذين يريدون أن يشقوا الحياة بذاتية مطلقة، ولقد كان لأمه الفضل في توجيهه وإرشاده الوجهة الصحيحة فأراد للناس أن يكونوا مثله حيث اهتمت أمّه كثيراً بتكوينه الجسماني والعقلي والنفسي فخلقت منه إنساناً مؤمناً يقوم بدوره في المجتمع في تثقيف الناس وإرشادهم في علوم تلقّنها صغيراً بفضل أسرته ذات الجناح الواحد.

التساؤل الثاني: ما ملامح التوجيه والإرشاد الترويحي عند الإمام الشافعي؟

قضى الشافعي طفولته وشبابه فيما تعلّم وعلّم ولكنه لم ينسَ أن للترويح دوراً مهماً في حياة الإنسان لتخليصه من الضغوط النفسية والاجتماعية فترجّل الفرس وحمل الحسام والنشّاب وضرب بالسهم وكان له قوس، وكان يركب الخيل، كل ذلك حقّقه في نفسه فأراد أن يرشد به غيره.

يقول عمر بن سواد: قال الشافعي: " كانت همتي في سنين: العلم والرمي فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرة، وفي رواية من كل عشرة تسعة، وأما الفروسية فقد قال الربيع بن سليمان: كان الشافعي أشجع الناس وأفرسهم وكان يأخذ بأذنه وأذن الفرس يعدو" (العسقلاني، 1986: 67).

ولقد كان الشافعي يحب الترحال فكان من مبادئ التوجيه والإرشاد عنده أن يرحل الإنسان من مكان إلى آخر قال في شعره :

تغرب عن الأوطان في طلب العلا
وسافر ففي الأسفار خمسة فوائد
تفريج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد
فإن قيل في الأسفار ذل وغربة
وقطع فيافي وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته
بهوان بين واشٍ وحاسد

ولقد أرشدته أمه إلى الترحال رغم فقرها وكانت تشجعه للخروج لتلقي العلم وتعليمه فسافر إلى اليمن مع مصعب بن الزبير فيقول الشافعي: " فلما قدمنا إلى اليمن عملت له عمل فحمدت فيه فزادني ومازال يجتهد حتى جاوزت شهرته اليمن إلى مكة (العسقلاني، 1986: 69).

ثم سافر إلى نجران ثم رحل إلى العراق، ففي العراق أظهر اجتهاده ومغامراته العلمية، وفي كل مرّة كان يروّح الإمام الشافعي عن نفسه في كل رحلة يخطوها، ومجمل رحلاته خرج بمصنفاته الشهيرة (كتاب الأم، وكتاب الحجة) ثمّ رحل إلى مكّة وألّف فيها كتاب الرسالة، ويقول شيخ المالكية في مصر عبد الله بن الحكم: "ما رأيت مثل الشافعي وما رأيت أحداً أحسن استنباطاً منه" (النووي"1"، ب.ت: 61).

ولقد كان الشافعي يروّح عن نفسه كثيراً متمسكاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلب إذا أكره عمي" (البخاري، ب.ت: 129). فالإسلام دين الفطرة، ولا يُتصور أن يتصادم مع الفطرة، أو الغرائز البشرية في حالتها السوية.

ولقد أفاد كثيراً ما حفظ من الشعر فحفظ ألوف الأبيات التي كانت شواهد لكلمات القرآن وهذا كله تبلور في الرياضة العقلية والفكرية عن الإمام الشافعي ممّا ساعده ليكوّن منهجاً إرشادياً مهماً للخليقة تمتّع به السابقون واستمسك به المتأخرون، فهدى به الله خلقاً كثيراً.

والغناء كذلك يعد لون من ألوان الترفيه ووسيلة من وسائل إسعاد النفس وتجديد نشاطها وتخفيف الأعباء عنها بشرط ألاّ تصحبه آلات الطرب وخاصة حتى يقصد به فائدة مباحة كتغني النساء لأطفالهن وتسليتهن وتغني أصحاب الأعمال وأرباب المهن أثناء العمل للتخفيف عن متاعبهم، يقول الشافعي: " فأما استماع الحداء ونشيد الأعراب فلا بأس به قلّ أو كثر وكذلك استماع الشعر"

(الشافعي، 1990: 209).

إن الترويح والترفيه فن ووسيلة لتجديد النفس وتخفيف العبء وليست غاية يوقف عندها ولا يمكن هجرها، قال الشافعي رحمه الله: " الطرب عقل وكرم فمن لم يطرب فليس بعاقل ولا كريم" (القزويني، 1985: 295).

وكان الشافعي مرشد نفسي ذي بصر يحبّب مسترشديه الانطلاق في اللعب في الجو الطلق أثناء الرحلات ويطلب منهم أن يكون كل واحد منهم حراً مرحاً طليقاً، قال الشافعي: " الوقار في الرحلة سخف" (القزويني، 1985: 297- 298).

كما كان الشافعي يمازح طلابه من المصريين فيقول في رقة وانبساط: "لولا قصب السكر ما أقمت ببلدكم" (الذهبي، 1992: 56).

كان الشافعي رحمه الله يتخيّر الدعابة الحلوة والطرفة الجميلة فكان يروي الفكاهة ويحكيها لطلابه فيقول: "كان لرجل ابن أبله فبعثه يوماً يشتري حبلاً طوله ثلاثون ذراعاً فقال الابن لأبيه: في عرض كم؟ قال الأب: في عرض مصيبتي فيك"

(البيهقي، 1970: 214).

ولقد كثرت رحلات الشافعي في طلب العلم وتعددت أسفاره فلا عجب أن تقع له هذه المشاهدات وأن تكون له هذه الروايات التي يرويها من رحلاته والتي اكتسبها من أسفاره فيقول رحمه الله: " كنا في سفر بأرض اليمن فوضعنا سفرتنا نتعشّى وحضرت صلاة المغرب فقلنا نصلي ثم نتعشّى فتركنا سفرتنا كما هي وكان في السفرة دجاجتان فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين فلما قضينا صلاتنا أسفنا عليها وقلنا حرمنا طعامنا، فبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفي فمه شيء كأنه الدجاجة فوضعه فبادرنا إليه لنأخذه ونحن نحسبه الدجاجة قد ردها، فلما قمنا لخلاصها فإذا هو قد جاء إلى الأخرى فأخذها من السفرة وأخذنا الذي قمنا إليه لنأخذه فوجدناه ليفة قد هيّأها مثل الدجاجة" (الحموي، 1993: 317).

لقد كان الشافعي يرى أن الترفيه لا يقتصر على الدعابة أو الفكاهة، حيث كانت نظريته في هذا المجال أوسع وأشمل فكل ما يهز الكيان ويسر الوجدان ويبعث في النفس ألواناً من الراحة والشعور بالسعادة فهو عنده من الترويح والترفيه.

ومن أقوال الشافعي في خبرته مع التعامل مع المرأة ومعرفة نفسيتها وعاطفتها عبارته "إن من المعرفة بالزمان التحامق مع النسوان" (القزويني، 1985: 295).

وكان رحمه الله يحوّل الموقف الذي يجيء على غير ما يطلب إلى موقف مسعد فكان يعطي تلميذه الذي يقوم على حوائجه دراهم يشتري لحماً فيشتري سمكاً فيقول رحمه الله: " يا ربيع! اليوم نأكل شهوتك وغداً تأكل شهوتنا" (الجندي، 1977: 49).

وذات مرة أراد الحائك أن يغيظ الشافعي فصنع له ثوباً، كمٌ طويل وآخر واسع وعرف الشافعي ما يريد الحائك فحوّل الموقف فقال: " بارك الله فيك، هذا لأحمل فيه حاجاتي وهذا لأحمل فيه كتبي" (الجندي، 1977: 51).

ولا ريب في أن مزاح الشافعي رحمه الله كان هادفاً وكان يستخدمه حين الحاجة إليه ولا يسترسل فيه، وكان مزاحه يسير إلى نمط النبوّة لا يعتريه باطل ولا يخالطه لهو ولا يشوبه كذب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " يا رسول الله إنك تداعبنا، قال: " إنما لا أقول إلا حقاً" (الترمذي، ب.ت: 1990).

ومع أنه كان مريضاً كان رحمه الله يوالي تلقين تلاميذه ويعطيهم فوائده ويتابع تهذيب وتعليم طلابه، فهذا الربيع بن سليمان قال: دخلت على الشافعي – وهو مريض – فقلت له قوّى الله ضعفك، فقال: لو قوي ضعفي: قتلني، وقلت والله ما أردت إلا الخير، فقال: قل: قوّى الله قوتك وضعف ضعفك" (الرازي، 1993: 274).

والباحث بعد هذا العرض الذي انتقياه من عدّة مصادر عن الإرشاد بالترويح يؤكد أن الشافعي لم يمل إلى الترويح الذي يخرم المروءة أو يوقع في الإنسان الحرام، أو المكروه؛ وإنما من أجل تجديد النشاط العقلي للإنسان المؤمن ليلقى الحياة بتفاؤل وجد، بدلاً من الكسل أو الرتابة، والروتين الممل، هكذا تكون حياة الإنسان المؤمن بين الأمل والرجاء ويقابل الدنيا بقلب منفتح ونفسية الراضي، وعقلية المقتنع بقضاء الله وقدره، فتزكو الحياة ويطيب العيش وتتحقّق السعادة الدنيوية والأخروية.

التساؤل الثالث: ما ملامح التوجيه والإرشاد النفسي عند الإمام الشافعي؟

يلعب سلوك الجانب النفسي على الإنسان سلباً أو إيجاباً، فحالة الفرد النفسية تنعكس على حياته وتوجه كل أعماله وتصرفاته، وتظهر سعادته وطمأنينته واستقراره أو تعاسته وقلقه واضطرابه، فهي تؤثر على جهده وتحصيله وأعماله وبذله وعطاءه، وكذلك تنعكس على صحته الجسدية والنفسية والاجتماعية.

وقد فسّر الشافعي رحمه الله بأن الخلل النفسي الناتج عن حمل الهموم والإسراف في الأحزان مدمر للنفس البشرية، فيرشده إلى ترك الهموم والبعد عنها ويؤكد ذلك في أبياته الشعرية فيقول:

(الشافعي، ب.ت: 29)

سهرت أعين، ونـامـت عيـون
فـي أمــور تكـون أو لا تكـون

فادرأ الهم ما استعطت عن النفـ
ـس فحملانك الهموم جنون
إن رباً كفاك بالأمس ما كان
سيكفيك فـي غدٍ ما يكـون

ويقول :

معَ الهمِّ يُسْرانِ هَوِّنْ عليكَ
فلا الهمُّ يُجدِي ولا الاكتئابْ

ويقول:

ولا حـزن يدوم ولا سـرور
ولا بؤس عليك ولا رخاء

إن في هذا الدين العلاج الناجع والشفاء النافع لكل أمراض مراتب النفس البشرية التي أصيبت بالأمراض المزمنة وتفشّت في الإنسانية نتيجة بعدها عن أصل وجودها، فالذين تعتريهم هذه الأمراض وتشيع في أوساطهم تلك العلل أصبحوا لبعدهم عن الإسلام لا يعرفون طبيعة الحياة ولا يدركون أن الإنسان خلق فيها للابتلاء والامتحان، يقول الشافعي رحمه الله: " نزّه الله نبيه عز وجل نبيه، ورفع قدره وعلمه وأدبه، وقال: " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ..." (الفرقان: 58). وذلك أن الناس في أحوال شتّى: متوكل على نفسه أو على ماله أو على زرعه أو على سلطان أو على عطيّة الناس، وكل مستند إلى حي يموت أو على شيء يفنى يوشك أن ينقطع به، فنزّه الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأمره أن يتوكل على الحي الذي لا يموت" (الشافعي، 1979: 180).

والمصيبة إذا أطلق الإنسان لنفسه العنان في الجري اللاهث وراء شهوة المال يجمعه، فيصبح عبداً له، لا لربه فكل شيء بقضاء الله وقدره وأن يسرع إلى التسليم الخالص بأن الله وحده هو الرزاق.

يقول الشافعي: (الشافعي، ب.ت: 29-30)

إذا أصبحت عندي قوت يومي
فخل الهم عني يا سعيد..!!؟
ولا تخطر هموم غدٍ ببالي
فـإن غـداً له رزق جديد
أسلـم إن أراد الله أمـراً
فأترك ما أريد لما يريد

ويقول:

وَرِزْقٍ أَتَـاكَ وَلَـمْ تَأْتِـهِ
وَلاَ أَرَّقَ العَيْنَ مِنْهُ الطِّلابُ

إن هموم الرزق والمعاش أهم ما يطارد الناس شبحه ويلقي ظله الكئيب على فكرهم ويشغل حياتهم حتى آخر أنفاسهم ومأخوذ قول الشافعي من قول الله تبارك وتعالى: "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ" (التكاثر: 1-2).

والأصل أن يضع هؤلاء نصب أعينهم قول الله تعالى: "...نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ" (الزخرف: 32)

يحكي الربيع تلميذ الشافعي كلاماً طيباً دار بين الشافعي وعبد الله بن عبد الحكيم، قال عبد الله بن عبد الحكيم – من كبار شيوخ المالكية في مصر – للشافعي إذا أردت أن تسكن البلد – يعني مصر – فليكن لك قوت سنة ومجلساً من السلطان تتعزّز به، فقال له الشافعي: يا أبا محمد! من لم تعزه التقوى فلا عزّ له ولقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعاً قط" (الدقر، 1988: 362-363).

والأمراض النفسية لا ترى ولكن الذي يشاهد منها هو آثارها الخارجية ونتائجها السيئة وكذلك علاج تلك الأمراض نفسي، فيجب أن ندرك مدى تأثيره على المريض بعد ترطيب نفسه وراحة قلبه بالمعاني الرفيعة والمفاهيم الصحيحة وإخراجه من الحالة التي يعيش فيها بإحياء الأمل عنده وبعث الرجاء له في الله عز وجل.

قال رحمه الله: "من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد في الدنيا قرّت عيناه بما يرى من ثواب الله تعالى غدا.. كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً وأصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين" (النووي1، ب.ت: 56).

قيل للشافعي "كيف أصبحت؟ فأجاب: "كيف يصبح من يطلبه ثمانية: الله تعالى بالقرآن والنبي صلى الله عيه وسلم بالسنّة، والحفظة بما ينطق، والشيطان بالمعاصي، والدهر بصروفه، والنفس بشهواتها، والعيال بالقوت، وملك الموت بقبض روحه" .

وهل رحلة الحياة من مبدئها إلى نهايتها إلا ما

ذكره الشافعي واستطاع تجليته ببصيرته النيرة وتحديده بإيمانه الواعي في هذه الثمانية التي يطلب بها، إن السعادة الحقيقية تكمن في أن يعرف الإنسان سر حياته وسبب خلقه ووجوده وأن يحدّد دوره في هذه الحياة ووظيفته فيها ويرسم هدفه منها ويعرف بصدق عدوه من صديقه ونهايته ومصيره.

فالسعادة الحقيقية هي أن يعيش الإنسان وفق مراد خلقه فهو لهذا وحده خلق، قال تعالى: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: 56) فإذا ظن الإنسان أنه يستطيع أن يحقّق سعادته وينال حظه من بهجة الحياة وسروره بها بعيداً عن الله فذلك وهمٌ كاذب وسراب خادع لا تسعد به النفس ولا تطول لذتها ولا يطمئن لها الفؤاد.

قال رحمه الله: "من غلبته شدّة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عن الخضوع" (النووي، ب.ت: 55 – 56)

وقال أيضاً: "التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة" (كارنيجي، 2010: 41).

ومن أعظم الوسائل في علاج الهموم وتهوين المشكلات ورفع الروح المعنوية في نظر الشافعي السفر ففيه متعة للإنسان حتى يرى البلدان والأودية والرفقة وتتغير مرئياته من اختلاطه بالأقوام واطلاعه على الجديد من العادات والتقاليد ما ينشط نفسه ويشوقه للاستزادة، وكان رحمه الله خير من يحسن انتقاء الزمن الذي تكون فيه القوة المحصلة للعلم، ومن العوامل التي ترتقي بالصحة النفسية الاتجاه إلى المسجد فهو المكان الذي تجد النفس المؤمنة فيه تمام أنسها وكمال راحتها، ولقد كان الشافعي يكتب مؤلفاته ويملي رسائله وعلومه ويعقد مجالس الدرس ويعلم طلابه في ساحة المسجد، وكذلك المداومة على تلاوة القرآن الكريم (ملك وأبو طلب،

1989: 217- 218).

يقول أحد تلاميذ الشافعي: "ما رأيت أحداً لقي من السقم ما لقي الشافعي فدخلت عليه، فقال لي: "يا أبا موسى! اقرأ علي ما بعد العشرين والمائة من آل عمران وأخفّ القراءة ولا تثقل فقرأت عليه مثلما أردت القيام، قال: لا تغفل عني فإني مكروب"

(الرازي، 1993: 76- 77).

فقد عرف الشافعي أن القرآن الكريم شفاء كل مكروب وملاذ كل محتاج قال رحمه الله: "إن الله خلق الخلق لما سبق في علمه ممّا أراد بخلقهم وبهم لا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب، وأنزل عليهم الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة" (الشافعي، 1894: 106).

وقال رحمه الله: "فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلاّ وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها" (الشافعي، 1894: 213). قال تعالى: "... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ " (النحل : 89).

ولقد كان الشافعي دائم الاتصال بكتاب الله عز وجل حتى قال تلميذه الربيع: " قلما كنت أدخل على الشافعي رحمه الله إلاّ والمصحف بين يديه يتبّع أحكام القرآن" (الشافعي، 1894: 20).

ولقد استخدم الشَّافِعِيّ الذِّكر والمناجاة والدُّعاء والصَّلاة كوسيلة من وسائل تدعيم الصِّحَّة النَّفْسِيَّة فلا يخيب من اعتصم بخالقه سُبْحَانَهُ وتعالى وهل الاضطرابات النَّفْسِيَّة في العصر الحديث مثل الاكتئاب والقلق والضَّغط النَّفسي إلا ضريبة من ضرائب البُعد عن طاعة الله وترك عبادته بالوجه الأمثل؟ فهناك ما يقرب من مليون شخص ينتحرون سنوياً بسبب الاكتئاب وأنَّ ما يُقارب (450) مليون شخص يُعانون من أمراض عصبية وعقلية

(عبد الدائم، 1997، 9).

<u>التساؤل الرابع:</u> ما ملامح التوجيه والإرشاد التربوي عند الإمام الشافعي؟

لقد نبّه الإمام الشافعي إلى استغلال الزمن متمثلاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ ، وصِحَّتُكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغِكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ" (مسند الإمام أحمد،

1996: 5236).

وقال الشافعي: "الوقت سيف فإن قطعته وإلاّ قطعك ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل" (الجوزية، 1973: 134).

وكان -رحمه الله -يجلس في حلقة من حلقات جامع عمرو بن العاص ذو الزوايا الثمان، وكانت تدرّس في الجامع شتى العلوم أشهرها زاوية الإمام الشافعي (عبد الدائم، 1997: 153).

وكان يجلس في هذه الحلقة إذا صلّى الصبح فيجيئه أهل القرآن فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث وإن ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل اللغة العربية والعروض والنحو والشعر إلى قرب انتصاف النهار ثم ينصرف رضي الله عنه

(الحموي، ، ب.ت: 304).

لقد كان الشافعي يظل قرابة ست ساعات يومياً يلقي دروساً متصلة ينتقل فيها من علم إلى علم ومن مادة إلى أخرى ويظل على هذا الحال من بعد صلاة الفجر حتى تدنو صلاة الظهر(الشرباصي، ب.ت: 131).

فإذا أقبل الليل فيتصل الشافعي بمنهج خاص في التربية والتعليم فكان يقسّم الليل إلى ثلاثة أجزاء، ثلثاً للعلم، وثلثاً للعبادة، وثلثاً للنوم (الغزالي، ب.ت: 25).

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلتُ لأبي أي رَجُلٍ كان الشَّافِعِيّ فإنِّي سمعتك تُكثر الدُّعاء له؟ فقال: "ما أَحدٌ مَسَّ مِحبرةً، ولا قَلماً، إلا وللشَّافعي في عُنقه مِنَّةٌ" (الذَّهبي، 1992: 49).

احتلَّت قضية الفروق الفردية لدى المُعَلِّمين والمتّعلمين عند الشَّافِعِيّ مكاناً هاماً جداً، سواء على مستوى تُراثه في الشِّعر أو على مستوى النَّثر.قال الشَّافِعِي: "والنَّاس في العلم طَبقات، موقعُهم من العلم بقدْر دَرجاتهم في العِلم به. فحُقَّ على طَلبة العلم بلوغُ غاية جهدِهم في الاستكثار من علمه، والصَّبرُ على كل عارض دون طَلَبِه، وإخلاص النِّية لله في استدراك عِلمه نصّاً واستنباطاً، والرَّغبة إلى الله في العون عليه، فإنَّه لا يُدرَك خيرٌ إلا بعونه" (الشافعي، 1894: 19).

ترحيب الشَّافِعِيّ بالاجتهاد وحفاوته بإعمال العقل، وعرض آراء المخالفين له ومناقشة حُجَجِهِم، وتنويع طرائق عرض أفكاره، من الأدلَّة على تبنيه أهمية الفروق الفردية وضرورة التَّعرض فكراً وتطبيقاً، كان الشَّافِعِيّ يكلِّم طُلابه على قدر ما يفهمونه عنه، ولو كلمهم على قدر فهمه وسعة لغته ما استفاد منه كل طلابه. قيل للشَّافعي أَخْبِرنا عن العقل يولد به المرء؟ فقال: لا! ولكنَّه يلقح من مجالسة الرِّجال، ومناظرة النَّاس (الأصبهاني، 1984: 121).

لم يغفل الشَّافِعِيّ عن الجانب النَّفسي في عملية التَّعلم فقال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصـــي
وأخبرنـــي بـأن العلـم نـــور
ونـــور الله لا يهـدي لعـاصـــي

المَوعظة والنَّصيحة والتَّذكرة من الأساليب التَّربوية في التَّهذيب. يقول الشَّافِعِيّ: "الموعظة للعوام، والنَّصيحة للإخوان والتَّذكرة للخواص منهم، فرض افترضه الله على عُقلاء المؤمنين ولولا ذلك لبطلت السُّنَّة وتعطَّلت الفرائض". يقول الشَّافِعِيّ في النَّصيحة: "النَّاس في غفلة من هذه السُّورة: "وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" (العصر، الآيات: 1-3). والحق كما قال الشَّافِعِي أنَّ سورة العصر تكفي الإنسان في حياته لو عمل بمقتضاها، ومن الوصايا الخالدة في موضوع النَّصيحة قول الشَّافعي:

تعمدْني بنصحِكَ في انفرادي
وَجَنِّبني النّصيحةَ في الجماعةْ
فإن النُّصحَ بين النَّاسِ نوعٌ
من التَّوبيخِ لا أرضى استماعَهْ
وإن خالفتني وعصيتَ قولـي
فلا تجزعْ إذا لم تُعْطِ طاعهْ

وهكذا وفي إطار التَّغيير بالحكمة وضع الشَّافِعِيّ آداباً للنَّصيحة الصَّحيحة منها أنَّ لا تكون أمام النَّاس كي لا يُحرج المنصوح. إنَّ النَّصيحة في الملأ توبيخ يدل على عدم لباقة النَّاصح على معالجة الأمور وسياسة النُّفوس والوصول إلى قلب المنصوح بالحكمة.

تحدَّث الشَّافِعِيّ في الرِّسالة عن أهمية نصيحةُ المسلمين وذكر الأدلَّة وقال إنَّ النَّصيحة من طاعة الله وطاعةُ الله جامعة للخَير. والنَّصيحة باب عظيم للدَّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ولا قوام لها إلا بالحسنى والحكمة فإنَّ النَّصيحة رسالة تحتاج إلى غلاف جذَّاب غير مُنفِّر تصل إلى المنصوح بغرض التَّصحيح لا التَّجريح (الدقر، 1988: 205).

التساؤل الخامس: ما مدى الاستفادة من الفكر النفسي والتربوي عند الإمام الشافعي في مدارسنا الحديثة؟

يمكن الاستفادة من فكر الإمام الشافعي النفسي والتربوي لارتباط ما خلّفه من أساليب تربوية ونفسية تمس حياة الواقع على مر العصور وحتّى أنّ هذه الأساليب ترتقي إلى الممارسة العملية التطبيقية الأدائية في جوانب حياة الإنسان، فإنّه ليس الخبر كالمعاينة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنه من نافلة القول أن نقول: أن الإمام كان ما تركه من فكر يعد في ميزان التربية وعلم النفس منهج حياة تطبيقية في ميادين شتى.

فالعلوم التي خلّفها لا يستأنس بها فحسب؛ بل هي قابلة للتطبيق في مناهجنا التعليمية فهي تخص الطفل والمراهق والشاب والكهل والشيخ، وقد قال رضي الله عنه: "من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم".

كما نبّه الإمام الشافعي كثيراً إلى مجموعة من القضايا الإرشادية وقضايا الصحة النفسية يمكن أن تكون أنموذجاً يُقتضى به عند المرشدين والمعالجين النفسيين، ومن روائع ذلك" من لم تعزه التقوى فلا عز له، والخير في خمسة: غنى النفس وكف الأذى وكسب الحلال والتقوى والثقة بالله، وأنفع الذخائر التقوى وأضرها العدوان، واجتناب المعاصي، وترك ما لا يعنيك ينوّر القلب عليك بالخلوة وقلّة الأكل وإياك ومخالطة السفهاء، والعاقل من عَقَله عَقْله عن كل مذموم، ولا يكمل الرجل إلا بأربع: بالديانة والأمانة والصيانة والرزانة، وعنه ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته، علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً، ومن نمّ لك نمّ عليك، التواضع من أخلاق الكرام، والتكبّر من شيم اللئام، والتواضع يورث المحبة، والقناعة تورّث الراحة، أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله

(الذهبي، 1992: 97 – 99).

والإفادة الحقّة من التراث لا تتحقّق إلا بالنقد الواعي المتزن دون التأثر السلبي بهالة التراث، قال السخاوي: (2003) عن الشافعي: "احذر الأعور والأحول والأعرج والأحدب والأشقر والكوسج (لا لحية له أصلاً) وكل من به عاهة في بدنه وكل ناقص الخلق فاحذروه فإنه صاحب التواء ومعاملتهم عسرة وقال مرة أخرى فإنهم أصحاب خبث (ص 162، الدقر 2009، ص 224) ومثل ذلك ما نقله الذهبي قديماً في سيره وحديثاً محمد عبد الرحيم في ديوان الشافعي (1995، ص 55): " عن الشافعي قال: ما نقص من أثمان السود إلا لضعف عقولهم وإلا هو لون من الألوان" . إن مثل هذه العبارات يجب ألا تمر إلا بنقدها بل لا حاجة لروايتها في عصرنا وفي الديوان السابق أيضاً أن أربعة أمور تضعف البصر منها: النظر إلى عورة المرأة نسبها الباحث للشافعي نقلاً عن الطب النبوي لا بن القيم (ص 6)، ولا زلنا نكرر قول الشافعي: "ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك: المرأة والخادم والفلاح" (الدقر، 2009، ص 300)، ومن ذلك الخلط أيضاً ما نقل عنه" أقمت أربعين سنة أسأل إخواني الذين تزوجوا عن أحوالهم في تزوجهم فما منهم أحد قال إنه رأى خيراً " (النووي، ج1، ص 74).

ومما يدل على عظيم الاستفادة من تراث الإمام الشافعي النفسي والتربوي اهتمامه بكافة الأمور كالصلات البينية والتفاعل الاجتماعي بين الناس فتحدّث عن الصداقة قصيدة طويلة اختتمها من شعره فقال:

مررتُ على المروءةِ وهي تبكي
فقلتُ علام تنتحب الفتاةُ؟
فقالت كيف لا أبكي وأهلي
جميعاً دون خلق اللهِ ماتوا

وحرصاً منه على أهمية أن يكون للإنسان صديق صدوق صادق الوعد منصفاً حيث اختتم هذه القصيدة بقوله:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفا
فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففي الناس إبدال وفى الترك راحة
وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا
فلا كل من تهواه يهواك قلبه
ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة
فلا خير في خل يجيء تكلفا
ولا خير في خل يخون خليله
ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقدم عهده
ويظهر سراً كان بالأمس قد خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها
صديق صدوق صادق الوعد منصفا

وحذّر كثيراً من الأمور التي تهتك النسيج

الاجتماعي للمجتمع وتفرّق بين أفراده فقال في قصيدته:

عفوا تعف نساءكم في المحْرَمِ
وتجنبوا مالَا يليق بمسلم
إن الزنـا ديـــــن إذا أقرضته
كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
من يزنِ في قوم بألفي درهم
فـي أهله يُزنى بربع الدرهم
مـن يزنِ يُزنَ به ولـو بجداره
إن كنت يا هذا لبيباً فافهم
يا هاتكا حُرَمَ الرجال وتابعا
طرق الفساد عشت غيرَ مكرم
لو كنت حُراً من سلالة ماجدٍ
ما كنت هتاكاً لحرمة مسلمِ

والحديث يطول فيما كتبه الإمام الشافعي في الإرشاد الجماعي وفي مناقشته للأمور الاجتماعية التي تدعو المجتمع على التراص والتواصل المستمر والتعاون وصدق المعاملة، ولقد كان الإمام الشافعي يركّز كثيراً على القضايا التطبيقية فلم يشرع في توصيل درس حتى يقدّم دليلاً ملموساً على ذلك فحينما طلب منه أن يدرّس موضوعاً عن " عتق العبيد" فانتظر حتى ملك ثمن عبداً فأعتقه أمام تلاميذه، هذه هي بعض الأمور والدروس المستفادة من تراث الإمام الشافعي النفسي والتربوي.

إن للإرشاد النفسي والصحة النفسية دلائل كثيرة في فكره – رضي الله عنه – وعليه يمكن اتخاذ الأمور التالية، هي أهم استراتيجيات نفسية يعتمد عليها عند تطبيق الصحة النفسية عنده:

الأولى-حفظ اللسان: يقول الشافعي: "الأفئدة مزارع الألسن، فزارع الكلمة الطيبة إن لم تنبت كلها نبت بعضها".

الثانية-الاعتماد على الله عز وجل والإيمان به، وبرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

الثالثة-تركيزه على قضايا القضاء والقدر فكل شيء بأمره عز وجل.

الرابعة-استخدام الثواب والعقاب للمسترشدين لما فيهما من فائدة كبيرة في توجيه وإرشاد الأمّة.

الخامسة-الالتزام بالآداب الأخلاقية للمرشد والمسترشد: لكون الأخلاق فريضة دينية مستهدياً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

السادسة-التركيز على قضايا الكسب الحلال والرزق الحسن؛ لأن ذلك يورث التقوى عن الأجيال.

السابعة-تركيزه على الجمال والخير باعتباره قضايا ترغيبية يسعى إليها الإنسان المؤمن في حياته فكانت منهجاً يقتضى به عنده رضي الله عنه.

الثامنة-التعرّف على طبائع الناس؛ لأن ذلك من الفنون المهمّة التي لابد للمرشد أن يمتلكها عند توليه عملية الإرشاد والتوجيه.

هذه استراتيجيات مهمّة لابد أن تكون دائماً حاضرة في عملية الإرشاد والتوجيه كما ركّز عليها الإمام الشافعي – رضي الله عنه-.

وقد عالج الشافعي كثيراً من المشكلات وواجه الكثير من التحديات التي جعلت منه إماماً للصابرين، يحتذى بهديه بالصبر وتخطي الصعاب، فهذه الإرشادات والتوجيهات النفسية التي قدّمها الشافعي للبشرية قاطبةً يمكن أن يستفيد منها الشعب الفلسطيني، وكل الشعوب المظلومة والمقهورة التي تشعر بالاضطراب وعدم الاستقرار وعدم الإحساس بالأمن، خاصةً عندما تنتهك المقدسات والأعراض، فقد تمسك الشافعي بقول الله عز وجل: "ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (النحل : 125).

كما جعل الشافعي من الصبر مدرسةً تنعكس في سلوك المظلومين فقال:

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري
وأصبر حتى يأذن الله فـي أمري
وأصـبـر حتـى يعلـــم الصـبـر
أني صابرٌ على شيّ أمرّ من الصبر

هذا الأمر وغيره يمكن للشعب الفلسطيني أن يجعله ممارسات حياتية تلهمه الأمن وعدم الاستسلام والثقة بالله الذي ينصر الصابرين حتى ينال الفلسطيني حقوقه المشروعة إن طال الزمان أو قصر، قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (آل عمران : 200).

ويمكن الاستفادة من التراث النفسي والتربوي للإمام الشافعي في صياغة مناهجنا التربوية من خلال علومه التي تركها لنا: كأصول الفقه، والفقه، والشعر، وعلم السلوك، إن الإمام الشافعي كان نبراساً يمكن الاستفادة منه، كما استفيد من الغزالي، وابن خلدون، والزرنوجي، وابن مسكويه، وغيرهم الكثير، إن استنباط القواعد الشاملة التي توصل القاصدين إلى استنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية؛ إنما هو منهاج يتغنّى به الكثير من علماء الغرب، وقد سبق الشافعي علماء النفس والفلاسفة إلى معرفة الدلائل الإجمالية والبراهين التفصيلية ليستفاد منها في كل حين وفي كل زمان ومكان.

حادي عشر- أهم نتائج الدراسة:

بناء على ما تقدّم ذكره من مناقشة لأسئلة الدراسة والإجابة عليها فقد توصّل الباحث إلى النتائج التالية:

1- يمكن الاستفادة من فكر الإمام الشافعي من خلال ما أنتجه للبشرية من علوم متنوعة في الفقه وأصول الفقه والشعر... إلخ، فإن الإفادة منها قد يحقّق لطلابنا فكراً ناصعاً وعقولاً واعدة للأجيال اللاحقة.

2- قدّم الإمام الشافعي مفاهيم مهمّة يمكن للمرشدين وعلماء الصحة النفسية الاستفادة منها في عملهم خلال عملية التوجيه والإرشاد النفسي والطلابي في المدارس وفي العيادات النفسية .

3- وجّه الإمام الشافعي المسترشدين إلى قراءة القرآن الكريم والعمل به في مهنتهم لما فيه من علوم نافعة يستفيد منها الإنسان على مر العصور خاصةً في مجال التوجيه والإرشاد.

4- اتبع الشافعي خطى سليمة في عمليات التوثيق والتبويب والمنهجية في مواعظه وإرشاداته وتعاليمه التي توجّه المسلمين نحو العمل الصالح فحبّذا لو تمثّل ذلك المرشدين والأخصائيين النفسيين بشكل عام.

5- يعد منهج الترويح من المناهج النفسية المهمة في توجيه المسترشدين حيث جعل منه تجديداً للحياة وتوجيهاً للعمل الخير والنافع.

6- جعل الإمام الشافعي الفكر والعقل قضايا عليها مدار الأمور إذا ما اختلفت مع الشرع.

7- اهتمّ الإمام الشافعي بالتوجيه والإرشاد الأسري كثيراً منذ التفكير بالزوجة الصالحة وحتى إنجاب الأبناء ورعايتهم.

ثاني عشر- التوصيات:

بناء على ما تقدّم من نتائج وإجابة لتساؤلات الدراسة فإن الباحث يوصي بالآتي:

1- تشمير السواعد وتجريد العقول من أجل تمحيص التراث الفكري لدى علماء سلفنا الصالح من أجل استنباط القضايا النفسية التي تخص التوجيه والإرشاد والتراث التربوي بشكل عام.

2- إن ما قدّمه الإمام الشافعي يفيد في صياغة المناهج صياغة تعتمد على الأصول الإسلامية في التربية وعلم النفس.

3- ضرورة نشر فكر الشافعي بشكل خاص وفكر علماء المسلمين بشكل عام على شبكات التواصل المعرفي والاجتماعي للاستفادة منها كلما دعت الحاجة، وتفعيلها في حياتنا لتكون منهج حياة.

4- عمل كتيّبات تحمل الفكر النفسي والتربوي للإمام الشافعي وتوزيعها ليستفيد منها الصغار والكبار من طلبة العلم.

5- التأسي بأخلاقيات العلم التي قدّمها لنا الإمام الشافعي وخاصةً في هذا العصر الذي كثر فيه الخبث واللغط وضاعت فيه القيم والأخلاق.

المراجـــــع:

1- الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن مهران بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (1984): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط4، ج9، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان.

2- الأندلسي، الإمام أبو محمد علي بن حزم (1934): جمهرة أنساب العرب، ط5، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر.

3- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ب.ت): فتح الباري شرح البخاري، حديث رقم 2899، ج129/6، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، انظر إلى ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي.

4- البيهقي، أحمد بن الحسين (1970): مناقب الشافعي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، مصر.

5- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي (ب.ت) : سنن الترمذي، الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
6- التميمي، عز الدين الخطيب (2001): آثار المذهب الشافعي في العالم الإسلامي وخارجه. في الإمام الشافعي فقيهاً ومجتهداً، المنظمة الإسلامية للتربية، بيروت، لبنان.
7- الحموي، ياقوت (ب.ت) : معجم الأدباء، ج17، مطبوعات دار المأمون، القاهرة ، مصر.
8- الحموي، ياقوت (1993): معجم الأدباء.. إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
9- ابن حنبل، أحمد بن محمد (1996): مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
10- الجرجاوي، زياد علي (2008): التعليم في كتاتيب مدينة غزة منذ النكبة 1948م وحتى 1960م، جامعة عين شمس، مركز التطوير الجامعي، مجلة جامعة عين شمس، العدد الثامن عشر أغسطس،القاهرة، مصر ص ص 175- 202
الجعب، نافذ سليمان (2012): مقومات الشخصية الإسلامية في الفكر التربوي للإمام الشافعي، مؤتمر الإمام الشافعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأقصى، 6 - 2012/5/8، ج3، فلسطين، ص ص 1089 - 1126
11- الجندي، عبد الحليم (1977) : الإمام الشافعي ناصر السنة ..وواضع الأصول، دار المعارف، مصر.
12- الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (1984): صفوة الصفوة، ج2، ط3، تحقيق: محمود فاخوري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
13- الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيم (1973): مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ط2، ج3، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
14- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ب.ت) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان.
15- الدقر، عبد الغني (1988): من أعلام التربية العربية الإسلامية الإمام الشافعي، مطبعة مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض، السعودية.
16- الذهبي، الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (1992): سير أعلام النبلاء، ج10، ط9، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
17- الزحيلي، محمد (2009): الشافعي واضع علم أصول الفقه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، الإمارات.
18- الرازي، الإمام الجليل أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم (1993) : آداب الشافعي ومناقبه، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر .
19- رضا، محمد جواد (2009): وتسطيح العقل الثقافي... دراسة حالة، الجمعية الكويتية لتقد الطفولة العربية، الكويت.
20- السبحان، محب الدين عبد (1986): منهج الإمام الشافعي في تفسير آيات الأحكام، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية.
21- الشافعي، الإمام الأعظم أبي عبد الله محمد إدريس (ب.ت): ديوان الإمام الشافعي، ، دار الأرقم ، بيروت، لبنان.
22- الشافعي، الإمام الأعظم أبي عبد الله محمد إدريس (1894): الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
23- الشافعي، الإمام الأعظم أبي عبد الله محمد إدريس (1979): أحكام القرآن، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
24- الشافعي، الإمام الأعظم أبي عبد الله محمد إدريس (1990): الأم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج6، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
25- الشرباصي، أحمد (ب.ت) : الأئمة الأربعة، دار الجليل، بيروت، لبنان.

26- عبد الدائم، عبد الله (1997): التربية عبر التاريخ، بيروت، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
27- أبو شوشة، محمد ناجح (2008): التراث التربوي في المذهب الشافعي، مطبعة العلم والإيمان، القاهرة، مصر.
28- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل شهاب الدين (1986): توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
29- علوان، نعمان شعبان (2011): قراءة بلاغية في ديوان الإمام الشافعي 150ه - 204ه، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإسلامية، المجلد التاسع عشر، العدد الثاني، يونيو، غزة، فلسطين، ص ص 923 – 972.
30- علوان، نعمات شعبان (2012): القيم التربوية المتضمنة في ديوان الإمام الشافعي، مؤتمر الإمام الشافعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأقصى، 6 - 2012/5/8، ، ج3، فلسطين،
31- ص ص 1071 – 1088.
32- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ب.ت) : إحياء علوم الدين، ج1، مطبعة ومكتبة كرياطة فوترا، أندونيسيا.
33- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (1985): مفيد العلوم ومبيد الهموم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
34- كارنيجي، ديل (2010): كيف تتعامل مع الناس، تقديم:يوسف أبو الحجاج الأقصرى، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة، مصر.
35- الكندري، لطيفة حسين، وآخرون (2010): المضامين التربوية لفكر الإمام الشافعي في ضوء المعطيات المعاصرة، المجلة التربوية، العدد(28) ، يوليو، جامعة سوهاج، كلية التربية، ص ص 1 – 44 .
36- مجمع اللغة العربية (2004): المعجم الوسيط، ج3، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر.
37- المزم، عبد الله بن علي(2000): منهج الإمام الشافعي في أصول الفقه، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم القضاء، تخصص: الفقه وأصوله، جامعة أم القرى، السعودية.
38- ملك، بدر محمد، وأبي طالب، خليل محمد (1989): السبق التربوي في فكر الشافعي
39- (150 – 204ه)، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت.
40- النووي، الحافظ أبي زكريا محي الدين بن شرف"1" (ب.ت): تهذيب الأسماء واللغات، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
النووي، الحافظ أبي زكريا محي الدين بن شرف"2" (ب.ت): المجموع شرح المهذب، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، بيروت، لبنان.

الهوامـــــــش:

شافعي: هو أبو عبد الله، محمد بن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب بن عبد الله بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي، وكان السائب صحابياً، ونسب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (شيبة الحمد) ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي، فالشافعي مطلبي قرشي، يلتقي نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف بن قصي باتفاق المؤرخين.

ولد الشافعي رحمه الله تعالى بغزة سنة 150 ه، وتوفي والده، فانتقلت به أمه إلى مكة المكرمة، وهو ابن سنتين، لينشأ بين أهله وذويه وأقربائه وعشيرته، وربي يتيماً، وتوفي في فسطاط مصر (القاهرة) سنة 204 ه، وقبره فيها مشهور، مع مسجد بجواره، وله سيرة عطرة، وميزات فريدة.

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 228 - 236
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

ملحة اللحن الخفي لأبي الفضل عبد العزيز بن المنجا بن أحمد الحلبي – دراسة وتحقيق –

هدى حراق

كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

تمهيـــــد:

يعد علم التجويد من جملة العلوم المهمة التي يحتاجها طالب العلم، ويحتاج إلى ضبطه واستحضاره، لذلك حرص أهل هذا الفن على إيصاله لطالبه سهلا ميسرا، فتجد أغلب متونه عبارة عن منظومات أو أرجوزات، الغرض منها جمع هذا العلم وتسهيل حفظه.

وهذه واحدة من المنظومات في هذا الفن ،سماها ناظمها بملحة اللحن الخفي، حرص فيها على بيان أهم الأخطاء التي يقع فيها تالي القرآن فخصها بالذكر دون غيرها، لذا لا نجد هذه الأرجوزة قد اشتملت على جلّ أبواب التجويد ولم تستقصها، فلم يكن غرض ناظمها ذلك، إنما أراد بيان طريقة وكيفية تجنب أهم الأخطاء التي يقع فيها تالي القرآن، وقد قمت بالعناية بهذه المنظومة وضبطها،مع إيضاح ما يشكل منها، ضمن قسمين :الأول في التعريف بالناظم والمنظومة، والثاني في ضبط المنظومة والتعليق عليها، ونسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما قمت به، وأسهمت بنزر يسير في التعريف بمصدر من مصادر التجويد.

1- قسم الدراسة:

ويتضمن التعريف بالناظم ومنظومته: هو الشيخ الإمام المقرئ الحافظ أبو الفضل عبد العزيز بن منجا ابن أحمد الحلبي، ويحتمل أن يكون من العلماء الذين عاشوا في أواخر القرن السابع و بداية الثامن، كما ورد في التعريف بالمخطوطة .

وكما جاء في آخرها أن كاتبها قد أتمها في في رابع شهر رمضان المعظم من شهور سنة أحد وتسعين وسبعمائة.(**791هـ**)

هذا ما أمكننا الحصول عليه تعريفا بناظم هذه الأرجوزة، إذ لم نجد تعريفا له مع طول البحث والتنقيب في كتب التراجم والفهارس إلا ما ورد في بداية المخطوطة من ذكر اسم مؤلفها، وهذا لا ينقص من قيمة المخطوطة، ولا يحط من شأنها.

2- التعريف بأرجوزة ملحة اللحن الخفي:

اسمها:

جاء في فهارس المخطوطات ،وعلى غلاف النسخة التي اعتمدتها عنوان المخطوطة كالآتي: **"الإتقان في تلاوة القرآن"** وهذا الذي نص عليه ناسخها، إلا أن مادة الأرجوزة كلها تتحدث عن اللحن الذي يجب على قارئ القرآن أن يتجنبه، والناظم قد نص صراحة على أن اسمها **"ملحة اللحن الخفي"** فقال:

وقد تقضت ملحة اللحن الخفي
فقس عليها فهي أصل واكتفي

ولهذا اخترت العنوان الأخير، فهو أولى لكونه من وضع الناظم، ومعنى (الملحة) الكلمة المليحة[1]. ولعله سماها بذلك محاذاة لملحة الإعراب[2] للقاسم بن علي الحريري البصري(**ت516هـ**).

موضوع المنظومة:

تتناول الأرجوزة موضوعا مهما من موضوعات علم التجويد، ويتعلق بشكل خاص بكيفية النطق بالحروف وتجويدها، وأساليب التخلص من الأخطاء وعيوب النطق التي قد يقع فيها قارئ القرآن، والذي يسمى عند علماء هذا الفن باللحن، والذي ينقسم لقسمين لحن خفي ولحن جلي.

فناظمها تناول فيها اللّحن الذي يجب اجتنابه وعدم الوقوع فيه، فتحدث،بعد مقدمة فيها حمد الله

والثناء عليه والصلاة على رسوله، وذكر سبب نظمه، وهو إجابة لمن سأله بيان اللّحن الخفي والكشف عنه، ثم تناول كيفية أداء الاستعاذة ونطق حروفها، ثم البسملة، ثم عرج على أهم شيء في كتاب الله، والذي يحتاجه كل مسلم، وهي الفاتحة، وبين كيفية تجويد معظم حروفها وألفاظها، ثم خص بعض الحروف وحرص على بيان كيفية نطقها منفردة أو حين اجتماعها، وما ينبغي لقارئ القرآن أن ينتبه له عند النطق بها، مخافة الوقوع في اللحن، ثم أورد أحكام النون الساكنة والتنوين، ثم باب المد فأورد فيه ثلاثة أبواب: باب في مد الواو ثم باب في مد الياء، وباب في مد فواتح السور، ثم أردفه بباب ذكر فيه ترقيق اللامات وأن الأصل فيها الترقيق إلا ما ذكر، ثم تحدث عن الراءات وخصها ببابين واحد للتفخيم وآخر في الترقيق، ثم ختم الأرجوزة بالحديث عن حروف الاستعلاء .

وقد حقق أحد الباحثين[3] أرجوزة بعنوان "أرجوزة في تجويد الفاتحة"، وأشار إلى أنه لم يجد اسم مؤلفها، وقد اشتملت هذه الأرجوزة على بعض الأبيات من الأرجوزة التي لدينا، وهذا لا ينفي أو يؤكد أن الناظم لهما واحد فقد تكون للناظم نفسه وقد تكون لغيره، وقد تكون الأرجوزة التي لدينا، أي "ملحة اللحن الخفي" هي أصل لأرجوزة الفاتحة، فناظم أرجوزة الفاتحة يقول فيها:

وناظم الأرجوزة المترجمة
الله يغفر ذنبه ويرحمه
وكان نظم الأصل فيها كاف
لكنني راعيت للخلاف

وقد قال المحقق: "ويظهر من بعض أبيات الأرجوزة أنها تكملة وشرح لأرجوزة أخرى في الموضوع سابقة عليها" **[ص 53]**.

فقد تكون المنظومة التي نحققها هي الأصل الذي يشير إليه فيكون ناظمهما واحدا، وقد يكون خلاف والأمر يحتاج إلى مزيد من البحث.

المصنفات التي أفردت في بيان اللّحن الخفيّ :

لقد صنف علماء التجويد كتبا عدة في بيان اللحن في تلاوة القرآن الكريم، منها ما يتعلق بجانب التجويد ووجوه اللحن في قراءة القرآن الكريم، ومنها ما يتعلق بالناحية الفقهية من حيث حكم اللاحن في قراءة القرآن الكريم.

أولا: المتعلقة بعلم التجويد

1-التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، لأبي الحسن علي بن جعفر بن محمد الرازي السعيدي الحذاء، ت نحو **410هـ**[4].

2- اللحن الخفي، لهارون بن أحمد بن عبد الواحد بن هاشم بن علي بن هاشم الحلبي الأسدي ت **537هـ**[5].

3- التنبيه على اللحن الجلي، لأبي طاهر هاشم بن أحمد بن عبد الواحد بن هاشم بن محمد بن هاشم بن علي بن هاشم الأسدي الحلبي، المعروف ب : ابن الخطيب ت **577هـ**[6].

4- اللحن الخفي، لابن الخطيب ت 577هـ[7].

5- وسيلة الحفي في إصلاح اللحن الخفي، لابن الخطيب ت **577هـ**[8].

6- اللحن الخفي واللحن الجلي، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن هارون الحلي البغدادي البزاز، المعروف ب: ابن الكال ت **597هـ**[9].

7- ميزان الوفي في معرفة اللحن الخفي لعز الدين أبي محمد عبد العزيز بن أحمد بن سعيد بن عبد الله الدميري المصري الشافعي المعروف بالدِّريني ت **697هـ**[10].

8- التنبيه على اللحن الجلي والخفي في القرآن والألفاظ المستكرهة، لجلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي ت **911هـ**[11].

9- تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين، لأبي الحسن علي بن محمد النوري بن سليم الصفاقسي التونسي المقرئ ت **1118هـ**[12].

10- حكم اللحن في القرآن ،لمحمد بن العربي بن إبراهيم اليعقوبي السملالي الأدوزي ت **1323هـ**[13].

ثانيا: من الناحية الفقهية:

لقد بحث بعض الفقهاء موضوع اللّحن من حيث حكمه الفقهي، وما يترتب عليه من فساد الصلاة وعدمه، وحكم اللاحن من حيث الكفر والإيمان، وعادة ما تذكر هذه المسائل في كتب الفقه في أبواب الإمامة وشروطها، وحكم القراءة في الصلاة، كما أفردها بعضهم بمؤلفات مستقلة نذكر منها:

1- زلة القاري، لأحمد بن يوسف الفارابي الحنفي كان حيا قبل **570هـ.**

2- الطاري على زلة القاري.

3- رسالة الأمير في لحن القراء ،لمحمد بن محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز المالكي الأزهري، المعروف بالأمير ت **1232هـ**.

نسخ المخطوط:

هذه الأرجوزة لها عدة نسخ[14]، والنسخة التي استطعت الحصول عليها ولم يتيسر لي غيرها هي نسخة من مكتبة ليزبج، والذي يبدو أنها غير النسخ المذكورة في الفهرس الشامل، وسيأتي بيان ذلك في وصف المخطوطة.

1- نسخة بمكتبة برلين ضمن مجموع تحت رقم (**635**) وتستغرق الأوراق(**126إلى 130**)، منسوخ بتاريخ **782هـ**.

2- نسخة مكتبة ليزبج ضمن مجموع تحت رقم (**847**)، وتستغرق ورقة واحدة (**38ب-39أ**)، منسوخ بتاريخ **791هـ**.

3- نسخة بمكتبة ببرلين ضمن مجموع رقم (**636**)، وهو أيضا ورقة واحدة من رقم(**56-57**)، منسوخة حوالي **1000ه**.

4- نسخة ببرلين ضمن مجموع رقم (**637**) وجه واحد فقط (**37ب**)، بعنوان: باب المد.

5- نسخة بمكتبة الظاهرية بدمشق ضمن مجموع برقم (**5797**) تستغرق ست أوراق من (**1-6**)، نسخت في القرن **13ه**.

وصف النسخة المعتمدة:

المخطوطة التي بين يدي هي نسخة كتبت بخط نسخي واضح في مجمله ،إلا بعض المواضع كان فيها طمس بسبب الرطوبة ،والنسخة تستغرق حوالي ست ورقات، تبدأ بعبارة " قال الشيخ الإمام الأوحد المقرئ الحافظ أبو الفضل عبد العزيز بن منجا ابن أحمد الحلبي..."، وجاء في آخرها أنها كتبت بالقدس الشريف يوم 4 رمضان من سنة **791هـ**، بيد على الحياط بن شجاع اللاذقي ثم البسطامي.

والذي يظهر أن هذه النسخة التي بين يدي تختلف عن النسخة المذكورة في الفهرس الشامل، والتي نسخت في نفس السنة، إذ أن عدد الأوراق في النسخة المذكورة لا تزيد عن واحدة (**38ب-39أ**) في حين التي عندي تستغرق حوالي ست أوراق من المجموع.

وقد اضطررت إلى الاعتماد عليها وحدها لعدم قدرتي على الحصول على باقي النسخ، فآثرت إخراجها إلى أن ييسر الله الحصول على البقية، خير من أن تضل حبيسة الخزائن لا يستفيد منها أحد.

أهمية المنظومة:

تعد هذه المنظومة من المنظومات المهمة في التجويد والتلاوة، وذلك لتركيزها على الناحية العملية في التجويد، وحصرها للأخطاء الشائعة، واللحون الذائعة في تلاوة القرآن الكريم وإتقان حروفه، وتجويدها، ومما يزيدها قيمة أنه أفرد ما يتعلق بتجويد الفاتحة بباب مستقل لأهمية الفاتحة لكونها فريضة في الصلاة، وخطورة اللحن فيها عند كثير من العلماء والفقهاء.

ولم يكن الناظم بدعا في ذلك فقد نظم بعض العلماء في تجويد الفاتحة بخصوصها منظومات مستقلة، ومن أشهرهم :

1- إبراهيم بن عمر الجَعْبري -ت**732هـ** الواضحة في تجويد الفاتحة. وهي قصيدة دالية من عشرين بيتاً بدأها بقوله:

بحمدِك ربِّي أول النظم ابتدي
وأهدي صلاتي للنبي محمدِ
وبعدُ فخُذ تجويَد أُمِّ الكتاب كي
تفوز بتصحيحِ الصلاة فتهتدي

إلى قوله:

فأنت إن حققتَ الذي قد ذكرتُه
تبُر بفرض للقراءة مُسندِ
ولا ربَّ إلا اللهُ فاعبده مُخلصاً
وصلي على خير النبيِّين أحمدِ

وقد شرحها ابنُ أُمِّ قاسم المرادي ت**749هـ** باسم "شرح الواضحة في تجويد الفاتحة"، وطُبع هذا الشرح بتحقيق الدكتور عبدالهادي الفضلي.

2- محمد بن محمود السمرقندي -ت **789هـ** تقريباً -القصيدة الفائحة في تجويد الفاتحة[15].

3- عمر بن القاسم النشَّار -ت**938هـ** - "تجويد الفاتحة"[16].

4- محمد بن علي بن طولون -ت**953هـ** - "شرح الواضحة في تجويد الفاتحة"[17].

5- يوسف بن عبدالله الأرميوني -ت**958هـ** - رسالة في تجويد البسملة[18] .

6- محمد بن سعد النوبي -كان حياً سنة **1013هـ**- شرح الواضحة في تجويد الفاتحة للجعبري[19].

7- أحمد بن علي المقيني - كان حياً سنة **1041هـ** شرح أيضاً الواضحة في تجويد الفاتحة للجعبري[20].

عملي في المخطوطة:

قدمت بدراسة للمخطوط شملت مضمونه ومؤلفه، وأهمية ما يتناوله، وكما عرفت بالكتب التي أفردت للحن، وتعرضت لنسخه، كما وصف النسخة المعتمدة في التحقيق.

وقمت بكتابة نص المنظومة بالرسم الإملائي، مع استدراك بعض ما فيه من نقص في بعض المواضع قدر الإمكان، مع التعليق على بعض المواضع التي تحتاج إلى تعليق.

3- قسم التحقيق:

بسم الله الرحمان الرحيم

قال الشيخ الإمام الأوحد المقرئ الحافظ أبو الفضل عبد العزيز بن منجا ابن أحمد الحلبي على مذهب أبي عمرو بن العلاء بن عمار المازني البصري -رحمه الله- هذه الأرجوزة الملقبة بالإتقان في تلاوة القرآن.

أَوَّلُ مَـــا نَسْتَفْتِحُ الْمَقَالَا
بِحَمْدِ رَبٍّ مَلِكٍ تَعَالَى
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الإِسْلَامِ
وَالشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَى الْإِنْعَامِ
ثُمَّ صَلَاةُ الْمَلِكِ الْقَدِيمِ
عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الْكَرِيمِ
ثُمَّ عَلَى أَصْحَابِهِ وَآلِهِ
مَا صَدَقَ الْمُؤْمِنُ فِي مَقَالِهِ
سَأَلْتَنِي وَفَّقَكَ الرَّبُّ الْوَفِيّ
أَنْ أَكْشِفَ السِرَّ عَنِ اللَّحْنِ الخَفِيّ[21]
وَالآنَ يَا سَائِلُ قَدْ أَجَبْتُكَا
فَاسْمَعْ وَكُنْ لِمَا أَقُولُ مُدْرِكَا
إِذَا اسْتَعَذْتَ قَبْلَ بِسْمِ اللهِ
فَقِفْ عَلَى الرَّجِيمِ وَإِنَّهُ اللَّاهِي
لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الكِتَابِ
وَلَمْ يَجِي الوَصْلُ عَنِ الأَصْحَابِ[22]

فَحَقِّقِ الهَمْزَ مِنْ أَعُوذُ
وَنَعِّمِ الْعَيْنَ[23] فَذَا مَجْذُوذُ
وَشَنْشِنِ الشِّينَ مِنَ الشَّيْطَانِ[24]
وَطَنْطِنَ الطَا بِلَا تَوَانِ[25]
أَجَلْ وَلَا تُشْبِعْ ضَمَّ الذَّالِ
فَيَنْشَأَ الوَاوَ بِلَا إِشْكَالِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْبَا مِنْ بِسْمِ الصَّمَدْ
خَفِيفَةٌ فَلَمْ يُشَدِّدْهَا أَحَدْ
لِأَنَّهَا ثَقِيلَةٌ فِي أَصْلِهَا
فَإِنْ تُشَدِّدْهَا تَزِدْ فِي ثِقْلِهَا
وَالرَّا لَا تَنْطِقْ بِهَا كَالْغِينِ
فَمَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ مِنْ شَيْنِ
كَقَوْلِهِ الرَّحْمَانِ وَالرَّحِيمِ
جَلَّ عَنِ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ
وَاقْصِدْ بِهَا التَّفْخِيمَ وَالتَّرْقِيقَا
قَصْدًا وَحَقِّقْ لَفْظَهَا تَحْقِيقَا
وَالحَمْدُ وَالدِّينَ فَبَيِّنْ دَالَهُ
وَاحْذَرْ مِنَ التَّاءِ وَوَفِّهِ مَالَهُ
وَاحْنَفْ مِنْ مَالِكِ يَاصَاحِ الْأَلِفْ
فَقَدْ ذَكَرْتُهُ بِلَفْظٍ مُؤْتَلِفْ[26]
وَالْيَا مِنْ إِيَّاكَ لَا تَمُدَّهَا
مِنْ بَعْدِ تَشْدِيدٍ وَحَقِّقْ حَدَّهَا
وَلَا تَمُدَّ الْكَافَ مِنْ إِيَّاكَ
اسْرِعْ بِهَا اللَّفْظَ وَرَاعِ فَاكَا
وَوَاوُ وَإِيَّاكَ فَبَيِّنْ فَتْحَهَا
مِنْ غَيْرِ تَشْدِيدٍ وَلَا تَمُدَّهَا
مِنْ بَعْدِ أَنْ تَضُمَّ دَالَ نَعْبُدُ
ضَمًّا خَفِيفًا تَهْتَدِي وَتَسْعَدُ
وَمُدَّ إِنْ وَقَفْتَ نَسْتَعِينُ
وَسَكِّنِ النُّونَ فَذَا تَبْيِينُ
وبيِّنِ الهَا ولَا تُخفيهَا
مِنِ اهْدِنَا لِمَا ذكرتُ فيهَا
وخلِّصِ الصَّاد مِنَ الخِلافِ
وخفِّفِ الطا بِلَا إِسْرافِ
كقَوله ربِّ اهْدنَا الصِّرَاطَ
واغْفِرْ لنَا جميعا الإفرَاطَ
والقَاف لَا تنطِقْ بهَا كالْكَافِ
منْ مُسْتقيم فهُو عَيْبٌ وَافِ
وجَوِّدِ الضَّادَ مِنَ المغضُوبِ
فَتركُهُ مِنْ أقبحِ العُيوبِ
والضَّادَ عندَ الظَّاءِ جَوِّد لفظَها
كَما أَتَى فِي أَنقَضَ الظَّهر بهَا
ومِثلَه يَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ
فَعُضَّ عليْهِ فَهُوَ أَمْرٌ لَازِمُ
وجَوِّدِ الجيم مع العلانيَة
إذا أَتَتْ من بَعدِ سِينٍ سَاكنَة

كَقَولِهِ لتَدخلُنَّ المسْجدَا
واسْجُد لِربِّ العالمينَا أبدَا
وبَيِّنِ الدَّال إذا مَا سَكَنتْ
من بعد جيم كتَهَجَّدْ يَا أَبتْ
ثم تُصَفِّي سِينَ إسرائيلْ
حيْثُ أَتَتْ ومُدَّ ميكائيلْ

خِيفَةَ أَن تصيرَ صَادًا مُطبقَة
وَلَمْ يَجُزْ فافهَم وفتِّش ما وافقَه
ثـم بَيَـانُ الشِّين عند الحَـاءِ
كـقـولـه يَنْهَ عـنِ الفَحشَاءِ
كَيْلَا تصيرَ الحَاءُ في مقَالٍ
عَـيـنًا ولا يَـجُـزْ ذَا بِحـالِ
كَذَا بَيانُ الشِّين عند الغِين
والخَا فاعرفْ مَخرَج الحرْفين
في مثل يغْشَا ثم يخْشَى النَّاسَ
وقِسْ عليهِ مـا أتَـى قِيَـاسَا
كيْلا تصيرَ الغيْن خـاءً مبـدَلة
والخَا غَيْنًا فـي جميعِ الأمْثِلة
والعَين بعد كُلِّ حـاء ساكنة
مُظهَـرةً عـنْ كـلِّ راوٍ ويـا[ ][27]
كَمثل فاصفحْ عَنهمْ في الزُّخْرُفِ
كيلَا تَصيرَ العين حاءً فاعرْفِ
وبين الغينَ إذا مـا سكنَتْ
عنْد لقَاءِ القَـافِ من غَيْرِ عَنَتْ
لقـولـه فـي لَا تُـزغ قُلـوبَنَا
واغفِـر لنَـا يـا ربَّنَا ذُنـوبـنَا
وكـل قـافٍ قبلِ تَـاءٍ سَكِّـنِ
مُبَيِّنًا فـي سَائِـر الأمـاكِـنِ
[كقوله][28]لا تقتُلوا أولادَكمْ
تأثَمُـوا وتُبْطِلُـوا أعمـالَكُـمْ

باب النون الساكنة والتنوين

وتُظهرِ النُّونَ مع التَّنوين
عند حُرُوفِ الحَلْق بالتَّسْكين
وهـنَّ ستة بـلا إنكـاري
فاعرفه وُقِيتِ من عذاب النار
الهـاء والهمـزة ثـم الحـاء
والعين والغين معا والخاء
ويُدغمَان في يَرمَلُون فاستمعْ
قولاً صحيحا غير هزلٍ واتَّبعْ
وبَيِّنِ النُّـونَ مـع اتِّصَـالِهَا
بالوَاوِ واليـاء لشرحِ حـالهَا
مثلَ قنـوان وصنـوان تُصِبْ
وبنيـان ودنـيا مـا يَجِبْ
لأنَّها لـوْ أُدْغمَتْ يـا قَـارِي
لالْتبسَ البنَا وحـقُّ البَـاري
واقلبْهُما ميما فـذا يَلزمُهم
عنْد لقَـاء الـبَا فـي أنبْئـهُم
كـذاَ أن بُـورِكَ بغْيًا بينَهُم
وانبَجَسَ المـاء و أنْبَأَ مِثلهُم
وأَخْفِي الجَميعَ عند باقِي الأحْرفِ
فقَد أتَـى القَوْل بهَا فَاعْرفِ

باب مد الواو

وكـل واو قبْلهَا مضْمُـومُ
سـاكِنَةً فَمَـدُّهَا مَحْتُـومُ
كـهَاجَرُوا وجَاهِدُوا فـي الله
وقـاتِلُـوا الكُفَّـارَ يَا إلاهـي
وإن أتتْ بعد انفِتَاحِ الحـرْف
ولا يُمدُّ قبْل حَـرفِ العَطـفِ
وذَاكَ فـي مثْل أتَـوا وصَلَـوا
وقل تَعالَوا إن عَصَوا وتَوَلَّوا
وإنْ أتتْ في نفسها مفتُوحَة
من بعد هَاءٍ إنَّها مَشْـرُوحَة
كما أتَى في سُورةِ الإخْلاصِ
ومثْله هـو العَنيدُ العَاصِـي
فـاخْتلِس الضَمَّة بالإتْقَانِ
ومَـا أتَى فـي سـائرِ القُـرآنِ

باب مد الياء

وكُلُّ يـاء قبلَها مكْسُورُ
سَاكنَةً فَمَدُّهَا مسطُـورُ
كالفِيلِ والتَّظْلِيلِ والسِّجِيلِ
فـمُّـدَهُ مَـدًّا بلَا تـطْـويـلِ
وإنْ أتَـتْ وقبْلـهَا مفْتُـوحُ
سَـاكنَـة فَمَـدُّهَا قَـبيحُ
كَمِثْلِ بَيتٍ فيهِ ضَيْفٌ صالِحُ
وكَيْفَ ثَمَّ لَيْتَ عُذرِي وَاضِحُ
وإنْ أتَت من بَعْد كسْرٍ لازم
مَفتُوحة فَاسْمَع كلَامَ النَّاظِمِ
كَـدِيَّة فـي سُـورَة النِّـسَا
وَشِيَّةٍ فَـاحْفظْ بِـلاَ نَسَأ
واخْتَلِسَنَّ الكسْرة واعْرِفْ حَدَّهَا
ولَا تَشُـدَّ اليَا وَلَا تَمُدَّهَـا
لأنَّـهَا كَـانَت تَصِيرُ يَـاء
بالاتِّفَـاقِ فَاحْـذَرِ الفَحْشَاء
والأَلفُ الهَاوِي تمَامَ مَا بَقِي
مِـنْ أَحْرُفِ المدِّ فَمُدَّ وارْتَقِي
كمَثَلِ شَمْسٍ جُعلَت سِترَاجَا
يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهَا وَهَّاجَا

باب المد في فواتح السور

والقَافُ والكَـافُ ولَامٌ مُلْحقَة
والنُّونُ والسِّينُ وصَادٌ مُطْبقَة
والمِيمُ مُـدَّ غَيـرَ مَـدٍّ يَكْثُـر
أعْني الحُرُوفَ عَنْ أَوَائِلِ السُّوَر
وَسَكِّـنِ الحَـرْفَ الأخِيرَ مِـمَّا
هِجَـاؤُهُ حَـرفَانِ واخْشَ الـذَمَّ
كـالطَّاءِ والهَـاءِ مَـعًا والرَّاءِ
واتَّـبِـعْ الحَـقَّ بِـلَا مِـرَاءِ
وكـلما جـاءَ مـن الثـلاثِ
مثل اهدنا واجترحوا في الجاثِ
مثل اهبطوا وامشوا معا وارتبتم
ثم اضربوه واعملوا ما شِئتم
فـابتد الهمـزة حيث تـاتي
بالكسر واعرف سائر الصفاتِ
وكـلما جـاء مـن الرباعِي
مثل اقتلوا يوسف في البقـاع
ثم انكروني واشكرُوا لي واعبدُوا
وادْعُ الإلَهَ وانفخوا ثم اسجدُوا
وما أَتى فـي أكـرمِي مثواه
ثـم اقـلـعِـي وَافْـتِـنَا رؤيـاه
فافتحْ إذا ابتدأتَ همزَ هذا
وضُمَّ ذاكَ فهوَ أصلٌ يـا ذَا

باب ترقيق اللامات

إذا أتـى فـي نفسه مقصـورَا
أو إن رأيتَ قبلـه مكسـورَا
فَرِقَّه كـلاَمِ بسم اللهِ[29]
ولامِ صـلـصـالٍ [ ][30]
واقصدْ بيانَ اللامِ عندَ الجيمِ
سـاكنةً تـأتـي ب[ ][31]
كقـولـه: تُسيَّر الجبالُ
ومثلـه الجـبـارُ والحـلالُ
وسكِّنِ اللامَ وبيِّنْ لفظَـها
في مثل: أرسلْنا وقلْنا مثلـها
والأصل أن تـرقق اللامـاتِ
جمعا وأن تفخمَ الـراءاتِ
مالم يجيء ما يوجب التغييرَا
وقد ذكرتُ مثلَه كثيرَا

باب تفخيم الراءات

وكلُّ راءٍ قبلها مضمـومُ
أو فتحةٍ فحكمها التفخيمُ
إذا أتـتْ ساكنةً يـا صـاحِ
هـداكَ ربـي سُبلَ النجاحِ
مـثـالـه مُـرتفقا وذرْهـمُ
كما أتَـى النقلُ إلينا عنهمُ
وإن أتَـتْ قبلَ عَلِيٍّ منفتِحْ
فَوَفِّها التفخيمَ أصلٌ متضحْ
في نحو مرصادا وقرطاس ذهبِ
وفِرقةٍ مؤمنةٍ يا ذَا الأدبِ
وإن أتـت مفتوحةً أو ضمتِ
ففخِّم اللفظَ بها كرَبـوةِ
ومثله ربٌ غفـورٌ فـي سبأْ
وربما ثم سراجا فـي النبأْ
وإن أتـاك بسلَّـم الكـلامِ
ففخم الـراءَ بـلا مـلامِ
وإذا أتى مِن قبلِها مكسورَا
وسُكِّنت فاتّبع المسطـورَا
مثاله اركبْ وارتضى وارتبتْمْ
وارْجع إليهم غنمـوا وطبتمْ

باب ترقيق الراءات

إذا أتى من بعد يـاءٍ ساكنةِ
فاعرف وُقيت مِسكةَ الزبانيةِ
فرقَّها فـي الوصلِ ثم الوقفِ
إن تكُ بالحفظِ وراعِ وصفِ
كـراءِ بئرٍ وخبيرٍ فافهمِ
وقِسْ عليهَ مـا أتَى واعْلمِ
وقِفْ على المرفوعِ يا رفيقِي
إن حُذفَ التنـوينُ بالترقيقِ
فقيرٌ يسيرٌ وقـديرٌ يعلـمُ
فقِسْ عليهِ فهو أصـل يُفهمُ
وإن أتت ساكنةً من قبل يـا
ففخِّم الرَا ودَعْ عنك العيَّا
فـي مثل قرية رأيت مريمَ
تلوح كالهلال في جو السَّما
وإن أتـت سـاكنةً وقبلها
كَسْرٌ فـرقِّقْها ولا تُعْلِهَا[32]
كراءِ فرعونَ وكلَّ شرنمةِ
وشبه فـردوسٍ لِكلِّ مسلمةِ
وإن رأيت بعـدهـا عَـلِـيًّا
بـاللفظِ رقـقِ لا تكن أبَيًّا
في نحو فرقٍ ثم قِسْ عليهِ
واخْشَى الإلهَ ثـم تُب إليهِ

حروف الاستعلاء

حروفُ الاستعْلا سبعةٌ في العددِ
فالخَا والغينُ وقــافٌ مطـردِ
والطَا والظا مــعًا والصــادُ
فـهــذه جميعـها والضـــادُ
وتدغمُ الـرا بـلا انفصـــامِ
إذا أتت ساكنةً فـي الــلامِ
فـهــذه أمـثـلةُ الـيـــراءاتِ
قدْ أُلِّفَتْ فـي هـذهِ الأبياتِ
وقد تقَضَّتْ مُلحةُ اللحنِ الخفي
ففِسْ عليها فهي أصلٌ واكتفِي
والحمدُ للهِ علـى الإنعــام
ومـا بـه مَـنَّ مِـنَ الإتمــامِ
ثـم صــلاةُ اللهِ والســـلامُ
علـى نبـي دينُه الإســلامُ
محمدٍ المختَصِّ بالكـرامَـةِ
وصاحبُ اللواءِ في القيامـةِ
ثـم على أصحابهِ وعِتْرتــهِ
وآلــهِ الأخيــارِ مـن ذريـتِــهِ

ورد في خاتمة هذه النسخة ما يلي:

أنجـزت الأرجـوزة الملقبـة بالإتقـان فـي تـلاوة القرآن، والحمد وحده وصـلى الله علـى سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبـه العبد الفقير إلـى الله تعـالى خويدم الفقراء على الحياط بن شجاع اللاذقي ثم البسطامي، بالقدس الشريف، اللهم اغفر لـه ولوالديه، ولمن قرأ فيه ودعا له، ولجميع المسلمين

آمين يا رب العالمين، ورضـي الله عن أصـحاب رسول الله في رابع شـهر رمضـان المعظم من شـهور سنة أحد وتسعين وسبعمائة.

هذا ما يسَّره الله تعالى من دراسة هذه المنظومـة المفيـدة والتعليـق عليهـا، وصـلى الله علـى محمد وآلـه وصحبه وسلم تسليما.

الهوامش

[1]- المعجم الوسيط (2/ 883)
2- هي أُرجوزة في النّحو، تقع في 377 بيتًا؛ ومطلُعها:
أَقُولُ مِنْ بَعْدِ افْتِتَاحِ القَول بحمد ذي الطول شديد الحول، وقد طبعت مرارا وعليها شروح متعددة.
3- انظر نصوص الأئمة الأعيان في تجويد فاتحة القرآن إعداد عمر ما لم أبه حسن المراطي، ط1، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، مصر، 2008م، ص 53.
4- الفهرس الشامل، مخطوطات التجويد 31/1، المصباح الزاهر الفقرة 1468، وقد طبع بتحقيق د/ غانم قدوري الحمد، ونشر بمجلة المجتمع العلمي العراقي، الجزء الثاني من المجلد 36، في شوال 1405ه، ثم طبع ضمن كتاب رسالتان في التجويد، لأبي الحسن السعيدي، بتحقيق د/غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1421هـ-2000م.
5- معجم المؤلفين 454/1، وانظر بشرى السعيد بمصنفات علم التجويد، د/أشرف محمد فؤاد طلعت، ط2، مكتبة الإمام البخاري، مصر، 2006، ص 99.
6- الأعلام للزركلي، 64/8، وانظر بشرى السعيد بمصنفات علم التجويد، ص 101-102.
7- هدية العارفين 503/2، وانظر بشرى السعيد بمصنفات علم التجويد ص 102.
8- الأعلام 64/8،كشف الظنون 1548/2، 2009، هدية العارفين 503/2، وانظر بشرى السعيد بمصنفات علم التجويد ص 102.
9- معجم المؤلفين 307/11، وانظر بشرى السعيد بمصنفات علم التجويد ص 102.
10- هدية العارفين 581/1، وانظر بشرى السعيد بمصنفات علم التجويد ص 106.
11- الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، معلمة العلوم الإسلامية، ص 336، وانظر بشرى السعيد بمصنفات علم التجويد ص 110.
12- الأعلام 14/5، الفهرس الشامل، مخطوطات التجويد 435/2، معجم المؤلفين 201/7، هداية القارئ ص697، وقد نشرته مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط1، 1407ه، 1984م، وطبع في تونس بتقديم وتصحيح محمد الشاذلي النيفر، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، وانظر بشرى السعيد بمصنفات علم التجويد ص 116.
13- هدية العارفين 396/2، وانظر بشرى السعيد بمصنفات علم التجويد ص 123.
14- انظر الفهرس الشامل، مخطوطات التجويد 111/1.
15- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط -مؤسسة آل البيت -ص140-المجمع المكي لبحوث الحضارة الإسلامية - الأدرن -عمان -1994م.
16- المصدر السابق ص30.
17- المصدر السابق ص115.
18- المصدر السابق ص80.
19- المصدر السابق ص115.
20- ط دار المنارة للنشر والتوزيع -جدة -ط (1) 1418هـ.
21- اللَّحنُ لغةً
...يأتي اللحنُ في اللغة على عدة معانٍ؛ أشهرها الخطأ في الإعراب، واللغة، والغناء والتطريب، والفطنة والفهم والتعريض، والتورية أو فحوى القول ومعناه
ينظر: تهذيب اللغة -أبومنصور محمد بن أحمد الأزهري، 61/5-ل-ح-ن -تحقيق عبد السلام هارون -مراجعة محمد علي النجار - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر -الطبعة الأولى 1384هـ. المحكم والمحيط الأعظم في اللغة -علي بن إسماعيل بن سيده، 258/3 ح-ل-ن -تحقيق مجموعة من الأساتذة مفرقين على عدد الأجزاء -معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية -الطبعة الأولى 1377هـ.
واللحن اصطلاحاً: هو خلل يطرأ على الألفاظ فيُخِلُّ(39).
وهو قسمان: (لحن جلي، لحن خفي).
...فإن كان خللاً يطرأ على الألفاظ يخلُّ بالمعنى والعُرف كرفع المنصوب ونصب المرفوع، وخفض المنصوب والمرفوع، أو ما أشبه ذلك، فذلك اللحن الجلي الذي يَعرِفهُ المقرئون والنحويون وغيرهم ممَّن قد شمَّ رائحة العلم.
وإن كان خللاً يطرأ على الألفاظ فيُخِلُّ برونق القراءة وحُسنِ الأداء من الإفراط في تشديد المشَدَّد وتحفيف المُخفَّف وتغليظ اللاماتِ وتشريبها الغُنَّة، وإظهار المُخفى، وتفريط المدِّ، وتغليظ الراء وتكريرها، وهذا القسم لا يعرفه إلا القارئ المُتقن، والمُجوِّد الضابط.
...ويقول علَمُ الدِّين السَّخاوي: "فأما اللحنُ الجليُّ: فهو تغيير الإعراب، والخفي هو أن لا يُوفِّي الحرف حقه وأن يقصِّر في صفته التي هي لهُ، أو يزيد على ذلك كالإفراط في التمطيط، والتعسُّف في التفكيك، والإسراف في إشباع الحركات وفي التشديد"
ينظر في موضوع اللحن الجلي والخفي-كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ص49، التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي لأبي الحسن السعيدي ص27-28، شرح القصيدة الخاقانية لأبي عمرو الداني ص148-150، والتحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو

الداني أيضاً ص80-84، الموضح في التجويد لعبدالوهاب القرطبي ص57-65، والتمهيد في معرفة التجويد لأبي العلاء الهمذاني ص237-272، وجمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدِّين السخاوي 529/2-530. النشر في القراءات العشر -للإمام محمد بن الجزري، 211/1 -أشرف على طبعه الشيخ علي الضباع -دار الكتب العلمية -بيروت. والتمهيد في علم التجويد لابن الجزري أيضاً ص75-77. الدقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية في علم التجويد -زكريا بن محمد الأنصاري الشافعي، ص56 -تحقيق د. نسيب نشاوي، تقديم د. نور الدين عتر -دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع -سوريا -الطبعة الثانية 1418هـ. المنح الفكرية على متن الجزرية -ملا علي سلطان القاري، ص85-86 -تحقيق عبدالقوي عبد المجيد -راجعه د. عبدالعزيز القاري -مطابع الرشيد -المدينة النبوية -توزيع مكتبة الدار -المدينة النبوية -الطبعة الأولى 1419هـ. الدراسات الصوتية عند علماء التجويد -د. غانم قدوري الحمد ص50-59.

22- وصل الاستعاذة بالبسملة صحيح مقروء به لكل القراء، فلا وجه لمنع الناظم ذلك.

23- (نعّم) رفهه، ونعّم الشيء جعله ناعما، ينظر: المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى.ـ أحمد الزيات.ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، تحقيق / مجمع اللغة العربية، دار الدعوة،: (2/ 935).

والمراد من تنعيم العين ترقيقها لكونها مستفالة

24- (شنشن): القرطاس أو الثوب الجديد ونحوه تحرك فصوت صوتا خفيفا.

ينظر :المعجم الوسيط: (1/ 496).

فيكون معنى كلام الناظم: صوّت بالشين صوتا خفيفا وذلك لهمسها.

25- (الطنطنة) صوت الطنبور ونحوه وكثرة الكلام والتصويت به. ينظر المعجم الوسيط (2/ 56) مادة (طنطن)

فيكون مراد الناظم التصويت القوي بحرف الطاء وذلك لاستعلائه وقوتة.

26- وهذا يجئ على رواية غير عاصم والكسائي من السبعة، وهذا مما يدل على أنه كتبها على رواية غير حفص، وحسب ما جاء في مقدمة المخطوط ،أنه نظمها على ما يوفق رواية أبي عمر بن العلاء البصري

27- طمس بالأصل

28- كلمة غير واضحة بالأصل.

29- أي رققه ومثل باللام في "بسم الله" لأن ما قبله مكسو

30- كلمة مطموسة لم اهتد لقراءتها

31- كلمة مطموسة لم اهتد لقراءتها

32- أي لا تصيرها مستعلية فتفخم.